خلاصة

مفاهيم أهل السنة

إعداد

نخبة من طلبة العلم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين أن هدانا للإسلام واتباع سنة سيد الأنام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آل بيته الطيبين، وصحبه الغر الميامين، وعنا معهم بفضله وكرمه؛ إنه سميع مجيب، أما بعد:

فما أعظم الهداية للإيمان من نعمة، وما أجزلها من هبة، وما أهنأها من عيشة نقية هنية في الدنيا والآخرة؛ قال الله عز وجل في معرض امتنانه على هذه الأمة ببعثة نبيه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وامتن علينا سبحانه بأن أكمل لنا الدين فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وأكَّد حسن هذا الدين وأحكامه الهادية للطريق المستقيم، المتضمَّنة في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وما أنعم الله على عبد بعد نعمة الإسلام بمثل ما أنعم عليه بفهم صحيح نقي لهذا الدين، وعقائده، وأحكامه، وأخلاقه، مصحوبًا بنية صالحة خالصة لله عز وجل؛ يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجَلَّ منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة. وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى» [إعلام الموقعين (١/ ٦٩)].

وحين يرى المؤمن ما تعيشه المجتمعات الكافرة المحرومة من هذه النعمة، وما هي فيه من تخبط وتناقض واضطراب وشقاء، يزداد حمده لله تعالى، وفرحه وغبطته بما أنعم به عليه؛ فرغم ما وصلت إليه هذه المجتمعات من ترف وعلم بظاهر من الحياة الدنيا إلا أنها تنحط وتهبط إلى السفول في أفهامها وموازينها ومعاييرها وأخلاقها؛ ذلك أنها مقطوعة الصلة بالله ﷻ فاطر السماوات والأرض، العالم بخلقه، اللطيف الخبير، ومقطوعة عن منهجه القويم، وهدايته سبحانه، ونوره الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة؛ ومن أمثلة العرب: «والضدُّ يُظهِرُ حُسنَه الضدُّ»، و«بضدها تتميز الأشياء».

وإن أعداء الإسلام من قديم الزمان رأوا ما منَّ الله به على المؤمنين من رسول الإسلام خير الأنام، وما أنزل عليه من الكتاب المنير الهادي إلى سواء السبيل، وقارنوه بما هم عليه من اضطراب وشقاء، فبدلًا من أن يدخلوا في دين الإسلام لينعموا بمثل ما تنعَّم به المسلمون استكبروا على الحق، وحسدوا المسلمين على هذه النعمة الجليلة التي حُرموا منها، وبذلوا جهدهم لحرفهم عن مفاهيم هذا الدين، وشنوا عليهم حروبهم العسكرية والعقدية وغير الأخلاقية طمعًا في ردهم عن دينهم؛ قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، وتوارثوا هذا الحقد والنهج جيلًا بعد جيل حتى عصرنا الحالي، ولَمَّا يئسوا من إخراج المسلمين عن دينهم توجهوا إلى إثارة الشبهات حول مسلَّمات هذا الدين ومحكماته، وعمدوا إلى تشويهها من خلال التلاعب بالمصطلحات والمفاهيم الشرعية، وصرفها عن معانيها الصحيحة وتسميتها بغير اسمها، فجاءوا بمفاهيم غريبة منحرفة أفرزتها عقائدهم الكفرية، فأضحت مفاهيم مشوهة تبعًا لمصدرها الجاهلي البشري المشوه.

ولسائل أن يسأل عن أسباب هذه الفروق العظيمة بين مفاهيم الإسلام النقية السامقة العادلة، ومفاهيم الكفر وأهله المتسمة بالظلم والانحطاط والتلوث والاضطراب في الموازين والأحكام، ونحسب أن المتأمل في المنهج الرباني وخصائصه وسماته، وفي المنهج البشري الجاهلي وصفاته، لن يجد عناءً في الإجابة على هذا السؤال المطروح، ومع ذلك فيمكن حصر الإجابة عليه في الأمور الآتية:

١ – إن مفاهيم الإسلام ربانية المصدر قرآنية المنطلق؛ فلا جرم جاءت عادلة، كاملة،

شاملة، متوازنة، نقية ومنزهة عن كل صفات النقص؛ لأنها من الله ﷻ العليم الخبير: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، المبرَّأ من كل نقص، السالم من الظلم والهوى والجهل، العالم بما يصلح لعباده في معاشهم ومعادهم، العالم بما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون.

وعلى العكس من ذلك فمفاهيم الجاهلية صادرة عن هذا الإنسان الضعيف المحدود زمانًا ومكانًا، صاحب الهوى والجهل والظلم والطغيان، المنبَتّ عن ربه وعبادته؛ فلا جرم أن جاءت مفاهيمه وتصوراته متصفة بصفاته؛ حيث الجهل، والنقص، والظلم، والتناقض والاضطراب، وعدم التوازن.

٢ – إن أي مفهوم يُطرح للناس محكومٌ بعقيدة من يطرحه في إله الكون، وفي الكون نفسه، وفي الحياة والإنسان والغاية من خلقه، ومصيره بعد الموت؛ فكل مفهوم هو مقتضى هذه العقيدة أو التصور، وانعكاس لها حسنًا أو قبحًا، سواء بسواء.

ولأن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو الذي يمدنا نحن المسلمين بالفهم والتصور عن إلهنا رب هذا الكون وخالقه، وعن الكون والإنسان والغاية من خلقه ومصيره، فهو الفهم الحق الذي يعطينا الإجابات اليقينية على كل ما سبق، بخلاف الكافرين الذين لم ينعموا بعقيدة الإسلام؛ فتصوراتهم ومفاهيمهم لا تنتج إلا عن زبالات أذهانهم ونحاتات أفكارهم، فهي تتيه في بحر من الظلمات والجهل، فضلَّتْ وشقَتْ وأضلَّتْ وأشقَتْ.

٣ – وبناء على ما سبق فالفرق الثالث والمهم بين المفاهيم الربانية والمفاهيم البشرية الجاهلية هو الفرق بين التوحيد والشرك؛ فلا تستوي مفاهيم العابد لله وحده، المتبرئ من الشرك وأهله، ومفاهيم الكافر المنقطع عن ربه ﷻ وشرعه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر:١٩،٢٠]، وكل إناء بما فيه ينضح.

٤ – وكذلك «لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينظر ما وراءها؛ لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث

أو حالة أو شأن من الشؤون؛ فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال؛ هذا يرى ظاهرًا من الحياة الدنيا، وذاك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة...وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلامُ البشريةَ إليه ويرفعها إلى المكان اللائق بالإنسان الخليفة في الأرض» [في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٥٩)].

٥ – ولئن كانت مفاهيم المسلمين تتباين وتختلف عن مفاهيم الكفار – كما سبق- بناء على فهم كل فريق لحقيقة: الربوبية والألوهية، والكون، والحياة، والإنسان، فإنه يوجد أيضًا اختلاف في مفاهيم أهل الفرقة الناجية من المسلمين عن مفاهيم الفرق المبتدعة -كالخوارج والروافض والجهمية والمعتزلة- وذلك لاختلاف مصادر الاستدلال عند الفرقة الناجية -وهم أهل السنة والجماعة- عن تلك التي لدى هذه الفرق المبتدعة، مع ما بينهم أيضًا من اختلاف في المفاهيم، وكذلك حصل الاختلاف في مفاهيمهم لاختلاف عقائدهم.

وقد يحدث اختلاف في بعض المفاهيم بين من هم في دائرة أهل السنة بسبب الاختلاف في فهم الواقع والأحوال التي يعيشونها، فيُحدِث ذلك اختلافًا في إنزال الأحكام على الأحوال، مع الاتفاق على أصل المفاهيم لدى الجميع؛ يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- وهو يبين ركني الفهم الصحيح: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: **أحدهما**: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما. **والنوع الثاني**: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر» [إعلام الموقعين (١/ ٦٩)]. فلا بد إذًا حتى يكتمل الفهم الصحيح من فهم الواقع المعاصر واستبانة سبيل المجرمين وإلا حصل الخلل في الفهم لعدم تحقيق المناط ومعرفة الأحوال.

ويبقى عائق آخر خطير يحول بين العبد وتطبيق الفهم الصحيح؛ ألا وهو: الهوى وتغليب الدنيا على الآخرة؛ إذ قد يكون الفهم شرعيًّا وصحيحًا وموافقًا لمفاهيم أهل

السنة، مع فقه بالواقع، ولكن بسبب رغبة أو رهبة يترك العبد هذا الفهم الصحيح متعمدًا ويقدم عليه مفاهيم خاطئة أو تطبيقات منحرفة، نسأل الله السلامة والثبات على الحق.

ومما سبق يمكن إجمال أسباب انحراف المفاهيم واختلافها فيما يلي:

١ - **الكفر أو الشرك بالله** ﷻ؛ وذلك يُسبِّب انحرافات كلية في المفاهيم والموازين والأحكام والمواقف؛ لأن صاحبه مقطوع عن الله ﷻ وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومقطوع عن اليوم الآخر والإيمان الحق به. ويلحق بهؤلاء: أهل البدع المكفرة المخرجة من الملة.

٢ - **البدعة غير المكفرة**؛ وذلك يُسبِّب انحرافات جزئية تنعكس على بعض المفاهيم في الاعتقاد أو العبادة أو السلوك، وإن كان أصحابها من أهل القبلة وعندهم حق وباطل.

٣ - **الجهل بالواقع وبسبيل المجرمين**؛ فهذا وإن كان المتصفون به من أهل السنة إلا أن جهلهم هذا ينعكس على بعض الأخطاء والانحرافات في بعض المفاهيم بسبب الخلل في تنزيل الأحكام.

٤ - **الهوى وحب الدنيا**؛ وذلك يتسبب في ترك الفهم الصحيح، أو الانحراف في تطبيقه عن عمد وهوى بعد معرفته ورسوخه.

لكل ما سبق تتبين لنا الأهمية القصوى لتصحيح المفاهيم، والتحذير من خطورة التلاعب بها، ومن العدول عن المصادر الربانية للفهم الصحيح إلى مفاهيم أهل الكفر والنفاق والبدع والأهواء بدلًا من ذلك، وتلقِّيها بجهل أو هوى.

ولذا فإن من أوجب الواجبات على العلماء والدعاة الذين أدركوا هذا الخطر أن يهبُّوا لإنقاذ الأمة بإذن الله تعالى من ظلمات المفاهيم المنحرفة إلى نور المفاهيم القرآنية الربانية، وأن يؤصِّلوا للناس هذه المفاهيم النقية، ويبينوا عوار المفاهيم الجاهلية وانحرافها، ويردوا على الشبهات التي يستخدمها المضللون للتلبيس بها على الناس.

ومن أجل ذلك قام إخوان لكم من طلبة العلم الذين يهمهم هذا الشأن ويؤرقهم، فبذلوا وسعهم في إخراج خلاصة للمفاهيم الإسلامية النقية وفق منهج أهل السنة، وكما دلَّت عليها نصوص الكتاب والسنة، مع التعرض للمفاهيم المخالفة المنحرفة

المغلوطة وتفنيدها والرد عليها لبيان فسادها.

وكان من المراجع في ذلك: الكتب المهتمة بتصحيح المفاهيم وبيان القواعد الشرعية التي تحكمها؛ ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وتفسير السعدي -رحمهم الله جميعًا- وبعض الكتب المعاصرة التي تُعنى بهذا الشأن ويُوثَق في منهجها وسلامة عقيدة أصحابها، ولكن لما كان الاختصار والتصرف في الصياغة هو الغالب على هذا العمل لم نحل على هذه المراجع إلا في مواطن قليلة؛ حيث حاولنا اختصار كل مفهوم بحيث يكون في ثلاثة أو أربعة أسطر، أو لا يتجاوز نصف صفحة في أغلبها، إلا في بعض المفاهيم القليلة التي قد يضطرنا توضيحها إلى التفصيل الذي قد يوصل المفهوم إلى صفحة كاملة أو يزيد.

وقد بلغ عدد مفاهيم هذه الخلاصة ألفًا ومائتين وخمسين (١٢٥٠) مفهومًا موزعة على ثلاثة عشر بابًا، وجعلنا للمفاهيم رقمًا عامًا متسلسلًا من أولها إلى آخرها، ورقمًا آخر خاصًّا بكل باب أو عنوان جامع، وأبواب هذه الخلاصة هي على النحو الآتي:

١) مفاهيم في العقيدة.
٢) مفاهيم في العبادة.
٣) مفاهيم في العلم والفقه.
٤) مفاهيم في أعمال القلوب وأمراضها.
٥) مفاهيم في الزهد والورع والسلوك إلى الله.
٦) مفاهيم في الأخلاق والآداب.
٧) مفاهيم في التربية والأسرة.
٨) مفاهيم في الدعوة.
٩) مفاهيم في الجهاد.
١٠) مفاهيم في السنن الإلهية.
١١) مفاهيم في الفتن.
١٢) مفاهيم في السياسة.
١٣) مفاهيم في الثقافة الإسلامية.

وأخيرًا فإننا لا نزعم أننا قد استوعبنا جميع المفاهيم، ولكننا بذلنا ما في وسعنا، وركزنا على ما نرى أنها مفاهيم ضرورية، أو غائبة، أو مغلوطة، ولعل الله أن يأتي بمن يكمل النقص ويسد الخلل، ونسأله ﷻ الإخلاص في القول والعمل، والحمد لله رب العالمين.

مفاهيم

في العقيدة

:

مفاهيم في العقيدة

أولا: مفاهيم حول مقدمات في العقيدة:

١ - مفهوم ١: تعريف العقيدة ومضمونها:

معنى العقيدة لغة مأخوذ من: العقد، والتوثيق، والإحكام، والربط بقوة.

والعقيدة في الاصطلاح الشرعي هي: الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك عند معتقده؛ فالعقيدة الإسلامية هي: ما يعقد عليه القلب من تصديق وإقرار بالله تعالى ووحدانيته، ووجوب طاعته، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر -وتلك أركان الإيمان الستة- ويندرج تحت العقيدة أيضًا قضايا: الإيمان والكفر والنفاق، والولاء والبراء، ويتفرع عنها الكلام عن الملل والنحل والفرق؛ ولذا ستكون المفاهيم في باب العقيدة حول هذه القضايا جميعًا.

❋ ❋ ❋

٢ - مفهوم ٢: مصادر العقيدة:

المصادر التي تعرف منها العقيدة الصحيحة هي: كتاب الله تعالى، والصحيح من سنة رسوله ﷺ ولو كانت أحاديث آحاد، وإجماع سلف الأمة؛ أي: ما أجمع عليه السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة الأولى؛ وهي القرون المفضلة التي أخبر عنها الرسول ﷺ حين سُئل: أي الناس خير؟ فقال: **(قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)** [رواه البخاري (٦٦٥٨)].

أما الإلهام، والرؤيا الصالحة الصادقة، والفراسة الصادقة؛ فكل هذه الأمور لا تعدو كونها كرامات ومبشرات -بشرط موافقتها للشرع- وليست مصدرًا للعقيدة ولا للتشريع.

❋ ❋ ❋

٣ - مفهوم ٣: العقيدة الإسلامية مغروسة في الفطرة البشرية:

العقيدة الصحيحة مغروسة في فطرة المرء منذ ولادته كما قال ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويشرِّكانه)** [رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨)]، وفي رواية لمسلم: **(لا يولد مولود إلا على هذه الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه...)** [مسلم (تحت ٢٦٥٨)]، ففي الرواية الأولى لم يذكر الإسلام مع اليهودية والنصرانية والشرك، فدل على أن

الفطرة التي يولد عليها المولود هي الإسلام كما صرَّحتْ به رواية مسلم الثانية: (**لا يولد مولود إلا على هذه الملة**). وفي الحديث القدسي: (**... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...**) الحديث [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

والذي يدل من القرآن الكريم على أن العقيدة الإسلامية مغروسة في فطرة البشر كلهم هو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣]، وهو ما يُعرف عند المفسرين وعلماء العقيدة بالميثاق المأخوذ على الذرية في ظهور بني آدم؛ فهذا الميثاق هو الفطرة والعقيدة المغروسة في النفس البشرية قبل ولادتها، ثم تُجدَّد هذه العقيدة مع الرسل الذين يبعثهم الله لا لإنشاء عقيدة أخرى مستقلة، وإنما تجديدًا للعقيدة القديمة بالتذكير بها، وتفصيل مضمونها، وإظهار مقتضياتها من العبودية لله وحده والانخلاع عن عبودية ما سواه، مع العمل الصالح، والسلوك القويم، والتوجه بكل ذلك إلى الله وحده صاحب العهد والميثاق القديم.

ثم يترتب على هذا العهد والميثاق مع الله كل العهود والمواثيق مع البشر؛ فمن يرعى العهد الأول يرعى سائر العهود؛ لأن رعايتها فريضة بموجب العهد الأول.

❊ ❊ ❊

٤ - مفهوم ٤: تناسق الفطرة البشرية مع ناموس الكون:

هذه الفطرة البشرية هي في أصلها متناسقة مع ناموس الكون، مسلمة إلى ربها إسلام كلِّ شيء وكلِّ حيٍّ. وحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس فهو لا يصطدم مع الكون فحسب، بل يصطدم أولًا مع فطرته التي بين جنبيه، فيشقى ويتمزَّق، ويحتار ويقلق.

فالله خالق النفس البشرية هو الذي أنزل إليها هذا الدين وهذه العقيدة لتحكم تصرفاتها في الكون، وهو أعلم بمن خلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤]. والفطرة ثابتة لا تتبدل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]، والدين عند الله ثابت وواحد: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، فإذا انحرفت النفوس عن

الفطرة الثابتة لم يردها إلا هذا الدين الثابت المتناسق مع الفطرة؛ فطرة البشر وفطرة الوجود.

❋ ❋ ❋

٥ - مفهوم ٥: العقيدة بين العقل والنقل:

لا بد أن يتوافق العقل الصريح مع النقل الصحيح [القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية]؛ إذ لا يتعارض قطعيان أبدًا، وإذا ظهر تعارض بين العقل والنقل فإما أن يكون العقل فاسدًا غير صريح، أو أن النقل غير صحيح. وعند توهُّم التعارض يُقدَّم النقل؛ فيجب اعتقاد ما يثبته النقل وإن حار العقل في فهمه؛ حيث قد تأتي العقيدة بما يحار فيه العقل، ولكنها لا تأتي بما يُحيله العقل.

ولا يُعارض شيء من الكتاب أو السنة الصحيحة -ولو كانت حديث آحاد- بعقل ولا قياس، ولا ذوق، ولا كشف، ولا قول شيخ أو إمام، ونحو ذلك.

❋ ❋ ❋

٦ - مفهوم ٦: الالتزام بالألفاظ الشرعية في العقيدة:

يجب الالتزام بالألفاظ الشرعية في العقيدة وتجنب الألفاظ البدعية. والألفاظ المجملة في العقيدة المحتملة للصواب والخطأ يُستفسر عن المعنى المراد منها، فما كان حقًّا أُثْبتَ بلفظه الشرعي، وما كان باطلًا رُدَّ.

ومن الألفاظ التي يتداولها الفلاسفة ومن ينفون الصفات عن الله ولم ترد في الكتاب ولا السنة: الجسم، الجوهر، الحيز؛ فالواجب في مثل هذه الألفاظ أن نقول: إنها لم ترد لا في الكتاب ولا في السنة، وإنما نُثبِت ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، وننفي ما نفاه الله وما نفاه رسوله ﷺ، كما ننفي كل ما يقتضي النقص وننزه الله عنه.

❋ ❋ ❋

٧ - مفهوم ٧: ما تنشئه العقيدة من تصورات:

ما غُرِستْ العقيدة الصحيحة في فطرة الإنسان إلا لأنه يحتاج إليها لتعمر قلبه وتنبثق منها تصوراته وأفعاله، وتقدم له التفسير الشامل لحياته ومصيره، وللكون من حوله، ولعلاقته هو والكون بالله الخالق الأعلى:

- فأول ما تنشئه هذه العقيدة من تصور هو: إدراك حقيقة الرب، وحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان؛ ما يشاهده فيه وما يغيب عنه، وحقيقة الحياة التي ينتسب إليها

بحاضرها وغيبها، وأخيرًا: إدراكه لحقيقة نفسه التي بين جنبيه، وغاية وجوده ومصيره.

- ومن آكد ما تنشئه العقيدة من تصور: اتخاذ الله وحده إلهًا، ونفي الألوهية عن أي شيءٍ غير الله تعالى؛ فتكون العبودية لله وحده لا لأحد سواه.
- ومن التصورات أيضًا: إدراك أن الحكم يكون لله وحده، ولا يكون لأحد من عباده.
- كما ترسم العقيدة للمرء أهدافًا أكبر من ذاته، وأعم من جيله، وأسمى وأرفع من واقعه.
- وهي تربط هذه الأهداف بذات الله الأعلى الذي يتلقى المرء عنه نظام حياته، ومنهج فكره وسلوكه، وشعائر عبادته، ويدرك أن لله عليه الرقابة والسيطرة.
- والمرء مع هذا كله يحب ربه صاحب هذا النظام وهذه الرقابة والسيطرة، ويوالي فيه ويعادي فيه، ويخشاه ويتقي غضبه، ويطلب رضاه، ويسأله عونه على الخير والبر، ويستحي من مواجهته بالشر، ويرجو جزاءه العادل الذي يعوض عليه ما يفوته في صراعه مع الشر في الحياة الدنيا.
- ومما تنشئه العقيدة أيضًا: إدراك أن الأهواء والعواطف تحكمها العقيدة لا العكس.
- وأخيرًا، فإن هذه العقيدة تقرر حقيقة التسليم لخيار الله في كل أمر؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨]، فلا يملك أحد أن يقترح على الله شيئًا، ولا أن يزيد أو ينقص، أو يُعَدِّل أو يُبَدِّل في خلقه شيئًا؛ فالله هو الذي يختار من خلقه من يشاء لما يشاء من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات.

ولو استقرت هذه الحقيقة في نفوس البشر لما سخط الناس شيئًا يحل بهم، ولا استخفَّهم شيء ينالونه بأيديهم، ولا أحزنهم شيء يفوتهم؛ فليسوا هم الذين يختارون، بل الله هو الذي يختار. وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإراداتهم ونشاطاتهم ولا يأخذوا بالأسباب المشروعة، ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع بعد أن يبذلوا ما في وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار، فيتلقوا بذلك كل ما يقع لهم بالرضا والتسليم والقبول، فليس عليهم إلا ما في وسعهم، والأمر والخيار لله وحده.

* * *

٨ - مفهوم ٨: تعليم العقيدة والتربية عليها:

تعليم العقيدة ليس مجرد تزويد الطلاب بمعلومات نظرية تُحفظ في الأذهان إلى حين يؤديها الطلاب في أوراق الامتحانات، ثم تُطوى بعدها وتنسى ولا يكون لها أثر في الواقع؛ فأخذ العقيدة على هذا النحو لا يحتاج أكثر من بضعة أشهر تمتلئ فيها الأذهان بالمعلومات وينتهي الأمر عند هذا الحد.

إنما ينبغي أن يكون تعليمها ترسيخًا لعقيدة تُعقد عليها القلوب، ويربى عليها المرء، وتتميز بها الأعمال والمواقف، ويُجاهد في سبيلها حتى تتغير النفوس ويكون الدين كله لله. ومثل هذا التعليم يحتاج إلى وقت طويل وصبر كبير، وهذا هو ما قام به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فلنا فيهم أسوة حسنة في كونهم يبدؤون بدعوة الناس إلى العقيدة، ويسعون إلى ترسيخها في قلوبهم، حتى إذا امتلأت القلوب بمحبة الله وتعظيمه، والخوف منه وإجلاله، جاءت الأوامر والنواهي، والحلال والحرام، فصادفت قلوبًا مستعدة للتسليم والطاعة والانقياد.

❊ ❊ ❊

٩ - مفهوم ٩: ارتباط السلوك والأخلاق بالعقيدة:

إذا تربَّى المرء على العقيدة كما سبق ارتبط سلوكه في الحياة الدنيا بهذه العقيدة التي تربَّى عليها؛ حيث:

- إفراد الله بالعبادة والتلقِّي عنه يتبعه الإحسان إلى البشر ابتغاء وجه الله ورضاه، والتعلق بثوابه في الآخرة، ومعرفة أن العبد لا ينال إلا من عطاء الله ولا ينفق إلا من رزقه عَزَّ وَجَلَّ.
- بينما الكفر بالله واليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر، والبخل والشح، وكتمان فضل الله وجحود نعمته، فلا تظهر آثارها في إحسان ولا عطاء ولا إنفاق لأنه لا يرجو الله ولا اليوم الآخر.

وهكذا تحدِّد العقيدة أخلاق الإيمان وأخلاق الكفر. ومن الأمثلة التطبيقية الظاهرة على ارتباط سلوك المؤمنين بالعقيدة: ما حكاه الله تعالى عن أتباع نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ والملك طالوت: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً

كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥٠]؛ فكأنهم وهم في ساحة الوغى يشرحون متن العقيدة، ويوضحون كيفية الارتباط بالله تعالى، ودعائه والتوكل عليه! فطيِّب الله أفواههم وبارك سلوكهم.

***

١٠ – مفهوم ١٠: التركيز على العقيدة لا يعني إهمال ما سواها:

لا يعني القول بضرورة التركيز على العقيدة إهمال جوانب الدين الأخرى، بل لا بد أن يكون لها أيضًا نصيب من الاهتمام والتعليم والتربية عليها؛ فلا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس أحكام دينهم من عبادات ومعاملات، وتحذيرهم من فساد الأخلاق والسلوكيات، وحثهم على فضائلها؛ فيسير كل هذا جنبًا إلى جنب مع تعليم العقيدة والتربية عليها.

***

١١ – مفهوم ١١: حرية الاعتقاد:

قول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، لا يعني الإذن بالكفر، إنما هو تهديد ووعيد بالعذاب الأخروي لمن اختاره بعد بيان الحق؛ بدليل قوله بعدها: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، فهو صريح في الوعيد والتهديد، وفيه بيان أن الكفر ظلم: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾. والله ﷻ لا يأذن بالكفر ولا يرضى به؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧].

ولكن عدم الإذن بالكفر لا يعني الإكراه على الإيمان والدين الحق؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، والإكراه على اعتقاد الحق غير متصورٍ أصلًا؛ لأن الاعتقاد محله القلب الذي لا يطلع على ما فيه إلا الله سبحانه، كما أن من تكريم الإنسان تمييزه عن الحيوانات بالفكر والإرادة، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، مع تحميله تبعة عمله ومحاسبته في الآخرة: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ولا يتعارض عدم الإكراه على الإيمان مع قتال الكافرين المأمور به في غير ما آية من آيات كتاب الله تعالى؛ كقوله ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة:٣٦]، وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة:١٢٣]، لا يتعارض عدم الإكراه على الإيمان مع هذا القتال لأن قتالهم المقصود منه منع الشرك من الظهور في العلن ومنع الاستعلاء به، والإلزام بحكم الإسلام وشرائعه في واقع الحياة، فإن التزم الكفار بذلك وقصروا شركهم على أنفسهم ولم يدعوا إليه، وأدوا شعائرهم في معابدهم دون إظهار وإعلان، وخضعوا لحكم الله، فلا يُمنعون من ذلك -إلا في جزيرة العرب حيث يمتنع عليهم استيطانها- وعليهم الجزية وحسابهم على الله.

وغير خافٍ أن المسلمين لا يمكنهم تطبيق ذلك الحكم بهذا التفصيل إلا في حال العز والتمكين، أما عند ضعفهم وهوانهم وزوال حكمهم في الواقع فسيكون الظهور حينئذ للكفر ومناهجه الضالة التي قد يسمح بعضها للمسلمين بأداء شعائرهم التعبدية وإقامة شرائعهم في الأحوال الشخصية فقط دون سائر أمور الحكم والسياسة.

وقد يشتد أمر الكفر ويطغى علوه في أزمنة وأمكنة مختلفة فيمنع حتى الشعائر التعبدية للمسلمين وأحكامهم في الأحوال الشخصية؛ كما حدث من قبل إبَّان سقوط الأندلس وقيام النصارى وقتها بما يسمى «**محاكم التفتيش**»؛ حيث تتبعوا المسلمين وفتشوا عما في قلوبهم، وأجبروهم على اعتناق النصرانية وإلا يلاقون التعذيب الرهيب والموت والإبادة الجماعية، وكما فعل الشيوعيون إبَّان الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي سابقًا، وكما يفعل حاليًا كثير من الهندوس والسيخ في الهند، والبوذيون في ميانمار، والصينيون الشيوعيون في إقليم الإيغور.

❋ ❋ ❋

١٢ – مفهوم ١٢: الوسطية في العقيدة:

١) عقيدة المسلمين وسط بين ما يعتقده اليهود وما يعتقده النصارى في أمور عديدة:

أ – فالمسلمون آمنوا بالرسل، وعزَّروهم، ووقروهم، وأحبوهم، من غير أن يعبدوهم أو

يتخذوهم والصالحين أربابًا من دون الله كما فعلت النصارى، ولا أن يجفوهم كما جفى اليهود وكذبوا الأنبياء وقتلوهم وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس.

ب – والمسلمون يتوسطون في الحلال والحرام فيُحلُّون ما أحلَّه الله ويحرِّمون ما حرَّمه، أما اليهود فقد حرَّموا على الله النسخ في التكليف، وبظلم منهم حُرِّمت عليهم الطيبات كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٦٠]، أما النصارى فقد أحل لهم عيسى عليه السلام بوحي من الله بعض الذي حُرِّم على بني إسرائيل فتمادوا واستحلُّوا كثيرًا من المحرَّمات طاعة لأحبارهم ورهبانهم؛ كما قال تعالى فيهم: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٢٩]، وقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١].

ج – وفي أسماء الله تعالى وصفاته وصف المسلمون ربهم بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ، ولم يُشَبِّهوا الله بخلقه ولا عطَّلوا عنه صفاته سبحانه، بينما شبَّه اليهود -عليهم من الله ما يستحقون- الله بخلقه ووصفوه سبحانه بالفقر وغُلَّة اليد، والتعب واللغوب -تعالى الله عما يقولون عُلوًّا كبيرًا- وشبَّه النصارى المخلوق بالخالق؛ فألَّهوا عيسى عليه السلام ونسبوا له الخلق والرزق والمغفرة.

٢) وكما أن عقيدة المسلمين وسط بين ما يعتقده اليهود وما يعتقده النصارى فإن أهل السنة والجماعة من المسلمين وسط في أبواب الاعتقاد بين الفرق الضالة في الإسلام:

أ – فأهل السنة والجماعة وسط في أسماء الله وصفاته بين المعطلة نفاة الصفات والمشبهة الذين يُشبِّهون الله سبحانه بخلقه؛ فهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ؛ من غير تعطيل، ولا تشبيه، ولا تكييف، ولا تأويل، ولا تحريف.

ب – وأهل السنة في باب القدر والمشيئة وسط بين (القدرية) نفاة القدر الذين يقولون: إن الله لا يعلم الأمور قبل وقوعها، أو لا يُقدِّر الشر، أو ينفون إرادة الله وخلقه لأفعال عباده، و(الجبرية) الذين ينفون عن العبد الاختيار والمشيئة؛ أهل السنة وسط بين هذين الطرفين؛ فهم يؤمنون بقدر الله ومشيئته التامين، وأنه سبحانه يعلم الأمور قبل وقوعها، ويقدِّر الخير والشر جميعًا -لكن لا ينسبون إلى الله وصف الشر سبحانه؛ لأنه يقدِّره وفق حكمته وعلمه التامين-

ويؤمنون أنه لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاء، كما يُثبت أهل السنة للعبد قدرةً ومشيئةً واختيارًا يحاسب عليها، ولكنها جميعًا تحت قدرة الله ومشيئته واختياره المتعلق بحكمته وعلمه سبحانه.

ج - ونظرة أهل السنة والجماعة للفساق أهل الكبائر من المسلمين وسط بين الوعيدية (الخوارج والمعتزلة)، والمرجئة؛ فهم عند أهل السنة فساق بكبيرتهم - ما لم يتوبوا- ولكن معهم أصل الإيمان وبعضه -كلٌّ بحسبه- وليسوا كاملي الإيمان، وهم تحت مشيئة الله: إن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم، وإن دخلوا النار فليسوا بخالدين فيها ومآلهم إلى الجنة، وإن تابوا في الدنيا توبة نصوحًا تاب الله عليهم وبدَّل سيئاتهم حسنات، وصاروا مثل المؤمنين الصالحين.

بينما يكفِّر الخوارج أصحاب الكبائر، ويجعلهم المعتزلة في منزلة بين المنزلتين - أي بين الكفر والإيمان- ويشتركان في تخليدهم في النار؛ لكنهم عند المعتزلة في دركة في النار أخف من دركة الكفار.

أما المرجئة فيقولون: إن إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء، ولا يضر مع الإيمان ذنب ولا معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة؛ لأن الإيمان عندهم هو التصديق فقط.

د - وأهل السنة وسط في أصحاب النبي ﷺ، يترضُّون عليهم جميعًا، ويثبتون لهم الفضل والسابقة على ما أثبته لهم الرسول ﷺ، وعلى ما رتَّبهم في الأفضلية، ولا يُغالون في أحد منهم. أما الشيعة الروافض فقد قدَّموا عليًّا رضي الله عنه على جميع الصحابة، ولم يثبتوا الفضل إلا لخمسة من الصحابة فقط، وكفَّروا سائرهم، وغالى بعض الروافض في عليٍّ رضي الله عنه فرفعوه فوق مرتبة الأنبياء، ومنهم من ألَّهه. وأما الخوارج فكفَّروا عليًّا وعثمان رضي الله عنهما، واستحلوا دماءهما، ولم يروا لسائر الصحابة فضلًا على من سواهم.

وبالجملة، فأهل السنة والجماعة وسط في سائر أبواب الاعتقاد بين الفرق الضالة جميعًا.

* * *

ثانيًا: مفاهيم عامة حول الإيمان بالله تعالى:

١٣ - مفهوم ١: المقصود بالإيمان بالله تعالى:

الإيمان بالله تعالى يتضمن أربعة أمور:

أ - الإيمان بوجود الله تعالى. ب - الإيمان بربوبية الله تعالى.

ج - الإيمان بألوهية الله تعالى. د - الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وهذا كله مشمول بقولنا: «**لا إله إلا الله**».

* * *

١٤ - مفهوم ٢: أول واجب على المكلفين:

الإيمان بالله تعالى بمعناه السابق هو أول واجب على المكلفين عند أهل السنة والجماعة، وهو أمر فطري فطر الله الناس عليه.

ورغم أن الإيمان بالله أمر فطري إلا أن المتكلمين -كالمعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة- يرون أن أول واجب على المكلف هو النظر والاستدلال، وبعضهم يزعم أن أول واجب هو الشك؛ لأنه يؤدي إلى قصد النظر، وبعضهم يجعل غاية الإيمان ومحصلته: العلم بحدوث العالم وقدم الصانع. وكل ذلك باطل؛ لأن معرفة الله والإيمان به مركوز في الفطر، فالواجب هو تحقيق ذلك في الواقع دون الحاجة إلى اشتراط الاستدلال عليه؛ فكثير من عوام الناس لا يعرف الاستدلال والنظر ولا يحسن ذلك.

* * *

١٥ - مفهوم ٣: الإيمان بوجود الله تعالى:

جل البشر يُقِرُّون بوجود إله للكون، ولكن كثير منهم يشركون في هذا الإقرار بأن يجعلوا الإله اثنين أو أكثر؛ فيشركون مع الإله الحق آلهة أخرى باطلة. ولا يقر بتوحيد الله تعالى إلا الأنبياء والرسل وأتباعهم.

أمَّا منكرو وجود الإله بالكلية فكانوا قلة على مر الزمان، ولم تعرف كثرتهم إلا في العصر الحديث، ويُطلَق عليهم حاليًا الملحدون، وأغلبهم من الشيوعيين أتباع كارل ماركس، وبدأ عددهم يزداد في المجتمع الغربي، وبعضهم لا ينفي وجود الإله ولا يثبته ويقول: «لا أدري هل يوجد إله أم لا»، ولكن حتى لو وُجد إله في نظرهم فلا دخل له

بزعمهم في حياتهم، وهؤلاء يُسمَّون: «**اللا أدرية**» أخذًا من قولهم: لا أدري.

والإيمان بوجود الله وتوحيده مع إدراكه بالفطرة يدل عليه أيضًا:

١ – **العقل**: فكل متأمل للنظام المحكم الذي يسير عليه الكون بكل ما فيه يدرك أنه لا مجال بحال للصدفة في هذا الأمر، وأن إحكام الصنع يدل على وجود الصانع خالق هذا الكون ومدبره، وأن هذا الخالق هو الرب والإله المستحق وحده للعبادة.

٢ – **الوحي**: فالقرآن الكريم بإعجازه التام في شتى المجالات: البلاغة، والعلم، والتشريع، والأخبار يدل على أنه من عند الله، وهو مليء بالدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده.

٣ – **الحس**: مثل ما أجراه الله على يد أنبيائه من معجزات فوق طاقة البشر، وما يُرى من استجابة دعوات أنبيائه وأوليائه فور انتهائهم منها؛ كما حصل من نزول المطر بُعيد استغاثة الرسول ﷺ؛ فمن الذي يجيب هذه الدعوات؟!

* * *

١٦ – مفهوم ٤: توحيد الله تعالى يكون من وجهين:

توحيد الله تعالى يكون من وجهين:

فالوجه الأول: توحيد الله تعالى في أفعاله وصفاته؛ حيث أفعال الله ﷻ لا يشاركه فيها أحد من مخلوقاته؛ وهذا يُسمَّى توحيد الربوبية، وكذا صفاته سبحانه لا تشبه صفات أحد؛ وهذا يسمَّى توحيد الأسماء والصفات. فهذا الوجه يشمل نوعين من التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، ويُسمَّى أيضًا: التوحيد العلمي الاعتقادي، أو التوحيد العلمي النظري، أو توحيد المعرفة والإثبات.

والوجه الثاني: توحيد العباد لله تعالى بأفعالهم هم؛ أي توحيد قصدهم وعبادتهم إلى الله ﷻ وحده، وهذا الوجه يشمل توحيد الألوهية، ويُسمَّى أيضًا: توحيد القصد والطلب، أو التوحيد العملي.

* * *

١٧ – مفهوم ٥: أقسام التوحيد:

وفق المفهوم السابق فقد قسَّم العلماء التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١ – توحيد الربوبية (توحيد الله ﷻ بأفعاله).

٢ – توحيد الألوهية (توحيد الله ﷻ بأفعال العباد).

٣ – توحيد الأسماء والصفات.

❋ ❋ ❋

١٨ – مفهوم ٦: الدعوة إلى التوحيد:

الدعوة إلى التوحيد هي الدعوة إلى إخراج الناس من العبودية والدينونة لغير الله تعالى إلى عبادة الله وحده والدينونة الكاملة له، والبراءة مما يُعبد من دونه؛ فلا يصرفون العبادة لغير الله، كما أنهم لا يتوجهون إلى الله بالألسن والشعائر التعبدية فقط من غير توجه القلوب إليه سبحانه وتلقِّي التشريعات عنه ﷻ والانصياع الكامل لها؛ بل يوحدون الله بالألسن والشعائر والقلوب والانصياع الكامل لأحكامه؛ وهذا هو مدلول قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

❋ ❋ ❋

١٩ – مفهوم ٧: في توحيد الله تحرر مما سواه:

في توحيد الله تحرر مما سواه؛ فما بتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في القيم والقوانين والشرائع التي تُصرِّف الحياة؛ لا تحرر وفي قلب الإنسان دينونة لشيء مما ذُكر وتعلُّق أو تطلع أو عبودية لغير الله؛ ولهذا فالتوحيد هو الصورة الوحيدة لتحرر الإنسان الحق في هذه الحياة.

فالتوحيد يمنع الشرك وتعدد الآلهة، والتوحيد يقضي على اتباع أي أعراف، أو عادات، أو تقاليد، أو أحكام تخالف ما أنزل الله.

❋ ❋ ❋

٢٠ – مفهوم ٨: في التوحيد تحول من الفوضى إلى النظام:

الإيمان بالله وتوحيده هو نقطة التحول في حياة البشر من العبودية لشتى القوى والأشياء والاعتبارات إلى عبودية واحدة لله الواحد المتعالي؛ عبودية ترتفع بالنفس فوق كل شيء

وكل اعتبار دنيوي، وتنقله من فوضى التيه والتشتت إلى النظام وتَوَحُّد القصد والهدف؛ إذ بدون التوحيد لا تعرف البشرية لنفسها قصدًا مستقيمًا ولا غاية مطردة، ولا تعرف نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد ومساواة كما يتجمع الوجود كله وينتظم بالخضوع لإرادة الله الواحد القهار وفق نواميسه وسننه المطردة؛ قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢].

فكلمة «**لا إله إلا الله**» منهج حياة كامل يشمل الجانب الاعتقادي، والجانب التعبدي، والجانب السلوكي العملي من حياة المرء، والقلب لا يستقر ولا يطمئن إلا بالتوحيد؛ حيث يدرك أنه لا محبوب لذاته إلا الله، ولا مراد لذاته إلا الله، وأن كل ما يحب ويراد سوى الله فإنما ينبغي أن يكون تابعًا لمراد الله ومحبته؛ فكل شيء منتهاه في الحقيقة إلى الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]. فليس وراءه سبحانه غاية تُطلب أو يكون إليها المنتهى.

* * *

٢١ – مفهوم ٩: كلمة «لا إله إلا الله» ودلالتها:

كلمة «**لا إله إلا الله**» منهج حياة كامل يشمل الجانب الاعتقادي، والجانب التعبدي، والجانب السلوكي العملي من حياة المرء، وهي أعظم كلمة أنزلت من عند الله لأنها تضمنت الدين الذي جاء به الرسل كلهم من عند الله تعالى؛ فهي الحقيقة الكبرى التي يصبح الناس بها مؤمنين وكافرين، أخيارًا وأشرارًا، وهي شهادة بتفرد الله بالوحدانية وبراءة من الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩].

* * *

٢٢ – مفهوم ١٠: الطرق الموصلة للعلم بأنه: «لا إله إلا الله»:

يقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، ولهذا العلم بهذه الكلمة العظيمة طرق ووسائل من أهمها:

١ – تدبر أسماء الله تعالى وصفاته الدالة على كماله وعظمته؛ فإنها تثمر حسن التأله والتعبد لله الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

٢ – العلم بربوبية الله وتفرده بالخلق والتدبير؛ وذلك يثمر إدراك تفرده باستحقاق الألوهية.

٣ – العلم بأنه موهب النعم الدينية والدنيوية على حد سواء، الظاهرة والباطنة؛ فيثمر ذلك تعلُّق القلب بالله، ومحبته.

٤ – معرفة أوصاف الأوثان والأنداد من دون الله، وإدراك أنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ فالعلم بكل ذلك يثمر إدراك أنه «لا إله إلا الله» وبطلان ما سواه.

٥ – ملازمة تدبر كتاب الله تعالى؛ فذلك يثمر العلم التام بوحدانية الله وإفراده بالعبادة.

٦ – النظر في هدي الرسل والأنبياء وإخلاصهم في توحيد الله وعبادته.

٧ – النظر في آيات الله المشاهدة في الأنفس والآفاق؛ فكلها تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتشهد بوحدانية الصانع وبديع صنعه في الكون.

فكل طريق من هذه الطرق يوصل إلى العلم بأنه: «لا إله إلا الله»، فكيف بها إذا اجتمعت وتواطأت! عندها يرسخ الإيمان في قلب العبد المؤمن والعلم بمدلول كلمة التوحيد.

* * *

٢٣ – مفهوم ١١: صفاء التوحيد ودقته ونقاؤه:

التوحيد أصفى شيء وأدقه وأنقاه، فأدنى شيء يخدشه ويؤثر فيه ويذهب بهاءه، ولكن من الناس من يكون توحيده كبيرًا عظيمًا ينغمر فيه كثير مما يشوشه من: لفظة، أو لحظة، أو شهوة خفية؛ كالماء الكثير الذي لا يحمل الخَبَث، فيغتر بذلك من كان توحيده أدنى من صاحب التوحيد العظيم، فيخدش توحيده بمثل هذه الخوادش والمشوشات، فيؤثر ذلك فيه تأثيرًا بليغًا.

كما أن صاحب التوحيد الصافي ينتبه مبكرًا إلى ما يدنس توحيده –ولو كان ضئيلًا– فيعالج ذلك سريعًا، ويرجع عما وقع فيه؛ وذلك كان حال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والسلف الصالح من بعدهم، وقد قيل عنهم: «إن القوم قلَّت ذنوبهم فعرفوا من أين أُتُوا»، وأظهر مثال على ذلك: عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عارض صلح الحديبية وراجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، ثم لم يلبث أن ندم أشد الندم على ذلك، ولم يزل يتصدق ويصوم ويصلي ويعتق مخافة هذه المعارضة وكفارة عنها. بينما لا يدرك ضعيف الإيمان والتوحيد مثل هذا الإدراك، فلا يرجع عمَّا يفعله مما يخدش توحيده.

كما أن صاحب التوحيد القوي والمحاسن الكثيرة يُسامَح بها لا يُسامَح به من ليس له مثل هذا التوحيد وهذه الحسنات.

فلينتبه المرء إلى توحيده، وليحافظ عليه من كل ما يخدشه حتى يفوز بثمرة التوحيد الكبرى: النجاة من النيران والفوز بالجنان.

* * *

٢٤ - مفهوم ١٢: من آثر الدنيا فسد مقصده وخالف سلوكه مقتضى التوحيد:

مما يؤسف له أن بعض الناس قد يرث علم السلف ويعتقد عقيدتهم نظريًّا، لكن انصراف همته للدنيا وإيثاره لأيٍّ من زينتها وزخارفها يخرجه عما ورثه ويصرفه إلى ضلالٍ في التصورات وانحراف في السلوك -شعر بذلك أم لم يشعر- وبينما هو ينعى على أهل العقائد البدعية بدعهم يوقعه الشيطان في بدع من جنس آخر من قبيل موالاة أهل الباطل والتهوين من باطلهم، فيصبح مرقاة وسلمًا لعلو الطغاة وأصحاب الأهواء.

فكل من آثر الدنيا على الآخرة من أهل العلم لا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة منهم الذين لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه، فيوقع حب الدنيا من يُفتن بها من أهل العلم في رد الحق وتلبيسه وإخفائه ممالأة لأصحاب الرياسات والأهواء، وخشية من فوات حظه من الدنيا؛ كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف:١٦٩]، فأخبر سبحانه أنهم يأخذون العَرَض الأدنى -وهو العَرَض الدنيوي- مع علمهم بتحريمه عليهم، ويقولون: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، وهم مصرون على ما هم عليه ويكررونه: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾، ويحملهم ذلك على أن يخالفوا الحق ويقولوا على الله غيره عوضًا عن أن يجهروا به ويدافعوا عنه. [ينظر الفوائد لابن القيم، ص ١٠٠، ١٠١].

* * *

٢٥ - مفهوم ١٣: شروط الانتفاع بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله»:

كلمة التوحيد هي الشرط الأول والسبب الرئيس لدخول الجنة؛ كما قال ﷺ: («**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة**) [رواه مسلم (٢٧)]، ولكن لا بد من تحقيق شروطها حتى تدخل المرء الجنة؛ قيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة «**لا إله إلا الله**»؟ قال بلى، وليس مفتاح إلا وله أسنان؛ فمن أتى الباب بأسنانه فتح له، ومن لم يأته بأسنانه لم يفتح له. فأسنان المفتاح هي شروط هذه الكلمة، وهي:

١ - **العلم** بمعناها المنافي للجهل بذلك؛ قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، وقال ﷺ: (**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**) [رواه مسلم (٢٦)].

٢ - **اليقين** المنافي للشك والريبة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [الحجرات:١٥]، وقال ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: (**من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**) [رواه مسلم (٣١)]. أما المرتاب فهو من أهل النفاق كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥].

٣ - **قبول** القلب واللسان لهذه الكلمة وما تقتضيه، وعكسه الإنكار والإعراض والاستكبار، وهو فعل الكافرين؛ فقد أنكروا ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص:٥]، واستكبروا عن قبولها كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥].

٤ - **الانقياد** لما تدل عليه الكلمة وما تقتضيه؛ وهو الإسلام الذي يعني الاستسلام لله تعالى وأوامره؛ قال عز وجل: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [لقمان:٢٢]، والعروة الوثقى هي كلمة التوحيد، وتمام الانقياد وغايته: تقديم محاب الله وإن خالفت الهوى، وبغض ما يبغضه الله وإن مال إليه الهوى.

٥ - **الصدق** في قولها المنافي للكذب؛ وذلك أن يقولها صدقًا من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، والكذب هو ادعاؤها مخادعة لله والمؤمنين، وهو حال المنافقين كما قال

تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:٨-١٠]، وقال ﷺ: (**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار**) [رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢)].

٦ – الإخلاص: وهو تصفية قولها بصالح النية عن شوائب الشرك، وألا يكون من وراء النطق بها غرض آخر غير قصد قائلها لربه؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقال ﷺ: (**إن الله حرَّم على النار من قال: «لا إله إلا الله» يبتغي بذلك وجه الله**) [رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم بنحوه (٣٣)].

٧ – محبة هذه الكلمة وما تدل عليه وتقتضيه، ومحبة أهلها العاملين بها، وبغض ما يناقضها؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

❊ ❊ ❊

٢٦ – مفهوم ١٤: حسن خاتمة من ختم كلامه في الدنيا بكلمة التوحيد:

قال النبي ﷺ: (**من كان آخر كلامه من الدنيا «لا إله إلا الله» دخل الجنة**) [رواه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١/ ٣٥١، ٥٠٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي]، وسر ذلك -والله أعلم- أن لشهادة أنه «**لا إله إلا الله**» عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادةٌ من عبد موقن بها، عارف لمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وأقبلت بعد إعراضها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستسلمت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق؛ أذلَّ ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه، فكانت تلك الشهادة الخالصة لله خاتمة عمله، فطهَّرته من ذنوبه وأدخلته على ربه ومولاه بموافقة ظاهره لباطنه، وسره لعلنه. [ينظر الفوائد لابن القيم، ص ٥٥].

❊ ❊ ❊

٢٧ - مفهوم ١٥: دلالة اسمي (الواحد) و(الأحد) والفرق بينهما:

من أسماء الله الحسنى: (الواحد) و(الأحد)، وقد ورد ذكرهما في الكتاب والسنة؛ فورد اسم (الواحد) في القرآن أكثر من عشرين مرة، ومن ذلك مثلًا قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]، أما اسم (الأحد) فلم يرد إلا في قول الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].

ويدل الاسمان الجليلان على وحدانية الله تعالى، ولكن بينهما الفرقين الآتيين:

١ - في حالة النفي: الاسم **(أحد)** أعم من الاسم **(واحد)**؛ فإذا قيل: «ما في الدار واحد» فقد يقصد أن هناك اثنان أو أكثر، أما إذا قيل: «ما في الدار أحد» فيدل ذلك على نفي وجود الجنس كليًّا.

٢ - في حالة الإثبات: لا يصح وصف شيء بالاسم (أحد) إلا الله تعالى؛ فلا يقال: رجل أحد، ولا ثوب أحد، بينما يجعل اللفظ (واحد) وصفًا لأي شيء أريد؛ فيقال: رجل واحد، وثوب واحد.

والخلاصة أن الله الواحد الأحد هو الذي تفرَّد بالربوبية والألوهية، كما أن اسم **(الأحد)** يدل على نفي أي شريك لله ﷻ.

* * *

ثالثًا: مفاهيم عامة حول الشرك بالله سبحانه:

٢٨ - مفهوم ١: تعريف الشرك:

الشرك هو عبادة غير الله، ولو مع عبادة الله تعالى، ولهذا فهو أخص من الكفر الذي غالبًا ما يطلق على الجحود؛ كمن يجحد وجود الله تعالى، أو يجحد أي أمر من عند الله، أو أي حق من حقوقه سبحانه. فالشرك أخص من الكفر، والكفر أعم منه؛ فكل شرك كفرٌ وليس كل كفر شركًا.

ومن الشرك؛ بل هو أعلاه وأعظمه: ادعاء أحد المخلوقين الألوهية أو الربوبية من دون الله، وزعمه الاتصاف أو الاختصاص بحق من حقوق الله تعالى؛ كالنمرود حين قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فأفحمه نبي الله إبراهيم عليه السلام بما لا يقدر عليه فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ

يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وكفرعون حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨]، وقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤]؛ فنسب إلى نفسه الألوهية والربوبية، فكان من أشد المشركين بالله تعالى.

وربما ادعى البعض الربوبية بلسان الحال دون المقال كما يدَّعي بابوات النصارى أنهم يملكون حق التحليل والتحريم، وحق منح صكوك الغفران ودخول الجنان، وكمن يُشرِّع اليوم في الحكومات الطاغوتية ما لم يأذن به الله فيحل ما حرَّم الله أو يحرِّم ما أحل الله؛ سواء كان هذا المشرع فردًا، أو مجلسًا تشريعيًّا، أو دستورًا، ...إلخ.

* * *

٢٩ - مفهوم ٢: الشرك يكون في أركان العبادة الأساسية:

الشرك يكون في الأركان الأساسية للعبادة بمفهومها الشامل:

- التقرب والتوجه والتنسك.
- الطاعة والاتباع والتشريع.
- المحبة والولاء والنصرة.

١ - فمن شرك التقرب والتنسك: ما فعله قوم نوح عليه السلام من عبادة التماثيل التي صُنعت للصالحين منهم بعد وفاتهم؛ قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]، وفي صحيح البخاري أن هذه في الأصل «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا [تماثيل]، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلمُ عُبِدَتْ» [رواه البخاري (٤٩٢٠)]. وقد ظلت عبادة هذه الأصنام وانتقلت إلى العرب قبل الإسلام، وكان لكل قبيلة صنم من هذه الأصنام يعبدونه من دون الله [ينظر حديث البخاري السابق في أوله] وأضاف إليها عمرو بن لُحي الخزاعي أصنامًا أخرى كاللات والعزى ومناة وهبل.

ولا يزال هذا الشرك قائمًا في عصرنا الحديث؛ فيعبد البوذيون تمثال بوذا ويتقربون

إليه، وللهندوس والسيخ آلهة متعددة، والصوفية غارقة في هذا اللون من شرك العبادة للعديد من الأولياء والصالحين والطواف حول قبورهم، والذبح لهم، وغير هؤلاء من الأمم الضالة كثير.

٢ - أما شرك الطاعة والاتباع والتشريع فوقعت فيه البشرية من قديم الزمان أيضًا؛ ففي الحديث القدسي: (**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**) [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

- ووقع في هذا الشرك أيضًا أهل الكتاب باتباعهم لأحبارهم في التحليل والتحريم؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، وقد تعجَّب عدي بن حاتم ﵁ من الآية -وكان نصرانيًّا قبل إسلامه- وقال: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم! فقال ﷺ: (**أجل، ولكن يحلون لهم ما حرَّم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه؛ فتلك عبادتهم لهم**) [رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣)].

- ووقع فيه العرب أيضًا قبل الإسلام كما ذُكِرَ عنهم في سورة المائدة من اتخاذهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي؛ قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة:١٠٣]، وكما جادلوا المسلمين في حكم أكل الميتة بقولهم: «ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم أكلتموه؟!» [رواه النسائي (٤٤٤٩)، وأبو داود (٢٨١٨)، وصحَّحه الألباني وشعيب الأرناؤوط]؛ وذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]؛ حيث أوعزت فارس إلى قريش أن يجادلوا الرسول ﷺ في حكم أكل الميتة، فذكرت الآية أن طاعة كفار قريش في ذلك شرك.

- وفي واقعنا المعاصر يقع كثير من الناس في شرك الطاعة والاتباع من خلال التحاكم إلى غير شرع الله عن علم واختيار، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ

وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

– والحضارة الغربية تتخذ الهوى البشري إلهًا تعبده من دون الله وتتبعه باسم الحرية، أو حقوق الإنسان، ...إلخ.

٣ – أما شرك المحبة والولاء والنصرة فهو ما نراه اليوم من حمية الجاهلية لروابط أرضية يعقد على أساسها الحب والولاء والبراء؛ كالحمية للوطن، أو القوم، أو الجنس؛ وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤].

* * *

٣٠ – مفهوم ٣: الشرك ينافي تعظيم الله ﷻ:

يتلاعب الشيطان بالمشركين فيصور لهم شركهم بالله أنه تعظيم له سبحانه وطلب للقرب منه؛ لأن الله بزعمهم أعظم من أن يتجهوا إليه مباشرة بالعبادة والدعاء، فيُوسِّطون بينهم وبينه الوسطاء ليقربوهم منه سبحانه؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨] فسمَّى الله ﷻ فعلهم شركًا، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣] فأكذبهم الله ووصمهم بالكفر، فمن اعتمد في باب التعظيم على هواه بغير هدى من الله زلَّ وضلَّ ضلالًا بعيدًا، وقد أمرنا الله ﷻ بالتقرب إليه مباشرة دون وسطاء فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

فالشرك يحبط العمل، وينافي تعظيم الله تعالى، ويدل على عدم تقدير الله حق قدره؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٥–٦٧].

* * *

٣١ - مفهوم ٤: الشرك أعظم الظلم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: (**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**)» [رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦)].

والشرك أعظم الظلم لأنه وضع للعبادة في غير ما وضعت له، وصرف لها أو لشيء منها عن الله عز وجل الخالق المدبر، رب العالمين ورازقهم، المستحق وحده لجميع العبادات، إلى مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا. فمضمون الشرك هو تنقيص رب العالمين سبحانه، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]؛ فهو مناقض للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين والاستكبار عن طاعته وعن الانقياد لأوامره التي لا صلاح للعالم إلا بها.

* * *

٣٢ - مفهوم ٥: فتنة الشرك وضرره:

لما كان الشرك بالله أعظم الظلم ترتب عليه الآتي:

١ - إحباط العمل؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

٢ - منع مغفرته إلا بالتوبة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

٣ - إيجاب الخلود في النار؛ قال تعالى عن المشركين المتخذين أندادًا يحبونهم كحب الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

* * *

٣٣ - مفهوم ٦: التوسل:

الوسيلة المأمور بها في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥] هي ما يُقرِّب إلى الله تعالى من الطاعات المشروعة. والتوسل ثلاثة أنواع:

١ - **توسل مشروع**: وهو التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أو بعمل صالح من المتوسل، أو بدعاء الحي الصالح؛ كما طلب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الله للمسلمين بنزول الغيث [ينظر الحديث في صحيح البخاري (١٠١٠، ٣٧١٠)]، والذي يدل على أنه توسل بدعاء الحي لا بذات الشخص: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر أنهم كانوا يتوسلون إلى الله لنزول الغيث في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعائه وصلاته للاستسقاء، فلما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتوسل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما لجأ إلى عمه العباس ليدعو لهم.

٢ - **توسل بدعي**: وهو التوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بما لم يرد في الشرع؛ كالتوسل بذوات الأنبياء والصالحين، أو جاههم وكرامتهم ونحو ذلك.

٣ - **توسل شركي**: وهو اتخاذ الأموات والأنداد وسائط في العبادة، ودعاؤهم، وطلب الحوائج منهم، والاستعانة بهم، والذبح والنذر لهم، ونحو ذلك.

❋ ❋ ❋

٣٤ - مفهوم ٧: الطاغوت:

❖ الطاغوت مشتق من الطغيان الذي هو مجاوزة الحد؛ تقول: طغى الماء؛ أي: فاض وتجاوز الحد، وطغى البحر: هاجت أمواجه، وطغى فلان: أسرف وتجاوز الحد في العصيان، أو الظلم والتجبر، أو الكفر.

❖ والطاغوت في اصطلاح الشرع هو: «كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله».

❖ وقد ورد لفظ «الطاغوت» في القرآن الكريم في ثماني آيات كلها تفيد ما ذُكر من

معنى الطاغوت وتعريفه، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء:٦٠] وأفادت هذه الآية أن ما يُتحاكم إليه مما يخالف شرع الله من دساتير وقوانين وضعية هي من الطواغيت.

- والطاغوت قد يكون بشرًا؛ مثل فرعون وكل من يعبد من دون الله وهو راضٍ بذلك، وقد يكون قبرًا أو صنمًا وتمثالًا يعبد من دون الله، وقد يكون شيئًا معنويًا؛ مثل فلسفة اليونان القديمة أو الدساتير والأحكام المتبعة من دون الله؛ كالياسق الذي وضعه جنكيز خان، والقوانين الوضعية المعاصرة المخالفة لشرع الله. ويندرج تحت ذلك أيضًا الشعارات المعاصرة التي يوَالى ويعادى عليها من دون الله تعالى؛ كالوطنية، والقومية، والنسوية، والديموقراطية وحكم الشعب، والقوانين الدولية، ...إلخ.
- والشيطان رأس الطواغيت؛ فغايته غواية بني آدم كما أقسم -لعنه الله- على ذلك: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص:٨٢،٨٣]، وقد حذرنا الله تعالى من طاعته وسمَّى ذلك عبادة للشيطان؛ قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس:٦٠].

* * *

٣٥ - مفهوم ٨: الشرك الأصغر:

- الشرك الأصغر هو ما جاء في النصوص الشرعية تسميته شركًا ولكنه لم يصل إلى حد الشرك الأكبر المخرج من الملة، ومن أمثلته: التطير، والحلف بغير الله؛ قال النبي ﷺ: **(من حلف بغير الله تعالى فقد أشرك)** [رواه أحمد (٥٣٧٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وغيرهما، وصحّحه الألباني (صحيح الجامع ٦٢٠٤)].
- ومن الشرك الأصغر أيضًا قول: «لولا الله وفلان لحدث كذا وكذا»، وقول: «ما شاء الله وشئت»؛ فقد قال النبي ﷺ لمن قال له ذلك: **(جعلتني لله عدلًا، بل ما شاء الله**

وحده) [رواه أحمد (٢٥٦١)، وحسَّنه الأرناؤوط في تخريجه للمسند]، وفي رواية أخرى: (أجعلتني لله ندًّا؟) بدلًا من (عدلًا) [أخرجها البخاري في الأدب المفرد، وصحَّحها الألباني].

❖ ومن الشرك الأصغر أيضًا: الرياء؛ فقد سمَّاه النبي ﷺ بذلك وحذَّرنا منه؛ قال ﷺ: (**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**) قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: (**الرياء...**) الحديث [رواه أحمد (٢٣٦٣٦)، والبيهقي: شعب الإيمان (٦٨٣١)، والبغوي: شرح السنة (٤١٣٥)، وحسَّنه الأرناؤوط]، كما سمَّاه ﷺ أيضًا: (**الشرك الخفي**) [أخرجه أحمد (١١٢٧٠)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسَّنه الألباني (صحيح الجامع ٣٧٢٩)]. ويسمى الرياء شركًا خفيًا لأن المرء يقع فيه دون أن يدري؛ فهو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، وهو من أمراض القلوب الخطيرة المحبطة للعمل؛ لأنه من إرادة الدنيا بعمل الآخرة، وقد ورد في الحديث أن أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة: أحدهم قارئ للقرآن، والثاني مقاتل، والثالث منفق جواد، وادَّعوا فعل ذلك في سبيل الله فأكذبهم الله وذكر أنهم فعلوا ذلك ليقال: قارئ، وشجاع، وجواد، فكانوا أول من تُسعَّر بهم النار [ينظر: سنن النسائي (٣١٣٧)، وصحَّحه الألباني].

❖ وينبغي ألا يستهان بمثل هذه المعاصي لوصفها بالشرك الأصغر؛ فإنما سميت كذلك مقارنة بالشرك الأكبر المخرج من الملة، وإلا فهي من كبائر الذنوب المحبطة للعمل.

❋ ❋ ❋

٣٦ - مفهوم ٩: خطأ دعوى زوال الشرك واستقرار العقيدة:

يتوهم البعض أن بعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن قد زال بهما الشرك واستقر التوحيد، فلا داعي إذًا للبدء في الدعوة بالعقيدة ما دامت موجودة ومستقرة.

وجواب ذلك أن الذي زال ببعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن هو إطباق الجاهلية على أرجاء المعمورة في الزمان والمكان؛ فلن تزال العقيدة الصحيحة في نواحٍ من الأرض وإن غابت عن نواحٍ أخرى، وهذا لا ينفي ظهور الشرك وانتشاره في أماكن عديدة من الأرض، بل حتى في بعض ديار المسلمين؛ حيث يظهر فيها في مجالات عديدة مثل:

- انتشار الطواف حول القبور، والاستغاثة بالأولياء وطلب شفاعتهم، والذبح والنذر لهم.
- اعتقاد عصمة الأولياء والمشايخ، وعلمهم الغيب، وقضائهم للحوائج.

- ذهاب الناس إلى الكهنة والسحرة وأهل الشعوذة سعيًا لمعرفة الغيب، وفك السحر، واستعانة بهم بعد الاستجابة لمطالبهم الشركية الشيطانية.
- تنحية شرع الله عن الحكم في جل بلاد المسلمين، وتحاكم الناس بدلا من ذلك إلى الطاغوت الظالم الجاهل، وعلو نجم الفكر العلماني التحرري المزعوم.
- قيام ولاءات أكثر الناس اليوم على غير العقيدة من: جنس، أو وطن، أو قوم، ...إلخ. بل انعقد الولاء لأعداء الله من اليهود والنصارى، وغيرهم من أهل الشرك والإلحاد.

والقرآن نفسه يقرر حقيقة بقاء الشرك وانتشاره بين عموم الناس رغم ظهور الحق وكثرة أهله؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

فهل بعد هذا كله مجال لقول من يقول: إن عقيدة الأمة بخير، وإن الحديث حول مسائل العقيدة أمر مبالغ فيه؟!

* * *

٣٧ - مفهوم ١٠: الاهتمام بالآثار بين الاتعاظ والشرك:

تُولي الدول اليوم آثار الأمم السابقة عناية فائقة، فتُعظِّمها وتُحييها، وتجعلها مجالًا للسياحة والزيارة، وتخصص لها المتاحف. وتصنف هيئة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة كثيرًا من آثار الأمم ومناطقها على أنها من التراث العالمي الذي تحميه ما تسمَّى بالقوانين الدولية. فما هو الموقف الصحيح من هذه الآثار؟

ليُعلم أولًا أن الله تعالى إنما قصَّ علينا أخبار من سبق من الأمم وأبقى آثار بعضهم لنعتبر بذلك؛ فلا نعصي الله، ولا نكذب الرسل كما فعلت هذه الأمم؛ قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥٨]، وقال تعالى عن قوم صالح لما مكروا وعقروا الناقة: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل:٥١-٥٢]، وقال تعالى لفرعون عند هلاكه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩٢].

أما أن تُتَّخذ هذه البيوت والمساكن والآثار مزارًا وسياحة للترفيه فتلك سمة الغافلين ومن لا يأخذون العبر من الأحداث؛ فقد مرَّ رسول الله ﷺ ومعه صحابته على مدائن صالح في غزوة تبوك فقال لهم: (**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم**) [رواه البخاري (٣٣٨١)، ومسلم (٢٩٨٠)]، وفي رواية للبخاري في آخر الحديث: (**ثم قنَّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي**) [البخاري (٤٤١٩)].

وأما ما يكون من هذه الآثار ذريعة للشرك -ككثير من الأصنام الباقية، والمشاهد والقبور المشرفة، والأضرحة والمزارات التي تتخذ كلها حاليًا وسيلة للشرك بالله تعالى- فالواجب هو عدم الاحتفاء بها، بل إزالتها وتحطيمها سدًّا لذريعة الشرك، ولنقتدي في ذلك بنبي الله إبراهيم عليه السلام الذي جعله الله أمة وأمرنا بالاقتداء به؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١]، ثم قال بعدها: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣]، وإبراهيم عليه السلام لما رأى قومه يعبدون الأصنام حطمها: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء:٥٨] أي: قطعًا صغيرة. وتسوية القبور وتحطيم الأصنام هو ما أمر به الرسول ﷺ أصحابه؛ فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الهيَّاج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته» [رواه مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، وأحمد (٧٤١)، وغيرهم].

فالواجب على دعاة الإسلام أن ينكروا الاحتفاء بالأصنام والآثار، وينبهوا المسلمين إلى خطورة ذلك، وإن اعترض من اعترض، وإن هاج وماج ما يسمى بالمجتمع الدولي رفضًا لذلك؛ فلا سكوت أو تسامح -ولو يسير- في أمور الشرك، وقد حدث مثل ذلك في أول هذا القرن الميلادي حين حكمت حركة طالبان أفغانستان أول مرة ففجَّرتْ وقتها الأصنام الضخمة المنحوتة في الجبال فقامت الدنيا عليهم ولم تقعد، وأنكرت الأمم المتحدة ذلك بشدة، فلما ذهب وفد من علماء المسلمين هناك لتقصي الأمور وبصَّرتهم حركة طالبان بأن هذه الأصنام تعبد حقيقة من دون الله من عوام الناس، وتطلب الحوائج منها، وتعلق التمائم على الأشجار عندها، فعندها لم ينكر عليهم العلماء وأيدوا فعلهم.

وإنما ننكر الاحتفاء بالأصنام لكونها ذريعة للشرك كما أسلفنا ولأسباب أخرى مثل:

١ – أن العبادة ليست محصورة في الركوع والسجود والدعاء؛ فتعظيم ما حقه التحقير هو نوع من العبادة؛ وهل وضع الأصنام في المتاحف إلا احتفاء بها وتعظيم لها؟!

٢ – ولو سلمنا أن هذه التماثيل تراث إنساني، فليس كل تراث يحترم ويعظم؛ فلم يعبد الكفار أصنامهم إلا لأنها تراث خلَّفه الآباء والأجداد، فعظموها وعبدوها.

٣ – في تعظيم وسائل الشرك وآثار الأمم الهالكة تشجيع لزيارتها والسياحة إليها، وقد نُهينا عن دخول أماكن المعذبين، وأُمِرنا إن اضطررنا لدخولها أن نجتازها باكين مسرعين خشية أن يصيبنا ما أصابهم كما أسلفنا من قول الرسول ﷺ.

٤ – وأخيرًا: نقول لمن يتمسك بتعظيم هذا التراث ويدَّعي أن ذلك عمل حضاري: أأنتم أعلم أم رسولنا ﷺ حين بعث عليًا رضي الله عنه بتحطيم كل ذلك؟! فإن أبى المتخاذلون ذلك وسمُّوا عدم الاحتفاء بهذه الآثار تخلفًا حضاريًّا وفكرًا جامدًا، وأصروا على تقليد الغرب في ذلك نحيلهم على ما فعلته النمسا حين هدمت بيت هتلر في يوليو ٢٠١٦م، وعلَّلتْ ذلك بأن اليمين المتطرف اتخذه مزارًا ملهمًا لأفكارهم، فهل النمسا وهابية أو إرهابية؟! وكذلك هدم الإيطاليون منزل موسوليني وأدًا للتطرف اليميني ومظاهره، أفلا يكون المسلمون أولى بالتمسك بشرائع دينهم وتحطيم ذرائع الشرك وامتثال أمر نبيهم؟! اللهم اهد أمة الإسلام، وأزل عنها ما وقعت فيه من غربة بلغت بها حد أن يفتخر البعض بانتسابه لجاهلية قومه الأولين؛ كما يفعله بعض المصريين من تسمية أنفسهم بالفراعنة ويفتخرون بحضارتهم رغم أن فرعون هو من أعظم طواغيت العالم، وكما يفتخر بعض الفلسطينيين بالانتساب إلى العماليق بقايا عاد ويقول: «نحن شعب الجبارين» قاصدًا بذلك من قال عنهم بنو إسرائيل لموسى عليه السلام حين أُمِروا بدخول بيت المقدس: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة:٢٢].

* * *

رابعًا: مفاهيم حول توحيد الربوبية:

٣٨ - مفهوم ١: معنى الرب:

يطلق الرب في اللغة على: المالك المتصرف، والسيد، والمدبر، والمربي، والمصلح، والقيم. ولا يطلق غير مضاف لشيء إلا على الله تعالى؛ كما قال ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥]، أما إذا وصف به غير الله تعالى فلا بد من أن يضاف؛ فيقال: رب الدار، ورب الدابة؛ أي مالكها المتصرف فيها. [ينظر: النهاية لابن الأثير (٢/ ١٧٩)، والمفردات للراغب الأصفهاني مادة (رب)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (رب)].

وأكثر استعمال القرآن للفظة «رب» في حق الله تعالى، وورد معظمها بالإضافة؛ كما قال ﷻ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم:٦٥]، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦]. وهو وصف لله ﷻ يتضمن المعاني اللغوية المذكورة للرب؛ فربوبية الله للعالم بكل ما فيه تتضمن: تصرُّفه فيه، وتدبيره له وإصلاحه، ونفاذ أمره كل وقت فيه؛ فهو سبحانه مع العالم في كل ساعة في شأن: يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل؛ فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، ويقوم به كل شيء في الكون؛ فأمر الكون كله متصرَّف بمشيئة الله وإرادته. [ينظر الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/ ١٢٢٣)].

* * *

٣٩ - مفهوم ٢: النهي عن إطلاق اسم الرب على غير الله تعالى:

نهى النبي ﷺ العبد أن يقول لسيده: «ربي»؛ قال ﷺ: (**لا يقل أحدكم: أطعم ربَّك، وضِّئ ربَّك، وليقل: سيدي، ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي، أَمَتي، وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي**) [رواه البخاري (٢٥٥٢)].

والسبب في النهي عن ذلك هو أن حقيقة الربوبية إنما تكون لله تعالى؛ لأن الرب هو المالك القائم بالشيء، ولا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى وحده.

أمَّا ما لا تعبُّد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يُكره إطلاق الربوبية على مالكها؛ فيصح أن يقال: رب الدار، ورب الفرس، ورب الثوب، ...إلخ.

٤٠ - مفهوم ٣: اسم «الرب» من أعظم المدائح التي يمدح الله ﷻ نفسه بها:

اسم «الرب» من أعظم المدائح التي يمدح الله ﷻ نفسه بها؛ فقد امتدح نفسه بأنه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، وهو: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم:٦٥]، وقال: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وهو: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦]؛ إلى آخر الآيات التي ذكر فيها اسم «الرب» لله ﷻ؛ فكلها في سياق مدح الله وتعظيمه.

❋ ❋ ❋

٤١ - مفهوم ٤: اسم «الرب» من أكثر الأسماء التي يدعى بها الله ﷻ:

لما كان الرب هو مربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وهو المربي على وجه الخصوص لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم؛ لما كان الأمر كذلك كان أكثر دعاء أنبياء الله وأصفيائه وأوليائه بهذا الاسم الجليل؛ حيث صدَّروا أدعيتهم به:

- فقال آدم ﵇ وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣].
- وقال نوح ﵇: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح:٢٨].
- وقال موسى ﵇: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف:١٥١].
- وقال يوسف ﵇: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣]، وقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].
- وقال زكريا ﵇: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨].
- وقال سليمان ﵇: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥].
- وقال عباد الله الصالحون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

وكان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يدعو باسم «الرب»، ويمجده ويعظمه به؛ فمن ذلك:

- قوله ﷺ: **(ألا أدلك على سيد الاستغفار؟ اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك...)** [رواه البخاري (٦٣٠٦)].

- وقوله ﷺ إذا أخذ مضجعه: (**اللهم رب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء...**) [رواه مسلم (٢٧١٣)].

- وقوله ﷺ في صلاة الليل: (**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل**) [رواه مسلم (٧٧٠)].

- وقوله ﷺ عند الكرب: (**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم**) [رواه البخاري (٦٣٤٥)].

فكل هذا يدل على تضمن هذا الاسم لمعانٍ عظيمة، ولأَجْلِها يُدعى الله به.

❋ ❋ ❋

٤٢ - مفهوم ٥: الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم هو التوحيد:

الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم هو ما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومليكهم؛ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وليس المقصود بالآية أن الله احتج عليهم بما أقروا به وقت استخراجهم من ظهر آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم بذلك -على ما قال به البعض- ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع يشهد أن هذا العهد والميثاق لا يذكره أحد ولا يخطر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر؟! فدلَّ ذلك على أن المقصود به هو ما أودعه الله في فطرهم عند ولادتهم من التوحيد؛ كما قال ﷺ: (**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويشرِّكانه**) [رواه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨)، وينظر تفسير السعدي للآية].

❋ ❋ ❋

٤٣ - مفهوم ٦: الشرك في الربوبية:

أقر أكثر المشركين بربوبية الله عز وجل ولم ينكروها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:٦١]، ومع إقرارهم بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق المدبر وقعوا في الشرك في الألوهية وعبدوا غير الله.

ولكن بعض المشركين وقعوا في الشرك في الربوبية مع شركهم في الألوهية؛ فمنهم:

- **النصارى**؛ وذلك لاعتقادهم أن عيسى عليه السلام يغفر الذنوب ويخلص الناس منها، ويدبر الأمر مع الله في الرزق وسائر أمور العباد.
- **المجوس** الذين أسندوا حوادث الخير إلى النور، وأسندوا حوادث الشر إلى الظُّلْمة.
- **عبَّاد الكواكب والأجرام العلوية** الذين يعتقدون تدبيرها لأمور العالم؛ كالصابئة.
- **طائفة من غلاة الصوفية** يزعمون أن الأولياء، أو أرواحهم بعد مماتهم، يتصرفون في تدبير أمور العالم وقضاء حوائج الناس، ولهم في ذلك تُرَّهات وادعاءات باطلة مريبة، ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان؛ فالعالم عندهم يُدبِّره الغوث أو القطب الأعظم -وهو ولي من أولياء الله بزعمهم- يليه وزيران، ثم الأوتاد؛ وهم أربعة يمسكون العالم من جوانبه الأربعة، ثم الأبدال؛ وهم سبعة؛ في كل قارة من قارات الأرض السبعة واحد منهم... إلى آخر ما يزعمونه من هذه الترهات والسخافات التي ما أنزل الله بها من سلطان؛ يدَّعون بها تحكم هؤلاء في العالم وتدبير أمره، وهذا لا شك من أكبر الشرك، وهو شرك في الربوبية لم يأت به حتى المشركون الأوائل من أهل الجاهلية، وهو يوجب لهم عدم الغفران والخلود في النيران.
- ومن الشرك في الربوبية: الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأن الحكم من خصائص الرب عز وجل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦].

* * *

٤٤ - مفهوم ٧: ثمرات توحيد الربوبية:

للإيمان بتوحيد الربوبية ثمرات جليلة عديدة؛ من أهمها:

١ - تعريف الناس غايتهم التي خلقوا من أجْلِها، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم بتلقي ذلك من ربهم؛ لأن رب العالمين لا يليق به أن يترك عباده هَمَلًا ولا يعرِّفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

٢ - تحقيق توحيد الأسماء والصفات؛ لأن الرب لا بد أن يكون: حيًّا، قيومًا، خالقًا، قادرًا، عليمًا، سميعًا، بصيرًا، مُريدًا، وقل مثل ذلك في سائر أسماء الله وصفاته العليا.

٣ - الرضا بحكم الله وشرعه؛ لأن الإقرار بربوبية الله عز وجل هو رضا بما يقسمه الله للعبد

ويُقدِّره عليه، وذلك يستلزم أيضًا الرضا بما يشرعه ويأمر به، والانتهاء عما ينهى عنه.

٤ – محبة الله ﷻ وشكره، وتعظيمه وإجلاله؛ لأن الخلق مفطورون على محبة من يصلحهم ويرزقهم ويحسن إليهم؛ فذلك يورث في قلب العبد حب الله وحب ما يحبه ومن يحبه، وبغض ما يبغضه ومن يبغضه، والمسارعة إلى مرضاته، وتعظيمه، وإجلاله، وشكره وحمده.

٥ – التوكل على الله في الأمور كلها؛ فمن يوقن أن الله هو الرزاق المدبر، وأنه على كل شيء قدير يمتلئ قلبه بالتوكل عليه سبحانه في جميع أموره.

٦ – اللجوء إلى الله والتضرع إليه حال الشدائد والملمات؛ لليقين أنه هو وحده مدبر الأمر، النافع الضار، مفرج الكربات وقاضي الحاجات.

* * *

٤٥ – مفهوم ٨: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية:

ومن أعظم لوازم توحيد الربوبية: الاستدلال به على توحيد الألوهية، لذا أُفردت بمفهوم مستقل؛ ذلك أن الرب الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن، والذي يملك وحده التصرف فيها وتدبير أمورها هو وحده الذي يستحق أن يُعبَد ولا يُشرك معه أحد في ذلك؛ ولهذا جاءت الآيات بالاستدلال بالربوبية على الألوهية وإنكار الشرك في عبادة الله تعالى بعد الإقرار بالربوبية؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ [النمل:٥٩-٦٠]، وعلى النسق نفسه جاءت بقية الآيات حتى الآية ٦٤؛ وهي قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢]. ومثل هذه الآيات التي يستدل فيها بالربوبية على الألوهية كثير؛ كما في: [البقرة:٢١-٢٢]، و[النحل:١٧]، و[المؤمنون:٨٨-٩٠]، و[الزمر:٣٨].

خامسًا: مفاهيم حول توحيد الألوهية:

٤٦ - مفهوم ١: معنى الألوهية واسم «الله»:

الهمزة واللام والهاء (أله) أصل واحد يدل على التعبد [معجم مقاييس اللغة مادة (أله)]، والإله بمعنى المألوه؛ أي: المعبود؛ يعبده الخلق ويؤلهونه.

واسم «الله» مشتق -على رأي كثير من العلماء- من «إله»؛ دخلت (ال) التعريف عليه فحذفت الهمزة؛ مثل «أناس» لما دخلت عليها (ال) حذفت الهمزة وصارت الكلمة: «الناس»؛ فالله سبحانه هو المألوه أي: المعبود المستحق وحده للعبادة.

وقد قيل: إن اسم «الله» جامد غير مشتق، لكن الأرجح اشتقاقه من «إله» كما أسلفنا لدلالته على صفات الإلهية؛ أي صفات الإله المستحق للعبادة.

واسم «الله» هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى؛ ولهذا تنسب سائر الأسماء الحسنى إليه كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف:١٨٠]، ولا يضاف هو إليها؛ فنقول: «الرحمن»، و«الرحيم»، و«القدوس» -إلى آخر الأسماء الحسنى- من أسماء الله تعالى، ولا نقول: «الله» من أسماء «الرحمن» مثلًا أو من أسماء «العزيز». فعلم أن اسم «الله» مستلزم لجميع الأسماء الحسنى ومعانيها ودالٌّ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم «الله».

❊ ❊ ❊

٤٧ - مفهوم ٢: الفرق بين الأسماء: «الله»، و«الرب»، و«الرحمن»:

أسماء: «الله»، و«الرب»، و«الرحمن» كلها تدل على ذات الإله المستحق وحده للعبادة والطاعة المطلقة، وهي أسماء تنطبق عليها قاعدة: «**إذا افترقت اجتمعت، وإذا اجتمعت افترقت**»، أي: إذا افترقت هذه الأسماء وذُكِرَ كل اسم منها منفردًا عن الآخَرين فإنه يدل على معنى الاسمين الآخرين ويتضمنهما، أما إذا اجتمعت الأسماء في الذكر -أو اجتمع اثنان منها معًا- فذكرت في موضع واحد افترقت عندها الأسماء في معانيها، واختص كل اسم منها بمعنى مستقل ومقصود:

- فاسم «الله» يختص بالإله المعبود المألوه، الذي يجب أن يوحده العباد بأفعالهم؛ ولذا

فصفات الجلال والجمال والعظمة أخص بهذا الاسم الجليل.

- واسم «الرب» ينصرف إلى المالك، المتصرف، القادر، الخالق، المدبر، المحيي المميت؛ ولذا فجُلُّ صفات الفعل الخاصة بالرب هي أخص بهذا الاسم الحكيم.

- واسم «الرحمن» ألصق به صفات: الإحسان، والجود، والبر، والحنان، والمنة، والرأفة، وكل ما يفيد الرحمة.

* * *

٤٨ - مفهوم ٣: اسم «الله» الأعظم:

ورد في الحديث أن اسم الله الأعظم إذا دُعيَ به أجاب، وإذا سُئل به أعطى [رواه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)]، وفي تعيينه عدة أقوال، لعل أرجحها قولان:

أ - أن هذا الاسم الأعظم هو: «الله»؛ فهو أكبر الأسماء وأجمعها، ولم يتسمَّ به غيره ﷻ، ولذلك لم يُثن ولم يجمع، وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥]؛ أي هل تعلم من تسمَّى باسم «الله»؛ فهو اسم للإله الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد الحقيقي، لا إله إلا هو [ينظر تفسير القرطبي (١/ ١٠٢)].

ويرجح هذا القول عدة أمور؛ منها:

١ - أنه ورد في الحديث الذي أشار إلى الاسم الأعظم الذي يستجاب لمن دعا به؛ فقد سمع رسول الله ﷺ أحد الصحابة يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد» فقال ﷺ: (**لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب**) [رواه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)].

٢ - كثرة وروده في القرآن الكريم؛ فقد ورد (٢٧٢٤) مرة.

٣ - نسبة سائر الأسماء الحسنى إليه دون العكس؛ فهي تجري مع اسم «الله» مجرى الصفات؛ فنقول من صفات الله: العليم، الحكيم، العزيز، ...إلخ، ولا نقول: من صفات العليم: الله.

٤ - أن الله تعالى تعرَّف إلى موسى ﵇ بهذا الاسم؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٣-١٤]،

وكذا عرَّف نفسه سبحانه إلى عباده في أعظم آية في كتابه -وهي آية الكرسي- مبتدئًا بهذا الاسم، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

٥ - كثيرًا ما يُدعى الله بلفظ: «اللهم»؛ ومعناه: يا الله؛ ولهذا لا تستعمل كلمة «اللهم» إلا في الدعاء؛ فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لي وارحمني؛ فهو الاسم الذي يُدعى به كثيرًا، ويُسأل به كثيرًا، فحريٌّ أن ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: (**إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب**).

ب - **القول الثاني**: أن أسماء الله كلها حسنى، وكل واحد منها عظيم، ولكن الاسم الأعظم منها: كل اسم مفرد أو مقرون مع غيره إذا دلَّ على جميع صفات الله الذاتية والفعلية، أو دلَّ على معاني جميع الصفات الإلهية مثل:

- «**الله**»؛ لأنه جامع لمعاني الألوهية كلها.
- و«**الحميد المجيد**»؛ فإن «**الحميد**» يدل على جميع المحامد والكمالات لله تعالى، و«المجيد» يدل على أوصاف العظمة والجلال. وقريب من ذلك أيضًا الأسماء: «**الجليل الجميل الغني الكريم**»، و«**الغني الحميد**».
- و«**الحي القيوم**»؛ فإن الحي يدل على من له الحياة الكاملة العظيمة الجامعة لصفات الذات، و«القيوم» يدل على قيامه بنفسه واستغنائه عن جميع خلقه، وقيام جميع الموجودات به سبحانه، فتدخل فيه جميع صفات الأفعال.
- ومثل قول: «**ياذا الجلال والإكرام**»؛ فإن «**الجلال**» يدل على صفات العظمة والكبرياء والكمالات المتنوعة، و«**الإكرام**» يدل على استحقاقه سبحانه غاية الحب من عباده، وغاية ذلهم له.

فخلاصة هذا القول: أن الاسم الأعظم هو كل اسم جنس يدل على جميع صفات الله تعالى الذاتية والفعلية.

* * *

٤٩ – مفهوم ٤: من آثار توحيد الألوهية:

لتوحيد الألوهية آثار جليلة على العبد المؤمن وقلبه؛ من أهمها:

١ – محبة الله محبة عظيمة تتقدم على محبة النفس والأهل والولد وجميع المحبوبات في الدنيا والآخرة؛ لأن الله المألوه المعبود هو وحده المنعم المتفضل بكل هذه المحبوبات؛ فهو أصل كل محبة ومُنْشِئها، فاستلزم ذلك محبته المحبة الكبرى، ومحبة من يحبه وما يحبه، وبغض من يبغضه وما يبغضه، والموالاة والمعاداة فيه، وبذلك يذوق المرء طعم الإيمان كما قال ﷺ: **(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)** [رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)].

٢ – تعظيم الله ﷻ وإخلاص العبادة له وحده من: صلاة، وصيام، وذبح، ونذر، ودعاء، وغير ذلك من العبادات القلبية؛ حيث كل العبادات لا يجوز صرفها إلا لله ﷻ.

٣ – العزة بالانتساب إليه والتوكل عليه، وسقوط الخوف والهيبة من الخلق والتعلق بهم؛ فالمؤمن لا يعتز ولا يحتمي إلا بالله العظيم، ولا يتوكل إلا عليه وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

٤ – طمأنينة القلب وأنسه بالله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

٥ – بما أن لفظ الجلالة «الله» مستلزم لجميع أسمائه وصفاته الأخرى، فكل أثر من آثار أسماء الله وصفاته إن هو إلا أثر لهذا الاسم العظيم ومن موجَباته.

٦ – إفراد الله تعالى بالحكم والتحاكم؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤].

* * *

سادسًا: مفاهيم حول الحكم وعلاقته بالتوحيد:

٥٠ - مفهوم ١: المقصود بالحكم:

حكم الله ثلاثة أنواع:

١ - حكم قدري يجب على العبد الرضا به والصبر عليه؛ وذلك هو القضاء والقدر.

٢ - حكم شرعي يجب على العبد الامتثال له؛ فالدين كله بجميع تشريعاته يدخل فيه.

وقد دلَّ القرآن الكريم في عدة آيات على اختصاص الله ﷻ بهذين النوعين من الحكم؛ فعن الحكم القدري (القضاء والقدر) قال يعقوب ؈: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧]، وعن الحكم الشرعي قال يوسف ؈: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

٣ - الحكم الجزائي في الآخرة، فهو لله وحده؛ قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

* * *

٥١ - مفهوم ٢: علاقة الحكم بالتوحيد:

كما يتنزه الله ﷻ عن أن يكون له ولد، وعن أن يكون له شريك يُعبد معه، كذلك يتنزه عن أن يكون معه حاكم أو مشرِّع يحكم بغير حكمه؛ فكما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]، فقد قال: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]، وفي قراءة ابن عامر: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بصيغة النهي؛ فحكمه كعبادته: العبادة له وحده، والحكم له وحده. وهذا مقتضى عظمته وكبريائه على جميع خلقه: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢].

وقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] يشير إلى اختصاص الله بكلٍّ من أحكام القدر والشرع؛ فقوله: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ أي: هو خالق جميع المخلوقات؛ وذلك يتضمن أحكامه الكونية القدرية، وقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ يتضمن أحكامه الدينية الشرعية [ينظر تفسير السعدي للآية].

٥٢ - مفهوم ٣: إن الله هو الحكم:

ورد اسم الله (**الحكم**) في القرآن الكريم مرة واحدة؛ قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام:١١٤]؛ أي: حاكمًا؛ فـ«الحكم» و«الحاكم» بمعنى واحد أو متقارب، وأصله: المنع ؛ فقد سُمِّيَ الحاكم حاكمًا لأنه يمنع الخصمين من التظالم فيما بينهما، إلا أن لفظ «الحكم» أبلغ في وصف الله تعالى به من لفظ «الحاكم»؛ لأن العرب لا تكاد تطلق لفظ «الحكم» إلا على الذي ينصف ويعدل في حكمه، بخلاف «الحاكم» الذي قد يكون حكمه عادلًا وقد يكون جائرًا.

وقد جاءت السنة أيضًا بلفظ (**الحكم**)؛ قال ﷺ: (**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**) [رواه أبو داوود (٤٩٥٥)، وصحَّحه الألباني (صحيح أبي داود)].

أما لفظ «الحاكم» فلم يرد في القرآن إلا بصيغة التفضيل؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨]، مما يؤكد القول بأن (**الحكم**) هو الحاكم الذي لا يكون في حكمه إلا العدل والإنصاف.

❋ ❋ ❋

٥٣ - مفهوم ٤: مضادة حكم الله شرك:

إذ تبين أن الحكم بما أنزل الله ركن ركين من أركان التوحيد، فيترتب على ذلك أن من يضع نفسه من الخلق ندًّا لله تعالى في التشريع والتحليل والتحريم فقد أشرك بالله ﷻ في توحيد الربوبية؛ لأنه أشرك بالله في أفعاله سبحانه التي منها الحكم والتشريع، وقد سبق بيان أن أحبار اليهود ورهبان النصارى بتحليلهم للحرام وتحريمهم للحلال إنما يجعلون أنفسهم بذلك أربابًا من دون الله كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

ومن أطاع غير الله ﷻ ووافقه عن علم على استحلال الحرام، أو تحريم الحلال، أو تحاكم عن علم ورضا إلى غير حكم الله فقد أشرك في الألوهية كشركه في العبادة؛ لأنه توجه بفعله إلى غير الله صاحب الحكم وحده، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فكل حكم أو حاكم يرفض حكم الله وشرعه ويضاده فهو طاغوت ومشرِّع يشرك بالله؛ سواء كان ذلك المشرع فردًا، أو نظامًا، أو دستورًا، أو برلمانًا (مجلس وطني)؛ حيث يجعلون لأنفسهم السيادة العليا والقوة النافذة فوق كل قوة أو حكم، ولو كان شرع الله ﷻ، وهذا هو الكفر المبين والشرك الأكبر الذي لا يقبل الله ﷻ من صاحبه صرفًا ولا عدلًا.

وقد حكى ابن عبد البر الإجماع على كفر من دفع شيئًا أنزله الله [ينظر: التمهيد (٤/ ٢٢٦)].

❊ ❊ ❊

٥٤ - مفهوم ٥: تشريع الربا وعلاقته بالحكم:

إباحة البنوك الربوية هي من التشريعات العامة التي تخالف حكم الله تعالى؛ فكما أنه لا يجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، فلا يحرم إلا ما حرمه الله ورسوله، وقد حرَّم الله الربا فليس لأحد أن يُحلَّه، وإباحة المحرَّم شرك في الربوبية وافتراء على الله تعالى؛ إذ ليس من شرط الافتراء نسبة الفعل إلى الله، بل يدخل فيه تحليل ما لم يحله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

والربا من الآثام الخطيرة التي تؤذن بحرب الله لمرتكبها، فمن باب أولى مُشرِّعها؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، فإنشاء البنوك الربوية ومنحها تراخيص للعمل يُعدُّ من الشرك في الحكم والتشريع، ولا يجيزها التحايل على الناس بمسميات مثل: الفروع الإسلامية، وما شابهها، ما لم يكن تعامل البنك خاليًا من الربا حقيقة؛ فالعبرة بالمضمون لا الشكل.

ومن أكبر المرابين في العالم اليوم: «البنك الدولي»، و«صندوق النقد الدولي»، ولا يخفى ما ينتج عن إقراضهما للدول الفقيرة بالربا من زيادة فقرها وتدمير اقتصادها.

❊ ❊ ❊

٥٥ - مفهوم ٦: إقرار المجالس التشريعية لأحكام الشرع لا يخرجها عن طاغوتيتها:

عرض حكم الله ورسوله على المجالس التشريعية، وتوقف إقراره على موافقة هذه المجالس التي يمنحها القانون الوضعي حق التشريع المطلق هو الذي يطبع هذه المجالس بوصف «الطاغوت»؛ لأنها بذلك تنازع الله سبحانه في حقه الخالص في الحكم والتشريع، حتى لو وافقت على حكم الله؛ لأن هذا الحكم حينئذ يكتسب قانونيته في الدولة من موافقة المجلس عليه، لا لموافقته لحكم الله، ولو فُرِضَ أن جاء مجلس تشريعي جديد وألغى حكم المجلس السابق وشرع غيره فسيصبح الحكم الجديد هو القانوني الملزم في نظر الدولة والحكام، وهذا هو محض الشرك في الربوبية.

فالله عَزَّ وَجَلَّ عند هؤلاء القوم ليس من حقه التشريع لذاته، ولا هو أهل لأن يكتسب حكمه صفة الإلزام لذاته، وإنما يُنتقى ويُختار من أحكامه بناء على موافقة هذه المجالس التي توصف بأنها مصدر السلطات، وأنها وحدها التي تمتلك حق التشريع، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا؛ تلك هي حقيقة أمر هؤلاء وإن زعموا ما زعموا من حبهم لله ورسوله.

ونقول لهؤلاء الضالين: لو قدَّرنا أن رسول الله ﷺ حيٌّ بين أظهرنا، وأخبرنا بحكم الله في أمر ما، أكان فرضًا علينا أن نطيعه رأسًا أم نعرض قوله على تلك المجالس؟! فإن قالوا بوجوب عرضه على مجالسهم فقد وقعوا في مضادة حكم الله ورسوله، وهذا كفر وشرك صريح، وإن قالوا: بل نمتثل لأمره ﷺ، قلنا لهم: فهل غياب شخص الرسول هو السبب في إعراضكم عن شرع الله رغم بقاء دينه غضًّا طريًّا كما نزل عليه ﷺ! إن هذا لعجب عجاب.

* * *

٥٦ - مفهوم ٧: كيف انحرفت الأمة عن مفهوم الحكم بالشرع؟

غفل المسلمون عن قول الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، وعن القاعدة التوحيدية العظمى: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» فصرفوا عبادة الطاعة والاتباع، أو جزءًا منها، إلى الحكام والولاة، وعلماء المذاهب المتعصبين، ومشايخ الطرق الصوفية، إضافة إلى المنافقين الذين تهيَّأ لهم الجو بما كان يسيطر على الأمة من جهل وسذاجة. ويمكننا أن نذكر أربعة أسباب رئيسة للانحراف عن الحكم بالشرع؛ هي:

١ - الجمود وغلق باب الاجتهاد الفقهي -منذ القرن الرابع الهجري- مما أدَّى إلى الحيرة في الحكم على النوازل الجديدة.

٢ - المفهوم الخاطئ للعبادة الذي يحصرها في الشعائر التعبدية -من صلاة، وصيام، وحج، ...إلخ- دون عبادة الطاعة والاتباع لكل ما أنزل الله، فانعزل الشرع في ذهن جل المسلمين عن شؤون الحياة الأخرى، ونشأ الفصام النكد بين الدين والحياة، والدين والدولة.

٣ - الاستعمار الغربي الذي روَّج للحكم بنظمه التي يزعم تقدمها وأنها سبب رقيه الحضاري المزعوم، واستخلف على الشعوب الإسلامية حكومات تنقاد لنظمه.

٤ - أزلام الاستعمار الغربي من العلمانيين الذين ساعدوا أسيادهم بالترويج لفكرة: «فصل الدين عن الدولة»، وأن العبادة ينبغي أن تُحصر في المساجد ولا علاقة لها بتنظيم حياة الناس وشؤونهم.

وقد تقاسمت ثلاث دول رئيسة العالم الإسلامي في الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر إلى الثامن عشر الميلادي:

الدولة الصفوية في فارس - الدولة المغولية في الهند - الدولة العثمانية في حوض البحر المتوسط

- فأما **الدولة الصفوية** فانتسابها إلى الإسلام اسمي وصوري؛ فهي دولة رافضية اثنا عشرية تجري على آراء وأهواء رجال الشيعة المتعصبين، وكل همها محاربة الدولة العثمانية السنية.

- وأما **الدولة المغولية** فقد تأسست وقت ضعف الأمة الإسلامية آواخر العصر العباسي الذي امتلأ بالمفاهيم الضالة والمذاهب الفكرية المنحرفة، فلم يعتنق المغول الإسلام الصافي بل دخلوا فيه على الصورة المنحرفة لأبنائه وقتئذ، فسهَّل هذا الجهل بالإسلام وقلة عدد المسلمين في الهند بالنسبة إلى الهندوس إلغاء الاستعمار الإنجليزي للحكم بالشريعة الإسلامية دون وجود معارضة تذكر.

- وأما الدولة العثمانية فرغم جهودها المحمودة في نشر الإسلام السني على وجه العموم -مع وجود بعض بدع الصوفية- إضافة إلى جهدها في مقاومة الغرب البيزنطي والشرق المغولي التتري إلا أنها لم تتمكن من الإزالة الكاملة للانحراف

والتخلف الذي ورثته عن أسلافها، كما أن تعصبها للمذهب الحنفي أدَّى إلى معارضة فتح باب الاجتهاد الذي كان مغلقًا منذ القرن الرابع الهجري، مما أدَّى إلى قصور الاستنباط الفقهي عن مجاراة الوقائع الحديثة، فاستوردت القوانين الأجنبية، ودخل الحكم بغير الشرع تدريجيًّا إلى الدولة بحسن نية ودون الانتباه إلى خطره، إلى أن وصل الحال إلى تمكن العلمانيين المنادين بفكرة فصل الدين عن الدولة من الحكم في جل بلاد المسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية، وبمساندة القوى الاستعمارية الغربية، فوقعت الأمة بأغلبها في تيه الحكم بغير ما أنزل الله وضلاله.

ولذا يمكننا القول: إن انحراف المسلمين بجهلهم بحقيقة دينهم وسنة الله في الحياة، وعجزهم عن مسايرة الأحداث كان المنفذ الرئيس لتسرب العلمانية إلى بلاد المسلمين والحكم فيها بغير ما أنزل الله.

* * *

٥٧ - مفهوم ٨: أهمية بيان شرك الحكم للأمة:

لما كان الحكم بغير ما أنزل الله هو السائد في جُلِّ بلاد المسلمين أصبح لبيان الحق في هذه المسألة أهمية كبرى، ووجب على العلماء ودعاة الأمة توضيح ذلك والرد على الشبه المجوزة للحكم بغير ما أنزل الله؛ فقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ببيان الحق للناس وعدم كتمانه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وإن إشاعة العلم بهذه القضية ضرورة ماسة لتحمل هذه الأمة هَمَّ الإسلام وتتحرك به بعد أن استنامت طويلًا إلى مفاهيم مغلوطة صوَّرت لها فيما صوَّرت أن أمر تحكيم الشريعة أمرٌ ثانوي ولا علاقة له بشرعية النظام الحاكم، بل الشرعية وفق هذه المفاهيم المغلوطة تتحقق من خلال الانتخابات والبرلمانات، ومعسول الشعارات، وكذبوا فيما زعموا، بل ذلك هو الشرك المحض والكفر بما أنزل الله.

ولما كان هذا البيان لا يُرضي الطواغيت، فإنهم ولا غرو يهاجمون كل من يصدع به بقوة وحزم، ويصبُّون عليه صنوف البلاء والتنكيل، ويشوهون بالكذب والافتراء صورة دعاة الحق الذين يوضحون ذلك بادِّعاء أنهم إرهابيون وجهلاء، لذا يجب على

دعاة الحق التسلح بالصبر في مواجهة هذا الباطل، وتوطين النفس على الثبات على الحق نصحًا لله ورسوله، وتحذيرًا من شرك الحكم وخطره.

* * *

٥٨ - مفهوم ٩: شبهتان والرد عليهما:

يَرِدُ على القول الحق في مسألة الحكم بالشرع شبهتان، نذكرهما فيما يلي ونرد عليهما:

١ - يرى البعض السكوت عن بيان هذا الكفر البواح خشية الفتنة، ولما يترتب على بيانه من مفاسد بزعمهم، والأولى في نظرهم هو الصبر والسكوت حتى يتقوَّى المصلحون ويقدروا على البيان ومواجهة الطواغيت.

وللجواب على ذلك نقول: هناك فرق بين التبيين والتغيير، وما ننادي به حاليًا هو البيان باللسان أو القلم دون التغيير باليد والسنان؛ فإن التغيير بالجهاد والمواجهة هو الذي تشترط له القدرة، وتراعى فيه المصالح والمفاسد، أما بيان التوحيد فهو المعروف الأكبر الذي ينبغي أن يواجه به الشرك الأكبر، وهذا لا يجوز تأخيره بحال؛ لأن الشرك الأكبر هو الفتنة الكبرى الواردة في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، [ينظر تفسير ابن كثير للآية، وغيره من التفاسير]. والرسول ﷺ لما نزل عليه قول الله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢] كان مستضعفًا في مكة المكرمة، وأصحابه يخفون إسلامهم، فقام وصدع بالحق وبيَّن الشرك وحذَّر منه، ولكنه أجَّل التغيير بالقوة إلى حين تمت له القدرة على ذلك؛ فلم تُزل الأصنام من حول الكعبة إلا عند فتح مكة عام ٨ هـ؛ أي إن المنكر ظل قائمًا طوال واحد وعشرين سنة هي مجموع العهد المكي وثماني سنوات من العهد المدني، بينما التحذير منه وبيان الحق قد صُدِع به من أول بعثة الرسول ﷺ.

٢ - والشبهة الثانية تتلخص فيما ظهر في الآونة الأخيرة من بعض دعاة السوء من تجاوز حد السكوت عن بيان الحق في هذه المسألة إلى التهوين من شأنها، والدفاع عمن يقع فيها من الحكام بادِّعاء أن ذلك مجرد معصية وليس شركًا أكبر ما دام المشرع لحكم غير الله لم يجحد حكم الله ولم يستحل فعله، وهو ممن يقول: «لا إله إلا الله». ويحتجون على ذلك بالقول المأثور عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قول الله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] قال: «كفر دون كفر» [ينظر تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر، الأثران: (١٢٠٢٥،١٢٠٢٦)].

وهذا الفهم من هؤلاء ضلالٌ مبين، وخلط للأمور عجيب؛ حيث إن مجرد تبديل شرع الله والاستعاضة عنه بغيره من تشريعات البشر هو في حد ذاته كفر أكبر؛ سواء وُجِدَ الاستحلال أم لم يوجد؛ إذ لم تشترط النصوص التي تدل على كفر من بدَّل الشرع وحكم بغير شريعة الرحمن الاستحلال، وهذا مجرد ادِّعاء استجلبه هؤلاء من بُنيات أفكارهم. وإنما يُشترط لكون الحكم بخلاف الشرع معصية وليس كفرًا الشروط أو القيود الآتية:

أ – أن تكون السيادة للشريعة الإسلامية، وأصل التحاكم مبنيًّا على الكتاب والسنة، ومعمول به في واقع الناس.

ب – أن يكون الحكم المخالف للشرع استثناءً في حوادث عينية لا في الأمور العامة، ولا يُفرض على الناس بوصفه قانونًا عامًّا مُلزمًا، بل يكون بهوى من الحاكم في قضية معينة لمصلحة شخصية، أو قرابة مثلا من المحكوم له بالباطل، والحاكم بذلك على خطر عظيم وقد ارتكب معصية كبرى، وإن لم تبلغ به حد الكفر.

جـ – ألا يعتقد القاضي أو الحاكم حل ما فعله، فإن اعتقد حل ذلك كفر بالإجماع.

وهذا هو مراد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: «كفر دون كفر»؛ إذ قاله في معرض مناظرته للخوارج الذين يكفرون بالمعصية، ويريدون موافقة العلماء لهم في تكفير أمراء الجور الذين كانوا يحكمون في بعض الأقضية بما يخالف الشريعة اتباعًا للهوى أو جهلًا بالحكم، فيبرروا لهم بتلك الموافقة خروجهم عليهم بالسيف. ويدل أيضًا على أن هذا هو مراد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن صورة تبديل الشرع على وجه العموم لم تكن موجودة أصلًا زمن ابن عباس، ولم يكن يخطر ذلك على بال أحد، ولا يظن أحد مجرد ظن أنه يجوز له أن يحكم المسلمين بغير شرع الله، ولا أن يَسُنَّ قانونًا مخالفًا للكتاب والسنة ثم يُلزِم الناسَ بالاحتكام إليه، وإنما ظهر ذلك في عهد التتار حين ألَّف جنكيز خان كتاب «الياسا» وجعله مرجع الحكم بين الناس، وقد خلط فيه بين تشريعات للمسلمين وأخرى لديانات أهل الكتاب وغيرهم، وبعض الأعراف والتقاليد السائدة، وما ارتآه هو من قوانين وتشريعات. وقد أفتى شيخ الإسلام بكفره وأتباعه المناصرين له كفرًا مخرجًا من الملة، واستحل قتالهم.

٥٩ - مفهوم ١٠: أقوال جامعة وبليغة في الحكم:

فيما يلي بعض الأقوال الجامعة الحكيمة في موضوع الحكم بالشرع:

١ - ليس في أحكام الشرع إلا الخير، فلا ينبغي أن يُتحرَّج من شيء فيها، ولا أن يُترك تطبيق بعض أحكامه بحجة عدم تنفير الناس من الشرع، ولغرض تحبيبهم في دين الإسلام كما يتوهم البعض؛ فإن ذلك يؤدي إلى الخذلان وعدم التوفيق؛ وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢].

٢ - طعن المرء في الشريعة وحكم الله هو طعن في المشرع نفسه: الله ﷻ.

٣ - لعن الله من غيَّر منار الأرض -وهي علامات الإرشاد في طرق المسافرين- حفظًا لحقوق الناس، فكيف بمن غير الدين وصرف الناس عن الإرشاد إلى طريق الحق.

٤ - رأي البشر أو حكمهم قد يصلح لزمان ولا يصلح لآخر بل يفسده؛ لهذا تكفَّل الله بحكم الناس، فحكمه يناسب كل زمان وكل مكان.

٥ - الذهاب إلى الطاغوت وترك حكم الله ورسوله هو النفاق بعينه؛ فقد قال تعالى في المنافقين وأهل الكتاب: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠].

٦ - الحكم بالشرع يحمي الناس من هوى الحكام والساسة؛ قال تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

* * *

٦٠ - مفهوم ١١: أقوال جامعة في الحكام:

ومن الأقوال البليغة الجامعة في الحكام:

١ - الحاكم الصالح هو من يُعظِّم أمر الله ورسوله، ويحمي شرعه ويخضع له، لا من يجعل طاعته دِينًا يُقدَّم على طاعة الله ورسوله.

٢ - الأمة التي تقدم طاعة السلطان على طاعة الرحمن أمة دنيا لا أمة دين، فهي مخذولة غير منصورة.

٣ – نصيحة الحاكم ليست سرًّا أو جهرًا في كل الأحوال، وإنما بحسب المصلحة وما يقتضيه الموقف، والاعتدال في ذلك هو منهج السلف.

٤ – الحاكم الظالم لا يقدر على الظلم وحده دون معاونة أو تأييد من الحاشية والناس؛ وقد قال فرعون لقومه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٢٦].

٥ – بطانة السوء ليست هي التي تغرس الشر في نفس السلطان الظالم، بل الشر متجذِّر فيه، وهو من اختار هذه البطانة وأبعد بطانة الخير، وإنما سقت بطانة السوء غرسه فقط؛ ولذا فإن الله يعاقب الظالم وبطانته على السواء.

٦ – تحرص بطانة السوء على معرفة هوى السلطان ورغباته فتحرضه عليها – ولو بلا قناعة منها- للتقرب إليه ونيل حظوته؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

٧ – من علامات السوء للحاكم أن يُسخِّر الله له بطانة سوء أو قرين سوء يزين له عمله؛ قال تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فصلت:٢٥].

٨ – الطاغية لا يصنع نفسه، إنما يصنعه الناس؛ قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤].

٩ – إذا أراد الحاكم الظالم البطش بأحد اختلق الحجج والتهم الواهية ليبرر فعله؛ ففرعون لَمَّا أراد البطش بالسحرة لإيمانهم برب موسى وإحراجه أمام الملأ قال: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه:٧١]، فهل كان فرعون سيأذن لهم بالإيمان لو طلبوا منه ذلك؟! واتهم موسى عليه السلام بتبديل الدين والإفساد في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

١٠ – لا يخلو زمن من الغلو في طاعة الحكام على حساب الشرع، والتوسط في حقهم عزيز.

١١ – من يقدح في العلماء والدعاة والمجاهدين ويتتبع زلاتهم، ويغض الطرف عن طوام الحكام فمنطلقه في ذلك الهوى لا الدين.

١٢ – حق الشعوب على حكامهم عظيم مقدم على حق والديهم؛ فيوسف عليه السلام لم

يذهب إلى والديه بعد طول غياب، وإنما قال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣]، وإنما فعل ذلك لحق رعيته عليه، فينبغي بيان ذلك كما يبين حق الحاكم على رعيته.

١٣ – لم يأذن الله لرسوله ﷺ أن يحكم بين الناس بما يراه هو، وإنما بما يريه ربه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، فكيف بمن هم دونه ﷺ.

١٤ – من استحلَّ الحرام، أو حرَّم الحلال من الحكام فليس بحاكم شرعي ولا ولي لأمر المسلمين، أمَّا من أثبت الحلال والحرام وأذعن لشريعة الرحمن، ثم خالف ذلك بفعله فهو حاكم شرعي يُستصلح ولا يُنازع [يراجع المفهوم ١٠٧٤ (مفهوم ٦ في السياسة الشرعية)].

* * *

سابعًا: مفاهيم حول توحيد الأسماء والصفات:

٦١ – مفهوم ١: الأصل في أسماء الله وصفاته:

القاعدة في أسماء الله وصفاته هي: إثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تمثيل ولا تشبيه، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف؛ مع الإيمان بمعاني ألفاظ النصوص وما دلت عليه. والأصل في ذلك هو قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؛ فقد أفادت الآية أمرين، نضيف عليهما أمرًا ثالثًا فنقول:

١ – تنزيه الله ﷻ عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين؛ ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

٢ – إثبات الصفات لله وعدم تعطيلها أو تحريفها؛ ويدل عليه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

٣ – وينبغي أيضًا الإيمان بحقيقة الصفة ومعناها مع قطع الطمع عن إدراك كيفيتها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]؛ فلم ينف العلم به سبحانه، وإنما نفى الإحاطة بعلمه؛ وهي إدراك الكيفية التي لا تعرف إلا بالمشاهدة والحس.

* * *

٦٢ – مفهوم ٢: أنواع الانحراف في باب الأسماء والصفات:

يتنوع الانحراف في باب أسماء الله وصفاته ما بين: تعطيل، وتشبيه أو تمثيل، وتحريف:

١ – فالتعطيل -أي تعطيل أسماء الله ﷻ عما تتضمنه من صفات ومعانيها- كفر؛ لأنه تكذيب بصريح آيات القرآن الكريم التي تثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العليا.

٢ – والتشبيه أو التمثيل -أي تشبيه الخالق سبحانه بالمخلوق- هو أيضًا كفر لمنافاته لقول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وهو نوعان:

أ – تشبيه صفة الخالق سبحانه بصفة المخلوق؛ كمن يقول: له يد كيدي، وسمع كسمعي، ...إلخ -تعالى الله عن ذلك- وهذا لا يكاد يقول به أحد، إلا ما يعرف عن فرقة الكرَّامية المندثرة.

ب – اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة المزعومة من أسماء الإله الحق؛ كاشتقاق اسم اللات من الإله، والعُزَّى من العزيز.

٣ – وأما التحريف فهو الذي يسميه أهل البدع تأويلًا؛ وهذا منه ما هو كفر أيضًا؛ كتأويلات الباطنية التي لا تستند إلى أي شبهة دليل، ومنه ما هو بدعة ضلال كتأويلات نفاة الصفات، ومنه ما يقع خطأ.

❊ ❊ ❊

٦٣ – مفهوم ٣: ضلالة وحدة الوجود:

القول بوحدة الوجود واعتقاد حلول الله تعالى في شيء من مخلوقاته أو اتحاده به؛ كل ذلك ضلال وكفر مخرج من الملة.

❊ ❊ ❊

٦٤ – مفهوم ٤: نفاة الصفات:

نفاة الصفات هم الذين ينفون عن الله تعالى الصفات، ويقال لهم أيضًا: «المعطلة»؛ لأنهم يعطلون أسماء الله تعالى عما تتضمنه من صفات، وهم على درجات في ذلك:

١ – فأولهم وأضلهم: غلاة الجهمية والفلاسفة الذين ينفون عن الله الأسماء والصفات كلها.

٢ – ويليهم المعتزلة الذين يثبتون لله الأسماء وينفون عنه ما تتضمنها من صفات؛

فيقولون: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة؛ وكأنها مجرد أعلام لله تعالى كاسم «الله».

٣ - ويلتحق الأشاعرة بالمعطلة نفاة الصفات -وإن كانوا أقل منهم انحرافًا- حيث يثبتون لله الأسماء الواردة في القرآن كلها، وسبعًا فقط من الصفات التي تتضمنها أسماؤها؛ وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، ويقولون: إن العقل دلَّ عليها، وآيات القرآن تعضدها. أما غيرها من الصفات التي ذكرها القرآن فيؤولونها بواحدة من الصفات السبع، وغالبًا ما تكون الإرادة أو القدرة؛ فيؤولون غضب الله مثلًا بإرادة العقاب، وهكذا في سائر الصفات، ويسمون هذه الصفات السبع: صفات ذات -وهي عندهم ما لا يمكن تصور ذات الله بدونها- ويسمون سائر الصفات: صفات المعاني؛ وهي ما يمكن تصور الذات بدونها، ولهذا يؤولونها بواحدة من صفات الذات.

* * *

٦٥ - مفهوم ٥: شُبه نفاة الصفات والرد عليها:

يزعم المعطلة نفاة صفات الله تعالى أنهم إنما ينزهون الله ﷻ ويوحدونه بنفيهم هذا، وشُبهُهم في ذلك:

١ - أن إثبات الصفة يقتضي تشبيه الله بمخلوقاته؛ لأننا لا نعرف الصفة في الوجود إلا للمخلوقات، فإذا أثبتناها لله ﷻ فقد شبهناه بمخلوقاته.

وجواب ذلك: أنه لا يلزم بحال من إثبات الصفة التشبيه؛ بل نثبت صفة الخالق دون تشبيهها بصفة المخلوق؛ فالمخلوقات نفسها تشترك في بعض الصفات ولا تتشابه فيها؛ فالإنسان له يد، والحيوان له يد، وشتان ما بين اليدين -وهما مخلوقتان- وإنما يوجد القدر المشترك بين الصفات في الذهن فقط دون واقع الأمر وحقيقته، فكيف بالخالق المباين لمخلوقاته في جميع صفاته التي كلها كمال وجلال.

٢ - زعمهم أن القول بتعدد الصفات يفضي إلى القول بتعدد الذوات؛ لأننا لو أثبتنا الصفات لله لكانت قديمة مثله، وهذا يفضي إلى القول بتعدد القدماء، وهو ينافي التوحيد.

وجواب ذلك: أن ذلك هراء وهذيان؛ فصفات الله سبحانه قائمة بذاته وليست منفردة؛ فهي صفات جلال وكمال لذات واحدة.

٣ – أما الأشاعرة الذين أثبتوا لله سبعًا فقط من الصفات دون بقيتها فقد وقعوا في التناقض، ورد عليهم كل من أهل السنة والمعطلة بأن إثباتكم لهذه الصفات السبع -التي تقولون: إن العقل دلَّ عليها- يوقعكم في التشبيه المزعوم الذي تدَّعون الفرار منه؛ فكل صفة من هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه الكريم قد أثبتها لغيره من مخلوقاته -وإن اختلفت حقيقة كيفيتها-:

- فالله ﷻ وصف نفسه بالقدرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:٢٠]، ووصف بعض المخلوقين بالقدرة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣٤]، ولكنا نقول: لله تعالى قدرة حقيقية تليق بكماله وجلاله سبحانه، كما أن للمخلوقين قدرة تناسب حالهم وعجزهم وفنائهم، وما بين القدرتين من الاختلاف كما بين ذات الخالق وذوات المخلوقين من اختلاف، وهكذا في سائر الصفات السبع:
- فالله تعالى وصف نفسه بالإرادة فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، ووصف بعض المخلوقين بالإرادة فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧].
- ووصف نفسه ﷻ بالعلم فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن:١١]، ووصف بعض المخلوقين بالعلم فقال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر:٥٣].
- ووصف نفسه ﷻ بالحياة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ووصف بعض مخلوقاته بالحياة فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].
- ووصف نفسه ﷻ بالسمع والبصر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، ووصف الإنسان المخلوق بأنه سميع بصير فقال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢].
- ووصف نفسه بالكلام فقال ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ووصف بعض المخلوقين بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف:٥٤].

فما يزعمه الأشاعرة من أن إثبات الصفات يقتضي التشبيه يلزمهم في الصفات السبع التي يقرونها بعقولهم، ولو قالوا: إن الصفات السبع ثابتة لله على ما يليق بجلاله وكماله، وليست مثل صفات المخلوقين، نقول لهم: إذًا يلزمكم تعميم ذلك في سائر الصفات التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، ولا صحة لما تزعمونه من فرق بين صفات الذات وصفات المعاني، وإلا كنتم متناقضين في دعواكم.

والخلاصة إذًا هي وجوب إثبات كل ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من أسماء حسنى وصفات عليا، والجزم بأنها كلها صفات حقيقية تليق بجلال الله وكماله سبحانه، وتفارق ما لدى المخلوقين من صفات تناسب حالهم الذي لا يخلو من عجز ومآله إلى الفناء، وما بين أوصافه سبحانه وأوصاف مخلوقاته من الاختلاف هو كما بين ذات الخالق وذوات المخلوقين من مباينة واختلاف.

* * *

٦٦ - مفهوم ٦: نفي الصفات وعقيدة السلوب:

لما نفى المعطلة الصفات عن الله ﷻ، واحتاجوا إلى تحديد معبودهم وتبيينه لجأوا إلى وصفه سبحانه بالنفي؛ فيقولون: هو ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا جوهر ولا عرض، ولا موجود ولا غير موجود، ولا قادر ولا غير قادر، ...إلخ؛ فسلبوا معبودهم من كل صفة ونقيضها فرارًا من التشبيه والتعدد بزعمهم، فلهذا وُصِفتْ عقيدتُهم بأنها عقيدة السلوب؛ لسلبها كل وصف ونقيضه عن الله ﷻ، وهذا -لعمر الله- من ضلالهم وسفه عقولهم، وهو مردود من وجهين:

الأول: أن العقل يمنع سلب النقيضين في آن واحد؛ فالنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان في آن واحد أبدًا، بل لا بد من وجود أحدهما وارتفاع الآخر؛ كالوجود والعدم، والليل والنهار، وهذا بخلاف الضدين اللذين لا يجتمعان ولكن قد يرتفعا؛ كالبياض والسواد مثلًا؛ فالشيء لا يكون أبيض وأسود في الوقت ذاته، بل يكون إمًا واحدًا منهما فقط، أو لا أبيض ولا أسود ولكن لونًا آخر كالأحمر مثلًا.

الثاني: أن النفي المحض عدم محض، وهذا انتقاص وتدنيس لا كمال وتنزيه؛ فقد

شبهتم معبودكم بالمعدوم الذي لا وجود له، وكفى بهذا غيًّا وضلالًا.

* * *

٦٧ - مفهوم ٧: طريقة القرآن الكريم: الإثبات المفصل للصفات والنفي المجمل لها:

جاءت آيات القرآن الكريم في وصف الله تعالى بالإثبات المفصل والنفي المجمل؛ فيكثر فيها وصف الله تعالى بأنه: الحي، القيوم، العليم، الحكيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، ...إلى آخره. بينما ورد النفي مجملًا؛ كقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، وهذا هو مقتضى المدح والتنزيه؛ ألا ترى أنك حين تمدح ملكًا أو سيدًا تقول له: أنت حكيم، وعادل، ورحيم، ومدبِّر، ...إلخ، أنت لست كأحد من رعيتك، ولا تقول له: أنت لست جاهلًا، ولا لئيمًا، ولا زبالًا، ...إلخ، ولو قلت مثل ذلك لغضب منك وعدَّ كلامك انتقاصًا له، ولله المثل الأعلى.

وليُعلم أنه إذا ورد في الآيات نفي مفصل فإنما يكون لإثبات كمال ضده مما ذكر من صفات المدح؛ فقول الله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ورد لإثبات كمال حياته وقيوميته ﷻ الواردين في أول الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

والأصل أيضًا أن الله تعالى موصوف بكل كمال وجلال، ومنزه عن كل نقص وعيب؛ فكل صفة نقص وعجز هي بالقطع منفية عن الله تعالى؛ كالجهل، والفقر، والظلم، والعجز، ...إلخ. ولمَّا نفى الله ﷻ عن نفسه العجز أثبت في مقابله ما يضاده من العلم والقدرة؛ لأن العاجز إنما يعجز عن أمر ما إما لجهله به أو لعدم قدرته على فعله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

* * *

٦٨ - مفهوم ٨: بدعة التفويض والرد عليها:

يلجأ الأشاعرة إلى تأويل الصفات -كما أسلفنا- بدعوى تنزيه الله ﷻ عن أن يشبه شيئًا من مخلوقاته، فإذا عجزوا عن تأويل الصفة لجأوا إلى التفويض؛ وهو أن يقولوا نفوض الأمر في المقصود بهذا الوصف إلى الله تعالى؛ فهو أعلم بمراده بذلك، ويفعلون ذلك أيضًا بدعوى التنزيه؛ يقول صاحب كتاب «الجوهرة» -وهو أشعري المذهب-:

وكلُ نصٍّ أَوْهَمَ التشبيهَ ❁ أَوِّلْهُ أو فَوِّضْ ورُمْ تنزيها

ويزعمون أن التفويض هو عقيدة السلف، وأنه الأولى في حق من لم يقدر على التأويل وآثر السلامة؛ ولهذا يقولون: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وقد وقعوا بقولهم هذا في ضلالتين كبيرتين:

١ – أساؤوا الظن بالسلف، وجعلوا أنفسهم أعلم منهم وأحكم؛ وهل يكون من تلوَّث فكره وفهمه بأقوال الفلاسفة والمناطقة أعلم وأحكم ممن عاصر تنزيل الكتاب الكريم وتلقَّى معانيه عن الرسول ﷺ المبلغ عن رب العالمين؟!

٢ – هذا التفويض –المنسوب زورًا إلى السلف– هو في حقيقته عيٌّ وعجز، وفيه سوء ظن بالله ﷻ الحكيم الخبير، واتهام له سبحانه بالعبث مع خلقه ومخاطبتهم بكلام عسير لا يفهمونه ولا يمكنهم تدبره وعقل معانيه؛ والله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، وتيسير القرآن للذكر يشمل: تيسير ألفاظه للحفظ، وتيسير معانيه للفهم، لا مخاطبة الناس بما يقتضي العجز والتفويض، وتيسير أوامره ونواهيه للامتثال [ينظر: الصواعق المرسلة لابن القيم، تحقيق علي الدخيل الله (١/ ٢٣٢)]، ومن أراد من المخاطب ألا يفهم كلامه، أو يفهمه بما يدل على خلافه بالتأويل المزعوم فقد عامله بأشد التعسير ولم يكن مُيَسِّرًا.

ويقول الله ﷻ أيضًا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك القول في عقل الكلام؛ فالله ﷻ يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، وعقل الكلام متضمن لفهمه.

أمَّا إعجاز القرآن الكريم فليس المقصود به عدم فهمه وعدم عقل معانيه، بل المراد به إفحام الفصحاء، وإعجاز البلغاء عن أن يأتوا بمثله رغم كونه جاريًا على أساليب كلام العرب، مُيَسَّرًا للفهم والإدراك والتدبر.

❁ ❁ ❁

٦٩ – مفهوم ٩: أهمية العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا:

لا شك أن شرف العلم من شرف المعلوم، ولما كان المعلوم بدراسة الأسماء والصفات هو الله ﷻ كان هذا العلم هو أشرف العلوم.

وإذا كانت المفاهيم السابقة قد أوضحت: أصول توحيد الأسماء والصفات، والمخالفين لهذه الأصول ومذاهبهم وشبههم، والرد عليهم، فإن كل هذا هو بمثابة مقدمات ضرورية لفهم هذا العلم الشريف وإزاحة الران وغبار شبه المبطلين عن قلب العبد المؤمن؛ وذلك لتهيئته للإيمان بهذه الصفات العليا إيمانًا سويًّا كاملًا، وإدراك آثار ذلك الإيمان؛ فهذا هو الغرض الأول والأساس من معرفة الأسماء والصفات: التعبد لله سبحانه بها، والعمل بمقتضاها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فتأمل كيف نصَّت الآية على دعاء الله بأسمائه الحسنى –وتلك هي العبادة– وكيف أمرتْ في آخرها بترك المخالفين في هذا الباب والبعد عن مناهجهم الضالة التي سيحاسبون عليها يوم القيامة!

وفيما يلي أمور –سوى ما سبق– تبين أهمية هذا العلم وشرفه:

١ – أن العلم بأسماء الله وصفاته هو أصل العلوم، وأساس الإيمان، وأول الواجبات؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فإذا علم الناس ربهم حققوا عبادته على الوجه الصحيح، وأدركوا حقيقة الدنيا وما يراد منهم فيها، والله سبحانه قد وصف نفسه بأن ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وكل معلوم سوى الله إمَّا أن يكون خلقًا أو أمرًا، والآية توضح أن مصدر الخلق والأمر هو الله ذو الأسماء الحسنى والصفات العليا، فلهذا كان إحصاء الصفات هو أصل إحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات مرتبطة بالصفات ومن مقتضاها.

٢ – يستدل بما عُلم من صفات الله تعالى على ما يقدره من الأقدار وما يشرعه من الأحكام؛ فأقدار الله وأحكامه دائرة بين العدل، والفضل، والحكمة، والرحمة، ومن يعلم ذلك عن ربه لا يسيء الظن به سبحانه، ولا يعترض على أقداره ولا أحكامه.

٣ – التلازم الوثيق بين صفات الله تعالى وما تقتضيه من عبادات ظاهرة وباطنة؛ فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجبات العلم بها وتحقيق معرفتها كما سيتضح في

ثمرات العلم بالأسماء والصفات.

٤ – تدبر معاني أسماء الله وإدراك صفاته ﷻ يعين على تدبر كتاب الله تعالى المأمور به في غير ما آية من آياته؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

٥ – عدم معرفة العبد لأسماء الله وصفاته ينتج عنه آثار سيئة ونتائج وخيمة في حياته.

٦ – المعرفة الحقة لأسماء الله وصفاته هي اللبنة الأساسية في التربية الإسلامية؛ حيث يتربَّى الناشئ المسلم على أن الله هو: الخالق البارئ، الرزاق، النافع الضار، المحيي المميت، مالك يوم الدين والجزاء، ...إلخ، ولذلك ثمار عظمى في قلب المؤمن، وعبادته، وسلوكه وأخلاقه.

* * *

٧٠ – مفهوم ١٠: مظاهر تعظيم أسماء الله الحسنى وصفاته العليا:

ينبغي على العبد أن يقرن معرفته ودراسته لأسماء الله وصفاته بتعظيمه لها، ولهذا التعظيم مظاهر؛ منها:

١ – ألا يحلف –إن كان لا بد حالفًا– إلا بالله وأسمائه وصفاته؛ لأن في الحلف تعظيمًا للمحلوف به، والعظمة لله وحده. كما أن من تعظيمه في حلفه بالله وأسمائه وصفاته ألا يحلف بها على أمر كذب، ولا على ارتكاب معصية، وأن يبر بيمينه؛ إلا إن كان يمينه في معصية فالتعظيم حينئذ والبر هو في الحنث في يمينه والكفارة عنها.

والأولى للعبد أن يتجنب الحلف –ولو كان صادقًا– قدر الإمكان؛ حتى لا يكون حلفه ذريعة لوقوعه في الكذب أو فيما لا يقدر على الوفاء به؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٢٤].

كما ينبغي للمحلوف له بالله ﷻ أو صفة من صفاته سبحانه أن يقبل ويصدق الحالف؛ لأن هذا من تعظيم الله ﷻ وأسمائه وصفاته، إلا أن يكون الحالف قد عُرف عنه الكذب والفجور، أو يكون المحلوف له على يقين من كذب أو خطأ الحالف، فليس على المحلوف له حرج حينئذ في عدم تصديق الحالف، ولا يدخل

تحت الوعيد الوارد في الحديث الذي يجمل القول في مسألة الحلف، وهو قوله ﷺ: (**لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض بالله فليس من الله**) [رواه ابن ماجه (٢١٠١)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٩٥١)، وأوله في البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (٣٦٤٦)].

٢ – ألا يرد أحدًا سأله بالله أو بصفة من صفاته، وأن يعيذ من استعاذ بها إلا في فعل محرم، أو ترك واجب، أو تعطيل حد من حدود الله؛ قال ﷺ: (**من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه**) [رواه أبو داود (١٦٧٤)، وصحَّحه الألباني: صحيح أبي داود (١٤٦٩)].

٣ – ألا يتسمى أحد باسم مختص بالله تعالى؛ مثل: الله، الرحمن، رب العالمين.

٤ –تنزيه أسماء الله برفع ما كتبت فيه من صحف، ومجلات، ومقررات دراسية، ...إلخ عن الأماكن المهانة والقذرة، وقد حصل في زماننا تساهل في ذلك من كثير من الناس.

❋ ❋ ❋

٧١ – مفهوم ١١: ثمرات العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا:

ينتج عن العلم بأسماء الله وصفاته آثار عظيمة وثمار جليلة؛ سواء كان ذلك في أعمال العبد الظاهرة أو عباداته القلبية الباطنة، فمن ذلك ما يأتي:

١ – زيادة الإيمان واليقين؛ فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه ويقينه بالله؛ فتلك المعرفة هي بمثابة الغذاء للروح، وتثمر أيضًا سلامة القلب والشفاء من أمراضه.

٢ – ومعرفة العبد بجلال الله وعظمته تثمر له خضوعه له سبحانه واستكانته له ومحبته.

٣ – ومعرفته أن الله يسمع، ويبصر، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات والأرض؛ كل ذلك يثمر له خشية الله وتقواه في السر والعلن، وحفظ لسانه وجوارحه عن كل ما لا يُرضي ربه، والأدب معه سبحانه، والحياء منه.

٤ – وعلم العبد بتفرد الرب سبحانه بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة؛ كل ذلك يثمر له عبودية التوكل على الله باطنًا ولوازمه ظاهرًا.

٥ – وعلم العبد بغنى الله، وكرمه وجوده، وبره وإحسانه، ورحمته؛ كل ذلك يوجب له سعة الرجاء لما عند الله.

٦ – كما أن معرفة العبد أن الله تعالى له صفات الكمال والجلال تبصره بمدى عيوبه هو

ونقائصه وآفاته؛ فيقلع عنها قدر المستطاع؛ فلا يتكبر، ولا يغضب، ولا يحسد أحدًا على ما آتاه الله من فضله.

وخلاصة القول: إن لكل صفة من صفات الله تعالى آثارها الجليلة على العبد وعباداته، وذلك ما يمكن تفصيل بعضه في مفاهيم مستقلة لاحقة.

* * *

٧٢ – مفهوم ١٢: التأسي بما يمكن التأسي به من صفات الله ﷻ:

في قول الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩] عدل الله تعالى عن ذكر ثواب العفو عند المقدرة إلى بيان أن ذلك من صفاته سبحانه، ويكفي المرء شرفًا ونبلًا أن يتأسى بالله تعالى في ذلك، فهذا يكفيه ويغنيه عن ذكر الثواب المترتب على هذا الفعل المحمود.

* * *

٧٣ – مفهوم ١٣: التعبد بجمع معاني أسماء الله تعالى بعضها إلى بعض:

أكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر؛ فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر؛ فلا يحجبه التعبد باسم «القدير» عن التعبد باسميه «الحليم، الرحيم»، ولا تحجبه عبودية اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع»، أو عبودية أسمائه «الرحيم، العفو، الغفور» عن عبودية اسمه «المنتقم»، أو التعبد بصفات: «التودد، والبر، واللطف، والإحسان» عن التعبد بصفات: «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء»، ونحو ذلك.

والتعبد بجمع معاني أسماء الله بعضها إلى بعض هو طريقة الكُمَّل السائرين إلى الله تعالى، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، والدعاء بها يتناول: دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد.

* * *

وفيما يأتي ذكر لبعض أسماء الله الحسنى: معانيها وآثار الإيمان بها:

٧٤ – مفهوم ١٤: اسم الله «العظيم» وآثار الإيمان به:

مادة (ع ظ م) في اللغة تدل على الكِبَر والقوة، ومعظم الشيء: أكثره [ينظر مقاييس اللغة مادة (ع ظ م)]، والله ﷻ هو «العظيم» أي: القوي الكبير في كل كمال؛ فهو سبحانه عظيم في ذاته وأسمائه وصفاته: عظيم في رحمته، عظيم في قدرته، عظيم في حكمته، وهكذا في كل صفاته سبحانه؛ فهو موصوف بكل صفة كمال، وله من هذا الكمال أعظمه وأتمه.

كما أنه لا يستحق أحد من خلقه أن يعظم كما يعظم الله تعالى ولا يجوز ذلك؛ فالله وحده هو الذي يستحق أن يعظمه عباده بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم؛ وذلك ببذل الجهد في معرفته، ومحبته، والذل والانكسار له، والخضوع لكبريائه، وخشيته، وحمده والثناء عليه، وشكره على نعمه.

والإيمان بهذا الاسم وتعظيم الله تعالى بموجبه له مظاهر وثمرات، منها:

١ – معرفته حق المعرفة، وإفراده بالعبادة، ونفي الشرك والأنداد عنه.

٢ – الخشوع والخضوع له سبحانه، والانكسار لكبريائه ﷻ.

٣ – محبته وإجلاله وتوقيره.

٤ – إثبات ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، وتنزيهه عن أن يشبه أحدًا من خلقه.

٥ – تعظيم أمره ونهيه الواردين في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ، وعدم التقديم بين يدي الله ورسوله برأي أو اجتهاد؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠].

٦ – تعظيم شعائر الله؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، وشعائر الله تشمل: الحج ومواطنه، والصلاة ومساجدها –وخاصة المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ–، والزكاة، والصيام، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل أمور الإسلام الظاهرة الواجب اتصاف أمة الإسلام بها.

❋ ❋ ❋

٧٥ - مفهوم ١٥: اسم الله «الحي» وآثار الإيمان به:

الله سبحانه هو الحي الباقي، الذي لا يجوز عليه الموت ولا الفناء -تعالى الله عن ذلك سبحانه- وحياته ﷻ كاملة لا يعتريها سنة ولا نوم؛ فالنوم أخو الموت، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال ﷺ: (**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**) [رواه مسلم (١٧٩)]، فحياته سبحانه تستلزم جميع صفات الكمال، وتنفي أضدادها من جميع الوجوه.

ومن أهم آثار الإيمان باسم «**الحي**» على هذا النحو:

- التوكل عليه سبحانه كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]؛ فمن يؤمن بحياة الله الكاملة التي لا يعتريها سنة ولا نوم يقوى توكله عليه جدًا، ويكون ربه هو ملجؤه وذخره في كل حين.
- الزهد في الحياة الدنيا الفانية وعدم الاغترار بها، لأن العبد مهما أُعطي من العمر فلا بد له من الموت، أما الحياة الدائمة فهي التي يهبها الله الحي القيوم لعباده في الآخرة؛ فينعم المؤمنين في جنات النعيم، ويعذب الكافرين في نار الجحيم؛ وذلك أبد الآبدين؛ كما قال ﷺ: (**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار جيء بالموت، حتى يُجْعل بين الجنة والنار، ثم يُذبح، ثم ينادي منادٍ: يأهل الجنة خلود ولا موت، يا أهل النار خلود لا موت؛ فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم**) [رواه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠)].

* * *

٧٦ - مفهوم ١٦: اسم الله «القيوم» وآثار الإيمان به:

«القيوم» هو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد، وقام به كل شيء؛ فكل ما سواه محتاج إليه بالذات [ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١١١)]، وقيوميته سبحانه دليل على كمال غناه وكمال قوته؛ لأن من قام بنفسه كان غنيًا عن غيره كامل الغنى، وقادرًا بذاته تام القدرة. ومن معاني «القيوم» أيضًا: الباقي الذي لا يزول.

وجمعت آية الكرسي بين اسمي «**الحي**» و«**القيوم**»؛ فاسم «**الحي**» جامع لصفات

ذات الله سبحانه، واسم «**القيوم**» جامع لصفات أفعاله؛ ولهذا قيل: إن «**الحي القيوم**» هما اسم الله الأعظم؛ لجمعهما لسائر معاني أسمائه وصفاته سبحانه.

ومن آثار الإيمان باسم القيوم على هذا النحو:

١ - إجلال الله وتعظيمه ومحبته؛ فالذي يقوم بذاته ويقوم به كل ما سواه هو أهل للإجلال والتعظيم والمحبة.

٢ – تبرؤ المرء من حوله وقوته، وافتقاره التام لله الذي يقوم به كل شيء، وقطع التعلق بالمخلوق الضعيف الذي لا يختلف عمن يتعلق به في افتقاره إلى الله تعالى؛ ولذا ورد في الحديث الاستغاثة باسمي: «الحي القيوم»؛ قال ﷺ: (**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**) [رواه الترمذي (٣٥٢٤)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي].

٣ – يقين عباد الله المتقين بحفظ الله لهم ولطفه ورعايته؛ فإذا كان يقيم كل المخلوقين: طائعهم وعاصيهم، فكيف تكون قيوميته لمن اتقاه وتولاه، وآثره على من سواه.

٤ – إجابة دعوة من دعا باسمي: «**الحي القيوم**»؛ كما ورد في الحديث: أن رجلًا دعا فقال: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم». فقال النبي ﷺ: (**لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**) [رواه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٢٦)].

٥ – الخوف من الله تعالى وخشيته سبحانه؛ لأنه قائم على كل نفس، لا يخفى عليه شيء من أمرها؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣].

❊ ❊ ❊

٧٧ – مفهوم ١٧: اسما الله: «الأول» و«الآخر» وآثار الإيمان بهما:

«**الأول**» في اللغة هو موضع التقدم والسبق، والذي يأتي غيره بعده –سواء كان ذلك في الزمان، أو المكان، أو الرتبة والمنزلة– و«**الآخر**» عكسه؛ فهو الذي ليس بعده شيء.

وقد ورد الاسمان في القرآن الكريم مقترنين ببعضهما البعض؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]؛ فـ«**الأول**» في حق الله تعالى

معناه: الذي ليس قبله شيء، و«**الآخر**» هو الذي ليس بعده شيء كما فسَّره النبي ﷺ في دعائه، قال: (**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدين وأغننا من الفقر**) [رواه مسلم (٢٧١٣)].

- فاسم الله «**الأول**» يدل على أن كل ما سواه سبحانه حادث كائن بعد أن لم يكن.
- واسم الله «**الآخر**» يدل على أن كل ما سواه مآله إلى فناء، والله وحده هو الباقي الذي لا انتهاء لوجوده.

وقد اشتهر عند المتكلمين تسمية الله تعالى ووصفه بلفظ: «القديم»؛ يريدون به ما لا أول لوجوده، وهذا معنى صحيح لكن لم يأت به نص من الكتاب أو السنة، فليس هو من أسماء الله الحسنى، والأولى الالتزام بلفظ: «**الأول**»؛ لموافقته لما ورد في كتاب الله تعالى، ولعموم معناه أيضًا في اللغة؛ فإن «القديم» يعم كل ما تقدَّم على غيره في الزمان فقط، بخلاف «الأول» الذي يدل على التقدم المطلق على كل شيء.

ومن أهم آثار الإيمان بهذين الاسمين الكريمين:

١ – الافتقار إلى الله وحده، والتجرد من التعلق بالأسباب والركون إليها:

- فاسم الله «**الأول**» يقتضي قصر النظر على سبق فضل الله ورحمته؛ فهو المبتدئ بالنعم قبل استحقاقها بأي وسيلة من العبد، وفضله سابق على الوسائل، بل الوسائل نفسها هي من فضله وجوده.
- واسم الله «**الآخر**» يقتضي كذلك عدم الركون للأسباب أو الوثوق بها؛ لأنها تنعدم وتنقضي لا محالة، ويبقى الله الدائم الباقي.

فالتعبد بهذين الاسمين الكريمين يحقق الافتقار إلى الله وحده؛ كونه المبتدئ بالنعم قبل استحقاقها، والباقي بعدها، الذي ليس له نهاية ولا زوال؛ فهو أول كل شيء وآخره.

٢ – تحقيق العبودية لله تعالى ومحبته؛ فهو «**الأول**» الذي ابتدأت منه المخلوقات، و«**الآخر**» الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يُقصد أو يعبد ويتأله؛ فكما خلقنا وحده وجب علينا عبادته وحده لتصح عبوديتنا له باسميه: «**الأول**»، و«**الآخر**».

٣ – إدراك أن الله سبحانه هو المعد والممد، ومنه السبب والمسبَّب؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد:١٧]، فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيًا، وهذا من سر اسميه: «**الأول**»، و«**الآخر**».

٤ – تحقيق الاستعاذة به سبحانه؛ فهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه كما قال أعرف الخلق به ﷺ: (**وأعوذ بك منك**) [رواه مسلم (٤٨٦)].

❋ ❋ ❋

٧٨ – مفهوم ١٨: اسما الله «الظاهر» و«الباطن» وآثار الإيمان بهما:

الله سبحانه هو الظاهر والباطن كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]، ومعنى ذلك كما فسَّره النبي ﷺ في الحديث: (**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**) [رواه مسلم (٢٧١٣)]؛ فالله سبحانه ظاهر على كل شيء وعالٍ عليه، فلا شيء يعلو عليه سبحانه، وهذا يدل على عظمة صفاته ﷻ واضمحلال كل شيء أمام هذه العظمة. وهو مع هذا: الباطن الأقرب لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إلى أحد منه سبحانه؛ كما قال ﷻ: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]؛ فهو قريب من جميع خلقه بعلمه وإحاطته، فيعلم بواطن الأشياء ودواخلها وخفاياها، ويطلع على السرائر والضمائر والخبايا ودقائق الأمور [ينظر تفصيل معنى قرب الله من عباده في المفهوم (٨٤)]. والإيمان بهذين الاسمين الكريمين على هذا النحو يحقق:

١ – تعظيم الله المعبود وجمع القلب عليه؛ فيصير الله له موئلًا يلجأ إليه في كل حين؛ وذلك أثر للاسمين؛ حيث: الاسم (**الظاهر**) يفيد العظمة والعلو والقدرة على كل شيء، والاسم (**الباطن**) يفيد قرب الله ﷻ من العبد بلطفه ورحمته وحسن تدبيره.

٢ – إدراك إحاطة الرب بالعالم كله، وأن جميع العوالم في قبضته سبحانه؛ وذلك أثر اسمه (الباطن)، وحين تظهر للمرء هذه الإحاطة وهذا الاطلاع على السرائر والخبايا يُطهِّر المرء عندها سريرته لعلمه أنها عند الله علانية، ويصلح غيبه لإدراكه أنه عنده شهادة، فيزكو بذلك باطنه ويسلم قلبه.

❋ ❋ ❋

٧٩ - مفهوم ١٩: اسم الله «الحق» وآثار الإيمان به:

الحق نقيض الباطل، وقد ورد اسم الله (**الحق**) في آيات قرآنية عديدة؛ منها قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه:١١٤].

كما ورد اسم الله (**الحق**) في الحديث الشريف: (**ولك الحمد أنت الحق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق**...) [رواه البخاري (١١٢٠)]. ويلاحظ أن لفظة حق في الحديث لم تلحق بها (**أل**) التعريف إلا في وصف الله تعالى؛ مما يدل على أنها من أسمائه عز وجل.

فالله الحق هو: الموجود المألوه حقيقة، المتحقق وجوده وإلهيته، وهو سبحانه حق في صفاته، كامل الصفات والنعوت، وكل قوله وفعله حق، ودينه حق، وكتابه حق، ورسله حق، وعبادته وحده لا شريك له حق. والإيمان بهذا الاسم على هذا النحو يحقق:

١ - تجريد المحبة والتعظيم لله عز وجل، وإفراده بالعبادة؛ لكونه الإله الحق.

٢ - الشعور بالغبطة والسعادة للهداية إلى الإسلام دين الله الحق.

٣ - الرضا والطمأنينة عندما تصيب العبد المصائب؛ للإيمان بأنها كائنة بعلم الله وحكمته، فهي حق لا باطل فيها، ولا عبث، ولا ظلم، ولا هوى.

٤ - التسليم لأحكام الشرع؛ لليقين بأنها حق وخير من لدن الله الحق.

٥ - تصديق كل ما أخبر به الله عز وجل من المغيبات وأخبار الأمم السابقة؛ للإيمان بأنها حق أخبر به الله الحق.

* * *

٨٠ - مفهوم ٢٠: اسما الله: «الكبير» و«المتكبر» وآثار الإيمان بهما:

ورد اسم الله (**الكبير**) في القرآن الكريم في ستة مواضع؛ منها قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، وقول الله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢]. وورد اسم الله (**المتكبر**) في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا

يُشۡرِكُونَ﴾[الحشر:٢٣].

والله سبحانه كبير الشأن في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ فكل شيء في الوجود يصغر أمام كبره ﷻ؛ ولهذا شُرع لنا تكبير الله ﷻ على العموم والإطلاق؛ قال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر:٣]، كما شُرع في أحوال ومواطن عديدة للتأكيد على هذا المعنى؛ فالصلاة تُفتتح بقولنا: «الله أكبر»، ويشرع التكبير في العيدين، وأول الأذان وآخره، وأول الطواف، وعند محاذاة الحجر الأسود في كل شوط، وعند الرقي على الصفا والمروة، وعند رمي الجمرات، وعقب الصلوات مع التسبيح والحمد، وفي عشر ذي الحجة، وعند النوم مع التسبيح والحمد أيضًا، وحال الجهاد في سبيل الله، وعند رؤية آية من آيات الله...إلخ.

وبالتأمل في هذه المواطن والأحوال نجد أن التكبير فيها يكون إما قبل الشروع في العبادة أو بعدها، أو في مواطن اجتماع الناس، أو عند لقاء عدو من إنس أو جن، أو عند رؤية آية من آيات الله؛ وكل ذلك يؤكد كون كل أحد، وكل شيء، وكل قيمة، وكل حقيقة تصغر أمام حقيقة الله الكبير المتعال.

واسم الله (**المتكبر**) كما أنه يفيد ما أفاده اسمه (**الكبير**) فهو يفيد أيضًا:

- تكبر الله وتنزهه عن كل سوء وشر.
- وتكبره وتنزهه عن الظلم فلا يظلم أحدًا سبحانه.
- وتكبره وتنزهه عن مشابهة خلقه في صفاته.
- وتكبره على عتاة البشر وجبابرتهم؛ فلا يقدرون على رد قضائه بهلاكهم وقتما يريد ذلك وفق حكمته وعلمه.

ومن آثار الإيمان بهذين الاسمين الشريفين:

١ – امتلاء القلب بالتواضع لله تعالى والانقياد لأوامره وأحكامه.

٢ – الخوف من الله تعالى وتعظيمه والحياء منه؛ مما يثمر التقوى والفرار من المعاصي.

٣ – اليقين بأنه ما من متكبر وطاغية إلا سيقصمه الله ﷻ وفق حكمته في الدنيا والآخرة، وذلك يثمر عدم الاغترار بقوة الكفار وجبروتهم، وتفويض أمر النصر عليهم إلى الله ﷻ بعد السعي لتحقيق أسبابه وشروطه؛ فالله سبحانه هو الكبير المتعال.

٤ – الجد في الدعوة إلى الله تعالى وتحمل أعبائها؛ لكونها أكبر من كل المصاعب والمتاعب التي يواجهها الداعي إلى الله؛ فالله سبحانه هو: (**الكبير المتكبر**).

❁ ❁ ❁

٨١ – مفهوم ٢١: أسماء الله: «العلي»، «الأعلى»، «المتعال» وآثار الإيمان بها:

جاء ذكر هذه الأسماء الحسنى في أكثر من آية في كتاب الله ﷻ؛ قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩]، واقترن اسم الله (**العلي**) واسمه (**المتعال**) باسمه (**الكبير**) في آيات عديدة؛ كما في الآية الأخيرة، وكما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢]؛ وذلك لأن هذه الأسماء مثل اسمه (**الكبير**) تدل على علو الله تعالى وكبره على كل شيء.

فـ(**العلي**) و(**الأعلى**) هو: العالي الذي ليس فوقه شيء، وهو الذي علا الخلق فقهرهم لقدرته، وهو الذي لا رتبة فوق رتبته، ولا تلحقه صفات الخلق، ولا تكيفه أوهامهم.

و(**المتعال**): الذي جلَّ عن إفك المفترين، وتنزه عن وساوس المتحيرين.

فلله تعالى جميع أنواع العلو:

١ – علو الذات بالاستواء على العرش؛ استواء يليق بعظمته وجلاله كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وعرشه فوق مخلوقاته جميعًا ومحيط بها.

٢ – علو القهر والغلبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

٣ – علو المكانة والقدر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧]؛ والمثل الأعلى: الصفات الكاملة التي لا يخالطها نقص ولا يشوبها باطل.

❁ ❁ ❁

٨٢ – مفهوم ٢٢: تحريف الأشاعرة لمعنى العلو والاستواء:

ربما أثبت الأشاعرة لله تعالى النوعين الأخيرين من العلو –أي علو القهر والغلبة، وعلو المكانة والقدر– ولكنهم ينكرون النوع الأول: علو الذات والاستواء على العرش؛ ينكرونه رغم ورود النصوص المستفيضة في ذلك من آيات وأحاديث؛ كالآية السابقة وغيرها،

ويزعمون في إنكارهم هذا أن هذه المسألة من باب «العقليات» لا «السمعيات»، والعقل عندهم يحكم باستحالة ثبوت جهة لله سبحانه؛ لأن إثبات الجهة -بزعمهم- هو من خصائص الأجسام، والله منزه عن الجسمية. وبسبب هذه اللوثة العقلية يُؤوِّل الأشاعرة الاستواء الوارد في ست آيات من كتاب الله تعالى بالاستيلاء، وهذا تحريف للنصوص وليس تأويلًا، بل يؤدي إلى محظور ومنكر آخر جديد؛ حيث يفيد المصارعة والمغالبة على العرش بين الله وخلقه لينتصر الله بعد ذلك ويستولي عليه، تعالى الله عما يقولون علوًّ كبيرًا.

ومن عجيب أمرهم أنهم يثبتون رؤية الله تعالى يوم القيامة، وعمدتهم في ذلك العقل لا السمع، ومع ذلك ينفون العلو، مع أن العقل يحيل ذاتين منفصلتين ترى كل منهما الأخرى بلا جهة ولا مقابلة. وقد تسببوا بقولهم هذا في سخرية المعتزلة منهم؛ حيث قالوا: «من أثبت الرؤية وأنكر الجهة فقد أضحك الناس على عقله» [يُنظر بيان تلبيس الجهمية، ص٨٨].

ومن الأدلة النصية الجلية على علو الله بذاته قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]؛ ففيه دليل على علو الله تعالى في السماء، وأنه بائن من خلقه مستوٍ على عرشه.

ويدل على العلو من السنة الحديث المتواتر: (**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يسألني فأعطيه، من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له**) [رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)]، وهو نزول حقيقي يليق بجلال الله ﷻ ويؤمن به أهل السنة من غير تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا تشبيه.

* * *

٨٣ - مفهوم ٢٣: آثار الإيمان بالعلو لله تعالى:

الإيمان بالعلو لله تعالى بأنواعه الثلاثة -علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر والمكانة- يثمر للعبد آثارًا إيجابية عديدة، من أهمها:

١ - الخضوع لله تعالى والإخبات والتذلل له سبحانه، مع محبته وتعظيمه وإجلاله، وهذان هما ركنا العبودية لله تعالى.

٢ - التواضع لله تعالى ولما أنزله سبحانه من الحق؛ فالإيمان بالعلو يوجب ذلك ويقرره.

٣ – الحذر من العلو في الأرض بغير الحق، وتجنب ظلم العباد والتكبر عليهم وقهرهم؛ لليقين بعلو الله القاهر لكل ظالم جبار متكبر في الأرض.

٤ – تخلص القلب من الخوف من المخلوق الضعيف؛ فمهما أوتي من قوة وعلو فإن الله فوقه بقدرته وقهره.

٥ – تنزيه الله تعالى عن كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله، وإثبات الكمال له سبحانه، وحمده على ذلك.

* * *

٨٤ – مفهوم ٢٤: قرب الله تعالى ومعيته:

قرب الله تعالى ومعيته لعباده نوعان: عام وخاص:

– **فالقرب والمعية العامة** هما بالعلم والقدرة على الخلق؛ ومن أدلتها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، وقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨]، وختم الآيتين الأخيرتين بالعلم أو الإحاطة يدل على أن هذا هو المقصود بالمعية.

– **والقرب والمعية الخاصة** هما قربه ومعيته ﷻ لعابديه المتقين؛ وذلك بقبول عبادتهم وإجابة دعواتهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، ولهذا فقد قرن قوله ﴿قَرِيبٌ﴾ في هاتين الآيتين بالإجابة: ﴿مُّجِيبٌ﴾، ﴿أُجِيبُ﴾.

كما تكون معية الله الخاصة لعباده المتقين أيضا بالإعانة والتأييد؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

* * *

٨٥ – مفهوم ٢٥: اسما الله: «القاهر» و«القهار»، وآثار الإيمان بهما:

أصل القهر في اللغة: الترويض والتذليل؛ يقال: «قهر فلان الناقة» إذا راضها وذللها.

وهو في حق الله تعالى بمعنى: المذلل لخلقه، المستعبد لهم، العالي عليهم. [ينظر تفسير الطبري (٧/ ١٠٣)]؛ فالله سبحانه هو الذي خضعت له الرقاب، وذلَّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق وتواضعت لعظمته وكبريائه.

وقد ورد اسم الله (القاهر) في القرآن الكريم مرتين؛ منهما قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨]، ويلاحظ مجيء كلمتا: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بعد اسم الله ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾ في هذه الآية، وكذلك في الآية الأخرى؛ وما ذاك إلا لأن القهر يكون من الأعلى للأدنى، فهو يقتضي العلو والرفعة. كما يفيد قوله تعالى بعدها: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ السكينة والاطمئنان للعبد المؤمن بعد الخوف والوجل من الله ﷻ؛ لأنه يدل على جريان أمر الله تعالى على مقتضى الحكمة والخبرة وما فيهما من خير وسداد، فتطمئن النفوس بعد الخوف، وتسكن عن القلق والاضطراب.

كما ورد اسم الله (القهار) في القرآن الكريم ست مرات؛ منها قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]، وقد اقترن اسمه (القهار) في المواضع الستة باسمه (الواحد)؛ وذلك لأن القهار صيغة مبالغة من (القاهر) فلا يكون إلا واحدًا لا كفء له، وإلا لم يكن قهارًا. ومن آثار الإيمان بهذين الاسمين الجليلين:

١ – إفراد الله ﷻ بالعبادة والقصد؛ فلا يصرف شيء منهما لأحد من المخلوقين المربوبين المقهورين؛ كما قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

٢ – الاستكانة لله ﷻ، والخضوع لحكمه وإرادته الشرعية والكونية، والبعد عن التكبر على العباد كي لا يندرج تحت وصف الجبابرة الذين يقهرهم الله بعزته وقوته.

٣ – التعلق بالله وحده، والتوكل عليه، وقطع العلائق بالأسباب المقهورة بعد بذلها تحقيقًا لسنة بذل الأسباب، وربطًا للمسببات بأسبابها دون الاعتماد عليها والتعلق بها.

٤ – تعظيم الله سبحانه والوجل منه وحده، وعدم الخوف من المخلوقين مهما عظموا وتجبروا؛ فهم في نهاية الأمر مغلوبون مقهورون من الله الواحد القهار.

٥ – الإيمان بالعزة والقوة لله وحده؛ حيث يتضمنهما اسم الله **(القهار)**.

* * *

٨٦ – مفهوم ٢٦: اسم الله «العزيز» وما يفيده:

كثر جدًّا ورود اسم الله **(العزيز)** في القرآن الكريم حتى بلغ ثمانيًا وثمانين مرة؛ مُعرَّفًا في بعضها بـ(أل) التعريف، وفي بعضها الآخر بدونها.

والعزة ضد الذل، وهي تتضمن: القوة والغلبة، والامتناع، والشرف؛ فالله سبحانه ذو العزة الكاملة: عزة القوة فهو القوي العزيز، وعزة الغلبة فهو القهار لجميع مخلوقاته، وعزة الشرف والامتناع فيمتنع أن يناله أحد من مخلوقاته بسوء أو ضر.

والإيمان بهذا الاسم الكريم يثمر ما يثمره الإيمان بالأسماء: (القهار)، (القوي)، (المتكبر).

* * *

٨٧ – مفهوم ٢٧: اقتران اسم الله «العزيز» باسميه: «الحكيم» و«الرحيم»:

كثر اقتران اسم الله **(العزيز)** في المرات الثماني والثمانين التي ذكر فيها باسمين كريمين آخرين: **(الحكيم)**، و**(الرحيم)**:

– فقد اقترن باسم **(الحكيم)** خمسًا أو ستًا وأربعين مرة؛ وما ذاك إلا لينتفي توهم أن عزة الله فيها شيء من الظلم أو الجور –كما هو الحال في عزة أغلب أهل الأرض– فعزته سبحانه لا تكون إلا مقرونة بالحكمة والعدل؛ ومن أمثلة ذلك: عزته التي اقتضت حد السرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [المائدة:٣٨]؛ فهي مقرونة بالحكمة لكف هذا الحد الناس عن السرقة.

– كما اقترن اسم الله **(العزيز)** باسمه **(الرحيم)** ثلاث عشرة مرة؛ منها تسع مرات في سورة الشعراء وحدها؛ حيث يأتي عقب كل قصة من قصص الأنبياء مع قومهم قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [ينظر سورة الشعراء الآيات:٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠، ٢١٦]، وهذا الاقتران في هذه الآيات لأن القصص تحكي إهلاك الله تعالى للكافرين المكذبين من كل قوم، وتنجية المؤمنين منهم مع أنبيائهم، فيفيد التعقيب: أن الله

(**عزيز**) على الكافرين (**رحيم**) بالمؤمنين، كما أن هذا الاقتران ينفي أيضًا توهم بعض الناس أن العزة تنافي الرحمة؛ فالله سبحانه ينفي ذلك عن نفسه، ويبين أنه ﷻ: عزيز، قوي، مقتدر، وهو مع ذلك: رحيم، لطيف، كريم.

* * *

٨٨ - مفهوم ٢٨: اسم الله «القوي» وما يفيده:

القوة في اللغة هي القدرة على الفعل، وهي ضد الضعف.

والقوة في حق الله تعالى هي: كمال القدرة والاستغناء؛ فالله لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه رادٌّ، وهو (**القوي**) الذي لا تنتهي قوته، وتتصاغر كل قوة أمام قوته، ولا يلحق قوته ضعف أو قصور؛ ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]؛ حيث القوة تدل على القدرة التامة، والمتانة تدل على شدة هذه القوة والقدرة؛ أي إن الله ﷻ من حيث إنه بالغ القدرة وتامها: قوي، ومن حيث إنه شديد القوة: متين.

وقد ورد اسم الله (**القوي**) في غير ما آية من كتاب الله؛ منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٥٢]، فقوة الله هي وحدها القوة، ومنها تستمد القوة الحقيقية، وما عدا ذلك فهو واهن ضئيل هزيل مهما علا واستطال، ومهما طغى وتجبر، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وآثار الإيمان بهذا الاسم هي نفسها آثار الإيمان بأسمائه: الكبير، العلي، الأعلى، القهار، والعزيز. أمَّا مظاهر قوة الله تعالى في الدنيا والآخرة فلا تعد ولا تحصى، ومنها:

١ - نصرته ﷻ لأنبيائه وأتباعهم رغم بطش أعدائهم بهم؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود:٦٦].

٢ - رزق العباد دون مقابل أو طلب معونة؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩].

٣ – حفظ النعم واستمرارها لمن أطاع الله: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

٤ – كثرة جنود الله وتنوعها؛ كالملائكة، والريح، والزلازل، والبراكين، ...إلخ؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الذاريات:١٥، ١٦].

٥ – شدة عذابه للطغاة والظالمين في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥].

* * *

٨٩ – مفهوم ٢٩: اسم الله «الجبار» وآثار الإيمان به:

جاء اسم الله **(الجبار)** في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر:٢٣].

وللجبر في اللغة معانٍ ثلاثة:

١ – الإكراه على الشيء: جبر الرجلَ على فعلٍ؛ أي: أكرهه عليه.

٢ – القوة والعلو والطول؛ قال تعالى حكاية عن قول بني إسرائيل عن سكان الأرض المقدسة: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢]؛ أي: أقوياء طوال عظام. ويقال للنخلة الطويلة التي تفوت يد المتناول: جبارة.

٣ – الجبر عكس الكسر: جبر العظم يجبره أي: أصلح كسره، ومنه الجبيرة التي توضع للعظم المكسور. وجبر الرجل من الفقر: أغناه.

وتتحقق هذه المعاني كلها لله تعالى؛ فهو الذي يجبر خلقه على ما يريد من أمره الكوني القدري -بخلاف الأمر الشرعي الذي يرضاه لهم ولا يجبرهم عليه- وهو العالي القوي الذي لا يطال علوه ولا قوته أحد، وهو الذي يجبر الكسر ويغني من الفقر؛ فهو الرؤوف الجابر للقلوب المنكسرة ولكل ضعيف عاجز يلجأ إليه ويلوذ به.

وآثار الإيمان بالمعنيين الأولين لاسم الله **(الجبار)** هي نفسها آثار الإيمان بأسمائه: الكبير، الأعلى، القوي، العزيز. أما الإيمان بالمعنى الثالث لهذا الاسم الكريم فيثمر في قلب المؤمن:

محبة الله ﷿، وطلب الحاجات منه وحده؛ لذا كان من دعاء النبي ﷺ في الجلوس بين السجدتين في الصلاة: **(اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني وارفعني واهدني وعافني وارزقني)** [رواه الترمذي (٢٦٢)، وابن ماجه (٨٩٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٧٣٢)].

* * *

٩٠ - مفهوم ٣٠: اسم الله «القدوس» وآثار الإيمان به:

القدس في اللغة: الطهر، ويشمل النزاهة عن كل نقص ومستقذر حسي أو معنوي.

وقد ورد اسم الله **(القدوس)** في آيتين: قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ...﴾ [الحشر:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الجمعة:١]؛ فالله ﷿ هو الطاهر المنزه عن الشر والنقص والعيب، وعن كل ما لا يليق به سبحانه. ومن آثار الإيمان بهذا الاسم الكريم:

١ - محبة الله ﷿ وتعظيمه وإجلاله؛ لاتصافه بصفات الكمال والجلال، وتنزهه عن النقائص والعيوب.

٢ - تنزيه الله ﷿ في أسمائه وصفاته عن كل نقص وعيب؛ وذلك يشمل:

- إثبات ما أثبته الله ﷿ لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ مع تنزيهه عن مشابهة أحد من خلقه.
- تنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد والأنداد؛ فهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

٣ - تنزيه أفعال الله وأقواله وخلقه وأمره عن العبث والسدى؛ فكل خلقه وأمره وقوله وفعله عن علم وحكمة وعزة ورحمة.

٤ - اجتناب إساءة الظن بالله تعالى؛ لأن في ذلك عدم تقديس له سبحانه، وهو الله **(القدوس)**، وقد قال الله تعالى عن المنافقين والمشركين: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح:٦].

٥ - التحاكم إلى شرع الله والرضا به والتسليم له؛ فكل من رفض حكم الله أو التحاكم إليه لم يقدس الله ﷿.

٩١ - مفهوم ٣١: اسم الله «المهيمن» وآثار الإيمان به:

ورد اسم الله (المهيمن) في آية سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ...﴾ [الحشر:٢٣].

و(**المهيمن**) هو الشاهد الرقيب الحافظ، وقيل: أصله بهمزتين: (مؤأمِن) أي: يؤمِّن غيره من الخوف، وقلبت الهمزة الثانية ياء كراهة اجتماع همزتين، ثم قلبت الأولى هاء كما يقولون في أراق: هراق.

ومن كان شاهدًا على أحد مراقب وحافظ له فهو مسيطر عليه، ولكنها سيطرة لصالح المسيطَر عليه ولتأمينه من الخوف والضياع؛ فقد وصف الله ﷻ القرآن الكريم بأنه **مهيمن** على الكتب السابقة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، فالقرآن الكريم الذي هو كلام الله وصفة من صفات ذاته سبحانه حاكم على الكتب السابقة، ناسخ لبعض أحكامها، مظهر لما فيها من الحق، ونافٍ لما دخل عليها من تحريف.

فالله سبحانه (**المهيمن**) شاهد على خلقه وأعمالهم، رقيب عليهم وعلى أرزاقهم وآجالهم، حافظ لهم، ويؤمنهم من الضلال إن هم أطاعوه ولجأوا إليه سبحانه.

والإيمان بهذا الاسم الكريم يثمر:

١ - مراقبة الله في السر والعلن، والخوف منه وإجلاله؛ لكونه رقيبًا على خلقه شاهدًا عليهم.

٢ - محبة الله ﷻ، وطاعته واللجوء إليه؛ لأنه الذي يؤمن خلقه من الهلاك والضياع في الدنيا والآخرة.

٣ - الرضا بحكم الله وشرعه، والتحاكم إليه؛ لأن كتاب الله تعالى هو الحق **المهيمن** على سائر الكتب والشرائع.

❊ ❊ ❊

٩٢ - مفهوم ٣٢: اسم الله «الفتاح» وآثار الإيمان به:

للفتح في اللغة عدة معانٍ:

١ - الفتح عكس الإغلاق -وهو أصل الفتح، وعنه تتفرع المعاني الأخرى- فالفتح:

إزالة الإغلاق والإشكال، ومنه ما يدرك بالحس والبصر كفتح الباب ونحوه، وما يدرك بالبصيرة كفتح الغم وإزالة الهم؛ مثل إزالة هم الفقر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، ومثل فتح المستغلق من العلم والفهم؛ تقول: فتح الله على فلانٍ من العلم فتحًا مبينًا.

٢ – الفتح: النصر، ومنه الاستفتاح أي: طلب النصر. وفتح الثغور والبلاد بالجهاد هو النصر على الأعداء وإزالة استغلاق هذه البلاد وامتناعها على المجاهدين.

٣ – الفتح: الحكم، ومنه الحكم بين المتخاصمين وإزالة الإشكال بينهما، والحكم على أحد بأمر ما؛ كحكم الله على العباد بحكمه الشرعي وحكمه الكوني القدري.

وقد ورد اسم الله **(الفتَّاح)** بصيغة المبالغة على وزن (فعَّال) مرة واحدة في القرآن الكريم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٦]، كما ورد بصيغة التفضيل في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٩٦]؛ ولهذا كان أظهر معاني **(الفتَّاح)** في حق الله تعالى أنه: الحكم بين عباده في الدنيا وفي الآخرة، والحاكم عليهم بحكمه الشرعي والقدري.

وصيغة المبالغة **(الفتَّاح)** تفيد كثرة فتح الله وتنوعه؛ لذلك يدخل فيه أيضًا فتح الغم وإزالة هم الفقر، وفتح المستغلق من الأمور، ونصر المؤمنين على أعدائهم.

ومن آثار الإيمان بهذا الاسم الجليل:

١ – التوكل على الله تعالى واللجوء إليه وطلب الحاجات منه وحده، والاطمئنان إلى حكمه عَزَّ وَجَلَّ، ومحبته لكثرة فتحه على عباده المؤمنين وإزالة ما ينغلق عليهم.

٢ – مراقبة الله واجتناب ظلم العباد خشية الوقوف بين يدي الله الفتاح يوم القيامة للفصل والحساب بين العباد بالحق والعدل.

٣ – الثقة في نصر الله تعالى وطلب الفتح منه، وعدم اليأس والقنوط إذا أبطأ النصر.

٤ – الاغتباط بحكم الله الشرعي وشكر نعمة الهداية إليه، والرضا بحكمه القدري وطلب أن تكون عاقبته خيرًا؛ كما في قول النبي ﷺ: **(اللهم أجرني في مصيبتي واخلف عليَّ بخير منها)** [رواه مسلم (٩١٨)، وأحمد (٢٦٦٦٩) واللفظ له].

٩٣ - مفهوم ٣٣: اسم الله «المجيد» وآثار الإيمان به:

ورد اسم الله (**المجيد**) في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود:٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥] على قراءة من قرأها بالرفع: (**المجيدُ**)؛ وهي قراءة السبعة عدا حمزة والكسائي الكوفيين؛ حيث يقرؤونها بالخفض على أنها صفة للعرش.

والمجد هو السعة وبلوغ النهاية في الكرم والشرف والجلال؛ فالله سبحانه (**المجيد**) أي: واسع الكرم فلا كرم فوق كرمه، وقد تمجَّد بفعاله وصفاته، ومجَّده خلقه لعظمته.

ووصف الله بـ(**المجيد**) يفيد كثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه.

ومن أهم آثار الإيمان بهذا الاسم الكريم:

١ - محبة الله ﷻ الذي وسع خلقه بكرمه وفضله ورحمته.

٢ - ترك التعلق بالمخلوق الضعيف الفقير إلى الله بذاته مهما كان فيه من مجد أو كرم محدود، واللجوء إلى الله وحده الكريم المجيد.

٣ - تمجيد الله سبحانه وتعظيمه وإجلاله بكثرة ذكره والثناء عليه بالتهليل والتكبير والحمد.

٤ - التقرب إلى الله ﷻ للنيل من كرمه ومجده؛ وذلك كما يحب المرء أن يكون قريبًا من كل إنسان كريم مجيد؛ فلله المثل الأعلى، وإليه التقرب الأوفى؛ ويكون ذلك بطاعته والتماس مرضاته، والبعد عن معاصيه ومساخطه سبحانه لنيل المجد والكرم منه ﷻ؛ فالله لا يهب المجد والرفعة والذكر الحسن إلا لمن عبده وحده ومجَّده واتقاه.

* * *

٩٤ - مفهوم ٣٤: اسم الله «الرقيب» وثمرة الإيمان به:

ورد اسم الله (**الرقيب**) في ثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢].

والرقيب هو: الحافظ الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يغيب عما يحفظه؛ فالله

سبحانه حفيظ شهيد على العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة، مُحصيًا لها، لا يغيب عنه شيء منها؛ يحيط سمعه بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجلية والخفية؛ فهو مطلع على ما أكنته الصدور، قائم على كل نفس بما كسبت، يحفظ المخلوقات ويجريها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

ومن أهم ثمرات الإيمان بهذا الاسم الجليل: تحقيق مراقبة العبد لربه ﷻ؛ فهذه المراقبة هي التعبد بأسماء الله: الرقيب، الحفيظ، الشهيد، العليم، السميع، البصير؛ فمن عقل هذه الأسماء وتعبَّد بمقتضاها حصلت له مراقبته لله ﷻ، وحقيقة ذلك: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الله على ظاهره وباطنه، وإذا تحقق له ذلك وملك عليه زمام نفسه أُورِثَ تقوى الله وراقب نفسه بحيث لا يراها ربها حيث نهاها، ولا يفتقدها حيث أمرها.

* * *

٩٥ – مفهوم ٣٥: اسم الله «المقيت» وآثار الإيمان به:

ورد اسم الله **(المقيت)** في قول الله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء:٨٥].

وللمقيت ثلاثة معانٍ:

١ – **المقيت**: الرقيب الحافظ الشهيد، وهو ما يدل عليه سياق الآية وورود حرف الجر (على) الذي ينبئ عن الاطلاع والمراقبة والشهادة.

٢ – **المقيت**: القدير، وتدل عليه الآية أيضًا وحرف الجر فيها (على) الذي يومئ أيضًا إلى معنى القادر على الشيء، وهذا المعنى هو لغة قريش كما أنشد الزبير بن عبد المطلب:

وذي ضغن كففت النفس عنه * وكنت على مساءته مقيتا

أي: كنت قادرًا على الرد على مساءته.

٣ – **المقيت**: معطي القوت، وهو ما يقتات به المرء ليحفظ نفسه؛ فهو بمعنى الوهاب الرزاق، وقد قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت:١٠]؛ فالله ﷻ قدَّر حاجة الخلائق بعلمه، ثم ساقها إليهم بقدرته ليقيتهم بها ويحفظهم. وفي الحديث: **(كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت)**

[رواه أبو داود (١٦٩٢) وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود، ورواه أحمد (٦٤٩٥) وصحَّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند برقم (٦٨٤٢)].

آثار الإيمان بهذا الاسم الجليل:

- الاسم (المقيت) بمعنى الرقيب والشاهد له آثار الإيمان بالاسم الرقيب نفسه.
- والاسم (المقيت) بمعنى القدير له آثار الإيمان بأسماء الله: القوي، والقدير، والعزيز.
- أما (المقيت) بمعنى واهب الأقوات فله الآثار:

١ – محبة الله الواهب الرزاق المدبر لشؤون خلقه.

٢ – الاعتماد على الله وحده والتوكل عليه في السعي على الرزق، وطلبه منه.

* * *

٩٦ – مفهوم ٣٦: اسما الله «الوكيل» و«الكفيل» وآثار الإيمان بهما:

الوكيل والكفيل معناهما في اللغة متقارب؛ فالتوكيل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبًا عنك؛ تقول: وكَّلت أمري إلى فلان أي: ألجأت أمري إليه واعتمدت فيه عليه.

والكفيل والكافل بمعنى الضمين والضامن، والكافل: العائل؛ فهو الذي يكفل إنسانًا فيعوله وينفق عليه، وفي التنزيل: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧].

وقد ورد اسم الله (الوكيل) في القرآن أربع عشرة مرة؛ من ذلك: قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر:٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [الأحزاب:٣]، وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

أما اسم الله (الكفيل) فقد ورد في القرآن الكريم مرة واحدة؛ قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ [النحل:٩١]، قال ابن جرير في تفسيره للآية: «وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيًا؛ يرعى الموفي منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض ... وقال مجاهد في معنى ﴿كَفِيلًا﴾: أي: وكيلًا».

ووكالة الله وكفالته لخلقه نوعان: عامة وخاصة:

- **فوكالته العامة** هي على جميع خلقه: بتدبير أمرهم، والتكفل بأرزاقهم وحاجاتهم؛ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:١٠٢]، فإخباره بأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وعلى كمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

- **ووكالة الله وكفالته الخاصة** هي لأوليائه المتقين؛ فهو الذي يتولى أولياءه فييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى، ويكفيهم أمورهم وهمومهم؛ وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]؛ ففي هذه الوكالة معنى زائد على المعنى العام؛ وهو معيته الخاصة لأوليائه وإعانته ونصرته لهم.

ومن أهم آثار الإيمان بهذين الاسمين الكريمين:

١ - محبة الله واللجوء إليه، والتوكل عليه ﷻ لنيل وكالته بنوعيها: العامة، والخاصة.

٢ - زوال القلق والهلع على الرزق، وتبدل ذلك إلى السكينة والطمأنينة؛ لليقين بتكفل الله بالرزق للبشر جميعًا، وأن ما عليهم سوى الأخذ بالأسباب المشروعة لطلب الرزق وتجنب الأسباب المحرمة، وترك أمر الرزق بعد ذلك على الله الوكيل الكفيل.

٣ - الثقة بوكالة الله ﷻ وكفايته الخاصة لعباده المؤمنين؛ إيمانًا بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:٣٦]، فالخلق كلهم -الإنس والجن وسائر المخلوقات- دون الله الوكيل الكفيل، الذي تنفذ إرادته، ويسري في عباده قضاؤه. وهي ثقة تستتبع السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين بربهم **الوكيل الكفيل**.

* * *

٩٧ - مفهوم ٣٧: الفرق بين وكالة الخالق ووكالة المخلوق:

اشتراك الخلق مع الخالق في مسمى (الوكيل) لا يعني التشابه في هذه الصفة؛ فالله سبحانه لا تشبه صفاته صفات المخلوقين بحال، ومن أهم الفروق بين الوكالتين:

١ - أن وكالة الله على خلقه ثابتة له بذاته دون الحاجة إلى توكيل أو تفويض من أحد، في حين لا تصح وكالة أحد من البشر إلا بتوكيل من الموكِّل إلى الموكَّل إليه.

٢ – وكالة الله على خلقه عامة في كل أمر، بينما وكالة المخلوق تكون فقط فيما يأذن به الموكِّل لوكيله.

٣ – الله سبحانه يوفي بما توكَّل به وما تكفله وفاءً تامًّا لا يمكن أن يتطرق إليه قصور أو خلل، أما المخلوق الموكَّل في أمر معين أو موكَّل توكيلًا عامًّا فقد يوفي بما وُكِّل به أو ببعضه -وهذا الوفاء منه إنما يكون بعون الله وتوفيقه له سبحانه- وقد يتتابه قصور فيما وُكِّل به؛ سواء لعدم أمانته في ذلك، أو لأن أحواله تتقلب من حال إلى حال؛ حيث يكون قادرًا على ما وكل إليه تارة وعاجزًا عنه أخرى، غنيًّا في وقت وفقيرًا في غيره، عالمًا بشيء جاهلًا بغيره، حيًّا في وقت وميتًا في غيره، والله جلَّ شأنه منزه عن القصور في كل ذلك.

* * *

٩٨ – مفهوم ٣٨: اسما الله: «الرحمن» و«الرحيم» والفرق بينهما:

صفة الرحمة ثابتة لله ﷻ بالكتاب والسنة، وهي صفة كمال لائقة بذات الله سبحانه كسائر الصفات.

وقد وُصِف الله ﷻ بـ(**الرحمن**) في القرآن الكريم نحوًا من خمس وأربعين مرة -غير ما ذكر في البسملة أول كل سورة- فمن ذلك: قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

كما وُصِف الله ﷻ بـ(**الرحيم**) في القرآن الكريم نحوًا من مائة واثنين وثلاثين مرة -غير ما ذكر في البسملة أول كل سورة- ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، وقوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩].

وقد فرَّق العلماء بين الاسمين (**الرحمن**) و(**الرحيم**) بالفروق الآتية:

١ – أن (**الرحمن**) هو: ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة إضافة إلى ذلك. بينما اسم (**الرحيم**) يختص بالمؤمنين فقط؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٣]؛ حيث يدل تقديم الجار والمجرور ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على اختصاص ﴿رَحِيمٗا﴾ بهم وحصرها فيهم؛ فالمعنى: كان بالمؤمنين لا غيرهم رحيمًا.

٢ - أن (**الرحمن**) يدل على الرحمة الذاتية القائمة بذات الله تعالى، بينما (**الرحيم**) يدل على رحمة الله الفعلية المتعلقة بالمرحوم.

٣ - لا يجوز أن يتسمى أحد أو يوصف بـ(**الرحمن**)، فهو اسم مختص بالله ﷻ، بينما يجوز وصف أحد من الخلق بأنه رحيم.

* * *

٩٩ - مفهوم ٣٩: أنواع رحمة الله والرحمة المضافة إليه سبحانه:

الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان:

١ - رحمة هي صفة لله تعالى -سواء كانت صفة ذات أو فعل- وهي التي دلت عليها الآيات السابقة، وقول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

٢ - رحمة مخلوقة من الله تعالى، أنزل منها جزءًا واحدًا يتراحم به الخلائق، وأمسك عنده تسع وتسعين جزءًا ليوم القيامة؛ كما قال النبي ﷺ: (**إن لله مائة رحمة؛ أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام؛ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**) [رواه مسلم (٢٨٤٦)]. وهذه الرحمة هي من باب إضافة المفعول إلى فاعله، وهي تشريف لها وليست صفة لله تعالى، بل هي من أثر رحمته سبحانه.

ورحمة الله التي هي صفة من صفاته ﷻ هي أيضًا نوعان:

١ - رحمة عامة لجميع الخلائق؛ وذلك بإيجادهم، ورِزْقهم، وتربيتهم، وإمدادهم بالنعم والعطايا، وتسخير ما في الكون لهم، ...إلخ؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]؛ فكل ما بلغه علم الله – وعلمه بالغ لكل شيء- فقد بلغته رحمته ﷻ.

٢ - رحمة خاصة بالمؤمنين؛ وهي في الدنيا بهدايتهم إلى الصراط المستقيم إضافة إلى الرحمة العامة التي يشتركون فيها مع جميع الخلائق؛ فهي رحمة دينية إيمانية إضافة إلى الرحمة الدنيوية. كما تكون لهم في الآخرة بأمنهم من الفزع الأكبر وإدخالهم الجنة.

* * *

١٠٠ - مفهوم ٤٠: مظاهر رحمة الله:

مظاهر رحمة الله لا يحصيها العد، ويعجز ابن آدم عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها؛ سواء في: ذات نفسه وتكوينه، أو في تكريمه وتسخير ما حوله له، أو ما أنعم الله به عليه من نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأجَلُّ ذلك: الرحمة بهدايته إلى الصراط المستقيم وشرع الله القويم. وتتوالى رحمات الله حتى أنها تتمثل فيما مُنِعَ عنه كما تتمثل فيما مُنِحَ له؛ فما مُنِعَ عنه إلا ما يضره ولا ينفعه؛ وذلك رحمة به.

ويجد هذه الرحمات في نفسه ومشاعره وما حوله كلُ من فتح الله عليه بالرحمة، بينما يفتقدها كل من أمسك الله عنه الرحمة، حتى ولو أُغرِق في النعم؛ لأنها تصير عليه حينئذ نقمة لا نعمة؛ وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]، فليستشعر العبد المؤمن ذلك؛ فإن شعوره برحمة الله له هو أجلُّ رحمة، ورجاؤه لرحمة الله وتطلعه إليها هو الرحمة بعينها، وثقته بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة ذاتها.

* * *

١٠١ - مفهوم ٤١: كيف تستجلب رحمة الله؟

تستجلب رحمة الله بعدة أمور، أهمها:

١ - فعل ما يُرضي الله تعالى وما يأمر به، واجتناب مساخطه وما ينهى عنه؛ وذلك باتباع ما جاء به النبي ﷺ من الشرع القويم؛ قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

٢ - الرحمة بالخلق والإحسان إليهم؛ قال ﷺ: **(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)** [رواه أبو داود واللفظ له (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٦٤٩٤)، وصحَّحه الألباني: مشكاة المصابيح (٤٨٩٧)، وشعيب الأرناؤوط: تخريج سير أعلام النبلاء (١٩/٢٢٨)].

٣ - تدبر القرآن الكريم والإنصات إليه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ

وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

٤ - الاستغفار؛ قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل:٤٦].

٥ - إصلاح ذات البين؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات:١٠].

* * *

١٠٢ - مفهوم ٣٨: آثار الإيمان باسمي الله «الرحمن» و«الرحيم»:

إن الإيمان بهذين الاسمين الكريمين يثمر في قلب العبد المؤمن:

١ - الاطمئنان والسكينة حال الابتلاء بالضراء والمحن، ليقينه برحمة الله المصاحبة لذلك، وأن الله لم يعرضه لذلك الابتلاء إلا لمصلحته ونفعه، ولم يتخل عنه ولم يطرده من رحمته؛ فهو سبحانه لا يطرد من يرجو رحمته أبدًا، وإنما يطرد الناس أنفسهم من رحمة الله حين يكفرون به ويعرضون عن سبيله.

٢ - امتلاء القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل في موعود الله بنصر عباده المؤمنين لكونه بهم رحيمًا.

٣ - عدم اليأس والقنوط مهما أسرف على نفسه في الذنوب، والتوبة إلى الله رجاء مغفرتها له برحمته ﷻ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

٤ - التحلي بصفة الرحمة في التعامل مع الخلق والإحسان إليهم تأسِّيًا برحمة الله؛ ومن أعظم الرحمة بالخلق: دعوتهم إلى التوحيد وتعبيدهم لرب العالمين وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

* * *

١٠٣ - مفهوم ٤٣: اسم الله «اللطيف» ومعناه:

اللطف في اللغة: الرفق، والصغر، والدقة، وإيصال الخير والمصلحة بتخف واحتيال كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١٩] أي: فليتخفَّ ولا يُعلمن بكم أحدًا. وقد ورد اسم الله (اللطيف) في القرآن الكريم سبع مرات، ومعناه فيها كلها يدور حول جُلِّ هذه المعاني اللغوية:

- فالله (**اللطيف**) رفيق بعباده كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩].
- والله (**اللطيف**) قد لطُفَ علمه ودق حتى إنه يدرك دقائق الأمور وما تخفيه الصدور؛ قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان:١٦].
- والله (**اللطيف**) يسوق إلى عباده مصالحهم بلطف ورفق وسبل خافية عليهم أو غير معتادة، لا يشعرون بها ولا يسعون فيها؛ حتى أنه قد يُقدِّر عليهم ما يُكره في العادة ويُتألم منه وحقيقته أنه سبيل لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم؛ وذلك كما حدث لنبي الله يوسف عليه السلام من إلقائه في البئر، وإبعاده عن أبويه، ودخوله للسجن؛ ليتحقق له آخر المطاف العز والسؤدد، ويصبح عزيز مصر؛ ولهذا قال يوسف عليه السلام في آخر قصته: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠]. كما يُستعمل اللطف بهذا المعنى في تفادي خطر محدق متمكن والنفاذ منه بأمر خفي دقيق من رحمة الله عز وجل.
- والله (**اللطيف**) لا يبدو بذاته لخلقه لعدم قدرتهم على رؤيته في الحياة الدنيا؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام حين طلب رؤيته عز وجل: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، ولا يمكن للبشر أن يدركوا الله بأبصارهم كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

والخلاصة أن الله (**اللطيف**) متوار عن عباده، وقد اجتمع له الرفق في الفعل، والعلم بدقائق الأمور ومصالح العباد، ويوصلها إلى من يريد منهم بالسبل الخفية غير المعتادة.

* * *

١٠٤ - مفهوم ٤٤: نموذج للطف الله بعباده المتقين وتهيئة أسباب نجاتهم وتمكينهم:

من مقتضى اسم الله (**اللطيف**) -كما أسلفنا- أن يأتي بأسباب نجاة عباده المتقين شيئًا فشيئًا بالتدرج لا دفعة واحدة، ومن أوضح صور ذلك: ما قدَّره سبحانه لنبيه موسى عليه السلام ومن معه من العباد المتقين للنجاة من فرعون وبطشه، وتمكينهم في الأرض؛ كما

ورد في سورة القصص؛ حيث قال تعالى في أولها: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥]:

- فكانت بداية ذلك: إنجاء موسى وهو رضيع من الذبح من خلال أمر هو مظنة الهلاك: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٥].

- فيأخذه آل فرعون ويتربى في قصره بطلب من امرأة فرعون: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩].

- ثم يحرم الله عليه المراضع حتى تعود إليه أمه لترضعه وتأخذ على ذلك أجرًا.

- ثم يبلغ أشده في قصر فرعون ويؤتيه الله حكمًا وعلمًا.

- ثم يخرج من مصر خائفًا يترقب بعد قتله للقبطي، ويعيش في مدين ويتزوج فيها.

- ليعود إلى مصر مرة أخرى بعد عشر سنين ومعه الآيات والمعجزات، ويغلب فرعون بالحجة والبرهان.

- ثم ينجيه الله وقومه، ويغرق فرعون وجنده في اليم ليمكن موسى وقومه في الأرض ويرث ما فيها.

فسبحان الله اللطيف الخبير، وعلى المؤمنين المستضعفين ألا ييأسوا، وأن يبذلوا جهدهم في تحقيق إيمانهم، ويأخذوا بأسباب النهوض، ويكلوا الأمر بعدها إلى الله **(اللطيف)** ليدبره لهم كيف يشاء وقتما يشاء.

* * *

١٠٥ - مفهوم ٤٥: سوء الظن بالله وبعض صوره:

سوء الظن بالله إثم كبير، وخطر جليل، وهو في الأصل وصف لأهل النفاق والشرك كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، فلا ينبغي أبدًا ولا يليق بالعبد المؤمن أن يقع في سوء الظن بربه سبحانه؛ سواء في أي

وصف لله ﷻ، أو أي فعل أو قضاء له سبحانه؛ فكل ظن لا يليق بحمد الله، وحكمته، ورحمته، وعلمه، وقدرته فهو سوء ظن بالله تعالى وقدح في موجب اسمه (**القدوس**).

ولسوء الظن بالله ﷻ صورٌ عديدة نذكر بعضها:

١ – ظن ما لا يليق بالله ﷻ في أسمائه وصفاته؛ سواء بتشبيهه سبحانه بخلقه، أو بتعطيل الصفة ونفيها عنه.

٢ – الشرك بالله: سواء في ربوبيته أو ألوهيته، وسواء في ذلك بعبادة غيره استقلالًا أو مع عبادته، أو بنسبة الصاحبة أو الولد له سبحانه، أو بدعاء الأولياء من دون الله وجعلهم وسطاء بين الله وخلقه.

٣ – اليأس والقنوط من رحمة الله؛ فذلك سوء ظن بالله ينافي اتصافه ﷻ بالرحمة والمغفرة.

٤ – إنكار القدر وعلم الله ﷻ بالأشياء قبل وقوعها.

٥ – الشك في وعد الله الصادق بنصرة رسله وأتباعهم، وتمكينهم، وعدم خذلانهم.

٦ – نفي الحكمة عن الله ﷻ، وادِّعاء أن أفعاله سبحانه تصدر عن مشيئة مجردة عن ذلك.

٧ – تجويز أن يعذب الله أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، أو أن يسوي بينهم وبين أعدائه، أو يؤيد أعداءه المكذبين به ويديلهم على المؤمنين إدالة دائمة مستقرة.

٨ – ظن أن الله خلق الخلق سدى وتركهم هملًا معطلين عن الأمر والنهي، وأنه لم يرسل لهم رسلًا ولا أنزل عليهم كتبًا.

٩ – إنكار البعث بعد الممات وحساب الخلق في اليوم الآخر الذي هو يوم الجزاء والدين.

١٠ – ظن أن من ترك شيئًا لله، أو فعل شيئًا له ﷻ فلن يعوضه خيرًا منه.

١١ – ظن أن الله يثيب المرء إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه.

❋ ❋ ❋

١٠٦ – مفهوم ٤٦: لا ينسب الشر إلى الله تعالى:

لا ينسب الشر إلى الله تعالى؛ فقد جاء عن النبي ﷺ في أحد أدعية استفتاح الصلاة، وفيه: (**والشر ليس إليك**) [رواه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)]، وهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إلى الله تعالى بأي وجه: لا لذاته، ولا لأسمائه أو صفاته، ولا لأفعاله؛ فهو سبحانه منزه عن ذلك، وأفعاله كلها خيرات محضة، وإنما يكون الأمر

شرًّا بالنسبة إلى المخلوق وما يتعلق به ويقوم به؛ وذلك كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩] أي: ما يصيبك يا ابن آدم مما يسوؤك فهو بسبب معاصيك.

ولا يتعارض ذلك مع كون الشر مثله مثل الخير واقع بتقدير الله ﷻ وقضائه كما قال تعالى ردًّا على المنافقين: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٧٨]، فما يفعله الله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض وإن كان شرًّا في نظرهم أو بالنسبة لهم؛ مثل قطع يد السارق أو القصاص من القاتل.

والحاصل أن الله خالق كل من الخير والشر، ولكن الشر يكون مفعولًا منفصلًا وليس وصفًا لله تعالى، ولا يقال: إنه سبحانه فاعل للشر، وإنما هو خيرٌ من جهة تعلقه بفعله سبحانه وتقديره، وشرٌّ من جهة نسبته إلى من هو شرٌّ في حقه؛ فهو أمر نسبي له وجهان:

أحدهما: خيرٌ؛ وهو الوجه الذي يُنسب إلى الله تعالى خلقًا وتكوينًا ومشيئة؛ لما فيه من الحكمة البالغة التي قد يستأثر الله بعلمها، أو يُطلع من يشاء من خلقه على ما شاء منها.

والثاني: وجه شر؛ وهو الوجه الذي يُنسب إلى المخلوق المتسبب فيه والواقع عليه.

ولهذا ينبغي التأدب مع الله في الحديث وعدم نسبة الشر إليه سبحانه؛ كما قال الخضر لموسى عليه السلام حين بيَّن له ما فعله في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] فنسب الأمر لنفسه، أمَّا حين بيَّن وجه الخير في بناء الجدار فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢] فنسب الخير لله تعالى، ثم قال عن الكل: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف:٨٢].

* * *

١٠٧ – مفهوم ٤٧: اسم الله «الحكيم» وما يفيده:

الحكيم في اللغة يفيد معنيين:

الأول: الحكيم بمعنى الحاكم؛ فهو صيغة مبالغة (فعيل) من اسم الفاعل (حاكم)، وهو في حق الله تعالى يتناول الحكم بنوعيه: القدري، والشرعي التكليفي أو الجزائي.

وقد سبق الكلام على الحكم في المفاهيم [رقم عام من ٥٠ إلى ٥٢].

الثاني: الحكيم هو الذي يُحْكِم الأشياء ويتقنها فلا يكون فيها فساد ولا خلل، والحكيم: ذو الحكمة، والحكمة هي وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها، أو هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

وعلى هذا المعنى الثاني للحكيم فالله **(الحكيم)** هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره؛ فلا يقول ولا يفعل إلا الصواب، ولا يعتري تدبيره خلل ولا زلل.

ويظهر أثر حكمته سبحانه في جميع خلقه، حتى ضعاف الخلق مثل النمل وسائر الحشرات؛ فيدل إتقان خلقها على وجود الله الصانع الحكيم كما يدل عليه خلق السماوات العظام، والأرض وما عليها من جبال، وما فيها من سهول وأنهار وبحار.

وحكمة الله تقتضي أنه ﷻ لا يفعل شيئًا عبثًا ولا لغير مصلحة؛ فأفعاله وأوامره كلها صادرة عن حكمة بالغة، ومن لوازم ذلك: ثبوت الغايات المحمودة لخلق الله وأمره، ووضع الأشياء مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. وإنكار ذلك إنكارٌ لاسم **(الحكيم)** ولوازمه.

والخلاصة: أن حكمة الله تعالى تكون في أمرين أساسين: الحكمة في خلقه وتدبير أمورهم، والحكمة في شرعه وأمره ﷻ.

* * *

١٠٨ - مفهوم ٤٨: نفاة الصفات ينفون الحكمة عن الله ﷻ:

من عجائب أمر الفلاسفة ونفاة الصفات وسفاهة عقولهم أنهم ينفون الحكمة عن الله تعالى؛ لأنها غرض، والله -بزعمهم- منزه عن الغرض، ولذا فهم يعُدُّون أفعال الله صادرة عن الإرادة المحضة دون غرض أو حكمة، وهذا ضلال وابتداع في الدين، وتعطيل للعديد من آيات الكتاب العزيز؛ فقد ورد اسم الله **(الحكيم)** فيه في واحد وتسعين موضعًا، وجاء فيها كلها مقترنًا باسم آخر من أسماء الله الحسنى:

- فاقترن بالاسم **(العزيز)** ستًا وأربعين مرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [المائدة:٣٨]، وقد

سبق بيان دلالة هذا الاقتران في المفهوم بالرقم العام:٨٧.

- واقترن باسم (**العليم**) سبع وثلاثين مرة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣]، وهو يدل على أن حكمة الله نابعة عن علم.

- واقترن أيضًا بالأسماء: (**الخبير**)، و(**التواب**)، و(**العلي**)، واقترن غير معرَّفٍ بـ(أل) مع (**واسع**) و(**حميد**).

❊ ❊ ❊

١٠٩ - مفهوم ٤٩: ظلم الإنسان وجهله بربه يوقعانه في إنكار حكمة الله فيما يسوؤه:

يتساءلون عن حكمة الله في المرض والجوع، والزلازل والكوارث، وموت الأحباب وحياة الأعداء، وانتشار الفساد وتسلط الظالمين وضعف المصلحين...إلخ.

فهؤلاء وأمثالهم لم يفهموا سنن الله ﷻ في خلقه؛ مثل سنة الابتلاء كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

كما أنهم لم يلتفتوا إلى صفة لطف الله التي يوصل بها الخير إلى المرء في تدرج وخفاء، ولا التفتوا إلى اسمي الله: (**الرؤوف**) و(**الرحيم**).

والعجيب أن الناس إذا وثقوا بعلم أحدهم وحكمته سلَّموا إليه أمرهم واستحسنوا أفعاله دون أن يعرفوا الحكمة فيها، ويقولون: هو أدرى بما يفعل. أفلا يكون الله ﷻ الحكيم اللطيف الخبير أولى بهذا التسليم واليقين في حكمته ولطفه وبره بخلقه، ورحمته بهم! يفقدون حكمة الله فيما ساءهم وضرَّهم وقد آمنوا بحكمته فيما نفعهم وسرَّهم، أفلا قاسوا ما غاب عنهم على ما حضر، وما جهلوا على ما علموا! أم إن الإنسان كان ظلومًا جهولًا!

❊ ❊ ❊

١١٠ - مفهوم ٥٠: رؤية الله:

نفي إدراك الأبصار لله لا ينفي رؤيته سبحانه في الآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تحيط به الأبصار وإن كانت تراه؛ فنفي الإدراك لا يعني نفي

الرؤية، بل يثبتها بمفهوم المخالفة؛ فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية -وهو الإحاطة بالمرئي كما أسلفنا- دلَّ على أن الرؤية ثابتة؛ فإنه لو أراد نفي الرؤية لقال: (لا تراه الأبصار) ونحو ذلك. والرؤية تثبت أيضًا بأدلة أخرى مثل قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣].

* * *

ثامنًا: مفاهيم حول الإيمان بالملائكة:

١١١ - مفهوم ١: الإيمان بالملائكة مجمل ومفصل:

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان؛ قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وفي حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال ﷺ: **(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)** [رواه مسلم (٨)]. والإيمان بالملائكة يكون مجملًا ومفصلًا:

- فأما الإيمان المجمل فهو فرض على كل مؤمن؛ وهو الإقرار الجازم بوجودهم وعبادتهم لربهم، وأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].
- وأما الإيمان المفصل فهو بحسب علم المرء المكلف، ويكون فيما جاء في القرآن الكريم وما صح من السنة النبوية من أسمائهم وصفاتهم ووظائفهم.

* * *

١١٢ - مفهوم ٢: نواقض الإيمان بالملائكة:

لما كان الإيمان بالملائكة ركنًا من أركان الإيمان الستة، وكانوا هم الواسطة في نزول الوحي، كان انتقاض الإيمان بهم انتقاضًا للإيمان كله؛ لذا ينبغي الحذر من الوقوع في أيٍّ من هذه النواقض، ومن أهمها:

١ - إنكار وجودهم؛ ففيه تكذيب لنصوص القرآن والسنة الصحيحة المتواترة التي ذكرتهم.

٢ - ويلحق بذلك: إنكار ما ورد في النصوص من أوصافهم، أو أعمالهم، أو أسمائهم.

٣ - بغضهم أو عداوتهم؛ كما في قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨].

٤ – ويلحق بذلك: سبهم، أو الاستهزاء بهم، أو بوظائفهم.

* * *

١١٣ – مفهوم ٣: أصل خلق الملائكة وأصل خلق إبليس:

الملائكة مخلوقون من نور كما قال النبي ﷺ: (**خُلِقَتْ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجان من مارج من نار، وخُلِقَ آدم مما وُصِفَ لكم**) [رواه مسلم (٢٩٩٦)]، وفي ذلك إشارة إلى أنهم مهتدون إلى الحق، فلا يعصون ربهم ولا يستكبرون.

أما إبليس فليس من الملائكة قطعًا، ولا يصح ادِّعاء ذلك اعتمادًا على أنه أُمِرَ بالسجود لآدم كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف:١٢]، وأن الله سبحانه قد صرَّح بأن الأمر بالسجود كان للملائكة كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، لا يصح ذلك الادعاء للآتي:

١ – أن الله سبحانه قد صرَّح بأن إبليس من الجن؛ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠] .

٢ – أن استثناء إبليس من سجود الملائكة في جميع الآيات الواردة بذلك هو استثناء منقطع؛ أي أن المستثنى فيها كلها ليس من جنس المستثنى منه، وهو أسلوب استدراك بمعنى (لكن)، وقد دل على ذلك: التصريح في سورة الكهف بأن إبليس من الجن.

٣ – أن إبليس نفسه لم يزعم أنه من الملائكة، بل صرَّح أنه خلق من نار: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف:١٢]؛ فهو من الجن إذًا كما صرَّح الله تعالى، وكما أخبر الرسول ﷺ أن الجن هم المخلوقون من نار.

وقد توجه الأمر لإبليس بالسجود مع الملائكة مع أنه ليس منهم لأنه كان في بادئ أمره يظهر العبادة والطاعة لله ﷻ والاجتهاد في ذلك، فامتُحِنَ بالأمر بالسجود مع الملائكة لآدم، فظهرت حينئذ طبيعته النارية التي تتسم بالخفة والطيش والاستكبار.

* * *

١١٤- مفهوم ٤: بعض أوصاف الملائكة عليهم السلام:

من أهم أوصاف الملائكة التي ذكرت في الكتاب والسنة:

١ - انهم عباد لله يعبدونه سبحانه فلا يسأمون ولا يستكبرون؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

٢ - أنهم مجبولون على الطاعة؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠].

٣ - أن لهم أجنحة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، وأن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح كما ثبت في رؤية الرسول ﷺ له على صورته التي خلقه الله عليها قد سدَّ الأفق. [ينظر: البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤)]، وذلك يدل على عظمة خَلْق الملائكة.

٤ - قد يأتون على هيئة البشر؛ كما حكى الله عز وجل عن الملائكة الذين أتوا إلى إبراهيم ثم لوط -عليهما السلام- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩]؛ وذلك لأنه ظنهم بشرًا قد حلُّوا ضيوفًا عليه، ولكن: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٠]، وكما جاء في حديث جبريل المشهور: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد»، وفي آخر الحديث قال النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه: **(يا عمر أتدري من السائل؟)** فقال عمر: «الله ورسوله أعلم». قال النبي ﷺ: **(فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)** [رواه مسلم (٨)].

* * *

١١٥ - مفهوم ٥: أسماء ووظائف بعض الملائكة:

من الإيمان المفصل بالملائكة: الإيمان بما ورد من أسمائهم ووظائفهم في القرآن والسنة؛ فمن ذلك:

١ - **جبريل** عليه السلام، وهو أعظم الملائكة وأفضلهم، وهو الموكل بإنزال الوحي، ويلقب بالروح الأمين كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾. [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، وورد اسم **جبريل** في قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

٢ - **إسرافيل** الموكل بالنفخ في الصور عند قيام الساعة، و**ميكائيل** الموكل بالقطر والنبات؛ وقد جمعهما النبي ﷺ في الذكر مع جبريل في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل فقال: (**اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل، فاطر السماوات والأرض**... الحديث) [رواه مسلم (٧٧٠)]، وذكر القرآن الكريم **ميكائيل** بلفظ (**ميكال**) كما في الآية السابقة.

٣ - **مالك** خازن جهنم؛ قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وأعوانه يوصفون بأنهم خزنة جهنم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩].

٤ - **ملك الموت**؛ وقد اشتهر عند الناس باسم (**عزرائيل**)، ولكن هذا من الإسرائيليات ولم يثبت في القرآن ولا في السنة بهذا الاسم، وإنما ورد أنه ملك الموت؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١].

٥ - **منكر ونكير**، وهما الملكان الموكلان بسؤال العبد في قبره عن ربه، ودينه، ونبيه.

٦ - **حملة العرش**، وهم ثمانية؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧].

٧ - **الكرام الكاتبون**، ولكل عبد ملكان يكتبان أعماله ويحصيانها عليه: أحدهما عن يمينه والثاني عن شماله؛ قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

٨ – **حفظة** يحفظون المرء من الأضرار في الحياة الدنيا؛ قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١].

٩ – ومن الملائكة أيضًا: الملك الموكل بالجبال، والملك الموكل بالنطفة في الأرحام، وملائكة يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم بأمر الله، وزوار البيت المعمور، وملائكة سياحون يحضرون مجالس الذكر، ...إلخ.

* * *

١١٦ – مفهوم ٦: آثار الإيمان بالملائكة:

للإيمان بالملائكة ووظائفهم آثار إيجابية عديدة، فمن ذلك:

١ – محبتهم والأنس بهم؛ لكونهم عبادًا مكرمين يحبون المؤمنين ويستغفرون لهم.

٢ – الخوف من الله ﷻ، وتعظيمه، وإجلاله؛ لكون هؤلاء الملائكة مع شدة خلقهم وعِظَمه يخافون ربهم ويخشونه، فكيف بالإنسان الضعيف المسكين!

٣ – الحياء من الله ومن الملائكة الكرام الكاتبين الذين لا يفارقون العبد ويحصون عليه أعماله؛ فيستحيي العبد أن يطلعوا على ما لا ينبغي له الوقوع فيه من معاصي الله ﷻ.

٤ – الطمأنينة والثبات في أوقات المحن والجهاد؛ للعلم بأن الله يثبت المؤمنين بالملائكة الذين يقاتلون معهم.

* * *

تاسعًا: مفاهيم حول الجن والشياطين:

١١٧ – مفهوم ١: حقيقة الجن وأصلهم:

– الجن عالم حقيقي موجود في الحياة، ويؤمن المسلمون بهذا الوجود لإخبار القرآن الكريم عنهم في آيات عديدة، بل إن سورة كاملة من سوره اسمها: «سورة الجن»، وهي تخبر عن بعض أوصافهم وحالهم مع القرآن الكريم.

– وقد خلقت الجن قبل الإنس، وكان خلقهم من نار كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، وقال النبي ﷺ: **(وخلق الجان من مارج من نار)** [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

- ومادة (جنن) في اللغة تفيد الاستتار؛ فكل ما يُستر عنك فقد جُنَّ عنك، وجَنَّ الليل: أسدل ستره وظلمته، والحدائق كثيفة الأشجار تسمى جنانًا لأن أشجارها تستر ما تحتها من الشمس؛ لذا فعالم الجن مستقل مستتر عن الإنس، فلا يمكن أن ندركهم بعقولنا وحواسنا المجردة، وإنما قد ندرك بعض آثارهم أحيانًا، والأصل أننا لا نراهم ولا نشعر بهم كما قال تعالى عن إبليس وجنوده -وهم من الجن-: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧]، فهم من الغيب الذي أُمرنا أن نؤمن به، ولكنه غيب نسبي غير مطلق؛ فقد يتشكلون أحيانًا بأشكال بعض الحيوانات، ويظهرون أحيانًا لبعض الناس، وقد يخاطبونهم أو يلبسون بعض البشر ويدخلون فيهم ويتسلطون عليهم لكونهم آذوهم مثلًا، أو لأن أحدًا من السحرة والمشعوذين قد أرسلهم على من يسحرهم.

* * *

١١٨ - مفهوم ٢: بعض أوصاف الجن وأصنافهم:

نحن لا نعرف من أوصاف الجن وأصنافهم إلا ما أخبرنا به الله ورسوله؛ فمن ذلك:

١ - أن لهم قلوبًا وأعينًا وآذانًا كما أن للإنس كل ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، والمقصود في الآية بعدم الإبصار أو السماع هو الإعراض عن الحق وعدم الاهتداء إليه؛ كأنهم لا يرونه ولا يسمعونه كما لم تفقهه قلوبهم؛ وذلك كما قال تعالى عن الأمم الكافرة: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦].

٢ - أنهم ثلاثة أصناف كما أخبر النبي ﷺ: **(الجن ثلاثة أصناف: فصنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيَّات وكلاب، وصنف يحِلُّون ويظعنون)** [رواه ابن حبان (٦١٥٦)، والطبراني في الكبير (٥٧٣) (٢٢/ ٢١٤)، والحاكم (٣٧٠٢)، وصحَّحه الألباني (صحيح الجامع ٣١١٤)، وقوَّى إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج شرح السنة (١٢/ ١٩٥)].

* * *

١١٩ - مفهوم ٣: تكليف الجن:

- الجن مكلفون ومخاطبون بالشرع مثل الإنس، وقد خلقوا للغاية نفسها التي خلق من أجلها الإنس؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

- وقد أرسلت إليهم الرسل كما أرسلت إلى الإنس؛ قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام:١٣٠]، وكلمة ﴿مِّنكُمْ﴾ تحتمل أن رسل الجن من جنسهم، أو أن رسلهم هم فقط رسل الإنس أنفسهم؛ لأنها وردت بعد ذكر الجن والإنس جميعًا، ولا ينبني على الخلاف في هذا عمل فلا يُلتفت إليه على وجه العموم، إلا أننا نجزم بأنهم مكلفون برسالة نبينا محمد ﷺ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢]، ولقوله ﷻ حكاية عن قول الجن: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣٠-٣٢]، وهذه الآيات تفيد أيضًا علمهم بشريعة نبي الله موسى عليه السلام، كما تؤكد تكليفهم بشريعتنا.

- والجن مثلهم مثل الإنس في موقفهم من التكليف والعبادة؛ فمنهم المؤمنون الطائعون، ومنهم الفاسقون، ومنهم الكافرون؛ كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٤، ١٥]، كما يشهد كفارهم على أنفسهم يوم القيامة بالكفر مثل الإنس؛ فقول الله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ يشملهم لأن الآية أولها: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠].

- والجن مثل الإنس؛ يدخلون النار أو الجنة بحسب إيمانهم وأعمالهم؛ فعن النار قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨]، وأما الجنة فقد امتن الله على مؤمنيهم بدخولها مثل الإنس؛ قال تعالى مخاطبًا الإنس والجن جميعًا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧].

١٢٠ - مفهوم ٤: الجن وعلم الغيب:

ادِّعاء الدجالين والمشعوذين اطلاعهم على الغيب من خلال التواصل مع الجن هو محض افتراء ودجل؛ فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، وهذا يصدق على كل من في السماوات والأرض ويشمل الإنس والجن جميعًا، وبشأن الجن خاصة قال الله تعالى عن الجن المسخرين لخدمة نبيه سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:١٤].

وقد كان شياطين الجن قبل بعثة النبي ﷺ يسترقون السمع من السماء فيخطفون الكلمة من الحق فيخلطون معها مائة كذبة ويقذفونها في آذان أوليائهم من الكهان والعرافين كما قال النبي ﷺ [يُنظر الحديث في البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨)]، فلما بُعث الرسول ﷺ مُنعت الجن من استراق السمع من السماء؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٦-١٨]، وفي سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٨-٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:٨-١٠]. فلا يجوز أبدًا اعتقاد علم الجن للغيب، أو تصديق الكهان والعرافين فيما يقولون، وقد قال النبي ﷺ: (من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) [رواه مسلم (٢٢٣٠)].

* * *

١٢١ - مفهوم ٥: موقفنا من الجن:

لما كان عالم الجن مستترًا عن عالم الإنس منفصلًا عنه وجب على الإنس تجنبهم وعدم التواصل معهم أو الاستعانة بهم في أمر من أمور الدنيا أو الدين؛ فلم يأذن الله بشيء من ذلك إلا ما كان من تسخير بعضهم لنبيه سليمان عليه السلام، وما كان من دعوة النبي ﷺ لهم إلى الإيمان بالله تعالى بتكليف منه سبحانه.

وقد صرَّح مؤمنو الجن بأن استعانة الإنس بهم تضرهم ولا تنفعهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ

كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن:٦].

ومما ينبغي أيضًا: اتقاء شر شياطين الجن بما شرعه الله لنا من: ملازمة ذكر الله تعالى على كل حال -خاصة أذكار الصباح والمساء- وتلاوة سورتي الفلق والناس، ودعاء نزول المنزل، وكف الأطفال عن اللعب والحركة الزائدة وقت الغروب كما أرشد النبي ﷺ إلى ذلك؛ لأنها ساعة انتشار مردة الشياطين [يُنظر الحديث في البخاري (٣٢٨٠، ٥٦٢٣)].

* * *

١٢٢ - مفهوم ٦: تعريف الشيطان وعلاقته بالجن:

الشيطان من (شطن) أي: بَعُدَ، وسُمِّيَ شيطان الجن بذلك لبعده عن الحق وعن رحمة الله، ولعتوِّه وتمرده على ربه، ورفضه السجود لآدم عليه السلام؛ فهو لفظ يطلق في لغة العرب على كل عارم عاتٍ متمرد من الجن والإنس والحيوانات؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢، وينظر المفردات في غريب القرآن، مادة: (شطن)]، ولكن ليس كل جان شيطان؛ فالجن كما سبق منهم المسلمون، ومنهم الكافرون المتمردون، وهؤلاء فقط هم الشياطين.

وأما تسميته (إبليس) فالبَلَسُ: من لا خير عنده، وأبْلَسَ: يئس وتحيَّر [القاموس المحيط مادة (بَلَسَ)]، فسمَّى الله الشيطان (إبليس) لأنه يئس من رحمة الله، ولأن لا خير عنده.

* * *

١٢٣ - مفهوم ٧: عداوة الشيطان لبني آدم:

صرَّح الله تعالى في كتابه الكريم بعداوة الشيطان لبني آدم في آيات عديدة:

- فعن عداوته لآدم عليه السلام وزوجه قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦].
- وعن عداوته لجميع بني آدم قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

- وقد صرَّح إبليس نفسه بعداوته لبني آدم؛ قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢]، وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لأستولين على ذريته بالإغواء والإضلال، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

* * *

١٢٤ - مفهوم ٨: أهداف الشيطان ومقاصده:

الهدف العام الذي يسعى الشيطان لتحقيقه هو أن يُلقي الإنسان في النار ويحرمه من الجنة كما حُرِمَ هو منها؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]، وأهدافه التفصيلية لتحقيق هذا الهدف ووسائله لذلك عديدة، منها:

١ - **إيقاع العباد في الشرك والكفر**؛ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر:١٦]، وفي الحديث القدسي: (**...وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...**) [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

٢ - **إيقاعهم في البدعة**: وذلك أحب إلى الشيطان من الإيقاع في المعاصي؛ لأن ضررها في الدين، ولأن المعصية يمكن أن يتاب منها، أما البدعة فيندر أن يتوب منها صاحبها؛ لأنه لا يعتقد أنه على خطأ ومعصية.

٣ - **إيقاعهم في الذنوب والمعاصي**: وذلك حين لا يقدر على إيقاعهم في الشرك والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]، إلى غير ذلك من الآيات. وقال النبي ﷺ: (**ألا وإن الشيطان قد أيس أن يُعبد في بلادكم هذه أبدًا، ولكن ستكون له الطاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به**) [رواه الترمذي (٢١٥٩) وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي].

٤ - **صدهم عن الطاعة والعبادة**؛ كما حكى الله تعالى عن قول الشيطان: ﴿قَالَ فَبِمَآ

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦،١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]. ومن ذلك أيضًا إفساد عبادات بني آدم وطاعاتهم؛ سواء بالوسوسة فيها، أو إدخال الرياء على قلب العبد؛ أو إلهائه عن الخشوع والتدبر في عبادته، ...إلخ.

٥ – إشغالهم بالمباحات والتوسع فيها.

٦ – إشغالهم بالمفضول عن الفاضل.

٧ – تسليط أوليائه من شياطين الجن والإنس لإيذاء عباد الله حين ييأس من إضلالهم.

* * *

١٢٥ – مفهوم ٩: وسائل الشيطان لتحقيق أهدافه:

يسلك الشيطان أساليب عديدة لتحقيق أهدافه وكيده لبني آدم؛ فمن ذلك:

١ – **تزيين الباطل**: فيصور الباطل في صورة الحق؛ كما فعل مع أبينا آدم عليه السلام؛ حيث وسوس له بالأكل من الشجرة التي نُهي عنها فقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠]، وقد أقسم إبليس أن يستمر في نهجه هذا فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩،٤٠]، ومن ذلك مثلًا:

أ – تزيين الدعوة إلى المذاهب الأرضية من: رأسمالية، أو شيوعية، أو اشتراكية على أنها السبيل للحياة الآمنة الرغيدة.

ب – الدعوة إلى التعري والفحش باسم الحرية الشخصية والانفتاح.

جـ – إلهاء الناس وإفساد أخلاقهم بالأفلام والمسلسلات الهابطة باسم الفن.

د – تزيين الحياة الدنيا والركون إليها ونسيان الآخرة.

إلى غير ذلك من وسائل التزيين التي لا تنتهي.

٢ – **استخدام سلاح الإفراط أو التفريط**: وذلك حسب حال العبد إزاء أي أمر من أوامر الله؛ فإن وجد فيه فتورًا وتوانيًا وترخصًا أخذه من جانب التفريط، حتى ربما

ترك العبد المأمور جملة، وإن وجد فيه حذرًا وحرصًا وتشميرًا أخذه من جانب الإفراط حتى يوقعه في الغلو وتجاوز حد ما أمر الله به والوقوع في الابتداع في دين الله.

٣ – **الوعود والأماني الكاذبة**: وذلك بالوسوسة لبني آدم بأوهام الغلبة أو الثراء أو السعادة في اتباع الباطل، والحال أنه كاذب مخادع في ذلك: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال:٤٨].

٤ – **الظهور بمظهر الناصح للإنسان**: قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١،٢٢].

٥ – **التدرج في الإضلال**: فلا يوقعه في المعصية أو الكفر مباشرة؛ لعلمه أنه لن يفعل ذلك، وإنما يتبع معه سياسة التدرج والذهاب إلى ذلك خطوة خطوة؛ ولذلك قال تعالى محذرا منه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨].

٦ – **تأجيل العبد ما فيه خيره وصلاحه**: وهو قريب من التثبيط عن الطاعة والعبادة، ولكنه يأتي العبد من باب النسيان لا التثبيط؛ كما حكى الله عن الذي نجا من السجن من صاحبي يوسف عليه السلام حين نسي ما أوصاه به: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال تعالى أيضًا في ذلك: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

٧ – **تخويف الإنسان من أولياء الشيطان**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

٨ – **إلقاء الشبهات**: وذلك لزعزعة عقيدة المرء بما يلقيه من شكوك وشبهات؛ وقد قال النبي ﷺ: **(يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)** [رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤)].

إلى غير ذلك من أساليبه الماكرة التي يستطيع المرء تجاوزها بقوة إيمانه والاستعانة بربه.

* * *

١٢٦ - مفهوم ١٠: ضعف كيد الشيطان:

رغم كل ما يذكر من أهداف الشيطان ووسائله في إضلال بني آدم، فقد حكم الله تعالى بضعف كيده ما دام المرء يتحصن بإيمانه بربه وتقواه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

كما قضى الله تعالى بأن الشيطان ليس له سلطان على عباده المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥]، فوعد سبحانه بأن يكون وكيلًا لعباده المؤمنين، وحاميًا لهم من مكر الشيطان ووساوسه.

وأوضح سبحانه أن غواية الشيطان وإضلاله إنما يكونا لمن يتبعه ممن أُشرِب قلبه الغواية: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، فلا يحتجَّن أحد بإضلال الشيطان له ولا يعتذرن بذلك؛ فإنما تكون الغواية منه لمن مال قلبه إلى ذلك؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

* * *

عاشرًا: مفاهيم حول الإيمان بالكتب:

١٢٧ - مفهوم ١: الركن الثالث من أركان الإيمان:

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله هو الركن الثالث من أركان الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقد عرَّف النبي ﷺ الإيمان حين سأله جبريل عليه السلام عنه فقال: **(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)** [رواه مسلم (٨)]، فبيَّن ﷺ أن للإيمان أركانًا ستة، وأن الإيمان بالكتب المنزلة هو الركن الثالث منها.

* * *

١٢٨ - مفهوم ٢: الرسل والأنبياء كل منهم يتبع كتابًا:

مما يتضمنه الإيمان بالكتب وتلزم معرفته: أنه ما من رسول ولا نبي إلا ويتبع كتابًا - سواء أُنزل عليه أو كان كتاب رسول قبله- قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا

﴿مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]؛ فما في الكتب من أحكام وتشريعات هو الذي ينبغي أن يحكم به الناس – كلٌّ في عصره وفق كتاب نبيه- ولا يخالفوه إلى شيء غيره، وإلا يكون حكمًا بغير ما أنزل الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

* * *

١٢٩ – مفهوم ٣: الإيمان بالكتب مجمل ومفصَّل:

يجب على المؤمنين أن يؤمنوا **إيمانًا مجملًا** بأن الله قد أنزل الكتب على أنبيائه ورسله، وأن كل ما كان فيها من أخبار وأحكام هو حق، وكان واجبًا على كل قوم أن يتبعوا ما أُنزل إليهم في كتابهم مما لم ينله تحريف؛ لأن الله تعالى لا يُضيِّع خلقه، بل يبين لهم الحق فيما أنزله إليهم من كتب.

أمَّا **الإيمان المفصَّل** فيتضمَّن أمورًا منها:

أ – الإيمان بأسماء ما أعلمنا الله باسمه من الكتب، وعددها ستة: صحف إبراهيم، وصحف موسى، وزبور داود، والتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى -عليهم جميعًا السلام- وآخر ذلك القرآن الكريم المنزَّل على نبينا محمد ﷺ.

ب – الإيمان بكل خبر من أخبار هذه الكتب وصل إلينا بطريق صحيح؛ فمن ذلك مثلًا: الإيمان بأن صحف إبراهيم وموسى -عليهما السلام- قد ورد فيها أنه: «لا تزر وازرة وزر أخرى»، و«أن ليس للإنسان إلا ما سعى» كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٣٩]، والإيمان أيضًا بما ورد فيهما من قول الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٦-١٩].

أمَّا ما ورد فيها من أحكام فنؤمن أيضًا بما ثبت فيها ووصل إلينا بطريق صحيح، لكن فيه التفصيل الآتي:

- ما خالف شرعنا لا نعمل به؛ لأن شرعنا ناسخ له، وإن كان حقًا في زمانه.
- ما وافق شريعتنا نعمل به؛ لأن شريعتنا أقرته وشرعته.
- ما لم يكن في شرعنا خلافه ولا وفاقه فالراجح أننا نعمل به، والقاعدة في ذلك أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا.

جـ – ومن الإيمان المفصَّل بالكتب: الإيمان بتفصيل القرآن الكريم وكل ما يتضمنه وما يخصه من أحكام.

❊ ❊ ❊

١٣٠ – مفهوم ٤: معنى النصح لكتاب الله تعالى:

قال النبي ﷺ: **(الدين النصيحة)** قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: **(لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)** [رواه مسلم (٥٥)]، والنصح لكتاب الله تعالى يشمل:

- الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله.
- وأنه لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على الإتيان بمثله أحد.
- تعظيمه وتلاوته حق التلاوة؛ بإقامة حروفه وتحسينها، والخشوع فيها.
- تصديق ما فيه من أخبار، والالتزام بما فيه من أحكام.
- تدبره والاعتبار بمواعظه وأمثاله، والتفكر في عجائبه.
- معرفة علومه؛ كمحكمه ومتشابهه، وعامه وخاصه، وناسخه ومنسوخه، ...إلخ.
- الذب عنه؛ بدحض تأويلات المحرفين له، والرد على الطاعنين فيه.
- الحكم به والتحاكم إليه، ورفض ما يخالفه من الشرائع والقوانين.

❊ ❊ ❊

١٣١ – مفهوم ٥: صفة الكلام لله تعالى:

إثبات صفة الكلام لله تعالى هو من إثبات الأسماء والصفات له سبحانه، كما أنه من الإيمان بالكتب أيضًا والنصح لها؛ فالله سبحانه قد أثبت الكلام لنفسه كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وأهل السنة والجماعة متفقون على أن القرآن كلام الله الذي تكلم به وأنزله على رسوله، وعلى أنه غير مخلوق، ومن يقرؤه فهو يقرؤه بصوت

نفسه؛ فالكلام كلام البارئ والصوت صوت القارئ. وما كلم الله به موسى هو كلام حقيقي سمعه موسى بأذنه بالصوت الذي سمعه به.

* * *

١٣٢ – مفهوم ٦: نواقض الإيمان بالكتب:

للإيمان بالكتب نواقض عدة؛ أهمها:

١ – إنكار الكتب والتكذيب بها؛ ولو بواحد منها.

٢ – نسبتها إلى كلام المخلوقين ونفي أنها من عند الله ﷻ.

٣ – بغضها، أو كره ما فيها، أو بعضه.

٤ – سبُّها، أو الطعن فيها، أو الاستهزاء بها بالقول أو الفعل.

٥ – رفض الحكم بالقرآن أو التحاكم إليه، والعدول عن ذلك إلى تحكيم ما سواه.

٦ – تكذيب أي خبر في القرآن، أو آية، أو حرف منه.

٧ – تحريف كلام الله ﷻ ونسبة هذا التحريف إلى الله سبحانه.

٨ – ادِّعاء أن القرآن الكريم حُرِّف بنقص فيه أو زيادة، ومن ذلك ادِّعاء الروافض أن عندهم مصحفًا مخفيًّا يسمونه «مصحف فاطمة»، وأنه ثلاثة أضعاف القرآن الحالي بزعمهم، وأنه مخفي عن العوام، وهذا كله من الأكاذيب والترهات التي يفيض بها مذهب الروافض قبحهم الله؛ فهم أكذب خلقه سبحانه.

* * *

١٣٣ – مفهوم ٧: وجوب تعظيم كتاب الله تعالى:

يجب على كل مسلم تعظيم كتاب الله تعالى؛ لأن في تعظيمه تعظيمًا لله ﷻ؛ فالقرآن الكريم هو كلامه الشريف؛ فهو صفة من صفاته، وصفاته سبحانه كلها عظيمة. ولقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه عظيم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، ومن مظاهر تعظيم القرآن ما ذكر في معنى النصح له.

* * *

١٣٤ - مفهوم ٨: أوصاف القرآن الكريم عديدة وكلها تدل على عظمته:

وصف الله تعالى القرآن الكريم بصفات عديدة، كلها تدل على عظمته؛ فمن ذلك:

١ - أنه كريم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٧].

٢ - أنه عزيز؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ [فصلت:٤١].

٣ - أنه مجيد؛ قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١].

٤ - أنه مبارك؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩].

٥ - أنه عليٌّ حكيم؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

٦ - أنه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

فحُق لكتاب يتصف بهذه الصفات أن يُعظَّم، ويُجل، ويُحب، ويُقدَّر حق قدره.

* * *

١٣٥ - مفهوم ٩: من لوازم تعظيم كتاب الله تعالى:

تعظيم كتاب الله تعالى يستلزم أمورًا عديدة؛ منها:

١ - احترامه وتوقيره بإبعاده عما يكون فيه إهانة معنوية أو مادية له؛ مثل: الاحتراز من رمي أي أوراق فيها آيات قرآنية على الأرض أو في المزابل، بل تخصص لها أماكن توضع فيها لتحرق بعد ذلك، وعدم وضع شيء فوق كتاب الله، وعدم الاتكاء على المصحف أو مد الرجل نحوه، وأن يُتناول باليد اليمنى وكذلك يُعطى بها، وألا يُعرَّض لما يُتلِف أوراقه من غبار ورطوبة وشمس...إلخ. ومن التطهير المعنوي له: عدم استعمال ألفاظه في اللغو واللهو، وتطهير الفم بالسواك ونحوه عند تلاوته.

٢ - الإكثار من تلاوته وقيام الليل به، والإنصات والخشوع عند سماعه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

٣ - السعي لحفظه مع الإخلاص في ذلك، والحذر من هجر تلاوته أو سماعه.

٤ - محبته والفرح به، وعدم الحرج من أيٍّ من آياته؛ خاصة ما كان فيه مخالفة لهوى النفس.

٥ - الوقوف عند آياته وتدبر معانيها، والعمل بما فيها؛ فيسبح الله عند آيات التسبيح،

ويسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار عند سماع آيات الوعد والوعيد، ...إلخ.

٦ – الحكم به والتحاكم إليه، والامتثال لأحكامه؛ والحذر من مشابهة المنافقين والكافرين إزاء ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٧ – إكرام حملته من حفاظ ومعلمين له، وإجلالهم وتوقيرهم.

* * *

١٣٦ – مفهوم ١٠: عدم الحرج في الصدر من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢،٣]، فكتاب الله تعالى إنما أُنزل للدعوة والإنذار به، والحكم بين الناس بما فيه.

ولما كان أكثر الناس يُخالفون الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] فسيواجه الدعاة إلى الله حتمًا مخالفات الناس للقرآن وما فيه، فينبغي عليهم ألا يجدوا حرجًا في صدورهم منه ومن مواجهة الناس به؛ كما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه بذلك في مواجهة قومه وإنذارهم بما فيه؛ قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، وهذا الخطاب للنبي ﷺ هو خطاب أيضًا لأمته من بعده، فعليهم أن يجاهدوا به المخالفين ويواجهوهم مواجهة شاملة لكل المخالفات البشرية للقرآن؛ مواجهة ظلام التصورات، وظلام الشهوات، وظلام الطغيان والإذلال، وظلام العبودية لهوى النفس.

* * *

١٣٧ – مفهوم ١١: صور من حرج الصدور مما في القرآن:

١ – ظن أنه غير كاف في معرفة الحق، وأنه يلزم إضافة تصورات وآراء أخرى له.

٢ – وأعظم حرجًا من ذلك: اعتقاد أن فيه ما يناقض العقل الصريح.

٣ –زعم أن آياته لا يُستفاد منها علم ولا يقين.

٤ –زعم أنه خطاب جمهوري يخيل لعوام الناس ما ينتفعون به دون أن يكون ذلك حقيقة.

٥ – زعم أن ما فيه من توحيد الأسماء والصفات هو مجرد مجازات وتشبيهات لا حقائق.

٦ – حرج الظالم والفاجر وصاحب الشهوة من الآيات التي تحول بينه وبين إراداته.

٧ – حرج المبتدع من الآيات التي تخالف بدعته وتدحضها.

* * *

١٣٨ – مفهوم ١٢: تكذيب أهل الكتاب للقرآن تكذيب لكتبهم:

خاطب الله ﷻ أهل الكتاب بقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١]، فقوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ يفيد: أنكم إذا لم تؤمنوا به عاد عليكم ذلك بتكذيبكم لما معكم؛ لأن ما جاء به من التوحيد والعقيدة هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم به تكذيب لما معكم، كما أن في كتبكم صفة النبي ﷺ والبشارة به، وتكذيبكم للنبي ﷺ تكذيب لبعض ما في كتبكم، ومن كذَّب ببعض ما أُنزل إليه فقد كذَّب بجميعه؛ قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].

* * *

١٣٩ – مفهوم ١٣: عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ في القرآن الكريم ودلالته:

لقد عوتب النبي ﷺ في غير ما آية من القرآن الكريم:

– فعوتب على إذنه للمنافقين بالتخلف عن الجهاد قبل تبين صدقهم من كذبهم؛ قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

– وعوتب على تحريمه على نفسه بعض ما أحلَّ الله له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم:١].

– وعوتب على إعراضه عن ابن أم مكتوم الأعمى والتفاته إلى وجهاء قريش عوضًا عنه: قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس:١-١١].

– ولعل أشد عتاب له ﷺ كان في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا

قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب:٣٧].

فكل آيات العتاب هذه تدل على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى، ولا يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد افتراه من عنده؛ إذ لو كان كذلك لما ذكر فيه شيئًا من مثل هذا العتاب؛ فالرسول ﷺ قد بلَّغ رسالته البلاغ المبين، ولم يدع شيئًا مما أوحي إليه إلا وبلَّغه ولم يكتمه؛ فهو لا يسعى إلى تعظيم نفسه بل يريد أداء أمانة التبليغ على أكمل وجه وأتمه.

* * *

١٤٠ – مفهوم ١٤: القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة:

جعل الله تعالى مع كل رسول أو نبي معجزة تكون دليلًا على صدقه فيما أرسله الله به؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال النبي ﷺ: **(ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر)** [رواه البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤)]، غير أن القرآن يذكر المعجزة أو المعجزات بلفظ: «آية»، أو «آيات»، أو «بينات» كما في الآية السابقة، وكما قال تعالى عن ناقة صالح ؈: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الزخرف:٤٦]. والآية هي العلامة والدليل والبرهان؛ فدلَّ هذا على أن المقصود بمعجزات الرسل أن تكون دلائل على صدقهم.

وآيات الأنبياء ومعجزاتهم هي معجزات حسية تنتهي بانتهاء عصر النبي أو الرسول الذي ظهرت على يديه، ولا يبقى من أثرها بعده إلا الإخبار عنها، وقد جعل الله مع نبينا محمد ﷺ مثل هذه الآيات والمعجزات الحسية -وهي كثيرة جدًّا- مثل: الإسراء والمعراج، وإشفاء المرضى، وتسبيح الحصى بين يديه، ...إلخ، إلا أن آيته ومعجزته الكبرى والخالدة هي القرآن الكريم؛ فهو معجزة لا تنقضي بوفاة الرسول ﷺ، بل تبقى بعده إلى قيام الساعة؛ لأنه ﷺ هو آخر الرسل وخاتم النبيين، وقد بُعِث إلى الثقلين كافة برسالة الإسلام إلى قيام الساعة، وتتمة الحديث السابق تؤكد هذا المعنى؛ فالحديث بتمامه: **(ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)** [سبق تخريجه].

* * *

١٤١ – مفهوم ١٥: التدرج في التحدي بإعجاز القرآن الكريم:

عرَّف علماء إعجاز القرآن الكريم المعجزة بأنها: «أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يظهره الله على يد رسله»، وكل هذه الأوصاف تنطبق على القرآن الكريم، وآياته تؤكد ذلك، ويشهد له التاريخ والواقع.

ووقع التحدي بالإتيان بمثل هذا القرآن الكريم، وبعشر سور مثله، وبسورة واحدة مثله:

– فعن التحدي بالإتيان بمثل القرآن كاملًا قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٣،٣٤]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] وفي هذه الآية ليس التحدي للإنس فقط، بل حتى لو اجتمع معهم الجن فلن يقدروا على مضاهاته.

– ثم تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٣،١٤]، وآخر الآية يبين الغرض من هذا التحدي؛ وهو: التسليم بأصل دعوة الرسول ﷺ: شهادة أن لا إله إلا الله وأنه رسوله.

– ثم تحدَّاهم أن يأتوا بسورة واحدة؛ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٨،٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣،٢٤]، وهذا آخر ما استقر عليه أمر التحدي؛ فجميع الآيات السابقة مكية بخلاف آيتي سورة البقرة فهما مدنيتان، وفي آخرهما أيضًا بيان الغرض من هذا التحدي: الحث على تقوى الله والتحذير من تكذيب القرآن لأنه يتسبب في كفر المكذب واستحقاقه للعذاب بدخول النار المعدة للكافرين.

* * *

١٤٢ - مفهوم ١٦: لإعجاز القرآن الكريم عدة أوجه:

للقرآن الكريم أوجه عديدة من الإعجاز؛ فمن ذلك: الإعجاز البياني، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي، والإعجاز الإخباري.

فالإعجاز متنوع، وكل نوع يناسب فئة مختصة بعلم معين من: البلاغة وعلوم العربية، أو خبراء القانون والاقتصاد، أو علماء الأجنة أو الفلك أو سائر التخصصات العلمية الحديثة، أو علماء التاريخ والآثار، ...إلخ.

وعامة الناس يدركون هذه الأنواع من الإعجاز من خلال حديث المختصين عنها؛ كلٌ في مجال تخصصه.

وننبه إلى أن القرآن الكريم لا يهدف إلى أن يكون مختصًّا في أيٍّ من هذه المجالات؛ فهو ليس كتاب طب ولا فلك ولا شيء مما سبق ذكره، إنما هو هدى وموعظة للعالمين، ويأتي بالآيات في هذه المجالات لتكون دليلًا على صدقه ومعجزة للعالمين، ولا يمكن أن يتعارض مع أي حقيقة علمية قطعية، أمَّا النظريات العلمية فهي ظنية غير قطعية فينبغي ألا نعجل ونطوِّع آياته لكل نظرية؛ حيث قد تتغير ويرفضها العلم فيما بعد.

* * *

١٤٣ - مفهوم ١٧: الإعجاز البياني:

يشمل الإعجاز البياني فصاحة ألفاظ القرآن الكريم، وبلاغة أساليبه، وإحكام نظمه واتساقه. وهذا الإعجاز هو أدل نوع في عهد النبي ﷺ على صدق دعوته؛ وذلك لأمرين:

١ - أن التحدي واقع بسورة واحدة من القرآن الكريم، وهذا ينطبق على أقصر سورة فيه، والسورة القصيرة قد لا تحتوي على تشريع، أو إخبار بغيب، أو حقيقة علمية، حتى يكون فيها إعجاز تشريعي أو غيبي أو علمي، لكنها لا تخلو أبدًا من الإعجاز البياني.

٢ - أن المعجزة غالبًا ما تأتي من جنس ما يُعرف به القوم ويشتهر عنهم؛ فموسى عليه السلام أُرسل إلى قوم اشتهروا بالسحر فكانت عصاه مبطلة لذلك السحر، وعيسى عليه السلام اشتهر الناس في زمانه بالطب فجاءت معجزاته متوافقة مع ذلك وأبلغ منه؛ حيث كان يشفي المرضى ويحيي الموتى بإذن الله. والعرب يشتهرون بفصاحة ألفاظهم وبلاغة أساليبهم في الخطاب، فجاء القرآن الكريم مشتملًا على أعلى درجات هذه

الفصاحة والبلاغة زيادة في التحدي.

غير أن هذا الإعجاز البياني لا يدركه إلا العرب البلغاء ومن يتقنون اللغة العربية وفنونها، وهذا غير متحقق في الأعاجم ولا العرب المعاصرين؛ لما غلب على ألسنتهم من العجمة والبعد عن الفصاحة والبلاغة؛ فمثل هؤلاء يعجزهم سائر أنواع الإعجاز، أما الإعجاز البياني فسيكون في حقهم من باب تسليمهم أن العرب الفصحاء البلغاء قد عجزوا عن معارضة القرآن والإتيان بمثله، فهم من باب أولى أعجز، ومن يدرس اللغة جيدًا ويتقنها -سواء كان من العرب أو الأعاجم- فسيقف على ماهية هذا النوع من الإعجاز ويدركه ويسلم به كما سلم به العرب الأوائل.

***

١٤٤- مفهوم ١٨: الإعجاز التشريعي:

تشريعات القرآن الكريم كلها محكمة متقنة، لا يشوبها قصور ولا خلل؛ سواء كان ذلك في الجنايات، أو العبادات، أو الاقتصاد والمعاوضات المالية، ...إلخ، ويشهد بذلك كل من اطلع على هذه التشريعات من خبراء المجالات السابقة.

***

١٤٥ - مفهوم ١٩: الإعجاز العلمي:

المقصود بالإعجاز العلمي: ما ورد في القرآن الكريم من حقائق علمية لم يكن البشر على علم بها وقت نزوله، ثم اكتشفها العلم الحديث بعد ذلك؛ وذلك مثل علم الأجنة وما فيه من بيان مراحل تطور الجنين: النطفة، والعلقة، والمضغة، والعظام، ثم كسوها لحمًا، ثم نمو هذا الجنين بعد تطوره السابق، وكبر حجمه، واكتمال أعضائه، وأدائها لوظائفها المحددة، وقد قال الله تعالى في: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، وغير ذلك الكثير والكثير من الأمور العلمية؛ كتثبيت الجبال للقشرة الأرضية، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٦،٧]؛ أي: تمنع الأرض من الميد والاضطراب، ...إلخ.

***

١٤٦- مفهوم ٢٠: الإعجاز الإخباري:

المقصود بالإعجاز الإخباري: إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الأمور الغيبية؛ سواء كان ذلك الغيب من الماضي، أو من غيب المستقبل: إما في الدنيا أو عن المعاد والقيامة.

- فمن أمثلة الغيب المستقبل: إخبار القرآن أن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين من غلبة الفرس عليهم؛ قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الروم:٢-٤]، وقد وقع الأمر كما أخبر به القرآن وانتصر الروم في بضع سنين.
- ومن أمثلة الغيب الماضي الذي ظهر مستقبلًا: ما أخبر به القرآن من إنجاء جثة فرعون من الضياع بعد غرقه؛ قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس:٩٢]، وقد اكتشفت مومياء فرعون موسى عام ١٨٩٨م على يد عالم الآثار الغربي «لوريت» [راجع: القصص القرآني لصلاح الخالدي (٢/ ١١١)]، وأثبت أنها جثته بما وجده على المومياء من آثار الملح الناجم عن مياه البحر، وهي محفوظة الآن في متحف القاهرة يشاهدها الزوار.
- ومن أمثلة الغيب الماضي أيضًا: أن القرآن الكريم سمَّى ملك مصر في عهد يوسف عليه السلام «الملك»؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ [يوسف:٤٣]، ولم يقل عنه: «فرعون»؛ وذلك لأن من كان يحكم مصر زمن يوسف عليه السلام هم الهكسوس، وهم من العرب من جنوب الشام، والعرب يسمون الحاكم «ملكًا»، فلما طردهم «أحمس» بعد ذلك وأعاد الحكم للمصريين سُمِّي حاكم مصر بعدها «فرعون»، وهو لقب الحاكم في لغة المصريين القدماء «الهيروغليفية».

وكذلك سمَّى القرآن وزير فرعون المختص بالتشييد والعمران «هامان»؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦]، وقد حُلَّت شفرة اللغة الهيروغليفية عام ١٧٩٩م، ثم وُجِد مكتوبًا في الكتابات الهيروغليفية القديمة المكتشفة في الآثار المصرية اسم «هامان»، وذكر طبيعة عمله أنه كان رئيس عمال الحجارة.

* * *

١٤٧ - مفهوم ٢١: القرآن الكريم نزل منجَّمًا وجمع بترتيب توقيفي:

نزل القرآن الكريم مفرَّقًا في نيف وعشرين سنة، وكان ﷺ (إذا أُنزلت عليه الآية قال لبعض من يكتب: **اجعلوا هذه الآية في سورة كذا وكذا**) [رواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦)، وأحمد باختلاف يسير (٣٩٩)]، وجمعه النبي ﷺ على الترتيب الموجود عليه حاليًا وليس وفق ترتيب النزول؛ فهو ترتيب توقيفي عرضه الرسول ﷺ على جبريل عليه السلام في السنة التي توفي فيها مرتين [ينظر البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠)]، وهذا هو الترتيب الذي حفظه الله تعالى عليه كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] [ينظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣٢-٢٣٩)].

- فأما نزوله مفرَّقًا فكان للتوظيف في الرد على من خالف النبي ﷺ ممن عاصروا تنزيله، ولتثبيته ﷺ عند مواجهتهم في الوقائع المتعددة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].
- وأمَّا جمعه على ترتيبه الحالي فهو كما قلنا توقيفي وليس باجتهاد أحد من البشر، وبه يتحقق حسن النظم والترتيب الذي يوضحه علم مناسبات القرآن الكريم ومقاصد السور.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ فيه إشارة إلى أنه كان مجموعًا قبل تفريقه؛ وهو جمعه في اللوح المحفوظ قبل تنزيله، والذي يتفق جمعه الحالي معه في الترتيب؛ فلا وجه إذًا لاعتراض معترض على علم مناسبات القرآن ومقاصد السور، وما ينجم عنه من هدايات متعددة، والقول الفصل أن القرآن الكريم إن كان بعد نزوله قد جُمِع عن تفريق فلقد كان في نزوله مُفرَّقًا عن جمع بنظم محكم، وهو الذي عليه ترتيبه الحالي.

وليحذر المسلمون من الدعوات إلى ترتيبه حسب النزول؛ فهي دعوات باطلة لأمرين:

١ - أن ذلك خلاف صورته التي حفظه الله عليها، والتي يتضح بها إحكام نظمه.

٢ - أنه أمر غير ممكن التحقيق؛ لأن الآيات كانت تنزل وفق الأحداث وهي من سورة بعينها، وقبل أن تكتمل السورة تنزل آيات أخرى من سورة أخرى، فأي ترتيب

نعتمد؟! وأي سورة نضعها قبل الأخرى وفي كلٍّ منهما آيات سابقة على الثانية؟!

فالخلاصة: أن القرآن الكريم يهدي إلى الحق بنزول الآيات وقت الأحداث والأقدار، كما يهدي إلى الحق بنظمه المحكم المجموع عليه؛ فهو مُفرَّق للهداية حال الأقدار، ومجموع توقيفيًّا للهداية بنظمه المحكم.

* * *

١٤٨ – مفهوم ٢٢: مقاصد القرآن الكريم:

للقرآن الكريم مقاصد وأهداف عديدة منها: الهداية، والإعجاز، والتعبد بتلاوته، والبشارة للمؤمنين والنذارة للكافرين والمنافقين، وبيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، والحكم وسياسة البشر به، وتثبيت القلوب والاطمئنان به، ...إلخ، إلا أن مقاصده الرئيسة مما ذكر هي الثلاثة الأول:

- **التعبد بتلاوته**: فالله ﷻ قد جعل على تلاوة القرآن الكريم أجرًا كبيرًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠]، وكان مطرف بن عبد الله يقول: «هذه آية القرَّاء». وقال النبي ﷺ: **(من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ لا أقول «ألم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)** [رواه الترمذي (٢٩١٠)، وقال: حسن صحيح غريب]، وقال ﷺ: **(الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)** [رواه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)].
- **الإعجاز**: والغرض الأساس منه أن يكون آية ودليلًا على صدق الرسول في دعوته، وقد سبق بيان الإعجاز بالتفصيل [المفاهيم: ١٤٠-١٤٦].
- **الهداية**: وهذا هو المقصد الرئيس للقرآن الكريم، وكل مقاصد القرآن الأخرى -ما ذكر منها وما لم يذكر- يمكن أن يندرج تحت هذا المقصد الرئيس.

* * *

١٤٩ - مفهوم ٢٣: الهداية مقصد القرآن الكريم الرئيس:

يسأل المؤمنون ربهم في كل صلاة الهداية إلى الصراط المستقيم بتلاوتهم في الفاتحة قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، فإذا تأملنا افتتاحية سورة البقرة بعدها مباشرة وجدنا فيها قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، فكأن الآية تجيب على سؤال المؤمنين بأن سبيل الهداية هو الأخذ بهذا الكتاب الكريم وتدبر ما فيه والعمل به، ومما يؤكد ذلك ورود العديد من الآيات بهذا المقصد؛ فمن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥].
- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩].
- وإقرار المؤمنين من أهل الكتاب بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].
- وإقرار المؤمنين من الجن بذلك؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن:١، ٢].

فمقصد القرآن الكريم الرئيس هو هداية الثقلين -الإنس والجن- وذلك بما فيه من: **توحيد وعقائد، وأحكام وشرائع، وآداب وأخلاق، وعبر ومواعظ.**

* * *

١٥٠ - مفهوم ٢٤: كيف يبين القرآن كل شيء؟

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل:٨٩]، فهذا البيان يشمل: أصول الدين وفروعه، وأحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد:

- فأصول الدين ومسائل العقيدة الكبار التي يحتاج القلب مرورها عليه وتذكيره بها باستمرار تُثنّى وتكرر في القرآن بألفاظ متعددة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب.
- وبعض الأحكام الفقهية ترد في القرآن مفصلة، وبعضها الآخر هو وبعض جزئيات العقيدة يُكتفى باندراجه تحت القواعد والأمور العامة التي تقررها آيات القرآن الكريم، وتتولى سنة الرسول ﷺ تفصيله؛ فقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ قد جاء بعده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ

وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، وهي آية تقرر قاعدة عامة هي: أن كل أمر مشتمل على عدل وإحسان أو إيتاء ذي القربى فهو مما يأمر القرآن به، وكل أمر مشتمل على فحشاء أو منكر أو بغي فهو مما ينهى القرآن عنه.

فليس المقصود إذًا أن كل جزئيات المسائل وتفاصيلها منصوص عليها في القرآن؛ فهذا غير معقول؛ لأن الوقائع والأحداث متجددة ولا تنتهي، فلا تنحصر بين دفتي كتاب، وإنما يكفي اندراجها تحت آيات عامة؛ فلا تجد في القرآن مثلًا نصًّا يُحرِّم بلفظه السجائر والتبغ، ولكنك تجد ذلك مشمولًا بقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ولا شك أن السجائر من الخبائث لأنها ضارة؛ فيستدل بهذه الآية على حرمتها.

ثم إن ما ورد بيانه في السنة يدخل ضمن بيان القرآن؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]؛ فمخالفة الرسول ﷺ مخالفة لبيان القرآن.

* * *

١٥١ – مفهوم ٢٥: معنى وصف القرآن بأنه شفاء:

ورد وصف القرآن بأنه شفاء في ثلاث آيات هي:

- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].
- وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].
- وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

فكل هذه الآيات تفيد أن وصف القرآن بالشفاء يراد به اهتداء قلوب المؤمنين به؛ وذلك للنص على أنه شفاء لما في الصدور، وهي القلوب، كما في الآية الأولى، ولقرينة اقتران الشفاء بلفظ الهدى كما في الآية الأولى أيضًا وكذلك الآية الثالثة، ولقصر ذلك على المؤمنين به كما في الآيات الثلاث.

وشفاء القرآن للقلب يكون بالمواعظ التي تبعده عن أمراض الشهوات، وبالبراهين

التي تبعده عن الشبهات؛ ففي القرآن:

- شفاء مما يعتري القلوب من وسوسة وحيرة وقلق لأنه يصلها بالله عَجَلَّ فيسكنها ويطمئنها.
- وشفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد وسائر أمراض القلوب التي تعالجها مواعظه.
- وشفاء من الشطط والخلل في التفكير بما فيه من براهين تعصم العقل من ذلك.
- وشفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات وتؤدي إلى نفور بعضها من بعض، وتذهب بسلامتها وأمنها؛ فتعيش الجماعة المسلمة بالقرآن في ظل نظامه الاجتماعي العادل بقلوب سليمة مطمئنة، فيصير القرآن بذلك: **رحمة للمؤمنين**.

* * *

١٥٢ - مفهوم ٢٦: الطبيعة العملية للقرآن الكريم:

لأن القرآن الكريم كلام الله عَجَلَّ فهو ليس ككلام أحد من البشر، ولا يُقرأ لمجرد الثقافة، بل حتى لا تقتصر قراءته على مجرد تحصيل ثواب التلاوة والورد اليومي، أو نستمع له فنطرب ويهتز وجداننا ونشعر بطمأنينة مجملة؛ إن القرآن الكريم يُنشئ ذلك كله فينا، ولكنه إلى جانب ذلك كله ذو طبيعة عملية توجه المؤمنين إلى ما ينبغي عليهم في حياتهم وكيفية التعامل مع ما يواجههم في الحياة من مواقف؛ تمامًا كما كان يفعل في المؤمنين الأوائل الذين عاصروا تنزيله؛ فهو كتاب هادٍ وموجِّه لمن عاصروه ومن بعدهم، كما أنه يتأثر به كل من : الكبار والصغار، والعلماء والعوام، والعرب والعجم، وهذا من أوجه إعجاز القرآن الكريم أيضًا؛ فلا يمكن أن تجد كتابًا آخر يؤثر على أناس بهذا التفاوت؛ فما يؤثر في الكبار من كتب البشر لا يأبه به الصغار ، وما يدركه العلماء يجهله العوام ويملون منه، ...إلخ.

إن المرء ليقرأ النص القرآني مرات عديدة، ثم يحدث له موقف معين فإذا النص نفسه يفيض عليه بهدايات لم يدركها من قبل؛ تبين له ما عليه فعله تجاه هذا الموقف، وتكشف له الطريق الخافي، وترسم له الاتجاه القاصد، وتفيء بالقلب إلى اليقين الجازم والاطمئنان العميق، وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث.

* * *

حادي عشر: مفاهيم حول الإيمان بالرسل:

١٥٣ - مفهوم ١: المقصود بالإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأن الله تعالى أرسل رسله وأنبياءه لتبليغ دينه إلى البشر وهدايتهم إليه، وأنهم صادقون فيما يبلغونه عن ربهم ﷻ.

وهو يقتضي الإيمان بكل ما أخبر به الله ﷻ عنهم في كتابه أو على لسان رسوله المصطفى محمد ﷺ، كما يقتضي التصديق بأسماء من ذكروا بالاسم، أما من لم يذكر اسمه أو تفصيل قصصه مع قومه فنؤمن به إجمالًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

* * *

١٥٤ - مفهوم ٢: الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن الكريم بأسمائهم:

الأنبياء والرسل المذكورون في القرآن الكريم بأسمائهم (٢٥) خمسة وعشرون نبيًّا ورسولًا؛ (١٨) ثمانية عشر منهم ذُكروا في موضع واحد في سورة الأنعام [الآيات:٨٣-٨٦] إضافة إلى ذكرهم في آيات أخرى عديدة؛ وآيات سورة الأنعام هي: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦].

أما السبعة الباقون فهم: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وآخرهم نبينا محمد صلى الله عليهم أجمعين:

- فأمَّا آدم عليه السلام فذكر نحو (٢٥) مرة؛ ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣].
- وأمَّا إدريس عليه السلام فذكر مرتين؛ منهما قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٥٦].
- وأما هود عليه السلام فذكر نحو (٧) مرات؛ منها قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ

يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥].

- وأمّا صالح عليه السلام فذكر نحو (٩) مرات؛ منها قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣].

- وأمّا شعيب عليه السلام فذكر نحو (١٠) مرات؛ منها قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

- وأمّا ذو الكفل عليه السلام فذكر مرتين؛ منهما قول الله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥].

- وأمّا نبينا محمد ﷺ فذكر باسمه الصريح (٥) مرات؛ أربعة منها باسم «محمد»، والخامسة باسم «أحمد»؛ فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف:٦].

* * *

١٥٥ - مفهوم ٣: دعوة الأنبياء والرسل واحدة وإن اختلفت شرائعهم:

من الإيمان بالرسل: الإيمان بأن دعوتهم واحدة؛ فكل رسول دعا قومه إلى عبادة الله وحده واجتناب الشرك بالله؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقال النبي ﷺ: (**الأنبياء إخوة من علّات وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد**) [رواه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) واللفظ له]، والإخوة من علات هم الإخوة من أب واحد وأمهاتهم مختلفة؛ فهذا تشبيه المقصود منه بيان أن دين الرسل والأنبياء واحد - وهو إسلام العبادة لله وتوحيده- وإن اختلفت شرائعهم في الأحكام الفقهية العملية بناء على ما يناسب كل قوم وزمانهم، إلى أن جاء نبينا محمد ﷺ للناس كافة إلى قيام الساعة بالدين نفسه وبالشريعة المحمدية الخاتمة والمناسبة لكل زمان بعده ولكل مكان.

* * *

١٥٦ - مفهوم ٤: الفرق بين الرسول والنبي:

اشتهرت مقولة: «إن الرسول هو من أُوحي إليه وأُمِر بالتبليغ، أمَّا النبي فهو من أوحي إليه لكنه لم يؤمر بالتبليغ»، وتلك مقولة غير دقيقة ولا صحيحة، والصواب: أن الرسول هو من أرسله الله؛ فهو مرسل برسالة الإسلام وشريعة جديدة، ورسالته يكون ضدها قوم كفار مكذبون بها، أمَّا النبي فهو المنبئ عن الله؛ فهو قد نزل عليه الوحي من الله ليدعو قومه إلى عبادة الله وحده وفق شريعة أنزلها الله على رسول قبله؛ فهو مبعوث إلى قوم يؤمنون برسالة رسول قبله؛ مثال ذلك: أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يحكمون قومهم ويسوسونهم وفق أحكام التوراة التي أُنزِلت على موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة:٤٤]، وعلى هذا فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، والجميع مأمورون بتبليغ دعوة الله إلى قومهم.

* * *

١٥٧ - مفهوم ٥: رسل الله بين المفاضلة وعدم التفريق بينهم:

من الإيمان بالرسل: الإيمان بأنهم أفضل البشر، وأنهم يتفاضلون كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وأفضلهم: أولو العزم من الرسل؛ وهم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣]، وأفضل أولي العزم نبينا محمد ﷺ، وهو أفضل البشر قاطبة كما قال ﷺ: (**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مُشفَّع**) [رواه مسلم (٢٢٧٨)].

وأمَّا عدم التفريق بين الرسل كما ورد في قول الله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥] وغيرها من الآيات، فالمقصود به: عدم التفريق بينهم بالإيمان ببعضهم والكفر ببعض آخر؛ كما ورد صريحًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء:١٥٠،١٥١]؛ فالكفر برسول واحد يُعدُّ كفرًا بجميع الرسل؛ إذ هو في حقيقته كفر بالرسالة من الله؛ فركن الإيمان بالرسل يقتضي الإيمان بهم جميعًا وعدم التفريق بينهم في ذلك.

وأمَّا نسبة قول: «لا تفضلوني على يونس بن متى» إلى الرسول ﷺ فلا تصح، ولا يُعرف لذلك أصل مرفوع [ينظر تخريج الألباني لأحاديث شرح العقيدة الطحاوية]، فهو ليس بحديث، وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «كذب» [ينظر: تلبيس الجهمية (٥/ ١٠٠)].

❁ ❁ ❁

١٥٨ - مفهوم ٦: محمد ﷺ خاتم النبيين:

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]؛ فقال: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يقل: (وخاتم الرسل)، وما ذاك إلا لأن ختم النبوة يقتضي ختم الرسالة؛ بناء على أن «**كل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا**»، فلو قيل (خاتم الرسل) لأمكن أن يدَّعي مُدَّعٍ النبوة استنادًا إلى أن ختم الرسل لا يقتضي ختم من هم أدنى منهم درجة وهم الأنبياء.

❁ ❁ ❁

١٥٩ - مفهوم ٧: من لوازم الإيمان بالرسل:

من لوازم الإيمان بالرسل:

- محبتهم، وإجلالهم وتوقيرهم، وتصديقهم في كل ما أخبروا به عن الله ﷻ، والإيمان بأن الله اصطفاهم لرسالته لعلمه سبحانه بصلاحهم واستحقاقهم لذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].
- عدم الغلو فيهم، وعدم تنصيبهم في مرتبة أعلى من مراتب البشر؛ كعبادتهم من دون الله، أو إشراكهم معه في العبادة كما فعل النصارى بعيسى ؑ؛ فالواجب الاقتصار في تعظيمهم على مرتبة البشرية؛ فهم مع شرفهم وعلو منزلتهم عبيد لله ﷻ مربوبون له، وقد بلغوا مرتبة الكمال في العبودية له سبحانه وكفى بذلك شرفًا، وقد وصف الله ﷻ رسوله المصطفى ﷺ بوصف «العبد» في أشرف المواقف؛ قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

❁ ❁ ❁

١٦٠ - مفهوم ٨: من لوازم الإيمان برسولنا ﷺ خاصة:

إضافة إلى ما سبق في حق الرسل يلزمنا في حق رسولنا خاصة:

١ - طاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

٢ - ألا نعبد الله إلا بما شرعه الله لنا وعلى لسان رسوله ﷺ.

٣ - أن ننصح له؛ كما قال ﷺ: **(الدين النصيحة)**. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: **(لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)** [رواه مسلم (٥٥)].

❋ ❋ ❋

١٦١ - مفهوم ٩: كيف يكون النصح للرسول ﷺ؟

الشيء الناصح هو الخالص؛ تقول: عسل ناصح أي: خالص؛ فالنصح للرسول ﷺ يكون بالإخلاص في توفيته حقه؛ أي توفيته حقه خالصًا تامًّا؛ وذلك يكون بالآتي:

١ - تعظيمه وتوقيره كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، أي: عظَّموه ووقروه.

٢ - اتباع أمره وعدم التقدم بين يديه ومعارضته بقياس ولا عقل.

٣ - الاقتداء به في هديه وأخلاقه.

٤ - الذبُّ عن سنته، والإنكار على من يدين بخلافها.

٥ - ألا نجعل قبره وثنًا؛ وذلك امتثالًا لقوله ﷺ: **(لا تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)** [رواه أحمد (٨٧٩٠)، وأبو داود (٢٠٤٢)، وقال الألباني في المشكاة (٨٨٦): صحيح لغيره].

٦ - ألا نغلو فيه برفعه فوق مرتبة العبودية لله؛ فقد قال ﷺ: **(لا تطروني كما أطْرَتْ النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله)** [رواه البخاري (٣٤٤٥)].

٧ - أن نحب من كانت له صلة به من قرابة أو صحبة ومات على الإيمان.

❋ ❋ ❋

١٦٢ - مفهوم ١٠: من لوازم تعظيم رسولنا ﷺ:

تعظيم الرسول ﷺ ليس ادِّعاءً مجردًا من الالتزامات، بل هو واجب يترتب عليه العديد من اللوازم والتبعات؛ تشمل:

١ - كل ما ذُكر من لوازم الإيمان بالرسل عامة من: محبة، وإجلال، وتصديق ما أخبروا به.

٢ - كل ما ذُكر من لوازم الإيمان به ﷺ من: طاعته فيما أمر به، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وعدم عبادة الله إلا وفق ما شرع.

٣ - كل ما ذُكر في النصح للرسول ﷺ من: عدم التقدم بين يديه ومعارضة قوله بقياس أو عقل أو ذوق أو سياسة، والاقتداء به في هديه واتباع سنته، والذب عنها والإنكار على من يخالفها، وحب من كان له به صلة من قرابة أو صحبة من المؤمنين.

٤ - عدم رفع الصوت في مسجده وعند قبره ﷺ؛ فذلك هو التطبيق العملي الحالي لقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

٥ - تقديم محبته على محبة النفس والأهل والولد؛ فحين قال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: لأنت أحب إليَّ من كل شيءٍ إلا من نفسي أجابه ﷺ بقوله: (**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك**)، فقال عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال ﷺ: (**الآن يا عمر**) [رواه البخاري (٦٦٣٢)]، كما قال ﷺ: (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**) [رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)].

٦ - الصلاة عليه عند ذكره امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

* * *

١٦٣ - مفهوم ١١: مظاهر تعظيم الله تعالى للرسول ﷺ ودلائلها:

لتعظيم الله تعالى لرسوله ﷺ مظاهر ودلائل عديدة، لعل من أهمها:

١ - رفع الله ذكره كما قال ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]، ومن هذا الرفع: قرن اسمه ﷺ به سبحانه في شهادة التوحيد، وجعل ذلك يُكرر في كل أذان وكل صلاة.

٢ – الصلاة عليه والأمر بها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

٣ – أخذ الله له العهد على جميع الأنبياء باتباعه لو بُعِث فيهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

٤ – إعلام أهل الكتاب بصفته قبل مبعثه؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

٥ – ختم النبوة والرسالة به؛ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠].

٦ – عموم رسالته ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٧٣].

٧ – أقسم الله بحياته ﷺ –ولله وحده القسم بما يشاء على ما يشاء– قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

٨ – تكفَّل الله بحفظه والدفاع عنه؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر:٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

٩ – ربط الله تعالى محبته باتباع الرسول ﷺ وطاعته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

* * *

١٦٤ – مفهوم ١٢: من نواقض الإيمان بالرسل:

للإيمان بالرسل نواقض عدة؛ من أهمها:

١ – تكذيبهم، أو إنكار وجود أيٍّ واحد منهم؛ لأن ذلك تكذيب لخبر الله ﷻ في كتابه.

٢ – سبُّهم، أو الاستهزاء بهم، أو الاستخفاف بأقوالهم وأحوالهم، أو ادِّعاء الأفضلية عليهم.

٣ – ادِّعاء النبوة بعد نبينا محمد ﷺ، أو تصديق من ادَّعى ذلك.

٤ – ادِّعاء أن النبوة أو الرسالة تحصل باجتهاد الشخص وتأمله وترويض نفسه لا الوحي.

٥ – معاداتهم وبغضهم -ولو واحد منهم فقط- ومحبة أعدائهم وتوليهم.

٦ – ادِّعاء أن مع النبي ﷺ شريكًا في الرسالة أو النبوة؛ كما يزعم بعض الروافض الغلاة.

٧ – رفع أي رسول إلى منزلة الألوهية وإشراكه مع الله في العبادة.

٨ – ادِّعاء أن نبوة محمد ﷺ حق، لكنها خاصة بالعرب وليست للناس كافة.

٩ – ردُّ شيء مما جاء به الرسول ﷺ وعدم قبوله رغم علمه أنه من سنته ﷺ؛ وذلك بخلاف من قصَّر في الالتزام بأوامره وضعُفَ عن الامتثال -بعد إقراره به- بسبب شهوة أو هوى نفس؛ فهذه معصية وليست ناقضًا من نواقض الإيمان.

* * *

١٦٥ – مفهوم ١٣: دور العقل والآيات (المعجزات) في الإيمان بالرسل:

يقتصر العقل في مجال الإيمان بالرسل على النظر في سيرهم وحسن عبادتهم لربهم، والنظر في مصداقية الآيات والمعجزات التي جاءوا بها؛ كما قال ﷺ: **(ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)** [رواه البخاري (٤٩٨١، ٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢)]، وعلى هذا فدور العقل مع القرآن الكريم فيما يتعلق بالإيمان بالرسل هو: تدبره وتصديق خبره عن الرسل جميعًا وكل ما ورد في حقهم، وتطبيق ما ورد باتباعهم والاقتداء بهديهم.

فلا بد إذًا لتصديق أي رسول أو نبي من الجمع بين النظر في سيرته والنظر فيما يظهر على يده من معجزات وخوارق، والأمر الخارق وحده لا يكفي؛ إذ قد يجعله الله على يد أحد الكفار فتنة له ولمن يتبعه بسبب مخالفتهم لشرع الله وهديه؛ وذلك كما يحدث على يد المسيح الدجال آخر الزمان من خوارق، مع أنه مكتوب بين عينيه (كافر) يقرؤها كل مؤمن بالله. أمَّا حين يخبر من تظهر على يده آية أو معجزة ممن كان قبل نبينا ﷺ أنه نبي، مع حسن سيرته وعبادته لله، فهو حينئذ مصدَّق، ومعجزته دليل على صدقه.

* * *

١٦٦ - مفهوم ١٤: ضلال كلٍّ من الفلاسفة والمتكلمين في مسألة النبوات:

النبوة -كما أسلفنا- هي الوحي الإلهي لبشر؛ وقد ضلَّ في تلك المسألة فريقان:

١ - **الفلاسفة**؛ حيث جعلوا النبوة أمرًا مكتسبًا يحصله المرء باجتهاده وترويض نفسه وكثرة تأمله، وقضوا باستحالة الوحي من الله لأحد من البشر.

٢ - **المتكلمون**؛ وقد أرادوا ردَّ زعم الفلاسفة بالعقل المجرد -على طريقتهم المعهودة في تقديم العقل على النص- فانطلقوا من تقسيمهم الثلاثي للعقليات: الواجب العقلي، والمستحيل العقلي، والجائز العقلي.

فإذا كان الفلاسفة قد جعلوا النبوة التي هي بمعنى الوحي من قسم المستحيل العقلي، فقد جعلها المعتزلة من قسم الواجب العقلي، وجعلها الأشاعرة من قسم الجائز العقلي.

وسبب ضلالهم جميعًا في مسألة النبوات هو تقديمهم العقل على النص وتحكيمه فيه، والقول الفصل هو أن النبوة مع جوازها عقلًا فقد دلَّ عليها ما أسلفناه من النظر في حسن سيرة النبي وعبادته لربه، والنظر في صدق المعجزة التي معه وأن الله قد أيـَّده بها.

* * *

١٦٧ - مفهوم ١٥: عصمة الرسل والأنبياء:

يناقش في مسألة عصمة الأنبياء والرسل: هل يمكن للنبي أو الرسول الوقوع في شيء من معصية الله -كبيرة كانت أو صغيرة- أم أن ذلك محال في حقهم وهم معصومون منه؟

- فبعض الفرق يثبت العصمة للأنبياء والرسل من كل شيء؛ حتى من الإتيان بما هو خلاف الأولى؛ وذلك بدعوى أنه لو جاز عليهم الوقوع في شيء من ذلك لجاز عليهم الوقوع في الكذب على الله، وهو محال، وفرق أخرى تنفي العصمة عن الأنبياء بإطلاق حتى جوزوا عليهم الوقوع في الشرك والكبائر.

- وأهل السنة والجماعة ينفون عن الرسل والأنبياء أي خطأ في التبليغ عن الله، كما ينفون عنهم الوقوع في الكبائر والفواحش إجماعًا، ولكن يقولون: إنه قد يقع منهم ما يعاتبهم الله عليه -لأنهم بشر، والكمال لله وحده- ولكن لا يُقِرُّهم الله على ما استوجب العتاب، ويُقلعون عنه ويستغفرون منه، ويكونون باستغفارهم وتوبتهم أعلى مرتبة مما كانوا قبله؛ وذلك كما نصَّ الله ﷻ على صدور المعصية من آدم عليه السلام، ثم أوجب المدح له والثناء عليه بتوبته منها، وبيَّن أنه أضحى بذلك من المجتبين المهديين؛ قال تعالى:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١،١٢٢].

* * *

١٦٨ - مفهوم ١٦: عصمة الأنبياء بين أهل السنة وأهل البدع:

الفرق الأساس بين أهل السنة وأهل البدع في مسألة عصمة الأنبياء هو:

أن **أهل البدع** -كعادتهم- حكَّموا عقولهم القاصرة في هذه المسألة، ودفعهم ذلك إلى ردِّ ما ورد من أحاديث الآحاد فيها، أمَّا الآيات فألجأهم تواترها وعدم إمكان ردِّها إلى تأويلها بتأويلات جزافية مجاوزة لحدود اللغة وللتوافق مع السياق الواردة فيه بأي وجه.

أمَّا **أهل السنة** فيعرفون للرسل والأنبياء قدرهم، ويفقهون معاني الآيات والأحاديث ودلالاتها على وجهها الصحيح دون تعسف وتحريف.

وأصل **الخطأ في المسألة** هو: تحكيم أهل البدع قوانينهم العقلية في الأمور الاعتقادية، وصوغ القضايا الاعتقادية في قوالب عقلية جامدة وقاصرة؛ فإنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة نصٌّ يُقرِّر القاعدة العقلية التي تزعم أن: «كل نبي معصوم من كل ذنب»، بل هي قاعدة وضعها أهل الكلام للرد على القاعدة العقلية القاصرة الأخرى التي وضعها منكرو النبوات؛ وهي: «إذا جاز الذنب الواحد على النبي جاز عليه كل ذنب»، وهذا مجرد ادِّعاء باطل يردُّه صريح القرآن الكريم الذي يثبت الوقوع في شيء من ذلك للعديد من الأنبياء والرسل؛ مثل: آدم، ونوح، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، ومحمد صلى الله عليهم جميعًا وسلم تسليمًا.

والقول الفصل هو: أن الله ﷻ هو الذي عصم أنبياءه ورسله، وهو الذي شاء لهم أحيانًا أن يقعوا فيما يوجب عتابهم ثم توبتهم لِحِكَمٍ عظيمة أرادها سبحانه؛ مثل: إثبات بشريتهم، وإظهار تمام عبوديتهم لله في مقام الإنابة والتوبة، وما يترتب على ذلك من حكم تربوية، وليس لنا نحن البشر أن نعقب على حكم الله أو نرد بعض أمره ببعض.

* * *

ثاني عشر: مفاهيم حول الإيمان باليوم الآخر:

١٦٩ - مفهوم ١: المقصود بالإيمان باليوم الآخر:

هو الإيمان بمجيء يوم يحاسب فيه المرء على عمله في حياته الدنيا، ثم يُجازى على ذلك بدخول الجنة أو النار. وهو من الإيمان بالغيب، والكلام عنه يتناول كل ما يحدث للمرء من حين وفاته إلى أن يدخل الجنة أو النار ويخلد في أيٍّ منهما -وقد يقتضي الأمر أن يُطهَّر بعض الناس من ذنوبهم بدخول النار أولًا، ثم يخرجون منها إلى جنة الخلد- هذا على مستوى كل فرد، أمَّا على مستوى الحياة الدنيا ونهايتها وبدء قيام الساعة فيدخل فيه أيضًا الكلام عن أشراط الساعة الصغرى والكبرى.

❊ ❊ ❊

١٧٠ - مفهوم ٢: مسميات اليوم الآخر في القرآن الكريم ودلالاتها:

سُمِّي اليوم الآخر في القرآن الكريم بمسميات عديدة، ووُصِف بأوصاف كثيرة، فبلغ ذلك نحوًا من ثلاثة وعشرين اسمًا ووصفًا. وإنما كثرت مسميات هذا اليوم وأوصافه لعظم شأنه -كما هو معتاد عند العرب من ذكر مسميات عديدة لما يعظم عندهم كالسيف والأسد- فاليوم الآخر لَمَّا عظم أمره وكثرت أهواله سمَّاه القرآن مسميات عديدة ووصفه بأوصاف كثيرة؛ فمن ذلك:

١،٢ - **اليوم الآخر والآخرة**: فقد ورد لفظ «اليوم الآخر» (٢٦) مرة، وورد لفظ «الآخرة» (١١٠) مرة، وهما بمعنى واحد؛ فاليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، والآخرة لأنه لا شيء بعدها؛ فهي آخر المحطات التي يتنقل الإنسان بينها: من العدم إلى بطن أمه، ثم الخروج للحياة الدنيا، فحياة البرزخ، ثم هذه الآخرة التي يخلد فيها إمَّا في الجنة أو في النار. ومن هذه الآيات: قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤].

٣،٤ - **يوم الدين ويوم الحساب**: وهما بمعنى واحد؛ فالدين هو الجزاء والحساب، وقد ورد لفظ «يوم الدين» (١٣) مرة، وورد لفظ «يوم الحساب» (٤) مرات. وسمِّي هذا اليوم بذلك لأن المرء يحاسب فيه على أعماله في الحياة الدنيا ويجازى عليها؛

قال الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص:٥٣].

٥ - **يوم القيامة**: وقد ورد في القرآن الكريم (٧٠) مرة؛ منها قول الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وقد سُمِّيتْ السورة بهذا الاسم، وسمِّي اليوم بذلك لأن الناس يقومون فيه لرب العالمين لحسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

٦ - **الساعة**: وردت في القرآن الكريم (٣٥) مرة؛ منها قوله الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل:٧٧]، والساعة: الوقت الحاضر [القاموس المحيط مادة (سوع)]؛ سُمِّيت بذلك لقرب مجيئها فكأنها حاضرة، ولمجيئها بغتة كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾ [الأعراف:١٨٧].

٧ - **الآزفة**: قال الله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧]، ودلالتها قريبة من دلالة «الساعة»؛ فأزف أي: دنا وقَرُب. وقد ذُكرت أيضًا مضافًا إليها لفظ «يوم»؛ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر:١٨].

٨ - **الواقعة**: قال الله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١]، وقال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٥]؛ وسمِّيتْ بذلك لتحقق وقوعها.

٩ - **الحاقة**: قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]؛ وسُمِّيتْ بذلك لأنه يتحقق فيها ما أنكره المكذبون بها.

١٠ - **الطامة الكبرى**: قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النازعات:٣٤]؛ يقال: طمَّ الأمر إذا علا وغلب؛ فسُمِّيتْ القيامة بذلك لأنها تعلو على كل أمر هائل.

١١ - **الصاخة**: قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس:٣٣]؛ يعني صيحة القيامة؛ سُمِّيتْ بذلك لأنها تصخ الآذان؛ أي: تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها.

١٢ - **الغاشية**: قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١]؛ سُمِّيتْ بذلك لأنها تغشى الناس بأفزاعها وتغمهم، ومن دلالتها: غشيان النار للكفار وإحاطتها بهم

من فوقهم ومن تحت أرجلهم؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١].

١٣ – **القارعة**: قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة:٤]، سُمِّيتْ بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها؛ يقال: قد أصابتهم قوارع الدهر أي: أهواله وشدائده.

والأسماء الآتية كلها مضاف إليها لفظ «يوم»:

١٤ – **يوم الحسرة**: قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩]؛ وسُمِّي بذلك لشدة تحسُّر العباد فيه؛ سواء تحسر الكفار على ما فاتهم من الإيمان به كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦] وغيرهما من الآيات، أو حتى يتحسَّر المؤمنون على عدم استزادتهم من أعمال البر والتقوى.

١٥ – **يوم البعث**: قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦]، والبعث يقصد به: إحياء الله للموتى ونشرهم للحساب.

١٦ – **يوم الفصل**: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ:١٧]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات:٢١]؛ وسُمِّي بذلك لأن الله ﷻ يفصل فيه بين العباد؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة:٢٥].

١٧ – **يوم التلاق**: قال الله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥]؛ أي اليوم الذي يلتقي فيه العباد كلهم؛ فيلتقي الظالم والمظلوم، وأهل الأرض وأهل السماء، بل يلتقي فيه المخلوق الضعيف بالخالق الجبار، ويلتقي فيه كل عامل بعمله من خير أو شر.

١٨ – **يوم الجمع**: قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالى:

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن:٩]؛ فهو يوم يُجمع فيه الناس جميعًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣].

١٩ - **يوم التناد:** قال الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢]؛ وسُمِّي بذلك لكثرة ما يحصل فيه من نداء؛ فكل إنسان ينادَى فيه باسمه للحساب، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار، وكذلك ينادِي أصحاب النار أصحاب الجنة، وينادِي أصحاب الأعراف كُلًّا منهما.

٢٠ - **يوم الوعيد:** قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [ق:٢٠]؛ فهو اليوم الذي توعَّد الله به الكافرين والمنافقين بما فيه من العذاب والخلود في النار، وتوعَّد كل ظالم وعاصٍ بالحساب على ظلمه ومعصيته، وحقيقة الوعيد: الإخبار عن العقوبة على المخالفة.

٢١ - **يوم الخلود:** قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [ق:٣٤]؛ فالناس يخلدون فيه بلا موت، وفي الحديث: (**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح... فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**) [رواه البخاري (٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٩)].

٢٢ - **يوم الخروج:** قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢]؛ فهو يوم يخرج فيه الناس من قبورهم بعد سماع الصيحة، وهي النفخة الثانية في الصور، فيخرجون للحساب والجزاء كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣].

٢٣ - **يوم التغابن:** قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن:٩]؛ فهو يوم فيه الغابن والمغبون؛ أي: الرابح والخاسر؛ يربح المؤمنون بالزحزحة من النار ودخول الجنة، ويخسر الكافرون بدخولهم النار.

❊ ❊ ❊

١٧١ - مفهوم ٣: اليوم الآخر والنبأ العظيم:

ورد لفظا «النبأ العظيم» في القرآن الكريم مرتين: إحداهما مع الاقتران بـ(أل) التعريف، والأخرى بدونها؛ قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١،٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧،٦٨]. و«النبأ» هو: الخبر الصادق المفيد للعلم، ذو الفائدة العظيمة [ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني، مادة (نبأ)].

وقد ورد عن السلف أن النبأ العظيم هو يوم القيامة، وورد أنه القرآن الكريم؛ وكلا الأمرين محتمل؛ فخبر اليوم الآخر عظيم بما فيه من أهوال وأمور عظيمة، والقرآن الكريم خبره عظيم بكل ما فيه، وبما يتضمنه من إبطال الشرك وإثبات التوحيد، وإثبات البعث يوم القيامة وما فيها من أحوال باهرة.

وقد وُصِف يومُ القيامة بأنه يوم عظيم في غير ما آية من القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:٤،٥].

❊ ❊ ❊

١٧٢ - مفهوم ٤: مسائل الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بالمسائل الآتية:

١ - فتنة القبر. ٢ - عذاب القبر ونعيمه. ٣ - البعث بعد الموت. ٤ - الحساب.
٥ - الميزان. ٦ - نشر كتب الأعمال. ٧ - الحوض. ٨ - الصراط.
٩ - الشفاعة. ١٠ - الجنة والنار. ١١ - أشراط الساعة الصغرى والكبرى.

❊ ❊ ❊

١٧٣ - مفهوم ٥: فتنة القبر:

هي أول شيء يكون بعد الموت؛ حيث يُسأل المرء في قبره عن ثلاثة أمور: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيُثبِّت الله المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ. وأمَّا الكافر فيقول: هاه، هاه، لا أدري.

❊ ❊ ❊

١٧٤ - مفهوم ٦: عذاب القبر ونعيمه:

وهو ثابت بالكتاب والسنة؛ فالميت إمَّا أن ينعم في قبره، وإمَّا أن يعذَّب عياذًا بالله، وذلك حاصل لكل ميت قبر أو لم يقبر.

ودليل نعيم القبر من القرآن: قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]؛ فهذا القول عند الوفاة بشرى للمؤمن ينعم بها في قبره إلى أن تقوم الساعة.

ودليل عذاب القبر قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وأمَّا السنة فقد تواترت الأحاديث في ذكر عذاب القبر ونعيمه؛ ومنها حديث الدعاء بعد التشهد في الصلاة: **(اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال)** [رواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩)].

❁ ❁ ❁

١٧٥ - مفهوم ٧: البعث بعد الموت:

البعث بعد الموت هو القيامة الكبرى؛ حيث يُنفخ في الصور النفخة الثانية فتعاد الأرواح في أجسادها، ويقوم الناس من قبورهم كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]. ومن يكذِّب بالبعث فهو من الكافرين كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

❁ ❁ ❁

١٧٦ - مفهوم ٨: القيامة الصغرى:

القيامة الصغرى هي: موت الإنسان، وسُمِّيت بذلك لأن كل من مات فقد قامت قيامته لانقطاعه عن الدنيا ودخوله في عالم الآخرة.

❁ ❁ ❁

١٧٧ - مفهوم ٩: محاسبة الخلائق على أعمالهم:

يحاسب الناس يوم القيامة على أعمالهم في الحياة الدنيا؛ فأما المؤمن فيكون حسابه حساب فضل وإحسان وكرم؛ وهو مجرد عرض أعماله عليه دون نقاشه عليها، وهو الحساب اليسير كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧،٨]، أما من يناقش الحساب فيعذب؛ يوضح ذلك قول الرسول ﷺ: **(من نوقش الحساب عُذِّب)** فقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال النبي ﷺ: **(ذلك العرض)** [رواه البخاري (١٠٣،٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦)].

والكفار يُقرَّرون بأعمالهم، فإن أنكروا شهدت عليهم أعضاؤهم بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:١٩،٢٠].

ومن عباد الله المؤمنين من لا يحاسبون أصلًا؛ وهم سبعون ألفًا كما في الحديث أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: **(هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قال النبي ﷺ: قلت: ولم؟! قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون... الحديث)** [رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠)].

* * *

١٧٨ - مفهوم ١٠: الوزن ونصب الموازين:

وهو الإيمان بوضع موازين يوم القيامة يوزن فيها العباد وأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢،١٠٣].

* * *

١٧٩ - مفهوم ١١: نشر كتب الأعمال:

هو الإيمان بمجيء كل فرد يوم القيامة معه كتاب مسجل فيه ما عمله في الدنيا يمسكه إما بيمينه إن كان من الناجين، أو بشماله إن كان من الخاسرين؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥،٢٦].

١٨٠ - مفهوم ١٢: الحوض:

هو حوض النبي ﷺ الذي تواترت الأحاديث بذكره؛ وهو حوض واسع، وصفته كما في الحديث: (**إن قدر حوضي كما بين أَيْلَةَ وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء**) [رواه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣)]، وفي حديث آخر لمسلم: (**يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أَيْلَة، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل**) [رواه مسلم (٢٣٠٠)]. ويَرِدُ الحوضَ المؤمنون المتابعون للرسول ﷺ، أمَّا من يُحدِثُون بعده ﷺ فيُمنعون منه كما قال ﷺ: (**لَيَرِدَنَّ عليَّ ناس من أصحابي الحوضَ، حتى إذا عرفتهم، اختُلِجوا دوني، فأقول: أصحابي! فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك**) [رواه البخاري (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤)].

* * *

١٨١ - مفهوم ١٣: الصراط:

هو الجسر الممدود على متن جهنم، يمر عليه الناس على قدر أعمالهم في الدنيا؛ فمن كان ألزم للصراط المستقيم والهداية في الدنيا كان مروره على صراط الآخرة أسرع؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومن يمر كالريح، ومن يمر كالجواد المرسل، ومن يعدو عَدْوًا، ومن يمشي، ومن يحبو حبوًا؛ يعبر المؤمنون على هذا الجسر بالسرعات المتفاوتة، أمَّا الكفار فتخطفهم الكلاليب وهم يحاولون المرور عليه ويقذفون في النار. وقد وردت الأحاديث بذلك فنؤمن به ونُسلِّم.

* * *

١٨٢ - مفهوم ١٤: الشفاعة:

الشفاعة في الآخرة قسمان: إحداهما تختص بنبينا محمد ﷺ، والأخرى لسائر الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين:

١ - فنبينا محمد ﷺ له شفاعات عدة منها:

- شفاعته ﷺ العظمى في أهل القيامة عامة أن يأتي الله ﷻ للقضاء والفصل بين العباد، وهي التي اعتذر عنها سائر الأنبياء، وهي المقام المحمود الذي وعد الله به رسوله ﷺ.
- وشفاعته ﷺ لأهل الجنة بدخولها.

- وشفاعته ﷺ لعمه أبي طالب بأن يخفف الله عذابه.

٢ - أمَّا شفاعة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين فهي شفاعتهم للمؤمنين دون الكافرين -إذ لا يأذن الله بالشفاعة لمشرك- وهي شفاعة بأن لا يدخل النار بعض من يستحقها من عصاة المؤمنين، وشفاعة بأن يخرج من النار من دخلوها من عصاة المؤمنين. وهذه الشفاعة لها شرطان:

الأول: إذن الله تعالى للشافع بشفاعته؛ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الثاني: رضاه سبحانه عن المشفوع له؛ كما يفيده قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

* * *

١٨٣ - مفهوم ١٥: الجنة والنار:

من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار، وأنهما دار الجزاء، وهما موجودتان الآن، دائمتان لا تفنيان؛ فالجنة دار المتقين لا يدخلها إلا نفس مسلمة، والنار دار الكافرين ولا يخلد فيها موحد.

وكل ذلك ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وقد رآهما النبي ﷺ في صلاة الكسوف حيث عُرِضتا عليه. [ينظر: صحيح مسلم، الحديث (٩٠٤)].

* * *

١٨٤ - مفهوم ١٦: أشراط الساعة:

أشراط الساعة هي علامات القيامة التي تسبقها وتدل على قربها، وهي قسمان:

١ - أشراط صغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد للناس؛ كقبض العلم وظهور الجهل، وكالتطاول في البنيان. فبعض هذه الأشراط قد ظهر وانقضى، وبعضها ظهر ولا يزال يتتابع ويتكرر -كالتطاول في البنيان- وبعضها لم يظهر إلى الآن. [ينظر: كتاب أشراط الساعة ليوسف الوابل حيث ذكر ٥٧ من العلامات الصغرى (ص:٦٤-١٧٩)].

٢ - الأشراط الكبرى: وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير

معتادة للناس، وهي العلامات العشر المذكورة في حديث النبي ﷺ عن قيام الساعة، وفيه: (**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات؛ فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**) [رواه مسلم (٢٩٠١)]، وبعض العلماء يضيف إلى تلك العلامات المهدي، وبعضهم يعدها من العلامات الصغرى التي ترافق العلامات الكبرى.

وأظهر ترتيب لهذه العلامات العشر هو: ظهور الدجال، ثم نزول عيسى بن مريم عليه السلام، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم الخسوفات الثلاثة، ثم الدخان، ثم طلوع الشمس من مغربها، ثم الدابة، ثم النار التي تحشر الناس.

* * *

١٨٥ - مفهوم ١٧: مخلِّص البشرية:

تعتقد جل الطوائف أو الملل أن للبشرية مخلصًا يأتي في آخر الزمان ليخلصها من الظلم والشر المستشري في الأرض. وكل طائفة أو ملة تدَّعي لنفسها هذا المخلِّص وفق عقيدتها:

- فاليهود يسمونه «الماسيا» أو «المشيح» أو «المسيح»، ويزعمون أنه هو الذي بشَّرت به توراة موسى، وأنه لم يأت بعد؛ ولذا يكذبون نبي الله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ولا يؤمنون به. ومسيحهم المنتظر هذا هو في حقيقة الأمر المسيح الدجال الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه من أشراط الساعة، وأنه سيتبعه سبعون ألفًا من يهود أصفهان.
- والنصارى يرون أن مخلص البشرية هو عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنه سوف ينزل مرة أخرى آخر الزمان ليحكم الأرض ويقتل الوثنيين -ويعنون بهم المسلمين الذين لا يؤمنون بألوهيته- وأنه سيرتقي بالنصارى إلى السحاب.
- والروافض يزعمون أن المخلص هو مهديهم المنتظر: محمد بن الحسن العسكري الذي يزعمون أنه ولد وأنه دخل في صغره إلى سرداب بسامراء، وسيخرج آخر الزمان فيحيي بزعمهم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ويحاكمهما وسائر الأصحاب رضي الله عنهم، وينتقم منهم جميعًا للشيعة وآل البيت، إلى آخر ذلك من أوهامهم وترهاتهم.

- وللمجوس مخلِّص اسمه «شوثن» أو «الأشرازيطا»، يزعمون أنه سيعيد الإمبراطورية الفارسية.

- بل حتى اللا دينيين يؤمنون بفكرة خلاص البشرية؛ فتجد الأمريكان يرون خلاص العالم في اتباع قيمهم الرأسمالية والحرية المطلقة والديموقراطية المزعومة، والشيوعيون الملحدون يرون خلاص البشرية في القضاء على المِلْكية الفردية وإزالة التفاوت الطبقي، والتخلص من أوهام الدين بزعمهم.

- أمَّا أهل السنة والجماعة من المسلمين فيعلمون من السنة المتواترة معنويًّا أنه يخرج في آخر الزمان رجل من أهل بيت النبي ﷺ من ولد فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يوافق اسمه اسم النبي ﷺ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ﷺ؛ يصلحه الله في يوم وليلة، ويؤيِّد به الدين، يملك الأرض سبع سنين يملؤها عدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، وتنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وفي عهده ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويصلي خلفه تكرمة لأمة محمد ﷺ، ويقتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقتها المسيح الدجال بباب لد بفلسطين الحالية. ومن الأحاديث الصحيحة الصريحة في المهدي: حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **(يخرج في آخر أمتي المهدي؛ يسقيه الله الغيث، وتُخرِج الأرضُ نباتها، ويُعطي المال صحاحًا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا أو ثمانيًا؛ يعني حججًا)** [رواه أبو داود (٤٢٨٥)، وأحمد (١١١٣٠)، والحاكم (٨٨٩٨) وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني (الصحيحة ٧١١)، وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند: رجاله ثقات].

ومما ورد في الصحيحين فيما يتعلق بالمهدي دون ذكر اسمه أو لقبه حديث: **(كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم!)** [رواه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥)]، وحديث: **(لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة؛ قال: فينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة)** [رواه مسلم (١٥٦)]. [ولمزيد اطلاع على المهدي وأخباره يراجع فصل المهدي في كتاب «أشراط الساعة» للدكتور يوسف الوابل، ص١٩٣-٢١١].

* * *

١٨٦ - مفهوم ١٨: نواقض الإيمان باليوم الآخر:

يمكن إجمال نواقض الإيمان باليوم الآخر في إنكار أيٍّ من مسائله المعلومة من الدين بالضرورة، الثابتة بالكتاب والسنة، أو الشك فيها، أو الاستهزاء بها والسخرية منها؛ مثل مسائل: البعث بعد الموت، والحساب في الآخرة، والجنة والنار، ...إلخ.

ويدخل في النواقض أيضًا: تأويل أيٍّ من مسائل الإيمان باليوم الآخر بالتأويلات المجافية للحق، المبنية على الأوهام السخيفة والفلسفات الجزافية؛ مثل: القول بأن الآخرة هي مجرد تناسخ الأرواح بعد كل موت وانتقالها إلى آدميين آخرين، أو حتى إلى أبدان حيوانات - كقول النصيريين من فرق الباطنية- ومثل تأويلات المتفلسفة أتباع أرسطو للمعاد.

* * *

١٨٧ - مفهوم ١٩: من آثار الإيمان باليوم الآخر:

للإيمان باليوم الآخر آثار إيجابية عديدة، وثمرات جليلة يحصلها العبد المؤمن به؛ منها:

١ - اليقين بعدل الله وفضله في الجزاء في الدنيا والآخرة، وإنصاف المظلوم من ظالمه -سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة- وأن فعل الخير في الدنيا لا يذهب سدى، ولو لم تظهر ثمرته فيها لبادي الرأي.

٢ - حمد الله وشكره، والثناء عليه بما هو أهله تبعًا لإدراك عدله وفضله سبحانه.

٣ - إدراك أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية، وأن الحياة الدنيا قصيرة وفانية مهما طال زمانها في نظر البشر؛ قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

٤ - تحقيق ميزان الخوف والرجاء في قلب المؤمن؛ وبهما يكُفُّ المرء عن المعاصي والمظالم، وينطلق نحو الطاعات والفضائل.

٥ - صلاح القلب وطمأنينته وثباته أمام فتن السراء والضراء في الدنيا؛ لأن العبد إذا سيطر عليه هم الآخرة وأيقن بها وبزوال الدنيا لا يجزع عند حلول المصائب، ولا يبطر عند حلول النعم، وإنما تراه صابرًا شاكرًا، يرجو ثواب ذلك عند الله في الآخرة.

٦ - سلامة القلب من الغل والحسد؛ لأن اليقين بالآخرة والرغبة فيها يزهدان العبد في الدنيا الفانية التي تتسبب في التحاسد والتباغض بين الناس.

٧ – امتلاء النفس بالتفاؤل وملازمته لها طوال حياتها؛ فأكثر الناس تفاؤلًا أشدهم إيمانًا بلقاء الله في الآخرة.

٨ – الاندفاع القوي للدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله بهمة عالية، وعزيمة ثابتة، ونية صادقة؛ رجاء ثواب الله في الآخرة على ذلك كله، وإشفاقًا على الناس من الشقاء في الآخرة.

* * *

ثالث عشر: مفاهيم حول الإيمان بالقدر:

١٨٨ – مفهوم ١: الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان:

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان كما في حديث جبريل عليه السلام؛ حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: (**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**) [رواه مسلم (٨)]، وقوله: (**خيره وشره**) أي: تؤمن أن الخير والشر كله مقدر من الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨].

فلا بد من الإيمان بتقدير الله عز وجل لكل شيء وقضائه به؛ لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

وقدر الله هو ما قضى وحكم به سبحانه من الأمور، والقضاء معناه: الفصل والحكم؛ ولهذا كثيرًا ما يعبر بأحد اللفظين عن الآخر -أعني القضاء والقدر- لكن إذا اقترن اللفظان معًا فقيل: «القضاء والقدر» يلاحظ في القدر معنى زائد هو: تقدير الأمر وفق علم الله وحكمته، وحدوثه بمقدار معين لا يزيد عنه ولا ينقص؛ فـ(المقدار) من معاني القدر؛ تقول: قدَّر الشيء قدرًا أي: بيَّن مقداره. أمَّا القضاء فهو إنفاذ القدر.

* * *

١٨٩ – مفهوم ٢: مراتب القدر أربعة:

تحقيق الإيمان بالقدر يكون بالإيمان بمراتبه الأربعة: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق:

- **المرتبة الأولى: العلم**: والمقصود بها الإيمان بأن الله تعالى عالم بكل شيء قبل وقوعه جملة وتفصيلًا؛ سواء فيما يتعلَّق بفعله سبحانه من خلق، ورزق، وإحياء وإماتة،

...إلخ، أو ما يتعلَّق بفعل المخلوقين؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]؛ فقوله: ﴿بِكُلِّ﴾ عام يشمل كل معلوم، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وهذا العلم من الله تعالى لم يسبقه جهل، ولا يلحقه نسيان؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١،٥٢]، فقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ أي: لا يجهل، وقوله: ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا ينسى ما كان معلومًا من قبل، وذلك بخلاف المخلوق الذي يسبق علمه الجهل، كما يعتريه النسيان.

- **المرتبة الثانية: الكتابة**: والمقصود بها الإيمان بأن الله تعالى **(كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)**[نص حديث رواه مسلم (٢٦٥٣)]، وقد قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد:٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج:٧٠].
- **المرتبة الثالثة: المشيئة**: والمقصود بها الإيمان بأن كل ما كان وما يكون إنما هو بمشيئة الله ﷻ؛ كما يقول المسلمون: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»، وسواء في ذلك ما كان من فعل الله ﷻ أو من فعل المخلوق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]؛ فالاقتتال هو فعل العبد، والله ﷻ جعله بمشيئته، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].
- **المرتبة الرابعة: الخلق**: والمقصود بها الإيمان بأن الله تعالى هو الذي خلق ما علمه وكتبه وأراده؛ فهو خالق كل شيء، والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر:٦٢]؛ وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:٤٩]. ويدخل في ذلك أيضًا أفعال العباد؛ فأفعالهم مخلوقة من الله ﷻ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

* * *

١٩٠ – مفهوم ٣: لله سبحانه إرادتان:

١ – **الإرادة الشرعية**: وهي أوامره ﷻ وتكاليفه الشرعية التي يحبها ويرضاها لعباده، وهي الموصوفة باليسر؛ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

٢ – **الإرادة الكونية القدرية**: وهي قضاء الله وقدره الذي يقدره في الكون. وما يقدره الله قد يكون مرادًا شرعًا، وقد لا يكون كذلك؛ كما في حالة وجود الكفر في الواقع؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧].

فالخلاصة أن الإرادة الشرعية هي ما أراده الله منا ويحبه ويرضاه، والإرادة الكونية هي ما أراده الله بنا، ولا يلزم أن يحبه ويرضاه شرعًا، بل قد ينهى عنه ويكرهه دينًا وشرعًا، وإنما أراده بحكمته وعدله للابتلاء ولمصالح لا نعلمها وهو يعلمها، ويلخص ذلك حوار بالإشارة والكناية دار بين معتزلي نافٍ للقدر وسني مُثبِتٌ له:

– قال المعتزلي: «سبحان من تنزه عن الفحشاء» [يشير بذلك إلى أن الله لا يُقَدِّر الشر والمعاصي].

– قال السني: «سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء» [يريد أن كلًّا من الخير والشر هو بقدر الله].

– فسأل المعتزلي: «أفيحب ربنا أن يُعصى؟!»

– فأفحمه السني بقوله: «أفيُعصى ربنا مكرهًا؟!»

* * *

١٩١ – مفهوم ٤: الإرادة الشرعية والإرادة الكونية بين الاتفاق والافتراق:

للإرادة الشرعية مع الإرادة الكونية حالات:

١ – فقد تجتمع الإرادتان؛ كما في حالة المرء المطيع (**إيمان المؤمن**)؛ فالله ﷻ يريد منه الإيمان شرعًا، ويقدره له كونًا.

٢ – وقد تنتفي الإرادتان؛ كما في حالة (**عدم كفر المؤمن**)؛ فالله ﷻ لا يريد شرعًا من المؤمن أن يكفر، ولا يقضي عليه به كونًا وقدرًا.

٣ – وقد توجد إحداهما وتنتفي الأخرى؛ وذلك في حالتين:

أ – **عدم إيمان الكافر**: فالله ﷻ يريد شرعًا من الكافر الإيمان، ولكن لم يقدره له كونًا؛ كما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ

ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود:٣٤].

ب – **كفر الكافر**: فالله ﷻ لا يريد شرعًا الكفر من الكافر، ولكن يقدره عليه كونًا.

* * *

١٩٢ – مفهوم ٥: مشيئة العبد تحت مشيئة الله:

قال الله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٨،٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر:٥٥،٥٦]؛ فأثبت سبحانه للعبد مشيئة وإرادة حقيقية، ولكن جعلها من بعد مشيئته ﷻ وتحتها، فلا تكون إلا إذا شاء الله وأراد؛ لأنه سبحانه هو خالق العبد ومشيئته.

وأصل الضلال في مسألة الجبر والاختيار هو عدم التفريق بين المشيئتين، وعدم إدراك هذه العلاقة بينهما، فمن فهم ذلك اطمأن قلبه ولم يحر في هذه المسألة.

* * *

١٩٣ – مفهوم ٦: مشيئة الله ترتبط بعلمه وحكمته ﷻ:

ينبغي على كل مؤمن أن يوقن أن مشيئة الله تعالى لا ظلم فيها، وإنما يشاء الله لكل أحد ويُقدِّر عليه ما يعلم أنه يستحقه من هدى أو ضلال، فيُجري ذلك عليه وفق حكمته وعدله ﷻ؛ فقول الله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤] كما يؤكد أن مشيئة الله ﷻ لا غالب لها؛ وهو ما يفيده قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، يؤكد أيضًا أن تلك المشيئة هي وفق حكمته سبحانه؛ وهو ما يفيده قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وكذلك ينبغي أن تفسَّر المشيئة المطلقة في الآية بالآيات الأخرى المقيدة لها؛ فقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ يفسِّره ويقيده قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧]؛ فمشيئته سبحانه هي إضلال من علم أنه ظالم يستحق ذلك، كما قال تعالى أيضًا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥].

وكذلك الأمر بالنسبة للهداية؛ فقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ يفسِّره قوله ﷻ: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد:٢٧].

فالخلاصة أن الله سبحانه حكيم عليم، لا يُقدِّر على أحد إلا ما سبق في علمه سبحانه أنه يستحق ما قدَّره عليه من هدى أو ضلال، وبهذا يسلم المؤمن من الجدل العقيم في

قضية الجبر والاختيار؛ تلك القضية القديمة التي لاكتها ألسنة الفلاسفة في كل عصر.

❋ ❋ ❋

١٩٤ - مفهوم ٧: القضاء والقدر هو سر الله تعالى في خلقه:

لا تقوم شجرة الإيمان بالقدر في قلب العبد المؤمن إلا على ساق التسليم بأن الله ﷻ حكم عدل لا يظلم أحدًا، وله الحكمة البالغة فيما يقدره في خلقه، وما لا تظهر لنا حكمته فيما يقضيه سبحانه فلقصور عقولنا عن إدراك أسرار قدره ﷻ؛ يقول الإمام الطحاوي -رحمه الله-: «وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه؛ لم يَطَّلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمُّق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة؛ فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه؛ كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين» [شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٤٩]، والله ﷻ لا يُسأل عما يفعل لأنه لا يفعل إلا ما فيه حكمة.

❋ ❋ ❋

١٩٥ - مفهوم ٨: أقوال مأثورة في الرضا بالقدر:

١ - عن محمد بن كعب قال: قال موسى عليه السلام: «أي رب؛ أي خلقك أعظم ذنبًا؟ قال: الذي يتهمني. قال أي رب؛ وهل يتهمك أحد؟ قال: نعم، الذي يستخيرني ولا يرضى بقضائي» [رواه ابن أبي الدنيا في (الرضا عن الله)، ص٧٣، وقال محققه: إسناده لا بأس به].

٢ - اختلف سفيان الثوري ويوسف بن أسباط فيما يتمنيان حال وقوع الفتن؛ فتمنى سفيان الثوري الموت فرارًا منها، وردَّ يوسف بن أسباط بأنه لا يكره طول البقاء رجاء أن يوفق لتوبة أو عمل صالح، فقال وهيب بن الورد: «أنا لا أختار شيئًا؛ أَحَبُّ ذلك إليَّ أحبُّه إلى الله» فقبَّل الثوري بين عينيه وقال: «روحانية ورب الكعبة» [ينظر مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢١٥)].

٣ - ومن أقوال المعاصرين قال مصطفى السباعي: «ربما كان فيما تستعجل من الخلاص من الآلام والأمراض تعرُّضٌ لمحنة أقسى وبلاء أشد، فلا تستبطئ وعد

ربك بالرحمة؛ فإنه وعدك بما يراه هو رحمة لك، لا بما تراه أنت رحمة، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]» [هكذا علمتني الحياة: (١/ ١٢٤)].

* * *

١٩٦ - مفهوم ٩: معرفة أسماء الله الحسنى والتعبد بها يعين على الرضا بالقدر:

إن معرفة أسماء الله الحسنى وآثارها ومقتضياتها في الخلق والأمر، والتعبد لله سبحانه بذلك يعين المرء على الرضا بقضاء الله تعالى وقدره؛ لا سيما أسماؤه الحسنى: العليم، الحكيم، اللطيف، الخبير، الرحمن الرحيم، الرؤوف، الودود.

* * *

١٩٧ - مفهوم ١٠: لزوم سلامة القلب من الاعتراض على ما لا يمكن دفعه من المصائب:

إذا ما حلَّت بالمرء مصائب ومقدرات لا يمكن دفعها رغم بذل المستطاع من الأسباب فإن عليه حينئذ التسليم لقضاء الله وقدره، والصبر على مقدوره، واليقين بحكمته فيما قضاه وقدَّره. ويتفاوت الناس في حالهم مع المصائب، ولهم في ذلك أربع حالات:

١ - حال محرمة: وهي الجزع والتسخط وعدم الصبر، وهذا ينافي الإيمان بالقدر.

٢ - حال واجبة: وهي الصبر على هذا المقدر.

٣ - حال مستحبة: وهي الرضا بهذا المقدر المقضي وعدم كرهه؛ وهذا يفترق عن الرضا بالقضاء نفسه الذي هو واجب.

٤ - حال كمال: وهي الشكر لله ﷻ على قضائه ومقضيه.

* * *

١٩٨ - مفهوم ١١: الرضا بقدر الله الذي قد تكرهه النفس:

ما قد تكرهه النفس البشرية إمَّا أن يكون أمرًا شرعيًّا أو قدرًا مقضيًّا، فينبغي على المؤمنين أن يعلموا أن ما أراده الله بهم شرعًا أو قدرًا هو خير لهم من ألا ينزله بهم، وهو لطف بهم وإحسان إليهم؛ فالله سبحانه عليم خبير، وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

- فمما شرعه الله على المؤمنين وقد يكرهونه أو يكرهه بعضهم: الجهاد في سبيل الله؛ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، و(عسى) من الله

إيجاب؛ فالمقصود أن ما تكرهونه من مشقة الجهاد يوجب الخير لكم؛ حيث: تَغلِبُون، وتغنمون، وتؤجرون، وتُظهرون الحق وتنصرونه، وتخذلون الباطل وحزبه، ومن يُقتَل منكم فهو شهيد. وفي المقابل: فإن ما تحبون من الدعة وترك القتال يوجب لكم الشر في أنكم تُغلَبون، وتُذَلُّون، ويذهب أمركم.

والرضا بالشرع والانقياد له واجب لا يتم الإيمان إلا به ولا خيار فيه للمؤمن؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، أما الكره الجبلِّي مع استسلام القلب وانقياده للأمر فلا يؤاخذ عليه المرء.

- ومما قد يقدِّره الله على المؤمن ويكرهه: الزواج من امرأة يظهر منها تجاهه ما يكرهه؛ قال تعالى في ذلك: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]؛ فقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ ولم يقل: (فعسى أن تكرهوا امرأة)، وهذا تعميم يرشدنا إلى قاعدة عامة تصدق في جميع الأشياء لا النساء خاصة؛ هذه القاعدة هي أن بعض ما يكرهه الإنسان قد يكون فيه خير له، ويعرف العقلاء صدق ذلك من تجارب الحياة. فالقرآن الكريم يأخذ بالنفس البشرية لتؤمن، وتستسلم في أمر الغيب المخبوء بعد أن تبذل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف.

* * *

١٩٩ - مفهوم ١٢: الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب:

من سنن الله عَزَّ وَجَلَّ في كونه: ربط المسببات بأسبابها؛ فما يجري من المقادير في الأرض هو في الأصل وعلى وجه العموم مرتبط بالأسباب الموجبة له، ولهذا أرشدنا الله إلى الأخذ بالأسباب في أمور دنيانا وأمور آخرتنا؛ كما قال الله تعالى لمريم -عليها السلام- حين جاءها المخاض: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥] وقد كان سبحانه قادرًا أن ينزل عليها الرطب من غير فعل منها، وأمرنا بأخذ الحذر من العدو فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١] وهو قادر على أن يكفينا إياه من غير فعل منا، فهذا في أمر دنيانا، وكذلك الشأن في أمور ديننا؛ فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وقال تعالى أيضًا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟

أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥]. فقضى الله ﷻ أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما أن من عقوبة المعصية المعصية بعدها. ولهذا فالأخذ بالأسباب -سواء في جلب المرغوب أو دفع المحذور- لا ينافي الإيمان بالقدر، بل هو أيضًا من القدر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين امتنع عن دخول الشام لما علم بانتشار الطاعون فيها، وقيل له: أفرارًا من قدر الله؟! قال: «نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله» [رواه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢٧٩)].

* * *

٢٠٠ - مفهوم ١٣: الأخذ بالأسباب لا يعني التعلق بها:

الأخذ بالأسباب بناءً على أن من سنن الله ارتباط المسببات بأسبابها لا يعني التعلق بها والانقطاع إليها دون الإيمان بأن تَحَقُّقَ الأمر هو بمشيئة الله وحكمته؛ أي: ينبغي ألا يعتقد أحد أنه ما دام قد أخذ بالأسباب فلا بد أن يتحقق ما أراده دون الحاجة لإرادة الله في ذلك؛ فهذا الانقطاع إلى الأسباب بتلك الصورة يُعدُّ شركًا، كما أن الإعراض عن الأسباب بالكلية قدحٌ في الشرع، ونفي تأثيرها مخالف للعقل؛ فللأسباب تأثير في المسببات ولكن من بعد إرادة الله ومشيئته؛ تمامًا كما أن للعبد مشيئة وإرادة هي من بعد مشيئة الله وإرادته.

* * *

٢٠١ - مفهوم ١٤: طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية:

الأخذ بالأسباب مع عدم التعلق بها مبني على إدراك طلاقة المشيئة الإلهية التي قد تخرق ثبات السنن الكونية لحكمة يعلمها الله؛ فالله سبحانه قادر متى شاء وكيف شاء أن يخرق هذه السنن؛ فهو: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦]، وهو: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]؛ فقد منع الله النار أن تحرق إبراهيم عليه السلام خلافًا لثبات هذه السنة الكونية؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، ورزق زكريا عليه السلام بيحيى عليه السلام رغم كبر سنه وكون امرأته عاقرًا؛ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٤٠].

فالخلاصة أن المؤمن ينبغي أن يأخذ بما يستطيع من الأسباب، ويُعلِّق رجاءه بعد ذلك بالله وحده؛ فيكون بذلك وسطًا بين من يُفرِط في النظر إلى ثبات السنن الكونية وحتميتها

وعدم قابليتها للتخلف بحال، ومن يُفرِّط في الأخذ بالأسباب زاعمًا اعتماده على مشيئة الله وطلاقتها، ومثال تلك الوسطية: ما قام به المسلمون في غزوة بدر؛ حيث أخذوا بما يقدرون عليه من الأسباب، واستنفدوا وسعهم في ذلك، وعلَّقوا رجاءهم بالله، فأمدَّهم سبحانه بالملائكة الذين مكنوهم من النصر رغم قلة عددهم وعتادهم -وهو المخالف للمعتاد في نظر الناس- قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩].

* * *

٢٠٢ – مفهوم ١٥: صورتان للانحراف في فهم القدر:

١ – **الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والكفر**؛ وقد قال تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فأكذبهم الله في دعواهم تلك. وهؤلاء وأمثالهم مكابرون ومتناقضون في دعواهم، ولا يمكنهم اطرادها في كل أمر؛ فلو أساء إليهم مسيء بضرب، أو سب، أو سلب حق، ثم احتج عليهم بأن ذلك موجب القضاء والقدر، لم يقبلوا منه ذلك، بل سيغضبون منه أشد الغضب، وسينافحون عن حقهم المسلوب، فيا عجبًا كيف يحتجون بالقدر على المعاصي وما يسخط الله ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة سخطهم عليه لما يغلط به عليهم!

٢ – **الجمود والتواكل**: حيث اتخذ بعض المسلمين في العصور المتأخرة الإيمان بالقدر مبرِّرًا واهيًا لعجزهم وانهيارهم، ورضاهم بالفساد والمهانة؛ متناسين أن أقدار الله إنما تجري عليهم في الأصل وفق سنن الله الثابتة التي تربط المسببات بأسبابها، فكان ذلك العجز والتواكل هو المنفذ الرئيس لتسرب الفكر العلماني إلى واقع الأمة المسلمة وسيطرته على مقاليد الأمور فيها. وقد سمَّى مالك بن نبي هذا العجز وقبول الذل بـ**(قابلية الاستعمار)**، وسمَّاه المودودي: **(قابلية الاستعباد)**.

ولا شك أن الحق في هذا الأمر يكون -كما ذكرنا من قبل- في التوازن بين العمل

بكل ما في الوسع لدفع المحذور حتى نصل إلى منتهى الاستطاعة، ثم الاستسلام لما يقدره الله لإيماننا به؛ وهذا يعني فعل الأسباب التي سخَّرها الله لنا، ومدافعة أقدار الله ﷻ بأقداره ما دام هناك إمكان للمدافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، فإذا لم تُجِد المدافعة، أو لم يكن ذلك في الإمكان، فالواجب الصبر على قضاء الله وقدره، مع اليقين بأن وراء ذلك خيرًا ومصلحة ورحمة ينبغي بذل الجهد في التماسها وتسخيرها للخير والإصلاح، وتغيير أحوال الناس بمحاسبة النفوس وإزالة أسباب المصيبة؛ إيمانًا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وبهذا يتضح جليًّا الفرق بين التوكل والتواكل حيث:

- **التوكل** هو: عمل القلب وعبوديته؛ اعتمادًا على الله، وثقة به، والتجاءً إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه مع قيام المرء بالأسباب المأمور به.
- **والتواكل**: عجز وتعطيل للأسباب، وتفريط فيها زعمًا أنه من التوكل والإيمان بالقدر.

❁ ❁ ❁

٢٠٣ - مفهوم ١٦: نواقض الإيمان بالقدر:

١ - إنكار القدر والتكذيب به؛ فينكر أن الله ﷻ علم الأشياء قبل وقوعها، أو أنه كتبها.

٢ - الاستخفاف بالقدر والاستهزاء به، والسخرية منه، ولو لم يكذب به.

٣ - معارضة الله ﷻ في أقداره، أو اعتقاد أنها عبث وسدى.

٤ - اعتقاد أن تقدير المصائب من الله ﷻ على عباده ظلم لهم؛ تعالى الله عن ذلك.

٥ - اعتقاد أن الله ﷻ يرضى بالمعاصي والشرك التي تقع من العبد لأنه قدَّرها عليه.

❁ ❁ ❁

٢٠٤ – مفهوم ١٧: من ثمرات الإيمان بالقدر:

تتلخص أهم ثمرات الإيمان بالقدر في:

١ – تعظيم الله ﷻ وإجلاله؛ لما في الإيمان بالقدر من تجلي أسماء الله الحسنى وصفاته العليا؛ كالعلم، والحكمة، والخلق، والقدرة والعزة، وقهر كل شيء.

٢ – التسلية عند حلول المصائب؛ لأن العبد إذا علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه رضي وسلَّم.

٣ – سكون النفس وطمأنينتها عند استقبال الأحداث خيرها وشرها؛ فلا تجزع الجزع الذي تذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح المُطغي عند السراء؛ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢،٢٣].

٤ – المضي في الطريق إلى الله بلا حيرة، ولا قلق، ولا سخط على العقبات والمشاق، ولا قنوط من عون الله ومدده، ولا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء.

٥ – سلامة القلب من الحقد والحسد؛ إذ هما في الحقيقة معارضة لقدر الله ﷻ فيما يقدِّره من النعم على عباده، وما يصرفه من النقم.

٦ – السلامة من الضلالات التي أصابت بعض الطوائف الضالة في باب القدر؛ كالقدرية والجبرية؛ تلك الضلالات التي تؤثر سلبًا على أعمال أصحابها وتصرفاتهم.

٧ – بذل الجهد في الأعمال الصالحة، والفرار من أقدار الله التي لا يرضاها إلى أقداره التي يرضاها.

٨ – سؤال الله ﷻ الهداية والثبات، والخوف من زيغ القلب وزلة القدم؛ فلا معصوم من ذلك إلا من رحم الله فهداه وثبَّته.

٩ – صدق التوكل على الله ﷻ، واللجوء إليه وحده.

* * *

رابع عشر: مفاهيم حول الإيمان والإسلام:

٢٠٥ - مفهوم ١: تعريف الإيمان:

- الإيمان عند أهل السنة والجماعة: اعتقاد وقول وعمل؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية:

* **فالاعتقاد** هو: تصديق القلب وإقراره، ويقال له أيضًا: «قول القلب».

* **والقول** هو: قول اللسان للشهادتين والنطق بهما.

* **والعمل** هو: أ) عمل القلب: وهو انقياد القلب وقبوله وتسليمه.

ب) عمل الجوارح بالطاعات (جنس العمل).

- والإيمان عند الجهمية هو: المعرفة، وعند الأشعرية هو: التصديق.
- والإيمان عند الكرَّامية هو: النطق باللسان وإن انتفى التصديق والقبول.
- والإيمان عند المرجئة هو: التصديق وقول اللسان.
- والإيمان عند الخوارج هو: كل الأقوال والأعمال المشروعة من فعل واجب أو ترك محرم، ولو ترك المرء واجبًا واحدًا أو فعل محرمًا واحدًا كفر.
- ويتفق الخوارج والمرجئة في زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.
- ومرجئة الفقهاء يثبتون أعمال القلوب، ويقرون بأهميتها، ولكنهم يجعلونها شيئًا آخر سوى الإيمان، كما يخرجون أيضًا أعمال الجوارح عن مسمى الإيمان، ولكنهم إذا سُئلوا عن علاقة كلٍّ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح بالإيمان قالوا: هي من لوازمه وثمراته.

* * *

٢٠٦ - مفهوم ٢: دخول الأعمال في الإيمان عند أهل السنة:

جنس العمل ركن من أركان الإيمان عند أهل السنة، فإذا ذهب -أي فقد عمل جميع الطاعات- ذهب أصل الإيمان؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن فقد جنس العمل مطلقًا: «فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئًا مما أُمِر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات... وهو مع ذلك مؤمن في الباطن؛ لا يفعل ذلك إلا لعدم الإيمان في قلبه» أمَّا إذا تخلَّفتْ بعض الأعمال، كترك بعض الواجبات أو

فعل بعض المحرمات، فإن أصل الإيمان باقٍ، ولكن نقص الإيمان الواجب، إلا أن يكون العمل المتروك منصوصًا عليه في الشرع أن تركه كفر؛ كترك الصلاة تركًا نهائيًا ولو كان تكاسلًا، وكالحكم بغير ما أنزل الله ورفض شرع الله.

ولأن المرجئة لا يدخلون الأعمال في مسمى الإيمان فإنهم لا يرون تارك جنس العمل كافرًا، بل يكفي منه التصديق ليكون مؤمنًا، والخوارج يرون -كما يرى أهل السنة- أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، ولكنهم يختلفون عنهم بأنهم يعتبرون فعل أي محرم أو ترك أي واجب كفر يوجب الخلود في النار إذا لم يتب منه صاحبه، ولو فعل باقي الواجبات وترك سائر المحرمات؛ عكس أهل السنة الذين لا ينفون عن مرتكب الكبيرة أصل الإيمان ما لم يستحلها، ويقولون: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ناقص الإيمان، وقد جاء في حديث جبريل أن أركان الإيمان هي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

* * *

٢٠٧ - مفهوم ٣: انحراف معاصر في فهم الإيمان:

نحن نعيش اليوم حالة مزرية فريدة في تاريخ الإسلام، إن لم يكن في تاريخ البشرية كلها؛ حيث يؤمن كثير من الناس بوحدانية الله لا شريك له، ثم لا ينفذون شريعته في واقع الحياة ولا يرون حرجًا في ذلك، بل قد يرى بعضهم أن المصلحة اليوم هي في تنحية شريعة الله عن واقع البشرية واتخاذ تشريعات من وضع البشر بدلًا عنها، ويزعمون مع ذلك أنهم مسلمون يحبون الإسلام وأهله. ومثل هذا لم يقع من قبل في تاريخ البشرية جمعاء؛ ذلك أن البشرية في تاريخها كله كانت لا تخرج عن إحدى حالتين: إما مؤمنة بالله الواحد الأحد منفذة لشريعته على وجه الإجمال، وإما مشركة في الاعتقاد تؤمن بوجود آلهة ومشرعين آخرين، وتنفذ شرائعهم من دون الله. أمَّا أن نؤمن بالله الواحد ثم ننفذ شريعة غيره فهذا ضرب من الخبل لم يحدث من قبل في جاهلية ولا إسلام.

* * *

٢٠٨ - مفهوم ٤: تعريف الإسلام:

قال في القاموس: أسلم: انقاد وصار مسلمًا. ويقول ابن تيمية شارحًا معنى الإسلام: «لفظ الإسلام يستعمل على وجهين: **الأول** متعديًا؛ كقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥]... **والثاني** لازمًا؛ كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]، وكقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:٨٣]... وهو يجمع معنيين: أحدهما: الانقياد والاستسلام، والثاني: إخلاص ذلك وإفراده... وعنوانه قول: لا إله إلا الله. وله معنيان: **أحدهما**: الدين المشترك؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي بُعِثَ به جميع الأنبياء... **والثاني**: ما اختُص به محمد ﷺ من الدين والشرعة والمنهاج، وهو الشريعة والطريقة والحقيقة» [الإيمان الأوسط:٢٤٧]. وأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلًا.

* * *

٢٠٩ - مفهوم ٥: فهم خاطئ للإسلام:

يظن بعض الناس -إما عن جهل بحقيقة الإسلام أو عن هوى ومغالطة- أن الموحد من أي ملة مضت هو مسلم مؤمن لو بقي على ملته بعد بعثة نبينا محمد ﷺ، ويستدلون على رأيهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]، وهذا فهم منحرف لأن الآية نزلت فيمن مات على التوحيد من نصارى أو يهود أو صابئة قبل بعثة النبي ﷺ، أمّا بعد بعثته ﷺ فلا بد لكل أحد أن يؤمن به ويتبعه، ولا يكفيه أن يكون موحدًا مع بقائه على دينه وعدم اتباعه ﷺ؛ لأن الكفر بمحمد ﷺ بعد بعثته هو كفر بموسى وعيسى -عليهما السلام- فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١]، وقال النبي ﷺ: **(والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)** [رواه مسلم (١٥٣)].

٢١٠ – مفهوم ٦: معنى كل من الإيمان والإسلام حال الاجتماع وحال الافتراق:

يندرج مفهوم الإيمان والإسلام تحت القاعدة المشهورة: «إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا»؛ أي أن لفظ الإيمان إذا اقترن مع لفظ الإسلام في آية واحدة أو حديث واحد فإنهما يفترقان في المعنى: فيعبِّر لفظ الإيمان عن الإيمان الباطن من التصديق والإذعان والقبول والاعتقادات القلبية، ويعبر الإسلام عن الإيمان الظاهر على الجوارح والأركان.

أمَّا إذا افترقا في الذكر فجاء مثلا لفظ الإيمان في آية دون اقترانه بالإسلام، أو العكس، فإنهما حينئذ يكونان بمعنى واحد هو: الإيمان والاستسلام ظاهرًا وباطنًا.

مثال الاقتران في الذكر: قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

ومثال الافتراق: قول الله تعالى عن الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]، وقوله تعالى عن الإسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

* * *

٢١١ – مفهوم ٧: قيمة الإيمان في الحياة وثمراته:

١ – أهم قيمة للإيمان أنه معرفة للحقيقة الأولى: وجود الله تعالى؛ تلك المعرفة التي لا تصح في النفس البشرية معرفة لوجود أي شيء آخر إلا من خلالها؛ فيدرك أن الوجود من صنع الله، ومن ثَمَّ يتعامل الإنسان مع الكون وهو يعرف طبيعته، كما يعرف قوانينه التي تحكمه، وينسق حركته مع حركة هذا الوجود الكبير وفق هذا الفهم، ولا ينحرف عن نواميسه الكلية؛ فيسعد بهذا التناسق ويمضي مع الكون كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وسلام؛ عبدًا لله موحدًا له لا شريك له وتلك صفة لازمة لكل إنسان، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارئ الوجود.

٢ – وقيمة الإيمان كذلك في تحقيقه للطمأنينة النفسية، والثقة بالطريق، وعدم الحيرة أو التردد، أو الخوف، أو اليأس. وهذه صفات لازمة لكل إنسان في رحلته على الأرض،

ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق ويقود البشرية في هذا الطريق.

٣ - وقيمة الإيمان في التجرد من الهوى والمصالح والأغراض والمغانم الشخصية؛ إذ يصبح القلب متعلقًا بهدف أبعد من ذاته، ويحس أنه ليس له من الأمر شيء؛ إنما هي دعوة الله، وهو فيها أجير عند الله! وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن تُوكَلُ إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد، أو أُوذي في سبيل الدعوة، ولا يغتر إذا ما استجابت له الجماهير أو دانت له الرقاب؛ فإنما هو أجير.

٤ - والإيمان بالله دليل على حيوية الفطرة وسلامة أجهزة الاستقبال فيها، وعلى صدق الإدراك الإنساني وحيوية البنية البشرية، وعلى رحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود؛ وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

٥ - والإيمان بالله قوة دافعة دافقة؛ تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها، وتتجه بها إلى وجهة واحدة، وتطلقها لتستمد قوتها من قوة الله، ولتعمل في تحقيق مشيئته عَجَلَّ في خلافة الأرض وعمارتها ودفع الفساد والفتنة عنها، وفي ترقية الحياة ونمائها، مع إدراك حقيقة فنائها وبقاء الآخرة، فتجعل عملها في الدنيا رغبة في الآخرة؛ وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية.

٦ - والإيمان بالله تحررٌ من العبودية للهوى، ومن العبودية للعبيد. وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صالحة.

٧ - والإيمان هو أُسُّ الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزائم في الشدائد، وبلسم الصبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة بالحظوظ، ونور الأمل في الصدور، وسكن النفوس وطمأنينتها إذا أوحشتها الحياة، وعزاء القلوب إذا نزل بها الموت أو اقتربت أيامه، والعروة الوثقى بين الإنسانية ومُثُلِها الكريمة.

٨ - وبفقد الإيمان نكون أسوأ حظًّا في الحياة، وأدنى رتبة في سلم المخلوقات من أذل البهائم، وأحقر الحشرات، وأشرس الضواري؛ فالبهائم تجوع كما نجوع ولكنها في نجوة من هم الرزق وخوف الفقر وذل السؤال، وهي تلد كما نلد، وتفقد أولادها كما نفقد، ولكنها في راحة من هلع الثكلى وخوف اليتيمة، وهي تتألم في أجسادها

كما نتألم ولكنها في راحة مما يأكل القلوب ويقطع الأرحام ويفرق الشمل كالحسد والكذب والنميمة، وهي تمرض كما نمرض وتموت كما نموت ولكنها في راحة من التفكر في عاقبة الموت.

فإن لم يكن لنا إيمان يسلينا ويرضينا ويعزينا كنا أشقى وأضل من الحيوانات العجماوات، وصدق الله العظيم إذ يقول في وصف الكافرين: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

* * *

٢١٢ – مفهوم ٨: الإيمان بالغيب يضبط العلاقة بين العقل والنقل:

الإيمان بالغيب هو ساق شجرة الإيمان التي لا تقوم إلا عليه؛ فالإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر أصله كله الإيمان بالغيب والتسليم لما جاء في القرآن والسنة الصحيحة من الأخبار عن هذه الأصول الستة، واليقين بأن للعقل حدوده في الإدراك، وعليه فالعقل تابع للنقل ودوره أن يعقل عن الله ورسوله ويتدبر نصوص الوحيين ويتعبد لله ﷻ بالإيمان بها وبآثارها.

والعقل الصحيح لا يتعارض مع النقل الصريح، وإن ظهر شيء من التعارض فسببه إما فساد في العقل والتصور، أو أن النقل غير صحيح أو غير صريح.

وقد وصف الله ﷻ عباده المتقين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة:٣]، وهذا هو شأن السلف -رحمهم الله- حيث يُقدِّمون النقل على العقل، وينتفعون من نعمة العقل في تدبر الآيات وزيادة الإيمان، والاستعداد لما وعد الله ﷻ به عباده من النعيم في الآخرة جزاء للعمل الصالح، أو لما توعَّد الله به الظالمين من العقاب فيبتعدون عن أسبابه وما يقرب إليه.

إن دور العقل أن يتلقى عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ، وينقاد لما يتلقاه، لا أن يكون حاكمًا على نصوص الوحيين؛ يأخذ منها ما يشاء ويترك ما يشاء.

ومعنى مخاطبة هذا الدين للعقل هو أنه يوقظه، ويوجهه، ويزكيه، ويقيم له منهجًا صحيحًا للنظر والتفكير، لا أنه يتيح له أن يحكم بصحة تشريعاته أو بطلانها، فمتى

ثبت النص كان هو الحَكَم، وكان على العقل البشري قبول النص والانقياد له وتنفيذه؛ سواء أدرك الحكمة منه أو لم يدرك؛ فالنقل من عند الله العليم الخبير، والعقل ليس إلها يحكم بالصحة أو البطلان، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله.

وبعدم إدراك الدور الصحيح للعقل يقع كثير من الخلط؛ سواء ممن يريد تأليه العقل البشري وجعله حاكمًا على النصوص، أو ممن يريدون إلغاء العقل ونفي دوره في الإيمان والهدى والاستنباط.

* * *

خامس عشر: مفاهيم حول الكفر والنفاق:

٢١٣ - مفهوم ١: تعريف الكفر:

الكفر في اللغة: الستر والتغطية؛ يقال: كفر الزارع البذر: غطَّاه بالتراب، وكفر النعمة: جحدها وسترها، والكافر: الجاحد لنعم الله تعالى، والكافر: الليل المظلم؛ لأنه ستر الأشياء بظلمته.

والكفر في الشرع: تغطية الإيمان؛ وهو جحد واحد أو أكثر من أركان الإيمان؛ كجحد وحدانية الله ﷻ، أو جحد ملائكته، أو كتبه أو شيء منها، ولو آية واحدة، أو جحد رسله وتكذيبهم، أو جحد اليوم الآخر، أو القدر، وكذلك جحد شيء من شرائع الله أو شعائره المجمع عليها.

والكفر نقيض الإيمان، ويكون بالقلب وباللسان والأفعال.

ومن أنواع الكفر أيضًا غير كفر الجحود والتكذيب: كفر الإباء والاستكبار، وكفر الاستحلال، وكفر الاستهزاء، وكفر النفاق الأكبر، وكفر الإعراض، وكفر الشك.

* * *

٢١٤ - مفهوم ٢: الكفر الأكبر والكفر الأصغر:

الكفر الأكبر هو المخرج من الملة؛ كالأنواع المذكورة في المفهوم السابق، وهو يضاد أصل الإيمان؛ لذا لا يغفره الله إلا بالتوبة، وصاحبه مخلد في النار يوم القيامة إن لم يتب منه.

والكفر الأصغر هو ما سُمِّي كفرًا ولم يُخرج من الملة؛ كالإتيان ببعض أعمال الكفار

التي تُنقِص الإيمان ولا تنقضه؛ ككفر النعمة، وقتال المسلم، والنياحة على الأموات، والطعن في الأنساب، ويسير الرياء، والحلف بغير الله. وكل هذه الأفعال قد ورد في الشرع تسميتها كفرًا، لكن تدل أدلة الشرع الأخرى أنه لا يقصد به الخروج من الملة، وإنما يعد صاحبها مرتكبًا لإثم عظيم، وإن دخل النار بسببها لا يخلد فيها.

وإذا أُطلق لفظ الكفر فإنه ينصرف في الأصل إلى الكفر الأكبر الذي يُحبط جميع الأعمال، ويخلد صاحبه في النار إذا مات عليه ولم يتب منه، إلا إن دلَّت الأدلة على أنه غير مقصود من هذه التسمية.

* * *

٢١٥ - مفهوم ٣: التكفير:

التكفير هو الحكم على مكلف بالكفر؛ سواء كان كافرًا أصليًّا كاليهودي والنصراني، أو كان مسلمًا وارتد عن الإسلام بوقوعه في مكفر من المكفرات.

والتكفير هو حق لله تعالى، ولا دخل فيه للرغبة الذاتية أو الشهوة والهوى، ولا يكون إلا بتحقق شروطه وانتفاء موانعه؛ كالإكراه، أو الخطأ، أو الجهل، أو التأويل.

وأهل السنة وسط في التكفير بين الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب ودون مراعاة للشروط والموانع، والمرجئة الذين يحكمون على الفعل بالكفر ولكن لا يُكفِّرون فاعله المعين إلا إذا أعلن جحوده واستحلاله؛ فليس عندهم كفر الإباء والاستكبار، ولا كفر الاستهزاء، ويكفي عندهم أن ينطق بالشهادتين حتى يصير مسلمًا ولو انتفى عنده عمل القلب وقوله، ولو انتفى عنه جنس العمل كله.

فأهل السنة والجماعة لا يُكفِّرون بكل ذنب، إنما يكفرون فقط بالذنب الذي جاءت النصوص بأنه كفر؛ كترك الصلاة مطلقًا، والحكم بغير ما أنزل الله، وسب الرسول ﷺ وسب دينه، ...إلخ. ولا يُكفِّرون المعين إلا إذا توفَّرت شروط تكفيره وانتفت الموانع، ولا يحصرون ذلك في الجحود والاستحلال؛ لأن الكفر عند أهل السنة يكون بأمور عديدة:

- منها الاعتقاد؛ كاعتقاد أن لله ندًّا وشريكًا في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

- ومنها استحلال المحرم؛ فاستحلال المعاصي كفر بذاته وإن لم يفعلها المستحل، ولا

يكون الاستحلال شرطًا للكفر إلا في المعاصي التي هي دون الكفر والشرك؛ أمَّا الأعمال التي هي كفرٌ وشركٌ -كالسجود للصنم وسب الرسول ﷺ- فلا يشترط استحلال فعلها ليوصم فاعلها بالكفر، بل يوصف بذلك بمجرد فعلها ولو لم يستحل ذلك، ما دامت الشروط قد تحققت والموانع قد انتفت.

- ويكون الكفر باللسان؛ كسبِّ الله ورسوله، ومدح الشرك، وهجاء الأنبياء والملائكة، والسخرية من الشريعة.
- ويكون الكفر بالعمل؛ كمن يقاتل الأنبياء، ويظاهر الكفار على المسلمين، ويهين المصحف، ويذبح أو يسجد لغير الله، أو يشرع من دون الله.

* * *

٢١٦ - مفهوم ٤: أصول التكفير:

إن مسألة تكفير المعين من عدمه مسألة خطيرة؛ وذلك من وجهين:

الأول: تكفير المعين الذي لا يستحق التكفير بمجرد شبهات لا ترتقي إلى القطع بتكفيره.

الثاني: عدم تكفيره رغم توفر الشروط وانتفاء الموانع التي يقطع معها بتكفيره والتعامل معه بأحكام الإسلام.

ولتكفير المعين أصول ينبغي الانطلاق منها ومراعاتها؛ أهمها:

١ - يجب أن يكون الحكم على المعين بعلم وعدل؛ وذلك بأن يكون الحكم بتكفيره أو عدمه صادرًا عن علم شرعي بأحكام التكفير وضوابطه وشروطه، وعلم واقعي بحال المعين المراد الحكم عليه، وأن يتثبت من ذلك كله، وألا يكون مبنيًا على ظنون وأوهام واحتمالات، وأن يكون الحكم بعدل وتقوى حذرًا من الهوى وحظوظ النفس؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

٢ - أن يكون المرجع في تعريف الإيمان والكفر وما يقتضيانه بيان الله ﷻ في كتابه،

وبيان رسوله ﷺ في سنته، وبفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وهذا الأصل فرع عن الذي يسبقه؛ إذ لا يجوز الخوض في مسائل الإيمان والكفر إلا بعلم راسخ بمعناهما وحدودهما بفهم السلف الصالح، وإلا وقع المرء في بلاء مذاهب المبتدعة في تعريف كل من الإيمان والكفر كالخوارج والمرجئة.

٣ – من ثبت إسلامه بيقين لا يجوز إخراجه منه إلا بيقين؛ وهذا مندرج تحت القاعدة الفقهية العظيمة: «**اليقين لا يزول بالشك**»، فما ثبت بيقين أنه ردة يُحكم به، وما يُشك أنه ردة فلا يُحكم به.

٤ – تجري الأحكام في الدنيا على الظاهر، والله يتولى السرائر، فلا يُفتش عن بواطن الناس حيث لم يأمر الله بذلك، فمن كان ظاهره الإسلام حُكم له به، ومن كان ظاهره مناقضًا للإيمان حكم عليه به، والعبرة في ذلك بآخر ما كان عليه المكلف، وقد كان النبي ﷺ يعامل الناس وفق ظواهرهم؛ فيقبل ظاهر إسلام المنافقين مع أنهم كفار في الباطن، إلا أن يُظهر هذا المنافق كفره قولًا أو فعلًا، فحينئذ يحكم عليه بهذا الظاهر.

٥ – الحكم المطلق بتكفير القول أو الفعل لا يلزم منه الحكم على المعين به، بل يقال: هذا القول أو الفعل كفر، ولا يلزم أن كل من تلبَّس به يكون كافرًا بعينه حتى تتوفر شروط التكفير وتنتفي الموانع، وهذا حكم هام في التكفير والتبديع والتفسيق.

٦ – لا يُحكم على المعين بمآلات قوله أو فعله، ولا يُلزم بلازم قوله أو فعله، إلا إن عُرضت عليه هذه المآلات واللوازم فقبلها والتزم بها، أمَّا إن أنكرها عند عرضها عليه فلا يحكم بكفره.

❊ ❊ ❊

٢١٧ – مفهوم ٥: موانع التكفير:

هناك موانع للتكفير إذا وُجدتْ، أو وُجد أحدها، في الشخص المعين حين ارتكابه للمكفر لا يُحكم عليه بعينه بالكفر حتى تزول عنه ويصر بعدها على ما هو عليه، وأهم تلك الموانع: الخطأ، والتأويل، والإكراه، والجهل، وتفصيل ذلك في المفاهيم التالية.

❊ ❊ ❊

٢١٨ - مفهوم ٦: الخطأ المانع للتكفير:

الخطأ ضد الصواب؛ والمقصود أن يقع المرء في مكفِّرٍ خطأً غير قاصد لما يقول أو يفعل؛ كفَلْتَةِ لسان خرجت خطأً في حال ذهول من شدة فرحٍ أو حزنٍ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك: ما جاء في حديث فرح الله ﷻ بتوبة عبده، وتمثيل ذلك بفرحة من وجد دابته بعد أن ضاعت منه في الصحراء فأخطأ من شدة فرحه وقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» وهو يريد عكس ذلك، وتكثر مثل هذه الأخطاء خاصة بين الأعاجم الذين لا يعرفون معاني الكلمات العربية بدقة، ومثال الخطأ في الأفعال: من أهان المصحف ظانًا أنه كتاب آخر -ككتاب جغرافيا مثلا أو قاموس أعجمي- فإن هذا يعذر بخطئه لعدم علمه أنه قرآن، بينما من أهان المصحف وهو عالم أنه مصحف ولكنه قال: لم أكن أعلم أن إهانته كفر فهذا لا يعذر؛ لأنه أهانه عامدًا فلا يفيده جهل حكم ذلك.

وأصح وأصرح دليل على عدم المؤاخذة على الخطأ أنه لمّا امتثل المسلمون لقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، نسخ الله ﷻ هذا الحكم بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وعن النبي ﷺ أن الله تعالى بعد قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ **(قال نعم)** [رواه مسلم (١٢٥) في حديث طويل].

❊ ❊ ❊

٢١٩ - مفهوم ٧: التأويل المانع للتكفير:

والمقصود به التأويل في فهم نصوص الوحيين بفهم يخالف فهم السلف وقواعد الشريعة؛ فمثل هذا يُعذر حتى يبين له خطأ فهمه، ثم لا يُعذر بعدها إن استمر على تأويله الخاطئ؛ كمن تأول قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣] بأن من آمن واتقى وعمل الصالحات وأحسن فلا حرج

عليه في شرب الخمر، فمثل هذا لا يكفر باستحلاله للخمر لتأويله الفاسد، وإنما يبين له خطأ وفساد هذا التأويل، فإن أصرَّ على تأويله الباطل بعد التوضيح له فلا يُعذر بعدها.

والتأويل الذي يكون مانعًا من تكفير المعين حتى تزال شبهته هو التأويل الذي لا يُفضي إلى تعطيل الشريعة، أو الوقوع في شرك جلي، أو كونه ينطوي على تكذيب ما جاء به الرسول ﷺ، أو جحد أصل لا يقوم الدين إلا به؛ كتأويلات الباطنية الزنادقة والفلاسفة التي تنطوي على الإلحاد والكفر باليوم الآخر، وعلى تعطيل أحكام الشريعة وإسقاط التكاليف واستحلال المحرمات.

* * *

٢٢٠ - مفهوم ٨: الإكراه المانع للتكفير:

الإكراه هو حمل الغير قهرًا على فعل أو قولٍ ما ينافي رضاه واختياره، وإلزامه بما لا يريده. وهو معتبر عند إجراء الأحكام باتفاق أهل العلم، وإن اختلفوا في صوره وحكم كل صورة، وشروط الإكراه المعتبر؛ والأصل في ذلك قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦]. وقد وضع أهل العلم شروطًا للإكراه الذي يُعذر صاحبه؛ أهمها:

١ - أن يكون المكرِه قادرًا على إنفاذ وعيده للمكرَه.

٢ - أن يكون المكرَه عاجزًا عن الدفع عن نفسه بأي وسيلة.

٣ - أن يغلب على ظن المكرَه وقوع الوعيد المهدد به إن لم يفعل ما طُلب منه.

٤ - أن يكون الضرر المترتب على الإكراه على الكفر كبيرًا لا يُتحمل؛ كالقتل، أو التعذيب، أو الحبس الطويل.

٥ - ألا يكون المكرَه إمامًا متبوعًا في الأمة؛ ففي هذه الحال عليه الصبر حتى لا يُضل الناس.

* * *

٢٢١ - مفهوم ٩: الجهل وعدم بلوغ الخطاب الشرعي المانعان للتكفير:

يأتي الجهل لمعانٍ عدة؛ منها: خلو النفس من العلم -وهو المقصود هنا- واعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه؛ فمن وقع في النهي والمخالفة -سواء كانت كفرًا، أم بدعة، أم

فسقًا- بسبب عدم بلوغ الخطاب الشرعي له وجهله به فإنه لا يناله الوعيد في الدنيا ولا في الآخرة المتوعد به مرتكب المخالفة، ولا يُحكم عليه به حتى يبلغه العلم الذي تقوم به الحجة عليه؛ هذا في الجملة، أمَّا تفصيل ذلك فيقول فيه ابن القيم -رحمه الله-: «وهذا في أحكام الثواب والعقاب، أمَّا في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر؛ فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم» [طريق الهجرتين، ص٤٢٤]، ومثل هذا من يقع في شرك جليٍّ، كالسجود لصنم، أو الذبح والنذر لغير الله تعالى؛ فإنه يكون مشركًا في أحكام الدنيا، وأمَّا العقوبات الدنيوية والأخروية فلا تناله إلا بعد زوال الجهل وقيام الحجة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

والعذاب يستحق بسببين: **أحدهما**: الإعراض عن الحجة وعن إرادتها أو العمل بها وبموجبها، **والثاني**: معاندة الحجة ورفض العمل بها بعد العلم بها وقيامها على المعاند. فالأول: كفر إعراض، والثاني: كفر عناد واستكبار. أما الوقوع في الكفر بسبب الجهل وعدم قيام الحجة، أو عدم التمكن منها؛ فهذا الذي نفى الله عن صاحبه التعذيب حتى تقوم حجة الرسل.

❊ ❊ ❊

٢٢٢ - مفهوم ١٠: قيام الحجة:

تختلف إقامة الحجة باختلاف الأزمنة والأماكن والأشخاص؛ فقد تقوم الحجة على الكفار في زمان دون زمان، أو في بقعة دون بقعة، كما أنها تقوم على شخص دون شخص؛ إمَّا لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإمَّا لعدم فهمه كالأعجمي الذي لا يفهم الخطاب ولا يوجد ترجمان يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئًا ولا يتمكن من الفهم.

والجهل الذي يُعذر به الإنسان هو الذي لا يقدر على إزالته ويعجز عن رفعه، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصَّر فيه أو أعرض عنه فحينئذ يلحقه إثم التقصير والإعراض.

❊ ❊ ❊

٢٢٣ - مفهوم ١١: الأحوال المختلفة للجهل:

للجهل بالأحكام الشرعية والمسائل حالات؛ يمكن إجمالها فيما يلي:

١ - أن يكون الجهل بحرمة شيء مقطوع بحرمته -كما يقع من حديث عهد بإسلام أو من هو ببادية نائية وبعيد عن العلم وأهله- فمثل هذا يعذر في استحلاله لهذا المحرَّم حتى يبين له وتقام عليه الحجة ويعلم حرمته. والعذر يرفع عنه عقوبة الدنيا والآخرة، ويمنع الحكم بكفره، بل يبقى مسلمًا حتى يعلم حرمته وتقام عليه الحجة، فإن أصرَّ بعدها على استحلال المحرَّم حُكِم عليه عندها بكفره.

٢ - أن يكون الجهل بالمسائل الخفية في العقيدة وأصول الإيمان التي لا تعرف إلا بطلب العلم فيها؛ فإن الجهل بها أيضًا عذر لصاحبها في أحكام الدنيا والآخرة حتى تقوم عليه الحجة الرسالية ويفهمها. والخفاء والجلاء في المسائل أمر نسبي يختلف من موطن لآخر، ومن زمان لآخر.

٣ - أن تكون المسألة المكفرة من المسائل الجلية المعلوم من الدين بالضرورة حرمتها، ولكن قد يجهل مرتكبها أنها مكفرة أو يزعم ذلك، مع علمه بحرمتها؛ كسَبِّ الله عَزَّوَجَلَّ أو رسوله ﷺ، أو الاستهزاء بهما وبكتاب الله، وكمظاهرة الكفار على المسلمين وإعانتهم عليهم؛ فهذا لا يعذر بجهله ويحكم بكفره؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥،٦٦].

* * *

٢٢٤ - مفهوم ١٢: شرطا إجراء أحكام الكفر:

هناك تلازم وترابط بين موانع التكفير آنفة الذكر وشرطي إجرائه، وهما:

١ - التحقق من انتفاء موانع التكفير السابقة أو أيٍّ منها.

٢ - التثبت من وقوع الفعل وقصده؛ فلا تبنى الأحكام على الظنون والأوهام.

* * *

٢٢٥ - مفهوم ١٣: الإلحاد:

أَلْحَدَ يعني: مال، أَلْحَدَ في دين الله أي: مال عنه وعدل، وأَلْحَدَ فلان: عدل عن الحق وأدخل فيه ما ليس منه، وأَلْحَدَ في الحرم: استحل حرمته وانتهكها.

والإلحاد في أسماء الله ﷻ: العدول بها عمَّا هي عليه؛ سواء بتعطيلها، أو تحريفها عن معناها، أو تسمية غير الله بها من أوثان وآلهة باطلة؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

والإلحاد في آيات الله ﷻ: الميل بها عن الحق عنادًا وتكذيبًا واستكبارًا، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت:٤٠]، والمعتاد في عصرنا استعمال كلمة «**الملحد**» للمائل عن الحق بإنكار وجود الله ﷻ.

* * *

٢٢٦ - مفهوم ١٤: النفاق:

لفظ «**النفاق**» مشتق لُغويًّا من «نافقاء اليربوع»؛ وهو: دويبة تشبه الفأر، تعيش في البرية، وتتخذ جحرًا له بابان: باب ظاهر يدخل ويخرج منه، وباب مخفي عليه قشرة من التراب؛ يهرب منه عندما يتعذر عليه الخروج من الباب الأصلي الظاهر.

ووجه الشبه بين المنافق واليربوع أن المنافق له حالتان: حالة يظهرها من إعلان الإسلام، وأخرى يخفيها وهي الكفر.

* * *

٢٢٧ - مفهوم ١٥: النفاق قسمان:

النفاق قسمان: نفاق أكبر، ونفاق أصغر.

- **فالنفاق الأكبر** يسمى أيضًا «**النفاق الاعتقادي**»، وهو يخرج صاحبه من الملة ويجعله في الآخرة في الدرك الأسفل من النار لو مات على ذلك، وحقيقته: أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن ليحذر منه ويذم أهله ويكفرهم؛ قال تعالى عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

[المنافقون:٣]، وهم أشد كفرًا وعداوة من الكفار الصرحاء كما قال تعالى عنهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]. ومن أهم صور النفاق الأكبر وصفات أهله:

١ – عداوة المؤمنين –كما في الآية السابقة– وكراهية انتصارهم على الكفار.

٢ – بغض الرسول ﷺ وما جاء به، والتولِّي عنه، وإيذاؤه أو عيبه ولمزه.

٣ – الفرح والمسرة بهزيمة المسلمين وانخفاض دينهم.

٤ – السخرية من المؤمنين لأجل إيمانهم وطاعتهم للرسول ﷺ.

٥ – لمز الشريعة الإسلامية، ووصفها بأنها قاسية وتناقض الإنسانية، ولا تصلح لزماننا.

٦ – تولِّي الكفار، ومحبة تشريعاتهم المناقضة لشرع الله.

٧ – محبة انتصار الكفار على المسلمين.

وما أوضح هذه الصفات في منافقي زماننا من: ساسة، وإعلاميين، وعلمانيين، وليبراليين؛ يدَّعون حب وطنهم وهم في الحقيقة أعداء للوطن ومصلحته بموالاتهم لأعدائه، ومعاداتهم لشرع الله والداعين له، وبنشرهم للفساد والفاحشة في أبناء الأمة، وبإفساد دينهم، ونفوسهم، وعقولهم، وأموالهم، وأعراضهم.

والنفاق الأكبر يكون إذا لم يظهره صاحبه إلا في لحن القول، أمَّا إذا أظهر النواقض السابقة ودعا إليها فيكون وقتها مرتدًّا تطبق عليه أحكام المرتد.

- **والنفاق الأصغر** يسمى أيضًا «**النفاق العملي**»، وهو أن يظهر على الإنسان بعض صفات المنافقين وأعمالهم مع وجود أصل الإيمان لديه. وقد نبَّه النبي ﷺ على أخطر هذه الصفات بقوله: (**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**) [رواه البخاري (٣٣، ٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩)]، وقال ﷺ أيضًا: (**أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**) [رواه البخاري (٣٤، ٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨)]، وصاحب هذه الخصال شبيه في أعماله هذه بالمنافقين وإن لم يكفر باطنًا لأنه قد جمع نفاق العمل مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكمت هذه الصفات واكتملت فقد ينسلخ صاحبها عن الإسلام كُلِّيًّا ويكون منافقًا خالصًا،

وحاصل الأمر أن النفاق الأصغر يرجع كله إلى اختلاف السريرة عن العلانية.

* * *

٢٢٨ - مفهوم ١٦: علامات أخرى للنفاق العملي:

للنفاق العملي علامات أخرى غير ما ذُكر؛ من أهمها:

١ - أن يكون ذا وجهين؛ قال ﷺ: (**إن شر الناس ذو الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**) [رواه البخاري (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦)]، ومنه المتلون في كلامه وأفعاله؛ يظهر الحب والود وقلبه يُضمر الشر والبغض، أو يظهر الغم والحزن على مُصاب المسلمين وقلبه يُضمر الفرح والشماتة.

٢ - قلة ذكر الله أو النفور منه، والتكاسل عن طاعة الله.

٣ - السخرية مما يبذله المتطوعون من مشاريع خيرية، واتهامهم بالرياء، وزعم أن الله غنيٌّ عن أُعطياتهم لقلتها؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٧٩].

٤ - الفرح بالسلامة من البلاء في سبيل الله، وادِّعاء أن ذلك من الحكمة والعقل، وتقديم سلامة النفس والمال على سلامة الدين.

٥ - السعي لإرضاء العامة أو الحكام بما يشتهون من الفتاوى والمواقف المخالفة لشرع الله.

٦ - الدفاع عن الكفار والمنافقين، والثناء عليهم، والاصطفاف معهم ضد الدعاة المصلحين.

٧ - عدم الاكتراث لما يحصل للمسلمين من مصائب.

٨ - السعي في التفريق بين المسلمين والتحريش بينهم.

٩ - نفاق أهل المال والبنوك الذين يوهمون الناس أن معاملاتهم شرعية وحائزة على موافقة لجان شرعية، وتدليسهم بزعمهم هذا ليبتزوا به أموال الناس.

١٠- نفاق بعض المواقع الإعلامية التي تزعم أنها إسلامية بينما هي بمثابة مساجد ضرار تهدم الإسلام بما تنشره من شبهات ولبسٍ للحق بالباطل، وربما جعلوا من أنفسهم أبواقًا للظالمين والطغاة يُحَسِّنون أفعالهم ويثنون عليهم.

* * *

٢٢٩ - مفهوم ١٧: الحكم على المنافقين:

حكم المنافقين النفاق الأكبر أنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار مع الخلود فيها كالكفار إن ماتوا على نفاقهم لأنهم كفار في حقيقتهم.

أما الحكم عليهم في الدنيا فيكون بناء على ظاهرهم؛ فيحكم لهم بالإسلام ما داموا يظهرون ذلك، ويعاملون بأحكام الإسلام مع الحذر منهم؛ فإن أظهروا كفرهم بقول أو فعل من نواقض الإيمان فإنهم يصبحون بذلك زنادقة لهم أحكام المرتدين.

❋ ❋ ❋

٢٣٠- مفهوم ١٨: الموقف من المنافقين:

الواجب نحوهم: الحذر والتحذير منهم، وفضحهم وفضح كيدهم ومؤامراتهم وأدواتهم الخفية في حرب الدين وأهله، وإن ظهرت عليهم علامات النفاق الأكبر -كميلهم للكفار واستهزائهم بالدين وأهله- فإن الواجب في حقهم هو زجرهم والإغلاظ عليهم، وإقامة حكم الله فيهم، إلا إن رُئي في قتلهم مفسدة أكبر، فحينئذ يكف عن ذلك حتى تزول هذه المفسدة؛ كما ترك الرسول ﷺ قتل عبد الله بن أبي ابن سلول -رأس المنافقين في المدينة- حتى لا تثور فتنة، ولا يقال: إن محمدًا يقتل أصحابه، مع أنه سبَّ الرسول ﷺ وقذف أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. والحاصل في هذه المسألة أنه ينبغي مراعاة فقه الموازنات وقواعد الترجيح بين المصالح والمفاسد.

❋ ❋ ❋

سادس عشر: مفاهيم حول الولاء والبراء:

٢٣١ - مفهوم ١: حقيقة الولاء والبراء:

الولاء هو: النصرة والمحبة والقرب، وعكسه **البراء**، وهو: البعد والبغض والعداوة.

والولاء والبراء المحبوب لله عَزَّ وَجَلَّ هو الموالاة والمعاداة فيه سبحانه؛ فلا محبة ولا نصرة إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، ولكل من أحبه الله وما أحبه الله، والبراءة والعداوة لكل من عاداه الله عَزَّ وَجَلَّ وأبغضه وأبعده؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة:٥٥]؛ فدلَّت أداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ على أنه يجب قصر الولاية والمحبة

والنصرة على المذكورين في الآية، وعلى البراءة من غيرهم.

وكلمة التوحيد «**لا إله إلا الله**» نصفها براءة من الشرك وأهله: «**لا إله**»، ونصفها الآخر ولاء للتوحيد وأهله: «**إلا الله**». وقد بلغ الحديث عن الولاء والبراء القرآن الكريم أكثر من (٣٨٠) مرة، ولا غرو إذ هو منهج الأنبياء قاطبة؛ حيث ولاؤهم وبراؤهم على أساس العقيدة، ويكفي في الدلالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]، وعليه فإن أي دعوة لا تنطلق من عقيدة الولاء والبراء هي دعوة مخالفة لمنهج الأنبياء.

* * *

٢٣٢ - مفهوم ٢: الولاء والبراء تطبيق وعمل:

ليس الولاء والبراء مجرد مفهوم علمي نظري فحسب، وإنما هو تطبيق عملي من المؤمن في واقع حياته؛ يظهر في سلوكه وحاله. ودين الإسلام جدٌّ كله لا هزل فيه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣،١٤]، ونحن مأمورون بأخذه بقوة كما أمر الله عز وجل؛ فقد قال تعالى ليحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥]، والدين يرفض اختزال أوامره إلى معارف باردة في الأذهان المجردة، فإذا ما جاء وقت التطبيق تبخرَّت وتلاشت؛ فلا قيمة للدراسات الإسلامية بشتى مناهجها ومعاهدها إن لم تثمر عملًا وموقفًا في واقع الحياة؛ فإنما شُرِع الدين للعمل وأن يتحول في قلب المسلم إلى حالة تثمر الحركة والمواقف على أرض الواقع، وبالأخص في عقيدة الولاء والبراء التي هي أوثق عرى الإيمان:

- فمن أجل الولاء والبراء أوذي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم بالقتل تارة، وبالسجن والتعذيب تارة، وبالنفي والطرد تارة، وبمصادرة الأموال تارة.
- ومن أجله حوصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الشعب ثلاث سنوات.
- ومن أجله تبرَّأ إبراهيم عليه السلام من أبيه وقدَّم نفسه للنيران، وولده للقربان.

- ومن أجله تحدَّى هود عليه السلام قومه وقال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٤،٥٥].

- ومن أجل الولاء والبراء هجر الأنبياء وأتباعهم أوطانهم فرارًا بدينهم من الكفار.

- ومن أجله قام سوق الجهاد لقتال أعداء الله، وبُذلت فيه الأنفس والأموال.

ومع الأسف نرى اليوم كثيرًا من الناس، وبعض طلاب العلم -رغم وضوح هذه المسألة- يوالون أعداء الله ويحبون دينهم ونُظُمَهم المضادة لشرع الله، ويظاهرونهم على المسلمين، ويأتون بالتأويلات والتبريرات الباردة لمواقفهم، بل يشنعون فوق ذلك كله على من يطبق ما تعلَّمه في تكفير من ظاهر المشركين على المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

٢٣٣ - مفهوم ٣: الوشيجة والرابطة في الجاهلية وفي الإسلام:

تختلف نظرة الإسلام إلى الوشائج والروابط عن نظرات الجاهلية المتفرقة؛ حيث تجعل الجاهليات الرابطة: حينًا هي الدم والنسب، وحينًا آخر هي الأرض والوطن، وثالثًا هي القوم والعشيرة، ورابعًا هي العرق والجنس واللغة، وخامسًا هي الحرفة والطبقة، وسادسًا هي المصالح المشتركة أو التاريخ المشترك أو المصير المشترك؛ ...إلخ. وكل هذه الروابط تصورات جاهلية؛ سواء تفرَّقت أو اجتمع بعضها إلى بعض.

أمَّا الإسلام فيجعل رابطة الدين والعقيدة فوق كل هذه الروابط والوشائج، وعلى أساسها يكون الولاء والبراء؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة:١١٤].

وعندما أراد الله عز وجل تعريف المسلمين أمتهم التي تجمعهم على مر العصور ذكر الرسل وأتباعهم على اختلاف الأزمنة، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠

رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]، ولم يقل للعرب: «إن أمتكم هي الأمة العربية» -كما ينادي القوميون- ولا للفرس أو الروم أو اليهود: إن أمتكم هي الفارسية أو الرومية أو اليهودية؛ فأمة المسلمين في ميزان الله تعالى تشمل أتباع الرسل على مر العصور، ومن شاء لنفسه طريقًا آخر فليسلكه ولكن لا يقل: إني من المسلمين.

* * *

٢٣٤ - مفهوم ٤: الجنسية:

جنسية المسلم عقيدته، وليست بلده، أو عرقه، أو لونه، أو لغته؛ فكل مؤمن بالله تعالى موحد له يشهد أن «لا إله إلا الله» وأن «محمدًا رسول الله» فهو يحمل الجنسية التي يُحبُّ من أجلها، ويُوالى ويُعادى بناء عليها: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤].

* * *

٢٣٥ - مفهوم ٥: أشهر الروابط التي تناقض عقيدة الولاء والبراء في الإسلام:

كل رابطة يُعقد عليها الولاء والبراء والمحبة والنصرة سوى رابطة التوحيد والإيمان هي من روابط الجاهلية المذكورة آنفًا، وأشهر هذه الروابط: القومية العربية، والشعوبية الفارسية، والوطنية، والإنسانية، ...إلخ؛ فصاحب أي رابطة من هذه الروابط يقصر محبته ونصرته وولاءه لمن يشاركه الرابطة نفسها؛ ولو كان نصرانيًّا، أو يهوديًّا، أو باطنيًّا، أو شيوعيًا ملحدًا، وهو في المقابل يعادي من يخالفه في الرابطة ولو كان مسلمًا موحدًا، وهذا من الضلال المبين كما أوضحنا.

* * *

٢٣٦ - مفهوم ٦: رابطة الوطنية:

هي أشهر الروابط الجاهلية آنفة الذكر؛ وفيها يُجعل الانتماء إلى الوطن الواحد هو ميزان الحب والبغض، والموالاة والمعاداة؛ فمن يحمل جنسية هذا الوطن أو ذاك له المحبة والولاء ولو كان كافرًا أو منافقًا، ويُقدَّم على من سواه من أفراد الأوطان الأخرى في التكريم والإعانة والنصرة ولو كان هذا البعيد مسلمًا موحدًا تقيًّا صالحًا. ولا يخفى مصادمة هذا التصور لمفهوم الإسلام وعقيدة الولاء والبراء. ولا يعني هذا أن يُلام الإنسان في حب موطنه والبلد الذي ولد ونشأ فيه؛ فهذا ليس موضع نقدنا ولا إنكارنا، وإنما النقد وموضع

الإنكار هو في أن يُقدَّم الولاء للوطن وأهله على الولاء للإسلام والمسلمين، فإذا كان المواطن صالحًا تقيًّا فهذا خير على خير، ولا تثريب على من وجد ميلًا إلى المسلم الصالح من قرابته وأهل بلده، ولكن لا يجوز تقديمه على من هو أصلح منه ولو كان بعيدًا.

❊ ❊ ❊

٢٣٧ - مفهوم ٧: حقيقة الولاء للوطن عند دعاة الوطنية:

لو تتبعنا مفهوم الوطنية لوجدنا منبعه الغرب العلماني الذي يفصل العلاقة السياسية عن العلاقة الدينية، ويحلها محل الولاء لله والدين، ويقدمها على أي ولاء آخر، فما الذي يريده دعاة الوطنية وينادون بالولاء له دون غيره؟ أهو تراب الوطن؟ أم عمرانه؟ أم شعبه؟ ...إلخ. إنه مفهوم غامض يتترَّس به ويستتر خلفه المنافقون المتنفِّذون في معظم البلاد ليمرروا من خلاله استعباد الناس باسمه لحاكمهم المتفرِّد بحكم البلد ولزمرته المحيطة به؛ فحقيقة هذه الدعوة هي الموالاة للحاكم ودولته حتى ولو كان في ذلك ضرر على الوطن والمواطنين المضطهدين فيه، فهي دعوة ممسوخة في كثير من بلدان المسلمين، ودعاتها غير صادقين في ادِّعائهم الوطنية، وهم في حقيقة أمرهم أعداء للوطن ولا يبالون إلا بمصالحهم الشخصية حتى ولو كان ذلك من خلال الخيانة والعمالة لأعداء الوطن المتربصين به.

❊ ❊ ❊

٢٣٨ - مفهوم ٨: الإنسانية:

وهذا مفهوم آخر من مفاهيم الجاهلية التي تناقض رابطة العقيدة والتوحيد؛ إذ تنادي بإحلال هذه الرابطة محل رابطة الدين؛ لأنها -بزعمهم- تُجمِّع الناس ولا تفرقهم؛ فأي إنسان -في تصورهم وزعمهم- هو أخوك ولو كان كافرًا؛ سواء كان ملحدًا أو نصرانيًّا أو يهوديًّا، أو بوذيًّا، أو هندوسيًّا، ...إلخ؛ فكل هؤلاء في نظرهم هم إخوانك.

وهذه دعوى باطلة وغير واقعية؛ إذ لا يمكن في الواقع تجميع الناس حول هذه الرابطة وإلغاء رابطة الدين؛ فذلك مخالف لسنن الله في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨،١١٩]، وقد قضى الله ﷻ بدوام المدافعة بين أهل الحق وأهل الباطل في هذه الحياة الدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ

بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]؛ فدعوى الإنسانية تناقض سنن الله، وتنافي عقيدة الولاء والبراء، وتعطل شريعة الجهاد في سبيل الله.

* * *

٢٣٩ - مفهوم ٩: حمية الجاهلية:

الحمية مشتقة من الحرارة والماء الحميم؛ وعليه فإن الحمية للنفس وللروابط الجاهلية منبعها حرارة تهيج من النفس لفوات حظها أو لطلبه.

والحمية الجاهلية هي التي ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]، وهي -بلا شك- تقدح في عقيدة الولاء والبراء؛ حيث يُقدِّم صاحبها الحمية لنفسه، أو لأسرته، أو لشيخه، أو لقبيلته وجماعته، أو لوطنه؛ يقدم الحمية لكل هذه الأمور أو لإحداها على الحمية لله ﷻ ولدينه. وقد تلتبس الحمية لله تعالى بهذه الحميات الجاهلية أو إحداها؛ حيث يدَّعي بعض الناس أنه قام حمية لله تعالى ولدينه، ولكنه انتفض في الحقيقة حمية لغير الله تعالى.

وقد ذمَّ النبي ﷺ حمية الجاهلية غاية الذم بقوله: **(من تعزَّى بعزاء الجاهلية فأعِضُّوه بِهَنِّ أبيه ولا تُكنُّوا)** [أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٨٦٤) واللفظ له، وأحمد (٢١٢٣٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٦٩)]، فقوله: **(تعزَّى بعزاء الجاهلية)** أي: افتخر بآبائه وأجداده من أهل الجاهلية ونسب نفسه إليهم، وقيل: المقصود من يتعصَّب لأهل بلدته أو مذهبه، أو طريقته؛ فيكون فيه بذلك شعبة من الجاهلية، وقوله: **(فأعِضُّوه)** أي: فاشتموه، **(بِهَنِّ أبيه ولا تكنوا)** أي: بفرْج أبيه؛ يعني قولوا له صراحة دون كناية: اعضض ذكر أبيك، وفي هذا تنكيل به وهجاء بلفظ قبيح ردعًا له عن فعله الشنيع حتى يرتدع ويعود بولائه للمؤمنين المعتصمين بحبل الله ورسوله، ويترك حمية الجاهلية هذه.

* * *

٢٤٠ - مفهوم ١٠: مصطلح (نحن والآخر):

هو مصطلح منحرف بدأ يظهر في السنوات الأخيرة بصورة تُمَيِّع عقيدة الولاء والبراء، وتشوش وتلبس عليها؛ حيث يستحي قائلها من الصدع بوصف من لم يدخل في الإسلام بالكفر والشرك، فديدن المُلبِّسين هو طرح مسميات بديلة عن اسم **(الكافر)** أو **(الكافرين)**؛ مثل قولهم بدلًا عن ذلك: **(غير المسلمين)**، ولمَّا رأوا أن في هذه التسمية أيضًا شيئًا من الصراحة والشدَّة -وفق تصورهم- عدلوا عن ذلك إلى لفظ **(الآخر)**، فأعرضوا عن تسمية القرآن لهم بالكافرين؛ وذلك لما في صدورهم من حرج من الآيات التي تخالف دعوى **(الإنسانية)** المزعومة، والله ﷻ يقول: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢].

كما أن أصحاب الوطنية الجاهلية يقصدون بمصطلح **(الآخر)**: من لم يكن من أبناء الوطن، ولو كان مسلمًا تقيًّا، وهذا معنى مغاير للمعنى السابق، ولكنه فعل يُكرِّس الحمية والعصبية للوطن ويهدم عقيدة الولاء والبراء التي يجب أن تقوم الموالاة والمعاداة على أساسها.

* * *

٢٤١ - مفهوم ١١: الطائفية:

الطائفية تعني انقسام الناس في مجتمع أو دولة إلى طائفتين أو عدة طوائف؛ إمَّا بسبب الدين، أو الجنس، أو القوم، أو اللغة، ...إلخ؛ وهي في ميزان الشرع نوعان:

١ - طائفية ممدوحة محبوبة لله ﷻ؛ وهي القائمة على أساس الدين والعقيدة؛ فالمؤمنون الموحدون طائفة وأمة دون سائر الناس المخالفين لهم من أمم الكفر والنفاق، وقد ذُكر مثل ذلك في غير ما آية من كتاب الله؛ قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ [الصف:١٤]، وعن طائفة المؤمنين مقابل طائفة المنافقين قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ

وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران:١٥٤]، فيجوز استعمال الطائفية بهذا المعنى والاعتزاز بها من غير تردد ولا استحياء؛ حيث لا التقاء بين الطائفتين، ولا ولاء، ولا محبة، ولا نصرة، بل بينهما البراءة والعداوة، فلا يلتفت المؤمنون إلى شبهات المضللين الذين ينفرون الناس منهم بأنهم دعاة طائفية يسعون إلى حروب أهلية؛ لأن الكفار ليسوا من أهلنا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، والحرب مع الكفار عند تحقق الشروط وانتفاء الموانع هي من الجهاد في سبيل الله الذي هو ذروة سنام الإسلام. والعجيب أن هؤلاء المضللين من روافض، وعلمانيين، وليبراليين، ومنافقين هم طائفيون إلى النخاع ويرفضون الاستماع إلى أهل الحق، فلماذا هي حلال لهم وهم على باطل وحرام على أهل الحق.

وكذا (**أهل السنة والجماعة**) هم (**الطائفة المنصورة**) مقابل طوائف أهل الأهواء والبدع، والانتساب إلى هذه الطائفة الممدوحة المحبوبة لله ﷻ هو مما ينبغي الاعتزاز به والدعوة إليه؛ قال ﷺ: (**لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق**) [رواه مسلم (١٩٢٠)].

ومن الطائفية التي تمدح أيضًا ولا تُذم: ما كان من تنوُّع داخل الصف المؤمن حسب المهمات والتخصصات؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢]، وكقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء:١٠٢].

٢ – طائفية مذمومة محرَّمة؛ وتشمل طوائف أهل الكفر والنفاق جميعًا، كما تشمل الطائفية التي تؤدي إلى الاختلاف بين المسلمين وتحزُّبهم وتفرُّقهم، بل قد تؤدي إلى اقتتال المؤمنين بعضهم لبعض فيما يُعرف بحروب الفتنة أو الحروب الأهلية؛ فهذه يجب على المؤمنين اجتنابها والحذر منها، والسعي لإخمادها كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩].

* * *

٢٤٢ - مفهوم ١٢: شرك الولاء:

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤]، فالآية تبين أن إفراد الله بالولاية والتوحيد والبراءة من الشرك وأهله هو الإيمان، بل هو معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» التي نصفها براء: «لا إله»، والنصف الآخر ولاء: «إلا الله»، ومن اتخذ وليًّا غير الله يعظِّمه ويحبه كحب الله، ويوالي ويعادي عليه؛ فقد أشرك بالله ﷻ في الولاء، وهذا النوع من الشرك لم يأخذ حظه من العناية والبيان والتحذير كما أخذ شرك القبور والصالحين، فالولاء لله تعالى يقتضي توحيده والإخلاص له في التوجه والعبادة والحكم والولاء، ولا يصح ذلك إلا بالبراءة من الشرك والمشركين ومن كل ما يُعبد من دون الله ﷻ.

ومن الشرك في الولاء المخرج من الملة: تولِّي الكفار بالحب لهم ولدينهم، ونصرتهم على المسلمين؛ فقد عدَّ أهل العلم ذلك ناقضًا من نواقض الإسلام.

* * *

٢٤٣ - مفهوم ١٣: الفرق بين التسامح والولاء:

يخلط بعض الناس بين الموالاة لأعداء الله المنهي عنها والتسامح معهم درءً لمفسدة، أو جلبًا لمصلحة، أو تحقيقًا للعدل والقسط المأمور به حتى مع الأعداء؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، وقال: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، فالموالاة للكفار شيء والعدل معهم والتسامح شيء آخر، ومع ذلك يختلطان على بعض المسلمين الذين يفتقدون الفهم النقي للعقيدة وحقائقها، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة مع الكفار والمنافقين، فيُغفِلون تلك التوجيهات القرآنية المستفيضة التي تنهى عن محبة الكافرين وموالاتهم وتأمر بالحذر منهم؛ لأنهم لا يدركون الفرق بين دعوة الإسلام للسماحة في معاملة الكفار غير المحاربين وبرهم في المجتمع المسلم-لا سيما الأقربون منهم- وكذلك السماحة والمداراة في معاملة حتى المحاربين من الكفار

حال استضعاف المؤمنين، لا يدركون الفرق بين هذا كله ومسألة الولاء الذي لا يكون إلا لله ﷻ ولرسوله وللمؤمنين.

❊ ❊ ❊

٢٤٤ – مفهوم ١٤: بعض صور موالاة الكفار والمنافقين:

لموالاة الكفار صورٌ وأشكالٌ تُخرج من الملة؛ كمحبة دينهم، ونصرتهم ومظاهرتهم على المؤمنين، ودون ذلك صورٌ أخرى من الموالاة محرمةٌ وتخرم كمال الإيمان الواجب، وإن كانت لا تنقضه كليًّا؛ فمن ذلك:

١ – التشبه بالكفار في هديهم الظاهر أو عاداتهم في المأكل والمشرب والملبس ونحوه.

٢ – مداهنتهم وحضور مجالسهم التي يخوضون فيها بالباطل دون إنكار.

٣ – تهنئتهم بأعيادهم ومناسباتهم الدينية.

٤ – المدافعة والمجادلة عنهم وعن المنافقين.

❊ ❊ ❊

٢٤٥ – مفهوم ١٥: الولاء والبراء بين الإفراط والتفريط:

الإسلام هو دين التوازن والعدل والوسطية بين الإفراط والتفريط في جميع أبواب العقيدة والعبادة والسلوك، والناس في فهمهم للولاء والبراء وتطبيقاته طرفان ووسط:

فالطرف الأول: من غالى وأفرط في مسألة الموالاة والمعادة فحكم على كل من وقع في أي معاملة مع الكفار بالكفر والردة، ولم يفرق بين الموالاة المكفرة والموالاة المحرمة دون أن تكون مكفرة، بل قد يحكم على بعض المواقف الجائزة التي فيها مداراة ودفع لشر الكفار بأنها ردة وكفر دون التفريق بين المداراة الجائزة والمداهنة المحرمة.

والطرف الثاني: أهل الإفراط والجفاء الذين وقعوا في موالاة الكفار ومداهنتهم بزعم المداراة والتَقِيَّة، دون التفريق بين المحرم منها والمخرج من الملة، بل هي عندهم إمَّا جائزة أو محرمة أو مكروهة فقط، وليس عندهم شيء من الموالاة المخرجة من الملة.

وأهل الوسط: وهم أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين الذين يعتقدون وجوب محبة الله ورسوله والمؤمنين، ومحبة ما يحبه الله من الإيمان

والأعمال، ومحبة من يحبهم الله من أنبيائه وأتباعهم المؤمنين في كل عصر، كما يعتقدون وجوب البراءة وبغض كل من وما يبغضه الله ﷻ من الشرك وأهله والنفاق وأهله. أمَّا أهل الفسوق والعصيان فيتولونهم بقدر ما عندهم من الإيمان، ويتبرؤون منهم بقدر ما هم عليه من العصيان؛ فلا يتولونهم بإطلاق ولا يتبرؤون منهم بإطلاق، بل يتولونهم الولاء العام للمؤمنين، ويتبرؤون مما يُصِرُّون عليه من الفسوق والعصيان.

كما أنهم لا يحكمون على موالاة الكفار بحكم واحد، بل يرون أن منها ما يخرج من الملة -كمحبة دينهم، ومظاهرتهم على المؤمنين- ومنها ما هو محرم فقط دون أن يكون مكفِّرًا، وهم أيضًا وسط في محبتهم للمسلمين وفي بغضهم لهم؛ فلا يغلون في محبة بعض الأشخاص حتى التقديس وإلباسهم لباس العصمة، ولا يغلون في بغض بعض الأشخاص حتى يقعوا في ظلمهم وبخسهم حقوقهم وعدم العدل معهم، أو اتهامهم بما لم يقولوه أو يعتقدوه أو يفعلوه.

❋ ❋ ❋

٢٤٦ - مفهوم ١٦: الفرق بين الصلح مع الكفار والتطبيع معهم:

الصلح الجائز مع العدو الكافر المحارب هو الذي يبرمه الإمام المسلم الخاضع لشريعة ربه إذا رأى بمشاورة أهل الحل والعقد من العلماء والعقلاء أنه يحقق مصلحة للمسلمين أو يدفع شرًّا عنهم، وهو صلحٌ مؤقت ريثما يتقوَّى المسلمون فينبذوا إلى عدوهم الكافر عهدهم ثم يقاتلونهم ليكون الدين كله لله؛ فهو صلحٌ يحكمه تعارض المصالح والمفاسد وفقه الموازنات، وليس صلحًا دائمًا ولا يُعطي للكافر أحقية للبقاء الدائم في ديار المسلمين، ولا يتحول الكافر بهذا الصلح من عدوٍّ إلى صديق، ولا تتحول معاداته إلى موالاة، بل تبقى العداوة معه والبراءة منه حتى مع إبرام الصلح.

أمَّا التطبيع مع اليهود الكفرة الذي يطرح اليوم فهو شأن آخر لا علاقة له بالصلح بمفهومه السابق، وهو خيانة لدين الإسلام وللأمة المسلمة للأسباب الآتية:

١ - لأن فيه إقرارًا للكافر المحتل بحقه في تملك ديار المسلمين تملكًا دائمًا؛ وهذا منافٍ لمقاصد الشريعة وأصول الإسلام؛ لأن فيه تعطيلًا لشعيرة الجهاد في سبيل الله ﷻ.

٢ – لأنه يهدم عقيدة الولاء والبراء التي هي أصل «لا إله إلا الله»؛ حيث يُحلُّ المحبة والإخاء والسلام مع اليهود محل العداوة والبراءة منهم ومن كفرهم، ويُلزِم النظم الحاكمة بإسكات كل من يعلن عداوته وبغضه لهم وتفريغ المناهج الدراسية والإعلام من كل ما يشير إلى هذه العداوة التي صرَّح بها الله ﷻ في كتابه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢].

٣ – لأنه عقد مذلة ومهانة؛ حيث العدو فيه هو الأعلى، وهو الذي يملي شروطه على المسلمين، ويكون مهيمنًا على بلدانهم، والكل خاضع له خضوعًا دائمًا.

٤ – يتيح التطبيع لليهود الدخول إلى بلدان المسلمين والتلاعب باقتصادها وإعلامها وتعليمها، والسيطرة على مقدرات البلاد بالاستثمار فيها ونشر الربا، وتسنم إدارات البلاد وجعل أبناء المسلمين موظفين أذلة تحت سيطرتهم.

٥ – كما يتيح فتح البلاد لهم نشر الرذيلة فيها والإفساد في الأرض؛ فما حلَّ اليهود بأرض إلا أفسدوا أخلاقها واقتصادها.

٦ – في التطبيع إعانة لليهود على المجاهدين في فلسطين وتصفية للجهاد هناك، وفي ذلك مظاهرة للكفار على المسلمين، وهذا ناقض من نواقض الإسلام.

فكيف يقال – بعد كل هذا– إن التطبيع مع اليهود صلحٌ شرعيٌ يقاس على صلح النبي ﷺ مع كفار قريش أو مع اليهود في المدينة؟! وما كان صلح النبي مع قريش إلا مؤقتًا، وما كانت معاهدته لليهود في المدينة إلا وهم تحت حكم الإسلام وسيطرته وكانوا من سكانها قبل مجيئه ﷺ، ومع هذا فقد خانوا الرسول ﷺ ونقضوا المعاهدة بهذه الخيانة –وهذا ديدنهم– فأجلاهم منها.

ثم كيف يقاس تطبيع الأنظمة المعاصرة الدائم مع اليهود –وهي أنظمة رافضة لشرع الله وللحكم به، معطلة لشعيرة الجهاد– على صلح النبي ﷺ معهم صلحًا مؤقتًا –وهو المستسلم لشرع ربه المنقاد لحكمه، المجاهد في سبيله– وصلحه معهم هو حتى يتقوى لمواجهتهم فينبذ إليهم عهودهم ويجاهدهم.

إن التطبيع في حقيقته ذلٌ وخيانة للمسلمين، وبيع لأوطانهم للكفار وإقرارهم

عليها، وهدمٌ لعقيدة التوحيد القائمة على الولاء لله وحده والبراءة من الشرك وأهله من: يهود، أو نصارى، أو أي ملة أخرى تشرك بالله تعالى، ومن يسعى لإزالة العداوة مع الكفار بغير دعوتهم للإسلام وإدخالهم فيه فإنما يسعى لتبديل دين الله الذي جاء به محمد ﷺ والإتيان بدين جديد.

❊ ❊ ❊

٢٤٧ – مفهوم ١٧: الولاء والبراء مع فِرَق الباطنيين:

الباطنيون من: رافضة، وإسماعيلية، ودروز، وغلاة الصوفية المشركين وأمثالهم من أهل البدع المكفرة؛ كل هؤلاء لا حظ لهم في الإسلام وليسوا من أهل القبلة؛ لوقوعهم في ضروب متنوعة من الشرك والكفر المخرج من الملة؛ فهم يدْعُون غير الله، ويوالون أعداء الله، ويدَّعون عصمة أئمتهم وعلمهم الغيب، ويزعمون تحريف القرآن، ويكنون لأهل السنة الحقد والعداء؛ بل يكفرونهم، ويعض هذه الطوائف يكفر السابقين الأولين من أصحاب الرسول ﷺ. فإذا كانوا على هذه الحال فمثلهم مثل الكفار لا تجوز موالاتهم، ولا محبتهم، ولا نصرتهم؛ بل الواجب في حقهم بغضهم والبراءة منهم ومن شركهم، وهذا لا ينافي الحرص على دعوتهم وهدايتهم، فإذا اهتدوا وتركوا كفرياتهم صاروا إخوانًا لنا لهم واجب المحبة والنصرة. وقد يقول قائل: إنهم لا يظهر منهم هذه العقائد المكفرة، فيقال له: إنهم يظهرونها في بعض كتبهم وإذا أمنوا العقاب، أمَّا حال استضعافهم فإنهم يخفون ذلك من باب التَقِيَّة، فلو تمكنوا في ديار السنة فحينها يظهرون على حقيقتهم ويعلنون كفر كل من خالفهم، ويشنون الحرب عليهم، ويستحلون دماءهم وأموالهم.

ورغم وضوح بطلان عقائد هؤلاء الباطنيين وأهدافهم الخبيثة -لا سيما في السنوات الأخيرة في مناطق نفوذهم وسطوتهم- إلا أنه ما زال هناك من أبناء السنة من يحسن الظن بهم ويدافع عنهم ويرفض تكفيرهم، بل ويدعو إلى التقارب معهم والاصطفاف معهم أمام الكفر العالمي، ولا يصدر ذلك إلا من جاهل بحقيقة الباطنيين وعقائدهم الباطلة، أو غافل ساذج ينخدع بكذبهم وتقِيَّتهم وإعلانهم العداوة لليهود والأمريكان، مع أن علاقة الرافضة بالنصارى معروفة على مدى التاريخ ومعروف انحيازهم إليهم ضد أهل السنة، ولم يُعرف للروافض جهاد ضد الصليبيين، وفي العصر الحديث ظهرت

أدلة على هذه العلاقات السرية بينهم. وبعض المدافعين عن الرافضة يعلمون خبثهم وحقدهم على أهل السنة ولكن يبررون علاقتهم معهم بأنها مواقف سياسية وليست عقدية، ولهؤلاء نقول: إن السياسة يجب ألا تكون على حساب العقيدة ولا تخالفها.

* * *

سابع عشر: مفاهيم حول الفِرَق والطوائف والملل:

٢٤٨ - مفهوم ١: معنى الفِرقة:

مصطلح «الفِرقة» مرادف لمصطلح «الطائفة»، وهي: الجماعة التي يجمعها فكر واحد؛ يبين ذلك قول النبي ﷺ في حديث الافتراق: (**افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرَّقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**) [رواه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وأحمد (٨٣٧٧) مختصرًا، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصحَّحه أحمد شاكر في تخريج المسند (١٦/ ١٦٩)، وقال ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ٣٤٥): صحيح مشهور في السنن والمسانيد]، وفي رواية عوف بن مالك رضي الله عنه للحديث زاد في آخره: (**واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار**)، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: (**الجماعة**) [رواه ابن ماجه (٣٢٤١)، وصحَّحها الألباني]، فهذه الفرقة الواحدة الناجية هي فرقة وطائفة أهل السنة والجماعة الذين بقوا على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في الاعتقاد والعمل، ومن عداهم فهم من الفرق الضالة من أهل الأهواء والبدع، وقد تكون بدعتهم مكفرة مخرجة من الملة -كبدع الباطنيين وغلاة الصوفية المشركين- وقد تكون غير مكفرة فيكون أصحابها فقط خارجين عن دائرة أهل السنة ولكنهم باقون من أهل الملة والقبلة.

* * *

٢٤٩ - مفهوم ٢: من هم أهل السنة والجماعة؟

هم المتبعون للكتاب والسنة بفهم الصحابة رضي الله عنهم؛ لا يقدمون على ذلك عقلًا، ولا قياسًا، ولا ذوقًا، ولا سياسة؛ يعملون بالكتاب كله ولا يعارضون بعضه ببعض، ويردون المتشابه منه إلى المحكم، ولا يعطلون كُلِّيًّا محكمًا بجزئيٍّ أو حادثة معينة،

ويعظِّمون نصوص الوحيين ويسلمون لها كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

❋ ❋ ❋

٢٥٠ – مفهوم ٣: مسمى الحشوية:

هو مسمًّى يطلقه بعض أهل البدع والمتكلمين -كالمعتزلة والأشاعرة- على أهل السنة؛ ويقصدون به أن كلام أهل السنة حشوٌ لا فائدة فيه بزعمهم.

❋ ❋ ❋

٢٥١ – مفهوم ٤: الأشاعرة:

هم من ينسبون أنفسهم إلى أبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ)، وكان معتزليًّا ثم رجع أولًا عن الاعتزال إلى مذهب ابن كُلَّاب، ثم رجع عن ذلك إلى أهل السنة ومذهب الإمام أحمد بن حنبل كما أوضح ذلك في كتابه (الإبانة عن أصول الديانة).

وكانت الأشاعرة في أول نشأتها مخالفة لأهل السنة في باب الأسماء والصفات فقط، ثم تطورت عقائدهم حتى خالفوا في العديد من أبواب العقيدة؛ وفيما يلي أهم مخالفاتهم:

١ – يُؤوِّلون صفات الله إلا سبعًا منها أثبتوها بالعقل [ينظر المفهوم ٦٤]، ولهم في سائر الصفات مسلكان: (التأويل) [كما في مفهوم ٦٤]، أو (التفويض) [ينظر المفهوم ٦٨].

٢ – رغم إثباتهم لصفة (الكلام) لله تعالى ضمن الصفات السبع إلا أنهم يعنون به كلامًا نفسيًّا من غير صوت أو حرف.

٣ – يميلون إلى عقيدة الإرجاء في أبواب الإيمان.

٤ – خالفوا في باب القدر وتأثروا بشيء من معتقد الجبرية، وابتدعوا مقولة: «إن العمل من خلق الله وكسب العبد».

٥ – يقدمون العقل على النقل في منهج الاستدلال.

٦ – يردُّون أحاديث الآحاد في أبواب الاعتقاد.

٧ – ينفون الحكمة والتعليل والسببية في أفعال الله تعالى وأحكامه، ويُكفِّرون من ينسب الأسباب للعلل أو للمسببات.

٨ – كثير منهم يتبعون بعض الطرق الصوفية في بدع العبادة.

وقد ردَّ عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم: «درء تعارض العقل والنقل»، وإمام الأشاعرة المتقدم هو: «أبو بكر الباقلاني»، والأوسط: «فخر الدين الرازي»، والمتأخر: «إبراهيم اللقاني» صاحب كتاب «جوهرة التوحيد» المعتمد لدى جامعة الأزهر.

فالأشاعرة إذًا بهذه المخالفات لأهل السنة في أبواب الاعتقاد ليسوا من أهل السنة؛ إلا من لم يأخذ بأصولهم كلها أو جلها، وإنما خالف في باب أو بابين منها؛ فمثل هذا يقال عنه: إنه من أهل السنة إجمالًا مع مفارقته لهم فيما خالفهم فيه. ومع هذا كله فإن الأشاعرة أقرب إلى أهل السنة من الفلاسفة، والباطنيين، والجهمية، والمعتزلة، والرافضة، وفي مذهبهم تناقض واضطراب بخلاف مذهب أهل السنة المحكم المطَّرِد المتوازن؛ وذلك لاتباعه الوحي المعصوم. ويمكن أن يقال: إن الأشاعرة من أهل السنة في مقابل الشيعة؛ أي ليسوا شيعة روافض.

❋ ❋ ❋

٢٥٢ – مفهوم ٥: الخوارج:

الخوارج طائفة خرجت على حين فُرقةٍ من المسلمين، فكفَّروا عليًّا رضي الله عنه لقبوله التحكيم، وكفَّروا الصحابة عدا الشيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثم انتهوا إلى تكفير عامة المسلمين بالمعاصي، فلزم على قولهم أنه لم يتبق أحد مسلمًا سواهم، وانتهى بهم معتقدهم الباطل إلى استباحة دماء المسلمين وأموالهم. وأصلهم: ذو الخويصرة التميمي الذي اعترض على رسول الله ﷺ في قسمته للغنائم وقال: «يا رسول الله اعدل»، فقال ﷺ: **(ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل؟!...)** ثم قال ﷺ لعمر رضي الله عنه: **(دعه؛ فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية...)** [رواه البخاري (٤٦٦٧)، ومسلم (١٠٦٤/١٤٨) واللفظ له]، وقد اختلف العلماء في تكفيرهم، ووصفهم أحد العلماء بأنهم قومٌ جمعوا بين الجهل والجفاء، ولذا فقد انقسموا على أنفسهم وكفَّر بعضهم بعضًا.

تنبيه: هناك اليوم من يلبس على المسلمين فيرمي المجاهدين الذين يجاهدون الغزاة

المحتلين لديار المسلمين من روس ويهود وأمريكان بأنهم خوارج، ويرمون كل من يدعو إلى الجهاد والبراءة من الكفار وإلى عداوتهم بأنه من الخوارج، ويطلقون ذلك أيضًا على من يتبرأ من أئمة الكفر والطواغيت الذين استحلوا ما حرَّم الله، ورفضوا شرع الله، ووالوا أعداء الله، وعادوا أولياء الله؛ فانتفت بذلك شرعية ولايتهم وانتفى وصف من يتبرأ منهم بأنه من الخوارج، ولهذا فكل هذه التهم التي يُرمى بها الدعاة والمجاهدون هو من الظلم لهم والبهتان المبين.

* * *

٢٥٣ - مفهوم ٦: المرجئة:

هم فرقة نشأت وعُدَّتْ رد فعل مضاد للخوارج ومواقفهم؛ فكما سلك الخوارج مسلك الغلو في الإفراط سلكت المرجئة مسلك الغلو في التفريط، فقابلوا منهج الخوارج القاضي بالتكفير بالمعصية بمنهج التميُّع في بيان معنى الإيمان، وزعموا أنه مجرد التصديق، وأخرجوا الأعمال عن حقيقة الإيمان؛ فسُمِّيت المرجئة بهذا الاسم لإرجائها العمل عن مسمى الإيمان. وقد وصل دخان المرجئة إلى بعض المنتسبين إلى عقيدة السلف في زمننا الحالي؛ حيث حصروا الكفر والردة في الاستحلال أو الجحد، ولم يروا الأفعال التي تدل على الإباء والاستكبار والاستهزاء وبغض الله وشرعه كفرًا.

والمرجئة -بناء على معتقدهم في الإيمان وتعريفه- لا يُقِّرون بأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يرون الاستثناء فيه. وهم أصناف شتى: فمنهم الغلاة الذين يزعمون أن الإيمان هو المعرفة فقط، ومنهم من يحصره في التصديق فقط، ومنهم من يزعم أنه تصديق القلب وقول اللسان فقط ولا يُدخل الأعمال فيه، ومنهم من يقول: من قال «لا إله إلا الله» فهو مؤمن ولو أتى من الأعمال ما أتى، ما لم يستحلها، مع أن الاستحلال يُشترط في بعض المعاصي لا جميعها للحكم بكفر فاعلها.

وقد أدَّتْ فتنة المرجئة إلى تمييع الدين، وانتشار الفساد، وإضعاف شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشعيرة الجهاد في سبيل الله؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر ظنًّا أن ذلك من باب ترك الفتنة» [الآداب الشرعية (١/ ١٧٧)].

ومن فتنهم الشديدة: أنهم لا يرون ردة من رفض شرع الله وظاهر أعداء الله على المسلمين فخلا الجو للزنادقة والطواغيت بهذه الفتاوى من رؤوس المرجئة وعاثوا في الأرض فسادًا، وشرَّعوا الكفر للناس باسم المصلحة وغيرها، ومع هذا ظلوا مؤمنين في نظر المرجئة لأنهم يقولون: «لا إله إلا الله»، فما أسعد الطواغيت بهذا المذهب؛ ولذا قيل: إن الإرجاء تحبه الملوك، وقيل: إن المرجئة على دين الملوك [ينظر: شرح الإبانة:١/ ١٦٢].

ومرجئة الفقهاء هم الذين يقولون: إن العمل واجبٌ ويتفاضل الناس فيه، ولكنهم لا يدخلونه في مسمى الإيمان وحقيقته، ويُنسب هذا القول إلى مذهب أبي حنيفة -رحمه الله- وهو أخف أصناف الإرجاء.

❋ ❋ ❋

٢٥٤ - مفهوم ٧: المعتزلة:

أصل المعتزلة يرجع إلى واصل بن عطاء الذي اختلف مع الإمام الحسن البصري -رحمه الله- في مرتكب الكبيرة؛ حيث قال الحسن فيه: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وذلك هو مذهب أهل السنة، فقال واصل: إنه بمنزلة بين المنزلتين؛ لا مؤمن ولا كافر، فترتب على ذلك أن اعتزل واصل بن عطاء وبعض من وافقه الرأي حلقة الحسن البصري، فسُمُّوا بذلك: (**المعتزلة**). ثم تطورت أفكارهم وتفرَّعت ودخل فيهم التجهم والأخذ بمذهب القدرية الذين ينفون القدر وسبق علم الله بالأحداث قبل وقوعها، كما ينفون خلق الله للشر وإرادته ولا يفرقون بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، واستقرت بدعتهم على خمسة أصول:

١ - **العدل**: ويقصدون به نفي تقدير الله لأفعال العباد وخلقها، بل العباد يخلقون أفعالهم.

٢ - **التوحيد**: وحقيقته عندهم نفي الصفات عن الله بزعم تنزيهه ﷻ عن مشابهة خلقه.

٣ - **المنزلة بين المنزلتين**: وهي أصل بدعة المعتزلة كما سبق.

٤ - **الوعد والوعيد**: ومعناه عندهم أنه يجب على الله سبحانه إنفاذ وعيده كما أوجب على نفسه إنفاذ وعده، فيخلدون بذلك مرتكب الكبيرة في النار كما يقول الخوارج،

إلا أنه عندهم في دركة أخف من دركة الكافر.

٥ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وحقيقته عندهم الخروج بالسيف على أئمة الجور ومفارقة جماعة المسلمين الذين اجتمعوا عليهم؛ فيخرجون على الحاكم بمجرد تلبسه بأي نوع من أنواع المعاصي أو الظلم.

ولَمَّا واجه أئمة السلف المعتزلة بأدلة الكتاب والسنة المفندة لأصولهم الباطلة والداحضة لحججهم الواهية لجأوا إلى بدعة أخرى جعلوها من أصولهم في الاستدلال؛ وهي بدعة تقديم العقل على النقل، وتأويل نصوص الكتاب والسنة إن خالفت ما يوجبه عقلهم الفاسد، كما ردوا أحاديث الآحاد التي تخالف أصولهم في الاعتقاد.

واليوم يوافق المعتزلة في تقديس العقل وتقديمه على النص شرذمة من شذاذ الآفاق يسمون أنفسهم العصرانيين، أو العقلانيين، أو التنويريين، ويطلقون على المعتزلة اسم: المدرسة العقلية المستنيرة؛ فخدموا بذلك العلمانيين في التحلل من عقائد الدين وأحكامه.

* * *

٢٥٥ – مفهوم ٨: الجبرية:

الجبرية الخالصة هم الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على أفعاله، فلا لوم عليه فيما قدَّره الله عليه من الذنوب والمعاصي، وهم بهذا الفهم يقابلون القدرية نفاة القدر. وهذه الفرقة بهذا المعتقد قد اندثرت تقريبًا.

* * *

٢٥٦ – مفهوم ٩: الجهمية:

هم أتباع الجهم بن صفوان النافون بإطلاق لأسماء الله ﷻ وصفاته، وهم بذلك أشد غلوًّا حتى من المعتزلة الذين يثبتون أسماء الله دون ما تحمله من صفات ومعانٍ، وقد تأثروا بمذهب السمنية أيضًا القائلين بأن الإيمان هو المعرفة فقط. وقد أثرت فرقة الجهمية بأفكارها ومعتقداتها الباطلة على كثير من الفرق المبتدعة؛ سواء في باب الأسماء والصفات، أو في مسمى الإيمان ومعناه؛ وممن تأثر بهم الأشاعرة والكُلَّابية.

* * *

٢٥٧ - مفهوم ١٠: الكرامية:

هم أتباع ابن كرَّام، وهم مشبهة في باب الأسماء والصفات يشبهون الخالق بالخلق، وقد التزموا أو ألزمهم المتكلمون بالقول بأن الله جسم لا كالأجسام، والسلف يذمُّون هذه العبارات المجملة الحمَّالة لحق وباطل، كما أنهم يزعمون أن الأيمان هو قول اللسان فقط.

❋ ❋ ❋

٢٥٨ - مفهوم ١١: الشيعة الروافض:

بدأ التشيع في عهد عليٍّ رضي الله عنه أثناء الفتنة بينه ومعاوية رضي الله عنه، واقتصر في أول الأمر على حُبِّ عليٍّ والانتماء إلى شيعته وصفه وأنصاره، من غير تعرُّض للخلفاء قبله بذم أو سب أو تجريح، حتى ظهر فيهم عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام وزعم محبته لآل البيت، وغلا في عليٍّ رضي الله عنه وادَّعى الوصاية له من رسول الله ﷺ بالخلافة، ثم رفعه إلى مرتبة الألوهية، ثم تعدَّدت فرق الشيعة، وأشهرهم الشيعة الاثنا عشرية الذين يقولون بالوصاية بالنص على اثنا عشر خليفة من بعد رسول الله ﷺ، آخرهم محمد بن الحسن العسكري المزعوم الذي يقولون إنه المهدي المنتظر الذي اختفى في سرداب بسامراء، وسيظهر بزعمهم في آخر الزمان، وانتشرت فيهم أصول أخرى كفرية؛ منها:

- عبادتهم لآل البيت والاستغاثة بهم.
- ادِّعائهم العصمة لأئمتهم الاثنا عشر وادِّعاء علمهم الغيب.
- تحريفهم للقرآن أو ادِّعائهم أن القرآن الذي بين أيدينا لا يتجاوز ثلث القرآن الأصلي بزعمهم، والذي يسمونه مصحف فاطمة رضي الله عنها، ويزعمون أنه مخفي لدى أئمتهم.
- تكفيرهم لجل الصحابة رضي الله عنهم عدا سبعة منهم، ويسمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما: «الجبت والطاغوت»، أخزاهم الله وانتقم منهم على ضلالهم وبهتانهم.
- قولهم بالرجعة والغيبة.
- سبهم وقذفهم لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قاتلهم الله.

وهؤلاء هم الذين يسميهم أهل السنة والزيدية: الروافض، وهم منتشرون حاليًا في إيران، والعراق، ولبنان، وشرق جزيرة العرب.

❋ ❋ ❋

٢٥٩ - مفهوم ١٢: الزيدية:

هم فرقة من الشيعة اتبعوا زيد بن علي زمن الخلافة العباسية؛ وذلك حين سألته الشيعة عن الشيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فتولاهما وقال: هما وزيرا جدي ﷺ، فرفضته طائفة من الشيعة، وقال لهم زيد: رفضتموني، رفضتموني، فسموا الرافضة أو الروافض، وهم المذكورون في المفهوم السابق، واتبعته طائفة أخرى هي الزيدية نسبة إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهم أخف بدعة من الروافض؛ حيث لا يسبون الصحابة، ويرون الإمامة بالوصف لا النص كالروافض.

وقد خرج عن الزيدية بعد فترة فرقة أخرى محترقة ترى رأي الروافض الاثنا عشرية، وتثبت جُلَّ أصولهم، وسُمُّوا: (**الجارودية**)، وهم الذين يطلقون على أنفسهم اليوم: (**الحوثيون**).

* * *

٢٦٠ - مفهوم ١٣: الباطنية:

هي فرقة رئيسة من فرق الشيعة؛ تتسم بالزندقة وتزعم أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وتسمَّى أيضًا: السبعية، والخرمية، والنبي ﷺ عندهم هو إمام ظاهر ومعه إمام باطن.

وقد تفرَّع عن هذه الفرقة الضالة فرق أخرى عديدة؛ كالإسماعيلية الذين يسمون أنفسهم المكارمة، وهم موجودون بنجران من جزيرة العرب وفي مناطق أخرى متفرقة من العالم، وكالدروز في لبنان وهضبة الجولان، والآغاخانية في الهند، والنصيرية في سوريا الذين يسمون أنفسهم العلويين، وإخوان الصفا الذين كانوا ببلاد فارس (إيران حاليًا).

وقد عدَّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- الباطنيين من الصابئة الفلاسفة الخارجين عن متابعة المرسلين ودائرة المسلمين؛ لأن في مذاهبهم مكفرات كثيرة؛ ففيهم الشرك الأكبر لتقديسهم لأئمتهم وعبادتهم من دون الله وادِّعائهم العصمة لهم وحق التشريع من دون الله، وتحريفهم للقرآن وزعم أن لكل نص فيه ظهر وبطن، وسبهم للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

* * *

٢٦١ - مفهوم ١٤: إخوان الصفا:

هي فرقة من فرق الشيعة الباطنية الخارجة عن ملة الإسلام؛ ترجمت الفلسفة اليونانية وجعلتها العمدة في اعتقادها، وسمَّتْ هذه الترجمة: «رسائل إخوان الصفا»، وكان ذلك في القرن الرابع للهجرة.

* * *

٢٦٢ - مفهوم ١٥: الإسماعيلية:

إحدى فرق الشيعة الباطنية الكافرة التي تدَّعي انتسابها إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومنهم: العبيديون الذين يسمون أنفسهم الفاطميين، وهم الذين حكموا مصر والشام وجزيرة العرب ردحًا من الزمن أذاقوا فيه المسلمين الويلات وعاثوا وخربوا البلاد وأظهروا فيها الكفر والزندقة، وتوجد الإسماعيلية حاليًا بنجران واليمن، وأكثر أتباعهم من الجهال الضلال، ومن كتبهم المشهورة: «دعائم الإسلام».

* * *

٢٦٣ - مفهوم ١٦: القرامطة:

هي من فرق الشيعة الباطنية؛ انشقت عن الإسماعيلية، وأسسوا دولتهم في شرق الجزيرة العربية، وقد قطعوا طريق الحُجاج وقت الحج وقتلوهم، وسرقوا الحجر الأسود من الكعبة ونقلوه إلى بلاد هجر (الأحساء حاليًا)، وظل هناك ٢٢ سنة تعطل فيها الحج خوفًا منهم ومن قطعهم لطريق الحجاج، ثم أعادوه إلى الكعبة وأعادوا موسم الحج؛ قيل: فعلوا ذلك بعد صلح واتفاق مع الخلافة العباسية نظير تركهم فيما تحت أيديه من بلاد، وقيل: فعلوا ذلك إذعانًا لتهديد إمام العبيديين الفاطميين لهم.

وقد حكم القرامطة أكثر جزيرة العرب والشام، وكان ذلك وقت ضعف الخلافة العباسية. وهم ينتسبون إلى ابن قرمط الباطني الشيعي المسمى حمدان قرمط ابن الأشعث البقار -عليه من الله ما يستحق- ومن أشد أصولهم كفرًا: تأليه غير الله تعالى، وادِّعاء العصمة لأئمتهم، ويتسمون بسب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهم اعتقادات كفرية في الله عَزَّ وَجَلَّ وأسمائه وصفاته وأفعاله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

٢٦٤ – مفهوم ١٧: النصيرية:

فرقة من فرق الشيعة الباطنية، وهم أتباع محمد بن نصير، ولا يزال لهم وجود في سوريا، وهم يؤلهون عليًّا رضي الله عنه، ويسمون أنفسهم حاليًا بالعلويين، ولهم كتب وطقوس كفرية، ومن نصوصهم الكفرية قولهم: «أشهد أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين».

* * *

٢٦٥ – مفهوم ١٨: الآغاخانية:

من فرق الشيعة الباطنية؛ أتباع «الآغاخان» الذي يعيش في الغرب، ومن طقوسهم أنهم يزنونه بالذهب كل سنة في يوم مولده ويسلموه إياه، ولهم وجود اليوم في كينيا، والهند، واليمن، وغيرها، ويخدعون عوام الناس ببناء المساجد كما في مصر وغيرها، ولهم معتقدات الفرق الباطنية الكفرية ذاتها.

* * *

٢٦٦ – مفهوم ١٩: الدروز:

من فرق الباطنية وهم أتباع محمد بن إسماعيل الدرزي -نسبة إلى أولاد درزة، أي صانعي الثياب- وكان يؤله الحاكم بأمر الله العبيدي. ولا يزال للدروز وجود اليوم في جبال لبنان وفي الجولان المحتل، ولهم كتاب اسمه «الحكمة»، وينقسمون إلى عُقَّال وهم حكماؤهم وشيوخهم، وجُهَّال وهم عوامهم، ولهم طقوس وأسرار، ويؤمنون بكثير مما في الهندوسية، ولا سيما عقيدة تناسخ الأرواح الذي يسمونه «التقمص»، ويسمون أنفسهم الموحدين.

* * *

٢٦٧ – مفهوم ٢٠: البهائية:

من فرق الباطنية، أنشأها «ميرزا حسين» في إيران في القرن التاسع عشر الميلادي، ويعظمون كثيرًا الرقم (١٩)، ولهم وجود في الغرب ودوله اليهود في فلسطين المحتلة.

* * *

٢٦٨ - مفهوم ٢١: القاديانية (الأحمدية):

فرقة باطنية يتزعمها «أحمد القادياني»؛ حيث ادَّعى النبوة وزعم أنه يوحى إليه من لندن؛ ألغى الجهاد ودعا مسلمي الهند وباكستان إلى قبول الاحتلال (الاستعمار) البريطاني.

ولهم اليوم نشاط في الغرب لم يكن ليوجد لولا الخواء الروحي لدى الغربيين. و«قاديان» التي منها «أحمد القادياني» هي بلدة في باكستان، لذا يُنسبون إليها.

❋ ❋ ❋

٢٦٩ - مفهوم ٢٢: التصوف والصوفية:

التصوف الذي يُنسب إليه الصوفية هو مذهب يقول بأن معرفة الله تعالى تحصل بالذوق والوجد لا بالاستدلال العقلي، ويميل أكثرهم إلى مذهب الهندوس في تعذيب النفس لتتأهل للاتحاد بالإله الذي يسمونه «الفناء»، وقد مال إلى الصوفية بعض المسلمين بعد القرن الرابع للهجرة، وأدخلوا الرقص والسماع في الدين، ولهم مصطلحات محدثة منحرفة، وبدع بعضها يصل بصاحبها إلى الخروج من الملة وبعضها دون ذلك.

وكان ظهور التصوف في بداياته لأسباب تاريخية منها: ضعف الخلافة المركزية أو انحرافها، وانغماس الناس في الترف والملذات ونسيانهم للآخرة والبعد عن سلوك طريقها، فكانت ردة فعل ذلك هي معاداة الدنيا ونبذها، وتلا ذلك التأثر بالرهبانية الهندية أو النصرانية، ومن سمات أهل التصوف التأثر بمذهب الجبرية وترك الأخذ بالأسباب، ومصطلحاتهم المنحرفة عديدة ومتنوعة؛ نعرض أهمها في المفاهيم الآتية.

❋ ❋ ❋

٢٧٠ - مفهوم ٢٣: الذوق:

المراد بالذوق عند الصوفية: ما يؤمن المرء به دون الاعتماد على النقل أو العقل، وهو نوع من الكشف عندهم عبارة عن إحساس داخلي يجتمع مع الحدس.

❋ ❋ ❋

٢٧١ - مفهوم ٢٤: الكشف:

هو عندهم: الاطلاع على الحقائق ذاتيًّا من غير تعليم، وهو مقابل للعقل عند المعتزلة ويقارب مصطلح الذوق السابق، وهو عندهم بالفتح الرباني أو التعليم الإلهي المباشر كما يزعمون.

❊ ❊ ❊

٢٧٢ - مفهوم ٢٥: المخاطبة:

هي عند الصوفية كلام الله تعالى لأحد من خلقه، ولهم في ذلك كتاب: «الواقف والمخاطبات» لعبد الجبار البقري؛ كل فقرة منه تبدأ بعبارة: «أوقفني الحق وخاطبني».

❊ ❊ ❊

٢٧٣ - مفهوم ٢٦: الطريقة:

هي عند الصوفية: اتباع شيخ معين في كيفية الذكر والتعبد، وهي مما يميز الصوفي عن غيره؛ وهذا ابتداع يخالف منهج السلف الذين ليس لهم متبوع إلا رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده الذين أوصى الرسول نفسه ﷺ باتباع سنتهم. ويعتمد الصوفية في سندهم إلى الشيخ على «الخرقة» التي يفتخرون بها كما يقول قائلهم:

إذا بارزونا بعلم الورق ❊ برزنا عليهم بعلم الخرق

❊ ❊ ❊

٢٧٤ - مفهوم ٢٧: الحلول:

هي مرتبة عند غلاة الصوفية معناها عندهم: أن الله تعالى يحل فيمن يشاء من خلقه، وهم متأثرون فيها بعقيدة النصارى الذين يقولون بحلول الله تعالى في المسيح عليه السلام، ويقولون قد حل اللاهوت في الناسوت، فتعالى الله عما يقولون جميعًا علوًّا كبيرًا.

❊ ❊ ❊

٢٧٥ - مفهوم ٢٨: الاتحاد:

مصطلح عند غلاة الصوفية أيضًا يعنون به إمكانية اتحاد الخالق والمخلوق ليصبحا شيئًا واحدًا، وهو تأثر -كما سبق- بمذهب النصارى القائلين باتحاد الله عز وجل بالمسيح عليه السلام، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

٢٧٦ - مفهوم ٢٩: وحدة الوجود:

هو مذهب القائلين بأن الخالق والمخلوق شيء واحد لا تعدد فيه وليس هناك خالق وآخر مخلوق منفصل عنه، وقد آمن به كثير من المفكرين الأوروبيين الهاربين من تثليث الكنيسة.

❋ ❋ ❋

٢٧٧ - مفهوم ٣٠: الحلول والاتحاد عند غلاة الصوفية نوعان:

حلول عام: كمن يقولون إن الله حال في كل مكان، أو أن وجوده عين وجود المخلوقات.

حلول خاص: كمن يقولون إن الله حال في بعض أهل البيت كعلي وغيره.

❋ ❋ ❋

٢٧٨ - مفهوم ٣١: الحكم على أهل الحلول والاتحاد:

من يعتقد هذا المذهب من الباطنيين وغلاة الصوفية فإنه خارج عن ملة الإسلام؛ كفره ككفر النصارى القائلين بالتثليث وحلول الله في عيسى عليه السلام.

❋ ❋ ❋

٢٧٩ - مفهوم ٣٢: عُبَّاد السلف والتصوف:

لم يظهر التصوف بانحرافاته وشطحاته إلا بعد القرن الرابع الهجري، أمَّا قبل ذلك فكان العُبَّاد من أهل القرون الثلاثة المفضلة يعرفون بالاجتهاد في العبادة والزهد في الدنيا والورع متبعين في ذلك هدي النبي ﷺ وصحابته الكرام؛ فمن هؤلاء العباد الكرام: الإمام أحمد بن حنبل، وابن المبارك، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض، وغيرهم، ولم يكن عند أحد منهم أيٌّ من شطحات المتصوفة وبدعهم، ولم تكن الصوفية موجودة أصلًا وقتهم، ومع ذلك يزعم المتصوفة أن هؤلاء العُبَّاد الأفاضل منهم وينسبونهم إلى أنفسهم، والحق أنهم بُرآء من كل ذلك.

❋ ❋ ❋

٢٨٠ - مفهوم ٣٣: اليهودية:

اسم اليهود مشتق من (الهود) وهو لغة: الرجوع والعودة، ويراد به: العودة إلى الله تعالى، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

واليهود أتباع نبي الله موسى عليه السلام في زمنه هم مسلمون موحدون مثل سائر أتباع الأنبياء على مر العصور، أمَّا اليهود بعد بعثة عيسى عليه السلام ومن بعده محمد ﷺ الذين لم يؤمنوا بأي منهما فهم كفار وإن اختصوا بأحكام معاملة أهل الكتاب.

واليهود في عهد النبي ﷺ كانوا في المدينة المنورة ولم يؤمن منهم به ﷺ إلا القليل، وبقي الآخرون على اتباع التوراة المحرفة والأحبار المحرفين لها والكاتمين لحقيقة محمد ﷺ، مع معرفتهم له تمام المعرفة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]، وكان المنافقون بطانة لهم يأوون إليهم ويتولونهم. وبعد غدر اليهود بالنبي ﷺ وبالمسلمين أجلى النبي ﷺ منهم بني النضير وبني قينقاع، وقاتل بني قريظة حتى نزلوا على حكمه، فقتل مقاتلتهم وسبا نساءهم نتيجة غدرهم، فذهب من أُجلوا من اليهود إلى خيبر وظلوا بها إلى أن أجلاهم منها إلى الشام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد حاربتهم أوروبا النصرانية ولم يجدوا ملجأً إلا في ديار المسلمين الذين عاملوهم معاملة أهل الكتاب بالعدل والإنصاف بصفتهم أهل ذمة.

واليهود بوجه عام أهل إفساد في الأرض وعصيان للرب؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، وقد آذى كثير منهم نبي الله موسى عليه السلام في زمنه وخالفوه؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]، ومن بعد موسى عليه السلام ظلوا مفسدين في الأرض، وقتلوا أنبياء الله زكريا ويحيى -عليهما السلام-، وسلَّط الله عليهم الذل في تاريخهم كله حتى شاء بحكمته عز وجل أن يتمكنوا في العقود الأخيرة من احتلال فلسطين وبيت المقدس، وجمعهم الله عز وجل من الشتات في الأرض ليقضي فيهم قضاءه الأخير بمحقهم والخلاص منهم آخر الزمان على يد الطائفة المنصورة من المسلمين كما أخبر النبي ﷺ، ولعل هذا هو المقصود لقول الله تعالى في آخر سورة الإسراء: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الأسراء:١٠٤].

ومن فرق اليهود فرقة تسمى **العيسوية** نسبة إلى أبي عيسى الأصفهاني الذي ظهر في بلاد فارس في القرن الثاني الهجري، وقد ادَّعوا له آيات ومعجزات، وتبعه كثير من اليهود. ومما ذهبوا إليه أن محمدًا ﷺ وعيسى عليه السلام إنما بعثا إلى قومهما فقط ولم يبعثا بنسخ شريعة موسى عليه السلام، وتلك دعوى تُنقض بسهولة؛ إذ يلزمهم الإيمان بصدق من أقروا برسالته، ورسالة محمد ﷺ قد جاء فيها قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقد تواتر نبأ دعوته لكسرى وقيصر وسائر ملوك العجم، فدعواهم تلك محالة ومتناقضة.

* * *

٢٨١ – مفهوم ٣٤: التوراة:

التوراة هي الكتاب المنزل من الله على نبيه موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة:٤٤]، ويسمى حاليًا مع ما فيه من تحريف ضمن ما يُعرف بالكتاب المقدس: **العهد القديم**، وقد تُرجِم هذا الكتاب المحرف إلى لغات عدة، ولا تتفق ترجمة مع أخرى، على ما في الجميع من تحريف وضلال وكفريات مما لا يليق بوصف الله ﷻ؛ مثل قولهم: إن الله سبحانه ندم وتأسف، إلى غير ذلك من التحريفات والضلالات.

* * *

٢٨٢ – مفهوم ٣٥: التلمود:

هو الكتاب الآخر لليهود؛ صنعه أحبارهم، وهو بمثابة الفقه اليهودي وتظهر فيه عنصريتهم جلية وحقدهم على كل من سوى اليهود، وهو كتاب يؤمن به اليهود ويقدسونه أكثر من التوراة، وهو قسمان: تلمود بابل، وتلمود أورشليم.

* * *

٢٨٣ – مفهوم ٣٦: النصرانية:

كما أن اليهود أتباع نبي الله موسى عليه السلام في زمنه مسلمون، فالنصارى أتباع عيسى عليه السلام في زمنه هم مسلمون موحدون مثل سائر أتباع الأنبياء على مر العصور، أمَّا النصارى بعد

بعثة محمد ﷺ الذين لم يؤمنوا به فهم كفار وإن اختصوا بأحكام معاملة أهل الكتاب.

ولَمَّا تآمر اليهود على عيسى عليه السلام وحاولوا قتله، رفعه الله عز وجل إليه في السماء، واختلف النصارى من بعده وافترقوا فرقًا كثيرة، وحرَّفوا الإنجيل كما حرَّف اليهود التوراة، وظهر في غالب فرقهم الشرك الأكبر بادعائهم أن نبي الله عيسى عليه السلام هو الله، أو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة مع أمه مريم والله عز وجل، ولا زالوا على هذا الشرك إلى يومنا هذا، وأكثر الناس اليوم يطلق عليهم اسم (المسيحيين)، وهذا خطأ لأن المسيح عليه السلام بريء منهم لشركهم، فالصواب أن يقال عنهم (النصارى) كما سمَّاهم القرآن.

* * *

٢٨٤ - مفهوم ٣٧: الإنجيل:

هو الكتاب الذي أُنزل على عيسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٦]، لكن النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام حرَّفوا أكثره لفظًا ومعنى حتى أصبح عندهم أربعة أناجيل يختلف بعضها عن بعض، وهي أناجيل: (متى، ولوقا، ومرقص، ويوحنا) وفيها بعض كلام الله، ويضمون إليها (رسائل بولس) و(رسائل بطرس)، ويسمون هذه الأناجيل مع الرسائل **(العهد الجديد)**، وكل هذه الأناجيل محرفة وتعود كتابتها إلى القرن الثاني بعد الميلاد، وفيها من الكفر وسوء الأدب مع الله عز وجل الشيء الكثير.

* * *

٢٨٥ - مفهوم ٣٨: الكتاب المقدس:

جمع النصارى في كتاب واحد: التوراة والأسفار الملحقة بها (العهد القديم) مع الإنجيل والرسائل (العهد الجديد)، وسموه: (الكتاب المقدس). وتختلف الكنائس في عدِّ أسفاره واعتبارها؛ فبعض الكنائس يعتبرها ٤٩ سفرًا، وبعضها يعدها أقل، وأهم طبعة لهذا الكتاب هي «طبعة الملك جيمس» الإنجليزية التي طبعت في القرن١٧ للميلاد.

* * *

٢٨٦ - مفهوم ٣٩: التثليث:

هو عقيدة النصارى في الإله؛ حيث يدَّعون أن الله تعالى ثلاثة لا واحد، وذلك كفر وشرك بالله تعالى كما قال ﷻ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣]، والتثليث عقيدة وثنية قديمة قال بها الهنود والفراعنة وغيرهم وقال بها من الفلاسفة أفلاطون، ولا يزال التثليث دين النصارى ومعتقدهم حتى يومنا هذا؛ ولذا كَفَر مفكرو الغرب وفلاسفته بالنصرانية ولم يؤمنوا بها.

❋ ❋ ❋

٢٨٧ - مفهوم ٤٠: الكاثوليك:

فرقة من فرق النصارى واسعة الانتشار، تقر بزعامة بابا الفاتيكان ويوجدون بكثرة في: فرنسا، وإيطاليا، وجنوب أوروبا عمومًا، والفلبين، وهم أقلية في أماكن أخرى، ومن عقيدتهم تأليه عيسى وأمه عليهما السلام.

❋ ❋ ❋

٢٨٨ - مفهوم ٤١: الأرثوذكس:

الفرقة الثانية الرئيسة من فرق النصارى، وهم لا يقرون بزعامة بابا الفاتيكان، ويتركزون في شرق أوروبا وروسيا وعموم المشرق، ولهم سلم هرمي من رجال الدين، ومنهم أقباط مصر التي انتقلت إليها البابوية الأرثوذكسية بعد الثورة البلشفية في روسيا وما عرف بالاتحاد السوفيتي.

❋ ❋ ❋

٢٨٩ - مفهوم ٤٢: البروتستانت:

الفرقة الرئيسة الثالثة من فرق النصارى، وهي حديثة نسبيًّا عن سابقتيها، ولا تقر بزعامة بابا الفاتيكان ولا بابا الأرثوذكس، وقد أسسها «مارتن لوثر كينج» في القرن السادس عشر الميلادي، ومصطلح البروتستانتية معناه الاحتجاج والاعتراض؛ فيميزهم الاحتجاج على مصادرة البابوات لحق فهم الكتاب المقدس، وهم منتشرون

في: بريطانيا، وأمريكا وغيرهما، ومن البروتستانت من يُسَمَّون: «**الإنجيليون**».

* * *

٢٩٠ – مفهوم ٤٣: الموحدون من النصارى:

فرقة من فرق النصارى تقول: إن الله واحد لا ثلاثة، وقد كانوا في أوروبا ثم هاجروا إلى أمريكا، ودخلوا اليوم فيما يُعرف بالكنيسة العالمية التي ترى الخلاص لكل بني آدم، وينضمون حاليًا للبروتستانت في رفضهم لزعامة البابا.

وقد يقول قائل: ألا يُعدُّون مسلمين ما داموا موحدين لله تعالى؟ والجواب: أن الإسلام ليس فقط الإقرار بأن الله واحد فحسب، بل هذا ركن واحد من أركان الإيمان، ومن باقي الأركان: الإيمان بالرسل، وهو يقتضي الإيمان بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل المبعوث للناس كافة، وهم لا يؤمنون بذلك؛ لذا فهم كفار كما قال ﷺ: (**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**) [رواه مسلم (١٥٣)]، هذا مع أن توحيدهم المزعوم فيه نظر.

* * *

٢٩١ – مفهوم ٤٤: اليسوعيون:

اليسوعية رهبنة فرنسية كانت تنكر زعامة البابا عند نشأتها، ثم أقرت بها فيما بعد واعترفت بزعامة البابوات، ولها أتباع في المشرق، لا سيما في لبنان، ويقال لهم: «الجزويت»، وقد أثبت بعض الباحثين أنها منظمة ماسونية، وعندهم شركيات وكفريات فرق النصارى الأخرى.

* * *

٢٩٢ – مفهوم ٤٥: الأقنوم:

هو لفظ غير عربي، وترجمته: الجزء، أو الصفة، أو الطبيعة، أو الجوهر، وهو في اصطلاح النصارى: أحد مكونات الذات الإلهية الثلاثية؛ فيقولون: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس إله واحد، تعالى الله عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرا.

٢٩٣ - مفهوم ٤٦: المعمودية:

هي عند النصارى أن يُغطس الطفل في الماء إيذانًا بدخوله في الدين بزعمهم، ويسمون ذلك الولادة الجديدة، وهي طريقة رائجة عند النصارى في أمريكا الذين يدخلون الدين حديثًا.

❋ ❋ ❋

٢٩٤ - مفهوم ٤٧: صكوك الغفران:

تلك هي المهزلة التاريخية العظمى لدى النصارى؛ حيث لم يعرف مثلها لدى سائر الملل والنحل في تاريخ البشرية، والمقصود بها إمكانية إعطاء القساوسة والباباوات لمن يشاءون صكوكًا بمغفرة الذنوب ودخول الجنة، وكانت تباع وتشترى بمبالغ كبيرة يأخذها هؤلاء القساوسة والبابوات، فصارت بحق مهزلة كبرى وصفحة من الصفحات السوداء العديدة لخرافاتهم، فما أشد سوء أدبهم مع فاطر السماوات والأرض! وما أشد استخفافهم بعقول الناس! والحمد لله الذي هدانا لنعمة الإسلام.

❋ ❋ ❋

٢٩٥ - مفهوم ٤٨: البوذية:

ديانة منتشرة في الصين، واليابان، وكوريا، والهند، والدول المجاورة لهذه الدول؛ يقول الباحثون في البوذية: إنه لا يتعرض فيها للألوهية، بل هي فلسفة وحكم أخلاقية بعضها مأخوذ من الإسلام، وكثير منها شطحات وخرافات، ويوجد لدى البوذية الآن كتاب يسمونه: «إنجيل بوذا»، وتكثر فيهم الطقوس والعبادات الشركية الوثنية.

❋ ❋ ❋

مفاهيم

في العبادة

مفاهيم في العبادة

أولا: مفاهيم حول العبادة ومعناها:

٢٩٦ - مفهوم ١: معنى العبادة:

العبادة هي الغاية من خلق المكلفين؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وهذا يستلزم أن تكون حياتهم كلها لله وبالله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، فليست هناك أعمال للدنيا منقطعة عن الآخرة وأعمال أخرى للآخرة تُقضى في غير الحياة الدنيا؛ بل إنه طريق واحد أوله في الدنيا وآخره في الآخرة؛ فمن عبد الله وحده في هذا الطريق في كل أعماله وصل في الآخرة إلى الجنة ونعم المآل، ومن خالف العبادة وتركها في الطريق أوصله طريقه إلى جهنم عياذاً بالله.

لذا فقد عُرِّفت العبادة من حيث ما يُتعبَّدُ به بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

كما عُرِّفت العبادة من حيث حال العابد بأنها: «**كمال المحبة والإجلال لله تعالى مع كمال الذل والخضوع له سبحانه**»؛ فإن أحببته ولم تخضع له سبحانه فلست له بعابد، وكذلك إن خضعت له بلا محبة فلست له بعابد، حتى تكون محبًّا خاضعًا.

* * *

٢٩٧ - مفهوم ٢: إطلاق مسمى العبادة على الشعائر التعبدية:

إطلاق مسمى العبادة على الشعائر المختلفة من: صلاة، وزكاة، وصيام، وحج هو من باب المعنى الخاص لها؛ لأن تلك (**الشعائر التعبدية**) هي أعظم أنواع العبادات، وهي -مع النطق بالشهادة- أركان الإسلام.

كما أن العبادة تُطلق بمعنى آخر خاص على (الدعاء)؛ لأنه لبها وأهم غاياتها كما ورد في الحديث: (**الدعاء هو العبادة**) [رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)].

وتقسيم كتب الفقه إلى قسم العبادات وقسم المعاملات إنما هو تقسيم اصطلاحي مدرسي الغرض منه تسهيل العلم على طلابه وتقسيمه على مراحل دراسية.

٢٩٨ - مفهوم ٣: ضرر حصر معنى العبادة في الشعائر التعبدية:

من يحصر معنى العبادة في الشعائر التعبدية فقط فسيُقصِّر حتما في طاعته لربه سبحانه، وإذا قلت له: إن ذلك يخالف عبوديتك لله سيجيبك بأنه قد أدَّى ما عليه من عبادة وصلاة، وأنه حاليًا في تدبير لأمر حياته ومعاشه؛ وكأنه لم يسمع أو يفهم قول الله تعالى السابق ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

كما سيترتب أيضًا على حصر معنى العبادة في الشعائر التعبدية فقط الخلل والتقصير في أداء هذه الشعائر نفسها وما يُرجى من ثمارها؛ فستصبح الصلاة حركات آلية خالية من الخشوع ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل ربما انشغل فيها بالتفكير في تدبير حياته؛ لأنه لم يفهم أن الخشوع -وهو عمل قلبي- من العبادة، وأن ترك الفحشاء والمنكر من العبادة، وسيصبح الصيام إمساكًا عن الطعام والشراب يفطر بعده على ما يتخم معدته، ويسلِّي نفسه -بزعمه- خلال صيامه وبعده بمشاهدة الفوازير والمسلسلات الهابطة، ويطلق نظره فيما حرَّمه الله، ولن يحقق صيامه التقوى المرجوة منه، وسيؤدِّي زكاة ماله ثم لا يبالي بعدها إن نمت تجارته وأمواله من الربا والمعاملات المحرمة؛ لأنه لم يفهم أن ترك ذلك هو من العبادة التي هي: أن تكون حياته كلها لله ووفق مراده سبحانه

وكذلك فإن حصر معنى العبادة في الشعائر التعبدية هو الباب الذي يدخل منه العلمانيون وأضرابهم في جعل العبادة علاقة خاصة بين العبد وربه فحسب ولا دخل لها في سائر شؤون الحياة من: اقتصاد، وسياسة، شؤون المرأة والأسرة، والمعاملات بين الناس.

* * *

٢٩٩ - مفهوم ٤: الاجتهاد في الشعائر التعبدية والإخلاص فيها:

الاجتهاد في الشعائر التعبدية بصدق وإخلاص يعين على إتمام العبادة بمفهومها الشامل -بأن تكون حياة المرء كلها لله- فالشعائر التعبدية ليست بمعزل عن السلوك الاجتماعي أو الأخلاقي في الحياة، بل الترابط بينهما وثيق، وهي زاد المرء في طريق العبادة الشاملة؛ فالله سبحانه بعد أن أمر نساء النبي ﷺ بالقرار في البيت ونهاهن عن تبرج الجاهلية الأولى -وتلك أمور سلوكية اجتماعية- أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفي ذلك إشارة إلى دور الشعائر التعبدية في الإعانة على أداء الأوامر السلوكية

والأخلاقية وارتباطها بها؛ قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب:٣٣]، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وعبادة الدعوة إلى الله يُعين عليها قيام الليل وتلاوة كتاب الله؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:١-٥]، فكان الإعداد للقول الثقيل، والتكليف بالدعوة هو قيام الليل وترتيل القرآن.

* * *

٣٠٠ - مفهوم ٥: العبادة والخلافة في الأرض:

الخلافة في الأرض وإعمارها كما أراد الله عبادةٌ لله يجب أن يكون الحكم فيها والتحليل والتحريم لله تعالى وحده، ولهذا لَمَّا قصُرَ فهم عدي بن حاتم رضي الله عنه عن هذا المعنى -وكان نصرانيًّا قبل إسلامه- تعجَّب من قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، وقال: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم! فقال ﷺ: **(أجل، ولكن يحلون لهم ما حرَّم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه؛ فتلك عبادتهم لهم)** [رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣)].

* * *

٣٠١ - مفهوم ٦: ترك عبودية الله عبوديةٌ لغيره:

من ترك عبوديته لله سبحانه وقع حتمًا في عبودية ما سواه من: شيطان، أو وثن، أو هوى نفس، أو شهوة مال، ...إلخ؛ قال الله تعالى عن عبادة الشيطان: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠-٦١]، وقال تعالى عن الشرك وعبادة غيره من الأوثان والآلهة المزعومة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣]، وقال تعالى عن عبادة الهوى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال ﷺ: **(تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش)** [رواه البخاري (٢٨٨٧)].

٣٠٢ - مفهوم ٧: العبودية لله عزٌّ وشرف:

العبودية لله عزٌ وشرفٌ يستحقه كل من أتى بها على وجه التمام والكمال؛ لذا فقد وُصِف بها أصدقُ العابدين وأكرمهم على الله تعالى: رسول الله ﷺ، وكان هذا الوصف له في أعلى المقامات وأرقاها: مقام الإسراء؛ قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]، كما وصف بها في مقام نزول الوحي: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

* * *

٣٠٣ - مفهوم ٨: شروط قبول العبادة:

من شروط العبادة: **الإخلاص، والمتابعة**؛ فالإخلاص أن تكون العبادة خالصة لله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، والمتابعة أن يكون العمل موافقًا للسنة كما قال ﷺ: **(من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)** [رواه البخاري (٢٦٩٧) بنحوه، ومسلم (١٧١٨)].

- فمن خالف في إخلاص العبادة وقع في الشرك؛ وهو نوعان: أكبر مضاد للتوحيد، وأصغر كالرياء والسمعة.
- ومن خالف في متابعة السنة في عبادته وقع في الابتداع.

والإخلاص والمتابعة مجموعان في قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠]؛ فقوله: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ أي: موافقًا للسنة غير مبتدَع، وقوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أي: يجعل عبادته خالصة لله تعالى، فلا بد من إفراد الله بالعبادة، وإفراد الرسول ﷺ بالمتابعة.

وهناك شرط آخر أساس لقبول العبادة؛ وهو أن تكون من **موحِّد** غير مشرك بالله.

* * *

٣٠٤ - مفهوم ٩: لا تسقط العبادة عن أحد مهما بلغ:

يزعم بعض غلاة المتصوفة أن العبادة تسقط عن أولياء الله الذين يبلغون درجة اليقين بزعمهم، ويأخذون ذلك من فهمهم السقيم لقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]، مع أن ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾ هنا هو (الموت)؛ وذلك بإجماع المفسرين، وهو

كما في قول الله تعالى حكاية عن قول الكفار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦-٤٧]، وهل هناك من هو أكثر يقينًا في إيمانه من رسول الله ﷺ؟! وقد ظلَّ يعبد الله حتى وافته المنية، وخرج على الصحابة في مرض موته وهم يصلون فصلى بهم [ينظر البخاري (٧١٢)، ومسلم (٤١٨)]، فلا ينفك العبد عن العبودية لله ما دام في دار التكليف.

❋ ❋ ❋

٣٠٥ - مفهوم ١٠: لله على الخلق عبوديتان:

لله على الخلق عبوديتان: عامة، وخاصة:

- **فالعبودية العامة** هي عبودية القهر والملك؛ وهذه لا اختيار لأحد فيها؛ فالكل ملك لله وتحت إرادته، وهي المعنية في قول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات التي تفيد أن الخلق كلهم عبيد ربوبية الله تعالى، وهي عبودية لا يؤجرون عليها، ولا يخرج عنها أحد.
- **أمَّا العبودية الخاصة** فهي عبودية أهل محبته وطاعته؛ وهي المعنية في قول الله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢]، إلى غير ذلك من الآيات، وأهل هذه العبودية هم عبيد إلهية الله تعالى ويؤجرون عليها.

فالخلق كلهم عبيد ربوبية الله سبحانه، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته.

❋ ❋ ❋

٣٠٦ - مفهوم ١١: التفاضل بين العبادات:

الأساس في التفاضل بين العبادات هو ما يقوم في قلب العبد أثناء العبادة من الإخلاص والمحبة والخوف والرجاء والعمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته؛ فأفضل العبادات وقت الجهاد هو الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة ليل وصيام نهار...إلخ، وأفضل العبادات وقت حضور الضيف هو القيام بحقه وإن أشغل ذلك عن الورد المستحب، وأفضلها وقت السحر الاستغفار كما قال تعالى:

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨]، وهكذا فلكل وقت وحال عبادته ووظيفته.

كما أن التفاضل في العبادات والأعمال الصالحة محكوم أيضًا بالقواعد الآتية:

١ – الفرائض مقدمة على النوافل وأفضل منها عند الله تعالى كما في الحديث القدسي: **(وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه...)** [رواه البخاري (٦٥٠٢)]. **فالفرائض مقدَّمة والنوافل مُكمِّلة.**

٢ – القليل الدائم خير من الكثير المنقطع؛ كما قال ﷺ: **(وإن أحب الأعمال إلى الله ﷻ أدومها وإن قل)** [رواه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨)].

* * *

٣٠٧ – مفهوم ١٢: القوة والاجتهاد في العبادة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]؛ أي: صاحب القوة في الطاعة والعبادة فهو ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: كثير الإنابة والرجوع إلى الله والتضرع إليه، وهذا يقتضي أن يسعى المرء لتحصيل أسباب قوة العبادة، وألا يركن إلى الكسل والبطالة المخلة بهذه القوة، المضعفة للنفس.

* * *

٣٠٨ – مفهوم ١٣: كره العبادة والكسل في إتيانها من صفات المنافقين:

ذم الله المنافقين النفاق الأكبر غاية الذم، وأثبت لهم الكفر؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، وكما وصفت الآية المنافقين بالكسل في الصلاة وكره الإنفاق في سبيل الله فقد دلَّت بمفهومها على أنه ينبغي على العبد أن يؤدي الصلاة وهو نشيط القلب والبدن، وألا ينفق في سبيل الله إلا وهو منشرح الصدر بنفقته، يرجو ذخر ذلك وثوابه من الله وحده، ولا يشابه المنافقين في كسلهم وكرههم للعبادة.

* * *

٣٠٩ - مفهوم ١٤: اجتهاد الكافرين في العبادة ودعاء غير الله لا يغني عنهم شيئًا:

مهما اجتهد الكافرون في العبادة ودعاء آلهتهم فلن يغني ذلك عنهم من الله شيئًا؛ قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد:١٤]، فلا يغترن أحد باجتهاد الكفار في عبادتهم، ولا يحسنن بهم الظن فإن ذلك لا يغني من الحق شيئًا.

❋ ❋ ❋

٣١٠ - مفهوم ١٥: الإحسان:

يتناول الإحسان أمرين رئيسين:

أحدهما: الإحسان في العبادة، وهو أعلى مراتب العبادة كما قال ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان: (**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**) [رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)]، وقد سأله ذلك بعد سؤاله عن الإسلام والإيمان.

والثاني: الإحسان إلى الخلق؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

وكمال الإحسان في الإتيان بالأمرين جميعًا: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان في التعامل مع الخلق، وقد اجتمع الأمران في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، حيث دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ على الإحسان في التعامل مع الخلق، ودلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على الإحسان في عبادة الله تعالى، ثم رتَّبْت الآية على الإتيان بكلا الأمرين نيل رحمة الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فكلما كان العبد أكثر إحسانًا كان أقرب إلى رحمة الله عز وجل، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

❋ ❋ ❋

٣١١ - مفهوم ١٦: عبادة السر:

عبادة الله في السر من آكد علامات الإخلاص وصلاح السرائر، وكان السلف -رحمهم الله- يحرصون على إخفاء صالح أعمالهم من غير الفرائض، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، وقال ﷺ: **(إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي)** [رواه مسلم (٢٩٦٥)]، وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح كما أن لكم خبيئة من العمل السيِّء»، وأقوال السلف في ذلك كثيرة.

❋ ❋ ❋

٣١٢ - مفهوم ١٧: اقتران العبادة بالتوكل على الله والاستعانة به:

كثيرًا ما تقترن العبادة في نصوص الوحيين بالتوكل على الله والاستعانة به؛ كما في قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣]، وما ذاك إلا لأن العبد مفتقر إلى الله عز وجل من حيث هو المطلوب المحبوب المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه؛ فبالعبادة تتجلى ألوهية الله عز وجل، وبالتوكل عليه والاستعانة به تتجلى ربوبيته، ولا تتم العبودية إلا بهذين الوجهين.

وكما تكون الاستعانة بالله في الأمور كلها تكون من باب أولى في العبادة نفسها بدلالة اقترانها معها في الذكر في آية الفاتحة؛ فالاستعانة بالله في العبادة تُقوي العبد على أدائها، وتقيه من العُجْب بعبادته ومِنْ ظن أنها بحوله هو وقوته، كما تمنع عنه الكسل والتهاون في إتيانها؛ فمن استعان بالله في عبادته أعانه الله عليها، ومن أهمل الاستعانة وكله الله إلى نفسه فأصابه الوهن والكسل.

وفي تقديم العبادة على الاستعانة في الذكر في آية سورة الفاتحة نكات بلاغية، من أهمها: أن العبادة هي غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، والغايات مقدمة على الوسائل. [ينظر مدارج السالكين لابن القيم].

❋ ❋ ❋

٣١٣ - مفهوم ١٨: تحقيق العبودية بمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العليا:

لم يذكر الله سبحانه أسماءه وصفاته في كتابه الكريم لنتعرف عليها معرفة نظرية فحسب، وإنما ذكرها لنعي معانيها وحقائقها، ونتدبر موجباتها ومقتضياتها في الكون، وآثارها على القلب والجوارح، فندعو الله تعالى بها كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، فهذا العلم وهذا الدعاء هما أكثر ما يحقق عبودية المرء لله سبحانه؛ فعلم المرء بتفرد الرب تعالى بالنفع والضر، والعطاء والمنع، والخلق والرِّزْق، والإحياء والإماتة؛ كل ذلك يثمر للعبد عبودية التوكل على الله باطنًا، ولوازم هذا التوكل ظاهرًا، كما تثمر الخوف منه وحده، ورجاءه وحده، ومحبته وتعظيمه، وهكذا في سائر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

* * *

٣١٤- مفهوم ١٩: الوسطية في العبادة:

العبادة في الإسلام وسط بين أهل الجفاء والتفريط فيها، وأهل الغلو والرهبنة:

فالمفرطون في العبادة غرَّتهم الحياة الدنيا وتمسكوا بها ولهثوا وراءها، فكانت مقاييسهم كلها مادية دنيوية؛ وأوضح من يمثل هؤلاء: اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة:٩٦]؛ فهم حريصون على ﴿حَيَوٰةٖ﴾ هكذا بالتنكير الذي يفيد حب الحياة أيًا كانت؛ ولو كانت بهيمية ملؤها الغرائز والشهوات؛ ولهذا استحقوا أن يوصفوا بكونهم ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ لرفضهم الامتثال للأوامر الشرعية وتحايلهم عليها من أجل مصلحتهم الدنيوية.

والغالون في العبادة دفعهم غلوهم إلى تحريم ما أحل الله وابتداع الرهبانية؛ كحال رهبان النصارى وعُبَّادهم الذين حرَّموا على أنفسهم النكاح والطيبات من الرزق، ورأوا ذلك رجسًا من عمل الشيطان، فردُّوا نعمة الله عليهم ولم يهتدوا إلى الحق في باب العبادة فاستحقوا وصف: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فالأولون أهل تفريط وفجور، والآخرون أهل إفراط وغلو وابتداع، وكلٌّ قد حذَّر منهم السلف.

ويتحصَّل مفهوم وسطية العبادة في الإسلام بالنظر إلى نصوص الوحيين في هذا الشأن وجمع بعضها إلى بعض لا العمل ببعضها وترك بعضها الآخر؛ فالنبي ﷺ الذي قال: (**المجاهد من جاهد نفسه**) [رواه الترمذي (١٦٨٧)]، هو نفسه الذي قال للثلاثة الذين سألوا عن عبادته وكأنهم تقالوها فقال أحدهم: أمَّا أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فقال ﷺ: (**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**) [رواه البخاري (٥٠٦٣)]، فحثَّ في النص الأول على الاجتهاد في العبادة، ونهى في الثاني عن الغلو فيها والرهبنة.

فنهجه ﷺ قائم على الوسطية والتوازن بين الحقوق والواجبات، وحين قال سلمان الفارسي لأبي الدرداء رضي الله عنه: «إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حقٍّ حقَّه» قال ﷺ: (**صدق سلمان**) [رواه البخاري (٦١٣٩)]. كما أنه ﷺ أجاز من النذر ما كان مشروعًا وأبطل المبتدع المرفوض؛ فلما رأى رجلًا قائمًا سأل عنه فقالوا: «نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم» فقال: (**مره فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه**) [رواه البخاري (٦٧٠٤)]، وهذا من وسطية العبادة.

❋ ❋ ❋

٣١٥ – مفهوم ٢٠: من مجالات وسطية العبادة:

تتجلى الوسطية في العبادة في مجالات عدة؛ منها:

١ – التوسط في دعاء الله بين الجهر والإخفات؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠].

٢ – عدم الاعتداء في الطهور والدعاء؛ كما قال ﷺ: (**إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء**) [رواه أحمد (٢٠٥٥٤)، وأبو داود (٩٦)، وصحَّحه ابن حجر (التلخيص الحبير ١/ ٢٢٣) والألباني (إرواء الغليل ١/ ١٧١) وشعيب الأرناؤوط (تخريج شرح السنة ٢٧٩)]، والاعتداء في الطهور يكون بالإسراف فيه ومجاوزة الحد بسبب الوسوسة مثلًا، والاعتداء في الدعاء كما يكون برفع الصوت يكون أيضًا بالدعاء بغير المشروع؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥].

٣ – التوسط بين الرخصة والعزيمة؛ فلا يتشدد في الورع حتى يترك الرخص الشرعية، ولا يسترسل معها حتى يخرج بها عن المقصود الشرعي؛ فمن المرخص شرعًا مثلًا: تأخير صلاة الظهر في شدة الحر للإبراد بها حتى لا يمنع الحر الخشوع فيها، والاسترسال في هذه الرخصة أن يُبرِدَ بالظهر ويؤخره حتى يخرج وقته أو يوشك على الخروج.

* * *

٣١٦ – مفهوم ٢١: من ثمرات العبادة:

تثمر العبادة بمفهومها الشامل الذي سبق بيانه ثمرات جليلة للعبد من أهمها:

١ – التعلق بالله وحده، والافتقار إليه، والاستغناء عما سواه؛ وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨].

٢ – والتعلق بالله وحده يورث الشجاعة والثبات والتضحية في سبيله، وطمأنينة القلب وسكون النفس وسعادتها. وقد تجلَّتْ هذه الثمرة أكثر ما تجلَّتْ في صفوة الخلق من أنبياء الله ورسله؛ كما قال نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١]، وقال هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٥]، وقال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٥-١٩٦].

٣ – الفوز برضا الله ومحبته وجنته؛ فمن يعمل ما يحبه الله ويرضاه -وهذا هو معنى العبادة- ينال بلا شك محبته ورضاه، ويكون من أهل الجنة الذين يتنعمون بنعيمها وأعظمه: رضوان الله؛ ففي الحديث القدسي: (**أن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**) [رواه البخاري (٦٥٤٩)]. فنَصَّ على أن رضوان الله أفضل من كل نعيم الجنة.

٤ – الزهد في الدنيا وإيثار الآخرة عليها.

ثانيًا: مفاهيم حول الصلاة:

٣١٧ – مفهوم ١: عظم شأن الصلاة:

الصلاة عظيمة الشأن؛ فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، ويكفي في شرفها وعظيم شأنها أنها فرضت في السماء السابعة حين عُرِج برسول الله ﷺ، وأنها أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة كما قال ﷺ: **(أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة؛ فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله)** [رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٤٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٦)، وصحّحه الألباني بمجموع طرقه (الصحيحة ١٣٥٨)]. وتعظيم قدر الصلاة هو من تعظيم الله ﷻ الذي شرعها. وأركانها كلها تعظيم لله سبحانه؛ بدءًا من التكبير، مرورًا بأذكار الركوع والسجود، وانتهاء بالتشهد.

❋ ❋ ❋

٣١٨ – مفهوم ٢: مظاهر تعظيم العبد للصلاة:

لتعظيم قدر الصلاة في قلب العبد المؤمن مظاهر تتجلى في:

١ – محبة الصلاة، والشوق إليها، وانشراح الصدر بأدائها؛ كما قال النبي ﷺ: **(وجُعلت قرة عيني في الصلاة)** [رواه أحمد (١٤٠٣٧)، والنسائي (٣٩٤٩)]. ومن السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم القيامة: **(رجل قلبه معلق بالمساجد)** [رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)]؛ أي: مشتاق إلى الصلاة وطول المكث في المساجد.

٢ – التهيُّؤ لأدائها بتحقيق شروطها من: طهارة البدن بالوضوء، وتنظيف الفم بالسواك، وطهارة اللباس ومكان الصلاة من النجاسات، وستر العورة، وأخذ الزينة؛ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]، وفي أعراف البشر يتزين المرء قبل الدخول على العظماء من أهل الدنيا، والله ﷻ أولى وأحق بهذا التزين والتهيؤ قبل الصلاة؛ فالصلاة صلة بين العبد وربه.

٣ – التبكير لها، وصلاتها مع الجماعة في المسجد، والمحافظة على سننها الراتبة.

٤ – إقامتها بأركانها وواجباتها وسننها؛ ويلاحظ أن الأمر لم يرد في القرآن بالصلاة بل بإقامة الصلاة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣، ٨٣، ١١٠]، وغير ذلك من الآيات كثير.

٥ – المحافظة على الخشوع والطمأنينة فيها؛ قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ

﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]، وتدبر أذكارها وما يتلى فيها من القرآن.

* * *

٣١٩ - مفهوم ٣: الصلاة صلة بين العبد وربه:

ينبغي أن تكون صلاة العبد صلة بينه وبين ربه سبحانه؛ تستشعرها روحه، ويستمد القلب منها القوة والطمأنينة، وتجد النفس فيها زادًا معينًا في الطريق إلى الله؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى [رواه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣٢١)]، وكان يقول لبلال رضي الله عنه: **(أرحنا بها يا بلال)** [رواه أبو داود (٤٩٨٧)، وصحَّحه الألباني في المشكاة (١٢٥٣)].

* * *

٣٢٠ - مفهوم ٤: الصلاة قرينة الصبر:

الصلاة قرينة الصبر في الإعانة على الأقدار المؤلمة، وفي الثبات على أمر الله، وفي الصبر عن المعاصي؛ قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، لكن هذا لا يتحقق إلا للخاشعين فيها كما ذكرت الآية، وقد قال الله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

* * *

٣٢١ - مفهوم ٥: الخشوع في الصلاة:

حتى يتحقق الخشوع في الصلاة ينبغي للمرء إذا أقدم عليها أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره عنها؛ فلا يصلي وهو يدافع الأخبثين، ولا وهو يشتهي الطعام، ولا وهو نعسان؛ وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]؛ فجعل الحكمة من منع الصلاة مع السكر أن السكران لا يعرف ما يقول أو يفعل، وهذا يتحقق أيضًا حال النعاس؛ لذا يمنع المرء من الصلاة وهو نعسان؛ قال ﷺ: **(إذا نعس الرجل وهو يصلي فلينصرف؛ لعله يكون يدعو في صلاته فيدعو على نفسه وهو لا يدري)** [أخرجه ابن حبان (٢٥٨٤)، وقال محققه: صحيح على شرط مسلم].

٣٢٢ - مفهوم ٦: دليل على وجوب صلاة الجماعة يخفى على كثير من الناس:

أدلة وجوب صلاة الجماعة كثيرة معلومة، ولكن من الأدلة القوية عليها مع خفائه على كثير من الناس: **صفة صلاة الخوف**؛ حيث وردت صلاة الخوف جماعة وعلى صفات وهيئات فيها إخلال بواجبات في الصلاة المعتادة من: نقص عدد الركعات، والحركة الكثيرة فيها، ...إلخ، والقاعدة أنه إذا تعارض واجب ومستحب قُدِّم الواجب على المستحب، فلو كانت صلاة الجماعة مستحبة لقُدِّمت عليها الصلاة فرادى مع الحفاظ على واجبات الصلاة، فلما تُرِكتْ هذه الواجبات لأجل صلاة الخوف في جماعة دلَّ ذلك على أن صلاة الجماعة واجبة، بل أوجب من الحفاظ على بعض واجبات الصلاة.

* * *

ثالثًا: مفاهيم حول الزكاة والإنفاق في سبيل الله:

٣٢٣ - مفهوم ١: توافق معنى الزكاة الشرعي مع المعاني اللغوية:

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي في اللغة تشمل معانٍ عدة منها: النماء والزيادة، والطهارة، والصلاح، والزكاة في الشرع هي: القدر الواجب إخراجه لمستحقيه في المال الذي بلغ النصاب المقدر شرعًا.

وإطلاق لفظ الزكاة على المال الواجب إخراجه شرعًا يتوافق مع المعاني اللغوية له:

- فالزكاة المفروضة شرعًا تُنمِّي المال وتزيده بما تطرح فيه من بركة وخير بسبب الامتثال لأمر الله الشرعي؛ قال ﷺ: **(ما نقصت صدقة من مال)** [رواه مسلم (٢٥٨٨)].
- والزكاة تطهر المال وصاحبه من شوائب الحرام في المعاملات المالية؛ قال تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].
- والزكاة تحقق صلاح المرء؛ لأن من يؤديها يتزكى إلى الله؛ أي: يتقرب إلى الله بالعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]؛ أي: قرَّب نفسه إلى الله بالعمل الصالح.

* * *

٣٢٤ - مفهوم ٢: نظرة الإسلام للمال:

المال في الإسلام مال الله؛ أعطاه رزقًا لبعض عباده، وقدَره على بعضهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:٣٠].

فليس لمن بسط الله له الرزق الحرية المطلقة فيما آتاه الله من مال، بل عليه واجبات فيه بموجب كونه مستخلفًا فيه وليس مالكًا حقيقيًا له؛ قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣].

والله صاحب المال قد فرض قدرًا منه لفئات من عباده؛ يؤديه إليهم من وضع الله يده عليه؛ ولذا سمَّاه حقًا لهم كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء:٢٦]، وختم الله آية مصارف الزكاة بقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

فالنظرية الاقتصادية في الإسلام تقوم على أنه ما دام المال مال الله فهو خاضع إذًا لكل ما يقرره الله بشأنه بوصفه المالك الأول له؛ سواء في طريقة كسبه وتملكه، أو في طريقة تنميته، أو في طريقة إنفاقه، وليس واضع اليد على المال حُرًّا في أن يفعل به ما يشاء كما تزعم الرأسمالية الفاجرة المتوحشة.

* * *

٣٢٥ - مفهوم ٣: التوازن والتوسط في الإنفاق:

من المفاهيم الهامة للإسلام تجاه الإنفاق: التوازن والتوسط فيه، ولئن كان التوازن والتوسط سمة الإسلام في شأن المسلم كله، إلا أنه قد أولى مسألة الإنفاق عناية خاصة في هذا الصدد، وتعددت الآيات الدالة عليه والمحذرة من الإخلال به؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وقال تعالى مادحًا عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

وما كانت هذه العناية بالتوسط في الإنفاق إلا لأن الإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به في الدنيا والآخرة، ومنع

لانتفاع الجماعة مِن حوله بالمال. فالمال أداة لتحقيق خدمات اجتماعية، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالًا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وذلك فوق ما يحدثه كل منهما من فساد القلوب والأخلاق.

❁ ❁ ❁

٣٢٦ - مفهوم ٤: صدقة التطوع:

لم يكتف الإسلام في مجال الإنفاق في سبيل الله بالزكاة المفروضة، بل شرع صدقة التطوع وحثَّ عليها حثًّا شديدًا؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١٨]، وقال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد:٧]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]، فالزكاة صدقة مفروضة من الله، وإنفاق التطوع مطلق، والبر يشملهما جميعًا؛ لذا فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ [البقرة:١٧٧]، فذكر أولًا إنفاق التطوع، ثم عطف عليه إيتاء الزكاة، فلا يُسقط إنفاق التطوع الزكاة المفروضة، ولا تُغني الزكاة المفروضة المجتمع عن إنفاق التطوع، ولا بد للحياة أن تشملهما.

❁ ❁ ❁

٣٢٧ - مفهوم ٥: من ثمار صدقة التطوع:

لصدقة التطوع ثمار جليلة للمنفق نفسه، ولمن ينفق عليه:

١ - فهي للمنفق في سبيل الله انعتاق لروحه من حب المال فلا يصير عبدًا له، ومن تحرَّر من عبودية المال تحرَّر من عبودية ما سواه؛ فلا يكون عبدًا لشهوة ولا لأحد غير الله، ويصير من الأحرار الذين يستحقون ريادة المجتمع. كما أن فيها بركة ونماء لماله.

٢ - وثمارها لمن يُنفَق عليهم عديدة ومتنوعة:

- فهي لذوي القربى صلة تُحقِّق مروءة النفس، وكرامة الأسرة، ووشائج القربى.

- وهي لليتامى تكافل وحماية لهم من التشرد صغارًا، والتعرض للفساد، والنقمة على المجتمع الذي لم يقدم لهم برًّا ولا رعاية.
- وهي للمساكين صيانة من البوار، وإشعار بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة.
- وهي لابن السبيل واجب للنجدة في ساعة العسرة وانقطاع الطريق دون الأهل والديار، وإشعار له بأن الجماعة المسلمة كلها أهل، وبأن الأرض كلها وطن.
- وهي للسائلين إسعاف لعوزهم، وكف لهم عن المسألة التي يكرهها الإسلام.

* * *

٣٢٨ - مفهوم ٦: تحرِّي الدقة في إخراج الصدقة:

ينبغي لمن تطوع بالصدقة أن يبتغي بها وجه الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٢]؛ ولذا وجب عليه أن يتحرَّى الدقة في إخراجها لمستحقيها، وقد أرشدت الآية الآتية لمن هم أحق وأولى بالصدقة؛ قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٧٣]؛ فهم فقراء، وقد منعهم حصر أنفسهم على العمل في سبيل الله من جهاد ودعوة وغيرهما من السعي في الأرض لابتغاء الرزق، وهم مع ذلك يُخفون فقرهم بحيث لا يدركه من جهل حقيقة أمرهم، لكن صاحب الفطنة والفراسة يعرفهم من علامات الجهد والعوز التي تبدو عليهم رغمًا عنهم، وهم مع ذلك لا يُلِحُّون على الناس في المسألة: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾؛ فهؤلاء هم أولى وأحق من يُعطَون الصدقة، وقد قال ﷺ: (**ليس المسكين الذي ترده التمرة ولا التمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفَّف، واقرؤوا إن شئتم، يعني قوله تعالى:** ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾) [أخرجه البخاري (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩)].

* * *

٣٢٩ – مفهوم ٧: كيف يُبتغى بالنفقة وجه الله؟

إنما يتم ابتغاء وجه الله بالنفقة بما يأتي:

١ – الإنفاق من الطيب الحلال لا الخبيث الذي يعافه المرء؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧].

٢ – وأعلى من ذلك وأرقى: أن تكون النفقة مما يحبه المرء ويعز عليه، وبذلك يتحقق البر؛ قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

٣ – أن يحافظ على نفقته من الإبطال والحبوط بسبب المن والأذى والرياء؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢]، ثم أكَّد الله ﷻ ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤]. وما أحسن قول القائل: دع عطاءك يرحل دون أن يُؤذي فيَحْبَط.

* * *

رابعًا: مفاهيم حول الصيام والاعتكاف والحج:

٣٣٠ – مفهوم ١: غاية الصيام الكبرى:

غاية الصيام الكبرى هي تحقيق التقوى؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]؛ فبالصيام تحيا التقوى في القلوب، فتحجز المرء عن المعصية، وتقيه من عذاب الله وغضبه.

* * *

٣٣١ – مفهوم ٢: من لوازم الصيام:

التقوى التي يحققها الصوم توجب على المرء حسن الخلق، والبعد عن قول الزور والجهل على الناس، وإلا لا يكون الصيام قد أثمر الثمرة المرجوة منه؛ قال النبي ﷺ: (**إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل إني**

امرؤ صائم...) [أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)].

* * *

٣٣٢ - مفهوم ٣: من ثمرات الاعتكاف والحج ومقاصدهما:

الاعتكاف هو المكث في المسجد بنية التقرب إلى الله ﷻ، وهو يعين على مجاهدة النفس وإنشاء هم الآخرة عِوضًا عن الانشغال بالدنيا وهمومها، ومن أجَلِّ ما يثمره:

١ - التفرغ لمحاسبة النفس، فيصدق المعتكف حينها في توبته إلى الله، وتطمئن نفسه وتسكن.

٢ - فراغ قلب المعتكف من شواغل الدنيا ومشاكلها، وامتلاؤه بذكر الله ﷻ.

٣ - الأنس بكلام الله وكثرة تلاوة كتابه الكريم، وما يثمره تدبره من هدايات.

٤ - الانقطاع عن الناس وكلامهم، وسلامة لسانه عند ذلك من آفات: الغيبة، والنميمة، والسب، والسخرية، ...إلخ.

٥ - الانتقال من حياة الترف وسط الأهل إلى حياة اعتزال مؤقت، ومسكنة في اللباس والفراش والمأكل؛ مما يُبَصِّره بحقيقة قدر الدنيا، ويثمر نشاطه واجتهاده في العبادة.

٦ - تربية النفس على الصبر والمصابرة، وترويضها على أداء النوافل التي يفرط في كثير منها حال الانشغال بالحياة الدنيا خارج المعتكف؛ مثل أداء السنن الرواتب، والتبكير إلى الصلاة، وإدراك الصف الأول.، ...إلخ.

أمَّا **الحج** فهو الركن الخامس من أركان الإسلام لمن استطاع إليه سبيلًا، والذي يعنينا هنا هو بيان مقاصده وثمراته لا صفته وتفصيل أحكامه؛ فالمقصد الأساس من الحج هو: **تحقيق العبودية لله تعالى** استجابة لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومن مقاصده وثمراته أيضًا: **تحقيق العديد من أعمال القلوب** من: **محبة الله ﷻ وتعظيمه** كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، **ورجاؤه والخوف منه** حيث يمحِّض الحاج رجاءه لله وحده ويدعوه بكل ما يرجوه منه، ويخاف إن لم يحج أن يقع تحت طائلة تتمة آية آل عمران السابقة: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، **والتوكل عليه**؛ ففي الحج مواقف تبرز فيها عبودية التسليم والتوكل على الله ﷻ، **والإنابة والتوبة إليه**؛ قال ﷺ: (**من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه**) [رواه البخاري (١٨٢٠)، ومسلم (١٣٥٠)]، ومن مقاصده أيضًا إقامة ذكر الله.

خامسًا: مفاهيم حول الذكر:

٣٣٣ – مفهوم ١: انفعال القلب حال الذكر:

ذكر الله ليس لفظًا باللسان فحسب، إنما هو انفعال القلب معه، أو حتى بدونه؛ انفعالًا يثمر الشعور بوجود الله الذي يوجب طاعته في حدِّه الأدنى، ويرتقي أكثر فأكثر ليوجب إجلال الله تعالى، مع كمال حبه ﷻ، وكمال الذل والخضوع له سبحانه.

* * *

٣٣٤ – مفهوم ٢: الإكثار من الذكر:

لما كان الذكر بهذه المكانة الجليلة لم تقتصر آيات القرآن على الأمر به فحسب، بل جاءت بالأمر بالإكثار منه؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]، ولَمَّا ذكر الله الذاكرين له ضمن عباده الذين لهم مغفرة وأجر عظيم قال: ﴿...وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب:٣٥]. وقال ﷺ: (سبق المُفَرِّدون). قالوا: وما المُفَرِّدون يا رسول الله؟! قال: (الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات) [أخرجه مسلم (٢٦٧٦)].

* * *

٣٣٥ – مفهوم ٣: الحرص على أذكار الصباح والمساء:

من آكد ما يحقق اتصاف المرء بالإكثار من ذكر الله تعالى: المحافظة على أذكار الصباح والمساء، كما أن في المحافظة عليها حفظ للعبد بالليل والنهار. ويدل على أهميتها وعظيم قدرها تكرار الأمر بها والإشارة إليها في مواطن عديدة من كتاب الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، ومثل ذلك أيضًا في: [الرعد:١٥]، و[الكهف:٢٨]، و[طه:١٣٠]، و[النور:٣٦]، و[ص:١٨]، و[غافر:٥٥]، و[ق:٣٩]، والذكر في هذه الآيات يصدق على صلاتي الفجر والعصر، كما يدخل فيه أيضًا أذكار الصباح والمساء.

مفاهيم في

العلم والفقه

مفاهيم في العلم والفقه

أولا: مفاهيم حول مصادر التلقي والاستدلال:

١) تعظيم نصوص الكتاب والسنة:

٣٣٦ - مفهوم ١: أول منازل الرسوخ في العلم:

أول منازل الرسوخ في العلم هو الانقياد المطلق للوحى والتسليم له؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

* * *

٣٣٧ - مفهوم ٢: الاعتراض على السنة المحكمة تقديم بين يدي الله ورسوله:

الاعتراض على السنة المحكمة بعقل، أو رأي، أو ذوق، أو سياسة داخل في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات:١].

* * *

٣٣٨ - مفهوم ٣: كل كلام يؤخذ منه ويرد إلا كلام الله ورسوله:

ليس في كلام الله ورسوله خيار إلا القبول والتسليم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾[الأحزاب:٣٦]؛ سمَّى الاعتراض على قضائهما وحكمهما ضلالًا مبينًا.

* * *

٣٣٩ - مفهوم ٤: في الاستهانة بنصوص الوحيين عدم تعظيم لله تعالى:

من استهان بنصوص الوحيين وتجرَّأ على ردهما بهواه وتأويلاته الفاسدة فهو لم يعظم الله تعالى؛ لأن تعظيم قول القائل والتسليم له هو من تعظيم قائله والمتكلم به، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٨٧]، ويقول: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنعام:١١٥]، فكلام الله كله صدقٌ في الأخبار وعدلٌ في الأحكام أمرًا كانت أو نهيًا.

٣٤٠ – مفهوم ٥: أول مقاصد التشريع وآكدها:

حفظ الدين هو أول مقاصد التشريع وآكدها، وذلك يستلزم إجلال نصوصه بتصديق ما كان منها خبرًا، وتنفيذ ما كان أمرًا أو نهيًا.

❊ ❊ ❊

٣٤١ – مفهوم ٦: ما يقتضيه تعظيم نصوص الوحي:

تعظيم نصوص الوحي والتسليم لها يقتضي: مخالفة الهوى، ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء، وامتثال الأمر والنهي، واجتناب التقدم بين يدي الله ورسوله، واحتمال المشاق في التكليف، وإيثار مرضاة الله والدار الآخرة، والبعد عن مساخطه، ونحو ذلك من المعاني التي تحقق العبودية المطلقة لله تعالى.

❊ ❊ ❊

٣٤٢ – مفهوم ٧: الإعراض عن نصوص الوحيين سمة المنافقين:

فقد قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[النور:٤٨]. وقبول نصوص الوحيين والسمع والطاعة لهما سمة المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

❊ ❊ ❊

٣٤٣ – مفهوم ٨: مظاهر تعظيم نصوص الكتاب والسنة:

تعظيم نصوص الكتاب والسنة له مظاهر عدة ينبغي التمسك بها، فمن ذلك:

١– حفظ نصوصهما في الصدور والسطور؛ فقد حفظ المسلمون كتاب الله في صدورهم بالقراءات المتواترة، وما زالت الإجازات تمنح في هذا المجال. كما حفظ كثير من العلماء أحاديث الرسول ﷺ بأسانيدها المتصلة إليه.

أما حفظ السطور فقد بدأ بجمع كتاب الله في عهد أبي بكر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، ويتمثل حاليًا في العناية بطباعة كتاب الله مع الضبط التام للحركات والرسم العثماني. وكذلك بالنسبة للسنة؛ فقد تم تدوينها منذ عهد عمر بن عبد العزيز وتعدَّدتْ

التصانيف فيها بين مسانيد، وجوامع، وسنن، ومعاجم.

٢ - تعظيم النص الشرعي بقبوله والانقياد له، والفرح به، والعمل به كما بيَّنا في المفاهيم السابقة.

٣ - تعظيم النص الشرعي بنصرته والذب عنه والإنكار على من خالفه؛ وذلك بالرد على شبه الخصوم المناوئين للنصوص الشرعية المعترضين عليها، وتفنيد مزاعمهم، وفضح مخططاتهم، وكذلك التصدي لمن يُؤولون النص ويحرفونه ليوافق معتقدهم، أو من يقدمون الرأي والقياس على النص، أو يقدمون الذوق والوجد عليه، وأخيرًا التصدِّي لأرباب السياسات الجائرة الذين يقدمون سياساتهم على النص.

٤ - خدمة النص الشرعي بما يحقق فهمه وتدبره. والتراث الإسلامي حافل بذلك؛ حيث امتلأت المكتبة الإسلامية بتفاسير القرآن وأسباب النزول وفروع علوم القرآن، كما امتلأت بشروح كتب السنة وعلوم السنة المختلفة.

٥ - ومن أهم مظاهر تعظيم النص الشرعي: الحكم به بين الناس والتحاكم إليه، ورفض كل ما يعارضه.

* * *

٢) مفاهيم في السمع [النقل] والعقل:

٣٤٤ - مفهوم ١: المقصود بالسمع:

المقصود به: سمع نصوص الوحيين سمعًا يُفهم معانيها؛ فقول الله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] أي: يسمع كلام الله سمعًا يتمكن معه من فهم معناه؛ فلو كان أعجميًا يُترجم له، ولو استشكلت عليه لفظة أو جملة -حتى ولو كان عربيًا- تُشرح له.

* * *

٣٤٥ - مفهوم ٢: من فهم ما سمعه ولم يفد منه:

من فهم ولكن لم يفده السمع ولا العقل فكأنه لم يسمع ولم يعقل؛ قال أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ومردُّ ذلك النفي إلى فساد سمعهم وفساد عقلهم.

٣٤٦ - مفهوم ٣: المبتدعة أصحاب فساد في سمعهم وعقلهم:

- فمن فساد سمعهم: التلقِّي عن الدجالين والمشعوذين، أو الفلاسفة والملاحدة، أو الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة الواهية.

- ومن فساد عقلهم: تحريف معاني النصوص الصحيحة والتأويل الباطل لها، وضرب نصوص الوحي بعضها ببعض لنصرة باطلهم؛ ولذلك تراهم يعملون ببعض نصوص الوحي ويعطلون بعضها فلا يؤمنون بالكتاب كله كما هو شأن أهل السنة والاتباع الذين يعملون بالنصوص كلها فيردون المتشابه إلى المحكم ولا يعطلون الكليات بالجزئيات.

❊ ❊ ❊

٣٤٧ - مفهوم ٤: سماع أهل السنة والجماعة وعقلهم:

أهل السنة والجماعة هم أصحاب السمع الصحيح والعقل السديد:

- فهم يتلقون عن القرآن والسنة الصحيحة.

- ويستعملون قوة العقل وملكة الفهم لفهم النصوص والتمييز بين الحق والباطل.

❊ ❊ ❊

٣٤٨ - مفهوم ٥: السمعيات:

يطلق المتكلمون لفظ **السمعيات** في باب العقيدة على ما يثبته السمع -أي النقل- مما لا دخل للعقل فيه؛ أي العقائد الغيبية؛ كالجنة والنار، والميزان والصراط، وعذاب القبر...إلخ، وربما يحسب المرء أنهم يوافقون أهل السنة والجماعة بهذا التقرير؛ ولكن يُكَدِّر ذلك أنهم يضعون عبارة ويجعلونها شرطًا في كل مسألة من مسائل السمعيات، وهي قولهم: «إن العقل لا يحكم باستحالتها»، ليؤكدوا بذلك على أن المرجعية في العقائد عندهم إلى العقل، وأنه الحاكم على النصوص، لا أن النص بذاته هو الحجة في المسألة.

ولذلك لما أدخلوا صفات الله تعالى في **العقليات** -وهي عندهم ما يستقل العقل بإدراكها- ثم حكَّموا عقولهم القاصرة في النصوص المثبتة لصفات الله تعالى والمخالفة لرأيهم، ردُّوا النص إن كان حديثًا -حتى لو كان صحيحًا بحجة أنه حديث آحاد- أو أولوه أو فوضوا فيه إن كان آية.

❊ ❊ ❊

٣٤٩ – مفهوم ٦: العقل لا يستقل بإدراك أصل عقدي:

يمتنع عند أهل السنة والجماعة أن يكون هنالك أصل من أصول العقائد يستقل العقل بإدراكه وإثباته –وهذا من أبرز الفوارق المنهجية بينهم وبين الأشاعرة– ولذلك لم يحتاجوا إلى تقسيم العقائد إلى: **سمعيات**، و**عقليات**.

❊ ❊ ❊

٣٥٠ – مفهوم ٧: دور العقل مع النص:

دور العقل مع النص الشرعي الصحيح ومجاله هو: الاجتهاد في فهم النصوص وكيفية العمل بها، لا في قبولها أو ردها؛ فالوحي هو المنهج المستقيم، والعقل هو الآلة لفهم هذا المنهج، وما كان للآلة أن تتعارض مع المنهج، ولا أن تعترض عليه. وفي ادِّعاء التعارض بينهما اتهام لمن أنزل الوحي وخلق الآلة، وذلك تمرُّد على الربوبية وإنكار للعبودية.

❊ ❊ ❊

٣٥١ – مفهوم ٨: وسطية أهل السنة في دور العقل:

مفهوم أهل السنة والجماعة للعقل ودوره وسط بين من غالوا فيه فقدموه على النص؛ ومن فرطوا فيه وأهملوا دوره في فهم النصوص واستنباط أحكامها وحِكَمها، وأسلموا أنفسهم للخرفات والشعوذة والأوهام.

❊ ❊ ❊

٣٥٢ – مفهوم ٩: مجالات العقل المقبولة في فهم النص:

مجالات العقل المقبولة في فهم النص والتعامل معه عديدة؛ منها:

أ – فهم النص ابتداء ومعرفة معناه ودلالاته.

ب – معرفة ما أمكن من العلل والمصالح والحِكَم والمقاصد التي جاءت بها النصوص.

ج – معرفة سياق النص وسبب نزوله أو وروده، والظروف التي تحيط به.

د – دفع ما يظهر أنه تعارض بين النصوص.

هـ – تنزيل النص على الواقع بتحقيق المناط.

و – النظر في مآلات الأحكام.

ز - إعمال قاعدتي: سد الذرائع، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ح - معرفة كون الحكم الشرعي قطعيًّا أو ظنيًّا، متفقًا عليه أو مختلفًا في دلالاته.

* * *

٣٥٣ - مفهوم ١٠: مجالات تسليم العقل للنصوص والأحكام:

تتمثل المجالات التي لا دور للعقل فيها إلا التسليم والإذعان في:

أ - التسليم للمغيبات؛ وذلك من أهم صفات المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ...﴾ [البقرة:٢،٣].

ب - التسليم للأحكام الشرعية من آوامر ونواهي، وقبولها والإذعان لها، سواء أدرك حكمة تشريعها أم لم يدرك ذلك.

ج - التسليم للأحكام الكونية القدرية، واليقين بأن لله الحكمة البالغة فيما يُقَدِّره؛ وهذا لا يعني عدم مدافعة الأقدار بالأسباب المشروعة -والتي تعد هي ذاتها من القدر- بل يدفع قدر الله بقدره، وما لم يمكن دفعه يجب التسليم لله فيه.

* * *

٣٥٤ - مفهوم ١١: منع رد العقل للنص الشرعي:

متى ثبت النص الشرعي وفهم معناه امتنع على العقل ردُّه وإبطاله، ووجب عليه قبوله وتنفيذه؛ سواء كان هذا المعنى والمدلول مألوفًا للعقل أو غريبًا عليه.

* * *

٣٥٥ - مفهوم ١٢: مقررات النصوص الشرعية في كافة المجالات:

المقررات التي تثبتها النصوص الشرعية ويجب على العقل قبولها تكون في المجالات كافة؛ سواء كان ذلك في الحقائق الكونية، أو العقائد والتصورات، أو مناهج الحكم والتشريع، أو الأخلاق والآداب... إلخ.

* * *

٣٥٦ - مفهوم ١٣: محالات العقول ومحارات العقول:

يجب أن يُفرَّق بين ما يعلم العقل بطلانه وامتناعه، وما يعجز العقل عن تصوره وإدراكه:

- فالأول هو من محالات العقل؛ أي مما تحيل العقول وقوعه.
- والثاني هو من محارات العقول؛ أي مما تحار العقول في إدراكه.

فالوحي والرسل قد يخبرون عن أمور غيبية تحار العقول في إدراكها؛ كأمور اليوم الآخر، والجنة والنار، وعذاب القبر... إلخ.

أما ما يحيل العقل وقوعه فلا يقول به إلا الكذَّابون الدجَّالون، وأهل العقول الفاسدة.

❋ ❋ ❋

٣٥٧ - مفهوم ١٤: مردُّ معارضة العقل المزعومة لبعض نصوص الشرع أحد أمرين:

- إما فساد في العقل؛ كالفهم الخاطئ للمراد من النص مثلًا.
- أو عدم ثبوت النص وصحته.

أما المقرر بالاستقراء والتقصي فهو أن العقل الصريح لا يمكن أبدًا أن يتعارض مع النقل الصحيح.

❋ ❋ ❋

٣٥٨ - مفهوم ١٥: معارضة العقل للنص مردها إلى الاستخدام المنكوس له:

الذين يزعمون معارضة بعض نصوص الوحي بالعقل لا يعارضونها بالعقل حقيقة، وإنما يعارضون باستخدامهم المنكوس لعقولهم القاصرة والفاسدة؛ فمن ذلك: تكوين مقررات وثوابت بناء على مقولات للمناطقة، أو ملاحظات للمرء محدودة قاصرة، أو تجارب له ناقصة، ثم يحاكم بها مقررات الدين وثوابته؛ بينما المنهج الصحيح هو تلقِّي النصوص الصحيحة وفهمها فهمًا صحيحًا ليكوِّن منها المقررات والثوابت.

❋ ❋ ❋

٣) الإجماع:

٣٥٩ - مفهوم ١: الإجماع وحجيته:

الإجماع حجة شرعية؛ وهو إجماع علماء المسلمين في أي عصر بعد وفاة النبي ﷺ على أمر من أمور الدين، وأصله وآكده: إجماع الصحابة رضوان الله عليهم. وأكثر القضايا عند المسلمين إجماعية، ولكن المشتهر هو الخلاف.

* * *

٣٦٠ - مفهوم ٢: فائدة الاستدلال بالإجماع مع وجود النص:

كثيرًا ما تَرِد في كتب الفقه عبارة: «وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع»؛ فربما تساءل البعض: ما فائدة ذكر الإجماع مع وجود النص من كتاب أو سنة؟!

والجواب: أن دلالة الكتاب والسنة على مسألة ما قد تكون ظنية غير قطعية، فالإجماع يقطع الظن ويحول الدلالة إلى قطعية، فيمتنع الخلاف عندها.

* * *

٤) أفعال الرسول ﷺ:

٣٦١ - مفهوم ١: حجية أفعال الرسول ﷺ:

استدل الأصوليون بقول الله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١] على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل أنه أسوة لأمته في الأحكام إلا ما دل الدليل الشرعي على الاختصاص به.

* * *

٥) القياس:

٣٦٢ - مفهوم ١: معنى القياس الشرعي:

القياس هو إلحاق فرع بأصل في الحكم لعلة جامعة بينهما، وهو حجة ومصدر للتشريع فيما لا نص فيه، وينفيه الظاهرية، ومثاله: تحريم الاستئجار أو الرهن أو النكاح وقت صلاة الجمعة قياسًا على البيع؛ للعلة الجامعة بينهما وهى: تعويق السعي لصلاة الجمعة واحتمال تفويتها؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]. وكل قياس تعارض مع النص فهو قياس فاسد.

٦) الإلهامات والكشوف والرؤى لا تُبنى عليها أحكام:

٣٦٣ – مفهوم ١: الإلهام ليس دليلًا شرعيًّا:

ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف والرؤى المنامية –التي يكثر ذكرها عند الصوفية– لا تدل بمجردها على أنها حق، ولا تُصدَّق حتى تُعرض على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإن شهدا لها بالقبول قُبِلت، وإن ناقضتها رُدَّت، وإن لم يُعلم شي من الموافقة أو الرد تُوقف فيها، ولم تُصدَّق ولم تُكذَّب؛ فإن الوحي والإلهام كما يكون من الرحمن فقد يكون من الشيطان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام:١١٢].

* * *

٧) مفاهيم في الأكثرية:

٣٦٤ – مفهوم ١: الحق لا يعرف بكثرة السالكين:

لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا تدل قلة السالكين لأمر من الأمور على أنه غير حق، بل الآيات تدل على عكس ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وإنما يعرف الحق ويستدل عليه بالطرق الموصلة إليه من الوحي والفطرة والعقل، والحق لا يعرف بالرجال بل الرجال يعرفون بالحق، والجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك.

* * *

٣٦٥ – مفهوم ٢: كثرة اهتداء الأتباع أو قلتهم بيد الله وحده:

كثرة الأتباع أو قلتهم لا تحق الحق أو تبطل الباطل؛ فاهتداء الأتباع بيد الله؛ دين نوح هو دين محمد ﷺ نفسه، وقد دعا نوح قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا فـ﴿مَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾[هود:٤٠]، ودعا محمد ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة فتبعته أمة عظيمة.

* * *

٣٦٦ – مفهوم ٣: رأي الأكثرية لا يعتبر إلا فيما لا يخالف صريح الحق:

لا يصح التصويت على ما يخالف الشرع والحق؛ فالأكثرية معتبرة فقط فيما لا يخالف صريح الحق، أما إذا كانت ضد الحق فتصير حينئذ صفرًا. ولو كان رأى الأكثرية مُقدمًا وحقًّا لكان قوم لوط أولى من لوط، وفرعون أولى من موسى.

* * *

٨) الظاهرية:

٣٦٧ – مفهوم ١: المقصود بالظاهرية:

مدرسة في الفقه يتبعون داود الأصفهاني، وأبا محمد بن حزم الأندلسي، يتمسكون بظاهر النصوص ويتوسعون في استصحاب الأصل، وينفون القياس، ولذا يقال لهم أيضا: **نفاة القياس**. وهم يتكلفون في إثبات كثير من أحكام الشرع بالنص.

* * *

ثانيًا: مفاهيم حول العلم الشرعي وعلوم الدنيا:

٣٦٨ – مفهوم ١: الغرض من تقسيم العلوم إلى شرعية ودنيوية:

يمكن تقسيم العلم اصطلاحًا فقط إلى علم شرعي، وعلوم دنيوية.

- **فالعلم الشرعي** هو العلم بما أنزل الله على رسول الله ﷺ من كتاب، وما صدر عن الرسول ﷺ من أقوال وأفعال وإقرارات مما يظهر البينات ويحقق التوحيد والهدى والفرقان بين الحق والباطل، كما يحقق للناس مصالحهم في الدنيا والآخرة، ويقيم الحجة على الناس. ويندرج تحت العلم الشرعي ما يطلق عليه العلوم الخادمة أو علوم الآلة؛ كعلم اللغة، وعلم الأصول، ومصطلح الحديث، وكل ما يخدم علمي الكتاب والسنة ويوضح دلالاتهما.
- **والعلوم الدنيوية** تشمل كل ما يفيد الناس في حياتهم الدنيا، ويساهم في التطور والرفاهية؛ كعلوم الطب والهندسة والفيزياء...إلخ.

* * *

٣٦٩ – مفهوم ٢: العلم كله هبة من الله:

العلم كله هبة من الله فاللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره ويحمد الله عليه، وأن يبذله فيما يرضي الله، فإذا ارتبطت علوم الدنيا بالتقوى والإيمان فهي تندرج حينئذ تحت العلم المحمود الذي يثنى الله عليه وعلى أهله؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر:٢٧، ٢٨]، فذكر أمورًا من علوم الدنيا، ثم أثنى بعدها على من يعلمها ويفيد منها في خشيته لله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨].

أما العلم الذي يبعد القلب عن ربه فهو علم فاسد زائغ عن مصدره وهدفه، ولا يثمر سعادة حقة لصاحبه ولا للناس، بل ينتج عنه الدمار والشقاء للبشرية جمعاء، وما آثار القنابل الذرية والهيدروجينية وأسلحة الدمار الشامل عنا ببعيد.

❋ ❋ ❋

٣٧٠ - مفهوم ٣: تقديم أغلب الناس علوم الدنيا على الآخرة:

لما عظَّم الناس الدنيا وآثروها على الآخرة قدَّموا علوم الدنيا التي تحفظ أبدانهم ومعاشهم على علم الشرع الذي يحفظ للناس آخرتهم ودنياهم ويداوي قلوبهم؛ مع أن علوم الدنيا تتقاضى منهم أجورًا، وعلم الشرع يأتيهم مجانًا؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر:٨٣].

❋ ❋ ❋

٣٧١ - مفهوم ٤: عجز العلم عن إدراك أمور الغيب:

ينبغي أن يُسلِّم العلم والعلماء بالعجز عن إدراك الأمور الغيبية عنهم، وليس ذلك فيما يتعلق بالآخرة والجنة والنار فحسب، بل في كل ما يُعدُّ غيبًا عنهم حتى في واقعهم ومعاشهم؛ كالروح مثلا؛ قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الاسراء:٨٥]. وعلى العلماء أن يدركوا أن ما عندهم من العلم لا يساوي في جانب علم الله إلا كما يأخذه العصفور بمنقاره من البحر.

❋ ❋ ❋

٣٧٢ - مفهوم ٥: عَجْزُ العلم عن إدراك بعض الأمور لا يقتضي ردَّها:

عَجْزُ العلم عن إدراك بعض الأمور لا يقتضي ردَّها ورفضها بإطلاق، كما لا يعني قبولها بإطلاق والتسليم بكل خرافة والجري وراء كل أسطورة. وإنما ينبغي للعلم وأهله إزاء ذلك التوسط والتوقف في الأمر حتى يتمكن بوسائله المتاحة من إدراك ما قد يعجز عن فهمه، أو يُسلِّم بأن في الأمر شيئًا فوق قدرته وحدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه، ومن الأمثلة التي توضح ذلك:

- قد يرى المرء رؤيا في منامه فتقع مستقبلاً كما رآها؛ فالعلم الدنيوي يعجز عن تفسير مثل ذلك، وقد شهد الشرع لصحة وقوعه؛ قال ﷺ: **(إذا إقترب الزمن لم تكد تكذب رؤيا المؤمن، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة)** [رواه البخاري (٧٠١٧)].

- ما يعرف بظاهرة «**التخاطر**»: حيث تتوارد الخواطر بين اثنين مع بعدهما عن بعضهما البعض؛ مثال ذلك ما وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والصحابي سارية بن زنيم الدؤلي رضي الله عنه حيث كان عمر رضي الله عنه يخطب الجمعة على المنبر في المدينة المنورة، وفي الوقت ذاته يقاتل سارية الفرس في نهاوند، فورد في خاطر عمر أن سارية محاصر من الفرس ويكاد جيشه ينكسر، فنادى عمر بأعلى صوته: «يا ساريةُ! الجبلَ الجبلَ»؛ أى تحصَّن بالجبل، وكان بجوار سارية وجيشه جبلٌ، فسمع سارية صوتًا ينادي بمثل ما قاله عمر، فتحصَّن بالجبل وواجه الفرس، فما لبث إلا ساعة ثم فتح الله عليه. [ينظر القصة بتفاصيلها في تاريخ دمشق (٢٠/ ٢٥)، والبداية والنهاية (٧/ ١٣٠)]؛ فمثل هذا يعجز العلم أيضًا عن تفسيره، ويُعدُّ من كرامات الأولياء، وهو مما يجريه الله على يد بعض أوليائه من خوارق العادات تثبيتًا لهم على الحق ونصرة له. وشرط صحة الكرامة أن تكون من وليٍّ لله تعالى، وكل مؤمن تقي هو من أولياء الله تعالى؛ قال الله تعالى﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢،٦٣].

وربما يحدث مثل ذلك التخاطر أو غيره من التأثير في حواس الناس وأفكارهم ويكون من قبيل السحر والشعوذة والاستعانة بشياطين الجن، وقد أثبت القرآن كُلًّا من السحر وما يقوم به الجن من خوارق، وأرشد الى كيفية التحصن من ذلك.

* * *

٣٧٣ – مفهوم ٦: العلم قبل العمل:

لا بد من العلم قبل العمل؛ لأن العلم هو الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال، وهذه قاعدة أساسية في منهج السلف، وقد بوَّب البخاري في صحيحه في كتاب العلم: **باب العلم قبل القول والعمل**، واستدل بقول الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[محمد:١٩]؛ حيث ذكر الله تعالى العلم وقدَّمه على الاستغفار، وهو عمل.

* * *

٣٧٤ – مفهوم ٧: العلم بصيرة للدعوة:

من يتعجَّل الدعوة إلى الله بغير علم يدعو بلا بصيرة، فلن يحقق مبتغاه –وإن زعم الإخلاص في دعوته– ولن تثمر دعوته؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]؛ فاشترط البصيرة –وهى مقتضي العلم– لسلوك سبيل الدعوة.

* * *

٣٧٥ – مفهوم ٨: تعلم العلم لا يعطل العمل:

تعلم العلم الشرعي لا يعطل العمل، بل التعلم نفسه عمل لازم لبداية الطريق، وقد قال ﷺ: (**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**) [مسلم (٢٦٩٩)].

* * *

٣٧٦ – مفهوم ٩: مقتضى العلم العمل:

فالغرض الرئيس من العلم الشرعي هو العمل بما يتعلمه المرء من أمر دينه، وفي ذلك رفعة من الله لصاحب العلم وعصمة له من الشيطان. أما من يترك العمل بما علمه فهو يسلط الشيطان عليه، ويتبع هواه فينزل أسفل سافلين؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

* * *

٣٧٧ - **مفهوم ١٠: للبيئة أثرها في نوع العلم وملامحه:**

- فأهل الحجاز لما كانوا قريبين من مهبط الوحي، وكانت الأحداث والوقائع فيهم محدودة نوعًا ما، برزت فيهم مدرسة أهل الحديث، وكثر فيهم المفسِّرون والمحدِّثون الذين يعملون بالمأثور، وكانوا ألصق الناس بنصوص الوحي وآثار الصحابة والتابعين.
- ولما كانت العراق بلاد اختلاف وفِرَق، وابتليت بالروافض والقول بالقدر، وكثرت فيهم الترجمة عن الفلاسفة والمتكلمين، وكثر الاختلاط بالأعاجم؛ تولَّد عن ذلك وقائع عديدة لم يكن مثلها في الحجاز، فلمَّا حدث كل ذلك ظهرت مدرسة الرأي، وكثر القياس والاجتهاد للحكم في الوقائع والنوازل الحادثة التي لم يرد فيها نص.
- وبلاد الشام أرض جهاد ورباط، فبرز في أهلها وعلمائها الحديث عن الملاحم والفتن.
- كما تؤثر البيئة على العالم، وربما غيَّرت بعض آرائه واجتهاداته؛ فالإمام الشافعي له مذهبان: أحدهما في العراق، والآخر في مصر.

❋ ❋ ❋

ثالثًا: مفاهيم حول تدبر القرآن وبعض قواعده:

٣٧٨ - **مفهوم ١: طالب العلم وتدبر القرآن:**

على طالب العلم أن يبدأ بحفظ القرآن وتدبُّره، ويستعين على فهمه بما قاله أهل الاتباع الأولون؛ وحينها قد يفتح الله عليه باستنباطات وهدايات نقية، ويشترط في ذلك الالتزام بقواعد التدبر العامة، وعدم مخالفة الشرع؛ فيكون ما يفتح الله به عليه من باب الإضافة لا المخالفة.

❋ ❋ ❋

٣٧٩ - **مفهوم ٢: التدبر يسبق التذكر:**

قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] أفاد فيه عطف التذكر على التدبر أنهما متغايران، وأن التدبر مرحلة سابقة على التذكر وموصلة إليه، كما أفادت الآية أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له هذا التذكر والانتفاع بالقرآن.

٣٨٠ - مفهوم ٣: التدبر والتذكر يظهران بركة القرآن:

في الآية السابقة أيضًا وُصِف القرآنُ بالبركة، ثم ذُكِر التدبرُ والتذكرُ بعدها بلام التعليل: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ فأفاد ذلك أن التدبر والتذكر علة لبركة القرآن؛ أي أن بركة القرآن تحصل بالتدبر والتذكر؛ وذلك لأن البركة هي الزيادة والنماء، وهي حاصلة بالتدبر لأن به تتعدَّد معاني القرآن وتتسع هداياته، كما تفيد الآية بوجه عام أن تدبر القرآن من أفضل الأعمال، وأنه أعلى مرتبة من القراءة المجردة عنه.

* * *

٣٨١ - مفهوم ٤: معنى كون القرآن كله متشابهًا، وكون بعض آياته من المتشابه:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر:٢٣]، ومعنى ذلك أن القرآن كله متشابه في الحسن، والكمال، والائتلاف، وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه؛ حتى ما يدق فيه ويغمض من المعاني يجزم من يتدبرها أنها لا تصدر إلا عن حكيم عليم، ولذلك فقد وصِفَ القرآن أيضًا بأنه كله مُحكَم؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

أما قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران:٧] فالمراد منه أن بعض آيات القرآن تشتبه وتلتبس في المعنى على فهوم كثير من الناس، ولا يزول هذا الالتباس إلا برد هذه الآيات المشتبهة في الفهم إلى الآيات الأخرى المحكمة في الموضوع ذاته.

وتتبع هذا المتشابه من الآيات، وعدم ردها إلى المحكم هو من إثارة الفتنة به بين الناس، وهو صنيع أهل الزيغ والضلال؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

* * *

٣٨٢ - مفهوم ٥: فائدة الحكم على جنس عام بعد ذكر وصف خاص:

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، فوصف قومًا بوصف خاص هو عداوتهم لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال، ثم عدل عن الحكم عليهم خاصة إلى حكم عام بعداوة الله للكافرين، ولم يقل: [**فإن الله عدو لهم**]، وذلك يفيد أمرين:

الأول: أن كل من عادى الله والملائكة والرسل فهو من جنس الكافرين.

والثاني: أن الله عدو لهم ولجميع الكافرين.

وهكذا كل حكم على جنس عام بعد ذكر وصف خاص يفيد اندراج أصحاب هذا الوصف الخاص تحت الجنس العام المذكور، كما يفيد تعميم الحكم على أصحاب الوصف الخاص وعلى الجنس العام الذي يندرجون تحته.

ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:١٤٦] ولم يقل: [**وسوف يؤتيهم الله أجرًا عظيمًا**]، وذلك ليؤكد **أولًا** أن هؤلاء التائبين هم من المؤمنين، ثم يفيد **ثانيًا** ثبوت الأجر العظيم لهم وللمؤمنين جميعًا. ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، وهو من البلاغة وحسن البيان.

* * *

٣٨٣ - مفهوم ٦: مجيء الأمر في صورة الخبر:

قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنفال:٦٥]. فهذه الآية صورتها صورة الخبر عن المؤمنين بأنهم إذا بلغوا هذا القدر المعين يغلبوا ذلك المقدار المعين من الكافرين، ولكن معناها وحقيقتها أمر المؤمنين بالثبات في القتال إذا كانت نسبتهم إلى الكفار نسبة واحد من المؤمنين لكل عشرة من الكافرين، وأنه يحرم عليهم الفرار حينئذ، ثم نُسِخ الحكمُ وخُفِّف بالآية بعدها. ويدل على أن المقصود الأمر لا مجرد الإخبار قول الله تعالى بعدها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ

مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦]؛ فإن الخبر لا يدخله التخفيف، وإنما يكون ذلك في الأمر والتكليف.

ومن نكتة وفائدة العدول عن صيغة الأمر إلى صيغة الخبر هنا: تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم إذا فعلوا ذلك فسوف يغلبون الكفار بإذن الله تعالى.

وهكذا يعدل أحيانًا عن صيغة الأمر أو النهي المباشر إلى صيغة الخبر، ويكون المقصود هو الأمر أو النهي، ويكون في ذلك فوائد بلاغية، وهذا من بلاغة القرآن وحسن بيانه.

* * *

٣٨٤ - مفهوم ٧: مجيء اللفظ النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط:

النكرة في سياق النفي تَعُمُّ وتشمل كل أفراد الجنس المنفي؛ ففي قول الله تعالى مثلًا: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] جاء لفظ ﴿لَآئِمٍ﴾ نكرة ليعم عدم الخوف من أي لائم مهما كان عظيمًا في علمه أو قرابته أو سلطانه. وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أفاد لفظ ﴿شَىْءٍ﴾ النكرة في سياق النفي ﴿وَمَا كَانَ﴾ أن الله سبحانه لا يعجزه شيءٌ في السماوات والأرض أيًّا كان.

* * *

٣٨٥ - مفهوم ٨: إطلاق وصف ما قد يُقيَّد بأدلة أخرى:

لا يشترط من إطلاق الوصف على قوم تعميم الحكم عليهم، وإنما قد يراد من ذلك بيان أنه حكم أغلبي فقط؛ فقول الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩٧] المقصود به أن ذلك غالبًا ما يقع لهم، وقد علَّل ذلك ببعدهم عن العلم الشرعي: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وذلك ناتج عن طبيعة حياتهم في البادية بعيدًا عن مواطن العلم. والدليل على أن ذلك الحكم أغلبي وليس عامًّا هو قول الله تعالى بعدها: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:٩٩]، فاستثنى فريقًا من الأعراب، وخصَّص بعد التعميم.

* * *

٣٨٦ - مفهوم ٩: ضرب الأمثال في القرآن:

يكثر في القرآن الكريم ضرب الأمثال، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] وفي ذلك تقرير لضرب الأمثال، وحثٌّ على تدبُّرها وتعقُّلها، ومدحٌ لمن يعقلها ويفهم المراد منها، أما من لم يعقل الأمثال المضروبة في القرآن وسخر منها فهو من أهل الزيغ والجهل والضلال.

وإذا تأملت القرآن الكريم وجدت أن أكثر ما يضرب الله الأمثال فيه هو في أصول الدين ونحوها.

* * *

٣٨٧ - مفهوم ١٠: مبهمات القرآن:

ما أبهمه القرآن ولم تبينه السنة فلا فائدة من السعي لتعيينه، بل ذلك من التكلف والخوض بلا علم فيما لا طائل تحته، ولا يحصل منه إلا تشويش الذهن والبعد عن المقصود، والتيه في صحراء الأوهام والتخرُّصات، ويُعدُّ من وسوسة الشيطان والقول على الله بغير علم، والله سبحانه يحذر من ذلك إذ يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

* * *

٣٨٨ - مفهوم ١١: موضوعات سور القرآن الكريم:

لكل سورة من سور القرآن الكريم موضوع رئيس يغلب عليها، وتدور آياتها في فلكه، وبمعرفته يحصل التوسع في الهدايات المستنبطة من القرآن الكريم. ولتحديد موضوع السورة ضوابط ومعايير من أهمها: النظر في كلٍّ من مقدمة السورة وخاتمتها، ولكن يشترط عدم التكلف في تحديد موضوع السورة، وأن تنطبق عليه جُلُّ المعايير المُحدِّدة لموضوعات السور، والتي يعرفها أهل هذا الفن المتخصصون فيه، ويُعرَف بعلم: **مقاصد السور**، ويندرج تحت علم: **التفسير الموضوعي** للقرآن الكريم، ومستنده الأساس أن القرآن الكريم نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، فهو جار على أساليب العرب في عرض الموضوعات والمقاصد، وبهذا العلم يتحقق المقصود من تقسيم القرآن إلى سور.

* * *

رابعًا: الأمانة العلمية والتثبت من الأخبار:

٣٨٩ – مفهوم ١: مقتضى الأمانة العلمية:

كما أن الأمانة العلمية تقتضي نسبة الأقوال والأعمال إلى فاعليها، فهي تقتضي أيضًا عدم ادِّعاء أي أمر بلا علم ولا تثبت؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]؛ أي: لا تتبع ما ليس لك به علم فتُسمِع أذنَك ما لم تسمع، وتُري بصرَك ما لم تر، وتدَّعي علم ما لم تعلم؛ فالقرآن الكريم يدعو إلى عدم اتباع المرء إلا ما يعلمه علم اليقين، وما ثبتت لديه صحته، وأن يصاحب ذلك استقامة القلب ومراقبة الله فـ ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

* * *

٣٩٠ – مفهوم ٢: التثبت يكون من خبر الفاسق دون الثقة:

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦] أفاد بمفهوم المخالفة أن الصالح يؤخذ بخبره ولا يشك فيه، وأن الأصل افتراض الثقة بين جماعة المؤمنين، أما الفاسق فهو استثناء من هذا الأصل، فلهذا وجب التثبت من خبره احترازًا مما قد يسببه -إن كان كاذبًا- من أضرار.

* * *

خامسًا: مفاهيم حول الفتوى:

٣٩١ – مفهوم ١: حاجة عامة المسلمين للفتوى:

حاجة عامة المسلمين إلى من يفتيهم دائمة وماسة؛ لا سيما فيما تعم به البلوى ويكثر في مجتمعاتهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

* * *

٣٩٢ - مفهوم ٢: إفتاء الناس في دينهم أمانة:

إفتاء الناس في دينهم أمانة عظيمة؛ إذا المفتي يبلغ عن الله وعن رسوله حكم الدين فيما يُستفتى فيه، وعامة الناس يتعلقون بفتوى مفتيهم وينفذونها على أنها حكم الله، ولهذا وجب على المفتين عدم الفتوى إلا بما يعلمونه، وحرم عليهم القول على الله بغير علم؛ فقد حرَّم الله ذلك وقرنه في النهي عنه بالشرك والفواحش والظلم والإثم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

* * *

٣٩٣ - مفهوم ٣: الإفتاء بالباطل افتراء على الله:

إفتاء الناس بالباطل كذب وافتراء عظيم على الله لا يفلح صاحبه أبدًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[النحل:١١٦].

* * *

٣٩٤ - مفهوم ٤: من حيل المفتين بالباطل:

عبارة: «**وفق الضوابط الشرعية**» لا تضفي الصبغة الشرعية على الفاسد من الأعمال، بل تكون حينئذ من التلبيس على العامة والتحايل على الشرع، فإن أفسدتم فلا تفعلوا الفساد باسم الشريعة!

* * *

٣٩٥ - مفهوم ٥: ترتكز الفتوى على علمين:

ترتكز الفتوى على علمين: علم بأحكام الشريعة، وعلم بالواقع المراد إنزال الحكم عليه.

* * *

٣٩٦ - مفهوم ٦: الفرق بين ثبات الأحكام واختلاف الفتاوى:

أحكام الشرع ثابتة لا تتبدل مهما تبدلت الأزمان أو الأماكن أو الأحوال والعادات، وإنما الذي قد يتغير هو الفتوى طبقًا لتغيُّر مناط الحكم ومتعلقه؛ أي أن الفتوى بالحكم قد تتغير تبعًا لشيء آخر خارجًا عنه، ويتعلق به، فلم تُغيِّر أصل الحكم وإنما تغيَّرت هي

بناء على تغيُّر متعلقه ومناطه. مثال ذلك: أن بيع العنب أصله الحل، وذلك حكم ثابت في أصله، ولكن لو علم أن من سيشترى العنب سوف يحوله إلى خمر فلا يجوز حينئذ البيع له من باب سد الذريعة، والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان؛ فالمحرم البيع لهذا الشخص خاصة لحالة تتعلق به وتمنع البيع له، أما بيع العنب على العموم فسيظل حلالًا لمن ليس به هذا المناط.

* * *

سادسًا: مفاهيم حول تحقيق المصلحة والمقاصد الشرعية:

٣٩٧ - مفهوم ١: أينما يكون شرع الله فثَمَّ المصلحة:

ما شرعه الله ﷻ في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من: الواجبات، والمستحبات، والمباحات، والمحرمات، والمكروهات، إنما شرعه سبحانه لمصلحة الإنسان وخيره في الدنيا والآخرة، فأينما يكون شرع الله فثم المصلحة.

* * *

٣٩٨ - مفهوم ٢: المصالح في ميزان الشرع:

المصالح في ميزان الشرع ثلاثة: معتبرة، وملغاة، ومرسلة.

* * *

٣٩٩ - مفهوم ٣: المصالح المعتبرة:

هي المصالح التي شهد الشرع بقبولها واعتبارها بدليل معين، وشرع حكمًا لتحقيقها. وهذه مصالح لا سبيل إلى ردها، ولا خلاف في مشروعية الأخذ بها وإعمالها. ومن ذلك: مصلحة حفظ النفوس التي شُرع لها حكم القصاص، ومصلحة حفظ الأموال التي شُرع لها قطع يد السارق، ومصلحة حفظ العقول التي شُرع لها تحريم الخمر، وهكذا...إلخ.

* * *

٤٠٠ – مفهوم ٤: المصالح الملغاة:

هي المصالح التي شهد الشرع بإبطالها وردِّها؛ فمن ذلك: مصلحة كسب الأموال من خلال الربا أو الميسر والقمار؛ فقد أبطلها الشرع بتحريم كل من الربا والميسر، وكذلك المصلحة المتوهمة من منع تعدد الزوجات للضرر المتوقع حصوله من مشاكل وغيرة بين المرأة وضرتها؛ فقد أهمل الشرع هذه المصلحة ولم يعتبرها تحقيقًا لمصلحة أعلى منها؛ وهي تكثير النسل، وتمكين العفاف، وتحصين النفس.

❋ ❋ ❋

٤٠١ – مفهوم ٥: المصالح المرسلة:

هي المصالح التي لم يرد في الشرع دليل خاص باعتبارها أو إلغائها؛ فهي مرسلة عن قيد الاعتبار أو الإلغاء، ولكن يوجد فيها معنى مناسب لأن يشرع لها حكم، كما أنها تدخل تحت الأصل العام للشرع باعتبار المصالح ودرء المفاسد. ومن أمثلتها: جمع القرآن، وتدوين الدواوين، وتدوين العلوم -كعلوم العربية وأصول الفقه ومصطلح الحديث- إلى غير ذلك من المصالح مما لا يشك عاقل أنها تناسب الشرع.

❋ ❋ ❋

٤٠٢ – مفهوم ٦: من ضوابط الأخذ بالمصلحة المرسلة

من ضوابط الأخذ بالمصلحة المرسلة ألا يعارض ذلك دليل شرعي من نص أو إجماع أو قياس، وألا يكون في الأخذ بها تفويت لمصلحة أعلى منها.

❋ ❋ ❋

٤٠٣ – مفهوم ٧: الفرق بين المصلحة المرسلة والبدعة:

المصالح المرسلة إنما تكون فقط فيما يعقل معناه، ولا مدخل لها في التعبُّدات المحضة التي لا يطلب لها معنى معقول على وجه الخصوص؛ كتفاصيل الوضوء، وعدد ركعات الصلاة، وتحديد الصيام بزمن مخصوص، والوقوف في مشاعر الحج...إلخ. وهذا من أهم الفوارق بين المصالح المرسلة والبدعة التي تكون في العبادات التي تقوم على التعبد المحض، أو في العقائد إذ هي ثوابت محكمات.

٤٠٤ - مفهوم ٨: حكم الاتفاق على مصلحة مرسلة:

إذا أجمع العلماء أو أهل الاختصاص على مصلحة مرسلة لم يجز العمل بضدها، وإن لم يحصل الإجماع عمل المسؤول برأي الأكثرين من العلماء.

❊ ❊ ❊

٤٠٥ - مفهوم ٩: تداخل المصالح والمفاسد:

المصالح والمفاسد لا تتمحض غالبًا، بل الأغلب هو الامتزاج أو التزاحم بينها، وعندها يعمل المسلم بالقواعد العامة في ذلك من: أن درء المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة، وتقديم أعلى المصلحتين على أدناهما، وارتكاب أخف الضررين.

❊ ❊ ❊

٤٠٦ - مفهوم ١٠: تزاحم المصالح:

ترجيح إحدى المصلحتين على الأخرى عند التزاحم يكون وفق الضوابط الآتية:

أ - تقدم المصلحة قطعية التحقق على المصلحة المظنونة.

ب - إن تساوت المصلحتان في قطعية تحققها تُقدَّم المصلحة العامة على الخاصة.

ج - إن تساوت المصلحتان في تحقُّق الوقوع وفي عموم النفع تُقدَّم المصلحة الكبرى على المصلحة الصغرى.

❊ ❊ ❊

٤٠٧ - مفهوم ١١: مقاصد التشريع مستنبطة من نصوص الشرع لا حاكمة عليها:

إنما عرفت المقاصد الكلية للتشريع من خلال النظر في نصوص الشرع وأحكامه التفصيلية، واستنباط المقاصد منها؛ فالنصوص هي الأصل، والمقاصد هي الفرع المستنبط منها، وعلى هذا فلا يمكن بحال أن يتعارض نص وحكم شرعي تفصيلي مع مقصد عام من مقاصد التشريع، إنما ذلك دعوى أهل الزيغ والأهواء؛ حين عجزوا عن مصادمة النصوص لجأوا إلى تأويلها وفق فهمهم المغلوط للمقاصد العامة للإسلام، ويسمون ذلك: اعتماد الفهم المقاصدي للإسلام بدل الفهم النصي. ومن أمثلة ذلك قولهم: «إن الربا إنما حرم لأجل الظلم، فأي صيغة منه لا تؤدي إلى الظلم تكون مشروعة»، نعوذ بالله من الزيغ والضلال.

سابعًا: مفاهيم حول بعض القواعد الفقهية:

٤٠٨ – مفهوم ١: قاعدة الضرورات تبيح المحظورات:

استنبط العلماء هذه القاعدة من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣]، وقالوا: فكل محظور اضطر إليه الإنسان فقد أباحه له الرحمن. والضرورة هي ما يخاف المرء عند وقوعه من حصول تلف لنفسه أو بعضها، أو لعقله، أو ماله، أو ضياع لعرضه أو أذى فيه.

* * *

٤٠٩ – مفهوم ٢: قيود الضرورة المبيحة للمحظور:

للضرورة المبيحة للمحظور ضوابط وقيود هي:

أ – أن تكون الضرورة قائمة وحاصلة، لا متوقعة أو منتظرة.

ب – ألا يكون لدفع الضرورة وسيلة أخرى مباحة أو مكروهة غير ارتكاب المحظور.

ج – أن يقتصر في فعل المحظور على الحد الأدنى منه المطلوب لدفع الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة:١٧٣، وغيرها]، ففي الأكل من الحرام مثلًا لا يتجاوز ما يسد به رمقه ويقيم أوده.

د – ألا يوقع المحظور ضررًا على الآخرين؛ فلا يجوز مثلًا الامتثال للإكراه على قتل الغير؛ لأن إبقاء حياة كلٍّ من المكرَه على القتل والمأمور بقتله ضرورتان من درجة واحدة ينتظمها مقصد الحفاظ على النفس، وليست نفس المكره بأولى من نفس المأمور بقتله في الحفاظ عليها.

هـ – أن تكون الضرورة ملجئة؛ كأن يكره المرء على أكل المحظور بالتهديد مثلًا بقتله أو تعذيبه لو لم يأكل منه، حتى لو وجد معه المباح.

و – ألا يقع المضطر –إذا كان رمزًا في العلم والدعوة– فيما يضل به الناس في دينهم.

ولا بد من تحقق هذه القيود كلها في كل ضرورة تُدَّعى حتى تبيح المحظور، فلو تحقق بعض القيود دون البعض الآخر لم تكن ضرورة.

* * *

٤١٠ – مفهوم ٣: رفع الحرج في الدين:

لا يصح الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨] على إسقاط أي تكليف شرعي عن المرء بدعوى أنه يوقعه في حرج، بل الآية تدل على أن تكاليف الشرع كلها ليس فيها حرج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، ويدل على ذلك أيضًا أنها ذَكَرَتْ في أولها الأمر بالجهاد في سبيل الله حق الجهاد، مما يفيد أنه ليس هناك أدنى حرج في الإتيان بهذا التكليف وسائر تكاليف الدين.

وإنما يسقط التكليف، أو يبدل، أو يؤجل إذا كان الحرج لأمر طارئ على المرء خارج عن أصل التكليف في ذاته؛ كأن يؤجل المريض الصيام الواجب لما يجده من حرج ومشقة في الصيام بسبب المرض الطارئ عليه، وكقصر الصلاة بسبب السفر وما فيه من مشقة.

* * *

٤١١ – مفهوم ٤: رفع الحرج في الطهارة:

ومن الحرج المرفوع أيضًا: الحرج من الصلاة بغير وضوء واعتقاد عدم إمكانية الطهارة عند فقد الماء أو عدم القدرة على استخدامه؛ وذلك بتشريع الطهارة بالتيمم؛ قال الله تعالى بعد تشريع التيمم بدلا عن الماء في حال فقدانه أو عدم القدرة على استعماله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

* * *

٤١٢ – مفهوم ٥: التكاليف في وسع النفس ومقدرتها:

وكذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦] لا يعني إسقاط التكليف لدعوى المرء أنه ليس في وسعه، بل معناه أن الإنسان مكلف بالوسع، وأن كل التكاليف هي في وسع النفس ومقدرتها.

* * *

٤١٣ - مفهوم ٦: أوامر الله ونواهيه داخلة في اليسر والتخفيف:

أوامر الله ﷻ ونواهيه وما ينجم عنها من حِكَم وفوائد هي عين اليسر والتخفيف على الناس في الدنيا والآخرة؛ وأما ما يحدث للنفس من مشقة بسبب التكليف فهي مشقة مقدور عليها، ولا بد من بذلها لنيل نعيم الآخرة؛ فالنعيم لا يدرك بالنعيم، ومن آثر الراحة فاتته الراحة؛ قال المتنبي:

إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

قال الله تعالى بعد تشريع الصيام وتفصيل أحكامه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨] فكل أمر من الله تعالى لنا فهو يسر لا حرج فيه؛ فلا يسر، ولا تخفيف، ولا رفع حرج أعظم من شيء أدي إلى الجنة ونجَّي من جهنم؛ سواء كان حظرًا أو واجبًا أو إباحة.

❊ ❊ ❊

٤١٤ - مفهوم ٧: ضوابط الترخص والتيسير:

للترخص والتيسير ورفع الحرج عند وقوع ما يقتضي ذلك ضوابط وقيود هي:

أ - تحقق حصول العذر الداعي للأخذ بالرخصة يقينًا لا ظنًّا.

ب - قيام الدليل على الأخذ بالرخصة وعدم مخالفة النصوص الشرعية في المسألة.

ج - الاقتصار على موضع الحاجة أو الضرورة.

د - صدور الرخصة من عالم بالأحكام وبالواقع؛ حتى يتحقق فهم المسألة وتحقيق مناطها في الواقع.

❊ ❊ ❊

٤١٥ - مفهوم ٨: عموم البلوى:

البلوى العامة تكون فيما يتعلق به التكليف، وهي الحادثة التي تقع شاملة بحيث يعسر على المكلفين الاستغناء عنها أو الاحتراز منها إلا بمشقة زائدة تقتضي التيسير والتخفيف، ويحتاج المكلفون إلى معرفة حكمها. ومن أمثلتها:

أ - التسامح في سؤر الهرة لصعوبة التحرز منها؛ لأنها من الطوافين علينا والطوافات.

ب - تطهير التراب للنجاسة العالقة ببطن النعل والحذاء.

٤١٦ - مفهوم ٩: ضوابط إعمال قاعدة عموم البلوى:

أ - تحقق حصولها في الحادثة المسؤول عنها؛ فلو وجد استثناء لعمومها انتفى العمل بها في الترخص، ولزم التوجه إلى المستثنى منها؛ فلو كان أمام المرء طريقان لا بد من سلوك أحدهما، وكان الأول به طين مختلط بنجاسات الدور والمنازل، والآخر سالم من ذلك، لزم سلوك الطريق الثاني، ولو سلك الأول لم يعف عمَّا يلحق به من نجاسة؛ لأنه لا يعسر الاحتراز منها.

ب - صدور القول بها في المسألة من مجتهد عالم بالأحكام الفقهية وبالواقع لإمكان تحقيق مناطها.

ج - أن يقيد التيسير الحاصل بعموم البلوى بالحالة التي تتحقق فيها ويزول بزوالها.

❋ ❋ ❋

٤١٧ - مفهوم ١٠: قاعدة سد الذرائع:

المحرمات في الإسلام منها ما هو محرم لذاته، وما هو محرم لغيره. والمحرم لغيره هو ما حرم لا لأنه في ذاته محرم وإنما لما سيؤدي إليه من الوقوع في المحرم لذاته؛ ومثاله: تحريم سب آلهة المشركين إذا كان ذريعة لسب الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨] مع أن سب آلهة المشركين هو في ذاته إغاظة للمشركين وإهانة لآلهتهم، وهو جائز أو محمود في ذاته لولا أنه يفضي إلى الوقوع في الحرام -وهو سب الله تعالى- ففي الآية تصريح بالمنع من الجائز لما يفضي إليه مما لا يجوز.

❋ ❋ ❋

٤١٨ - مفهوم ١١: إذا حرَّم الله تعالى شيئًا حرَّم وسائله:

إذا حرَّم الله تعالى شيئًا، وله طرق ووسائل تفضي إليه، فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقًا لتحريمه وتثبيتًا له؛ إذ لو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم وإغراء للنفوس به، وحكمة الله تعالى تأبى ذلك كل الإباء.

❋ ❋ ❋

٤١٩ - مفهوم ١٢: كل ما يُفَوِّت الواجب فهو محرَّم:

كل ما يُفَوِّت الواجب ويشغل عنه فهو محرَّم ولو كان في أصله مُباحًا؛ ومثاله: نهي الله عن البيع والشراء بعد أذان صلاة الجمعة؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾[الجمعة:٩].

* * *

٤٢٠ - مفهوم ١٣: لا إلزام بالمستحبات أو المباحات:

المستحبات والمباحات وما كان على التخيير لا يصح إلزام الناس فيها؛ فإذا فتح الله لك بابًا من المستحبات لا تُلْزِم أن يكون الناس مثلك فيه؛ فالمستحبات يُثاب فاعلها ولا يُلام تاركها، وربما فتح الله لمن ترك ما أنت عليه من المستحبات بابًا آخر منها يكون فيه أنشط وعليه أقدر، ومن باب أولى لا لوم على من أتى مباحًا أو تركه، وهذا مدلول تسميته بالمباح.

وكذا ما كان من الواجبات على سبيل التخيير بين عدة خصال لا يصح إلزام الناس بأمر واحد فيه؛ وذلك ككفارة الحنث في اليمين؛ فالحانث مخير فيها بين إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فإن لم يجد عدل عن ذلك إلى صيام ثلاثة أيام. وكذلك كفارة محظورات الإحرام يخير المرء فيها بين الصيام والصدقة والذبح.

* * *

٤٢١ - مفهوم ١٤: الرخصة صدقة من الله:

الرخصة صدقة من الله، فيندب الأخذ بها دون البحث عن حكمتها وربطها بها؛ فالله سبحانه رخَّص الفطر في حالتي المرض والسفر على أن يقضي المريض حين يصح والمسافر حين يقيم، وليست شدة المرض ولا مشقة السفر هي التي تعلق بها الحكم، وإنما هي المرض والسفر إطلاقًا لإرادة اليسر بالناس لا العسر.

ونحن لا ندري حِكَم الله كلها في تعليقه الرخص بمطلق المرض ومطلق السفر. فالصحيح على كل حال أن نأخذ الأمور بالصورة التي أرادها الله في هذا الدين؛ فهو أحكم منا وأعلم بما وراء رخصه وعزائمه من مصالح قريبة وبعيدة.

* * *

٤٢٢ - مفهوم ١٥: لا يطلب التشدد للسماح بالرخصة:

لا يطلب التشدد للسماح بالرخصة، وإذا صح التشدد في أحكام المعاملات عند فساد الناس ليكون علاجًا رادعًا وسدًّا للذرائع، فإن الأمر في الشعائر التعبدية يختلف؛ إذ هي حساب بين العبد وربه، ولا تتعلق به مصالح العباد تعلقًا مباشرًا كأحكام المعاملات التي يراعى فيها الظاهر، أما الظاهر في العبادات فلا يجدي ما لم يقم على تقوى القلوب.

* * *

٤٢٣ - مفهوم ١٦: لا بد من دليل على الرخصة:

الرخصة المقبولة هي ما رخَّص الله به وكان عليها دليل ونص شرعي، لا ما صدر من بعض العلماء من نوادر شذُّوا فيها عن عامتهم ونهجهم الوسط في الدين، فمثل هذا يطلق عليه: «رخص بعض العلماء» مجازًا، والمقصود به زلَّاتهم وما رخصوا فيه خلافًا للحق، وهو المعني بقول العلماء: «من تتبع زلات العلماء ورخصهم تزندق»، وقد حكى ابن حزم الإجماع على أن تتبع رخص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي فسق لا يَحِلُّ.

* * *

٤٢٤ - مفهوم ١٧: الوسطية في الأخذ بالقواعد الفقهية وتطبيقها:

استنبط الفقهاء قواعد فقهية من نصوص الكتاب والسنة، وجعلوها بمثابة مراجع عامة جامعة يُرجِعوا إليها ما يجِدُّ في حياة الناس من أقضية وأحداث؛ ليصلوا بذلك إلى الحكم الشرعي فيها. فالأصل في إثبات الأحكام الشرعية هو نصوص الكتاب والسنة، وإنما جعلت القواعد الفقهية بمثابة تلخيص لدلالات النصوص ومراجع عامة جامعة لها، وعلى هذا فالاستدلال بالقاعدة الفقهية على الأحكام هو في الأصل استدلال بنصوص من الكتاب والسنة.

والتوسط في النظر إلى القواعد الفقهية هو الأخذ بها بهذا الاعتبار، وعدم إهمالها بحجة أنها ليست دليلًا في حد ذاتها ولا نصًّا من نصوص الوحيين، ولا الإفراط في تطبيقها حتى تعارض بها نصوص الكتاب والسنة.

* * *

٤٢٥ - مفهوم ١٨: الأصل في الأشياء الإباحة:

يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩]؛ حيث سيقت الآية في معرض الامتنان بأن الله خلق ما في الأرض لنفعنا، ويؤخذ من مفهوم ذلك أيضًا أن ما فيه ضرر خارج عن ذلك، ومن تمام النعمة تحريمه علينا.

* * *

٤٢٦ - مفهوم ١٩: صفة العجز المبيح للعذر:

من عجز عن فعل المأمور من واجب ونحوه سقط عنه هذا الواجب كما دلَّت عليه الأدلة؛ قال تعالى عن الجهاد: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧]، وقال الله تعالى في عموم الأوامر: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال النبي ﷺ: (**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**) [أخرجه البخاري (٧٢٨٨)].

ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده لفعل ما يؤمر به فعجز عنه وانسدت عليه الحيل لفعله؛ كما يفهم من قول الله ﷻ عن العاجزين عن الهجرة من ديار الشرك: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٨].

* * *

٤٢٧ - مفهوم ٢٠: العجز عن كامل المأمور لا يُسقط وجوب الإتيان بالمقدور:

فمن قطعت كفه سقط عنه غسل الكف في الوضوء، لكن بقي عليه غسل باقي يده حتى نهاية المرفق. وقد استنبط العلماء هذه القاعدة من قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، فهذا هو موجب تقوى الله قدر الاستطاعة، ويدل عليه أيضًا قوله ﷺ: (**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**) [أخرجه البخاري (٧٢٨٨)].

* * *

ثامنًا: مفاهيم حول لوازم الفقه في الدين:

١) مفاهيم في فقه الموازنات والأولويات:

٤٢٨ - مفهوم ١: فقه الموازنات والأولويات حقيقة شرعية:

أهل الدنيا في تعاملاتهم ومؤسساتهم يبنون خططهم وإداراتهم ومصالحهم على الموازنات والأولويات، فالموازنة بين المصالح والمفاسد أمر مركوز في الفِطَر، وحقيقة عقلية بدهية، وهي من باب أولى حقيقة شرعية أيضًا؛ فعلى أهل العلم والاجتهاد أن يعرفوا فقه الموازنات عند الاختلاف، فينظروا إلى الأقرب للحق فينصروه ويقدِّموه؛ ففي الحديث القدسي: **(وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه)** [رواه البخاري (٦٥٠٢)]، فالفروض مقدمة على النوافل في التقرب إلى الله، وهكذا في سائر الأمور.

❊ ❊ ❊

٤٢٩ - مفهوم ٢: فقه الموازنات يكون عند التعارض:

فقه الموازنات يكون عند التعارض: سواء بين المصالح بعضها مع بعض، أو بين المفاسد بعضها مع بعض، أو بين المصالح والمفاسد؛ فتُفوَّت أدنى المصلحتين لتحقيق أعلاهما، وتُرتكب أدنى المفسدتين لدرء أعلاهما. وعند التعارض بين مصلحة ومفسدة ينظر إلى درجة تحقق كلٍّ منهما في الواقع، فتُقدَّم الحقيقية على الوهمية، فإن تساوتا في الحقيقة يؤخذ بالمصلحة الكبرى ولو ترتب عليها مفسدة صغرى، أما إذا تساوتا في الأهمية أيضًا فدرء المفسدة حينئذ مقدم على جلب المصلحة.

❊ ❊ ❊

٤٣٠ - مفهوم ٣: فقه الأولويات يبحث في الترتيب بين المصالح:

فقه الأولويات يبحث في الترتيب بين المصالح ليتبين ما الذي ينبغي فعله قبل الآخر؛ فهو لا يلغي المصلحة الثانية، وإنما يؤخرها في العمل لحين الانتهاء من المصلحة الأهم والأولى منها. فمن العلم الشرعي الصحيح أن يبدأ العالم بالأهم قبل المهم، ولا ينساق وراء أسئلة الناس وهو يعلم أنهم يتركون ما هو أكبر وأهم مما سألوا عنه.

❊ ❊ ❊

٤٣١ - مفهوم ٤ : من المختص بفقه الموازنات والأولويات؟

لا يفتي في فقه الموازنات والأولويات إلا العلماء الملِمُّون بالشريعة، ومقاصدها، وأحكامها، وأدلتها. كما ينبغي أن يكونوا على علم ودراية بالواقعة المستفتى فيها، وملابسات وقوعها، وما يكتنفها من مصالح ومفاسد، وتفاوت درجاتها، وعمومها وخصوصها.

* * *

٢) مفاهيم في فقه المآلات:

٤٣٢ - مفهوم ١ : المقصود بفقه المآلات:

المقصود بفقه المآلات هو إدراك العالم أو المفتي لما يؤول إليه الأمر بناء على عمل أو فتوى معينة؛ لذا فهو أمر مهم جدًا ولازمٌ مراعاةً لتحقيق مقاصد الشرع ومنع حدوث ما يضادها، ويدخل فيه ما سبق بيانه من فقه الموازنات والأولويات وقاعدة: «**سد الذرائع**».

* * *

٤٣٣ - مفهوم ٢ : العالم ينظر كيف يفهم الناس قوله:

من تمام عقل العالم أن ينظر إلى قوله كيف يفهمه الناس عنه، لا كيف يخرج من فمه؛ فكم من باطل أُظهِر في صورة حق.

* * *

٤٣٤ - مفهوم ٣: أمثلة للغفلة عن فقه المآلات:

من أمثلة الغفلة عن فقه المآلات وما تسببه من أضرار وكوارث: تعجل المواجهة المسلحة مع الباطل -بحجة ظهور الكفر البواح- دون الإعداد الكافي لذلك، ودون دراسة المفاسد والمآلات السيئة لهذه المواجهة التي قد تصل إلى تدمير البلاد، وإفناء العباد، وإقصاء الدين عن واقع الناس.

ومن الأمثلة أيضًا: الغفلة عن مآلات الفتاوى التي تتعلق بعمل المرأة وممارستها للرياضة، وما يؤدي إليه ذلك من: اختلاط بالرجال، وتكشف للعورات، ...إلخ.

* * *

٣) مفاهيم في فقه الواقع:

٤٣٥ – مفهوم ١: المقصود بفقه الواقع:

إذا نزلت بالأمة نازلة فينبغي أن يوكل أمرها إلى أصحاب الخبرة والدراية بها، مع تبصيرهم بالأحكام الشرعية المتعلقة بها ليتمكنوا من إنزالها على الواقعة بعد معرفة حالها، ولا يتقدم بين أيديهم ويتعجل من ليس بأهلٍ للخوض في مثل هذه النوازل الكبار، فيفتي بما يظنه الحق في مسألة ويذيعه بين الناس، فينشر فيهم الفوضى والبلبلة؛ فإن ذلك اتباع للشيطان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣].

* * *

٤٣٦ – مفهوم ٢: فقه العالم لواقع أمته يقي من الانحراف والفتنة:

كلما كان العالِم يعيش هموم أمته ويفقه أحوالها، وواقعها وما يُكاد لها من قِبل أعدائها وأكابر المجرمين فيها، كان ذلك حاجزًا لها عن الانحراف والفتنة والذلة والمهانة؛ كحال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- حين فقه واقع التتار وأفتى بكفرهم -رغم ادِّعائهم الإسلام- ووجوب محاربتهم، فأزاح الله عن المسلمين البلبلة في الحكم عليهم وكيفية التعامل معهم.

* * *

٤٣٧ – مفهوم ٣: طبيعة الإسلام تفرض فقه الواقع:

القول بضرورة إدراك علماء المسلمين للواقع والتأثير فيه، والتفريق بينهم وبين رهبان النصارى وقساوستهم في ذلك الأمر ناجم عن الفرق بين دين الإسلام وفهم النصارى لدينهم؛ حيث يمثل الإسلام منهج حياة متكامل، بينما يجعل النصارى دينهم علاقة خاصة بين المرء وربه، ولا يخرج خارج الكنيسة وطلب الغفران من القسيس.

* * *

٤٣٨ - مفهوم ٤: التخلي عن فقه الواقع يضيع الأمة:

إذا تخلَّى العلماء عن إدراك واقع أمتهم، وقيادتها، ورعايتها، ضاعت الأمة وتنازلت عن قضاياها الكبار، وتمزَّقت بين فئتين:

الأولى: فئة أهل الفسق والفساد؛ وهم الذين يتصدرون أو يُصدَّرون لقيادة الأمة وتولي أمرها، فيخربون البلاد ويضلون العباد.

الثانية: المتعجلون من شباب الدعوة المتحمسون لتمكين الدين، والذين يقحمون أنفسهم في الفتيا في نوازل الأمة بعاطفة وغيرة على الدين من غير علم ولا فقه رصين؛ فيوقعون الأمة في فتنة وبلاء عظيم.

وكلا الفئتين -على ما بينهما من فرق في النيات والمنطلقات- يشتركان في كونهما يجران المفاسد على الأمة.

❋ ❋ ❋

٤٣٩ - مفهوم ٥: أمثلة لواقع المسلمين الواجب فقهه:

تعيش الأمة واقعًا مريرًا تنتشر فيه قضايا ونوازل كبيرة تتطلب من العلماء إدراكها على وجه الحقيقة؛ وذلك باستبانة سبيل المجرمين، ومن ثَمَّ تبصير الأمة بحقيقة عدائهم وكيدهم ومخططاتهم والموقف الصحيح تجاهها؛ ومن تلك القضايا والمسائل: ما يُسمَّى بالنظام العالمي الجديد، والشرعية الدولية، والسلام الدائم مع اليهود وتطبيع العلاقة معهم، وتبديل شرع الله والحكم بغير ما أنزل الله، وموالاة أعداء الله، ومحن المسلمين في: فلسطين، وكشمير، والأقليات المسلمة في العديد من البلدان؛ مثل الإيغور في الصين، والروهينجا في ميانمار، والمسلمون في بورما والفلبين...إلخ.

❋ ❋ ❋

٤٤٠ - مفهوم ٦: من أضرار وسلبيات عدم فقه الواقع:

أ - الاستجابة لبعض طروحات المغالطين الملبسين وإفتائهم -دون قصد- بما يريدون لتحقيق أغراضهم السيئة التي يفتنون بها الأمة؛ فحين لا يتفطن بعض العلماء لهذه الأغراض الماكرة، ويفتون فتوى مجردة عن معرفة مقاصد المغالطين تتسبب فتواهم -دون قصد منهم- في استباحة بعض المنكرات وتمرير المفاهيم الباطلة.

ب – تحديث الناس بأحاديث قد يحصل لهم بها فتنة في أنفسهم لقصور عقولهم عنها؛ وهذا معنى قول عليٍّ رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله!»

[أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب: من خصَّ بالعلم قومًا (فتح الباري ١/ ٢٧٢)].

* * *

تاسعًا: مفاهيم إضافية حول لوازم الفقه في الدين:

٤٤١ – مفهوم ١: الرجوع للأصول الكلية:

إذا لم يجد الفقيه في المسألة نصًا يُلحق حينئذ الجزئي بالكلي، ويستدل على النظير بحكم نظيره. وإذا ترك الله حكمًا معينًا رحمة بنا غير نسيان فإننا نرجع إلى النصوص العامة ونلحقه بالأقرب، ونجعله جزئيًا يدخل تحت ما علمنا من الكليات.

* * *

٤٤٢ – مفهوم ٢: استنباط ما وراء الخبر:

استنباط ما وراء الخبر مهمة الخواص لا كل المسلمين؛ إنما شرَّف الله العلماء بذلك الأمر وجعله ثمرة فقههم وعلمهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣].

* * *

٤٤٣ – مفهوم ٣: استشراف المستقبل:

استشراف المستقبل ليس ضربًا من التخمين أو الرجم بالغيب، وإنما يرتكز في توقُّع النتائج المستقبليةعلى المعطيات الحاضرة، وقد جعل له الغرب مراكز وأقسام تُجرى بها الأبحاث والدراسات، ونحن أولى بذلك منهم؛ لأن لدينا مصادرنا الموثوقة لتطبيقه؛ فلدينا:

– القرآن الكريم وما فيه من ذكر السنن الإلهية؛ كونية كانت أو اجتماعية.

– أحاديث الرسول ﷺ وما فيها من إخبار عن أحداث مستقبلية، والأشراط الصغرى والكبرى للساعة.

– دراسة التاريخ والاعتبار بوقائعه وإنزال مثيلاتها الحاضرة عليها واستنباط النتائج في ضوء سنن الله في هذه الوقائع التاريخية.

- رؤيا المؤمن الصادق وتأويلها من مُعبِّر عدل موثوق؛ شريطة ألا نصادم بها حكمًا شرعيًّا، وألا نجزم بتفسيرها. وقد قال ﷺ: (**في آخر الزمان لا تكاد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثًا... رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**) [أخرجه الترمذي، وصحَّحه الألباني (صحيح الترمذي ٢٢٩١)].

❊ ❊ ❊

٤٤٤ - مفهوم ٤: أمثلة تطبيقية للإفادة من علم استشراف المستقبل:

للإفادة من علم استشراف المستقبل أمثلة تطبيقية عديدة؛ منها:

أ - إدراك سبب تداعي الأمم على أمة الإسلام، ومجابهة ذلك بالتربية على إيثار الآخرة على الدنيا، واجتناب مساخط الله، وحب الموت في سبيله ﷻ؛ قال ﷺ: (**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**) فقال قائل: «ومن قلة نحن يومئذ؟» قال: (**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**) فقال قائل: «يا رسول الله! وما الوهن؟» قال: (**حب الدنيا وكراهية الموت**). [أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) وسكت عنه، وحسَّنه ابن باز].

ب - معرفة ضلال اليهود وهزيمتهم آخر الزمان بناء على ما ورد فيهم من أحاديث، ومن ثم ندرك خطأ ظن أن حل قضية فلسطين والقدس هو في المفاوضات والتطبيع.

ج - عدم اليأس والقنوط من ضعف المسلمين اليوم وهوانهم، واندراس الكثير من معالم دينهم، والسعي لتغيير ذلك كله وفق قول الرسول ﷺ: (**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**) [أخرجه أبو داود (٤٢٩١)].

د - الحذر من المسيح الدجال وما معه من فتن بناء على ما أخبرنا به نبينا ﷺ وحذرنا منه.

❊ ❊ ❊

٤٤٥ - مفهوم ٥: التزام ضوابط وقيود الاستشراف تقي من الخطأ فيه:

قد يخطئ من يستشرف المستقبل في توقعه بناء على خطئه في الاجتهاد والاستنباط، ولكن كلما كان المستشرف ملتزمًا بقيود هذا العلم وضوابطه كان خطؤه أقل. والاجتهاد في استشراف المستقبل خير من الجهل به والاستسلام لأسر الحاضر، أو التخبط في تيه البحث عن مخرج مع الجهل به.

٤٤٦ - مفهوم ٦: ثوابت الإسلام لا تقبل الحوار لتغييرها:

لدين الإسلام وشريعته ثوابت ومسَلَّمات لا تتغير ولا تقبل النقاش. وطرح هذه المسَلَّمات للحوار على أنها فهم شخصي يمكن إبداء الرأي فيه هو زيغ وضلال، وطريقة ماكرة للطعن في الدين. ويبدأ الوهن في الأمة إذا عرضت مسلمات دينها للحوار، وتلك بوابة سقوط الدول؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

* * *

٤٤٧ - مفهوم ٧: ثوابت الدين لا تتغيَّر بتغيُّر الزمان أو المكان أو الأحوال:

ثوابت الدين التي يعنيها أهل السنة هي تلك التي لا تتغيَّر بتغيُّر الزمان أو المكان أو الأحوال؛ كمسائل العقيدة التي أجمع عليها سلف الأمة، والتي منها على سبيل المثال: الشرك الذي يظل شركًا مهما تغيَّر الزمان أو المكان، ومن الثوابت كذلك الأخلاق والقيم؛ فهي ثابتة لا تتغيَّر؛ فلا يصبح السفور والعري، أو الزنا، في وقت من الأوقات أمرًا مباحًا مستحسنًا.

* * *

٤٤٨ - مفهوم ٨: ثوابت الإسلام عديدة ومجالاتها متنوعة:

ثوابت الإسلام عديدة ومجالاتها متنوعة، ويمكن التمثيل لجلها كما يأتي:

أ - كل ما يتعلق بحقائق الألوهية من: الوجود، والوحدانية، والقدرة، والتدبير، والمشيئة، وسائر صفات الله الذاتية، وصفات أفعاله سبحانه.

ب - الكون كله بجميع موجوداته من أحياء وأشياء هو من صنع الله وإبداعه، ليس لشيء فيه أثارة من أمر الخلق أو التدبير أو المشاركة في شيء من خصائص الألوهية.

ج - للكائنات كلها عبودية لله تعالى -كلٌّ بحسبه- قال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. ولله على ملائكته وإنسه وجنِّه جميعًا حق عبادته وتوحيده؛ لا يُستثنى من ذلك ملك ولا رسول ولا ولي.

د - التصديق بأركان الإيمان الستة؛ فلا إيمان لمن لم يأت بها مجتمعة، ولا قبول للأعمال ولا صحة لها إلا بها.

هـ – الدين عند الله هو الإسلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] وعلى الناس الاستسلام لله تعالى في أوامره وأحكامه؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [البقرة:٢٠٨].

و – ليس هناك قيمة مادية تعلو على قيمة الإنسان وتُهدَر من أجلها قيمته؛ فهو مخلوق مكرم على سائر الخلائق، مستخلف من الله في الأرض، ومُسخَّرٌ له كلُّ ما فيها ليتيسر له عبادة ربه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء:٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

ز – الناس كلهم من أصل واحد، ومعيار التفاضل بينهم عند الله تعالى هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال ﷺ: **(لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى)** [السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠)].

ح – الولاء ورابطة التجمع الإنساني هي العقيدة لا الجنس، ولا القوم، ولا الأرض، ولا المصالح الاقتصادية أو السياسية، ولا أي اعتبار آخر من الاعتبارات الأرضية؛ فكل ما عدا الولاء للإسلام والمسلمين هو عصبية وعنصرية ممقوتة.

ط – الدنيا دار ابتلاء وعمل، والآخرة دار حساب وجزاء.

ي – من الثوابت: أصول الفضائل والأخلاق الحميدة، والرذائل والأخلاق الذميمة.

وخلاصة القول: القطعيات ومواضع إجماع العلماء كلها من الثوابت في الإسلام، ولا مجال فيها لتغيير أو تطوير أو اجتهاد، وهي تشمل مسائل الاعتقاد، وأصول الفرائض، وأصول المحرمات، وأصول الفضائل والأخلاق.

* * *

٤٤٩ – مفهوم ٩: الاجتهاد في المتغيرات لا يعني هدم الثوابت:

في المتغيرات مجال رحب لحركة الفكر سعيًا لتطوير الواقع الأرضي وترقيته، ولكن ينبغي أن تكون حركة التغيير داخل إطار من ثوابت الدين وتدور حول محور هذه الثوابت.

أما أهل العصرنة والعقلنة فيأخذون بمستجدات عصرهم ولو كان في ذلك هدم

للثوابت بحجة التجديد والتطوير.

* * *

٤٥٠ - مفهوم ١٠: التمسك بالثوابت إقرار بكمال الرب وجلاله وقصور الخلق:

ليس التمسك بالثوابت جمودًا ولا تحجرًا ولا تخلفًا، بل هو إقرار واقعي بآدمية البشر وقصور عقولهم ومحدوديتها، وربوبية الرب عز وجل وكماله وجلاله.

* * *

٤٥١ - مفهوم ١١: التمسك بالثوابت أمان من فتن الشبهات والشهوات:

وجود الثوابت ضمان للبشرية من شرود الفكر والغرائز في تيه الشبهات والشهوات؛ فالثوابت هي مقوم البشرية المنضبط بذاته.

* * *

٤٥٢ - مفهوم ١٢: فهم الصحابة رضي الله عنهم وفقههم هو الأصل في فهم الكتاب والسنة:

فهم الصحابة رضي الله عنهم وفقههم هو الأصل في فهم الكتاب والسنة؛ فهم الذين عاصروا التنزيل وتلقوه عن الرسول ﷺ مباشرة بلا واسطة، وهم الذين نقلوا عنه ﷺ ما سمعوه من أحاديث، فهم أدرى الناس بذلك، وكما قيل: ليس المُخبَر كالمُعاين، إضافة إلى ما لديهم من البلاغة واللغة العربية الفصحى، وما حباهم الله به من فراسة المتقين المخلصين.

* * *

عاشرًا: مفاهيم حول المصطلحات في العلم والفقه:

٤٥٣ - مفهوم ١: معنى كلمة مصطلح:

يُعرَّف المصطلح بأنه: اتفاق طائفة على وضع لفظ أو لفظين بإزاء معنى معين، ولهذا فقد يختلف معنى المصطلح باختلاف واضعيه المصطلحين عليه. ولئن قيل: «لا مشاحة في الاصطلاح» بمعنى أنه لا بأس بأن تتفق فئة معينة على اصطلاح معين، إلا أنه ينبغي تحديد المصطلح وتحرير معناه بدقة عند المصطلحين عليه لكيلا يحدث إشكال أو لبس في الفهم، ولكي تضيق دائرة الخلاف عند الحوار والنقاش.

* * *

٤٥٤ - مفهوم ٢: انضباط المصطلحات يقصر طريق التفاهم:

الأصل في المصطلحات أنها ذات فائدة كبيرة؛ حيث هي وسائل للتفاهم بأقصر طريق، وأوضح دلالة، وأقل مجهود. فإن كانت فيما له تعلق بالمفاهيم الشرعية فينبغي أن تكون مقيدة بالكتاب والسنة، وأن يُبتعد فيها عن التعبير بالألفاظ المجملة أو المشتبهة في المعنى.

❋ ❋ ❋

٤٥٥ - مفهوم ٣: تغيير دلالات المصطلحات تشويه لها وتلبيس على الناس:

يظلم بعض الضالين المصطلحات حين يُغيِّرون دلالات ألفاظها ليتلاعبوا بها ويوظفوها في التلبيس على الناس وإضلالهم؛ إما بتشويه الحق أو بتزيين الباطل. ومثال ذلك: مصطلح: (التسامح والسلام)؛ حيث يكون التسامح في الشرع عند المقدرة على استيفاء الحق، ويكون في حق من حقوق الدنيا، ويكون السلام مع المخالفين للإسلام وفق معاهدات مُحدَّدة بين ولاة الأمر والمخالفين، وتكون مؤقتة بمدة وضوابط وشروط، فيُحوِّل المغرضون هذا المصطلح من معناه الشرعي الصحيح إلى أن يكون أداة يهدمون بها عقيدة الولاء والبراء، ويبطلون شعيرة الجهاد في سبيل الله.

❋ ❋ ❋

٤٥٦ - مفهوم ٤: الازدواجية في فهم المصطلحات تؤدي إلى الاختلاف والفرقة:

الازدواجية في المصطلحات بين معانيها في الإسلام ومعانيها في الثقافة الغربية الغازية تؤدي إلى الاختلال في المفاهيم والسلوك بين أبناء الأمة الإسلامية، مع غلبة وهيمنة السلوك والمفاهيم الغربية؛ كما مثَّلنا له في المفهوم السابق، وكما في مصطلح: (تجديد الخطاب الديني)؛ حيث يصح بمعنى تجديد وسائل الخطاب وفق التقنيات الحديثة، ويبطل بمعنى تغيير ثوابت الدين وأصوله، فيؤدي الخلاف في فهمه إلى الاختلاف والفرقة بين المسلمين.

❋ ❋ ❋

٤٥٧ - مفهوم ٥: وجوب إحياء تدبر القرآن وفهمه فهمًا صحيحًا:

ضعف الإيمان والجهل بالإسلام في عصرنا الحالي أدى إلى سوء فهم معاني القرآن؛ مما يوجب إحياء تدبر القرآن وفهمه وفق التفسير بالمأثور الصحيح أولًا، ثم لغة العرب

وأساليبها ثانيًا.

* * *

٤٥٨ - مفهوم ٦: وجوب إعادة صياغة المصطلحات الملتبسة وفق الكتاب والسنة:

ينبغي لإزالة الفرقة والخلاف بين المسلمين أن تعاد المصطلحات إلى معانيها الأصلية بإعادة صياغتها وفهمها في ضوء القرآن والسنة.

* * *

٤٥٩ - مفهوم ٧: المصطلحات القرآنية ربانية المصدر:

المصطلحات القرآنية ربانية المصدر، فهي ثابتة ولا تتبدَّل، والواجب التمسك بها لفظًا ومعنى، وأي تغيير لمعانيها هو تحريف للكلم عن مواضعه؛ فالقرآن الكريم قسَّم الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق، فلا يعدل عن ذلك إلى تقسيمهم إلى: يميني ويساري، واشتراكي وعلماني، ونحن والآخر، ...إلخ.

* * *

٤٦٠ - مفهوم ٨: الشرط:

الشرط في اللغة معناه: العلامة، أما في الاصطلاح -اصطلاح الفقهاء- فهو: ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده الوجود؛ مثاله: الوضوء شرط لصحة الصلاة وتنتفي بانتفائه، ولا يلزم من وجوده وجود الصلاة.

* * *

٤٦١ - مفهوم ٩: الدليل:

الدليل هو ما أوصل إلى المعرفة أو اليقين، وكل لفظ له ثلاث دلالات:

الأولى: دلالة بالمطابقة؛ مثل دلالة الموصوف بالرحمة على أنه رحيم.

الثانية: دلالة بالتضمن؛ مثل دلالة الموصوف بالرحمة على أن له مشيئة. وكل صفة فعل تدل على المشيئة التي يفعل بها هذا الفعل.

الثالثة: دلالة باللزوم؛ كدلالة صفة الرحمة على الحياة؛ إذ لا يوصف بها إلا من كانت له حياة.

* * *

٤٦٢ - مفهوم ١٠: قطعي الثبوت:

هو ما ثبت يقينًا لا ظنًّا؛ فالقرآن الكريم قطعي الثبوت، والأحاديث المتواترة قطعية الثبوت؛ إذ المتواتر هو ما ثبت بالقطع لأن تعريفه أنه: ما نقله جمع عن جمع من أول السند إلى منتهاه تحيل العادة تواطؤهم على الكذب.

واشتراط قطعية الثبوت لنصوص العقائد -ومنه اشتراط تواتر الحديث- خطأ يَرُدُّ به المبتدعة أحاديث الآحاد في العقائد، ولو كانت صحيحة، وبذلك تعطل كثير من مسائل الاعتقاد التي لا تثبت إلا بالآحاد، وقد أجمع أهل السنة عليها.

* * *

٤٦٣ - مفهوم ١١: قطعي الدلالة:

هو كل نصٍّ لا يحتمل إلا معنى واحدًا. وكل ما انعقد عليه الإجماع فهو قطعي الدلالة؛ لأن الإجماع على دلالة النص يفيد قطعيتها وينقلها عن دائرة الظن.

والنص قطعي الدلالة قطعي الثبوت يفيد العلم الضروري أو اليقيني، ويكفر من ينكر العلم الضروري بعد إزالة الجهل عنه وإقامة الحجة عليه.

* * *

٤٦٤ - مفهوم ١٢: النسخ:

النسخ لغة هو: الرفع والإزالة. وشرعًا هو: رفع حكم شرعي بمثله متأخر عنه، ويفهم من التعريف أنه يشترط فيه معرفة الحكم المتأخر والحكم المتقدم لتحديد الناسخ من المنسوخ؛ فالحكم المتقدم هو المنسوخ، والحكم المتأخر هو الناسخ.

وهو ثابت في القرآن والسنة، ودليله من القرآن قول الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:١٠١].

* * *

٤٦٥ - مفهوم ١٣: إنكار اليهود للنسخ:

أنكر اليهود النسخ حتى لا يلزم من إثباته نسخ التوراة بالإنجيل والقرآن، والنصارى يُجَوِّزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله بآرائهم، أما المسلمون فهم الوسط وأهل الحق؛ فعندهم أن الله له الخلق والأمر؛ فلا شرع إلا ما شرعه الله على ألسنة رسله، وله أن ينسخ ما شاء؛ كما نسخ بالمسيح ما كان شرعه للأنبياء قبله، ونسخ بشريعة محمد ﷺ ما سبقه من الشرائع، وشرع أحكامًا في أول الإسلام ثم نسخها فيما بعد بنصوص من الكتاب أو السنة. وقد انتهى النسخ بوفاة النبي محمد ﷺ، فلا نسخ بعد ذلك.

* * *

٤٦٦ - مفهوم ١٤: المصلحة في الناسخ إما أعلى مما في المنسوخ أو مساوية له:

لا تكون المصلحة في الناسخ أقل منها في المنسوخ؛ بل هي إما أعلى منها أو مماثلة لها؛ قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦].

* * *

٤٦٧ - مفهوم ١٥: فرض الكفاية:

فرض الكفاية هو ما يجب على الأمة بمجموعها القيام به فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين. فينبغي على المسلمين أن يعدُّوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة -دينية كانت أو دنيوية- من يقوم بها ويوفر وقته عليها ويجتهد فيها أكثر من غيرها فتصبح فرضه الكفائي؛ وذلك لتقوم مصالح المسلمين كلها؛ فتتباين أعمالهم ولكن قصدهم واحد هو: قيام مصلحة دينهم ودنياهم. وقد أخذ العلماء هذا الفهم من قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

* * *

٤٦٨ - مفهوم ١٦: المجتهد:

هو العالم أو المفتي غير المقلد، الذي وصل في العلم إلى مرتبة تؤهله للبحث بنفسه في المسائل وإصدار الأحكام الشرعية بأدلتها، وله شروط وأحكام تبحث في مظانها في كتب أصول الفقه.

وإذا اجتهد المجتهد في المسألة فأصاب الحق فله أجران: أجر الاجتهاد، وأجر إصابة الحق. وإن أخطأ فلا يؤاخذ بخطئه ما دام قد بذل ما في وسعه في طلب الحق، وله أجر واحد هو أجر الاجتهاد في طلب الحق.

* * *

٤٦٩ - مفهوم ١٧: الحكم الذي يرفع الخلاف:

الحكم الذي يرفع الخلاف هو حكم الحاكم العالم -كالخلفاء الراشدين ومن نحا نحوهم- أما الحاكم الجاهل فيحتاج أن يرفع الجهل عن نفسه أولًا حتى يقبل حكمه.

* * *

٤٧٠ - مفهوم ١٨: الحق واحد:

الحق واحد لا يتعدَّد، وهو في قول أحد المجتهدين، وهو الذي له الأجران: أجر الاجتهاد وأجر إصابة الحق في ذاته، أما من عداه من المجتهدين فقولهم ليس بحق، وإنما فقط يُعْفون عن الخطأ في اجتهادهم لبذلهم وسعهم في ذلك، وينالون الأجر على هذا الاجتهاد مع عدم إقرارهم عليه.

أما من يزعمون تعدُّد الحق فيطلقون هذا الزعم بحجة التسامح في الأفكار وعدم فرض الرأي الواحد، فهم في حقيقة أمرهم يُمَيِّعُون كثيرًا من قضايا الدين ويبطلون العديد من أحكامه.

* * *

٤٧١ - مفهوم ١٩: التقليد:

يطلق التقليد على اتباع عالم أو مُفتٍ في كل ما يصدر عنه، سواء وافق الحق أو خالفه. وكل الأئمة نهوا عن هذا التقليد وذمُّوه.

والواجب على غير العالم يختلف باختلاف مرتبته: فإن كان طالب علم فحقه الاتباع؛ وهو أن يأخذ الحكم من العلماء بأدلته، ويختار ما يراه أرجح من الأدلة، فإن لم تكن لديه قدرة على الترجيح، أو كان من عوام الناس الذين لا يفهمون الأدلة والترجيح بينها، فواجبه أن يأخذ بقول من يظنه أكثر تُقى وصلاحًا، واستفاض القول بسعة علمه، وتطمئن إليه نفسه في ذلك.

٤٧٢ - مفهوم ٢٠: البدعة:

البدعة هي الأمر المحدث في الدين، ويعرفها بعض العلماء بأنها: «كل طريقة مخترعة في الدين تضاهي الطريقة الشرعية ويقصد بها المبالغة في التعبد لله». فهذه البدع محرمة وكلها ضلال ومردودة على أصحابها؛ قال ﷺ: (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**) [أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)].

أما المستحدث في أمور الدنيا؛ كالاختراعات، والأنظمة التي يُحتاج إليها ولا تعارض الشريعة؛ فلا ابتداع فيها.

* * *

٤٧٣ - مفهوم ٢١: البدعة تكون معصية أو كفرًا:

من البدع ما هو مجرد معصية، ومنها ما هو مُكَفِّر؛ كبدع الفرق الباطنية مثل: الإسماعيلية، والنصيرية.

* * *

٤٧٤ - مفهوم ٢٢: التأويل:

حتى نفهم مصطلح التأويل لا بد أولًا أن نعرف معناه في كلٍّ من اللغة، والقرآن الكريم، وعند الفقهاء والأصوليين، وفي أبواب العقيدة؛ لندرك بعد ذلك المعنى المحمود للتأويل والمعنى المذموم له.

* * *

٤٧٥ - مفهوم ٢٣: التأويل في اللغة:

الأَوْلُ هو المرجع والمآل والعاقبة والمصير؛ وصيغة التفعيل (تأويل) لا تقتضي وجود فاعل، بل هي واقعة موقع الصفة؛ فالتأويل هو وقوع الشيء على حقيقته ومآله ومصيره.

* * *

٤٧٦ - مفهوم ٢٤: التأويل في القرآن الكريم:

ورد لفظ «**التأويل**» في القرآن الكريم مرتبطًا بثلاثة أمور: آيات الكتاب، والرؤى، والأفعال، وهو في جميعها متوافق مع المعنى اللغوي:

- فعن تأويل آيات الكتاب جاء قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]؛ فتأويله أي: تحقق ما فيه من وعد ووعيد يوم القيامة. وهذا التحقق والوقوع يوم القيامة هو -على الأرجح- المقصود بتأويل المتشابه الوارد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]؛ حيث يريد الذين في قلوبهم زيغ فهم المتشابه من الآيات وفق ما يفهمونه في الدنيا، وتحقيقه على هذا الفهم؛ وذلك كما فهم أبو جهل من عدد خزنة جهنم التسعة عشر أنهم مثل البشر فيمكن هزيمتهم بعدد أكثر منهم، وأراد بذلك تضليل الناس وإزالة خوفهم من دخول النار. والحقيقة والواقع أنه: ﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فلا سبيل للبشر إلى العلم بحقيقته وعاقبته إلا بعد حصوله يوم القيامة.

- وأما تأويل الرؤى فقد ورد الحديث عنه في سورة يوسف في عدة مواضع كلها بمعنى تحقق الرؤيا في الواقع؛ منها قول يوسف لأبيه -عليهما السلام- ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠]؛ أي: هذا تفسير رؤياي وتحقيقها في الواقع.

- وأما تأويل الأفعال فمنه قول الخضر لموسى عليه السلام في آخر قصته معه: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أي: هذا هو حقيقة ما قمتُ به من أفعال وأمور أنكرتها أنت وتعجَّبتَ منها، ولم تصبر لمعرفة حقيقتها، ومن ذلك أيضًا: قول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان ﷺ يقول في ركوعه: (**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**)؛ يتأول القرآن» [رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٤٨٤)]؛ فقولها: «يتأول القرآن» أي: يحقق ما أمره الله به في كتابه من قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر:٣].

- ويطلق لفظ «**التأويل**» أيضًا على التفسير؛ كما في قول النبي ﷺ لابن عباس: (**اللهم**

فقِّه في الدين وعلِّمه التأويل) [أخرجه أحمد في المسند (٢٣٩٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم]، وكما يقول ابن جرير الطبري في تفسيره قبل كل آية: «القول في تأويل قول الله تعالى...» يقصد بذلك تفسير الآية، وهو يرجع أيضًا إلى المعنى اللغوي؛ حيث تفسير الشيء يوضح حقيقته.

❋ ❋ ❋

٤٧٧ - مفهوم ٢٥: التأويل عند الفقهاء والأصوليين:

عرَّف بعض الفقهاء والأصوليين التأويل بقوله: «التأويل هو صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به». والأصل أنه لا مشاحة في الاصطلاح إذا أريد به معنى صحيحًا، ولكن يتوجه الاعتراض فقط في هذا التعريف على كلمتي: (راجح) و(مرجوح)؛ لأنه إذا كان المعنى الذي يقال عنه مرجوحًا له دليل يقترن به ويقويه فهو حينئذ معنى راجح وليس مرجوحًا، وغيره هو المرجوح، لذا فالأولى أن يكون تعريف التأويل عند الفقهاء والأصوليين كالآتي: «التأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى خفي لدليل يقترن به»، وعندها لا يُعترَض على التعريف ومسلك التأويل في الفقه بهذا الاعتبار، شريطة أن يكون الدليل المقترن بالمعنى الخفي صحيحًا وسالمًا من المعارضة ليسوغ صرف اللفظ عن المعنى الظاهر المتبادر إلى المعنى الخفي.

❋ ❋ ❋

٤٧٨ - مفهوم ٢٦: التأويل في أبواب العقيدة:

لا يوجد تعارض حقيقي بين النصوص الواردة في أبواب العقيدة؛ لذا فلا مجال للتأويل فيها، وإنما يفعله المبتدعة لتأكيد معتقداتهم الباطلة، ويتكئون في ذلك على تعريف التأويل عند الفقهاء ويقرونه في باب العقيدة، وفي ذلك مغالطة كبيرة؛ إذ الدليل عندهم المقترن بالمعنى الخفي الذي يريدون ترويجه هو العقل وليس نصوص الشرع، وعند التحقيق نجد أن هذا الدليل المزعوم المقترن بالمعنى الخفي ليس العقل وإنما هو فهمهم للأمر وفق عقولهم القاصرة، وقد تقرر من قبل أن العقل الصريح لا يعارض بحال النقل الصحيح. فالتأويل في العقيدة هو في حقيقة أمره تحريف للكلم عن مواضعه.

❋ ❋ ❋

٤٧٩ - مفهوم ٢٧: الأشاعرة أشهر من عرفوا بالتأويل في العقيدة:

من أشهر من لجأ إلى التأويل في العقيدة: الأشاعرة، والحامل لهم على ذلك إيمانهم بإمكان تعارض العقل والنقل؛ وتقديم العقل عندئذ مع محاولتهم التوفيق المضطرب بين السلف والمعتزلة، فلم يجدوا سبيلًا لمنع مدلول النصوص دون ردِّها إلا بتأويلها الذي هو في حقيقة أمره تحريف؛ فهو مهرب عقلي سقيم من الالتزام بالنصوص ودلالاتها وللتخلص من معارضتها للعقل في ظنهم.

* * *

٤٨٠ - مفهوم ٢٨: تأويل الأشاعرة للصفات:

يُؤَوِّل الأشاعرة أسماء الله وصفاته بصفة من الصفات السبع التي أثبتوها لله بالعقل، وهي: **الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام**. وأكثر ما يكون عندهم هو تأويل أي صفة أخرى غير تلك الصفات السبع إما بصفة القدرة، أو بصفة الإرادة، فإن لم يجدوا التأويل مُساغًا لجأوا إلى التفويض؛ أي: تفويض المعنى المراد من الصفة إلى الله تعالى والتوقف عن بيان معناها، ويبررون ذلك بدعوى تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين؛ فالتنزيه عندهم يكون بأحد وجهين: التأويل أو التفويض. يقول قائلهم في ذلك:

وكل نصٍّ أوهم التشبيها * أوِّلْه أو فَوِّض ورُم تنزيها

* * *

٤٨١ - مفهوم ٢٩: تحريف لا تأويل:

صاحب الهوى إذا عجز عن ردِّ الدليل حرَّفه وسمَّى ذلك تأويلًا؛ قال تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

* * *

٤٨٢ - مفهوم ٣٠: تحريف الفرق الباطنية:

أشد من الأشاعرة في العمل بالتأويل المذموم: الفرق الباطنية؛ حيث يُؤَوِّلون النصوص حتى بدون دليل عقلي مزعوم أو شبهة دليل، وإنما يفعلون ذلك بالهوى المجرد؛ ومرادهم من ذلك الفرار من أحكام الشرع وإسقاط فرائضه، وإفراغ الإسلام

من مضمونه وحقيقته التي هي الإذعان والتسليم لشرع الله، ومن أمثلة ذلك: ادعاؤهم أن المراد بالصيام هو: كتمان السر، والجنابة هي: إفشاء السر.

* * *

٤٨٣ - مفهوم ٣١: حاجة الأمة إلى صيانة الآيات والأحاديث من التحريف:

كما صان الأولون أحاديث الرسول ﷺ من الكذب والوضع تحتاج الأمة من العلماء أيضًا أن يصونوا الآيات والأحاديث من التحريف والتأويل المذموم.

* * *

٤٨٤ - مفهوم ٣٢: علم المنطق:

علمٌ يتكلم عن التصورات والتصديقات، وكيفية إدراكها وإثباتها. ويزعم واضعوه أنه عبارة عن قواعد عامة تعصم مراعاتُها الذهنَ عن الخطأ في الفكر. وآفته الكبرى هي اعتماده على العقل فقط وجعله ندًّا للنصوص الشرعية.

وإن كان في علم المنطق بعض الجزئيات التي قد يُنتفع بها إلا أنها تضمحلُّ بجانب ما فيه من خطأ وتلبيس؛ فالأولى الابتعاد عنه فرارًا من الوقوع في باطله؛ وذلك من باب قول الله تعالى عن الخمر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]. فإن كانت هناك حاجة لمعرفته والإفادة مما فيه من صواب والرد على ما فيه من باطل فليدرسه بعض العلماء فقط ممن تضلَّعوا بعلوم الكتاب والسنة واعتصموا بهما من الوقوع في زلله وزَغَله، وليدرسوا معه كتاب: «الرد على المنطقيين» لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فقد أفاد فيه وأجاد ونقضه من أساسه، وقد سبق بذلك أوروبا؛ حيث نقده «هيجل» بعده بقرون.

* * *

٤٨٥ - مفهوم ٣٣: السفسطة:

مذهب باطل يطلق على كل من جحد الحقائق والقضايا الضرورية المسلمة، ويُسمَّى أهله بالسوفسطائيين، ويعتمدون في مذهبهم على الجدل المجرد وإنكار الحقائق، ولا غاية لهم نبيلة، بل مجرد السعي للاشتهار والمتاجرة بالعلم. وقد بدأ ظهورهم في اليونان وقت انتشار الفلسفة والمنطق، وكان يفيد منهم بعض المحامين في المحاكم اليونانية في إبطال الدعاوى المقامة ضد موكليهم.

٤٨٦ – مفهوم ٣٤: علم الكلام:

هو علم باطل يزعم أهله أنه يُتمكَّنُ بواسطته من إثبات العقائد الدينية. وقد ذمَّه السلف لأنه لا يوصل إلى المطلوب، وإنما يورث الشك فيما هو يقين، وإن أوصل إلى بعض المطلوب فمع التكلف والمشقة، وهو خلاف ما فرضه الله على عامة الأمة. وقد ندم كبار من اشتغلوا بعلم الكلام في آخر أيامهم على ما ضيَّعوه من عمر فيه، وتمنَّوا الموت على عقيدة عامة المسلمين؛ فهذا إمام الحرمين الجويني يقول عند موته: «لقد تركت أهل الإسلام وعلومهم وخضتُ البحر الخضم، والآن إن لم يتداركني ربي فالويل لي»، ثم يقول: «ها أنا ذا أموت على عقيدة عجائز نيسابور»، وقال مثل ذلك أيضًا الفخر الرازي.

❊ ❊ ❊

حادي عشر: مفاهيم حول محاذير في طلب العلم:

٤٨٧ – مفهوم ١: العلم الضار:

من العلم ما هو ضار بالناس، بل حتى بالمتعلم نفسه، وقد يكون كفرًا كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة:١٠٢].

❊ ❊ ❊

٤٨٨ – مفهوم ٢: الإنسان قد يوجه العلم بظلم منه إلى الإفساد في الأرض:

قد يكون العلم في أصله نافعًا، أو يصلح لأن يكون نافعًا، فيستعمله الإنسان بظلمه في الفساد والإفساد؛ كعلم الذرة وانشطارها، وما يمكن أن ينتج عنه من تطبيقات نافعة، فيعدل الإنسان عن ذلك ويستعمله في صناعة القنابل الذرية والهيدروجينية، ويبيد بها مئات الآلاف، بل الملايين من الناس.

❊ ❊ ❊

٤٨٩ – مفهوم ٣: من لا يحجزه علمه عن الغواية فلا يجديه نفعًا:

العلم الذي لا يمنع صاحبه من اتباع أهواء أعداء الله لا يجدي صاحبه نفعًا، بل يعرضه للخذلان والعذاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

* * *

٤٩٠ – مفهوم ٤: استكبار العالم بعلمه ناجم عن جهله بنفسه وبالله ﷻ:

لو علم المرء أن علمه هبة من الله، وأنه لا يساوي ذرة في علم الله تعالى، لما استكبر وحادَّ الله بعلمه، بل إن استكبار المتعلم بعلمه ناجم في الحقيقة عن جهله بالله ﷻ، وجهله بنفسه وبنسبة علمه إلى علم الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥].

* * *

٤٩١ – مفهوم ٥: العلم يطلب ببذل الجهد وسلوك سبله:

من الآفات في طلب العلم: التفريط فيه والاكتفاء بنتف منه عن طريق الرسائل والكتيبات الصغيرة، والتسجيلات، والمقاطع الخفيفة السريعة المنشورة على وسائل التواصل الاجتماعي، وهذه الوسائل وإن كانت نافعة وطيبة إلا أن مجالها الوعظ والتذكير أو الثقافة العامة، أما الدروس العلمية والتأصيل العلمي فلا بد له من بذل الجهد ومجالسة العلماء في حلقات العلم، أو التخصص في الجامعات والمدارس الشرعية.

* * *

٤٩٢ – مفهوم ٦: إيثار الدنيا والعلم الحقيقي لا يلتقيان:

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتاواه وأحكامه؛ لأن أحكام الله ﷻ كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة منهم، فإذا اتبع العالم شهوة حب الدنيا وأرضى أصحاب الرياسات فسوف يتنازل بسبب ذلك عن كثير من الحق ويضاده؛ قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ

خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف:١٦٩]، فأخبر سبحانه أن أهل العلم من اليهود الذين ورثوا الكتاب أخذوا العرض الأدنى؛ أي: متاع الحياة الدنيا، ولو تكرر لهم ذلك لقدَّموا الدنيا على قول الحق في كل مرة.

❋ ❋ ❋

٤٩٣\ - مفهوم ٧: تعفُّف أهل العلم عن أعطيات السلطان:

تعفُّف أهل العلم عن أعطيات السلطان يُقوِّي هيبتهم، ويجعل كلمتهم مسموعة وقدرهم مرفوعًا، وقبولهم لها فيه احتقار لمكانتهم وإذلال لهم.

❋ ❋ ❋

٤٩٤ - مفهوم ٨: أعطيات السلطان مدفوعة الثمن:

كل أعطيات السلطان مدفوعة الثمن إما عاجلًا أو آجلًا، فليحذر العالم من الأخذ حتى لا يُطلب منه دفع الثمن، فيكون ذلك على حساب دينه، وهو من أعظم السحت؛ قال الله تعالى عن أمثال هؤلاء من علماء بني إسرائيل: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة:٤٢] .

❋ ❋ ❋

٤٩٥ - مفهوم ٩: كاتم الحق عند الحاجة إليه كالمتكلم بالباطل:

كاتم الحق عند حاجة الناس إليه كمن تكلم بالباطل؛ وهو من أعظم الظلم؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٤٠]، وقد لعن الله كاتم الحق من أهل العلم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

❋ ❋ ❋

٤٩٦ - مفهوم ١٠: كاتمُ الحق وملبسُه بالباطل ظالم للناس ولنفسه:

كما يظلم كاتمُ الحق وملبسُه بالباطل الناسَ بفعله الأثيم، فهو يظلم نفسه أيضًا أشد الظلم بتحميلها أوزار كل من يضلون بسببه؛ قال الله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

❋ ❋ ❋

٤٩٧ - مفهوم ١١: كتمان الحق ولبسه بالباطل يتداخلان:

غالبًا ما يقترن كتم الحق بلبسه بالباطل، أو يستلزم أحدهما الآخر؛ فصاحب العلم المفتون إذا وجد الناس جُهالًا كتم عنهم الحق، وإذا وجد لديهم شيئًا من العلم بالحق لبَّسه عليهم وخلطه بالباطل ليصرفهم عن الحق الخالص.

❋ ❋ ❋

٤٩٨ - مفهوم ١٢: أمران يتسبب أيٌّ منهما في كتم الحق أو تلبيسه بالباطل:

يحمل العالم على كتم الحق أو تلبيسه بالباطل: إما خوف الأذى من أهل الباطل، أو حب الشهوات والطمع في الدنيا الفانية:

- فكتم الحق وتلبيسه بالباطل طمعًا في الدنيا لا يجوز بحال وهو من أعظم الذنوب كما سبق، ولبس الحق بالباطل خشية الأذى لا يسوغ أيضًا؛ لأنه يوقع الناس في الضلال، وقد لا يوجد من يبين ذلك لهم ويحميهم منه.
- أما السكوت فقط عن الحق خشية الأذى الشديد الذي قد لا يتحمله المرء، وقد يفتن في دينه بذلك، فربما يسوغ حينئذ له ذلك السكوت إذا رجا أن يجهر غيره بالحق ممن هو أقدر منه على تحمل الأذى، أو هو بمنأى عن حصوله له؛ والأمر منوط أولًا وآخرًا بتقوى الله تعالى ودرء المفسدة قدر المستطاع، والخلاصة: «**إذا عجزتم عن قول الحق فلا تقولوا الباطل**».

❋ ❋ ❋

٤٩٩ - مفهوم ١٣: الفتاوى الباطلة تُشرِّع المنكرات وترسخها في المجتمع:

مهما انتشرت المنكرات في المجتمع فهي لا ترسخ إلا بتشريعها، ويشرعها عالم السوء بفتواه الملبسة للحق بالباطل، أو بكتمه للحق وسكوته عن الإنكار، فيحسب الناس سكوته تشريعًا وإقرارًا للمنكر. وأخطر وأشد ما يكون ذلك إذا تواطأ عليه عالم السوء مع الحاكم القاهر؛ فيؤدي ذلك إلى طمس الشريعة وتغيير المفاهيم.

❋ ❋ ❋

٥٠٠ - مفهوم ١٤: تأصيل كتمان الحق:

أعظم أنواع كتمان الحق وتلبيسه بالباطل هو تأصيل كتمان الحق نفسه وإضفاء الشرعية عليه، ونقله من صفة الاستثناء القهري المؤقت إلى أن يصبح هو الأصل المشروع، ويقلب المعروف والحق في أفهام الناس إلى منكر وباطل.

ومن صوره الخطيرة: أن يعجز المرء عن الجهر بالبراءة من المشركين والكفر بالطاغوت لسبب مؤقت من الأسباب؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨]، فيستمرئ المرء مداراة الكافر في كل وقت، وتتحول المداراة إلى مداهنة وموالاة، وتؤصَّل هذه المداهنة الناشئة عن ضعف الإيمان فتصبح هي الأساس، ويُنادى بالتسامح الديني وتقارب الأديان المزعوم.

❋ ❋ ❋

٥٠١ - مفهوم ١٥: اعتقاد حكم لمسألة ما قبل الاستدلال عليه:

من المحاذير في العلم اعتقاد حكم معين لمسألة ما وتبنِّيه قبل الاستدلال عليه؛ فذلك من الهوى، وعلى طالب الحق أن يتجرَّد من الهوى قبل الاستدلال على الحكم؛ لأن صاحب الهوى لن يعدم شبهة دليل على هواه؛ فقد زعم إبليس دليلًا على صحة استكباره عن السجود فقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦]. وفِعلُ الباطل دون تدليل عليه، والإقرار بأنه باطل؛ كل ذلك أهون عند الله من الاستدلال عليه؛ فالأول معصية، والثاني استحلال يؤدي إلى الكفر عياذًا بالله.

❋ ❋ ❋

٥٠٢ - مفهوم ١٦: طوائف المعارضين للإسلام ومنهجه الرباني:

كل من يعارض الإسلام ومنهجه الرباني إنما يعارضه بالهوى بعيدًا عن العلم والاستدلال الصحيح، ولا يخرج عن أحد أربع طوائف:

أ - من يعارضونه بما يظنونه أدلة عقلية يقدمونها على النصوص.

ب - من يعارضون الأدلة النصِّية بالقياس والرأي، وهم يدَّعون الفقه في الدين.

ج - من يعارضون الأدلة بالذوق والوجد المجرَّد، ويسمون أنفسهم أهل الحقيقة

مقابل العلماء الملتزمين بالأدلة الشرعية، والذين يسمونهم: أهل الشريعة، أو يقولون: أنتم أهل الظاهر ونحن أهل الباطن.

د – من يعارضون الشرع بالسياسة؛ من أمثال الحكام الجبابرة الذين ينتهكون شرع الله لأجل إقامة مُلْكِهِم، ولا يبالون بذلك.

❋ ❋ ❋

٥٠٣ – مفهوم ١٧: الجدال وأضراره:

الجدال والمراء في الدين شرٌّ ونذير فرقة وخصومة، ولا ينتهجه إلا صاحب هوى يبحث عن مسائل الخلاف ويثيرها، ويسكت عن مسائل الإجماع فلا ينصرها ولا يجابه بها أهل الضلال.

❋ ❋ ❋

٥٠٤ – مفهوم ١٨: من صفات الراسخين في العلم:

أهل العلم الراسخون لا يجادلون بالباطل ولا يمارون في الحق امتثالًا لقول النبي ﷺ: **(أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا)** [رواه أبو داود (٤٨٠٠)]، وإن اختلفوا فيما بينهم فإنما يختلفون فيما يسوغ فيه الخلاف، ويكون خلافهم مبنيًّا على الدليل والاجتهاد فيه، وهذا هو الجدال بالتي هي أحسن، ويرجى أن يكون فيه رحمة، أما الخلاف بالباطل لأجل الجاه والمكانة، أو المنصب، أو المال فهو نقمة ووبال ولا رحمة فيه.

❋ ❋ ❋

٥٠٥ – مفهوم ١٩: التقليد:

تقليد العامي للعالم الذي يثق في دينه واتباعه للدليل سائغ ولا يستغنى عنه. أما التقليد الأعمى للشيخ -حتى وإن خالف الدليل- فهو من التعصُّب لآراء الرجال، وهو مذموم منهي عنه؛ حيث يفضي إلى القول بعصمة الأئمة والعلماء من الخطأ، وأن كل ما يخالف أقوالهم من النصوص فهو مؤول أو مردود، ولسان حال هؤلاء الأتباع المتعصبين يقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]؛ قال الشافعي: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من أهل العلم».

٥٠٦ – مفهوم ٢٠: ضرر التقليد الأعمى:

التقليد الأعمى والتعصب لآراء الرجال إثم يفضي إلى التحزُّب والفرقة في صفوف المسلمين، ويبعد الأمة عن الدليل، ويربطها بآراء الرجال المُعرَّضة للخطأ والصواب.

❊ ❊ ❊

٥٠٧ – مفهوم ٢١: لا يتصدر للإفتاء إلا الراسخون في العلم:

ينبغي ألا يتصدَّر لإفتاء الناس إلا عالم راسخ في علمه، بصير بنصوص الكتاب والسنة، مدرك لكيفية الاستنباط منها. ولخطورة شأن الفتوى كان السلف –رحمهم الله– يتحاشونها قدر الإمكان، ويتمنى كل واحد منهم لو يكفيه أخوه مؤونة الفتوى، فإن لم يوجد غيره اضطر حينئذ للإفتاء وهو ملازم لتقوى الله والقول بما يعلمه فقط، وإن كان يجهل الحكم قال: لا أدري.

❊ ❊ ❊

٥٠٨ – مفهوم ٢٢: التعالم وتصدُّر أحداث الأسنان للفتوى:

من الآفات الخطيرة في شأن العلم والفتوى: التعالم وتصدُّر الشباب وأحداث السن للفتوى، ورجوعهم المباشر لنصوص الكتاب والسنة لأخذ الأحكام منها بمعزل عن فهم السلف لها ودون أن يكون لهم من العلم والضوابط ما يؤهلهم للإفتاء والحكم في المسائل؛ خاصة إن كانت من المسائل العضال، فنجد أنه:

- ربما أفتى أحدهم بما لا يدل عليه النص حقيقة لعدم معرفته باللغة العربية، وطرق دلالة الألفاظ على الأحكام.
- أو يفتي بناء على معرفته لنص واحد في المسألة دون جمع سائر النصوص الواردة فيها، والتي يختلف بالنظر فيها مجتمعة حكم المسألة عما أفتى به هو.
- أو يفتي بناء على نص من السنة لا تثبت صحته، ولا علم له بذلك.
- أو يقف عند المتشابه ولا يردُّه إلى المحكم.

فبسبب ذلك كله وغيره مما لا يدركه إلا العلماء الراسخون يجانب الشابُّ الحدثُ الصوابَ في فتواه. وقد قال الشافعي: «إذا تصدَّر الحدثُ فاته علم كثير».

❊ ❊ ❊

٥٠٩ - مفهوم ٢٣: سبب الرئيس لتصدر الشباب للفتوى:

السبب الرئيس لتصدُّر الشباب والأحداث للفتوى هو تقصير أو إقصاء العلماء عن أداء مهمتهم، وتخلِّيهم عما وُكِل إليهم شرعًا من مسؤولية، فيتجه الشباب لملأ الفراغ الذي خلَّفه تقاعس العلماء عن وظيفتهم. ويفعل الشباب ذلك بحسن نية أو بدونها؛ إذ لا يخلو الأمر غالبًا من حب للشهرة وتصدُّر المجالس، أو عُجْب، أو رياء، أو غير ذلك من أمراض القلوب.

❋ ❋ ❋

٥١٠ - مفهوم ٢٤: حسن النية لا يعفي الشاب المتعالم من المسؤولية:

لا تُعفي حسن النية الشاب المتعالم من المسؤولية؛ فالخطأ في الفتوى لا يتعلق بالنيات بل بالقول على الله بغير علم، وإضلال الناس؛ ففيه الوعيد الشديد والإثم الأكيد؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال النبي ﷺ: **(إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)** [رواه البخاري (١٠٠)]، وقال ﷺ أيضًا: **(من أشراط الساعة أن يُلتمس العلم عند الأصاغر)** [رواه ابن المبارك في الزهد، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٩٥)].

❋ ❋ ❋

٥١١ - مفهوم ٢٥: علاج ظاهرة التعالم:

علاج ظاهرة التعالم والقول على الله بغير علم يكون بالنهضة العلمية التي تشمل:

- الإكثار من الأنشطة العلمية وإبرازها، وإعلاء شأن العلماء الربانيين وتمكينهم من أداء دورهم في المجتمع.
- الاهتمام بطلاب العلم وتأهيلهم لبلوغ مرتبة العلماء، وتربيتهم على الإخلاص والعمل بما يعلمون.
- إنشاء مراكز أبحاث علمية تنظر في نوازل الأمة، وتؤصِّل لحلولها الشرعية.

❋ ❋ ❋

٥١٢ - مفهوم ٢٦: مسائل الخلاف ومسائل الاجتهاد:

- لا يفرق البعض بين مسائل الخلاف ومسائل الاجتهاد، ويشيع عند أصحاب هذا الفهم المغلوط مقولة: «لا إنكار في مسائل الخلاف»، وهي مقولة خاطئة واعتقاد فاسد؛ إذ ليس كل خلاف معتبرًا يسوغ العمل بمقتضاه بأي وجه من أوجهه، بل إن الخلاف الذي يعارضه نصٌّ من الكتاب أو السنة هو خلاف شاذ غير معتبر ومردود على صاحبه.
- ويلزم على هذا القول الفاسد أن يقتصر الإنكار في شريعة الإسلام فقط على المنكرات القطعية الضرورية المجمع على كونها منكرة.
- والاختلاف ليس حجة في ذاته، بل الكتاب والسنة حجة على المختلفين من الأولين والآخرين.
- وقد يخالف عالم في مسألة لعدم بلوغه الحديث الوارد فيها، أو لاعتقاده عدم صحته، أو لذهوله عنه حين الخلاف؛ وحينئذ لا يجوز متابعة هذا العالم مع وجود الدليل المخالف لقوله، ...إلى غير ذلك من الأسباب التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).
- ومن لوازم هذا القول الفاسد مخالفة عقدية خطيرة: فحين تُرَدُّ السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ لأجل وجود من خالف في هذه المسألة فهذا يعني أن أقوال النبي ﷺ وأوامره لا تكتسب شرعيتها إلا حين يتفق عليها الناس. وهذا مسلك خطير يُخالف أصل الإسلام الذي معناه الاستسلام لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ.
- والعبارة الصحيحة التي تقبل في هذا المجال هي: «**لا إنكار في مسائل الاجتهاد**»؛ فمسائل الاجتهاد هي التي ليس فيها دليل ملزم ونصٌّ صريح يجب العمل به وجوبًا ظاهرًا، أو كان الاجتهاد في فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد؛ فحينئذ يجوز الاجتهاد في المسألة لتعارض الأدلة أو خفائها، ويأخذ المرء بما يؤديه إليه اجتهاده إن كان عالمًا، أو بما يطمئن إليه ويثق فيه من اجتهاد العلماء إن كان مقلدًا.

❊ ❊ ❊

٥١٣ - مفهوم ٢٧: الأخذ بالأيسر من أقوال العلماء:

وهذا مفهوم خاطئ أيضًا، وهو متفرع عن المفهوم الخاطئ السابق وأشد منه. ويعتمد في أساسه على أن الدين يسرٌ ولا حرج فيه، فمهما وُجِد اختلافٌ بين العلماء في مسألة ما - ولو كان القول المخالف شاذًّا ومخالفًا للأدلة- جوَّز ذلك بزعم أصحاب هذا المفهوم الذهاب إلى القول الأيسر والأخذ به دون النظر إلى أدلة كل قول.

ويُرَدُّ على هذا المفهوم الخاطئ بالردود نفسها على المفهوم الذي قبله، ويُضاف إليها أن اليسر في دين الله هو ما كان موافقًا للأدلة، وما رآه الشرع يسرًا، لا ما وافق الهوى والتشهي في اعتماد الأحكام.

* * *

٥١٤ - مفهوم ٢٨: جمع شواذ المذاهب تفصيل لدين جديد:

من يجمع شواذ المذاهب فإنه لا يؤصِّل لدينه، وإنما يُفصِّل دينًا يناسب هواه.

* * *

٥١٥ - مفهوم ٢٩: الحيل الشرعية:

ليس في الشرع حيل يُتوصَّلُ بها إلى إسقاط واجب، أو ارتكاب محرم، أو جعل الحق باطلًا والباطل حقًّا؛ فقد ذمَّ الله تعالى الذين يعتدون في يوم السبت من اليهود ويتحايلون على صيد الحيتان بوم راحتهم وسبتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣]. فلما قاموا بهذا التحايل مُسخوا قردة؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

وكان اعتداؤهم أنهم لما وجدوا الحيتان تأتي بكثرة يوم السبت -وهو اليوم الذي نُهوا عن العمل فيه- جعلوا الشباك والحفر في البحر قبل يوم السبت، فإذا ما وقعت فيها الحيتان يوم السبت استخرجوها يوم الأحد؛ هذا هو تحايلهم الذي مُسخوا به قردة خاسئين؛ لكونه مكرًا أشد من معصية الصيد يوم السبت نفسها.

أما ما يشرع من الحيل فهو ما يُتوصَّلُ به إلى تحقيق الشرع واستيفاء الحقوق؛ كتخليص الحق من الظالم المانع له؛ فهذا النوع من الحيل محمود ومشروع، ومثاله: ما قام به نبي الله يوسف عليه السلام من حيلة وضع صواع الملك في متاع أخيه ليتوصَّل بذلك إلى ضمِّه إليه، ومن ثَمَّ مجيء سائر أهله بعدها. ويلاحظ أنه مع فعله لهذه الحيلة لم يقع في الكذب ووَصْفِ أخيه بالسرقة؛ فلم يقل: «معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق»، بل قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف:٧٩].

* * *

٥١٦ – مفهوم ٣٠: دعوى تقسيم الدين إلى قشور ولباب:

يزعم البعض تقسيم الدين إلى جوهر ولباب يقابله قشور وأشكال، ويدعون إلى الاهتمام بالجوهر واللباب دون القشور والأشكال، وأن هذا هو الأولى بالتركيز. وربما زاد عليهم البعض وطالب بالتعامل مع روح النص دون ظاهره ومنطوقه، ولعمر الله تلك دعوى عريضة ومقولة منكرة تفضي إلى أضرار جسيمة.

والحق أنه ليس في الدين قشور، بل كله لباب محكم ومشرع من قبل العليم الخبير؛ كامل وشامل، لم يشرع فيه شيء عبثًا، بل كل شيء فيه بحكمة ولصالح العباد، ونحن مأمورون بالتعبد لله في كل ما أمر به أو نهى عنه؛ صغيرًا كان أو كبيرًا؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة:٢٠٨]، و﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ هنا هو الإسلام؛ فالمقصود الالتزام بجميع الإسلام: أركانه، وواجباته، ونواهيه.

وتأمل كيف حذَّر الله في آخر الآية من تتبع خطوات الشيطان؛ وهي تشمل ما يوسوس به من إهمال ما يزعم أنه واجبات صغيرة أو شكلية، ويُهوِّن من إتيان صغائر الذنوب بدعوى أنها لا تهدم الجوهر والمضمون الكلي للإسلام.

* * *

٥١٧ – مفهوم ٣١: دوافع دعوى تقسيم الدين إلى قشور ولباب:

يمكن إيعاز الدافع للدعوى السابقة إلى أحد أمرين:

١) النظرة الثنائية للأمور، واعتقاد أن إتيان أحد الأمرين يقتضي ويستلزم إهمال الآخر. وهذه النظرة وإن أمكن افتراض حسن نية صاحبها وسلامة مقصده، إلا أنها تظل نظرة قاصرة لا تتحقق إلا في الأمرين المتناقضين فحسب، وما عدا ذلك من الأمور لا يمتنع الجمع بينها، بل ربما استُحِبَّ ذلك أو وجب؛ فللإسلام أركان، وفرائض وواجبات، ومستحبات، ومباحات، ومكروهات، ومحرمات، وتحقيق أركانه لا يعني بحال إهمال فرائضه وواجباته، بل الصحيح أن الفرائض والواجبات مكملة ومتممة للأركان، والرسول ﷺ كما وجَّه إلى تحقيق تقوى القلوب أرشد إلى كيفية التحلِّي بالسمت والهدي الظاهر من تقصير للثياب وإعفاء للحى... إلخ.

٢) النية السيئة والقصد الخبيث لهدم الإسلام من خلال الدعوة إلى الأخذ بروح النص دون منطوقه مواكبة للعصر بزعمهم؛ وتلك دعوى العصرانيين والعلمانيين والفرق الباطنية، وغرضهم هدم الإسلام الحق، والتحلل من ربقة تكاليفه.

❋ ❋ ❋

٥١٨ – مفهوم ٣٢: مفاسد دعوى تقسيم الدين إلى قشور ولباب:

لهذا الفهم الخاطئ مفاسد وأضرار عدة؛ منها:

أ – التفلُّت من أعمال الهدي الظاهر والنوافل، والاستهانة بالمكروهات وصغائر المعاصي والوقوع فيها، وهذا يُضعِف التسليم لأوامر الله ونواهيه وتعظيمها.

ب – السخرية ممن يلتزم بأعمال الهدي الظاهر، ورميه بأنه يهتم بالقشور والأشكال ولا يعرف المضمون واللباب.

ج – إذابة الفوارق الظاهرة بين منهج الحق وسائر المناهج؛ مما يؤدي إلى تداخل المفاهيم والتباسها، فتضطرب الرؤية ويتيه الناس في مفاوز الرضا بالواقع وتبريره، وإضفاء الشرعية عليه بزعم أنه لا يخالف روح النصوص.

❋ ❋ ❋

ثاني عشر: مفاهيم حول المناظرة:

٥١٩ – مفهوم ١: المقصود بالمناظرة:

المناظرة هي الحوار والجدال بين طرفين حول موضوع معيَّن، لكلٍّ منهما وجهة نظر فيه تخالف الآخر، ويحاول كلٌّ منهما إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر الآخر، أو التوصل بالمناظرة إلى أن المسألة المتناظر فيها هي من مواطن الاجتهاد التي يسعها الخلاف ولا توجب فرقة، مع الرغبة الصادقة في ظهور الحق والاعتراف به عند ظهوره.

* * *

٥٢٠ – مفهوم ٢: من تناظر؟

الأولى طلب مناظرة العلماء، وترك مناظرة الجهال؛ لأنها لا تقوم على أصول يُرجع إليها عند الخلاف، وإنما تُبنى على الهوى فتزيد الناس جهلًا وشبهة، وربما يغلب الجاهلُ خصمَه ويُسكته بالمكابرة لا بقوة الحجة. وصدق الإمام الشافعي حين قال: «ناظرت عالمًا فغلبته، وناظرني جاهلٌ فغلبني».

* * *

٥٢١ – مفهوم ٣: كيفية مجادلة المكابر:

المكابر إن جادل في أشياء فلا يستطيع أن يجادل في كل شيء، فليحرص من اضطر إلى مجادلته أن يعدل عما يجادل فيه إلى ما لا يمكنه المجادلة فيه؛ ليلزمه من خلاله بالاعتراف بالحق؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام مع من حاجه في ربه؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

* * *

٥٢٢ - مفهوم ٤: أصول تراعى قبل المجادلة لتكون بالحق:

يجب على العالم قبل المناظرة أن ينظر إلى من يناظره: هل يؤمن بالقطعيات والبدهيات أم يجادل فيها أيضًا! فإن كان لا يؤمن بها فلا فائدة من مناظرته في الفروع، فذلك مضيعة للوقت. كما يجب على المتناظرين الاتفاق على منهج الاستدلال، وإلا فإن هوة الخلاف ستتسع ولن يصلا إلى نتيجة.

* * *

٥٢٣ - مفهوم ٥: تحرير محل النزاع:

لا بد أيضًا قبل المناظرة من تحرير محل النزاع حتى لا يضيع الوقت في أمور هي موضع اتفاق بين الطرفين، أو حتى لا يتشعَّب النقاش ويجادَل في أمور خارجة عن المقصود أو أدنى رتبة مما يُنكره المناظَر؛ فقد يكون من تناظره في تحريم الاختلاط يرى إباحة تبرج المرأة أو خلو الرجل بها مثلًا؛ فالصحيح حينئذ العدول عن الكلام في الاختلاط إلى التناظر في حرمة التبرج والخلوة.

* * *

٥٢٤ - مفهوم ٦: من آداب المناظرة:

من آداب المناظرة التي يُرجى نفعها بإذن الله: تقديم المتفق عليه بين المتحاورين على المختلف فيه؛ فهذا أدعى إلى تأليف قلب المناظَر وقبوله للحق؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [البقرة:١٣٩]؛ قدَّم الاتفاق على وحدانية الرب على اختلافهم في العمل.

* * *

٥٢٥ - مفهوم ٧: مجادلة أهل الكتاب:

ينبغي ألا تكون مناظرة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]. ومن ذلك ألا نردَّ كلَّ ما لديهم لمجرد أنهم يقولون به، بل نقبل ما وافق الحق منه.

أما المعاندون المتكبرون من أهل الكتاب فالموقف تجاههم هو الإعراض عنهم.

* * *

٥٢٦ - مفهوم ٨: ما خالف الحق فهو باطل أيـًّا ما كان:

ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم العبد به يستوجب أيضًا أن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تُورَد عليه فاسدة؛ حتى ولو لم يقدر صاحب الحق على تفنيدها والرد عليها على وجه التفصيل؛ فلا يوجب عجزه عن تفنيدها القدحَ فيما جزم به من حق وقامت الأدلة عليه؛ لأن ما خالف الحق فهو باطل أيًّا ما كان؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]. فبهذه القاعدة الجليلة ينحل عن الإنسان كل ما يورده المتكلمون من إشكالات وشبه وإن لم يعرف جوابها بالتفصيل؛ فوظيفته في الأصل أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

* * *

ثالث عشر: مفاهيم حول العلوم الدنيوية:

٥٢٧ - مفهوم ١: الحضارة الإسلامية والعلوم الدنيوية:

الحضارة الإسلامية في شتى العلوم الدنيوية -كالهندسة، والطب، والفلك، وتخطيط المدن، وغيرها- سابقة للحضارة الغربية بقرون، وهي الأصل الذي بنى عليه الغرب حضارته الحديثة، ولكنهم لا يذكرون ذلك ولا ينسبون الفضل لأهله، ومن أنصف منهم في أن الحضارة الغربية الحديثة مرجعها حضارة سابقة عليها فلا يسميها الحضارة الإسلامية، وإنما يقول: حضارة الشرق، أو حضارة العرب؛ مع أن أغلب المخترعين في ظل حضارة الإسلام لم يكونوا من العرب. وفي كتمان الغرب لهذه الحقيقة إقصاء متعمد لدور الإسلام والمسلمين في تطوير الحياة وعمارة الأرض.

* * *

٥٢٨ - مفهوم ٢: العلوم الإنسانية:

مصطلح العلوم الإنسانية ظهر في الغرب مقابل العلم الإلهي الذي كانت تدعو إليه الكنيسة الكاثوليكية، ثم انتقل إلى الشرق وبلاد المسلمين، ولا يزال مستخدمًا، ويعني: العلوم المتعلقة بالإنسان عمومًا؛ مثل: علم النفس، وعلوم التربية، والاجتماع، ...إلخ.

فإن قصد الغرب بهذه التسمية فصل الكلام في هذه العلوم عن ما شرعه الله فيها فهذا

باطل لا يصح؛ إذ ليس هناك من هو أعلم بالخلق من الله؛ قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، أما إن اقتصرنا في هذه التسمية على مجرد تمييز هذه العلوم مع الإقرار بما شرعه الله فيها فحينئذ نقول: لا مشاحة في الاصطلاح.

* * *

٥٢٩ - مفهوم ٣: الحث على تعلُّم علم التاريخ:

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:٦٥] فيه حثٌّ على تعلُّم علم التاريخ، وبيان أنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى المخالفة لما يقرره التاريخ، وعلى هذا فهو علم له علاقة مباشرة بعلوم الشريعة وليس علمًا دنيويًّا صرفًا.

* * *

٥٣٠ - مفهوم ٤: مصادر التاريخ:

المؤرخون اليوم لا يعتمدون إلا على النقوش المكتوبة على الصخور والجدران وحدها؛ وذلك بسبب التحريف الذي ثبت لديهم في التوراة والإنجيل. وهذا قصور شديد؛ فللتاريخ مصادر كثيرة؛ أهمها جميعًا: كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم السنة النبوية الصحيحة، ثم التواريخ الموثَّقة، ثم تأتي المصادر الأخرى مثل: أخبار أهل الكتاب، وما يقوله الإخباريون، والنقوش المكتوبة، وأمثال ذلك.

* * *

٥٣١ - مفهوم ٥: اتصال علوم الدنيا بتذكر خالق الكون يجعلها عبادة لله:

لو اتصلت العلوم الدنيوية التي تبحث في الكون، وفي نواميسه وسننه، وفي قواه ومدخراته، وفي أسراره وطاقاته؛ لو اتصلت كل هذه العلوم بتذكر خالق الكون والشعور بجلاله، وعظمته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، ورحمته؛ لصارت من فورها عبادة لخالق الكون، ولاستقامت الحياة بهذه العلوم واتجهت إلى الله تعالى؛ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]، وفي

آخر آية سورة آل عمران التي تشبه الآية السابقة قال الله تعالى بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]. ولكن الاتجاه المادي الكافر يقطع الصلة بين الكون وخالقه؛ فلذلك يتحول العلم في كثير من الأحيان إلى لعنة وآفة تدمر الحياة البشرية.

❋ ❋ ❋

٥٣٢ – مفهوم ٦: الداروينية:

في عام ١٨٥٩م أحدث كتاب: «أصل الأنواع» لمؤلفه تشارلز داروين ضجة لم يحدثها كتاب آخر في التاريخ الأوروبي قاطبة. والكتاب يدور حول افتراض تطور الحياة في الكائنات الحية من السهولة إلى الدقة والتعقيد، وأن أصل الكائنات الحية ذات الملايين من الخلايا كائن حقير ذو خلية واحدة، ثم تطور إلى أنواع نمى منها ما استطاع التكيف مع الطبيعة وفق ما سُمِّيَ بقانون الانتخاب الطبيعي والبقاء للأنسب، واستمر في الرقي وإنتاج أنواع جديدة راقية كان من أرقاها: القردة التي نتج عنها كائن أرقى منها هو الإنسان، مع الإقرار بأن هناك حلقة مفقودة بين القرد والإنسان. وسُمِّيَ هذا الخرص بنظرية داروين، أو «نظرية التطور». وهي في حقيقتها لا تعدو كونها مجرد فرضية تقوم على الخرص والتخمين، ولا تستند إلى أي برهان تصلح به أن تصبح نظرية فضلًا عن أن تكون حقيقة.

ومع مصادمة هذه الفرضية لما أجمعت عليه الشرائع من أن أصل الإنسان هو أبونا آدم وزوجه التي خلقت منه، فقد ردَّها أيضًا كثيرون من علماء عصر داروين، وكذلك العلماء المحققون من لدن عصره إلى العصر الحالي، حتى مع محاولة المتمسكين بها الدفاع عنها وتعديلها لتلافي ما وُجِّه إليها من انتقادات.

❋ ❋ ❋

٥٣٣ - مفهوم ٧: أسباب انتشار نظرية داروين:

على الرغم من أنه يُفترض أن تكون معارضة نظرية داروين كفيلة بالقضاء عليها وإلغائها من أساسها، إلا أنها راجت وانتشرت في العالم أجمع، بل فُرِضَ تدريسُها في المناهج الدراسية قاطبة؛ وسبب ذلك أمران:

١) أنها فرضية ظهرت في فترة الصراع بين العلم والدين المسيحي في أوروبا ممثلًا في الكنيسة وطغيانها حينئذ، فانتُصِرَ لها للتخلص من هذا الطغيان، خاصة أن نظرة المسيحية المحرفة للإنسان وخلقه تزعم أنه أسير لخطيئة أبيه آدم، وأنه لا مخلص له إلا الإيمان بابن الإله الذي فدى نفسه لخلاص البشرية كما زعموا.

٢) تلقِّي الصهاينة لها ودعمها ونشرها بقوة لإفساد البشرية، وليتتج عنها كثير من الضلالات مثل: الإلحاد وانهيار الدين، نفي الغاية والقصد من الخلق، حيوانية الإنسان وإغراقه في الجنس، سيطرة المادية الجدلية، ...إلخ؛ يقول البروتوكول الثاني من برتوكولات حكماء صهيون: «لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء، ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحًا لنا على التأكيد».

ونحمد الله أن هذه الفرضية الضالة المضلة قد أفل نجمها في العصر الحالي، وردَّها جُلُّ أهل العلم، وأضْحت من الماضي؛ خاصة بعد اكتشاف الصبغيات في الخلية (الكروموسومات)، وإثبات ما يُعرف بـ(الشفرة الوراثية) مما لم يكن معروفًا وقت داروين.

* * *

رابع عشر: مفاهيم حول محاربة أهل الباطل للعلم والعلماء:

٥٣٤ - مفهوم ١: محاربة أهل الباطل للعلم الشرعي بالتشويش عليه:

لما كان أهل الباطل لا يقوون على مجابهة العلم وأهله لجأوا إلى محاربة العلم الشرعي بحجبه عن الناس أو الشوشرة عليه؛ كما فعل كفار قريش قديمًا وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، وكما أحرق أعداء ابن تيمية كتبه، وكما يمنع الطغاة المعاصرون كتب أهل العلم المعارضة لهم، ويحجبون المواقع المعارضة كذلك.

* * *

٥٣٥ - مفهوم ٢: إشغال الناس بمعايشهم وبالترفيه عن العلم الشرعي:

ومن أساليب محاربة انتشار العلم: إشغال الناس عنه بمعايشهم وبوسائل اللهو المتعددة من: رياضة، ومسابقات، ومسلسلات، وفوازير، ...إلخ؛ بحجة الترفيه، وحقيقته تضييع ما يُسمَّى بأوقات فراغ الناس في الباطل كي لا يتجهوا إلى طلب العلم الشرعي.

* * *

٥٣٦ - مفهوم ٣: التنفير من المذاهب الفقهية:

ومن الأساليب أيضًا: التنقيب عن الأقوال المتشددة الغالية في كل مذهب، وجمعها وسردها في سياق واحد، وتكرير ذلك في صور شتى ليؤثر في العقول وينفرها من المذاهب الفقهية كلها، وكل ما فيها من علم وحق.

* * *

٥٣٧ - مفهوم ٤: محاربة أهل العلم أنفسهم:

إضافة إلى محاربة العلم يحارب أهل الباطل حملة العلم والحق أنفسهم إما بالسجن والتعذيب -وذلك مشهور وغني عن التوصيف- أو بتشويه صورة أهل العلم ليسقطوا من أعين الناس وينفروا عنهم، وإذا سقط الحامل سقط معه المحمول؛ قال فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[الشعراء:٢٧]، وقال كفار قريش لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦].

* * *

٥٣٨ - مفهوم ٥: احتواء الغرب لعلماء المسلمين أو التخلص منهم:

يسعى الغرب لاحتواء من نبغ من المسلمين في العلوم العصرية والإفادة منهم، فإن لم ينجحوا في ذلك سعوا إلى قتلهم والخلاص منهم كما فعلوا بعالم الذرة المصري: يحيى المشد.

* * *

مفاهيم في

أعمال القلوب وأمراضها

مفاهيم في أعمال القلوب وأمراضها

أولا: مفاهيم عامة في أعمال القلوب:

٥٣٩ – مفهوم ١: بين أعمال القلوب وأمراضها:

تطلق **أعمال القلوب** على الطاعات الباطنة النابعة من القلب؛ كالإخلاص، والتوكل، والخوف والرجاء، والمحبة، ...إلخ.

بينما يغلب على المعاصي الباطنة الصادرة عن القلب مسمى: **أمراض القلوب**؛ كالحسد، والغل، والحقد، والرياء، ...إلخ.

* * *

٥٤٠ – مفهوم ٢: أثر أعمال القلوب الباطنة على أعمال الجوارح الظاهرة:

ترتبط أعمال الجوارح الظاهرة بأعمال القلوب الباطنة ارتباطًا وثيقًا؛ فلا تصح الأعمال الظاهرة ولا تنفع إلا بصحة أعمال القلب الباطنة؛ فالصلاة رياءً فاسدة، والزكاة رياءً كذلك باطلة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٦٤]، ولذا فإن أعمال القلوب وإصلاح السرائر أوجب على العبد من أعمال الجوارح -مع وجوب كليهما- وبصلاحها تصلح الظواهر وبفسادها تفسد، وقد قال ﷺ: (**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**) [رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)].

وهل تتميز حقيقة المؤمن الصادق عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال والأحوال؛ فالقلوب هي محل نظر الله ﷻ كما قال ﷺ: (**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**) [رواه مسلم (٢٥٦٤)]، فسبحان من كان السر عنده علانية، وخفايا القلوب له بادية.

وخلاصة القول: إن المطلوب هو أن يحرص المرء على أن يحقق كلاً من عبودية الجوارح وعبودية القلب، وأن يكون الظاهر متوافقًا مع الباطن ونابعًا منه. وهذا هو ما أضنى السلفُ أنفسَهم في العناية به لتنقية سرائرهم من الشوائب والآفات.

٥٤١ - مفهوم ٣: أثر أعمال الجوارح الظاهرة على القلوب وأعمالها الباطنة:

كما أن لأعمال القلوب أثرًا بالغًا على أعمال الجوارح وصحتها فإن لأعمال الجوارح الظاهرة أيضًا تأثيرًا ملموسًا على القلوب وأعمالها؛ فإن كانت هذه الأعمال الظاهرة طاعات فهي تؤثر إيجابيًا على القلب وأعماله، وإن كانت معاصٍ فهي تؤثر سلبًا على القلب وأعماله.

* * *

٥٤٢ - مفهوم ٤: أثر معاصي الجوارح الظاهرة على القلب وأعماله الباطنة:

لمعاصي الجوارح على القلب آثار وخيمة، لعل من أبرزها:

١ - ظلمة في القلب وحيرة؛ فكما أن الطاعة نور في القلب فإن المعصية ظلمة له، وكلما قويت المعصية وكثرت ازدادت الظلمة والحيرة، حتى تذهب بصيرة القلوب؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

٢ - وهن القلب وذل صاحبه؛ فالمعصية تورث الذل كما أن العز في طاعة الله تعالى؛ وقد أنشد عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذلَ إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها

٣ - الصدأ والران على القلب؛ كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، وقال ﷺ: (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبُه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه) [رواه ابن ماجه (صحيح ابن ماجه ٣٤٤١)، والترمذي (٣٣٣٤) وقال حسن صحيح، وحسَّنه الألباني في مواطن عديدة]. وبهذا الران يختم على القلب فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، ويصير للشيطان سلطان على صاحبه.

٤ - ذهاب غيرة القلب على محارم الله أن تنتهك؛ فترى صاحب المعاصي لا يعبأ بانتهاك محارم الله أو محاربة دينه وابتلاء الصالحين.

٥ - ذهاب الحياء من القلب؛ فلا يستحيي من الله ولا من العباد، ويجاهر بالمعاصي، ولا يخفى على أحد التلازم بين ارتكاب المحرمات وقلة الحياء.

٦ - ذهاب تعظيم الله ووقاره من القلب حتى يستخف العاصي بذلك ويستهين بأمر الله،

ثم يصير الأمر إلى وحشة بين العبد وربه وكل من يُذَكِّرُه به من أهل الصلاح.

٧ - إذا استوحش المرء من الله ومن أهل الصلاح مرض قلبه وضعف عن فعل الطاعات وعن الترقِّي في مراتب الكمال، حتى يؤول الأمر به من الكسل واستثقال الطاعة إلى الكراهية والنفور؛ فلا ينشرح صدره لطاعة ولا يتحرج من معصية.

وبالجملة، فإن المعاصي الظاهرة وكثرتها تُقَسِّي القلب وتميته، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي.

* * *

٥٤٣ - مفهوم ٥: أثر طاعات الجوارح الظاهرة على القلب وأعماله الباطنة:

الجوارح هي منافذ القلب وثغوره؛ فمهما استعملت الجوارح في الطاعات كان ذلك تقوية للقلب وسندًا له؛ تمامًا كما تسهم قوة الثغور في قوة عاصمة الدولة وسلطانها:

- فهل يخفى كيف أن الصلاة تورث القلب الرضا والطمأنينة والخشوع والإنابة؟!
- وهل يخفى أثر الصيام على التقوى والإخلاص واليقين؟ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].
- وكذلك لا يخفى ما يورثه الجهاد في سبيل الله من حب للآخرة، وزهد في الدنيا، واستسلام لله، وثبات على الحق.

ويكفي لبيان أثر طاعات الجوارح على أعمال القلوب أن نُفَصِّل القول في آثار طاعة واحدة من الطاعات على القلب؛ وهي طاعة غض البصر عن المحرمات؛ فذلك يورث الآتي:

١ - يجمع القلب على حب الله والأنس به، بينما يتسبب إطلاق البصر في صرف القلب عن الله وتشتته، ويوقع الوحشة بين العبد وربه.

٢ - أنه يُكسي القلب نورًا كما أن إطلاقه يورثه الظلمة؛ ولهذا أمر الله أولًا المؤمنين والمؤمنات بغض البصر كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ [النور:٣٠]، وقال: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، ثم ذكر بعد تفصيل ذلك آية النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ

شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور:٣٥] للإشارة إلى أن نور المرء الذي يغض من بصره مستمد من نور الله تعالى وتوفيقه؛ فبهذا النور تحصل الهداية وتمتنع البدع والضلالات.

٣ – أن غض البصر يقوِّي القلب ويفرحه، ويورثه الفراسة الصادقة التي يميز بها بين الحق والباطل، والصادق والكاذب.

٤ – أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة.

٥ – أنه يفرغ القلب للتفكر في مصالحه والاشتغال بها بدلًا عن أن يصرفه إطلاق البصر عن كل ذلك ويوقعه في الغفلة.

٦ – وأخيرًا، فإن غض البصر يحفظ القلب من سهام إبليس المسمومة الموجهة إليه؛ فالشيطان يدخل بوساوسه إلى القلب مع النظرة المحرمة وينفذ إليه أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي؛ فيمثل له الصورة المنظور إليها ويزينها في خاطره، ويعده ويمنيه، فيلهب قلبه بها، ويشغله بذلك عن الطاعات.

❋ ❋ ❋

٥٤٤ – مفهوم ٦: شطط المتصوفة في أعمال القلوب:

كما اعتنى السلف الصالح ﭫ بالقلوب وأعمالها وأحوالها اعتنى أيضًا المتصوفة بذلك، ولكنهم بالغوا فيه مبالغة تتجاوز حدود الكتاب والسنة في توصيف أعمال القلوب وتفصيلها؛ ولذا فقد شطوا في ذلك المجال وضلوا من حيث أرادوا الهداية؛ فلا تكاد تجد عملًا من أعمال القلوب إلا ولهم فيه ضلال وانحراف؛ فمن ذلك:

١ – **ضلالهم في الرضا**: حيث جاوزوا الحد في الرضا بقضاء الله وقدره، فخلطوا بين إرادة الله الكونية وإرادته الشرعية، واعتقدوا وجوب الرضا بالكفر والفسوق والعصيان بحجة أنه لو لم يكن الرضا به مطلوبًا لما وقع في الكون، فوقعوا بذلك في الجبر المحض تحت ستار عبارات لهم في ذلك غالية غامضة مثل: «شهود الحقيقة الكونية»، و«الاستبصار بسر الله في القدر».

٢ – **ضلالهم في محبة الله**: حيث أدَّى تعظيمهم لها إلى احتقار كلٍّ من الخوف والرجاء؛ أعني الخوف من الله تعالى وعذابه، ورجاء جنته وثوابه، وعَدُّوا ذلك أضعف

مقامات السالكين إلى الله، وزعموا أن عبادة الله تكون لذاته فحسب لا طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره، وجعلوا ذروة المحبة هي الفناء في المحبوب، وهي عندهم خاصة بأولياء الله فقط، ومقامهم عندهم أعلى من مقام الأنبياء.

وبسبب هذا الضلال منهم في المحبة قال السلف فيهم: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق». والصحيح أن يُعبد الله بكل من المحبة والخوف والرجاء.

٣ – **ضلالهم في التوكل على الله**: حيث جعلوا التوكل تواكلًا رخيصًا وتسوُّلًا، وتعمَّدوا إلحاق الضرر بأنفسهم بتركهم للأسباب المشروعة والدعاء الذي هو أعظم العبادة ولبها، فضلًا عن غفلتهم عن أعظم درجات التوكل، وهي: التوكل على الله في إقامة دينه والجهاد في سبيله، ومقاومة الكفر والفساد كما كان توكل الأنبياء عليهم السلام.

٤ – **ضلالهم في الزهد**: حيث أخرجوه من كونه عملًا قلبيًّا إيجابيًّا إلى مظهر سلبي حرَّموا به الطيبات من الرزق، كما حرَّموا طلب العلم، وزعموا أن من يشتغل به له الشريعة أما هم فلهم الحقيقة؛ لأن العلم يؤدي إلى تقدير الناس للعالم ويشغل عن الجمعية على الله، وهذا ينافي الزهد. فجعلوا الزهد فقرًا وجهلًا، وسموا أنفسهم: الفقراء.

* * *

ثانيًا: مفاهيم حول القلب السليم:

٥٤٥ – مفهوم ١: القلب السليم:

القلب السليم هو الذي ينفع صاحبه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩]، وهو الذي وصف الله تعالى به نبيه إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٣،٨٤].

وترتكز حقيقة هذا القلب السليم على التحلي والتخلي؛ التحلي بالأعمال والاعتقادات القلبية الصالحة التي هي أساس صلاح الأعمال الظاهرة، والتخلي عن الأعمال والاعتقادات القلبية الفاسدة.

ومن آكد أنواع التخلي: السلامة من الاعتراضات التي تفسد على القلب تسليمه لخبر الله عز وجل في كتابه وخبر رسوله ﷺ في السنة الصحيحة، وتفسد عليه تسليمه لأمر الله عز وجل الشرعي وأمره القدري.

ومن التخلي أيضًا: السلامة من الإرادات الفاسدة التي تفسد عليه محبته وإخلاصه، وتوكله، وخوفه ورجاءه من الله تعالى.

* * *

٥٤٦ - مفهوم ٢: تحقيق التوحيد يثمر القلب السليم:

كل من تحقق لديه توحيد الله في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته فهو بلا شك صاحب قلب سليم:

- فمن تحقق لديه توحيد الألوهية تحقق فيه: إخلاص العبادة، والمحبة، والخشية، ...إلخ.
- ومن تحقق لديه توحيد الربوبية تحقق فيه: التوكل على الله، واليقين بوعده، والرجاء، واللجوء إليه سبحانه، ...إلخ.
- ومن تحقق لديه توحيد الأسماء والصفات عرف أسماء الله الحسنى وصفاته العلى معرفة كاملة فأثَّرتْ في قلبه وأثمرت العمل القلبي المناسب لكل صفة من صفاته سبحانه؛ فيتوب لله تعالى متعرِّضًا لصفات: العفو، والرحمة، والمغفرة، ويتوكل على الله متعرِّضًا لصفات: الرزاق، الوهاب، المنان، ...إلخ، ولهذا فسَّر كثير من السلف «**القلب السليم**» بأنه: القلب السالم من الشرك [ينظر تفسير ابن كثير للآية ٨٩ من سورة الشعراء].

* * *

٥٤٧ - مفهوم ٣: تحقيق أعمال القلوب يمنع أمراضها:

لئن كان تحقيق التوحيد يثمر أعمال القلوب الصالحة، فإن تحقيق أعمال القلوب الصالحة يمنع أمراضها:

- فمن يتحقق قلبه باليقين بحكمة الله ﷻ في كل ما يقضيه من أقضية كونية وشرعية لا يحقد على أحد، ولا يحسد أحدًا على ما ينعم الله عليه من خير وعطاء لإدراكه لحكمة الله سبحانه في كلٍّ من العطاء والمنع.
- ومن يتحقق قلبه بالتوكل على الله ينتفي عنه كل من مرض الخوف والهلع من المصائب، ومرض الفرح والبطر والطمع في حطام الدنيا ومتاعها الزائل؛ قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا

﴿يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢،٢٣].

- ومن يتحقق قلبه بمحبة الله تعالى والمسكنة له سبحانه يمتلئ قلبه بالتواضع وشدة الافتقار إلى الله، ويمتنع عليه الكبر والخيلاء، والرياء، والعجب.

* * *

٥٤٨ - مفهوم ٤: صاحب القلب السليم وتعامله مع الخلق:

صاحب القلب السليم ينشغل بإصلاح نفسه عن الوقوع في عيوب الناس وأعراضهم، بل حتى لو آذاه الناس فهو لا يشغل قلبه بما ناله من أذى، ولا يطلب الثأر لنفسه، وإنما يجمع قلبه على ما يحقق صلاحه وصلاح المسلمين؛ لإدراكه أن ذلك أنفع لهم جميعًا.

* * *

٥٤٩ - مفهوم ٥: سلامة القلب لا تعني البله والغفلة:

سلامة القلب لا تعني الجهل بالشر وأهله، ولا الانخداع لهم، وإنما صاحب القلب السليم يعرف الشر ويتوقاه، ويعرف أهل الشر ولا ينخدع لهم؛ كما رُوي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لست بخبٍّ، ولا يخدعني خب»، والخب هو اللئيم، فكان عمر رضي الله عنه أعقل من أن يُخدع، وأورع من أن يَخدع.

فالفرق بين سلامة القلب والبله والغفلة أن سلامة القلب تكون بعدم إرادة الشر بعد معرفته، لا السلامة من معرفته والعلم به، أما البله والغفلة فهما جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد بل هو نقص؛ فالكمال أن يكون القلب عارفًا للشر سالمًا من إرادته.

* * *

٥٥٠ - مفهوم ٦: قلب المؤمن وازع له عن ارتكاب المحرمات:

القلب المؤمن مملوء بوازع الإيمان الذي يزعه ويزجره عن ارتكاب المحرمات؛ فهو أنفع له وأجدر من كل العبارات التي تحذر من كثير من المنكرات مثل: «الفساد تعطيل للتنمية وهدر للموارد»، و «لا للمخدرات»، و«التدخين ضار بالصحة». ولا مانع من ذكر مثل هذه العبارات التي تبين المفاسد من الناحية الدنيوية، ولكن بعد تحفيز وازع الإيمان في قلب المؤمن ببيان المفاسد الدينية أولًا؛ كضعف محبة الله عز وجل، وضعف تعظيمه والتسليم له.

* * *

٥٥١ - مفهوم ٧: القلب المؤمن وإدراكه للقيم السامية:

قلب المؤمن هو الذي يعقل الأمور والقيم في حياته الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦]؛ ولذا فهو يدرك قيمًا سامية عديدة؛ حيث:

- يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال، والرؤية الواضحة بعد الغبش والحيرة.
- ويدرك قيمة الطمأنينة بالحق بعد القلق والاضطراب.
- ويدرك قيمة التحرر من العبودية للعبيد بعبوديته لله وحده.
- ويدرك قيمة الاهتمامات العالية الرفيعة عوضًا عن اللهو والأغراض الدنيئة الحقيرة.

❊ ❊ ❊

٥٥٢ - مفهوم ٨: من لوازم القلب الواحد:

قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤]، والآية في أصلها إبطال للظهار والتبني الذي ينسب المتبنَّى لغير أبويه؛ فكما أنه ليس للمرء إلا قلب واحد فكذلك لا يوجد له إلا أم واحدة وأب واحد، وما عدا ذلك فهو وهم باطل لا حقيقة له. والآية تشير أيضًا إلى أنه يلزم من كون للمرء قلب واحد الآتي:

أ - أن يكون له منهج واحد يسير عليه في حياته.

ب - وتصور واحد للحياة والوجود يستمد منه القلب الواحد أعماله ومفاهيمه.

ج - وميزان واحد يزن به القيم، ويُقوِّم به الأشياء والأحداث.

فيعيش المرء حياته، ويعمل أعماله، ويتصرف تصرفاته بنسق واحد ومفهوم واحد؛ فلا يملك صاحب العقيدة الراسخة في قلبه أن يقول مثلًا: فعلت كذا بصفتي الشخصية، وفعلت كذا بصفتي الإسلامية؛ كما يفعله رجال السياسة والإعلام والإدارة.

وهو بهذا القلب الواحد يعيش فردًا، ويعيش في أسرته، ويعيش في الجماعة، وفي الدولة، وفي العالم، كما يعيش به سرًّا وعلانية، عاملًا وصاحب عمل، حاكمًا ومحكومًا، ويعيش به في السراء والضراء، وفي جميع الأحوال؛ فلا تتبدل موازينه ولا قيمه ولا تصوراته.

ثالثًا: مفاهيم حول بعض الأعمال القلبية:

٥٥٣ - مفهوم ١: التقوى:

التقوى عمل قلبي، ومصطلح إسلامي فريد ربما لا يوجد له مرادف في اللغات أو الشرائع الأخرى. وهي مشتقة من (الوقاية)، ومقصودها الأساس هو أن يجعل المرء بينه وبين غضب الله وعذابه وقاية، ولكنها مع هذا تحمل في طيَّاتها معان ومفاهيم سامية جليلة؛ فهي حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتَوَقٍّ لأشواك الطريق؛ طريق الحياة الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك الرجاء الكاذب ممن لا يملك إجابة الرجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك ضرًّا ولا نفعًا...إلى غير ذلك من أشواك الحياة وابتلاءاتها، ولهذا تنَّوعت عبارات السلف في تعريف التقوى والتعبير عنها؛ فمن أشهر ما قيل فيها: «هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل» [وهو مروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه]، وقال طلق بن حبيب: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُبي بن كعب رضي الله عنه عن التقوى ما هي؟ فقال أُبي: يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقًا فيه شوك؟ قال: نعم. قال: ما فعلت؟ قال عمر: أُشمِّر عن ساقي، وأنظر إلى مواضع قدمي، وأُقدِّم قدمًا وأُؤخر أخرى مخافة أن تصيبني شوكة. فقال أُبي بن كعب: تلك التقوى. وأخذ بهذا المعنى ابن المعتز فأنشد:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى ... واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

فاللهم ارزقنا تقواك، وأعنا على العمل لرضاك.

* * *

٥٥٤ - مفهوم ٢: التقوى هي معيار التفاضل وميزانه:

يقيم جل الناس التفاضل بينهم وفق اعتبارات أرضية مختلفة من: مال وجاه، أو سلطان ونفوذ، أو علم دنيوي، ...إلخ، ولكن الله تعالى يرشدنا إلى المعيار القويم عنده،

والميزان الذي ينبغي أن توزن به أقدار الناس وقيمهم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]؛ فالتقوى هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل؛ وهي قيمة سماوية بحتة لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها، ومطلوب منا أن نقيم الناس بهذا المعيار السماوي المطلق من اعتبارات الأرض الوضيعة.

* * *

٥٥٥ – مفهوم ٣: الإخلاص:

الخاء واللام والصاد (خلص) أصل واحد في اللغة يفيد التنقية والتهذيب والتصفية. [ينظر معجم مقاييس اللغة].

والإخلاص والصدق قريبان من بعضهما البعض في المعنى، إلا أن الصدق يكون في الأقوال والأعمال بينما يختص الإخلاص بعمل القلب، كما أن الصدق ضده الكذب، والإخلاص ضده الرياء؛ فعدم الصدق في العبادة أو العمل معناه الكذب فيهما، وذلك بانتفاء (إرادة) الله بهما؛ وذلك هو النفاق، بينما عدم الإخلاص في العبادة أو العمل معناه انتفاء (إفراد) الله بالإرادة والتوجه؛ فغير المخلص يريد الله تعالى بعمله ويريد معه شيئًا آخر، فعمله غير صافٍ لله تعالى؛ وذلك هو الرياء والشرك. فالكاذب في العبادة أو العمل منافق، وغير المخلص فيهما مراء مشرك؛ ولهذا يكثر الحديث عن الصدق في السور التي تتحدث عن النفاق وأهله كسور: التوبة، والأحزاب، والمنافقون، بينما يكون الحديث عن الإخلاص في السور التي تتعرض للشرك وأهله كسور: الزمر، وغافر، والبينة.

وقد أمرنا الله بالإخلاص في غير ما آية من القرآن؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:١١]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وحذرنا من عاقبة الشرك الذي هو ضد الإخلاص فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**) [رواه مسلم (٢٩٨٥)]، فالشرك يبطل العمل ويحبطه، والإخلاص في العمل كالروح للجسد؛ فالفرق بين عمل بإخلاص وعمل لا إخلاص فيه كالفرق بين الإنسان الحي والتمثال الشاخص.

٥٥٦ - مفهوم ٤: فهم خاطئ للإخلاص:

يترك بعض الطيبين بعض الأعمال الصالحة خشية عدم الإخلاص فيها أو صعوبة تحققه، حتى يَؤُول بهم الأمر إلى السلبية والقعود عن أعمال البر والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وهذا من تزيين الشيطان ومداخله الخطيرة؛ حيث يتحول الإخلاص إلى عمل سلبي يعوق عن فعل الخير.

والحق أنه على المرء أن يجاهد نفسه في تحقيق الإخلاص في جميع طاعاته، ويندفع إلى كل عمل يُرضي الله ﷻ، ولا يلتفت إلى وساوس الشيطان بترك ما يحبه الله ويرضاه خشية الرياء وعدم الإخلاص فيه؛ فالإخلاص ينبغي أن يكون عملًا قلبيًّا إيجابيًّا يدفع المرء إلى فعل كل ما يستطيعه مما يحبه الله ﷻ مبتغيًا بذلك مرضاة الله وحده.

❊ ❊ ❊

٥٥٧ - مفهوم ٥: صدق النية:

تتفق صدق النية مع الإخلاص في المعنى؛ فنية المرء الصادقة للعمل تعني إخلاصه فيه، إلا أنها تضيف إلى ذلك معنى آخر يرتبط بالإخلاص ويتعلق بالعزم على العمل في المستقبل؛ فمن الصدق في النية: الصدق في العزيمة على فعله إذا تمكَّن منه؛ إذ قد تكون للمرء نية طيبة لفعل خير ما لكن عزيمته ضعيفة لا تقوى على مواجهة تحديات هذا العمل ومشاقه، أو تُخذل نيته بالكسل والفتور؛ فهذا الضعف والتردد والكسل يضاد صدق النية ويضعفها حتى يؤدي إلى ترك المرء للعمل والقعود عنه.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم: قصة طالوت ومن آمن معه؛ حيث عزموا على القتال مع طالوت ومواجهة العدو، فلما تعرضوا للابتلاء بالعطش مع وجود النهر انهارت قوى كثير منهم وشربوا منه رغم عدم السماح لهم إلا بغرفة واحدة، ثم لما جاوز طالوت النهر بالقلة الذين نجحوا في الاختبار خارت نية كثير منهم أيضًا وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة:٢٤٩]، ولم يثبت معه على الحق إلا أقل القليل ممن صدقت نيتهم وقوي يقينهم بالله ونصره وقالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، ودعوا ربهم وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠]،

فكانت النتيجة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥١]، فالنية الصادقة والعزيمة الأكيدة تستجلب مرضاة الله ﷻ، وتحقق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

* * *

٥٥٨ - مفهوم ٦: إخلاص العمل من بدايته إلى نهايته:

ربما يدخل المرء في العمل بإخلاص ونية طيبة صادقة، لكن لا تلبث أن تُلوِّث هذه النية بعض الرغبات والشهوات والأهواء، فينبغي أن نحرص على الإخلاص في العمل من أوله إلى آخره بحيث يكون خروجنا منه كدخولنا فيه، وأن ندعو الله تعالى أن يوفقنا لذلك؛ وهذا من معاني قول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠، وينظر في ذلك تفسير القرطبي].

* * *

٥٥٩ - مفهوم ٧: الخوف والرجاء:

الخوف والرجاء عملان قلبيان يسعى الإسلام لتحريرهما من المخاوف الزائفة والأطماع الزائلة، ويوجههما التوجيه الصحيح الذي يصدر عن النفس السوية المهتدية، النفس التي ينبغي عليها أن تخاف كما ينبغي لها أن ترجو؛ ولكن تخاف وترجو الخوف والرجاء المحمودين: الخوف من الله وعذابه، ورجاء رحمته وثوابه؛ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧] .

فأما المخاوف الأرضية الزائفة فيدعو القرآن إلى التحرر منها بالالتجاء إلى الله وحده؛ كما وجه الله ﷻ موسى وهارون -عليهما السلام- إلى عدم الخوف من فرعون وبطشه، فقال: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وأما رجاء المؤمنين فقد قال الله ﷻ عنه: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]؛ فالمؤمنون يرجون ثواب الله على أعمالهم، كما يرجون كل ما يحقق العدل وينشر الحق في الأرض بإقامة دين الله وقمع أعدائه. أما متاع الدنيا الزائل فإن كان من غير طريق الحق أو يلهي عن ذكر الله وما والاه فلا ينبغي أن يكون مما يرجوه المؤمن؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ

نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

* * *

٥٦٠ – مفهوم ٨: الخوف من الله من لوازم الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣]؛ فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله. والخوف المحمود هو ما حجز العبد عن محارم الله.

* * *

٥٦١ – مفهوم ٩: العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا يحقق كلًّا من الخوف والرجاء:

كلما كان العبد بالله أعرف كان له أخشى وأخوف؛ كما قال الرسول ﷺ: **(إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا)** [رواه البخاري (٢٠)]، فمن يعرف الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا فيعلم عظمة الله وقدرته سبحانه، ويعلم سمعه لكل المسموعات، وبصره لكل المبصرات، وعلمه للغيب والشهادة وكل ما تكنه الضمائر والصدور، ويعلم عظمة انتقام الله ممن عصاه وكفر به، من يعرف كل هذا وهو صاحب قلب سليم فلا بد أن يورثه ذلك الخوف من الله تعالى وخشيته في السر والعلن. ولما كانت الملائكة أعلم المخلوقات بالله سبحانه وصفاته كانوا أخشاها لله تعالى؛ كما قال ﷻ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

كما يحقق العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا أيضًا الرجاء؛ فمن يعلم عن ربه أنه: غفور، ودود، حنان، منان، قريب مجيب للدعوات، يفرح بتوبة عبده إليه؛ من يعلم كل ذلك عن ربه يشتد رجاؤه فيه وفي ثوابه؛ يعرف قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦] فيتعرَّض لقرب الله ويأنس به، ويدعوه بكل ما يحب.

* * *

٥٦٢ - مفهوم ١٠: الخوف من الله يوجب عدم الأمن من مكره:

ينبغي على العبد الذي يخاف الله تعالى ويخشاه ألا يكون آمنًا على ما معه من إيمان، بل لا يزال خائفًا أن يبتلى ببلية يسقط فيها وتسلبه إيمانه؛ وعليه أن يلزم دعاء: **(يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)**[رواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٣)، وصححه الألباني (صحيح الأدب المفرد (٥٢٧)]؛ فعلى المؤمن أن يعلم أنه لو وُكِلَ إلى نفسه وأمن مكر الله لوقع في الخسران المبين؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

❋ ❋ ❋

٥٦٣ - مفهوم ١١: الفرق بين الخوف الجبلي والخوف المحرم:

لا ينكر أحد الخوف الفطري الجبلي؛ كالخوف من الحيوانات المفترسة، ومن الأحداث المروعة؛ كالعواصف، والزلازل، والبراكين، وهياج البحر على أهل السفن، ...إلخ؛ فكل هذا خوف جبلي مغروس في الفطر، ولا يؤاخذ عليه صاحبه.

إنما المحذور هو الخوف الذي يوقع صاحبه فيما نهى الله عنه؛ فإن تسبب الخوف في فعل محرم أو ترك واجب كان خوفًا محرمًا، وإن تسبب في عبادة المخوف منه فهو شرك؛ وذلك كما يفعل بعض من يخاف الجن فيذبح لهم الذبائح أو يدعوهم من دون الله. وهذا الخوف المحرم غالبًا ما يكون مصحوبًا بتعظيم وتوقير المخوف منه، وهو أمر لا ينبغي أن يكون إلا لله وحده.

❋ ❋ ❋

٥٦٤ - مفهوم ١٢: الخوف من الله في السر والعلن:

ينبغي أن يكون الخوف من الله سبحانه حاجزًا عن المحرمات في جميع الأحوال؛ فيكون ذلك في حضور الناس، كما يكون في السر بعيدًا عن أعينهم؛ وهذا المقام أعلى من الخوف في حضور الناس؛ لأنه أدل على تعظيم المرء لربه وتوقيره؛ وقد مدح الله تعالى من يخافه بالغيب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٩]، وكان من دعاء النبي ﷺ: **(وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة)** [رواه النسائي (١٣٠٥)، وصحَّحه الألباني في المشكاة (٢٤٩٧)].

٥٦٥ - مفهوم ١٣: لا بد من الجمع بين الخوف والرجاء والموازنة بينهما:

كل من ينزع إلى آيات الخوف والوعيد، ويُغفل آيات الرجاء والوعد فهو مجانب للعدل والوسطية، وفيه شبه من الخوارج الوعيدية.

وكل من ينزع إلى آيات الرجاء والوعد، ويُغفل آيات الخوف والوعيد فهو أيضًا مجانب للعدل والوسطية، وفيه شبه من المرجئة.

والحق هو الجمع بينهما؛ فيجمع قول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:٢٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦] مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[البروج:١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧]؛ وتلك هي طريقة القرآن الكريم ذاته في الجمع بين كل من الترغيب والترهيب، وتأمَّل قول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠] يُنبئك بذلك، ولتعلم أن الخوف والرجاء كالجناحين للطائر؛ لا يمكنه الطيران بدونهما ولا بأحدهما فحسب؛ فلا بد إذًا من جناحي الخوف والرجاء: خوف يسوق العبد، ورجاء يحدوه. ولذلك فالمسلم السوي هو الذي لا ييأس ولا يُقنِّط الناس من رحمة الله، كما أنه لا يأمن ولا يُؤمِّن الناس من مكر الله، فيجمع بذلك بين قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

* * *

٥٦٦ - مفهوم ١٤: محبة الله:

محبة الله شرط من شروط كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)؛ فإن (الإله) هو الذي يألهه العباد حبًا، فهو بمعنى (المألوه) أي: المحبوب الذي تحبه القلوب وتذل له.

وأصل (التأله): التعبُّد، والتعبُّد هو آخر مراتب الحب: عبَّده الحب وتيَّمه إذا ملكه وذلله لمحبوبه. فالمحبة إذًا هي حقيقة العبودية، ويصح على هذا أن نقول: إن المحبة عمل قلبي هو أصل أعمال القلوب كلها والباعث على العمل بها؛ فلا تكون إنابة، ولا رضا، ولا شكر، ولا خوف ورجاء...إلخ؛ لا يكون شيء من ذلك إلا تابع لمحبة الله وصادر عنها.

٥٦٧ - مفهوم ١٥: علاقة المحبة بالخوف والرجاء:

لما كانت المحبة هي أصل العبادة ومنبع سائر أعمال القلوب كانت الأعمال القلبية مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا، ومنها الخوف والرجاء؛ فإذا كان الخوف والرجاء بالنسبة لعمل القلب كجناحي الطائر فإن المحبة هي رأس هذا الطائر؛ فلا بد أن يسير القلب إلى الله بالمحبة والخوف والرجاء كما يطير الطائر برأسه وجناحيه، فإذا قطع رأسه مات، وإذا كُسِرَ جناحاه أو أحدهما لم يستطع الطيران وكان عرضة لكل صائد وكاسر، وكذا القلب إذا فقد الخوف والرجاء انقطع عن الوصول إلى الله وتعرض لمصائد الشيطان والهوى.

أما ادِّعاء العبادة بالحب فقط فهذا من شطحات الصوفية كما أسلفنا، ولا يمكن أن يكون المحب إلا خائفًا راجيًا، وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الخوف والرجاء؛ فكل محب خائف وراجٍ بالضرورة؛ يخاف أن يسقط من اعتبار محبوبه ويقع تحت طائلة غضبه وعقابه وطرده له، ويرجو أن ينال رضا محبوبه وثوابه، وهذا هو المقصود بإرادة الآخرة في قول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]؛ فالله لم يذكر إلا الدنيا والآخرة وليس ثَمَّ قسم ثالث، لذا كانت إرادة الآخرة عبارة عن إرادة الله تعالى وثوابه، وإرادة الثواب لا تنافي أن يريد الله؛ بل هي ضمن إرادة الله.

ولذا يتأكد قول السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو خارجي، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ».

***

٥٦٨ - مفهوم ١٦: إفراد الله بالمحبة الكاملة:

لما كان إفراد الله بالعبادة هو التوحيد الواجب، والمحبة هي أصل العبادة، فقد وجب إفراد الله تعالى بالمحبة؛ وذلك بأن يكون الحب كله لله لا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه؛ كما يحب أنبياءه، ورسله، وملائكته، وأولياءه...إلخ؛ فمحبتهم من تمام محبة الله وليست محبة معه.

وقد جعل الله إخلاص المحبة له فرقانًا بين المؤمنين والكافرين؛ فمن أشرك مع الله غيره في المحبة وسوَّاه به فهو المشرك المتخذ من دون الله ندًّا معبودًا كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وهذه التسوية الشركية في المحبة هي المقصودة أيضًا بحكاية الله عن قول أهل

النار لآلهتهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧،٩٨]. فلا تصح تسوية محبة أحد بمحبة الله، فضلًا عن أن تكون زائدة عليها؛ وقد قال النبي ﷺ: (**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**) [رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)].

❊ ❊ ❊

٥٦٩ - مفهوم ١٧: المحبة توجب متابعة المحبوب:

إذا كان تجريد المحبة وإخلاصها لله تعالى يتعلق بالشطر الأول من شطري الشهادة: «**أشهد أن لا إله إلا الله**» فإن المحبة تتعلق بالشطر الثاني: «**أشهد أن محمدًا رسول الله**» من جهة إيجابها متابعة الرسول ﷺ في العبادة والطاعة؛ لأن ذلك لا يُعرف إلا من خلاله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١،٣٢]، فمن لم يتابع الرسول ﷺ في عبادة الله وطاعته ولم ينقد له فقد خالف في المحبة، وكان فعله دليلًا على أن ما خالف فيه أحب إليه من الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، وبسبب مخالفته هذه استحق العذاب وأن يوصف في الآية بكونه من الفاسقين.

❊ ❊ ❊

٥٧٠ - مفهوم ١٨: يحبهم ويحبونه:

محبة الله هي أقوى رابط بين العبد وربه؛ لأن هذه المحبة إن كانت حقيقية فهي تستلزم متابعة الرسول المبلغ عن الله المحبوب كما أسلفنا، فينتج عن ذلك حب الله لمن أحبه هذه المحبة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

فليس الشأن إذًا أن تدَّعي محبتك لله، وإنما الشأن كل الشأن أن يحبك الله بناء على محبتك الحقيقية له، فتدخل بذلك في وصف الله لعباده المقربين: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ

وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فتأمل ما في هذا الوصف من علاقة متبادلة بينك أنت أيها العبد الفقير وبين الله العظيم الجليل، تدرك أن تلك هي من أجل نعم الله عليك وأحلاها مذاقًا.

* * *

٥٧١ – مفهوم ١٩: الجهاد في سبيل الله دليل على كمال المحبة:

لما تضمن الجهاد في سبيل الله الجود بالنفس -وهي أغلى ما يملك المرء- كان ذلك دليلًا على كامل المحبة لله تعالى؛ ولهذا وصف الله المجاهدين بأنهم قوم يحبهم ويحبونه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المائدة:٥٤]، كما أنه سبحانه وصف المتقاعسين عن النفير بكرههم للجهاد، فقال: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١]، فالكارهون للجهاد لا يمكن أن يكونوا محبين لله ورسوله، بل الدنيا والآباء والأبناء والإخوان والأزواج وسائر متاعها من أموال وتجارة ومساكن أحب إليهم من الله ورسوله كما ذكرت آية سورة التوبة التي سبق ذكرها.

* * *

٥٧٢ – مفهوم ٢٠: الحياء من الله:

الحياء من الناس خلق إسلامي حميد، والحياء من الله عمل قلبي يورثه في القلب تدبر كثير من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا؛ مثل: السميع، والبصير، والعليم، والعظيم، والكريم، والودود، والحنان، والمنان؛ فإذا غلب ذكر ذلك وتدبره في القلب هاج منه الحياء فاستحيا أن يطلع الله على جارحة من جوارحه تتحرك بما يكرهه الله، أو اعتقاد في قلبه مما يكرهه الله، فيُطهِّر قلبه وجوارحه من كل معصية.

وأحسن ما يوضح الحياء الحقيقي من الله هو قول النبي ﷺ: **(استحيوا من الله حق الحياء)**. قالوا: يا نبي الله إنا لنستحي والحمد لله! قال: **(ليس ذلك؛ ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء)**

[رواه الترمذي (٢٤٥٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣٨)].

ومن أقوال السلف عن الحياء من الله:

- «خف من الله على قدر قدرته عليك، واستحِ من الله على قدر قربه منك».
- وجزع الأسود بن يزيد عند وفاته، فلما عوتب في ذلك قال: «ما لي لا أجزع، ومن أحق بذلك مني؛ والله لو أُتيت بالمغفرة من الله ﷻ لهمَّني الحياء منه مما قد صنعته؛ إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحيًّا منه».

❋ ❋ ❋

٥٧٣ - مفهوم ٢١: هوان المعصية على المرء علامة على قلة حيائه من الله:

من عصى أمر الله وارتكب نهيه مع هوان ذلك عليه فقد استخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو في قبضته، وحاله حال من يراقب المخلوق أكثر من الخالق سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨]،وهذا علامة ودليل على قلة حيائه من ربه الناشئ من ضعف تعظيمه له سبحانه.

ولكن هذا لا يعني أن أولياء الله المعظمين له سبحانه لا يذنبون، وإنما هم كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]؛ فهم لا يصرون على المعصية، بل يبادرون إلى التوبة منها، ويشعرون بالندم والحزن مما اقترفوه وكأن فوقهم جبل يخشون سقوطه عليهم، في حين ينظر المستخف بتعظيم الله إلى ذنوبه وكأنها ذباب وقع على أنفه فأزاله بيده.

وكلما ضعف تعظيم الله في القلب قل الحياء منه سبحانه، حتى يصل بصاحبه إلى المجاهرة بالمعصية والتباهي بها، وهذا غاية في الوقاحة ومنتهى الخذلان، وهو أمر يحوِّل المعصية إلى كبيرة من الكبائر حتى لو كانت في نفسها صغيرة، بينما قد يقترن مع ارتكاب الكبيرة من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يُلحقها بالصغائر، وهذا كله أمر مرجعه إلى القلب وما يقوم به، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره. [ينظر مدارج السالكين (١/ ٣٢٨)].

٥٧٤ - مفهوم ٢٢: التوكل على الله وحقيقته:

التوكل عمل قلبي، أو حال للقلب ينشأ من معرفته بالله سبحانه وتفرده بالخلق والتدبير، والنفع والضر، والعطاء والمنع، ...إلخ.

وأصل التوكل هو أن يجعل العبد ربه وكيلًا له يفوض إليه أمره كما يفوض الموكل وكيله الذي يثق به في تحقيق مصالحه.

فحقيقة التوكل إذًا هي: غاية الاعتماد على الله بعد امتلاء القلب بتعظيم قدرة الله وقوته، وقيوميته، مع غاية الثقة في الله وتوفيقه، وعونه، ومدده بعد امتلاء القلب بتعظيم رحمة الله، وبره، ولطفه، وإحسانه.

ويلزم للتوكل الصحيح: مباشرة الأسباب التي أذن الله بالأخذ بها دون الاعتماد عليها أو الثقة بها، بل يعتمد على الله وحده خالق الأسباب ومسبَّباتها؛ فهو سبحانه الذي وضع في الأسباب آثارها، ولو شاء لنزعها عنها. وحين ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب المسجد وقال: «توكلت على الله» قال له الرسول ﷺ: **(اعقلها وتوكل)** [رواه الترمذي (٢٥١٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٥١٧)]؛ فأمره بمباشرة السبب ثم التوكل على الله، وذلك مستفاد أيضًا من قوله ﷺ: **(لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا)** [رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وأحمد (٢٠٥)، وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (١/ ٢٠٦)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠)]؛ فقوله: **(تغدو)** تفيد بذل الطير للسبب في سعيه على رزقه. فالتوكل إذًا مقيد بالأخذ بالأسباب، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله، ولذلك عُرِّف التوكل أيضًا بأنه: «الاعتماد على الله سبحانه في جلب المطلوب وزوال المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها» [شرح ابن عثيمين لكتاب التوحيد (٢/ ١٨٥)].

* * *

٥٧٥ - مفهوم ٢٣: ضوابط الأخذ بالأسباب:

ينبغي على المرء أن يكون متوازنًا في أخذه بالأسباب؛ فلا يعارض بها التوكل على الله، ولا يتركها ويهملها؛ لأن ذلك قدح في حكمة الله ﷻ الذي ربط المسبَّبات بأسبابها، ونقصان في العقل. وحتى يحدث هذا التوازن لا بد من اعتبار الضوابط الآتية في الأخذ بالأسباب:

١ – ألا يركن إليها، ولا يعتقد أنها تستقل بتحقيق المطلوب؛ فالله سبحانه هو الذي جعل الشيء سببًا لحدوث المسبب، وقد ينزع ذلك عنه، وقد تكون هناك موانع له، فالله هو الذي يكمل السبب ويدفع موانعه؛ فما شاءه كان ولو لم يشأه الخلق، وما لم يشأه لا يكون ولو شاءه الخلق؛ فقد منع النار من إحراق نبيه إبراهيم عليه السلام ونزع منها سببيتها في الإحراق. فسر التوكل إذًا هو اعتماد القلب على الله وحده بحيث لا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب عن الاعتماد عليها.

٢ – ألا يأخذ بالسبب إلا بعد التحقق من أنه سبب، ومشروع بعلم ويقين؛ فمن أثبت سببًا بلا علم، أو أثبت سببًا يخالف الشرع، كان مبطلًا في إثباته آثما في اعتقاده.

٣ – إذا لم يوجد إلا سبب محرم لتحصيل المطلوب فلا يجوز مباشرته والأخذ به إلا في حال الاضطرار فقط –والضرورة تقدر بقدرها ووفق مقاصد الشرع وترتيبها من حفظ: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال– أما في غير حال الاضطرار فلا يلجأ إلى السبب المحرم بحال، بل يكون سببه الوحيد لتحقيق المطلوب هو محض التوكل على الله فحسب، وأنعم به من سببٍ في تحقيق المراد.

٤ – أن ينظر في السبب المباح وأثره على تحقيق التوكل في قلبه؛ فإن كان يضعفه فالأولى تركه، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى حيث يحقق بذلك حكمة الله في ربط المسبَّبات بأسبابها، ويكون بذلك قد أتى بعبودية القلب في التوكل، وعبودية الجوارح في مباشرة السبب.

٥ – وأخيرًا: فإن الأخذ بالأسباب على نحو ما سبق هو الذي يحقق التوكل، ومن عطَّل الأسباب المأمور بها لم يصح توكله، بل صار تواكلًا وعجزًا وتمنِّيًا.

* * *

٥٧٦ – مفهوم ٢٤: حقائق تتعلق بالتوكل:

١ – التوكل على الله من لوازم الإسلام لله تعالى؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

٢ – لا يتحقق التوكل في القلب بمجرد العلم به وبحقيقته؛ فعلم التوكل شيء وحال التوكل شيء آخر؛ فالمعرفة قد تكون ذهنية فقط، أما تحقيق التوكل فيتطلب

استقرار ذلك في القلب إلى درجة اليقين. وأنت إذا سألت أي أحد عن التوكل على الله لأقر به وادَّعى أنه متوكل عليه، ولكن عند التعرض للمحن والشدائد يسقط كثيرون في دعواهم التوكل؛ فتراهم يجزعون، ويهرعون إلى غير الله طالبين تخليصهم من محنتهم وشدتهم، وينسون اللجوء إلى الله في ذلك؛ مثلهم مثل من يجيبك بأن الرزاق هو الله، فإذا ضيَّق عليه أحد في عمله أو تجارته اشتكى وقال: فلان يريد قطع رزقي! أفلا تدل هذه المقولة على ضعف اليقين بأن الله وحده هو الرزاق؟! أما أهل الحق فتجدهم عند الشدائد متوكلين على الله حق التوكل؛ فحين وصل الكفار إلى الغار الذي يختبئ فيه الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه قال الرسول ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]؛ فلجأ إلى الله وتوكل عليه.

٣ - الاعتماد على الأسباب والركون إليها، والخوف والهلع من فواتها دليل على ضعف التوكل وكأن السبب ينفع أو يضر استقلالًا.

٤ - إذا كان الركون إلى الأسباب ضعف في التوكل فإن الأخذ بها لا ينافي التوكل واليقين بقدر الله ووعده؛ فالله تعالى أوحى إلى أم موسى برد ابنها إليها؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، ومع هذا لم يمنعها ذلك من الأخذ بالأسباب والبحث عنه بعد أن نفذت ما أوحاه الله إليها وألقت ابنها في اليم، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١].

* * *

٥٧٧ - مفهوم ٢٥: مراتب تحقيق التوكل في قلب العبد المؤمن:

لا تتم حقيقة التوكل في قلب العبد المؤمن إلا بأمور يترتب بعضها على بعض:

١ - معرفة صفات الله سبحانه مثل: القدرة، والتدبير، والكفاية، والقيومية، وانتهاء الأمور كلها إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وحكمته، ...إلخ.

٢ - إثبات الأسباب وبذلها مع عدم الاعتماد عليها أو الركون إليها والثقة بها.

٣ - توحيد توكل القلب على الله؛ فلا يتوكل معه على أحد غيره.

٤ – اعتماد القلب على الله، وسكونه واستسلامه له مع قطع منازعات القلب لهذا الاستسلام.

٥ – حسن الظن بالله.

* * *

٥٧٨ – مفهوم ٢٦: ما يتوكل فيه على الله نوعان:

الأول: توكل العبد على الله في تحقيق حوائجه وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه، وهو توكل محمود ويحقق به الله للعبد مراده بإذنه تعالى إذا كان مباحًا، ولكن أفضل من هذا التوكل وأعلى منه درجة: التوكل الثاني، وفي كُلٍّ خير وفضل.

الثاني: التوكل على الله فيما يأمر به ويحبه ويرضاه من: الإيمان، والتقوى، واليقين، والجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه، ...إلخ؛ وهذا هو توكل الأنبياء وخواص المؤمنين، وهو كما أسلفنا أفضل النوعين وأوسعهما منفعة.

ومن البديع أن من يجتهد في تحقيق النوع الثاني من التوكل يكفيه الله هم النوع الأول.

* * *

٥٧٩ – مفهوم ٢٧: ثمرات التوكل على الله:

للتوكل على الله ثمرات عديدة؛ من أهمها:

١ – كفاية الله لعبده فيما يتوكل عليه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

٢ – الثبات أمام المحن والشدائد، وعدم الانكسار أمامها، وأفضل من حقّق ذلك: الأنبياء –عليهم السلام– فنوح ﵇ قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١]، وهود ﵇ قال لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٤–٥٦].

٣ – سقوط الهيبة من المخلوقين وزوال خشيتهم؛ كما قال الله تعالى عن الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

٤ – دفع الحزن والهم عن العبد؛ فالرسول ﷺ بتوكله على الله سبحانه قال لصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]؛ فالمرء لا يحتاج لطرد أحزانه سوى أن يتوكل على الله ويحسن الظن به؛ فقط استشعر أن الله معك بعلمه، وإحاطته، وقدرته، ولطفه، وإحسانه، ثم توكل عليه، فعند ذلك ستندفع أحزانك؛ قل بقلبك: الله معي، ستجد أن الله معك فعلًا، وستأنس بقربه منك.

٥ – حسن الظن بالله تعالى واليقين بتأييده ونصره وتوفيقه.

❊ ❊ ❊

٥٨٠ – مفهوم ٢٨: حسن الظن بالله وعلاقته بأفعال الله وأسمائه وصفاته:

ينبغي على المرء أن يديم إحسان الظن بالله تعالى ليطرد عن نفسه صفة المنافقين الذين تحيط بهم ظنون الجاهلية؛ كما قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤]. وإحسان الظن بالله تعالى يقتضي اليقين **بحكمته** سبحانه في قضائه وقدره وجميع أفعاله، **وبكماله** في جميع أسمائه وصفاته، **وتنزيهه** عن كل صفة سوء؛ كالظلم، والجهل، والعبث، ...إلخ.

❊ ❊ ❊

٥٨١ – مفهوم ٢٩: إحسان الظن بالله يقتضي إحسان العمل:

قال الحسن البصري: «إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظن بالله. كذبوا؛ لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل»، فإحسان الظن بالله إنما يكون مع إحسان العمل له؛ فإن محسن العمل يحسن ظنه بربه أن يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته وحسناته، أما من يسرفون في المعاصي ويقولون: «سيغفر الله لنا فهو الغفور الرحيم» فهؤلاء يشبهون اليهود الذين قال الله عنهم: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف:١٦٩]. وفي هذا الإسراف في المعاصي وادّعاء مغفرتها من الله سوء أدب مع الله وأمن من مكره، والله سبحانه يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

٥٨٢ - مفهوم ٣٠: من ثمرات إحسان الظن بالله:

لإحسان الظن بالله ثمرات عديدة في قلب المحسن؛ منها:

١ - قوة الأمل والرجاء في الله تعالى أن يقبل الطاعات ويثيب عليها، وأن يحقق للمرء آماله وحاجاته الدينية والدنيوية إذا ما دعا الله بها ورجاها منه.

٢ - الصبر والرضا بما يكتبه الله ويقدره سبحانه على عبده من المكروهات؛ حيث يستيقن حكمة الله في ذلك، وأن من ورائها الرحمة والخير له إذا ما صبر ورضي بذلك، وثبت فيما ابتلاه الله به.

٣ - أن يعود باللائمة على نفسه في نزول البلاء، ويعلم أنه هو الظالم لنفسه المستحق للعقوبة على ذنبه، وأن الله منزه عن الظلم والعبث، وأن هذا من رحمة الله به حتى يتدارك أمره، ويصلح شأنه، ويتوب إلى ربه؛ فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

* * *

٥٨٣ - مفهوم ٣١: اليقين:

اليقين عمل قلبي ضد الشك، وهو يتعلق بالإيمان، وله درجتان أو اعتباران:

فالأول: من حيث هو أصل الإيمان المجمل؛ إذ لا إيمان مع الشك؛ فقد أخبر الله تعالى عن الكافرين أنهم إذا قيل لهم: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ قالوا: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]؛ فاليقين بهذا الاعتبار شرط لصحة الإيمان وصحة كلمة التوحيد، وقد قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: **(اذهب بنعلي هاتين، فمن لقيت وراء الحائط يشهد أن «لا إله إلا الله» مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة)** [رواه مسلم (٣١)].

أما **الاعتبار الثاني**: فالمقصود به بلوغ درجة اليقين في تفصيلات الإيمان، والتي بها يبلغ العبد درجة الإمامة في الدين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ حيث يكون الإيمان بالغيب عند صاحب هذه الدرجة كالمعاينة، وبه يطمئن القلب؛ كما حكى الله عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قال بعض السلف: «رأيت الجنة والنار حقيقة». قالوا: كيف؟! قال: «رأيتهما بعيني

رسول الله ﷺ، ورؤيتي لهما بعينيه آثر عندي من رؤيتهما بعينيَّ؛ فإن بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ» [ينظر مدارج السالكين مرتبة اليقين (٢/ ٤٠٠)].

* * *

٥٨٤ – مفهوم ٣٢: اليقين في تفصيلات الإيمان نوعان:

لليقين في تفصيلات الإيمان نوعان بحسب ما يطلب اليقين به:

١ – يقين في خبر الله تعالى:

ويشمل اليقين بكل ما أخبر الله تعالى به، وما أخبر به الرسول ﷺ من أمور الدين و الدنيا جميعًا؛ مثلما آمن الصحابة بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين بعد هزيمتهم منهم كما قال تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٢-٤].

والرسول ﷺ أول الموقنين بصدق خبر الله ووعده؛ فقد كان موقنًا بأن الله سينصره ويظهره على العالمين وهو ما يزال في أقسى مواقف الاضطهاد والأذى، ولم يستبطئ النصر أبدًا، ولم يستيئس كما استيأس البعض.

٢ – يقين في أمر الله الشرعي وأمره الكوني القدري:

فاليقين بأمره الشرعي هو امتثاله بالرضا التام والتسليم الكامل؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وجزاء ذلك الفوز بالهداية والرحمة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم قال بعدها: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:١٨، ٢٠].

واليقين بأمره الكوني القدري هو الرضا به، والصبر على المكروه منه، والتسليم فيه لله تعالى، ودعاؤه لتفريج الكربات موقنًا من قلبه بإجابة الله له؛ ويكفيه بشارة في ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]؛ فقد ذكر الله سبحانه اليسر مقارنًا للعسر: ﴿مَعَ﴾، ولم يقل: (بعد)، فمهما وجد عسرٌ فإن اليسر معه ويقارنه. كما أن تعريف اليسر في الآيتين دليل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره، ولهذا قالوا:

«لن يغلب عسرٌ يسرين». كما أن تعريف العسر يدل على الاستغراق والعموم، فيفيد ذلك أن كل عسر مهما بلغ من الصعوبة فإنه مشمولٌ بالتيسير الملازم له.

* * *

٥٨٥ – مفهوم ٣٣: الطمأنينة والسكينة والثبات:

الطمأنينة والسكينة والثبات كلها بمعنى واحد أو متقارب؛ فالسكينة (فعيلة) من (السكون)، وهي: طمأنينة القلب واستقراره؛ كما قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، والثبات كذلك استقرار وسكون وعدم ريب واضطراب. فالطمأنينة والسكينة والثبات أصلها في القلب، وأثرها يظهر على الجوارح.

* * *

٥٨٦ – مفهوم ٣٤: في الطمأنينة والإيمان راحة للبال وصلاح له:

البال هو القلب وما يخطر على المرء من تفكير. ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا ويطمئن قلبه يصلح الله باله؛ قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢]، وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات المرء تأتي على حسب رأيه وباله.

* * *

٥٨٧ – مفهوم ٣٥: موجبات الطمأنينة والثبات:

مما يوجب طمأنينة القلب وثباته:

١ – الإيمان بالله تعالى؛ قال الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فيتحقق تثبيت الله للمؤمنين بسبب إيمانهم، ويكون ذلك بلزومهم للقول الثابت، كما يثبتهم الله أيضًا بملائكته الكرام؛ قال الله ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢].

٢ – ملازمة ذكر الله تعالى؛ قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

٣ – ومن أهم موجبات الطمأنينة والسكينة: اليقين والصدق مع الله تعالى؛ قال النبي

ﷺ: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة) [رواه الترمذي (٢١٥٨)، وأحمد (١٧٢٣)، وصحَّحه الألباني (الإرواء:١/ ٤٤)]؛ فالصادق مع الله الموقن بخبره وأمره الشرعي والكوني تجد قلبه مطمئنًا إلى ربه، مطمئنًا إلى الطريق إليه، مطمئنًا تجاه أقدار الله سبحانه؛ فلا يرتاب ولا يتلجلج في الطريق أو ينحرف بسبب شهوة أو شبهة، فيُجازى على ذلك بالاطمئنان وعدم الفزع يوم القيامة: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩]، كما يُجازى بدخول الجنة والرضا بما يناله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

* * *

٥٨٨ – مفهوم ٣٦: الحاجة إلى السكينة والطمأنينة:

لا ينفك العبد المؤمن عن الحاجة إلى الطمأنينة والسكينة في حياته؛ فهو:

١ – يحتاج إلى السكينة في عبادته حتى يحقق الخشوع فيها والخضوع لله تعالى، وجمعية قلبه عليه وحده سبحانه، فيذوق بذلك حلاوة عبادته، ويحقق الغاية من وجوده.

٢ – ويحتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة لأصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ.

٣ – ويحتاج إلى السكينة عند الوساوس والخطرات القادحة في أعماله الصالحة لئلا تقوى وتصبح إرادات ينقص بها إيمانه؛ كما يفعل الرياء بالمرء إذا صاحب أعماله الصالحة.

٤ – ويحتاج إلى السكينة والطمأنينة عند أسباب المخاوف والابتلاءات المتنوعة ليثبت قلبه ويسكن جأشه.

٥ – وهو أخيرًا يحتاج إلى السكينة أيضًا حال الفرح والسرور لئلا يطغيه فرحه ويتجاوز حده فينقلب عليه ترحًا ووبالًا.

* * *

٥٨٩ - مفهوم ٣٧: الافتقار إلى الله:

الافتقار إلى الله شعور يملأ قلب العبد المؤمن ويتميز به عن الكافر، بل يتميز به المؤمنون الذاكرون الصابرون عن الغافلين والجزعين من المسلمين؛ فالمؤمن يدرك معنى قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥] فلا يطغى، ولا يستغني عن ربه طرفة عين، ولا يلجأ في جميع أحواله إلا إلى الله وحده.

والمفتقر إلى ربه في جميع أحواله لا يتكل على نفسه بحال، ويقول صباح مساء: (**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، وأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا**) [رواه النسائي في الكبرى (١٠٤٠٥)، والبزار في مسنده (٦٣٦٨)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠)].

أما الغافلون والجاحدون لنعم الله عليهم فهم مستكبرون متمردون على ربهم حال النعمة والرخاء، وقد لا يشعرون بافتقارهم إلى الله إلا إذا اشتد عليهم البلاء وأحاط بهم من كل جانب؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢].

* * *

٥٩٠ - مفهوم ٣٨: الرضا:

مقام (**الرضا**) من مقامات الأعمال القلبية العالية؛ فإذا كان القبول والانقياد من شروط صحة شهادة أن «**لا إله إلا الله**» فإن الرضا مقام أعلى منهما؛ فهو يتضمنهما ويزيد عليهما بانتفاء الحرج من القلب، والتسليم الكامل لله تعالى وحكمه وحكم رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

وبموجب هذه الآية فإن الرضا ثلاث درجات تتسق مع درجات: الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ فتحكيم الشرع هو مقام الإسلام، وانتفاء حرج القلب هو مقام الإيمان، والتسليم لذلك ظاهرًا وباطنًا هو مقام الإحسان.

٥٩١ - مفهوم ٣٩: المؤمن يرضى بما يرضاه الله ويرفض ما لا يرضاه:

يجب على العبد المؤمن أن يرضى بما يرضاه الله له، ويرفض ما لا يرضاه سبحانه:

- فالله ﷻ رضي لنا الإسلام دينًا كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، فوجب علينا أن نرضى تمام الرضا بهذا الدين الذي رضيه لنا الله العليم الحكيم.
- والله لا يرضى لعباده الكفر كما قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر:٧]، فوجب على العباد محاربة الكفر وعدم الرضا به واقعًا في الحياة.

هذا فيما يتعلق بما يرضاه الله شرعًا، أمَّا ما يقدره الله ﷻ على عباده من أقداره الكونية فإن كان مما يمكن مدافعته بالأسباب المشروعة فيسعى لدفعه، ولا يتعارض هذا مع الرضا بما قدَّره الله ﷻ، وإن كان مما لا يمكن مدافعته بأن وقع وكان كموت ونحوه من المصائب فهنا يجب الصبر والرضا بقضائه وقدره سبحانه.

* * *

٥٩٢ - مفهوم ٤٠: جماع الدين في الرضا بثلاثة:

يجتمع الدين في الرضا بثلاثة أمور جليلة: الرضا بالله ﷻ ربًا، والرضا بالإسلام دينًا، والرضا بمحمد ﷺ رسولًا:

- فالرضا بالله ربًا يشمل توحيد الألوهية وما يتضمنه من: محبة الله، وعبادته، ودعائه، وخوفه ورجائه، كما يشمل توحيد الربوبية (ربًا) وما يتضمنه من الرضا بتدبيره وقضائه وقدره، والتوكل عليه سبحانه، والاستعانة به.
- والرضا بدين الله تعالى يعني الاستسلام المطلق لأحكامه وتشريعاته.
- والرضا بمحمد ﷺ رسولًا يعني كمال الاتباع والانقياد له ﷺ.

ولهذا كان الرضا بهذه الثلاثة مما يوجب الجنة كما قال ﷺ: **(من قال: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا وجبت له الجنة)** [رواه أبو داود (١٥٢٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود]، ولذا أيضًا كانت هذه الأمور الثلاثة هي التي يسأل الملكان العبد عنها أول ما يدخل القبر؛ كما ورد في حديث البراء بن عازب الطويل:

(فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله... الحديث) [رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (١٨٥٣٤)، وصحّحه الألباني في المشكاة (١٢٧)].

* * *

رابعًا: مفاهيم حول أمراض القلوب:

٥٩٣ - مفهوم ١: خطورة أمراض القلوب:

إذا كان القلب ملك الأعضاء وبصلاحه بصلح الجسد كله -كما سبق بيانه في أعمال القلوب- ففساده أيضًا فيه فساد الجسد كله كما ورد في الحديث [ص ١]؛ لذا فكما وجبت العناية بأعمال القلوب الباطنة لإصلاح أعمال الجوارح الظاهرة فيجب كذلك الانتباه إلى أمراض القلوب الباطنة والحذر منها حتى لا تفسد الأعمال الظاهرة، وحتى لا يهلك المرء -رغم تورعه عن بعض الصغائر والمشتبهات- لإهماله هذه الأمراض القلبية المهلكة.

* * *

٥٩٤ - مفهوم ٢: النفاق ومرض القلب:

يُعدُّ النفاق من آكد وأخطر أمراض القلوب؛ سواء أكان ذلك نفاقًا أكبر اعتقاديًّا أو نفاقًا أصغر عمليًّا، وهما النوعان اللذان سبق تفصيلهما في مفاهيم العقيدة [ص ...].

والذي يعنينا هنا هو بيان أن النفاق من أخطر أمراض القلوب حتى أنك لا تكاد تجد آية في كتاب الله يُذكر فيها مرض القلب إلا وكان ذلك في سياق الكلام عن النفاق وأهله؛ سواء ذُكر فيه لفظ النفاق صراحة أو لم يُذكر؛ فمما ذُكر فيه اللفظ صراحة: قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢]، ومما لم يُذكر فيه لفظ النفاق: قول الله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢].

فخلاف المنافقين مع أهل الحق ليس خلافًا في قضية فكرية واحدة، وإنما جهاز العدالة عندهم (القلب) مريضٌ مُعتلّ، فهم: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠].

٥٩٥ - مفهوم ٣: الهوى:

الهوى هو ميل النفس لما تحبه وتهواه، فإذا كان ذلك فيما يخالف ما أمر الله به أو أباحه فهو من أخطر أمراض القلوب وأكثرها تأثيرًا سلبيًّا على النفس؛ إذ هو الدافع الأساس لكل طغيان وتجاوز وعصيان، فلا أحد أضل ممن كان هذا حاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]، بل إن اتباع الهوى لا يزال يبعد بالمرء عن أمر الله تعالى حتى يتخذه إلها من دون الله؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]؛ يصبح الهوى إلها لأنه يصد المرء عن الحق الذي يأمر به الله ويكون هو المتبع من دون الله تعالى.

* * *

٥٩٦ - مفهوم ٤: الهوى يُعمي ويصم ويوقع صاحبه في حماقات:

إذا تمكن الهوى من المرء فإنه يعميه ويصمه -كما ورد في الآية السابقة- ويوقعه في تناقضات وحماقات لا يرتكبها صاحب عقل أبدًا؛ فقد أعمى الهوى بصيرة قريش فرفضت نبوة محمد ﷺ بدعوى أنه بشر مع أنها تتخذ إلهًا من حجر!

* * *

٥٩٧ - مفهوم ٥: الهوى يوقع في الكفر أو الفسق أو التعصب:

تتنوع أضرار اتباع الهوى ما بين الوقوع في الكفر، أو الفسق، أو التعصب والتحزب:

- فالكفار يدفعهم هواهم إلى رفض الحق والتعصب لما كان عليه آباؤهم، مع علمهم ببطلان ما هم عليه وأن ما تدعوهم إليه الرسل هو الحق المبين.
- وأهل المعاصي والفسق يدفعهم هواهم إلى الدفاع عن فسقهم وفجورهم بتأويلات باردة وتبريرات زائفة.
- وقد يوقع الهوى حتى بعض طلاب العلم في رد الحق في بعض المسائل رغم وضوحه؛ وما ذلك إلا تعصبًا لآراء شيوخهم ومذهبهم ولو كانت باطلة، مما يتسبب في التحزب والفرقة والخلاف بين أتباع الدين الواحد بدلًا من الوحدة والائتلاف.

٥٩٨ – مفهوم ٦: من أقوال السلف في مجاهدة الهوى والتحذير منه:

– قال الحسن البصري: «أفضل الجهاد جهاد الهوى» [أدب الدنيا والدين للماوردي، ص٤١].

– وقال عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–: «لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذًا أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق، وتعاقب على ما تركته منه؛ لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين» [شرح العقيدة الطحاوية، ص ٥٩٠].

* * *

٥٩٩ – مفهوم ٧: من أسباب الوقوع في الهوى:

هناك أسباب عديدة تدفع المرء للوقوع في الهوى ومخالفة الحق؛ فمن ذلك:

١ – أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحق يستلزم اعترافه بأنه كان على الباطل، أو إقراره بأن آباءه أو شيوخه أو متبوعِيه كانوا على الباطل، وأن في ذلك انتقاصًا لهم وله.

٢ – ومن الوجه السابق أيضًا أو قريب منه: الكبر؛ يستكبر أن يتبع الحق بسبب الذي بيَّنه له شخص آخر، ولم يهتد إليه هو ببحثه ونظره.

٣ – ويلحق بالكبر أيضًا الحسد؛ فيحسد غيره على اهتدائه للحق وبيانه له، ويدفعه ذلك إلى عدم إقراره به حتى لا يعترف بفضل صاحب الحق وعلمه.

٤ – أن يكون المرء قد صار له في الباطل جاه وشهرة ومنافع دنيوية، فيشق عليه أن يعترف بالباطل وتذهب عنه تلك الفوائد.

* * *

٦٠٠ – مفهوم ٨: أكثر الناس يغلب عليهم الهوى:

من أوضح الأدلة على غلبة الهوى على أكثر الناس: أنك تراهم على أديان مختلفة، ومقالات متباينة، ومذاهب متفرقة، وآراء متدافعة؛ ثم تراهم مع ذلك كما قال الله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

* * *

٦٠١ - مفهوم ٩: من علامات مدَّعي العلم صاحب الهوى:

لمن يدَّعي العلم ولكنه يميل إلى هواه علامات يعرف بها؛ فمن ذلك:

١ - الشغب بالباطل على الحق وأهله؛ فكلما عُرِض عليه دليل يخالف رأيه وهواه اجتهد في ردِّه بأي صورة كانت: بالتشويش، أو الافتراء، أو الاحتيال.

٢ - انتقاء الدليل الذي يوافق هواه، وترك ما يخالفه:

- فلو لاح له من آية ما يراه شاهدًا على صحة هواه تمسك بها، ولو لاح له من أخرى ما يخالف هواه تجاهلها وأعرض عنها.

- ولو وجد حديثين لا يعرف صحتهما من ضعفهما، وأحدهما يوافق هواه، تمسك به وأهمل الآخر دون النظر إلى مسألة تصحيح الأحاديث وتضعيفها.

٣ - تخصيص حكم المسألة أو تعميمه وفقًا لهواه دون قواعد التعميم والتخصيص المعمول بها في علم الأصول؛ فلو كان الحكم في موضع خاص ولكن التعميم يحقق هواه جعله عامًا، والعكس بالعكس؛ كمن جعل آية الحجاب خاصة بنساء النبي ﷺ مع أن عمومها واضح من منطوقها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٥٩].

٤ - لو تنازع رجلان في قضية واستفتياه فيها، وكان يعرف أحدهما ويميل إليه قلبه، ولا يعرف الآخر، أو يعرفه ويبغضه، حكم لمن يميل إليه قلبه ولو لم يستحضر حكم المسألة المتنازع عليه وأدلتها.

وبالجملة، فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى، والواجب على العالم أو طالب العلم أن يفتش عن هوى نفسه حتى يعرفه، ثم يحترز منه غاية الاحتراز ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق في ذاته بمعزل عن هواه.

* * *

٦٠٢ - مفهوم ١٠: كيف يدفع المرء الهوى؟ وثمرة هذه المدافعة:

- أقوى ما يدفع المرء به الهوى عن نفسه هو تقوى الله ﷻ والخوف من عقابه، واستحضار ثمرة هذه التقوى وجزاءها؛ فإن ذلك هو الحاجز الصلب أمام هجمات الهوى العنيفة، وليعلم أن الله لم يكلفه أن لا يشتجر الهوى في نفسه -فإن ذلك خارج عن طاقته- ولكنه كلفه أن ينهى نفسه عن هذا الهوى ويدفعه، وكتب له بهذه المدافعة وهذا الجهاد الشاق الجنة مثابة ومأوى؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].
- كما عليه أيضًا أن يتذكر عاقبة طغيان الهوى ومآله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].
- ويندرج تحت ما سبق أيضًا أن يتذكر شرف الحق وفضل أهله، ووضاعة الباطل وسفالة أهله وما يستحقونه من مقت الله وعذابه.
- ومما يعين على ترك الهوى الذي يميل به إلى رأي أسلافه وشيوخه مع مخالفته للحق: أن يستحضر أن الذي يعنيه هو حاله هو في نفسه؛ فلا يضره عند الله أن يخالف أشياخه ما دام قد لاح له الحق في خلافهم، بل الذي يضره هو متابعتهم على ما يعلم أنه خلاف الحق، وشيوخه قد يكونون معذورون ومأجورون فيما ذهبوا إليه لعدم ثبوت دليل الحق لديهم في المسألة، أو لتأويل سائغ لديهم مع عدم قيام الحجة عليهم فيما خالفوا فيه.
- ومما يعين على مخالفة الهوى أيضًا: اعتماد الأخذ بالأحوط في المسألة ولو خالف ذلك هواه وما نشأ عليه؛ فلو وجد من أهل العلم من ينكر بعض ما اعتادته نفسه ومال إليه هواه، مع شرفهم وعلو مكانهم، أخذ لدينه بالأحوط وترك ما اعتاد عليه صيانة لدينه وإيثارًا للسلامة.

❊ ❊ ❊

٦٠٣ - مفهوم ١١: حب الدنيا والركون إليها:

حب الدنيا مركوز في فطر الناس؛ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤]، ولا ضير في هذا الحب إن لم يتجاوز قدره المأذون فيه؛ فقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]، وإنما يتوجه الذم ويكمن الخطر حين يطغى هذا الحب في قلب المرء حتى يؤثر الدنيا على الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، وكما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

وحين يصل الأمر إلى حد إيثار الدنيا على الآخرة يصبح ذلك مرضًا قلبيًّا، فإذا فشا في الأمة تسبب في ضياع كل من الدنيا والآخرة؛ كما قال ﷺ: (**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: **بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**. قال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: **حب الدنيا وكراهية الموت**) [رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧)، وصحَّحه الألباني (الصحيحة ٩٥٨)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند (٢٢٣٩٧)]، وقال ﷺ أيضًا: (**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**) [رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٣٢٧٤)].

وإيثار الدنيا على الآخرة يكون بالوقوع في الحرام لتحصيل متاعها، كما يكون بتسببها في التقاعس عن أعمال الآخرة الواجبة.

وليعلم المرء أن هناك تناسبًا طرديًّا اليوم بين التكثر من أمور الدنيا وكثرة الوقوع في الشبهات والشهوات، فليكن على وجل من ذلك، وليحرص على الحلال ويحتط لدينه.

٦٠٤ – مفهوم ١٢: كيف يعلم المرء أنه مؤثر للدنيا على الآخرة؟

على المرء أن ينظر إلى همِّه للدنيا وما يشغله من حيز في نفسه وتفكيره وعمله وهمِّه للآخرة وأعمالها؛ فإن وجد همَّ الدنيا والسعي لها من تجارة، ووظيفة، ...إلخ أكبر من همِّ الآخرة وسعيها –وهذا هو حال غالب الناس اليوم إلا من رحم ربي– فقد طغت دنياه على آخرته وآثارها عليها، وأصبح قلبه مريضًا بحب هذه الدنيا الفانية، وكان على خطر كبير وأمر جلل مرير.

وليحذر المرء –والدعاة إلى الله خصوصًا– من ادِّعاء التوسع في الدنيا لأجل نفع الدعوة والبذل في سبيل الله تعالى؛ فذلك مسلك وعِرٌ خطير –والله أعلم بالسرائر– فكم رأينا من هؤلاء من توغلوا في الدنيا فأخذتهم بأمواجها، وركنوا إليها، ووضع لهم الشيطان في كل واد من أوديتها شغلًا وهمًّا. نسأل الله الجليل العفو والعافية، وأن يرزقنا همَّ العمل لهذا الدين ونصرته والدعوة في سبيله، متجاوزين بذلك حب شهوات الدنيا في نفوسنا.

* * *

٦٠٥ – مفهوم ١٣: قسوة القلب وعدم رقته وخشوعه:

لقسوة القلب وعدم رقته أسباب عدة:

– فالسبب الرئيس هو: ضعف العلم بالله ﷻ وبأسمائه الحسنى؛ مما ينشأ عنه ضعف تعظيم الله تعالى في القلب، وقلة الخوف منه سبحانه؛ فينتج عن ذلك سائر أمراض القلوب.

– امتلاء القلب بحب الدنيا وشهواتها؛ إذ كيف يمكن لقلب تفرَّق في شعب الدنيا وأوديتها أن يتدبر أو يرق ويخشع لجلال الله وعظمته؟!

– فإذا انضاف إلى حب الدنيا كثرة الذنوب والمعاصي استحكم تحجر القلب كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]؛ أي: غشت قلوبهم وغطتها معاصيهم؛ قال ﷺ: **(إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِلَ قلبُه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبَه الران الذي ذكر الله ﷻ في القرآن)** [رواه أحمد (٧٩٥٢) واللفظ له، والترمذي (٣٣٣٤) وقال حسن صحيح، وغيرهم، وقوَّى إسناده شعيب الأرناؤوط، وصحَّحه أحمد شاكر (تخريج المسند ١٥/ ٩٨)، وحسَّنه الألباني (المشكاة ٢٢٨١)].

- فإذا تحجر القلب وذهب منه الخشوع فربما بدا على الجسد فحسب خشوع كاذب أجوف يسميه بعض السلف: خشوع النفاق؛ وهو أن يُرى الجسد خاشعًا والقلب غير خاشع.

- وصاحب القلب القاسي المتحجر لا تنفعه الآيات والمواعظ، ويصدق فيه قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، ولا ترده البلايا والمحن، بل يصبح من المعرضين كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

* * *

٦٠٦ - مفهوم ١٤: الشرك الخفي والرياء:

- يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، وهذه الآية كما تصدق على الشرك الأكبر المخرج من الملة فهي تتناول أيضًا الشرك الأصغر الخفي الذي قد لا ينفك عنه كثير من الناس؛ حيث يتسلل إلى قلوبهم دون أن يلحظوه، فهو أخفى عليهم من دبيب النمل؛ فمنهم من يشرك مع قدرة الله سببًا من الأسباب، ومن يشرك مع رجاء الله التعلق بغيره من عباده، ومع الجهاد في سبيل الله الطمع في تحقيق منفعة دنيوية؛ كما قال تعالى للصحابة يوم أُحُد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران:١٥٢].

- وآكد أنواع الشرك الأصغر الخفي وأخطره: (الرياء)؛ وذلك كما قال النبي ﷺ: (**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**. قالوا: يا رسول الله! وما الشرك الأصغر؟ قال: **الرياء؛ إن الله يقول يوم تُجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟**) [رواه أحمد (٢٣٦٣٦) واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣١) والبغوي في شرح السنة (٤١٣٥)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريجه للمسند، وجوَّد إسناده الألباني (الصحيحة٩٥١)]. ويكفي في خطورة الرياء أنه محبط للعمل كما في الحديث السابق، وكما في الحديث القدسي أيضًا: (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**) [رواه مسلم (٢٨٩٥)].

- ولا تنحصر أضرار إرادة الدنيا بعمل الآخرة في إحباط ثواب العمل يوم القيامة، بل إنها

تكون مع ذلك سببًا في ضياع الدنيا أيضًا على مستوى الأمة؛ إذ لو جعل بعض المؤمنين الدنيا هي الموجِّه الرئيس للعمل لوقع الفشل والنزاع بين المؤمنين كما حدث يوم أُحُد؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

❊ ❊ ❊

٦٠٧ – مفهوم ١٥: العُجْب:

العُجْب أخو الكبر وصنوه، إلا أنه سابق عليه ومُسبِّب له؛ فالعجب هو أن ترى أنَّ عندك شيئًا ليس عند غيرك، فيتسبَّب ذلك في احتقارك لمن تظنهم دونك، وتتكبر عليهم.

فالعجب يكون النظر فيه أساسًا إلى النفس وخصائصها وهو مرض قلبي رزي، بينما يكون النظر في الكبر إلى الناس وأنهم دون المتكبر.

❊ ❊ ❊

٦٠٨ – مفهوم ١٦: العُجْب في العبادة:

العُجْب في العبادة قد يؤدي إلى استكثارها وقطعها اكتفاء بما حصل منها، وربما يُحبطها؛ قال الحسن في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر:٦]: «لا تمنن بعملك على ربك تستكثره»، وهو ما رجَّحه الطبري في تفسيره.

وقال مطرف بن عبد الله: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إليَّ من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا» [حلية الأولياء:٢/ ٢٠٠]، يشير بذلك إلى خطورة إعجاب المرء بنفسه وعمله.

❊ ❊ ❊

٦٠٩ – مفهوم ١٧: الفرق بين العُجْب والفرح بالحسنة:

ينبغي ألا يخلط المرء بين الفرح بحسنته وطاعته والعجب بها؛ ففرح المؤمن بحسنته إنما هو فرحٌ بتوفيق الله لأدائها، واستبشارٌ بثمرتها، ورجاؤها من الله، وقد قال ﷺ: **(من سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن)** [رواه الترمذي (٢١٦٥) وقال: حسن صحيح، وبنحوه رواه أحمد (١٧٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٣٠)]، أما العجب فينظر المرء فيه إلى نفسه ويغتر بها، ويعتد بحسنته على أن له الفضل في القيام بها.

❊ ❊ ❊

٦١٠ - مفهوم ١٨: الوقاية من العُجْب وعلاجه:

العجب داء خفي قد يتسرب إلى النفس خلسة؛ لذا فعلى المرء أن يعتصم منه بالآتي:

- أن يكون دائم التذكر والاعتراف بفضل الله عليه في كل شيء، مع علمه بتقصيره تجاه ربه وعدم توفيته حقَّه من الشكر والعبادة مهما فعل، وأنَّه لو وُكِل إلى نفسه ولو طرفة عين لضلَّ وخسر.
- أن يتذكَّر سيئاته وعيوبه وينسى حسناته وطاعاته؛ فلا تغتر بقوة إيمانك وكثرة عملك، فالتي نقضتْ غزلها أنكاثًا نقضته بعد قوته: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ [النحل:٩٢].
- أن ينظر إلى من يفضِّل نفسه عليه بأنه قد تكون له من خبايا الأعمال الصالحة ما لا يعلمها ولكن الله يعلمها، وأنها ربما تكون أكثر وأجل مما يعمله، أو أن من يظنه مفضولًا عنه قد يكون فعلًا لا يكثر من الأعمال الصالحة مثله، ولكنه يحسن في أداء أعماله ويخلص فيها إخلاصًا يفتقده المعجب بنفسه.
- أن يتذكر أن إعجابه بعمله قد يحبطه فيصبح يوم القيامة هباءً منثورًا أحوج ما يكون إليه.

* * *

٦١١ - مفهوم ١٩: الحسد:

الحسد هو كراهية نعمة الله على الغير وتمني زوالها، وهو مرض قلبي عضال يصاب به كثير من الناس، وحقيقته: الاعتراض على قدر الله ﷻ وحكمته في المنع والعطاء.

فعلى المرء أن يحذر أن يكون من الحاسدين دون أن يدري، وليجاهد نفسه في ذلك أشد المجاهدة، وليتسلح بإيمانه بقدر الله وحكمته ليدفع عن نفسه أي شعور بالغم وانقباض القلب من إضفاء الله النعمة على غيره، أو شعوره بالفرح بزوالها عنه، وليحرص بدلًا من ذلك على الفرح والارتياح لإنعام الله على غيره من المسلمين؛ سواء كانوا ممن يعرفهم أو لا، وسواء كانوا أقرانًا له، أو أعلى منه، أو دونه.

* * *

٦١٢ - مفهوم ٢٠: أسباب الحسد ودوافعه:

يقع المرء في حسد الآخرين لسبب أو أكثر من الأسباب الآتية:

١ - العداوة المسبقة للمحسود وبغضه.

٢ - أنفة الحاسد أن يرتفع المحسود عليه في دنيا أو دين.

٣ - حب الرياسة وطلب الجاه والثناء، أو الكبر واحتقار الآخرين والحرص على أن يكونوا دائمًا منقادين وتابعين له، فإذا أصاب أحدهم نعمة حسده خشية أن يفقد تبعيته له.

٤ - أن يكون المحسود قرينًا للحاسد في أمر من أمور الدنيا أو الدين، فيحسده إذا سبقه فيه.

٥ - التنافس على تحصيل مصلحة معينة -كوظيفة أو جائزة- فيحسد منافسه على أي نعمة قد تعينه على الظفر بالمصلحة دونه.

٦ - أن يكون من طبع نفسه الخبث والشح بالخير لعباد الله، والفرح بالشرور عليهم.

فليحرص المرء على ألا يجعل أي أمر من الأمور السابقة سببًا لوقوعه في حسد الآخرين.

* * *

٦١٣ - مفهوم ٢١: الحسد يؤذي الحاسد قبل غيره:

لا يثمر الحسد في قلب الحاسد إلا الغل والحقد والضغينة لمن يحسده، وهذا كله يوهن قلب الحاسد ويصيبه بالقلق والاضطراب، ويبعده عن حقيقة الإيمان بالله، بخلاف صاحب القلب السليم المعافى من الحسد وغيره؛ حيث تجده: ساكن النفس، مطمئن القلب، راضيًا بأقدار الله، يحب الخير للمسلمين أجمعين، ويعلم الله ذلك من قلبه فيثيبه عليه نعيمًا وسكينة في الدنيا، وعُلُوًّا ورفعة في الآخرة.

* * *

٦١٤ - مفهوم ٢٢: كيف يعالج الحاسد نفسه من هذا الداء العضال؟

حتى يتخلص الحاسد من هذا الداء العضال عليه أن يسلك مسلكين؛ أحدهما علمي والآخر عملي:

- **فأمّا المسلك العلمي**: فهو أن يتعلم ويفهم معنى القضاء والقدر حق العلم والفهم،

ويتعمَّق في فهم أسماء الله الحسنى وصفاته العليا المتعلقة بهذا الباب؛ مثل: القدير، العليم، الحكيم؛ ليدرك بذلك حقيقة قدرة الله ومشيئته النافذة في العطاء والمنع، وعلمه التام بما يستحقه كل إنسان، وحكمته البالغة في ذلك الأمر.

- **وأمَّا المسلك العملي**: فهو أن يداوي رغبته في الحسد بالعمل النافع؛ وذلك بأن يكلف نفسه بنقيض قصده؛ فإن دفعه الحسد إلى الرغبة في ذم المحسود اجتهد في مدحه والثناء عليه بدلًا من الذم والقدح فيه، وإن وجد في نفسه كبرًا ألزمها التواضع والدعاء لمن كان يريد حسده، وبذل الأسباب لإيصال الخير له ودفع الشر عنه.

* * *

٦١٥ - مفهوم ٢٣: سوء الظن بالله:

سوء الظن بالله مرض قلبي خطير، وهو في الأصل سمة المشركين والمنافقين كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، ويلحق بهم في ذلك المرض أيضًا أهل المعاصي والآثام؛ حيث يدخلون في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٢-٢٣]، ويُعدُّ المبتدعة أيضًا ممن يسيئون الظن بربهم كما سيتضح في صور سوء الظن بالله تعالى.

* * *

٦١٦ - مفهوم ٢٤: سبب سوء الظن بالله:

ما يقع من يقع في سوء الظن بالله إلا لانقطاع اتصال قلبه به سبحانه، وعدم معرفته على وجه الحقيقة بربه سبحانه وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا وما تقتضيه من محبته ﷻ والرضا به وبقضائه، والخوف والرجاء منه، وعدم إدراكه لقيمة دوام حسن الظن بالله؛ في السراء والضراء، وفي الأمور كلها، وقد قال الله ﷻ في الحديث القدسي: (**أنا عند ظن عبدي بي**) [رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٧٥٠٧)]، وزاد ابن حبان في آخره: (**فليظن بي ما شاء**)، ولكن من رواية واثلة بن الأسقع [رواه ابن حبان في صحيحه (٦٣٤، ٦٣٥)، وصحَّحه الألباني (صحيح موارد الظمآن ٢٠٨٨)، وشعيب الأرناؤوط (تخريج صحيح ابن حبان ٦٣٤)].

وسيء الظن بربه يتعلَّق قلبه بظواهر الأمور فقط، ويبني عليها أحكامه؛ فيتوقع الشر والسوء إذا أوحت ظواهر الأمور بذلك من غير اعتماد لسنن الله تعالى، ولا ثقة بقدره وقدرته سبحانه، وتدبيره الخفي اللطيف.

* * *

٦١٧ – مفهوم ٢٥: أكثر الخلق يسيئون الظن بربهم:

أكثر الخلق -إلا من شاء الله- يظنون بالله غير الحق ظن السوء والجاهلية؛ فكثير من بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني حقي، ونفسه تشهد عليه بذلك وإن أنكره لسانه ولم يتجاسر على التصريح به، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله حق المعرفة، وفهم معاني أسمائه الحسنى وصفاته العليا فهمًا دقيقًا صائبًا.

* * *

٦١٨ – مفهوم ٢٦: من صور سوء الظن بالله:

كل ظن لا يليق بالله تعالى وحكمته، ورحمته، وعلمه، وعدله، ووعده الصادق الذي لا يخلفه؛ فهو سوء ظن بالله وقدح في أسمائه الحسنى وصفاته العليا، ولذلك عدة صور؛ منها:

١ – القنوط من رحمة الله والإياس من روحه سوء ظن بالله تعالى.

٢ – التشاؤم سوء ظن بالله، كما أن التفاؤل حسن ظن بالله تعالى.

٣ – ظن أن الله ترك خلقه سُدى معطلين عن الأمر والنهي؛ لم يرسل لهم رسلًا، ولا أنزل إليهم كتبًا، بل تركهم هملًا كالأنعام، وإنما هي حياة ثم موت دون بعث ولا حساب؛ فكل ذلك سوء ظن بالله ﷻ، وهو قول الدهرية الذين يقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤].

٤ – ظن أن الله لن ينصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين، ولا يؤيد حزبه، ولن يعليهم على عدوهم؛ فكل ذلك سوء ظن بالله تعالى، فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وغيرها من الآيات في ذلك كثير.

٥ – إنكار أو جهل أن ما يقدره الله على أوليائه من محن أو بلايا إنما هو لحكمة بالغة،

وغاية محمودة، وعاقبة حميدة، وادَّعاء أن ابتلاءهم مشيئة مجردة عن الحكمة، وقدر حتم لا يتبدل؛ فذلك سوء ظن بالله.

٦ – ظن أنه يجوز على الله أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، وأنه يسوّي في ذلك بينهم وبين أعدائه.

٧ – ظن أن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى به كما يحب الإيمان والبر والطاعة؛ وذلك بدعوى أن الله خالق كل ذلك فهو مريده. والله سبحانه يقول: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر:٧].

٨ – ظن أن ما عند الله يمكن أن ينال بمعصيته ومخالفته كما ينال بطاعته والتقرب إليه.

٩ – ظن أن الله يعاقب المرء بما لا صُنْع له فيه، ولا اختيار منه ولا إرادة لحصوله.

١٠– ظن أن الله قد يضيع عمل المرء الصالح الذي أخلص فيه الوجه له سبحانه، وأنه يمكن أن يبطله بلا سبب من العبد، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٤٣].

١١ – ظن أن المرء لو ترك شيئًا لله فلن يعوضه الله خيرًا منه.

١٢ – من ظن أنه يكون في ملك الله ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده فقد أساء الظن بالله.

١٣ – من ظن أن لله صاحبة وولدًا، أو شريكًا، أو أن أحدًا يشفع عنده دون إذنه، أو أن بين الله وخلقه وسائط يرفعون الحوائج إليه، وأنهم أولياء له من دون الناس، والناس يتقربون ويتوسلون بهم إليه سبحانه؛ فكل ذلك سوء ظن بالله سبحانه.

١٤ – من ظن أن الله أخبر عن نفسه، أو أخبر عنه رسوله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وأنه ترك الحق في صفاته ولم يخبر به صراحة، وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة لا يفهمها إلا الفلاسفة والمتكلمون بزعمهم؛ من ظن ذلك الظن فعطَّل أسماء الله الحسنى وصفاته العليا عن حقيقتها ومعناها المراد منها فقد أساء الظن بالله تعالى. وقد ظهر من المبتدعة من يدَّعي أن الله لا يحب، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يسخط، ولا يوالي، ولا يعادي، ...إلخ، فتعالى الله عمَّا يقول مسيئو الظن بربهم؛ فكل من ظن بالله خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، أو عطَّل حقائق ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ فقد أساء الظن بربه.

١٥- ومن المبتدعة الذين يسيئون الظن بربهم: **الشيعة الروافض**؛ فمعتقداتهم كلها إساءة ظن بالله ﷻ؛ كادِّعائهم أن جُلَّ الصحابة -رضوان الله عليهم- قد تسلطوا على رسول الله ﷺ في حياته، واستبدوا بالأمر بعد مماته دون وصيِّه علي بن أبي طالب ﵁ -كما يزعمون- وظلموا أهل بيت رسول الله ﷺ، وسلبوهم حقوقهم؛ فكل ذلك افتراء على الله ورسوله وصحابته الكرام الذين قال الله في حقهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾، وقال في آخر الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح:٢٩]، ولفظة ﴿مِنۡهُم﴾ في الآية بيانية وليست للتبعيض حتى يتمسك بها المبتدعون؛ فالمقصود بيان أن هذه المغفرة وذلك الأجر العظيم هما للصحابة دون سائر المؤمنين؛ فأجرهم لا كأجر غيرهم، ومغفرة الله لهم تفوق مغفرته لمن سواهم.

ومن سوء ظنهم بربهم افتراؤهم الإفك على أم المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، مكذبين بذلك تبرئة الله تعالى لها حيث سمَّى ما افتُري به عليها إفكًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ [النور:١١]، وبرَّأها سبحانه بقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [النور:٢٦]، ورغم ذلك يصر الروافض على إفكهم منتقصين بذلك قدر رسول الله ﷺ، ومسيئين الظن بالله بادِّعائهم عدم إكرامه لنبيه بالزوجات الطيبات، بل وبإجازتهم أن يُدفن بجواره ﷺ الجبت والطاغوت؛ حيث يزعمون أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب -وهما خير أصحاب الرسول ﷺ- هما الجبت والطاغوت، فنعوذ بالله من ضلال أهل البدع، ونبرأ إليه سبحانه من إساءتهم الظن به سبحانه.

* * *

مفاهيم في

الزهد والورع والسلوك إلى الله

مفاهيم في الزهد والورع والسلوك إلى الله

أولا: مفاهيم حول الزهد والورع:

٦١٩ - مفهوم ١: تعريف الزهد والورع:

من أحسن ما قيل في تعريف كل من الزهد والورع قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «**الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يُخاف ضرره في الآخرة**» [مدارج السالكين:٢/ ١٠]؛ ولذا فالزهد أعلى مقامًا من الورع؛ لأن صاحب الورع قد يأخذ بما لا ينفع في الآخرة ما دام ليس فيه ضرر؛ وبناء على ذلك فكل زاهد ورع، وليس كل ورع زاهدًا.

* * *

٦٢٠ - مفهوم ٢: لا بد للورع والزهد من نية:

لا بد لكلٍّ من الزهد والورع من نية تصاحبهما؛ إذ الترك المجرد من غير نظر إلى علاقة ذلك بالآخرة لا يُسمَّى زهدًا ولا ورعًا؛ فقد يترك المرء بعض أمور الدنيا طلبًا للراحة والكسل لا لأنها تشغله عن أمر الآخرة، ومن كان هذا شأنه تراه غالبًا لا ينتفع بفراغه لأجل آخرته، بل يفسد أعظم فساد، فلا يُعمِّر الدنيا ولا الآخرة.

* * *

٦٢١ - مفهوم ٣: الزهد وما يُستعان به على الطاعة:

كل ما يُستعان به على طاعة الله ﷻ فليس تركه من الزهد؛ فمن تمتع بالمباحات -من غير توسع يشغله عن الآخرة- ونوى بذلك التقوِّي على طاعة الله ﷻ لم يخرج عن وصف الزاهدين؛ لأن هذا مما ينفعه في الآخرة.

* * *

٦٢٢ - مفهوم ٤: هل يكون زهد مع الغنى؟

قد يكون الزهد مع الغنى كما يكون مع الفقر؛ فمن الأنبياء والسابقين الأولين من كانوا أغنياء ولم يخرجهم ذلك عن كونهم من الزاهدين؛ لأنهم لم ينشغلوا بغناهم عن الآخرة، بل وظَّفوه في نفعهم فيها، وقد سُئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهدًا؟ فقال: «نعم، بشرط ألا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت».

٦٢٣ - مفهوم ٥: الورع ليس من باب الترك فقط:

من الغلط اعتقاد أن الورع هو من باب الترك فقط، بل يكون أيضًا من باب الفعل؛ فأداء الواجبات يُعدُّ من الورع؛ لأن عدم أدائها يسبب الضرر في الآخرة؛ فمن الورع: صلة الرحم الواجبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء حقوق المسكين والجار وعموم المسلمين، ...إلخ.

* * *

٦٢٤ - مفهوم ٦: لا بد من مستند شرعي للتورع عن شيء ما:

ينبغي أن يستند الورع في شيء -سواء بالترك أو الفعل- على دليل من الكتاب أو السنة، فلا ورع بالهوى والظن الفاسد كحال أهل الوسوسة في الطهارة والنجاسات؛ حيث يظنون وسوستهم هذه من باب الورع والحرص على صحة العبادة، مع أن ذلك مذموم شرعًا، وكذلك من تورَّعوا عن نكاح النساء، والنوم بالليل، والفطر بالنهار، فقد ذم الرسول ﷺ فعلهم وقال عنه: **(فمن رغب عن سنتي فليس مني)** [رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)].

* * *

٦٢٥ - مفهوم ٧: من تمام الورع معرفة خير الخيرين وشر الشرين:

من تمام الورع معرفة خير الخيرين وشر الشرين، فعند التعارض يقدَّم فعل خيرهما وترك شرهما، وإلا فقد يقع المرء في نوع من الورع الكاذب؛ فيقع من يترك الصلاة خلف الأئمة المبتدعة في ترك الجمعة والجماعات، ويظن ذلك من الورع.

* * *

٦٢٦ - مفهوم ٨: حقيقة الترف:

الترف هو أشد ما يصرف المرء عن الورع والزهد في الدنيا، وهو لا يعني مجرد التمتع بالنعمة، وإنما المترف هو الغافل عن الآخرة المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها؛ فالذي أترفته النعمة هو من أطغته النعمة وأبطرته، والبطر هو ردُّ الحق.

ولم يَرِدْ الترف في القرآن إلا مذمومًا؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ

﴿أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ:٣٤].

* * *

٦٢٧ - مفهوم ٩: قصر الأمل:

من أهم ما يعين على الورع والزهد في الدنيا: قصر الأمل؛ وهو: العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء الحياة؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [يونس:٤٥]؛ فمن يدرك سرعة زوال الدنيا وفنائها، مع ما يصاحب تحصيلها من آلام وغصص وأنكاد، ثم يدرك مع ذلك حتمية مجيء الآخرة وسرعة إقبالها، مع ما يتبع ذلك من دوامها وشرف ما فيها من خيرات للمؤمنين الطائعين، من يدرك ذلك كله يقصر أمله في الدنيا ويتحقق ورعه وزهده فيها، ويكون ممن صدق في تأهبه للقاء الله؛ وذلك مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والحاجز عن الأعمال السيئة. فقصر الأمل هو أول الوسائل المعينة على الزهد في الدنيا، وهو الذي يُنتِج أهم ثمرات الزهد في الدنيا: صدق التأهب للقاء الله.

* * *

٦٢٨ - مفهوم ١٠: وسائل تعين على الزهد في الدنيا:

من الوسائل المعينة على الزهد في الدنيا إضافة إلى قصر الأمل المذكور آنفًا:

أ - كثرة ذكر الموت، وزيارة المرضى، وشهود الجنائز، وزيارة القبور.

ب - مصاحبة الصالحين الذين تُذَكِّر رؤيتهم وأحاديثهم بالآخرة.

ج - كثرة قراءة القرآن وتدبره.

د - كثرة ذكر الله ﷻ ودعائه والتضرع إليه.

هـ - محاسبة النفس باستمرار، والتفكير في الغاية من خلقها ومصيرها.

و - تقليل الخلطة بالناس إلا فيما ينفع، وتخصيص أوقات يخلو العبد فيها بربه؛ كالاعتكاف في رمضان، والجلوس للذكر من بعد صلاة الفجر حتى الشروق، ومن بعد عصر يوم الجمعة حتى الغروب.

* * *

٦٢٩ - **مفهوم ١١: من ثمرات الزهد والورع:**

الورع والزهد في الدنيا يحصنان المرء من الوقوع في شهوات الدنيا؛ فصاحب الورع الزاهد في الدنيا هو أبعد الناس عن: طلب العلو والرئاسة فيها، والتحاسد والتباغض بسببها، كما أنه أبعد الناس عن فتن: الرياء والمفاخرة، وكتم الحق ولبسه بالباطل، والتحايل على شرع الله، وسائر المعاصي والآثام التي منبعها التعلق بشهوات الدنيا.

* * *

٦٣٠ - **مفهوم ١٢: الزهد والورع ييسران سلوك الطريق إلى الله:**

وتلك هي المنفعة العامة للورع والزهد في الدنيا: تيسير السلوك في الطريق إلى الله، وصدق التأهب للقائه ﷻ. فمن أراد الوصول برسالته إلى غايته فليتخفف قلبه من أحمال دنياه كما يتخفف من يسير على قدميه من أحمال ظهره.

* * *

ثانيًا: مفاهيم حول السلوك إلى الله تعالى:

١) حقيقة الدنيا والآخرة والعلاقة بينهما:

٦٣١ - **مفهوم ١: التفكر في حقيقة الدنيا والآخرة:**

أول درجات السلوك إلى الله تعالى إدراك حقيقة كلٍّ من الدنيا والآخرة والعلاقة بينهما؛ وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [البقرة:٢١٩-٢٢٠]؛ عن ابن عباس في معنى الآية: «يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها»، وقال الحسن: «هي والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء. [ينظر تفسير ابن كثير للآية].

* * *

٦٣٢ - **مفهوم ٢: غرور الدنيا وزوالها:**

بيّن الله حقيقة الدنيا وفنائها، وأنها مع ذلك تغر كثيرًا من الناس بمتاعها وزخرفها؛ قال الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠]. فبعد هذا التفصيل للحياة الدنيا وطبيعتها، وسرعة تحولها وانقضائها، نصَّت الآية على أن كل هذا ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ يغر المرء ويصرفه عما ينبغي أن يُعِدَّه للآخرة؛ والمتاع هو ما يُستمتَع به فترة ثم يزول، بخلاف النعيم الموصوف بأنه دائم ومقيم: ﴿وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:٢١]. وكذلك حذَّر الرسول ﷺ أمته من الاغترار بالدنيا وزينتها فقال: (**إن مما أخاف عليكم من بعدي: ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**) [رواه البخاري (١٤٦٥) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٢)]، قال ابن القيم: «وسمَّاها زهرة؛ فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه» [عدة الصابرين، ص٢٨١].

❊ ❊ ❊

٦٣٣ – مفهوم ٣: إنما الحياة حياة الآخرة:

القرآن الكريم مليء بالآيات التي تصف الدار الآخرة وما فيها من نعيم مقيم للطائعين، وعذاب أليم للكافرين والعاصين، ومن أصرح الآيات في بيان حال الآخرة مقارنة بالدنيا قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]؛ فالحياة الحقيقية هي الحياة الدائمة الخالدة، التي لا موت فيها ولا فناء لها، وهكذا ينبغي أن تكون النظرة إليها ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد:٢٦]، وقد قال ﷺ: (**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه –وأشار بالسبابة– في اليم، فلينظر بم ترجع**) [رواه مسلم (٢٨٥٨)]. فالحياة الدنيا مهما امتدت وطالت فهي محصورة محددة، والآخرة أبدية لا نهاية لها، ولا نسبة ولا مقارنة بين المحصور المحدد وغير المحصور الممتد إلى ما لا نهاية.

❊ ❊ ❊

٦٣٤ - مفهوم ٤: العجب ممن ينشغل بالدنيا الفانية عن الآخرة الباقية!

يقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٦، ٧]، فرغم كل ما قيل في الدنيا والآخرة والنسبة بينهما فإن أكثر الناس ينشغلون بالدنيا عن الآخرة؛ وما ذاك إلا لأن الظاهر المشاهد، والحاضر المحسوس يطغى في نفس من لا علم له على الغائب المؤجل ولو دلَّت عليه النصوص والأدلة العقلية؛ فترى أهل الدنيا يجزمون بوقوع الأمر الذي انعقدت أسبابه، بينما يذهلون عن الأمور الغيبية الأخروية، ولا يحسبون لها حسابًا، فيبرعون في كل ما له علاقة بالحياة الدنيا الظاهرة -كتقدمهم في علوم الذرة والتقنية الحديثة- ولكن لا يوظفون ذلك فيما فيه فلاحهم في الآخرة لأنهم عنها ﴿غَٰفِلُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

٦٣٥ - مفهوم ٥: عاقبة إيثار الدنيا على الآخرة:

كل من آثر الحياة الدنيا على الآخرة فقد طغى في نظرته إليهما وحكمه عليهما؛ لأنه تجاوز أمر الله إليه ومراده منه في النظر إليهما؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، فمن آثر الدنيا على الآخرة وعمل لها وحدها اختلت كل الموازين لديه، وعُدَّ طاغيًا باغيًا متجاوزًا للحدود، فاستحق أن تكون الجحيم هي نهايته ومأواه.

❊ ❊ ❊

٦٣٦ - مفهوم ٦: مكمن الخلل هو في تصور استحالة الجمع بين الدنيا والآخرة:

من قصور النظر في العلاقة بين الدنيا والآخرة: ظن استحالة الجمع بينهما؛ فنجد:

- قومًا جعلوا همهم الدنيا وقصروا نظرهم إليها، واستدلوا على ذلك بالنصوص التي فيها الحث على العمل والكسب في الدنيا.
- ونجد آخرين انصرفوا إلى الآخرة، وتركوا الدنيا لأهل الفساد يعيثون فيها ويعبثون، واستدلوا على ذلك بالنصوص التي تحث على الزهد في الدنيا.
- أمَّا أهل الحق والوسطية في النظر إلى علاقة الدنيا بالآخرة فقد جمعوا بين النصوص كلها؛ فتوجَّهوا إلى الدنيا بعمارتها وإصلاحها، ومدافعة المفسدين فيها، وعدُّوها مزرعة للآخرة

فجعلوها في أيديهم لا قلوبهم، وصيَّروها ممرًّا ومعبرًا إلى الآخرة؛ وهذا هو فهمهم لكونها فانية لا تساوي شيئًا في مقابل النعيم الأبدي في الآخرة، وهو ما فهموه من قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

* * *

٦٣٧ - مفهوم ٧: منهج الله هو الذي يجمع بين طريقي الدنيا والآخرة:

الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة؛ فيكون:

- الطريق إلى صلاح الدنيا هو ذاته الطريق إلى صلاح الآخرة.
- والإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته مؤهل لنيل ثواب الآخرة، كما أنه المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا.
- والإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض، كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي.

هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية، والذي لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله الذي رضيه للناس؛ فهو المنهج الذي يجعل العمل عبادة، والخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة؛ فالخلافة عمل وإنتاج، ووفرة ونماء، وعدل في التوزيع يفيض به الرزق على الجميع، وتعبيد الناس لرب العالمين.

* * *

٦٣٨ - مفهوم ٨: من تمام إدراك حقيقة كل من الدنيا والآخرة:

من تمام إدراك حقيقة كل من الدنيا والآخرة: معرفة الحكمة من تفضيل بعض الناس على بعض في أمور الدنيا؛ وهي أن يُسخِّر بعضهم بعضًا في الأعمال والحرف والصنائع كما قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢]؛ إذ لو تساوى الناس في الغنى ولم يحتج بعضهم إلى بعض لتعطَّلت كثير من مصالحهم ومنافعهم، ولفسدت معايشهم.

والله سبحانه أوضح أن هذا التفضيل هو في أمور الدنيا فقط، أما الآخرة وأمورها

فمعيار التفضيل فيها هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، ولهذا قال تعالى عقب بيان علة التفضيل الدنيوي: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وهو نظير قوله: في سورة يونس: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، وقوله تعالى في سورة الزخرف نفسها بعد بيان التفاضل الدنيوي: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٥].

* * *

٢) مفاهيم في المقصود بالسلوك إلى الله:

٦٣٩ – مفهوم ١: الفرار إلى الله:

حقيقة الفرار: سرعة الهرب من شيء إلى شيء. وقول الله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] صرَّح فيه بما يفر المرء إليه، وهو الله ﷻ، ولم يذكر ما يفر منه صراحة، ولكن لَمَّا جاء في آخر الآية تعليل الأمر بالفرار: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ظهر في التعليل أن المراد أيضًا الفرار من الله ﴿مِّنْهُ﴾؛ فالفرار من الله إلى الله، والمقصود: الفرار من غضبه وعذابه وموجب ذلك إلى رضاه وثوابه وموجب ذلك. وعلى هذا يصح القول: إن المقصود الفرار من كل ما يصد عن الله إلى ما يوصل إليه؛ فيفر من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، بل يفر كذلك من قضاء الله وقدره إلى قضائه وقدره.

* * *

٦٤٠ – مفهوم ٢: كل شيء تخافه تفر منه إلا الله:

الأصل أن كل شيء تخافه تفر منه؛ فإذا خفت من بطش ظالم في الدنيا فررت منه ولجأت إلى من هو أقوى منه تستعين به عليه، أمَّا الله سبحانه فإنك إن خفته تفر إليه؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨]، وكما في آخر دعاء المرء إذا أوى إلى فراشه: **(لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)** [رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠)]؛ لأنك إذا خفت من الله فإنما تخاف معصيتك له وظلمك لنفسك، والله سبحانه هو الحكم القسط؛ لا يظلم الناس ولا يبخسهم أعمالهم، وهو

مالك الكون كله، وبيده الأمر كله، فمن ذا الذي يمنعك منه؟! لهذا لا تلجأ إلا إليه، وتستعيذ برضاه من سخطه كما في الحديث: **(اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)** [رواه مسلم (٤٨٦)].

❋ ❋ ❋

٦٤١ - مفهوم ٣: فِرار الناس نوعان:

للناس في حالهم مع الله والفرار حالان، وهما نوعان:

- فرار السعداء: وهو الفرار إلى الله كما سبق بيانه.
- فرار الأشقياء: وهو الفرار من الله لا إليه؛ فيتيهون عن سبيل الله، ويغرقون في وحل الشبهات والشهوات.

❋ ❋ ❋

٦٤٢ - مفهوم ٤: اللجوء لغير الله مذلة:

إذا كان المرء لا يلجأ من الله إلا إليه، فمن باب أولى لا يلتجئ من كل ما سوى الله إلا إلى الله سبحانه؛ فلا يخشى أحدًا سوى الله، ولا يذل نفسه لغير الله تعالى، ولا يبتغي العزة عند الكافرين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزة بغيره» [رواه الحاكم (٢٠٨)، وابن أبي شيبة (٣٤٤٤٤)].

وكذلك يلجأ المرء في توكله وإنابته ودعائه إلى الله سبحانه؛ فيسأله وحده الرزق والأمن وكل ما يبتغيه ويتمناه من الحلال المباح.

❋ ❋ ❋

٦٤٣ - مفهوم ٥: الهجرة إلى الله:

من تمام فرار المرء إلى الله ولجوئه إليه أن يهجر كل ما يصده عن السبيل إليه؛ كما قال ﷺ: **(المهاجر من هجر ما نهى الله عنه)** [رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)]، وكما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]؛

فهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية؛ يترك فيها المرء كل شيء في بيئته ووطنه يعيقه عن الوصول إلى الله، فمهما كانت بيئة المرء قاسية وملوثة يحرص هو على أن يكون نقيًّا صافيًا كما يُخرج الله ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل:٦٦]. فتكون هجرته كاملة من حال إلى حال، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزاحمها في النفس شيء؛ وذلك تمام التجرد والخلوص والاستسلام لله تعالى، والطمأنينة واليقين به سبحانه.

❋ ❋ ❋

٦٤٤ – مفهوم ٦: سبيل الله هو سبيل الرشاد والهداية:

الرشاد هو الهدى والحق، والسبيل إلى الله هو الذي يحقق هذا الرشاد؛ كما قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨]، وقال الله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا السبيل يحرم منه المتكبرون في الأرض، المكذبون بآيات الله، الغافلون عنها؛ قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦]. وضد الرشاد الغواية، وغالبًا ما ترتبط بالتكبر كما ذكرت الآية، وهو حال اليهود لاستكبارهم على الحق مع معرفتهم به فاستحقوا غضب الله، كما أن الضلال ضد الهداية ومنبعه الجهل، وكان هو سبب انحراف النصارى الذين استحقوا وصف الضلال عن الحق.

❋ ❋ ❋

٦٤٥ – مفهوم ٧: التسامي والارتفاع إلى مستوى الدين الحق:

حتى يحقق المرء هجرته إلى الله ويتبع سبيل الرشد لا بد له أن يتحمل مسؤوليته تجاه دينه، ويتسامى ويرتفع بمستواه إلى مستوى هذا الدين الحق؛ فيرتفع بمستواه في حقيقة معرفته بالله، وحقيقة إيمانه به تعالى، ويرتفع بمستواه في عبادته إياه، ويرتفع بمستواه في وعيه لما حوله ومعرفة أساليب عصره، ورحم الله امرأً عرف زمانه واستقامت طريقته.

❋ ❋ ❋

٦٤٦ – مفهوم ٨: العبرة بكمال النهاية لا نقص البداية:

ينبغي ألا يُعيَّر المرءُ وينظر إليه نظرة ازدراء لأي ذنب اقترفه ما دام قد تاب منه؛ إذ المقرر شرعًا أن المرء بعد توبته أفضل حالاً منه قبل التوبة؛ فنبي الله آدم عليه السلام قد وُصِف في أول الأمر بأنه عصى ربه، ثم لم يمنع ذلك أن يُنعِمَ الله عليه بالاجتباء بعد توبته، ووصفه بالهداية، وجعله من الأنبياء المصطفين؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١، ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]. والمرأة التي زنت على عهد النبي ﷺ ثم تابت وأقاموا عليها الحد، وسبَّها خالد ابن الوليد حين أصابه من دمها عند رَجْمها، أنكر النبي ﷺ عليه ذلك وقال: **(مهلاً يا خالد! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغُفِر له)** [رواه مسلم (١٦٩٥)].

* * *

٦٤٧ – مفهوم ٩: الاستقامة:

أمر الله في كتابه الكريم بالاستقامة، فقال: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود:١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]، وأمر بها الرسول ﷺ فقال: **(قل آمنت بالله ثم استقم)** [رواه مسلم (٣٨)]. والاستقامة هي: الاعتدال والمُضي قُدُمًا على المنهج دون انحراف واعوجاج؛ ولهذا وُصِف الطريق إلى الله الذي يطلب المؤمنون الهداية إليه بأنه ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]. والاعتدال وعدم الانحراف يعني لزوم العدل بين طرفي الغلو والإفراط، والتقصير والتفريط؛ فالاستقامة إذًا تعني التوسط بين هذين الطرفين؛ فهي بمعنى الوسطية، وهي كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين كله؛ فتكون في: الاعتقاد، والعبادة، والشريعة، والأخلاق.

* * *

٦٤٨ – مفهوم ١٠: التأكيد في الاستقامة على عدم الغلو والطغيان:

رغم أن الاستقامة تعني –كما أسلفنا– الاعتدال بين كل من الغلو والتقصير، أو الإفراط والتفريط إلا أننا نجد قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود:١١٢] قد أعقب الله فيه الأمر بالاستقامة بالنهي عن

الطغيان والمجاوزة -أي الإفراط والغلو- ولم يذكر التفريط والتقصير، وإنما وردت الإشارة إليه فقط في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦]؛ حيث أشار بالاستغفار إلى طلب مغفرة ما قد يصاحب الاستقامة من تقصير وخلل، فكان التأكيد على عدم الغلو والطغيان بالنهي عنه صراحة؛ لأن المؤمن حين يتلقى الأمر بالاستقامة يثمر ذلك في نفسه يقظة وتحرُّجًا قد يُفضي به إلى الغلو والمبالغة التي تُحوِّل الدين من يسر إلى عسر، فنبه الله تعالى على ذلك لأنه يريد دينه كما أنزله دون غلو فيه أو إفراط.

* * *

٦٤٩ - مفهوم ١١: ثمرات الاستقامة:

الاستقامة على الدين كلها خير؛ فهي تثمر الجزاء الحسن في الحياة الدنيا؛ قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن:١٦]، كما تكون عاقبتها البشرى بالأمن والسرور في الآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

* * *

٣) مفاهيم حول الصوارف عن الطريق إلى الله والممحصات الرادة إليه:

٦٥٠ - مفهوم ١: الصارف العام:

كثيرة هي الصوارف عن الطريق إلى الله، وأولها وأعمها: الغفلة عن الآخرة وطريقها، وأصل الغفلة عن الشيء: تركه على وجه السهو عنه والنسيان له، وتشمل أيضًا إهمال الشيء والإعراض عنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦]؛ أي: معرضين، وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١].

* * *

٦٥١ - مفهوم ٢: أكثر العالمين بأمور الدنيا غافلون عن الآخرة:

أكثر أهل العلم والخبرة بأمور الدنيا يغفلون عن الآخرة ويضلون عنها ضلالًا بعيدًا؛ فتراهم ما بين مشرك عابد للأصنام مثل اليابانيين عباد بوذا، أو من أهل الكتاب المشركين بالله، أو ملحد منكر لوجود الإله مثل كثير من علماء أوروبا وأمريكا، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم:٧].

والمفترض أن يكون التقدم في علوم الدنيا هاديًا لهم إلى الإيمان بخالق الكون وإدراك الغاية من خلقهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]، ولكن هذا هو فقط حال من وفقه الله منهم إلى الهداية -وقليل ما هم- ويكون إيمانهم حينئذ راسخًا نابعًا من إدراك شواهد الحق في الكون.

❋ ❋ ❋

٦٥٢ - مفهوم ٣: التفريط والجفاء:

التفريط هو التضييع والتقصير، وعاقبته في الآخرة: الحسرة والندامة؛ قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]؛ أي: يا ندامتنا على ما ضيَّعنا من عمل الجنة وقصَّرنا فيه. [ينظر تفسير الطبري].

❋ ❋ ❋

٦٥٣ - مفهوم ٤: الغلو والإفراط:

الغلو: مجاوزة الحد؛ ومنه قوله الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]، والإفراط: السبق والتقدم؛ ومنه الدعاء في الصلاة على الطفل الميت: «اللهم اجعله لنا سلفًا وفرطًا وأجرًا». [أخرجه البيهقي موقوفًا على أبي هريرة (٧٠٤٢)، وحسَّن الألباني إسناده موقوفًا (أحكام الجنائز ١٦٠)]؛ أي: سابقًا إلى الجنة وسببًا في اللحاق به فيها. والمقصود هنا أن المُفْرِط الغالي هو كل من سبق وتقدم الطريق حتى جاوز الحد وخرج عنه؛ فيكون تقدمه على غير هدى مُسبِّبًا لتجاوز الحد والخروج عن الطريق. قال الطبري في تفسير الآية: «لا تفْرِطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو: هو ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح

منه». وقال ﷺ: (إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين) [أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٨٣)]، فالغلو والإفراط إذًا هو: مجاوزة الحد وتعدِّي ما أمر الله به، أو فعل ما لم يشرعه الله ﷻ ولا رسوله ﷺ، وليس المراد به الاجتهاد في الطاعة وفق الكتاب والسنة الصحيحة؛ فذاك أمر مشروع بخلاف الغلو المذموم.

❋ ❋ ❋

٦٥٤ - مفهوم ٥: كلا طرفي القصد ذميم:

الطريق إلى الله وسط بين كلٍّ من الإفراط والتفريط؛ لا غلو فيه ولا جفاء كما قال بعض السلف: «ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة -وهي الإفراط- ولا يبالي بأيِّهما ظفر: زيادة أو نقصان». [ينظر مدارج السالكين (٢/ ٣٤٢) دار طيبة].

❋ ❋ ❋

٦٥٥ - مفهوم ٦: قد يجتمع في المرء الواحد إفراط وتفريط:

قال ابن القيم عن الإفراط والتفريط: «وقد يجتمعان في الشخص الواحد -كما هو حال أكثر الخلق- يكون مقصِّرًا مُفرِّطًا في بعض دينه، غاليًا متجاوزًا في بعضه، والمهدي من هداه الله». [كتاب الروح (ص ٥٤٥) ط. دار إحياء العلوم].

٦٥٦ - مفهوم ٧: التسويف:

التسويف هو التأخير والتأجيل، ومنه قولك: «سوف أفعل كذا»، وهو داء عُضال، وأكثر الأمور بعد الغفلة صرفًا للمرء عن سلوك الطريق إلى الله ﷻ؛

- فكم من كافر أراد الإيمان فصرفه التسويف عنه حتى مات على كفره، وكم من عاصٍ تمنَّى التوبة فحال التسويف بينه وبينها حتى وافته المنية وهو على معاصيه لم يتب منها.
- وكم من عازم على الجد، أو ساع إلى فضيلة صرفهما التسويف عما أرادا من خير.

فينبغي لكل عاقل أن يحزم أمره إذا أراد فعل خير أو الانتهاء عن باطل، فيبادر بذلك ويحذر تأجيله، وقد قال بعض السلف: «أنذركم (**سوف**) فإنها أكبر جنود إبليس». فالمسوف معين لإبليس على نفسه؛ إذ باجتماع التسويف مع الوسوسة بالباطل تصعب مجاهدته ويعسر الخلاص منه. وصاحب العزم والحزم ساعٍ دائمًا إلى أمر الآخرة، فإذا

جاءه ملك الموت لم يندم، أما المسوِّف فيتجرع مرير الندم وقت الارتحال من الدنيا، ويتحسَّر على ما فوَّت من خير بتسويفه وتوانيه.

* * *

٦٥٧ – مفهوم ٨: وسوسة الشيطان:

وظيفة الشيطان الرئيسة هي الوسوسة في صدور الناس بالباطل؛ فهو: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٤-٥].

وسواء كان الشيطان من الجن الذين لا ندري كيف يوسوسون إلينا، وإن كنا ندرك آثار وسوستهم في حياتنا الدنيا، أم كان من الإنس –وهم دعاة السوء– الذين يُغرون رفقاءهم بارتكاب الموبقات؛ فقد أخبرنا الله تعالى أن الشياطين من الجن والإنس؛ كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]. فشيطان الجن يوحي ويوسوس إلى وليه من الإنس ليضل به الناس إضافة إلى إضلاله لهم بذاته ووسوسته المباشرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

* * *

٦٥٨ – مفهوم ٩: الشيطان خنَّاس:

الخنَّاس صيغة مبالغة من الخنس؛ أي كثير الخنس، والخنس هو: التواري والتخفي، والغياب والتأخر، والتنحِّي، والانقباض. وكون الشيطان خنَّاسًا يفيد أمرين:

أ – أنه يوسوس إلينا من حيث يرانا ولا نراه؛ لأنه مختفٍ عنا كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

ب – أنه ينقبض ويذهب ويزول عند ذكر الله تعالى؛ وذلك دلالة على ضعف كيده أمام ذكر الله والاستعاذة به سبحانه منه ومن وسوسته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

والله سبحانه لم يتركنا في معركتنا مع الشيطان مجردين من العدة والذخيرة؛ فقد جعل لنا من الإيمان جُنَّة ودرعًا، ومن الذكر عدة، ومن الاستعاذة سلاحًا، فإذا أغفل الإنسان درعه وعدته وسلاحه فهو إذًا وحده الملوم.

٦٥٩ – مفهوم ١٠: الشهوات:

تُعدُّ الشهوات من أكبر صوارف النفس عن الطريق إلى الله تعالى؛ فهي قسيمة الشبهات في هذا الصدد، ولكنها في الوقت ذاته مغروزة في النفس البشرية لا يمكن إنكارها؛ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤].

وهي ضرورية للحياة البشرية كي تنمو وتطَّرِد، فتجنُّب آثارها السلبية لا يكون بإنكارها وكبتها، وإنما يكون بالتسامي بالنفس البشرية وضبطها لتقف عند الحد السليم والمباح من مزاولة هذه الشهوات دون الاستغراق فيها والمجاوزة إلى الحرام؛ فالاستعداد لتسامي النفس البشرية، وربط قلب المرء بالملأ الأعلى، وطلب الآخرة ورضوان الله هو الذي يقي الإنسان من سفول النفس والحيوانية في مزاولة الشهوات؛ فقد ختم الله آية حب الشهوات السالفة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران:١٤].

* * *

٦٦٠ – مفهوم ١١: شؤم المعصية:

يندر أن تقع المعصية منفردة، بل الغالب أن يسبقها، أو يرافقها، أو يتبعها معاصٍ أخرى متعددة؛ فحسد أخوة يوسف لأخيهم وحقدهم عليه أوقعهم في عدة معاصٍ بدأت باتهامهم لأبيهم –وهو النبي الكريم- بالضلال المبين: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف:٨]، ثم كذبهم على أبيهم والتحايل عليه لأخذ يوسف معهم، ثم غصبهم قميص يوسف ليستعملوه في جريمة أخرى، ثم ألقوا يوسف في البئر معرضينه لخطر الموت، واستتبعوا ذلك بالكذب عدة مرات؛ فتظاهروا بالبكاء نفاقًا لتمرير قصتهم المكذوبة بقتل الذئب لأخيهم، والكذب بوضع الدم على قميص يوسف.

وكذلك معصية الزنا مثلًا يسبقها معصية النظر المحرم وسائر مقدمات الزنا، وغالبًا ما يصاحبها شرب للخمور والمخدرات، والتحايل والكذب لإخفاء تلك المعصية، وربما وقع المرء في السرقة لاستجلاب المال اللازم لاقترافها، وقد يحصل الحمل منه فتسعى المرأة وحدها أو مع خليلها إلى التخلص من الجنين وقتله، أو يكشف أمرهما فيتخلصان ممن

عرف الأمر وكشفه، وهلم جرا. فلا تقف المعصية غالبًا عند حد اقترافها مجردة.

ومن شؤم المعصية أيضًا أن المرء يفعلها أول مرة وفي نفسه منها حرج وتأنيب ضميره لفعلها، ثم لا يلبث أن يكررها مرة ثانية وثالثة حتى يألفها ويزول إنكارها، ثم يشتد ارتباطه بها حتى يصعب عليه فراقها.

* * *

٦٦١ – مفهوم ١٢: مبطلات الأعمال:

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٣]، ومبطلات الأعمال متنوعة، وتشمل الأمور الآتية:

أ – إبطال الأعمال حال عملها؛ وذلك بما يفسدها من الرياء وعدم الإخلاص فيها.

ب – إبطال الأعمال بعد عملها؛ وذلك بالمنِّ بها والإعجاب والفخر والسمعة؛ كما قال الله تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٣-٢٦٤].

ج – إبطال أثر الأعمال بالإكثار من المعاصي التي تضمحل معها الأعمال ويزول أجرها؛ قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]، وأكثر ما يكون ذلك بظلم العباد في نفس أو عرض أو مال، وقال ﷺ: (**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**) [رواه مسلم (٢٥٨١)].

د – إبطال العمل بالإتيان بمفسد من مفسداته؛ مثل مبطلات الصلاة والصيام، ونحوها.

هـ – قطع العمل بعد الشروع فيه، وهو أمر غير مشروع من غير موجب له، وقد استدل العلماء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٣] على تحريم قطع الفرض وكراهة قطع النفل من غير موجب لذلك.

* * *

٤) مفاهيم حول وسائل السلوك إلى الله:

٦٦٢ - مفهوم ١: تدبر آيات الله المتلوة:

التدبر مأخوذ من الدبر الذي هو مؤخرة الشيء؛ فالتدبر هو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، وتدبر كتاب الله إذًا هو التفكر الشامل الموصل إلى دلالاته ومقاصده الكلية النهائية؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢، ومحمد:٢٤].

والمقصد الأساس لكتاب الله تعالى هو الهداية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وحين سأل المؤمنون ربهم في سورة الفاتحة الهداية إلى الصراط المستقيم يأتيهم الجواب في افتتاح سورة البقرة بعدها مباشرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]. فكان تدبر القرآن على هذا يثمر معرفة مقصده الرئيس الذي هو: سلوك سبيل الهداية، فهو أنفع شيء للمرء في سلوكه إلى الله تعالى؛ حيث يعرفه ربه المعبود، والطريق الموصلة إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، كما يعرفه في المقابل ما يصرفه عن سلوك هذا السبيل من: ما يدعو إليه الشيطان، والطرق الموصلة إليه، وما لسالكها من الإهانة والعذاب.

* * *

٦٦٣ - مفهوم ٢: هدي السلف في التعامل مع القرآن:

لم يكن أصحاب النبي ﷺ يقتصرون في تعاملهم مع القرآن على إقامة أحكام تلاوته، ولا مجرد فهم معانيه وتدبره، بل يضيفون إلى ذلك كله: الحرص على العمل بما فيه؛ وهذا هو المنهج الذي يكون به القرآن هاديًا للمرء في سلوكه إلى الله؛ قال ابن مسعود: «كان الرجل منَّا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» [رواه الطبري (١/ ٤٤) وسنده صحيح]. وقال عبد الله بن عمر: «لقد لبثنا برهة من دهر وأحدنا ليؤتَى الإيمان قبل القرآن؛ تنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما يتعلم أحدكم السورة، ولقد رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان؛ يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يعرف حلاله ولا حرامه، ولا أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينثره

نثر الدقل» [أخرجه ابن منده في الإيمان (٢٠٠٧)، وإسناده صحيح على شرط مسلم].

❋ ❋ ❋

٦٦٤ - مفهوم ٣: التفكر في آيات الله المشهودة في الآفاق:

آيات الله الكونية باهرة عظيمة، ولكن تكرار ظهورها أمام الحس والنظر يجعلها مألوفة لدى المشاهد، فيضمحل تفكره فيها وتأمله لها، فإذا ما قصد التفكر فيها وفي عظمتها تيقَّظ حسه وامتلأ قلبه رهبة وتعظيمًا لخالقها، ومحبة وإجلالًا له سبحانه، فينبغي على المرء أن يتأمل: الجبال الشاهقات وما يكسو بعضها من أشجار، والأرض وما فيها من مسالك وسهول وجنات، والبحر واتساعه وارتفاع أمواجه إذا ما ثار وهاج، والسماء وما فيها من كواكب ونجوم مزينات وهاديات، ...إلخ، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

❋ ❋ ❋

٦٦٥ - مفهوم ٤: توازن آيات الله الكونية وخضوعها لنظام دقيق:

إذا ما انتقل المرء من التفكر في آيات الله الكونية إلى دراستها ومعرفة نظامها سيجد أن كل شيء فيها يخضع لنظام دقيق ومتوازن؛ يحفظ هذا الكون من الدمار والفناء، فيوقن عندها أن وراء ذلك خالقًا، مدبرًا، حكيمًا، رحيمًا، تقوم السماوات والأرض بأمره سبحانه.

❋ ❋ ❋

٦٦٦ - مفهوم ٥: ثمرة التفكر في آيات الله الكونية لا تتحقق إلا لأولي الألباب:

اليقين بخالق السماوات والأرض وقدرته وحكمته وعظمته، الناجم عن التفكر في آيات الله الكونية لا يتحقق -مع الأسف- لكل الناس، وإنما هو نصيب أولي الألباب؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، فيصاحب تفكرهم توجه إلى الله تعالى بالذكر والدعاء والعبادة، فيثابون على ذلك.

٦٦٧ – **مفهوم ٦: أثر معرفة أسباب الظواهر الكونية:**

ينبغي ألا تؤثر معرفة أسباب الظواهر الكونية سلبًا في ثمرة التفكر في الآيات الكونية نفسها؛ فلا يُنقص إدراك إثر الجاذبية على الأجرام، أو نشوء الليل والنهار عن العلاقة بين الشمس والأرض، أو أسباب ظاهرتي الكسوف والخسوف، ...إلخ، ينبغي ألا يُنقص إدراك ذلك من أثر التفكر في هذه الآيات في توجه المرء إلى رب هذا الكون بالعبادة والإجلال، بل يرشده ذلك إلى عظيم قدرة الله الخلَّاق.

* * *

٦٦٨ – **مفهوم ٧: التفكر في آيات الله في الأنفس:**

يقول الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١]، فما الذي نبصره في الأنفس؟!

عند التفكر في ذلك نجد أن النفس البشرية هي العجيبة الكبرى في الأرض؛ فهي عجيبة في تكوينها الجسماني، وفي تكوينها الروحي، عجيبة في ظاهرها وباطنها؛ فيدهشك:

- تكوين أعضاء الإنسان وتوزيعها، ووظائفها وطريقة أدائها: عملية الهضم والامتصاص، الغدد وإفرازاتها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه، تناسق الأجهزة كلها وتعاونها، ...إلخ.
- أسرار الروح وطاقاتها المعلومة والمجهولة، وطريقة إدراكها لما حولها، وحفظها للمعلومات والصور المختزنة؛ أين يحدث ذلك؟! وكيف؟!
- كيف يتكون الجنين في رحم أمه؟! وكيف ينمو ويتطور؟!
- كيف تحمل خلية واحدة –هي أصل تكوينه– صفاته الموروثة من الأبوين، والأجداد، والأقارب القريبين أو البعيدين؟!
- كيف ينفصل الجنين عن أمه ويستهل صارخًا لتبدأ رئتاه بالتحرك للاعتماد على نفسه في التنفس وبدء الحياة على الأرض؟!
- كيف يتحرك لسانه بعد أن يكبر قليلًا لينطق بالحروف والكلمات ويتعلم اللغة؟!
- كيف تتكون علاقاته مع الآخرين؟! كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤] فيتزوج ويسكن لزوجه: ﴿وَمِنۡ

ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

- كيف تختلف ألسنة البشر وألوانهم؟! ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

- وأخيرًا وليس آخرًا: كيف يبدأ المرء حياته مولودًا ضعيفًا لا يعلم شيئًا: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل:٧٨]، ثم ينمو رويدًا رويدًا حتى يصبح شابًّا فتيًّا يملأ الأرض حيوية وحركة، ثم يشيخ فيعود ضعيفًا كما كان أول مرة، ويموت ويُغيَّب في التراب؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

وغير ذلك الكثير والكثير؛ فكل جزئية في حياة هذا المخلوق تظهر لنا خارقة من الخوارق لا ينقضي منها العجب؛ خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة العظيمة التي لا تكون إلا لله الواحد القهار، وتوصلنا إلى الإيمان بالله سبحانه، وحث الخطى في السير إليه، والسعي لمرضاته، وعبادته حق العبادة.

* * *

٦٦٩ - مفهوم ٨: التفكر في آلاء الله سبحانه وامتنانه بها على خلقه:

لقد حفل القرآن الكريم بذكر العديد من نعم الله سبحانه التي لا تعد ولا تحصى؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨]، والله سبحانه حين يمتن على عباده بذكر نعمه عليهم إنما يدعوهم بذلك إلى معرفته، ومحبته، وإجلاله، وتعظيمه، والإيمان به وبسائر أركان الإيمان؛ فهو يمتن عليهم بالنعم ليحققوا إسلامهم له فتتم بذلك نعمه عليهم؛ إذ نعمة الإسلام هي رأس النعم كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ﴾ دِينٗا [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل:٨١]، كما أنه ﷻ قال عمن كفره ولم يشكر نعمه: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النحل:٨٣].

* * *

٦٧٠ - مفهوم ٩: شكر النعمة:

ينبغي على كل فرد أن يشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه، ولا يغتر بها لديه وينسبه لنفسه، وإنما يُرجع الفضل في ذلك كله إلى الله؛ فإن شكر النعمة موجب للحفاظ عليها وزيادتها؛ كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧]، وليعلم أن هذا الشكر لا ينتفع به الله ﷻ، وإنما يرجع نفعه إليه هو نفسه؛ فقد قال سليمان عليه السلام حين أحضر إليه عرش ملكة سبأ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]. والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

* * *

٦٧١ - مفهوم ١٠: النعم الدينية والنعم الدنيوية:

النعم الدينية أعظم وأجل من النعم الدنيوية؛ بل هي النعم الحقيقية التي تدوم ويدوم أثرها إذا زال غيرها، لذا ينبغي لمن وُفِّق إلى نعمة دينية من علم شرعي أو عمل صالح أن يشكر الله على ذلك ليزيده من فضله، وليندفع عنه الإعجاب بنفسه الذي قد يُحبط عمله. وقد أمر الله بشكره بعد بيانه لما أنعم به علينا من النعم الدينية؛ فبعد أن امتن علينا بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:١٥٢].

* * *

٦٧٢ - مفهوم ١١: هل لله على الكافر نعمة؟

حين نُقسِّم النعم إلى نعمة خاصة هي نعمة الهداية والإيمان، ونعم عامة هي نعم الدنيا التي يشترك فيها الخلق جميعًا، يصح باعتبار هذه النعم العامة والنظر إليها أن نقول: إن لله على الكافر نعم كما هي للمؤمن.

أمَّا إذا نظرنا إلى النعمة الخاصة فحسْب -نعمة الهداية والإيمان- فيصح أن نقول: إن الكافر محروم من هذه النعمة. وعند ذلك تكون نعم الدنيا على الكافر نقمة وبلية باعتبار أنه لم يؤد شكرها، فلم توصله إلى ثمرتها المرجوة: الهداية والإيمان؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨].

٦٧٣ - مفهوم ١٢: نعم الله لا تُعَدُّ ولا تحصى:

أكثر النعم لا يدركها الإنسان ولا يحصيها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]؛ وذلك لأنه يألفها لكثرة مخالطته لها، فلا يشعر بها إلا حين يفقدها؛ كنعم: الصحة، والسمع، والبصر، والكلام، والعقل، والماء، والزرع، والأنعام، ...إلخ. وهو حتى مع إدراكه لما يدركه منها إنما يدركه على وجه الإجمال دون إدراك أو استحضار ما تحته من نعم تفصيلية؛ فنعمة اللسان مثلًا يدرك المرء منها أنه يُستخدم في الكلام والتذوق، ويذهل عن كيفية مشاركته مع الأحبال الصوتية في الحنجرة وحركته المختلفة داخل تجويف الفم لإصدار الأصوات بنسق وترتيب معين، ينتج عنه أحرف وكلمات، تُكوِّن جملًا بمختلف اللغات واللهجات، تُسهِّل عليه التواصل مع بني جنسه، ثم يذهل عمَّا ينتج عن الكلام الطيب من نعمة الحسنات التي يثاب بها عليه في الآخرة.

وفي مجال التذوق يذهل عن تفاصيل تلك العملية الناجمة عن استشعار الحراشف التي تغطي لسانه للحلو، والمر، والحامض، والمالح، من خلال فروع عصبية تحت الحراشف تتصل بالمخ في الدماغ ليحلل معلومة المذاق ثم يعيدها للحراشف لتُكوِّن إدراكها له. كل هذا في نعمة واحدة ظاهرة جلية، فما بالك بسائر النعم كلها؟!

وقصارى ما يستطيعه المرء هو أن يُصنِّف النعم إلى نعم في خلق السماوات وما فيها من أجرام وكواكب وشموس وأقمار، والأرض وما عليها من جبال وسهول وسبل وأنهار، وما ينبت فيها من زروع وأشجار، وما يدب عليها من أنعام وحيوانات، والبحار وما فيها من أسماك وزينة، وما يسير فيها من مراكب. وفي كل جزئية وتحت كل فرع وتصنيف مئات الآلاف من النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

❊ ❊ ❊

٦٧٤ - مفهوم ١٣: التأمل في سير الأنبياء مع قومهم وغايته:

الغاية الكبرى من دراسة قصص الأنبياء مع قومهم هي أخذ العبرة والموعظة منها؛ قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

❊ ❊ ❊

٦٧٥ – مفهوم ١٤: قصص الأنبياء ونجاة المؤمنين وهلاك الكافرين:

من آكد العبر المستقاة من قصص الأنبياء مع قومهم: نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين؛ فهذا مذكور بوضوح في كل قصصهم، وهو سنة ماضية، فعلى المؤمنين مهما ابتُلُوا ألا ييأسوا، وليعلموا أن العاقبة لهم، فليتيقنْ المرتاب، وليتُبْ المذنب، وليقوى إيمان المؤمنين؛ فبهذا يكون الاتساء بالأنبياء.

***

٦٧٦ – مفهوم ١٥: فبهداهم اقتده:

من أهم العبر المستقاة من قصص الأنبياء: الاقتداء بهديهم؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]. ويمكن إجمال هذا الاقتداء في:

١ – الاقتداء بهم في خيريتهم وعبادتهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

٢ – الاقتداء بهم في صبرهم على أذى قومهم لهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:٣٤].

٣ – الاقتداء بهم في شفقتهم على أممهم ورحمتهم بهم ونصحهم لهم، ويكفينا في ذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨].

٤ – الاقتداء بهم في منهجهم في دعوة قومهم.

***

٦٧٧ – مفهوم ١٦: غض البصر:

غض البصر يورث زكاة النفس وطهارتها كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ﴾ [النور:٣٠]، ولكي يحقق المرء ذلك عليه أن يبذل أسباب الوقاية من إطلاق البصر والاطلاع على عورات النساء من خلال اتباع الآتي:

– يتحاشى أماكن الاختلاط بالنساء المتبرجات؛ كالشواطئ المختلطة، والمنتزهات والأسواق المختلطة كذلك.

- يحذر المجلات والفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي التي تنشر المقاطع المثيرة للفتن والشهوات.

- وليتذكر دائمًا حديث الرسول ﷺ: **(والعين تزني وزناها النظر)**، وقال ﷺ في آخره: **(والفرج يصَدِّق ذلك أو يكذِّبه)** [رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧)].

* * *

٦٧٨ - مفهوم ١٧: ضبط الخواطر والأفكار:

أ - كل إنسان مفكر، وكل مفكر عامل؛ فالخواطر والأفكار هي مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري؛ فإنها تُنتج التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة الفعل تجعله يستحكم ويصير عادة. فبحسب خواطر وأفكار كل إنسان تكون أعماله: إن حسنت حسن العمل، وإن ساءت ساء العمل، فينبغي على المرء أن يضبط خواطره وأفكاره حتى ينضبط سلوكه ويتوجه إلى ما يُرضي الرب سبحانه.

ب - دفع الخواطر السيئة أيسر من دفع التصورات، ودفع التصورات ومعالجتها أيسر من دفع الإرادات، وهكذا يزداد الأمر صعوبة كلما توغَّل المرء في نواتج الخواطر والأفكار، حتى إذا ما أصبح الأمر عادة مستحكمة عسر جدًّا عليه الإقلاع عنها، فلا يمكنه ذلك إلا أن يمُنَّ الله عليه بتوبة من عنده وتوفيق منه سبحانه.

ج - قد لا يملك الإنسان منع الخواطر ابتداءً لأنها تهجم عليه فجأة، ولكنه يستطيع بقوة الإيمان ورجاحة العقل أن يُصفِّي هذه الخواطر، فيقبل الحسن منها ويرضى به ويساكنه، ويدفع القبيح ويكرهه وينفر منه؛ كما قال بعض الصحابة للرسول ﷺ: إنَّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال ﷺ: **(وقد وجدتموه؟)**. قالوا: نعم. قال: **(ذاك صريح الإيمان)** [رواه مسلم (١٣٢)]، وفي رواية: **(الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة)**؛ أي: كيد الشيطان. [رواه أحمد (٢٠٩٧)، وأبو داود (٥١١٢)]. فردُّ وساوس الشيطان وكراهتها هو صريح الإيمان.

د - أنفع دواء لمنع الخواطر السيئة أن يشغل المرء نفسه دائمًا وأبدًا بما يعنيه وما ينفعه في آخرته ودنياه، فينصرف بذلك عن الفكر فيما لا يعنيه وما لا فائدة فيه، وصدق

الرسول ﷺ حين قال: **(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)** [رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني].

* * *

٦٧٩ - مفهوم ١٨: مقومات الوصول إلى الحق:

لا بد من ثلاثة مقومات رئيسة للوصول إلى الحق في قضية أو نقاش ما: التجرد لله، والبعد عن المؤثرات الجماهيرية، والعلم وإعمال الفكر والعقل، وذلك كله مجموع في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]؛ وبيانه كالآتي:

١ - التجرد لله والإخلاص له في البحث عن الحقيقة يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾؛ أي: لوجه الله خالصًا، لا لحمية، ولا لعصبية، بل لطلب الحق وظهوره ولو على لسان المخالف.

٢ - والبعد عن المؤثرات الجماهيرية يرشد إليه قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ لأن الكثرة والاجتماع تشوش الخواطر، وتعمي البصائر، وتدفع الروية، ويقل فيها الإنصاف، ويكثر التعصب والحمية؛ فيبحث المرء القضية مع نفسه، أو مع آخر على الأكثر ليراجع أحدهما الآخر بعيدًا عن التأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ.

٣ - والعلم وإعمال الفكر والعقل يرشد إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾؛ فالتفكير والعلم وإعمال العقل هو المتمم للمنهج الإلهي للوصول إلى الحق وتبيُّن الهدى من الضلال، فلا بد للمرء أن يكون مؤهلًا من الناحية العلمية لبحث المسألة أو القضية المراد معرفة الحق فيها، ويكون على دراية بحال هذه القضية وأوجه الخلاف فيها، وإلا لم يكن للتفكير فائدة ترجى.

* * *

٦٨٠ - مفهوم ١٩: الاجتهاد في الطاعات يورث مزيدًا من الهداية:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]؛ قيل في تفسيرها: «الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون»، وقد تكرر في القرآن جعل أعمال البر المتعلقة بالقلوب والجوارح سببًا في الهداية

وزيادتها؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ [يونس:٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ [مريم:٧٦]. وقال النبي ﷺ: (**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**) [رواه مسلم (٢٢٣)]، فمن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يُبَصِّره الله بحقائق الأمور ويزيده هدى بعد هدى؟! ومصداق ذلك أيضًا قول الله تعالى في الحديث القدسي: (**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**) [رواه البخاري (٦٥٠٢)]؛ فكل من وُفِّقَ للاجتهاد في الطاعات يكون ذا بصيرة نافذة، ونفس مطمئنة، ويزداد هدى بعد هدى.

* * *

٦٨١ - مفهوم ٢٠: ملازمة الاستعانة بالله وتوفيقه:

الاتكال على النفس سبب للفشل والخذلان، والاستعانة بالله واللجوء إليه، والبراءة من الحول والقوة سبب للتوفيق والرشاد؛ فبنو إسرائيل لما اتكلوا على أنفسهم وقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ تسبب حالهم هذا في الفشل والتولي: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة:٢٤٦]، ولما لجأوا إلى الله و﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠] كانت النتيجة عند لقاء العدو: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥١].

* * *

٦٨٢ - مفهوم ٢١: دوام مراقبة الله تعالى:

دوام مراقبة الله تعالى، واستحضار علمه سبحانه بالأمور كلها، واطلاعه على ما في القلوب في كل وقت وآن دافعٌ رئيس وسبب عظيم حاثٌّ على سلوك طريق الله تعالى، والبعد عن كل ما يشغل عنه من الأفكار الرديئة وبنيات الطريق. ويكفي في تحصيل ذلك تدبر قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩].

* * *

٦٨٣ - مفهوم ٢٢: تقديم محبة الله ورسوله على محبة كل ما سواهما:

المحب الصادق يميل إلى ما يوافق محبوبه، ولا يقدِّم عليه شيئًا من المحبوبات، فينبغي على المرء حين يُعرَض عليه أمران: أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيه هوى أو ميل، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ولكنه يُفوِّت عليه محبوبًا لله ورسوله أو يُنقصه، ينبغي عليه حينئذ أن ينظر مع أي الأمرين هو؟ وما الذي سيقدِّمه على الآخر؟ وليكن مرشده ودليله في ذلك الاختيار قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، وليحذر ما ورد في الآية من وصف من يقدِّم شيئًا مما ذُكر فيها على محبة الله ورسوله بـ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الذين يُحرَمون الهداية كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٨٠]، ولا يرضى الله عنهم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦]، ثم ليحكم بعدها على نفسه: أهو ممن يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله؟ أم أنه في عداد الفاسقين الممقوتين من الله تعالى؟

❋ ❋ ❋

٦٨٤ - مفهوم ٢٣: تعظيم حرمات الله:

إن تعظيم حرمات الله تعالى من تعظيمه سبحانه ومما يعين المرء في سلوكه إليه؛ فتعظيمها يحول بين المرء والذنوب، كما يحث على الاجتهاد في أداء الواجبات؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠]، وحرمات الله تشمل:

١) الأوامر والنواهي؛ فتعظيم الأوامر برعايتها وتنفيذها في أوقاتها المحددة وبأوصافها المنضبطة شرعًا، وتعظيم النواهي يكون باجتنابها واجتناب كل ما قد يوصل إليها.

٢) الأماكن والأوقات. ولا يُعظَّم مكان ولا زمان إلا ما دلَّ الكتاب والسنة على اختصاصه بالتعظيم.

- فمن الأماكن المعظمة شرعًا: المسجد الحرام، مسجد الرسول ﷺ، المسجد الأقصى، المشعر الحرام بمزدلفة، عموم المساجد، وتعظيمها يكون بالاجتهاد في الطاعات فيها، وتجنيبها المعاصي والسيئات.

- ومن الأزمنة المعظمة شرعًا: الأشهر الحرم، وشهر رمضان، ويوم عرفة، وعيدا الفطر والأضحى، ويوم الجمعة، ...إلخ، وتعظيمها يكون بعمارتها بالطاعات وتجنيبها الذنوب الموبقات.

٣) دم المسلم وماله وعرضه؛ كما قال ﷺ: **(كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه)** [رواه مسلم (٢٥٦٤)، والبخاري (٦٠٦٤)]. وتعظيمه يكون بعدم قتله أو إيذائه، أو قذفه أو غيبته، أو سرقة أمواله أو غصبها...إلخ.

فكل معظِّم لحرمات الله فهو على الجادة المستقيمة، وسالك للطريق إلى الله ﷻ.

* * *

٦٨٥ - مفهوم ٢٤: الحرص على كسب المال من حلال:

ينبغي أن يحرص المسلم على أن يكون ماله المكتسب حلالًا ليكون عونًا له في طريقه إلى الله، لا عائقًا عن ذلك، وقد قال ﷺ: **(أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١]، **وقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام؛ فأنى يستجاب لذلك؟!)** [رواه مسلم (١٠١٥)].

والكسب الحلال مطلب قد أهمله اليوم كثير من الناس -حتى بعض الطيبين والدعاة- فلا يبالون إن كان مالهم المكتسب حلالًا أم حرامًا! وليعلم أن الحرص على الكسب الحلال ينبغي أن يتوجه إلى أمرين:

- حل عين المال المكتسب؛ فلا يتاجر في المحرمات كالخمور والمخدرات وما يثير الشهوات...إلخ.
- حل طريقة كسب المال؛ فقد يكون العمل حلالًا في ذاته، ولكن يدخل عليه الحرام مما يشوبه من تقصير؛ سواء من جهة إتقانه، أو من جهة الالتزام بالوقت المحدد للعمل وعدم الانشغال فيه بأمور أخرى...إلخ.

٦٨٦ - مفهوم ٢٥: منفعة الأعضاء وعبودية الأوقات:

السالك إلى الله يدرك أن لكل عضو من أعضائه منفعة، كما أن لكل وقت من أوقاته عبوديته:

- فهو يعلم أن لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر ونهي، وله فيه نعمة عليه؛ فمن أدَّى أمر الله بشأن هذا العضو، واجتنب نهيه، فقد أدَّى شكر نعمته، ومن أدَّى شكر النعمة فقد كمل انتفاعه وتمت لذته بها [ينظر تفصيل ابن القيم لعبودية الأعضاء في مدارج السالكين (١/ ١٦٥) ط. عطاءات العلم].

- كما يعلم أن لكل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إلى ربه وتقربه منه؛ فإن شغل وقته بتلك العبودية تقدَّم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر؛ فالعبد لا يزال في تقدُّم أو تأخُّر، لا وقوف في الطريق ألبتة؛ قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٧]، ولم يذكر واقفًا في محله؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين، فمن لم يتقدَّم إلى الجنة بالصالحات فقد تأخر إلى النار بالسيئات.

* * *

٦٨٧ - مفهوم ٢٦: تزكية النفس:

أصل التزكية: التطهير والإصلاح؛ فتزكية النفس: إصلاحها وتطهيرها من كل دنس؛ قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠]، ولتزكية النفس مقامات ثلاثة:

فالأول: تطهيرها من: الكفر، والشرك، والنفاق، والرياء، والفسق، والبدعة، وكل ما يشين النفس.

والثاني: تزكيتها بتحقيق العبودية لله بالتوحيد، والإخلاص، والصدق، والرضا، والتسليم، وسائر أعمال القلوب الحميدة.

والثالث: تزكية النفس بالتخلُّق بأخلاق الإسلام في التعامل مع الخلق؛ ورأس ذلك: التخلُّق بصفات الله الحسنى التي يجوز الاتصاف بها ويُندب إليها البشر؛ كالرحمة والعفو والعدل...إلخ، وكذا التأسي بأخلاق النبي ﷺ. أمّا الثقة المفرطة في

النفس والثناء عليها والعجب بها وبأفعالها فهو مما يدُسُّ النفس ولا يزكيها.

٦٨٨ - مفهوم ٢٧: الرجوع إلى الحق:

من أهم ما يتصف به سالك الطريق إلى الله: الرجوع إلى الحق إذا تبيَّن له أنه كان على خلافه؛ وليكن شعار المرء في ذلك قول عمر بن الخطاب ﷺ في وصيته إلى أبي موسى الأشعري ﷺ في الحكم والقضاء: «إن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل» [سنن الدارقطني (٤/٢٠٦)]، وهو ما نعبر عنه اليوم بقولنا: «الرجوع إلى الحق فضيلة». ومن أهم ما يعين المرء على التزام الرجوع إلى الحق بعد الاستعانة بالله على ذلك:

١ - ألا يتعصَّب لنفسه وأخطائها وأهوائها، ويفرح ولا يغضب ممن ينبهه على عيوبه، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «أحب الناس إليَّ من رفع إليَّ عيوبي» [طبقات ابن سعد (٣/٢٩٣)].

٢ - مراجعته المستمرة لأقواله وأعماله ومواقفه، والتأكد من موافقتها للشرع.

٣ - عدم المجاملة أو المداهنة في قول الحق والتزامه، ورد ما يخالفه.

٤ - محاسبة النفس المستمرة، والمبادرة بالتوبة النصوح.

* * *

٦٨٩ - مفهوم ٢٨: محاسبة النفس:

الأصل في محاسبة النفس قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]، فإن أبصر المرء زللًا تداركه بالإقلاع والتوبة، أو رأى تقصيرًا أصلحه ببذل الجهد والاستعانة بالله في إتمام عمله. والتعبير بقوله: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ له إيحاؤه؛ فكأن المرء ينظر إلى ما أقدمت عليه نفسه من أعمال بكل تفاصيلها: هل هي مما ينفع للغد (يوم القيامة)؟ أم تكون عليه وبالًا؟ قال عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٨].

* * *

٦٩٠ - مفهوم ٢٩: الخلوة بالنفس لذكر الله ومناجاته:

مما يعين المرء على سلوك الدرب: تخصيص أوقات يخلو فيها بنفسه لمحاسبتها ومناجاة ربه، وأفضل ثلاثة أوقات لذلك: من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وما قبل المغرب حتى تغرب الشمس، وآخر الليل؛ كما قال ﷺ: (**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**) [رواه البخاري (٣٩)، ومسلم (٢٨١٦)]، والغدوة أول النهار، والروحة آخره، والدلجة آخر الليل.

* * *

٦٩١ - مفهوم ٣٠: التوبة القريبة عن عمل السوء بجهالة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧]، وليست الجهالة هنا هي جهل أن العمل المرتكب ذنب ومعصية، وإنما كل من عصى الله فقد عصاه بجهالة، وقد أجمع الصحابة على ذلك كما قال المفسرون؛ إذ الجهالة هي الجهل بعظمة من عصى، والضلال عن الهدى، والغفلة عن عواقب المعصية. والتوبة من قريب هي كل توبة قبل تبيُّن الموت وبلوغ الروح الحلقوم، والتعبير بلفظ ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ للتنبيه على قرب الموت من كل أحد.

* * *

٦٩٢ - مفهوم ٣١: اقتران التوبة بالعمل الصالح:

ذكر الله العمل الصالح بعد التوبة فقال تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان:٧١]، فأكَّد سبحانه صحة التوبة حينئذ بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾؛ فالعمل الصالح مع التوبة أو عقبها علامة على صدق توبة التائب وأنها حَرِيَّةٌ بالقبول، وما ذاك إلا لأن في المعصية عمل وحركة، فمن يقلع عنها سيجد فراغًا بسبب ترك هذا العمل وهذه الحركة، فإن سدَّه بعمل صالح مضاد وحركة إيجابية شغل نفسه بالطاعة، وإلا حنَّت النفس إلى المعصية والخطيئة بتأثير هذا الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع عنها.

* * *

٦٩٣ - مفهوم ٣٢: الفوز والفلاح ثمرة السلوك إلى الله تعالى:

أهم وآكد ثمرات السلوك إلى الله تعالى: الفوز والفلاح؛ لأن السلوك إلى الله هو بمثابة طريق يسلكه المرء ليصل في نهايته إلى مبتغاه: الجنة. وهذا هو عين الفوز والفلاح الحقيقي؛ فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، وقال ﷻ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٨].

❊ ❊ ❊

٦٩٤ - مفهوم ٣٣: الممحصات:

التمحيص هو تخليص إيمان العبد من خبث الجناية؛ كتمحيص الذهب والفضة من خَبَثِهما ليصبحا نقيين صافيين. ولا يمكن للعبد دخول الجنة إلا بعد هذا التمحيص؛ فإن الجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب؛ ولهذا تقول لهم الملائكة عند دخولها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[الزمر:٧٣].

ويمكن حصر الممحصات التي تكفِّر عن المسلم خطاياه حتى يدخل الجنة في أحد عشر وجهًا؛ ثلاثة منها بفعل العبد نفسه، وثلاثة من الناس له، وخمسة من الله ﷻ:

- فالتي من العبد هي: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية للذنوب.
- والتي من الناس: دعاء المؤمنين له، وما يصح وصول ثوابه إليه من الأعمال؛ كالصدقة عنه والحج، وشفاعة الشافعين وأولهم النبي ﷺ.
- والتي من الله تعالى: المصائب المكفرة للذنوب في الحياة الدنيا، وامتحان المرء في البرزخ وعذاب القبر، والفزع من أهوال يوم القيامة، ودخول النار فترة للتطهير من باقي الذنوب إن لم يمحها ما سبق، وآخر ذلك مغفرة الله بفضله ورحمته لمن شاء من عباده.

❊ ❊ ❊

مفاهيم في

الأخلاق والآداب

مفاهيم في الأخلاق والآداب

أولا: مفاهيم حول مكارم الأخلاق:

٦٩٥ – مفهوم ١: قيم الأخلاق ثابتة:

الأخلاق قيم ثابتة لا تتغير بتغير الأحوال والظروف والأزمنة والأماكن؛ فالعدل مثلًا قيمة ثابتة؛ فهو واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقل مثله في الصدق، والأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ...إلخ.

❋ ❋ ❋

٦٩٦ – مفهوم ٢: الأخلاق بين الإطلاق والتقييد:

ربما تطلق الأخلاق ويراد بها معنى عام ينقسم إلى: الخُلُق مع الله، والخُلُق مع النفس، والخُلُق مع الناس؛ فتدخل الأخلاق بهذا الاعتبار والمسمى في أبواب الدين كافة. وقد تطلق الأخلاق ويقصد بها: **تعامل المرء مع الناس خاصة**، وهذا هو المفهوم الأشهر والمتبادر إلى الذهن، وهو المقصود في هذا الباب.

❋ ❋ ❋

٦٩٧ – مفهوم ٣: العلاقة بين العبادة والبر وحسن الخُلُق:

لئن كانت العبادة بمعناها الشامل -كما عرَّفها ابن تيمية- «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة» فلقد عُرِّف البر بأنه: «اسم يطلق على كل خير وإحسان وفضل»، أو أنه: «كلمة جامعة لكل صفات الخير»، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] فذكر: أركان الإيمان، والإنفاق المستحب والواجب، والصلاة، والوفاء بالعهد، والصبر؛ فجمع البر بذلك بين العقيدة والعبادة والأخلاق، **وبهذا يتداخل البر أو يترادف مع العبادة بمعناها الشامل.**

وحين سُئل الرسول ﷺ عن البر والإثم قال: **(البر حسن الخلق)** [رواه مسلم (٢٥٥٣)]، وهذا معنى خاص يقصر البر في مجال الأخلاق؛ وهو قصر إضافي بلاغي مفاده أن حسن

الخلق ركن عظيم من أركان البر لا أنه البر كله؛ وذلك كما قال ﷺ: **(الحج عرفة)** [أخرجه أبو داود (١٩٤٩) وغيره]، ومراده أنه ركنه الأعظم، لا اقتصار الحج عليه. **فبان بهذا أن حسن الخلق ركن عظيم من أركان البر والعبادة بمعناها الشامل.**

وكما يتداخل البر مع العبادة بمفهومها الشامل فهو يتداخل أيضًا مع التقوى؛ فبينهما عموم وخصوص: فإذا اجتمعا في الذكر توجه البر إلى فعل الطاعات، وتوجهت التقوى إلى اتقاء المنهيات، وإذا افترقا شمل كل منهما الآخر.

* * *

٦٩٨ - مفهوم ٤: تهذيب الكلام:

احرص على تهذيب كلامك في جميع أحوالك؛ فالله سبحانه كنَّى عن الجماع بالملامسة في آيتين من آيات الأحكام رغم أن الأصل في الأحكام هو التصريح؛ فقال تعالى في آيتي التيمم: ﴿أَوْلَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء:٤٣، والمائدة:٦].

* * *

٦٩٩ - مفهوم ٥: حقيقة الصدق:

الصدق أوسع وأشمل من أن يقتصر على الصدق في الكلام؛ بل يشمل أيضًا: الصدق في النوايا والإرادات، والصدق في الأعمال؛ فالعرب تقول: «حملوا على العدو حملة صادقة» إذا كانت إرادتهم جازمة ثابتة، ويقال: «فلان صادق الحب والمودة»، والحب عمل قلبي وليس كلامًا، وقد قال ﷺ في حديث زنا العينين والأذنين وسائر الأعضاء: **(والفرج يُصدِّق ذلك أو يُكذِّبه)** [رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧)]، وهذه أعمال وليست كلامًا.

* * *

٧٠٠ - مفهوم ٦: الصدِّيقية (من جاء بالصدق وصدَّق به):

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣]، والذي جاء بالصدق هو من صدق في أقواله وأعماله وأحواله وإراداته؛ فمن كملت هذه الأمور لديه فقد بلغ أعلى مراتب الصدق؛ فعمله يُصدِّق قوله، ونيته وإخلاصه يُصدِّقان قوله وعمله، وتلك هي الصدِّيقية التي عُرِّفت بأنها: **كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمُرسِل.** والصِّديق هو من علم الحق وعمل به ودعا الناس إليه.

* * *

٧٠١ - مفهوم ٧: الصدِّيقية أعلى من الشهادة في سبيل الله:

الصدِّيقية حياة في سبيل الله، وهي أصعب وأعلى من مرتبة الشهادة في سبيل الله؛ لذا قدَّم الله ﷻ الصدِّيقين على الشهداء عند ذكر الذين أنعم عليهم فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

❋ ❋ ❋

٧٠٢ - مفهوم ٨: الفرق بين الصدق والإخلاص:

الفرق بين الصدق والإخلاص في باب الاعتقاد هو:

- أن الصدق ضده انتفاء (**إرادة**) وجه الله بالعمل أصلًا؛ كمن آمن أو صلى كاذبًا، وهذا هو النفاق القلبي.
- أما الإخلاص فضده انتفاء (**إفراد**) الله بالإرادة والتوجه؛ كمن آمن وصلى صارفًا ذلك لأحد مع الله.

ومما يُفرَّق به بين الصدق والإخلاص أيضًا: أن الصدق لا يختص بالاعتقاد فقط، بل يكون أيضًا في الأقوال -وهو الأشهر- والأعمال؛ ولهذا فعلى قدر تحقيق المرء لشعب الإيمان وأعماله يكون حظه من الصدق، حتى يبلغ مرتبة الصدِّيقية. أما الإخلاص فإنه عمل قلبي محض، وإنما يظهر منه على الجوارح آثاره فقط.

وعلى الرغم من ذلك فيمكن مع التوسع والتساهل التعبير بأحدهما أو ضده بدلًا من الآخر أو ضده؛ فيقال عن المنافق إنه غير مخلص لله، كما يقال عن المشرك إنه كاذب في إيمانه.

❋ ❋ ❋

٧٠٣ - مفهوم ٩: الغموض ينافي الصدق:

الغموض وعدم الوضوح في التعامل بين المسلمين يؤدي آخر المطاف إلى مجانبة الصدق والوقوع في الكذب الصريح، وهذا بدوره يسبب الفرقة وزوال اطمئنان القلوب، ونزع البركة من المتعامل بالغموض؛ قال ﷺ: (**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، أو قال: حتى يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقت بركة بيعهما**) [رواه البخاري (٢١١٠)، ومسلم (١٦٠٧)]، وهذا كما يكون في البيع ينسحب أيضًا على سائر أبواب المعاملات من: شراكة، وإجارة، ونكاح، ...إلخ، وتعاون في أي عمل

مشترك؛ دنيويًّا كان أو دينيًّا.

فلا بد من الصدق والوضوح عند التعامل مع الآخرين، وإلا فمن أراد أن يكتم شيئًا فلا يتعامل مع الآخرين فيما يتعلق به، وليجعله في نفسه بدلًا من خداعهم والكذب عليهم.

كما أنه ينبغي ألا يُطلع الأعداء من الكفار والمنافقين على أسرار المسلمين بحجة الصدق.

* * *

٧٠٤ - مفهوم ١٠: حب الخير للمسلمين:

من مكارم الأخلاق: حب الخير للمسلمين؛ ﷺ: (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**) [رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)]. ومن لوازم هذا الحب:

أ - أن يكره لهم ما يكرهه لنفسه.

ب - طهارة القلب من الحقد والغل والحسد لأحد من المسلمين.

ج - حب اجتماع كلمة المسلمين، لا سيما اجتماع كلمة الدعاة والمجاهدين؛ لما في ذلك من الخير العميم على المسلمين كافة.

د - نبذ التعصب والحزبية المقيتة؛ وهذا فيما بين أهل السنة والجماعة المتفقين في الأصول وإن اختلفوا في بعض فروع المسائل؛ فإن الاختلاف في ذلك ينبغي ألا يوجب خلافًا وفرقة ومشاقة. أمَّا أهل البدع والأهواء فهم المتحزبون شيعًا، وهم أهل الفرقة والاختلاف، وأهل السنة يفارقونهم ولا يوالونهم براءة لدينهم وحماية لأنفسهم من الزيغ والضلال. وقد يحتاج أهل السنة في أحوال الاستضعاف أن يتحالفوا مع أهل البدع من أهل القبلة لصد عدو كافر يريد اجتياح بلاد المسلمين وطمس الدين، وهذا من الفقه المتين.

* * *

٧٠٥ - مفهوم ١١: إصلاح ذات البين:

لإصلاح ذات البين شأن عظيم في باب مكارم الأخلاق؛ قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]؛ فجاء الأمر في الآية بإصلاح ذات البين محتفًّا بأمر عام قبله بتقوى الله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وأمر عام بعده: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، ثم أعقب ذلك تهييجًا لمشاعر الإيمان في قلوب المؤمنين: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فجعل إصلاح ذات البين شرطًا في تحقيق الإيمان.

٧٠٦ - مفهوم ١٢: صعوبة الإصلاح مع الظالم والجاهل:

الإصلاح مع الظالم والجاهل عزيز وعسير؛ فالظالم لا يريد الحق كله، وإنما يريد من المصلح ما يحقق منفعته ومصلحته فقط، والجاهل يريد الحق ولكنه يسيء فهمه وتطبيقه، فيرى المصلح عدُوًّا للحق.

* * *

٧٠٧ - مفهوم ١٣: الأخوة في الله:

لا يمكن أن تجتمع القلوب إلا على منهج الله تعالى والأُخُوَّة في الله التي تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، أو الثارات القبلية، أو الأطماع الشخصية والرايات العنصرية؛ فهي نعمة الله التي تجعل المسلمين إخوانًا يعتصمون بحبل الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

* * *

٧٠٨ - مفهوم ١٤: التذلل للمؤمنين:

ليس في التذلل للمؤمنين مذلة ولا مهانة، إنما هي أُخُوَّة الإسلام التي ترفع الحواجز وتزيل التكلف، وتجعل المؤمن ذلولًا -لا ذليلًا- لأخيه المؤمن غير عصيٍّ عليه؛ فهو هين لين، مُيسِّر مستجيب، سمح ودود؛ وهذه هي الذلة للمؤمنين التي ندب الله تعالى إليها: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال ﷺ: (**إنما يحرم على النار كل هين لين قريب سهل**) [أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٦٩)، والترمذي بنحوه وحسّنه (٢٤٨٨)، وأحمد بنحوه أيضًا (١/ ٤١٥)].

* * *

٧٠٩ - مفهوم ١٥: المواساة:

المواساة باب جليل من أبواب مكارم الأخلاق، فلنتعلم أن نواسي غيرنا ونسعى بتخفيف مصابهم حتى ونحن نعيش لحظاتنا العصيبة؛ فالنبي ﷺ وهو يعاني محنة التخفي من الكفار في الغار واسى أبا بكر رضي الله عنه وقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

والمواساة تكون بالنفس والجاه والمال والعلم وطيب الكلام.

* * *

٧١٠ - مفهوم ١٦: متى يحق تجاوز حرمة المسلم؟

إنما يرعى الإسلام حرمات من يرعون الحرمات، ولكنه لا يسمح أن تُتَّخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر؛ وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨].

* * *

٧١١ - مفهوم ١٧: نصح المسلمين:

النصح للمسلمين من مكارم الأخلاق، وبه يكتمل الدين؛ قال ﷺ: (**الدين النصيحة**). قلنا: لمن؟ قال: (**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**) [رواه مسلم (٥٥)]، والنصح هو إخلاص المشورة، ونصَحَ فلانًا: أرشده إلى ما فيه صلاحه وحذَّره مما فيه ضرره، وقد قال جرير بن عبد الله البجلي: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم» [رواه البخاري (٥٧)، وبنحوه أيضًا في مواطن أخرى عديدة من صحيحه، ورواه مسلم (٥٦)]. ولكن للنصيحة آداب من أهمها:

أ - أن تكون في السر.

ب - أن تكون بعلم وبيان وحجة.

ج - أن تكون بالرفق واللين، وفي الوقت المناسب لها.

د - أن يصبر الناصح على ما قد يلحقه من أذى بسببها.

* * *

٧١٢ - مفهوم ١٨: الفرق بين النصيحة والتأنيب:

النصح إحسان للمنصوح يتضمن الرحمة به والشفقة عليه، ويقصد به وجه الله ﷻ؛ لذا لزم أن يكون في السر وبلطف. أما من يُؤنِّب من ينصحه ويفضحه على الملأ فهو يهينه بذلك، وهذا تعيير له لا نصح، وإهانة لا إكرام، وفضح بدلًا من الستر. وقد يكون الحامل على ذلك انتصار الناصح لنفسه ممن يُضمِر له عداوة، ويُلبس ذلك ثوب النصح والديانة؛ وعلامة ذلك أنه لو صدر من أحد من أحبابه مثل الفعل الذي يزعم بذل النصح بشأنه للآخر لم ينصحه، بل التمس له المعاذير بدلًا من الفضح والتعيير. وواجب النصح في السر

لا يكون مع من يعلن فسقه ويدعو إليه؛ فمثل هذا يُنكر عليه علنًا امتثالًا للأمر بتغيير المنكر.

* * *

٧١٣ - مفهوم ١٩: الفرق بين النصيحة لله والانتصار للنفس:

النصح لله عَزَّ وَجَلَّ يتضمن الغضب له وتعظيم حرماته؛ فالحمية فيه حمية لله القصد منها تعظيمه وتعظيم أمره سبحانه. أما من يغضب لنفسه وينتصر لها فمراده تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ كلمته ولو عارض بها أمر الله وانتهك حرماته؛ فهذا حميته لنفسه وفوات حظوظها.

وأخطر ما يكون الأمر وأخفاه حين يلبس المرء انتصاره لنفسه ثوب النصح لله والحمية له سبحانه؛ كمن ينكر على أحد منكرًا، فإذا سبَّه المنصوح وآذاه في نفسه ثار عليه الناصح وهاج زاعمًا الغضب لله من فعل المنكر، وحقيقة الأمر انتصاره لنفسه حين سُبَّت وأهينت، ولهذا النصح المزعوم قرائن يعرف بها؛ منها:

أ - التشهير بالمنصوح وتعييره؛ خاصة إذا كان المنصوح من أهل العلم والصلاح.

ب - التعدِّي على المنصوح وعدم إنصافه، وبخسه حقه بإخفاء خيره وحسناته.

ج - تصيُّد الأخطاء والفرح بها، والأخذ بالشائعات وعدم التثبت من الأمر.

د - تغليب سوء الظن، واتهام النيات والمقاصد دون دليل أو برهان.

هـ - مداهنة الظالمين في حين أنه يهاجم المصلحين الذين يزعم نصحهم.

و - اشتهار المنتصر لنفسه بالكذب وقلة الورع.

* * *

٧١٤ - مفهوم ٢٠: الوفاء بالعهد:

الوفاء بالعهد خُلُق أصيل من أخلاق الإسلام، ولا بد منه لإيجاد الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وكذا العلاقات بين الجماعات والدول والأمم؛ قال الله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:١٧٧]، فبغير الوفاء بالعهد يعيش الكل في فزع وقلق من الغدر؛ فلا يطمئن لوعد، ولا يثق بعهد؛ ولذا نهى النبي ﷺ عن الغدر وقال: (**لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة**) [رواه مسلم (١٧٣٨)]، وذكر ﷺ الغدر من صفات المنافق فقال: (...**وإذا**

عاهد غدر) [رواه البخاري (٣١٧٨)، ومسلم (٥٨)].

والوفاء للناس بالعهد يقوم ابتداء على الوفاء بالعهد مع الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وعهد الله هو: توحيده، واتباع رسوله، والعمل بالطاعات، واجتناب المعاصي، فمن لا يفي بعهد الله لن يكون وفيًّا بعهده للناس، والله سبحانه أمر بالوفاء بالعهد عامة -سواء كان معه أو مع الناس- وأوضح أن كل أحد مسؤول عن ذلك يوم القيامة: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

❊ ❊ ❊

٧١٥ - مفهوم ٢١: معنى العدل وأقسامه:

العدل هو الإنصاف والقسط، وبه قامت السماوات والأرض، ولأجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وينقسم العدل إلى ثلاثة أقسام:

١ - أعظم العدل: وهو توحيد الله ﷻ، ولهذا فقد عُدَّ الشرك ظلمًا عظيمًا ينافي العدل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

٢ - العدل مع النفس: وذلك بإلزامها بأمانة التكليف؛ فيحملها المرء على الطاعات ويجنبها المعاصي. والتقصير في ذلك ظلم للنفس لأنه يُعرِّضها للمهالك والخسران في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، وقال عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [الكهف:٣٥]، وقال تعالى في تعظيم الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

٣ - العدل مع الناس: وذلك في جميع المعاملات معهم.

❊ ❊ ❊

٧١٦ – مفهوم ٢٢: العدل مع الناس:

العدل مع الناس يكون في كل شيء، ومع كل أحد، وعلى كل حال:

– فالعدل يكون في الأقوال، والأفعال، والمواقف، والأحكام؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ [الأنعام:١٥٢]؛ فذكَر العدل في الكيل والميزان، وذلك فعل، كما ذكر العدل في القول.

– والعدل يكون مع كل أحد، حتى ولو كان من الأعداء؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨].

– كما يجب أن يكون العدل حتى لو كان الحق فيه على القريب أو الوالدين أو النفس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥].

* * *

٧١٧ – مفهوم ٢٣: العدل مع الكفار:

العدل يكون حتى مع الكفار؛ وذلك بأن تكون العلاقة معهم حسب أحوالهم، فلا يساوى بين المسالم منهم والمحارب في المعاملة؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الممتحنة:٨،٩]، فعدم الولاء للكفار لا يقتضي عدم البر بالمسالم منهم؛ خاصة إذا كان من الأقارب والأرحام.

وإذا كان البر بهم مندوبًا إليه وجائزًا فمن باب أولى التعامل معهم بالتجارة بيعًا وشراء، وفي مجال العلوم الدنيوية؛ شريطة ألا يكون في ذلك تقوية لاقتصاد الكفار المحاربين.

لكن البر بالمسالمين منهم لا يعني مداهنتهم ومحبتهم، أو الخوف منهم وتعظيمهم، وتقديمهم على المسلمين، بل نحسن إليهم ونشفق عليهم من النار، وندعوهم إلى الإسلام، ونسأل الله لهم الهداية مع البراءة منهم ومن شركهم.

* * *

٧١٨ – مفهوم ٢٤: العدل في المناظرة:

دل مفهوم قول الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣] على أن الإنسان كما يجب أن يستوفي حقه من الناس يجب عليه أن يوفيهم حقهم كاملًا؛ وذلك في الأمور كلها على السواء: أموال ومعاملات، وحجج ومقالات، فينبغي على المحاور كما يحرص على بيان حجته وأدلته أن يُبيِّن لمحاوره ما يصلح أن يكون حجة له لو غفل عنه؛ فيتناظران في تجرد وعدل وإخلاص بغية معرفة الحق وإدراكه.

❋ ❋ ❋

٧١٩ – مفهوم ٢٥: العدل والتوازن في النقد والتقويم:

التقويم يشمل معنيين: الأول: بيان قيمة الشيء، والثاني: تعديل الأمر غير المستقيم وتوجيهه. وينبغي للمرء إذا أراد أن يقوِّم شيئًا وينقده أن يلتزم العدل في ذلك؛ فلا يظلم المخالف حين ينقده بحيث ينشر كل معايبه ويضخمها، ويبخس ما فيه من خير، ويسيء الظن به وبقصده، كما لا يبالغ في مدح من يوافق هواه والثناء عليه بحيث يبرر له كل أخطائه ويتغاضى عنها.

والموقف الوسط العدل في ذلك هو أن يتناول المرء من يريد تقويمه من فرد أو جماعة بالدراسة العادلة المتوازنة؛ بلا إفراط في التفاؤل أو التشاؤم، وفي الحب أو الكره، وإنما يذكر ما في من ينقده من محاسن ليُقتدى بها، وما فيه من مساوئ لتُتَجنَّب وتُتلافى، وينصح من فيه ذلك برفق ومودة.

❋ ❋ ❋

٧٢٠ – مفهوم ٢٦: من لوازم **العدل مع المخالف:**

حتى يتحقق العدل مع المخالف لا بد من التزام الآتي:

١ – الإخلاص لله ﷻ في نقد المخالف وقصد بيان الحق.

٢ – الفقه بأنواع الخلاف: ما يسوغ منه وما لا يسوغ، ما كان منه في الفروع وما كان في الأصول، ...إلخ.

٣ – اجتناب تعظيم هفوات المخالف.

٤ – عدم إنكار أو إهمال محاسن المخالف؛ فتشهد له بصوابه إذا أصاب في أمر ما، وتراعي

غلبة المحاسن إذا عظمت وكثرت بحيث تتلاشى في بحرها الهفوات.

٥ – إعذار المخالف بجهله، أو اجتهاده، أو تأوله، أو قيام شبهة لديه وعدم قيام الحجة عليه، والسعي لتبصيره في ذلك كله.

٦ – الموازنة بين المصلحة والمفسدة في نقد المخالف، والتزام الحكمة والموعظة الحسنة في نقده وتبصيره بالحق.

* * *

٧٢١ – مفهوم ٢٧: الإنصاف في معالجة الأخطاء:

ينبغي لمن بلغه صدور خطأ من أي أحد أن يتعامل مع ذلك وفق ثلاث مراحل:

١ – أن يتثبَّت أولًا من صدور الخطأ من المخطئ.

٢ – إذا ثبت وقوع الخطأ يسأل المخطئ عن الحامل له على ذلك؛ لعل لديه عذر شرعي لارتكابه، أو أسباب وملابسات تخفف من جرم الخطأ.

قد قالت مريم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حين جاءها المخاض: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم:٢٣]، كلمات قالتها صِدِّيقة صالحة في لحظة ألم، فما عوتبت على الكلمات في الأوقات الصعبة.

٣ – إذا ثبت وقوع الخطأ، ولم يكن ثَمَّ سبب مقنع لارتكابه، أو وجد السبب لكنه لم يكن كافيًا لمحو أثر الخطأ وجرمه انتقل إلى المرحلة الثالثة؛ وهي: مقابلة الخطأ بحسنات مرتكبه؛ فقد ينغمر في بحر حسناته فيزول النقد أو الجزاء، أو يَخِف.

وقد تجلَّت كل هذه المراحل في تعامل النبي ﷺ مع صنيع حاطب بن أبي بلتعة حين أرسل لكفار مكة يحذرهم من مجيء النبي ﷺ وجيشه، ويحضهم على الاستسلام له؛ فقد ثبتت الواقعة بالوحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ –وتلك أعلى درجات التثبت– وعندها سأل الرسول ﷺ حاطبًا: (**ما حملك على ما صنعت؟!**)، فلما أخبره أنه أراد أن يدفع بذلك عن أهله وماله بأن تكون له يد عندهم لأنه ليس له عشيرة مثل سائر أصحابه يدفع بها عنهم، قال النبي ﷺ حينها: (**صدق، ولا تقولوا إلا خيرًا**)؛ فعذره واغتفر له ذلك في مقابل كونه من أهل بدر، وقال لعمر حين أراد أن يبطش به: (**أليس من أهل بدر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم**) [رواه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤)].

٧٢٢ - مفهوم ٢٨: بين العدل والإحسان:

العدل أداء للحقوق كاملة موفرة؛ سواء كانت لله أو للنفس أو لسائر الخلق، وهذا هو القدر الواجب على المكلفين.

أما الإحسان فهو فضل وقدر زائد على العدل؛ فالإحسان في عبادة الله أن تعبده كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك -كما في حديث جبريل- والإحسان في حق الخلق نفعهم بقدر زائد عن الواجب المستحق.

فالعدل فرض والإحسان فضل، ولهذا جمع الله بينهما في الأمر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠] حثًّا للناس على الارتقاء من مقام الفرض إلى مقام الفضل، ولذا فالمرء مندوب إلى المسامحة في بعض حقه -خاصة مع الأقارب- إيثارًا لود القلوب وشفاء لغل الصدور. فالإحسان مندوب إليه على وجه العموم، وبالأخص مع الأقارب، وعلى رأسهم الوالدان، ثم الأولاد والإخوان والأخوات. ويتأكد طلب الإحسان في ثلاثة أمور:

١ - دعاء الله تعالى أن يعاملنا بفضله وإحسانه لا عدله؛ فلو عامل الله الخلق بموجب عدله لهلك الناس جميعًا؛ إذ لا توفي عبادتهم إياه حق شكر نعمه ولا بعضها.

٢ - الإحسان إلى الوالدين: فالله تعالى أمر به تجاههم لا مجرد العدل معهم، وقرن ذلك بالأمر بتوحيده في العبادة مما يدل على عظم هذا الأمر؛ قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

٣ - الإحسان في المعاشرة بين الزوجين؛ حيث تقوم المعاملة بينهما على حسن العشرة لا مجرد العدل؛ إذ لو تعامل الزوجان بالعدل دون الفضل وشحَّتْ نفساهما عن الإحسان لحمل كل واحد في نفسه على الآخر، ولربما استحالت العشرة بينهما؛ وما ذاك إلا لشدة المخالطة والملابسة بينهما، مما لا بد فيه من تساهل وتسامح في عديد من الأمور اليسيرة المتكررة؛ قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، وذلك يوجب المودة والسكن والرحمة، والتغاضي والتغافل والمسامحة فيما بينهما؛ قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الروم:٢١].

٧٢٣ - مفهوم ٢٩: الأمانة تحقق الأمن والاطمئنان:

الأمانة خلق كريم ولازم لاستقرار المجتمعات؛ فلا تستقيم حياة المجتمع المسلم إلا بأن تؤدى فيه الأمانات وتراعى فيه العهود، فعندها يطمئن كل فرد فيه إلى توفُّر الاستقرار للحياة المشتركة بين أفراد المجتمع، وتسود الثقة بينهم وينتشر الأمن؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:٨].

وتحلِّي الفرد المسلم بالأمانة في التعامل مع الناس مرتبط بالأمانة الكبرى التي حملها الإنسان على نفسه؛ أعني أمانة التكليف بعبودية الله، وحده وبالأوامر والنواهي؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب:٧٢]، فهي ليست ترفًا إذًا ولا أمرًا فاضلًا مستحبًا فحسب، بل هي واجب وفرض على كل أحد.

* * *

٧٢٤ - مفهوم ٣٠: رفع الأمانة آخر الزمان:

رغم أن الأمانة في الأصل مغروسة في الفطر لكونها نابعة من أمانة التكليف الذي حمله الإنسان على نفسه، إلا أنها من الأخلاق التي تُرفع من قلوب الناس آخر الزمان كما أخبر بذلك النبي ﷺ في حديث طويل جاء فيه: (**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال**) ثم حدَّث عن رفع الأمانة فقال: (**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه... فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا...**) الحديث [أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣)]، فليتمسك كل مسلم بأداء الأمانة، وليحرص على أن يكون ممن يشار إليه بأدائها لينال فضلها ويسلم من وزر تركها.

* * *

٧٢٥ - مفهوم ٣١: الحلم والأناة ومعناهما:

الحلم والأناة صفتان يحبهما الله ورسوله كما قال الرسول ﷺ لأشج عبد القيس [رواه مسلم (١٨)]، وهما ضد العجلة كما في الحديث عن أنس: «**التأني من الله والعجلة من الشيطان**» [أخرجه البيهقي في سننه (٢٠٢٧٠)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٦٨٦)]، وحسَّنه الألباني في الصحيحة (١٧٩٥)]، وقد ذم الله تعالى العجلة في كتابه فقال: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ

دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:١١].

والمقصود بالحلم والأناة عدم العجلة في الأمور قبل تبيُّن وجه الرشد فيها، لا السلبية والتهاون حتى يفوت الأمر؛ ولهذا ينبغي أن يرافق الحلم والأناة عزيمة على تحقيق الرشد بعد تبيُّنه حتى لا يفوت هذا الرشد، وهذا هو مقتضى دعاء النبي ﷺ: **(اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد)** [أخرجه أحمد (١٧١١٤، ١٧١٥٥)، وابن حبان (٩٣٥)، والنسائي (١٣٠٤)، وقال ابن حجر: رجاله من رواة الصحيح، وله طرق يقوِّي بعضها بعضًا يمتنع معها إطلاق القول بضعف الحديث (نتائج الأفكار ٣/ ٧٦)، وقال الألباني: صحيح لغيره (تخريج المشكاة ٩١٥، والصحيحة ٣٣٢٨)]، كما قال ﷺ: **(التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة)** [رواه أبو داود (٤٨١٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٧٩٤)]، فمتى ما تبين وجه الخير والرشد في الأمر بادر المرء به ولم يُسوِّف، وقد اشتهر على الألسن: «خير البر عاجله».

* * *

٧٢٦ - مفهوم ٣٢: معنى التواضع ومنبعه:

خلق التواضع يشمل: التواضع للحق، والتواضع للخلق، ويضاد ذلك الكبر في الأمرين؛ كما قال ﷺ: **(الكبر بطر الحق وغمط الناس)** [أخرجه مسلم (٩١)].

- والتواضع للحق هو الاستسلام له وعدم معارضته بشبهات أو شهوات.
- والتواضع للخلق ألَّا يرى لنفسه فضلًا عليهم، ولا يحتقرهم، ولا يتفاخر أو يتعالى عليهم.

وينبع التواضع من الجمع بين العلم بالله ﷻ ونعوت جلاله، ومحبته وتعظيمه، ومعرفة الإنسان نفسه وآفاتها؛ فيتولَّد من ذلك التواضع الذي هو: انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، وهو خلق يعطيه الله لمن يحبه ويكرمه [انظر الفوائد لابن القيم: ص ١٥٧].

* * *

٧٢٧ - مفهوم ٣٣: القصد في المشي:

قال تعالى حكاية عن قول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩]، وقد فُسِّر ذلك بالتواضع في المشي من غير تباطؤٍ ولا تماوت؛ إذ **(القصد)** هو العدل الوسط بين طرفين، فهو هنا: المشي المتواضع الوسط بين طرف التبختر والخيلاء وطرف

التهاوت والتكاسل.

ولعل من معاني القصد أيضًا: أن يقصد الإنسان في سيره إلى هدف صحيح، ومن يسير قاصدًا هدفًا بعينه لا يتلكَّأ أو يتباطأ، ولا يتخايل أو يتبختر، إنما يمشي في بساطة وانطلاق.

* * *

٧٢٨ - مفهوم ٣٤: بين ستر العورات وستر القلوب:

شرع الله اللباس لستر العورات وللزينة؛ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف:٢٦]، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾، مما يشير إلى التلازم بين لباس الجسد ولباس التقوى؛ فكلاهما لباس: الأول يستر البدن ويزينه، والثاني يستر القلب وينظفه؛ فمن يكتسي قلبه بالتقوى يستحيي من التعري ويستقبحه، ومن يتعرى عن التقوى يسمح بتعرِّي جسده وكشف سوْأَتِه، ويتمادى في ذلك حتى يصير من الدعاة إلى كشف العورات؛ وذلك انتكاس للفطرة وانقلاب عليها.

* * *

٧٢٩ - مفهوم ٣٥: السماحة والعفو:

التحلي بالسماحة يمنع استعلاء النفس ورغبتها في مقابلة الشر بالشر، كما ينشر الهدوء والطمأنينة بين المتخاصمين؛ فتنقلب الخصومة والعداوة إلى ولاية حميمة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤]. وهذا الخلق الرفيع لا يناله إلا الصابرون القادرون على العفو، وهو مِنَّة وفضل من الله تعالى على من تحلَّى به؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت:٣٥].

* * *

٧٣٠ - مفهوم ٣٦: شروط المسامحة والعفو:

يشترط لمسامحة المعتدي ثلاثة أمور:

١ - أن تكون المسامحة قاصرة على حالات الإساءة الشخصية، لا العدوان على العقيدة وصد المؤمنين عنها؛ فذلك يقتضي الدفع والمقاومة بكل صورة متاحة مباحة، أو الصبر عند عدم القدرة على تغيير ذلك حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

٢ - ألا تكون المسامحة في الأمور الشخصية عن ضعف من المسامح وعدم قدرة على استيفاء حقه، وإلا كانت عجزًا وخورًا لا مسامحة وعفوًا، ولا يتحقق عندها المراد من أثرها في نفس المسيء؛ حيث سيتصور المسامحة حينئذ ضعفًا من المسامح، ولن يردعه ذلك عن تكرار الإساءة وظلم المسامح وغيره من الناس.

أما إذا كان العفو عند المقدرة على مجازاة السيئة بمثلها فسيكون له حينئذ وزنه ووقعه على إصلاح المعتدي والمسامح على حدٍّ سواء: فالمعتدي سيشعر عندها بالخجل وسيرى خصمه الذي عفا عنه هو الأعلى، والقوي الذي يعفو ستصفى نفسه وتزداد رقيًّا. فالعفو عندئذ هو خير لكلا الطرفين.

٣ - ألا يكون المعتدي قد استمرأ العدوان على الناس؛ فمثل هذا يزيده العفو تجبرًا وعدوانًا.

* * *

٧٣١ - مفهوم ٣٧: بين العفو والقصاص:

قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى:٤٠]، فينبغي أن يُعلم أن الذي ينتصر لنفسه من غير تجاوز وتعدٍّ مأذون له في ذلك ولا سبيل عليه من لوم أو معاتبة أو عقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، ولكنه مندوب إلى العفو والمسامحة، وذلك أفضل له، وحسابه وأجره على الله كما صرَّح به تتمة الآية الأولى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠]، وما أعظم وأحلى أن يكون الأجر من الله الجواد الكريم.

وإنما يكون المنع وسبيل المؤاخذة على الظالمين الذين يبغون في الأرض بغير الحق؛ فإن الحياة لا تستقيم وفيها ظالم لا يمنعه أحد من ظلمه وبغيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى:٤٢].

والخلاصة أن الآيات السابقة تُحقِّق الاعتدال والتوازن بين اتجاهي العفو والقصاص؛ فلدينا ثلاث أحوال للعفو: **فضل**؛ وهو العفو عند المقدرة، **وعدل**؛ وهو رد الاعتداء بمثله، **وجور**؛ وهو رد الاعتداء بأشد منه. والآيات تحرص على صيانة النفس من: الحقد والغيظ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغي، وتُعلِّق النفس بالسعي لرضا الله في كل حال.

* * *

٧٣٢ – مفهوم ٣٨: معنى الصبر وأنواعه:

أصل الصبر في اللغة: الحبس. وكل من حبس شيئًا فقد صبره.

وهو أنواع ثلاثة: صبر على الطاعات، وصبر عن المعاصي، وصبر على أقدار الله؛ فالصبر إذًا هو: حبس النفس على فرائض الله وطاعاته، وحبسها عن محارم الله ومعصيته، وحبسها عن الجزع والتسخُّط والشكوى من أقدار الله.

* * *

٧٣٣ – مفهوم ٣٩: صبر الاختيار وصبر اضطرار:

صبر الاختيار هو الذي توجد معه الصوارف الكثيرة عنه، ومع هذا يختاره المرء ويقدمه على عكسه؛ ويشمل: الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي:

- فمثاله في الطاعات: الصيام؛ حيث يحبس المرء فيه نفسه عن الطعام والشراب باختياره امتثالًا للتكليف ورغبة في ثوابه، ولهذا سُمِّيَ شهر رمضان بشهر الصبر.
- ومثاله في المعاصي: صبر يوسف عليه السلام عن إتيان الفاحشة مع امرأة العزيز رغم كثرة الدواعي إليها.

أما **صبر الاضطرار** فهو الصبر على ما يصيب المرء من أقدار بغير اختياره؛ فليس له إلا الصبر عليها. ومثاله: صبر يوسف عليه السلام على محنته في أذى إخوته له، وفي السجن.

وصبر الاختيار أعظم أجرًا من صبر الاضطرار؛ لأنه صبر مع وجود الصوارف عنه، وفي كلٍّ خير وأجر عظيم.

* * *

٧٣٤ – مفهوم ٤٠: الصبر الجميل:

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ [المعارج:٥]، والصبر الجميل هو الصبر الذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقته؛ فهو صبر لا ضجر فيه ولا ملل، ولا شكوى لغير الله، وهو صبر لا قلق فيه ولا شك في صدق الوعد من الله؛ صبر الراضي بقدر الله المدرك لحكمته سبحانه من الابتلاء، الواثق بحسن العاقبة.

ونبي الله يعقوب عليه السلام قد تحلَّى بهذا الصبر الجميل حين امتُحِن في ولده يوسف عليه السلام

وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، وعند امتحانه في ولده الثاني بعد سنوات عديدة قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف:٨٣]؛ فأكَّد صبره بلجوئه إلى الله ﷻ ليثبته في محنته وقال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وتأكَّد صبره الجميل ثانيًا بثباته على ثقته بوعد الله وإدراكه لحكمته سبحانه فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

* * *

٧٣٥ - مفهوم ٤١: الصبر والشكوى إلى الله:

الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما ينافيه الشكوى إلى المخلوقين؛ فنبي الله يعقوب عليه السلام مع صبره الجميل قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، ولما عوتب في ذلك وقيل له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥] قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦].

* * *

٧٣٦ - مفهوم ٤٢: ما يعين على الصبر:

أهم ما يعين العبد على الصبر هو أن يكون صبره بالله، ولله، ومع الله، وهناك وسائل تعين على الصبر وتحققه، أهمها:

١ - معرفة أسماء الله تعالى وصفاته العلى، وتحقيق الإيمان بها؛ فإن ذلك يثمر: ثبات القلب ورباطة جأشه، والصبر أمام الابتلاءات والمصائب؛ وكيف لا يصبر من يدرك أن ربه رحيم لطيف، حكيم عليم، حنان منان، ودود غفور...إلخ، فيفوض أمره إليه ويرضى بما يختاره الله له! وليجعل صبره لله، وبالله، وفي أمر يحب الله الصبر فيه.

٢ - توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها لتخف وتسهل إذا وقعت، وأن يلوذ المرء عندها بقول: «**إنا لله وإنا إليه راجعون**»؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦].

٣ - ومما يقوِّي الصبر أيضًا: يقين المرء أن ما أصابه إما تكفير لخطاياه، أو لرفع درجته، أو لتحصيل نعمة لا تنال إلا بالابتلاء.

٧٣٧ - مفهوم ٤٣: ثمرة الصبر وجزاء الصابرين:

كما وطَّنت آيات سورة البقرة السابقة النفوس على المصائب، ودعت إلى الصبر عليها فقد بشَّرت الصابرين، فكانت البشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]؛ فالثمرة في الدنيا إذًا هي نيل رحمة الله وهدايته سبحانه، فيا للصبر من دواء عظيم تصير به المحنة منحة، وينقلب الجزع والهلع رحمة وهداية!

وللصبر أيضًا ثمرة عظيمة في الآخرة لا تدخل تحت حصر وعدٍّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر:١٠]، والتوفية: إعطاء الشيء وافيًا كاملًا تامًّا، والأجر من الله: الثواب في الآخرة كما هو مصطلح القرآن، وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: لا يدخل تحت حصر ولا حَدٍّ أو عَدٍّ؛ فهو أجر عظيم في الآخرة لا يدرك مقداره.

* * *

٧٣٨ - مفهوم ٤٤: المداراة لا المداهنة:

المداراة خلق محمود مأذون فيه -وقد يجب في بعض الأحيان- بخلاف المداهنة المحرمة.

- فالمداراة أصلها مهموز من (الدرء)؛ أي الدفع برفق؛ قال تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص:٥٤]؛ فالمداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، ويتنازل عن شيء من دنياه أو عرضه ليحافظ بذلك على دينه أو دنياه أو هما معًا.

- أما المداهنة فهي من (الدهان)؛ وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه؛ أي أن المداهن يظهر خلاف ما يبطن. أو المداهنة هي من اللين والمصانعة؛ فيصانع المداهن من يداهنه، ويتنازل عن شيء من معتقده أو يخفيه إرضاءً له؛ فهو يتلطف به مقرًا له على الباطل ويتركه على هواه، ويفعل ذلك ليحافظ على دنياه، وفعله محرم كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم:٨، ٩].

والخلاصة أن كُلًّا من المداراة والمداهنة يخضع لقاعدة سد الذرائع:

- فما كان ذريعة لحفظ الدين وأهله فهو مداراة مأذون فيها، وربما كانت واجبة.
- وما كان ذريعة لثلم الدين ونقصه فهو مداهنة محرمة منهي عنها.

* * *

٧٣٩ - مفهوم ٤٥: التثبت قبل اتخاذ المواقف وإصدار الأحكام:

التثبت خلق أصيل من أخلاق الإسلام، وأظهر ما يكون التثبت في الأخبار والأنباء؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، وفي قراءة: ﴿فتثبَّتوا﴾.

ولكن التثبت لا يقتصر على ذلك فقط، وإنما يكون في كل شيء: الأخبار، والظواهر، والعلوم، والنتائج، والأحكام، ...إلخ، فلا يحكم على شيء بالظن كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢].

والحامل على هذا التثبت وعمومه في كل شيء هو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]؛ فأمانة الجوارح، والحواس، والعقل، والقلب، هي ألا تقضي إلا بما تعلم؛ لأنها مسؤولة عن كل ما تصدره. فينبغي ألا يقول اللسان كلمة أو يروي حادثة، ولا يحكم العقل حكمًا، ولا يبرم الإنسان أمرًا ولا يقف موقفًا إلا بعد العلم والتثبت.

* * *

ثانيًا: مفاهيم حول مساوئ الأخلاق:

٧٤٠ - مفهوم ١: الكِبر:

الكبر خلق رديء يؤدي إلى أمرين مهلكين: رد الحق ورفضه، واحتقار الناس والتطاول عليهم؛ وقد عرَّفه الرسول ﷺ بذلك فقال: **(الكبر بطر الحق وغمط الناس)** [رواه مسلم (٩١)]، وهو ناجم عن مرض قلبي رذيل هو العُجْب؛ فمن يُعجب بنفسه يرى أن له فضلًا على الناس فيحتقرهم ويعُدُّهم دونه، وهذا هو الشق الثاني من الكبر المذكور في الحديث: **(غمط الناس)**؛ أي احتقارهم. أمَّا الشق الأول: **(بطر الحق)**؛ أي: ردُّه، فهو أيضًا ناجم عن العجب بالنفس وتعظيمها عن أن تنساق لشيء من الحق يُقلِّل من عظمتها المزعومة؛ كما رفض إبليس أمر الله له بالسجود لآدم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وكان استكباره ناجمًا عن إعجابه بنفسه وزعمه فضله على آدم عليه السلام؛ حيث قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ

﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، فجمع بين رفض الأمر الحق من الله، واحتقار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك كانت عاقبته الطرد من الجنة كما قال تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف:١٣]، ولهذا أيضًا فإن كل متكبر ممنوع من دخول الجنة كما ورد في أول الحديث السابق؛ حيث قال الرسول ﷺ في أوله: (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**) [رواه مسلم (٩١)]، وهذا وعيد شديد وتهديد أكيد يدفع كل عاقل صاحب قلب سليم إلى أن يحذر من الكبر أشد الحذر ويتوقاه غاية الوقاية.

* * *

٧٤١ – مفهوم ٢: الكبر الخفي:

قد يتلبَّس المرء بشيء من الكبر دون أن يشعر:

١ – فقد يظهر كبره في قالب علو الهمة، وحقيقته التعالي على الناس بهمته المزعومة، والمفاخرة بها، والإنكار على من لا يعظمه، وتصعير خدِّه للناس إعراضًا عنهم.

٢ – وقد يظهر في صورة ادِّعاء الحَمِيَّة لله تعالى، وحقيقته الحَمِيَّة للنفس. والفرق بينهما:

– أن الحمية لله يثيرها تعظيم الله تعالى وتعظيم أمره؛ فهي أن يحمي قلبه لله بتعظيم حقوقه سبحانه، وتلك حال عبد أشرق على قلبه نور سلطان الله وامتلأ قلبه به بحيث يغضب من أجل نور ذلك السلطان كما كان حال الرسول ﷺ؛ فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها) [رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧)]؛ فهي حمية تكون من قِبَل النفس المطمئنة التي أثارها تعظيم حق الله تعالى.

– بينما الحمية للنفس يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها؛ فهي حرارة تهيج من النفس لفوات حظها؛ وتكون من قِبَل النفس الأمارة بالسوء التي يثيرها استشعار فوات الحظ [يُنظر كتاب الروح لابن القيم (ص ٤٩٧)].

* * *

٧٤٢ - مفهوم ٣: الفرق بين المهابة والكبر:

المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بتعظيم الله ومحبته وإجلاله؛ حيث يحل في هذا القلب النور، وتنزل عليه السكينة، ويُلبس رداء المهابة؛ فيأخذ بمجامع قلوب الخلق محبة له، ومهابة منه، وحنينًا إليه، وتقر به العيون.

أمَّا الكبر فهو أثر من آثار العُجْب والبغي من قلب قد امتلأ جهلًا وظلمًا؛ فنظره إلى الناس شزرٌ، ومشيه بينهم تبخترٌ، ومعاملته لهم استئثارٌ لا إيثار ولا إنصاف، فلا يزداد من الله إلا بُعدًا، ومن الناس إلا صغارًا وبغضًا. [يُنظر كتاب الروح لابن القيم (ص ٤٩٩-٥٠٠)].

* * *

٧٤٣ - مفهوم ٤: العُجب بالنفس وبأعمالها:

العجب بالنفس وأعمالها آفة تفتك بصاحبها، وقد تحبط عمله؛ فالمعجب بنفسه وبعمله يزدري الآخرين ويرى نفسه أفضل منهم، وأكثر منهم قربة لله بفضل أعماله الصالحة التي يحسب أن الآخرين قد قصروا عنها، مع أنه قد يكون من هؤلاء الناس من له أعمال خفية وخبيئة صالحة عند الله تجعله أفضل من ذاك المعجب بنفسه، كما أن عمله قد يكون أرجى للقبول عند الله لما يصاحبه من إخلاص فيه لله، ومن إحسان في أدائه، ولما له في قلبه من محبة لله ويقين به ليسا لدى ذاك المعجب بنفسه. فليحذر المرء من العُجب، وليتذكر كل ذلك، وليعُدّ نفسه من المقصرين في حق الله مهما فعل من طاعات -لأنها لا توفي حق شكر نعمة واحدة من نعم الله عليه- حتى لا يصاب بهذا الداء العضال.

* * *

٧٤٤ - مفهوم ٥: معنى الغش عامٌّ غير منحصر:

لا ينحصر الغش في البيع والتجارة -وإن كانا أشهر صوره- فالرسول ﷺ حين أدخل يده في صُبرة الطعام في السوق ووجد فيها بللًا قال للبائع: **(من غشَّ فليس مني)** [رواه مسلم (١٠٢)]، فأطلق الغش ولم يقيده بالبيع ولم يحصره فيه، وهو نفسه ﷺ الذي قال: **(ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرَّم الله عليه الجنة)** [رواه البخاري (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢)]، وغش الوالي لرعيته ليس في البيع والتجارة،

وإنما هو بعدم النصح لهم، وعدم رعايتهم والقيام على مصالحهم في أمورهم كافة: الدينية والدنيوية على السواء، ومن ذلك حكمه بغير ما أنزل الله، وهو من أكبر الغش؛ لأنه غش في النصح والدين؛ ومنه ترك المبتدع على بدعته والضال على ضلالته، وترك العلماء مناصحة السلاطين والأمراء كما يترك السلاطين النصح لرعيتهم.

* * *

٧٤٥ - مفهوم ٦: الكيل بمكيالين (ازدواجية المعايير):

ونعني به حرص المرء على استيفاء حقه كاملًا، وفي المقابل يبخس الناس حقوقهم؛ فكيله لنفسه يخالف كيله لغيره، وذلك في الحقوق والمجالات كافة، وهو خلق ذميم يشمله عموم قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٢،٣] وما فيه من وعيد بالويل.

والمسلم مطالب بأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه كما قال ﷺ: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)** [رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)]، وأن ينصف من نفسه ويعامل الناس كما يحب أن يعاملوه.

* * *

٧٤٦ - مفهوم ٧: المخالفة في الهدي الظاهر لأهل الإسلام:

قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١] يشمل التأسي به ﷺ في كافة شؤون حياته وأحواله؛ ومن ذلك سمته الظاهر، ولكن كثيرًا من الناس -مع الأسف- يتساهل في مخالفته لهديه الظاهر ﷺ؛ فيتساهل في إعفاء اللحية، وقص الشارب، وخصال الفطرة، وكل ما كان من الهيئة الظاهرة، وحجته المزعومة أن ذلك من قشور الدين وليس من اللب والمضمون الذي علينا أن نهتم به!

وهذا القول مخالف لمعنى الاستسلام لله ﷻ وشرعه الذي حثنا الله عليه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨]، وليس في الدين قشور ولباب، بل هو لحمة واحدة، والاستسلام فيه لله تعالى يكون في الكبير والصغير على حد سواء.

٧٤٧ – مفهوم ٨: آفات اللسان:

آفات اللسان عديدة ومتنوعة؛ منها: الكذب، والغيبة، والنميمة، والهمز واللمز، ولغو القول، والسخرية، والفحش وبذاءة القول.

وكلها آفات وأخلاق رذيلة، يعلم المسلمون من دينهم حرمتها وسوء عاقبتها، ومع ذلك يكاد لا يسلم أحد منها أو من بعضها، ما بين مكثر ومقل؛ وما ذاك إلا لأن الدافع لها في الحقيقة مرض القلب الذي لا يُنتبه له.

والقلب هو ملك الجسد الذي يتحكم فيه كله كما قال ﷺ: (**إن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**) [رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)]، وإنما يترجم اللسان عمَّا في القلب؛ فالقلوب كالقدور والألسن مغارفها، وبهذا يُجمع بين الحديث السابق وحديث: (**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفِّر اللسان، فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**) [رواه الترمذي (٢٤٠٧) وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي وغيره].

وقوله: (**تُكفِّر اللسان**) أي: تخضع وتُطأطئ له؛ من التكفير الذي هو انحناء الرأس وطأطأته قريبًا من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه. ويصدر ذلك من الأعضاء للسان لأنه هو الفاعل للأمور في الظاهر وإن كان مصدر الفعل والباعث له هو القلب.

* * *

٧٤٨ – مفهوم ٩: الغيبة المستترة:

يتجنَّب المرء عادة الغيبة الفجة الظاهرة لما يعلمه من حرمتها وإثم فاعلها، لكن ما في قلبه من مرض –وإن لم يدركه– قد يحمله على الوقوع فيها بطريقة مستترة ومزخرفة بألوان شتى من الخداع الذي يخادع به الله والناس، وما يدري أنه في الحقيقة يخادع نفسه؛ لأن الله مطلع على سرائر القلوب ولا يخفى عليه ذلك الزخرف والتستر، فيكون حاله كحال المنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة:٩]؛ فمن تلك الطرق الخفية:

١ – إخراج الغيبة في قالب ديانة وصلاح كأن يقول:

– ما اعْتَدْتُ أن أذكر أحدًا إلا بخير، ولا أحب الغيبة، وإنما أخبركم بأحواله نصحًا لكم.

– أو يقول: والله إن فلانًا مسكين ورجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت.

– أو يزعم الاهتمام بمن يغتابه والاغتمام لحاله؛ فيقول: غمَّني ما صدر من فلان.

– وربما قال: دعونا من فلان، الله يغفر لنا وله.

– أو يُخرج الغيبة في قالب الغضب لله وإنكار المنكر.

٢ – **إخراج الغيبة في قالب التعجب**؛ فيقول: أعجب من فلان! كيف فعل كيت وكيت! أو: كيف لم يفعل كيت وكيت!

٣ – **الاغتياب موافقة لجلسائه**؛ لكونه يرى أنه لو أنكر عليهم لقطع المجلس واستثقله جلساؤه، ونفروا منه.

* * *

٧٤٩ – مفهوم ١٠: فحش القول حال الخصومة:

أكثر ما يكون فحش القول وبذاءته حال الخصومة والشجار، فيكون حينئذ من الفجر في الخصومة الذي يعد سمة لأهل النفاق؛ كما قال ﷺ: (**أربع خلال من كن فيه كان منافقًا خالصًا؛ من: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها**) [رواه البخاري (٣١٧٨)، ومسلم (٥٨)]، فليحذر المرء من فحش القول عمومًا، وحال الخصومة خصوصًا؛ حتى لا يتسم بسمة من سمات أهل النفاق.

* * *

٧٥٠ – مفهوم ١١: لهو الحديث:

كل كلام يُلهي القلب، ويأكل الوقت، ولا يُثمر خيرًا، ولا يُؤتي حصيلة تليق بوظيفة الإنسان في عمارة الأرض والاستخلاف فيها وفق منهج الله؛ كل ما كان كذلك فهو من لهو الحديث الذي يُلهي عن طاعة الله ويصد عن مرضاته، ويحرف الناس عن طريق الهدى إلى طريق الهوى؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان:٦]، ومن ذلك الغناء والموسيقى.

* * *

٧٥١ - مفهوم ١٢: شهادة الزور لها معنيان:

الزور: الباطل؛ وهو كل قول أو فعل محرم، ومنه: الكذب والافتراء.

والشهادة في أصل معناها: الحضور؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ أي: فمن حضر منكم الشهر.

وتطلق الشهادة أيضًا على الإخبار عن الشيء؛ ومنه قول الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦،٢٧].

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢] يشمل المعنيين جميعًا؛ فعباد الرحمن لا يشهدون على أحد بالزور، و(**الزور**) على هذا المعنى منصوب على نزع الخافض، والتقدير: (**لا يشهدون بالزور**). وهم أيضًا لا يحضرون مجالس الزور والباطل، و(**الزور**) على هذا المعنى مفعول به. فليحذر المؤمن من كلٍّ من الكذب والافتراء، وحضور مجالس الباطل والزور؛ فكلاهما خلقان ذميان ليسا من صفات المؤمنين.

* * *

٧٥٢- مفهوم ١٣: الصدق المذموم والكذب الممدوح:

سبق ذكر الصدق ومفاهيمه في مكارم الأخلاق، ونذكر هنا صدقًا يُذم ولا يُشرع؛ كالكلام في أعراض الناس ولو بصدق؛ فتلك هي الغيبة، وكذلك السعي بين الناس بالنميمة ولو كان صادقًا في قوله؛ فإن ذلك يفضي إلى إفساد ذات البين.

والكذب وإن كان الأصل فيه الذم وعدم الجواز، إلا أن له صورًا مباحة أو مستحبة، وقد تجب أحيانًا؛ فمن ذلك: حديث أم كلثوم بنت عقبة قالت: «رخَّص النبي ﷺ من الكذب في ثلاث: في الحرب، وفي الإصلاح بين الناس، وقول الرجل لامرأته»، وفي رواية: «وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها» [أخرجه أبو داود (٤٩٢١)، وأحمد (٢٧٢٧٥)، وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط الشيخين، السلسلة الصحيحة (٥٤٥)]، ويلحق بذلك: الكذب على الظالم الباغي الذي يقصد مسلمًا لقتله أو التنكيل به وإيذائه، فحينئذ يجب الكذب صيانة لنفس المسلم وعرضه وماله، وكذلك النطق بكلمة الكفر كذبًا مع

اطمئنان القلب عند الإكراه؛ فالكذب في هذه المواطن كلها مأذون فيه، فلا حرج على من يأتيه، بل إنه يثاب حين يكون واجبًا عليه كما بينًّا؛ لما يحققه من مصلحة تضمنها، ولو صدق في ذلك لأثم إثم المتسبب في تحقيق المفسدة.

* * *

٧٥٣ - مفهوم ١٤: الرضا من النفس بالدون:

هو خُلُق سلبي مُحطِّم للهمم والآمال؛ فحين يقصر المسلم همته ويرضى من نفسه بالدون فهو يفوت على نفسه وعلى أمته فرصًا للنجاح وثمراته المرجوة في الدنيا والآخرة، وهو يوقع نفسه بذلك أسيرًا للشيطان الحريص دائمًا على تخذيل الإنسان وتحطيم همته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٩].

وليحذر المرء من أن يحتج لهذا الهوان بالرغبة في التواضع والفرار من الشهرة والغرور والعُجْب؛ فالهمة العالية ليست غرورًا ولا عُجْبًا، وهناك فرق بين التواضع المحمود والدونية الممقوتة؛ فعباد الرحمن المتواضعون الذين يمشون على الأرض هونًا لم يمنعهم تواضعهم من الهمة العالية؛ ليس في مجرد تحصيل التقوى، بل طلبوا أن يكونوا أئمة وقدوة في ذلك فقالوا: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

* * *

٧٥٤ - مفهوم ١٥: الجبن والبخل:

خلقان ذميمان قرنهما الرسول ﷺ بعضهما ببعض وأكثر من التعوذ منهما في دعائه؛ قال ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل...) [رواه البخاري (٦٣٦٩)، ومسلم (٢٧٠٦)].

وقلما يوجد أحدهما عند شخص إلا ويوجد معه الخلق الآخر؛ فغالبًا ما يكون البخيل جبانًا والجبان بخيلًا؛ وذلك لأن الشح يجمعهما؛ فالجبان يشح بنفسه، والبخيل يشح بماله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

وقد يستتر هذان الخلقان لعدم وجود ما يظهرهما من مواقف، فإذا ما وقع موقف خوف ظهر خلق الجبن، أو وقع موقف طمع ظهر خلق البخل، وقد ابتُلي بنو إسرائيل

بالموقفين فسقط معظمهم في الموقفين جميعًا حيث:

- أُمروا بدخول بيت المقدس فجبنوا وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢].

- وحجز الله عنهم الحيتان إلا يوم السبت، وقد فُرض عليهم عدم العمل فيه، فما صبروا على شهوة جمع المال، وتحايلوا على الصيد في يوم سبتهم بوضع الشباك قبله وجمع صيدها بعده شُحًّا بالمال أن يضيع منهم.

وابتلى الله أصحاب محمد ﷺ بالموقفين فنجحوا فيهما جميعًا؛ ففي موقف الخوف قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، فما جبنوا ولا خافوا. وأما عن المال فقد مُنعوا من الصيد في الحرم أو حال الإحرام كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥]، فامتثلوا للحكم ولم يخالفوه، كما أنهم قد فتح الله عليهم الدنيا آخر عهدهم فاستعلوا عليها وزهدوا فيها.

* * *

٧٥٥ - مفهوم ١٦: الفظاظة والغلظة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]؛ فثمرة الفظاظة وغلظة القلب مرة، وعاقبتها سيئة: نفرة وانفضاض من حول الفظ غليظ القلب، وكره واشمئزاز منه، وفوق ذلك كله: إثم وحرمان من الأجر؛ أجر الوجه البشوش الطلق؛ قال ﷺ: (**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**) [رواه مسلم (٢٦٢٦)].

والغلظة المذمومة هي قسوة القلب في التعامل مع الناس كافة: سواء في الدعوة إلى الله، أو في المعاملات الدنيوية، أمَّا التعامل مع الكفار والمنافقين حال جهادهم بالسنان واللسان فلا تُذم الغلظة فيه، بل هي محمودة مطلوبة لإرهابهم والتضييق عليهم؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣، والتحريم:٩]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣].

* * *

٧٥٦ – مفهوم ١٧: النجوى:

النجوى هي المسارة في الحديث؛ مشتقة من النجو، وهو المكان المستتر الذي ينجو المختبئ فيه من طالبه؛ فالمتناجون يستترون من سائر الناس ليخفوا عنهم أمورًا يبيتونها بينهم، وأغلب ذلك يكون في الشر وما لا فائدة فيه، لهذا نهى الله تعالى عن النجوى فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة:٨].

وإنما نُهي عن النجوى لأنها خُلُقٌ يُؤسس لتكوين جيوب في الجماعة المسلمة تخطط وتدبر أمورًا خفية عنها، ويبعث ذلك الريبة والشكوك في نفوس سائر الجماعة المؤمنة، مما يؤدي إلى تفكك جماعة المسلمين وزوال الأمن والاستقرار فيها.

بل قد نهى الشرع عن النجوى حتى على مستوى الأفراد المحدودين؛ قال ﷺ: **(لا يتناجى اثنان دون واحد)** [رواه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣)]، وفي رواية زيادة: **(فإن ذلك يحزنه)** [رواها بن حبان في صحيحه (٥٨٤)]، وهو ما يتفق مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة:١٠].

* * *

٧٥٧ – مفهوم ١٨: النجوى المحمودة:

استثنى الله من النجوى المنهي عنها ما كان بالبر والتقوى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المجادلة:٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء:١١٤]، والمفهوم المخالف لعدم الخيرية في كثير من النجوى أن هناك خيرًا في قليل من النجوى، وقد بيَّنت الآية هذا القليل ومثَّلَتْ له أو حصرته بالاستثناء من عدم الخيرية: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وشرطت لذلك إخلاص النية لله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فالمقصود بالنجوى الخيِّرة إذًا أن يسار الرجل الصالح صالحين أمثاله ليتعاونوا معًا على أمر خير فيه معروف للناس أو إصلاح بينهم.

* * *

٧٥٨ - مفهوم ١٩: الغضب:

الغضب جمرة توقد في قلب ابن آدم تحمله على التهور وفعل السوء؛ ولذا قال النبي ﷺ: (**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**) [رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)]، وقال لمن سأله الوصية: (لا تغضب)، فردَّد مرارًا قال: (لا تغضب) [رواه البخاري (٦١١٦)].

ولكن هذا الغضب المنهي عنه هو ما كان غضبًا للنفس طلبًا للثأر حين تؤذى، أما الغضب غيرة على محارم الله أن تنتهك فليس ذلك انتقامًا للنفس، وإنما هو الذي يدفع المرء للذب والدفاع عن حرمات الله؛ كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ: «ما انتقم رسول الله لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها» [رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧)].

❊ ❊ ❊

٧٥٩ - مفهوم ٢٠: الظلم:

الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وهو محرم بكل صوره وأشكاله؛ فقد توعَّد الله الظالم بالخيبة والخسران؛ قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:١١١]، والآيات غيرها في ذم الظلم وأهله كثيرة.

❊ ❊ ❊

٧٦٠ - مفهوم ٢١: أنواع الظلم:

للظلم ثلاثة أنواع رئيسة:

١ - **الظلم الأعظم**: وهو الشرك بالله تعالى؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]. وإنما كان الشرك ظلمًا لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها؛ وذلك بعبادة غير الله تعالى أو إشراك غيره معه. وهذا النوع من الظلم لا يغفره الله أبدًا حتى يتوب المرء منه ويرجع إلى توحيد الله ﷻ.

٢ - **ظلم العباد والتعدِّي على حقوقهم**: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢]، وقد ورد في الحديث القدسي: (**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا**

تظالموا) [رواه مسلم (٢٥٧٧)]. وهذا النوع من الظلم لا يغفره الله حتى يقتص للعباد بعضهم من بعض، أو يعفو المظلوم عن ظالمه.

وظلم العباد يتنوع بين ظلمهم في: دينهم بصدهم عن سبيل الله، أو أنفسهم قتلًا أو تعذيبًا أو سجنًا، أو عقولهم بالشبهات أو المخدرات والمسكرات، أو أموالهم بنهبها أو بخسهم حقوقهم، أو أعراضهم بالشهوات وهتك الأعراض أو بالقذف والسباب والإهانة.

٣ – **ظلم النفس**: سواء كان ذلك باقترافها للمعاصي فيما بينها وبين الله عز وجل، أو بظلمها للآخرين، أو بوقوعها في الشرك بالله تعالى؛ لأن كل ذلك كما أنه وضع للأمور في غير موضعها الذي يرضاه الله عز وجل فهو إساءة للنفس بإيرادها مورد الذم والعقوبة بدلًا من المدح والمثوبة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]، والآيات في ظلم النفس غير ما ذكر كثيرة.

* * *

٧٦١ – مفهوم ٢٢: ظالم ومظلوم:

لما كان ظلم النفس يشمل أيضًا النوعين الآخرين –الشرك وظلم العباد– صحَّ بهذا الاعتبار أن نقول: إن كل ظالم هو مظلوم في الوقت ذاته؛ لأنه يظلم نفسه على كل حال، فهو ظالم ومظلوم في آن واحد، وكفى بذلك خيبة وخسرانًا، ومن كان لنفسه ظالمًا فهو لغيرها أظلم؛ لذا هو لا يستطيع العدل مع غيره.

* * *

٧٦٢ – مفهوم ٢٣: أسباب **الظلم ودوافعه**:

يدفع المرء إلى الظلم أحد أمور ثلاثة:

١ – الشبهات التي تنشأ من الجهل وقلة الفقه بالدين، وتؤدي إلى التأويل الفاسد والاجتهاد الخاطئ فيظلم الآخرين.

٢ – القوة الشهوانية من: حب الدنيا ومناصبها ومتاعها الزائل.

٣ – القوة الغضبية الناجمة عن الكبر والحقد والحسد، وحب الانتقام والعلو في الأرض.

٧٦٣ - مفهوم ٢٤: الحذر من دوافع الظلم:

ينبغي على المرء ألا يُعرِّض نفسه لما قد يجره إلى الظلم والجور -حتى ولو كان مباحًا في أصله- وليؤثر السلامة والعافية؛ فقد أرشد الله من خشي عدم العدل بين زوجاته إن تزوج أكثر من واحدة إلى أن يقتصر على واحدة؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:٣]، وقوله: ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: ألا تجوروا وتعتدوا.

* * *

٧٦٤ - مفهوم ٢٥: تحريم الركون إلى الظلم:

الركون إلى الظلم هو الميل إلى الظالم والانضمام إليه، والرضا بما هو عليه من الظلم. وهو إثم كبير وعليه وعيد شديد؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[هود:١١٣]. وإذا كان هذا الوعيد على الركون إلى الظلمة فكيف حال الظلمة أنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم وأهله.

* * *

٧٦٥ - مفهوم ٢٦: عاقبة انتشار الظلم في الأمة:

إن انتشار الظلم بين أفراد الأمة يؤذن بتسليط الولاة الظلمة عليهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام:١٢٩]، ولئن كان تحديد ليلة القدر قد رفع عن الأمة بسبب تخاصم اثنين منها، أحدهما ظالم للآخر، فكيف يكون الحال إذا تسلط ولاة ظلمة وسجنوا الآلاف لسنوات عديدة بلا ذنب!

إن تولي ولاة ظلمة على الأمة يضعفها ويذلها ويُذهِب مقدراتها، فيمهد لتسلط الأمم القوية الظالمة عليها وعلى حكامها الظلمة: إما بالاحتلال المقنَّع والتحكم فيها من وراء ستار، أو بالاحتلال الصريح المباشر.

* * *

٧٦٦ - مفهوم ٢٧: الظلم يحرم صاحبه من خيرات كثيرة:

- فهو يحرم الظالم من الهداية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].
- ويحرمه من الفلاح؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].
- ويحرمه من حب الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

٧٦٧ – مفهوم ٢٨: للظلم على الظالم أضرار جسيمة في الدنيا والآخرة:

– فالظالم يضله الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧].

– والظالم ملعون من الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

– والظالم مُعرَّض لدعوات المظلوم عليه واستجابة الله له؛ قال ﷺ: **(واتق دعوة المظلوم؛ فإنها ليس بينها وبين الله حجاب)** [رواه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩)].

– وعاقبة الظلم في الدنيا شديدة –حتى وإن أُمهل الظالم فترة من الوقت؛ قال ﷺ: **(إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته)**، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] [رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)].

– وكذلك عاقبة الظلم في الآخرة وخيمة؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ [طه:١١١]، وقال ﷺ: **(اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)** [رواه مسلم (٢٥٧٨)].

* * *

٧٦٨ – مفهوم ٢٩: الغلو:

الغلو في اللغة: الارتفاع ومجاوزة الحد؛ فغلاء الأسعار: ارتفاعها ومجاوزتها الحد المقبول.

والغلو في الدين: مجاوزة الحدود الشرعية؛ سواء كان ذلك في الاعتقاد أو العمل.

وأشهر من عُرف بالغلو في الدين من الأمم قبلنا: النصارى؛ فقد غالوا في كلٍّ من الاعتقاد والعمل؛ ففي الاعتقاد جاوزوا الحد في تعظيم نبيهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى رفعوه إلى درجة الإله وابن الإله، وفي العبادة جاوزوا الحد بابتداع الرهبانية كما قال الله تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧].

وقد نهى الشرع عن الغلو في الدين –سواء في الاعتقاد أو العمل– قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]، وقال ﷺ: **(إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)** [أخرجه أحمد (١٨٥١)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصحَّحه الألباني (الصحيحة ١٢٨٣)]، والغلو أمر لا تقبله الفطر والعقول السليمة.

* * *

٧٦٩ - مفهوم ٣٠: الغلو في الاعتقاد أشد من الغلو في العمل:

الغلو شرٌّ كله وسبب للهلاك كما قال ﷺ في الحديث السابق: **(فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)**، وقال أيضًا: **(هلك المتنطعون)** [رواه مسلم (٢٦٧٠)]، والتنطع: التعمُّق والغلو في الدين.

إلا أن الغلو في الاعتقاد أعظم ضررًا وأشد خطرًا من الغلو في العمل؛ إذ هو الذي يؤدي إلى الانشقاقات، وينشئ الفرق الضالة عن الصراط المستقيم؛ كالخوارج والروافض والمرجئة ...إلخ، وقد وصف الرسول ﷺ ذا الخويصرة -أصل الخوارج- بأن له **(أصحابًا)** [رواه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤)]، وفي رواية قال: **(إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم...)**، فأشار إلى ظهور **(قوم)** و**(أصحاب)**، بينما في حديث اتكاء زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على الحبل إذا فَتَرَتْ من صلاة الليل قال ﷺ: **(ليصل أحدكم نشاطه)** [رواه البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤)]، فذكر صيغة الفرد **(أحدكم)** ولم يذكر جماعة ولا قومًا، وكذا الرهط الثلاثة الذين غلوا في أعمال مثل: الصلاة والصيام والنكاح، لم تنشأ عنهم فرق على مثل أعمالهم.

ومع هذا فالغلو في فروع عملية كثيرة يشبه الغلو الكلي الاعتقادي؛ لأن المعارضة الحاصلة به للشرع مماثلة لتلك الحاصلة بالغلو في أمر اعتقادي كلي.

* * *

٧٧٠ - مفهوم ٣١: دوافع الغلو وصفات أهله:

يدفع إلى الغلو ويتسبب فيه عاملان رئيسان: الجهل، وإرادة التعظيم؛ فكل الفرق الغالية في الدين تتصف إما بالجهل بنصوص الشرع، أو الجهل بمقاصده، أو الجهل بهما معًا، وقد قال ﷺ عن فرقة الخوارج: **(يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم)** [رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦)]؛ أي: لا يفقهونه.

كما أن إرادة التعظيم سمة غالبة على الجميع أيضًا؛ فالخوارج يريدون تعظيم الشرع وحكم الله كما يزعمون، والروافض يعظمون أئمتهم فيدَّعون لهم العصمة، وكذا الصوفية، ومن قبل النصارى عظَّموا نبيهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فغالوا فيه حتى جعلوه إلهًا.

وكما يتصف الغالون في الدين بالجهل يغلب عليهم أيضًا الظلم والجور؛ فالخوارج:

(يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان) [رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤)]، والروافض يظلمون أهل السنة ويكفرونهم ويرمونهم ظلمًا بمعاداة أهل البيت، والأشاعرة يظلمون أهل السنة ويتهمونهم بالتشبيه.

* * *

٧٧١ - مفهوم ٣٢: الغلو في نقد أهل الغلو:

انحراف الغالين في الدين -ولو أدَّى إلى وصمهم بالبدعة أو الكفر- لا يُسوِّغ بحال ظلمهم والغلو في نقدهم؛ وذلك مثلًا بتقويلهم ما لم يقولوه، أو إلزامهم بما لم يلتزموه؛ فقد أمرنا الله تعالى بالعدل على كل حال فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

وأشد من ذلك غلوًّا: إلحاق الأذى بالمتمسكين بعقيدة السلف الصالح ووصفهم بالغلو والتطرف والإرهاب؛ وذلك صنيع أعداء الإسلام وإعلامهم الماكر الذي يرمي كل متمسك بالسنة وهدي السلف الصالح في العقيدة والسلوك بأنه من أهل الغلو، فيبررون بذلك ضرب الصحوة الإسلامية تحت ستار محاربة الغلو، بل قد يصل الأمر إلى حد وصف محكمات الدين وثوابته -كالولاء والبراء والجهاد في سبيل الله وغيرها- أنها من الغلو.

* * *

٧٧٢ - مفهوم ٣٣: الرفق في نقد أهل الغلو:

الرفق في نقد أهل الغلو ورحمتهم والشفقة عليهم؛ كل ذلك يثمر تأليف قلوبهم وانقيادهم للحق، ورجوعهم عما هم عليه من الغلو، بينما أخذهم بالشدة والغلظة، وإظهار الكراهية لهم يسبب نفورهم من الحق وتعصبهم لما هم عليه من الغلو والباطل.

* * *

٧٧٣ - مفهوم ٣٤: فقه واقع أهل الغلو:

ينبغي لمن يتصدَّى لأهل الغلو ويرد عليهم أن يكون عالمًا بتفاصيل انحرافاتهم وثبوتها على أصحابها.

كما يجب عليه فقه واقع أهل الغلو والملابسات والظروف التي تحيط بهم، والنظر إلى عواقب الأمور ومآلات التصدِّي لهم، فإن كان سيترتب على ذلك مفاسد أكبر من مفسدة

غلوهم؛ كأن يستغل العدو الكافر أو المنافق مثل هذا التصدِّي ويوظِّفه في تنفيذ مخططاته لضرب الإسلام وأهله -خاصة أهل السنة منهم- إن كان سيترتب مثل ذلك يؤجل الإنكار إلى وقت تخِفُّ فيه المفسدة أو تزول، أو ينكر على الجميع: أهل الغلو، والعدو الكافر أو المنافق؛ وذلك لقطع الطريق على الطغاة والمنافقين لتوظيف الرد على الغلاة في محاربة الدعاة والمجاهدين أهل الحق، والخلاصة أنه ينبغي للمتصدِّي للغلو وأهله أن يجتهد في صياغة الردود عليهم بصورة لا تخدم أعداء الدين.

* * *

٧٧٤ - مفهوم ٣٥: ثوابت الدين بين أهل الغلو والمفرِّطين:

تنزيل أهل الغلو لثوابت الدين أو بعضها على غير منازلها لا ينفي أو يلغي هذه الثوابت، بل الواجب هو تنزيلها منازلها الصحيحة وبيان أحكامها الشرعية؛ فإنما سُمِّيتْ ثوابت لكونها ثابتة معلومة من الدين بالضرورة؛ مثل: الولاء والبراء، وتحكيم شرع الله، والجهاد في سبيل الله، وأحكام الكفر والإيمان التي يُنفِّر الناسُ عنها بإطلاق مصطلح (التكفير) عليها؛ والتكفير إذا استُعمل بلا مراعاة لتوفر شروطه وانتفاء موانعه فهو بلا شك غُلوٌّ وتطرف مرفوض، لكن إذا ضُبطتْ أحكام التكفير بالضوابط الشرعية وتحقُّق الشروط وانتفاء الموانع لا تكون حينئذٍ غُلُوًّا، بل هي من أحكام الدين التي أفاض العلماء في ذكرها؛ كما في باب: أحكام الردة والمرتدين من كتب الفقه المعتمدة.

* * *

٧٧٥ - مفهوم ٣٦: ألوان من الغلو مسكوت عنها:

الغلو مذموم ومرفوض كله، ولكننا -مع الأسف- نرى اليوم الانتقائية في نقد الغلو؛ حيث يَقْصِر الكثيرون النقد على بعضه فقط -ونقده مطلوب بلا شك- ويتركون الكلام على البعض الآخر. والعدل والميزان الحق هو نقد الغلو بكافة صوره وأشكاله، وبيان خطره كله على الدين والنفس وسائر الضرورات الخمس؛ فمن الغلو المسكوت عنه:

١ - الغلو في تعظيم الرجال ورفعهم فوق منزلتهم؛ كغلو الروافض في أئمتهم، وغلو بعض المتصوفة في مشايخهم، والتعصب لبعض العلماء بتقديم أقوالهم على الكتاب والسنة، والغلو في مدح الحكام ورفع صورهم وتعظيمها.

٢ – غلو المنافقين من ليبراليين وعلمانيين بإغراقهم البلاد في الشبهات والشهوات، وجرأتهم على الدين وثوابته؛ كتحكيم الشريعة، والجهاد في سبيل الله، والحجاب...إلخ، وتحسينهم لدين الكفار.

٣ – غلو الروافض بتكفيرهم لأهل السنة، وتعذيبهم وقتلهم حين يتمكنون منهم؛ كما حدث في العراق وسوريا.

٤ – غلو بعض المنتسبين للسنة المتأثرين بالفكر الإرجائي في عداوتهم لبعض علماء أهل السنة ودعاتهم، والمجاهدين في سبيل الله، وفي المقابل يبالغون في كيل المديح للظلمة، ويلتمسون الأعذار لهم، ويصفون من ينكر عليهم بأنه مبتدع أو خارجي.

٥ – غلو الطغاة الذين يوالون أعداء الله ويعادون أولياءه ويغيبونهم في السجون والمعتقلات.

٦ – غلو كل من الغرب والشرق الكافرين في كفرهم، وظلمهم وحربهم على الإسلام وأهله؛ كما فعل الأمريكان في أفغانستان والعراق، وما أخبار الروهينجا في ميانمار والإيغور في الصين عنا ببعيد.

ومما يؤسف له أن كل من يوغل في الغلو من الطوائف السابقة يصفون أنفسهم بكافة الأوصاف الجميلة الخادعة؛ كالوسطية والاعتدال، والتحرر، والتنوير...إلخ، وفي مقابل ذلك يرمون أهل الحق بالغلو والتطرف؛ على حد قول المثل: «رمتني بدائها وانسَلَّتْ».

* * *

٧٧٦ – مفهوم ٣٧: الجدل والمراء والخصومات:

الجدال في أصله: نقاش بشدة؛ وهو نزاع وخصام بالقول لإقناع الغير برأي المجادل.

والمراء: الطعن في كلام الغير، وإظهار خلله لغرض تحقيره.

فكلٌّ من الجدال والمراء يعدُّ من الخصومة التي تدخل تحت الأخلاق السيئة المنهي عنها؛ وقد قال الله تعالى ذامًّا للجدال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف:٥٤]، وقال الرسول ﷺ: **(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)**، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨] [رواه الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٢١٦٤)، وحسَّنه الألباني في تخريج المشكاة (١٧٨)]، وقال ﷺ أيضًا: **(أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)** [رواه البخاري (٤٥٢٣)، ومسلم (٢٦٦٨)]. والأحاديث في ذم المراء والجدل غير ذلك كثيرة.

٧٧٧ – مفهوم ٣٨: أقوال مأثورة عن السلف في ذم الجدل وأهله:

أكثَرَ السلفُ من ذم الجدل والخصومة والتحذير منها؛ خاصة مع أهل البدع والضلال، فمن تلك الأقوال:

– قول عمر بن الخطاب ﷺ لزياد بن جرير: «أتدري ما يهدم الإسلام؟! زلة عالم، وجدال منافق، وأئمة مضلون» [الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٥٩٩)].

– قول علي بن أبي طالب ﷺ: «إياكم والخصومة؛ فإنها تمحق الدين» [شرح أصول السنة للالكائي (١/ ١٤٣)].

– قول عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–: «من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر الشك، أو قال: يكثر التحول» [شرح أصول السنة للالكائي (١/ ١٤٤)].

– وعن الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شرًّا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل» [شرح أصول السنة للالكائي (١/ ١٦٤)].

* * *

٧٧٨ – مفهوم ٣٩: الآثار السيئة للجدال والمراء:

للجدال والمراء آثار سيئة عديدة، من أهمها:

١ – دخول الهوى والتعصب للباطل، ورد الحق، واستغلال الشيطان ذلك للتحريش والتفريق بين المسلمين.

٢ – قسوة القلب والانشغال بالجدل عن العمل وما ينفع في الآخرة.

٣ – نشوء كثير من البدع والضلالات؛ وذلك باستخدام أهل الضلال للجدال في تقرير ضلالهم وبدعهم.

٤ – جور المجادل وبغيه على من يخاصمهم، وإعجابه بنفسه والتفاخر بذلك.

* * *

٧٧٩ – مفهوم ٤٠: الجدال بالتي هي أحسن:

استثنى الله تعالى من الجدال المذموم: الجدال بالتي هي أحسن؛ ومعناه: النقاش والحوار بغرض إظهار الحق، مع التحلِّي بالآداب الشرعية وتجنُّب الظلم والمفاخرة والخصومة، مع إخلاص النية في الحوار والنقاش وقصد وجه الله في ذلك؛ قال الله

تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

* * *

٧٨٠ - مفهوم ٤١: الانتكاس للباطل بعد معرفة الحق ولزومه:

من أعظم البلاء للمرء: الانتكاس للباطل بعد معرفته للحق وسلوك طريقه؛ وهذا هو (**الحور بعد الكور**) الذي استعاذ منه الرسول ﷺ [رواه مسلم (١٣٤٣)]، ومعناه: النقصان بعد الزيادة، وفساد الأمور بعد صلاحها.

وأعظم من ذلك فتنة وبلاءً: ألا يكون فساد المرء على نفسه فحسب، بل يتعدَّى ذلك إلى إفساد الآخرين بعد أن كان مصلحًا، وإلى أن يكون ساخرًا من الدين بعد أن كان مُسخَّرًا له؛ فمن عدم توفيق الله للإنسان أن يبدله من «حجر بناء» إلى «حجر عثرة» في طريق الصادقين، نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، والخذلان بعد التوفيق.

* * *

٧٨١ - مفهوم ٤٢: الفجور:

أصل الفجر في اللغة: التفتح والانبعاث؛ ومنه طلوع الفجر، والانفجار.

والفجور في الشرع هو: تفتح وانبعاث في المعاصي من غير اكتراث بعواقبها؛ قال الله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة:٥]؛ أي: يريد أن يمضي قُدُمًا في معاصي الله تعالى؛ لا يثنيه عنها شيء. [ينظر تفسير الطبري للآية]. فالإنسان الفاجر هو الذي يُسرف على نفسه في المعاصي والخروج عن طاعة الله غير مكترث بأضرار ذلك وعواقبه.

وعلى وجه العموم: فالفجور عكس البر، فهو اسم جامع لكل شر وكل ميل إلى الفساد الأخلاقي والانطلاق إلى المعاصي، ومن علاماته: الانحراف عن شرع الله، والاستهانة بتعاليمه، وعدم الاكتراث بعواقب المعاصي، وكثرة الكذب والافتراء؛ وقد قال ﷺ: (**وإن الكذب يهدي إلى الفجور**) [رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)]، والوقوع في الفجور والتمادي فيه يؤدي إلى خُلُق أسوأ وأرذل هو: الإفساد في الأرض.

* * *

٧٨٢ – مفهوم ٤٣: الإفساد في الأرض:

الفساد هو: التلف والعطب، والاضطراب والخلل. والإفساد هو فعل ما يوجب الفساد؛ فالإفساد في الأرض إذًا يعني التسبب في تلفها ووقوع الاضطراب والخلل فيها؛ وذلك بنشر: الكفر، والمعاصي الموبقة، والفتن المهلكة، والظلم، والفوضى، وكل ما يؤدِّي إلى الخراب والدمار؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

وأشهر من يوسم بالإفساد في الأرض هم اليهود؛ فالإفساد ديدنهم وطبيعة مركوزة فيهم؛ قال الله تعالى عنهم: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]. والآيات في النهي عن الإفساد في الأرض وذمه كثيرة جدًّا.

❋ ❋ ❋

٧٨٣ – مفهوم ٤٤: من مظاهر الفساد في الأرض:

للفساد في الأرض مظاهر عديدة من أهمها: الحكم بغير ما أنزل الله، انتشار الكفر والشرك، كثرة الظلم، تسلُّط الفاجرين واضطهاد المصلحين، نشر الفجور والرذيلة، كثرة القتل والهرج، الإسراف في موارد الطبيعة وتبديدها -كتبديد الغابات والثروات الطبيعية- تلويث المياه والجو بالمواد الكيميائية الضارة، نشر الأوبئة والأمراض بين الناس والكائنات الحية، الإخلال بتوازن الطبيعة.

❋ ❋ ❋

٧٨٤ – مفهوم ٤٥: الفساد في الأرض حالة اجتماعية:

إذا حصل الفساد في الأرض يصبح حالة اجتماعية، ويخرج عن سمة الفردية؛ بحيث يصعب قصر مسؤوليته على أفراد بعينهم، وإنما يشترك فيه الملأ والقيادات المسببة له، وعامة الناس تبع لهم لسكوتهم عنه وإقرارهم وعدم مقاومته؛ ولهذا فإن العقاب الإلهي عليه يكون عامًّا وشاملًا، ولا يقتصر على أحد دون أحد؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

مفاهيم في

التربية والأسرة

مفاهيم في التربية والأسرة

أولاً: مفاهيم حول الغاية من التربية:

٧٨٥ – مفهوم ١: الغاية الرئيسة للتربية:

غاية التربية الإسلامية الرئيسة هي تحقيق العبادة الحقة لله تعالى؛ تلك العبادة التي تشمل كل حياة الإنسان ومتجهاته؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

* * *

٧٨٦ – مفهوم ٢: إدراك حقيقة الدنيا:

النفس البشرية إذا التصقت بالأرض وخضعت لجواذبها رأت الحياة الدنيا ضخمة جدًّا وحَرِيَّة أن يعيش لها الإنسان كل لحظة من لحظات حياته، لكن إذا ابتعدت النفس عن الالتصاق بالأرض وسمَتْ فوقها، وتأملت فيما وراءها، رأت الدنيا على حقيقتها: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران:١٨٥]، وأدركت حينئذ أنها لا تساوي شيئًا في مقابل حياة الآخرة: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة:٣٨].

* * *

٧٨٧ – مفهوم ٣: تحرير الإنسان:

إن مما تهدف إليه التربية الإسلامية: تحرير الإنسان بمفهومه الشامل؛ فهو تحرير من كل عبودية غير العبودية لله الحق، تحرير من كل القيم الزائفة والعوائق التي تعيق رفعة البشرية وتقدمها ونماءها. فحين يتحقق هذا التحرر يحس المرء بنفسه قوة هائلة فاعلة، لا تتقيد بشيء غير الحق، ولا تخضع إلا لما أمرها به خالقها، وعندها تنشئ هذه القوة في واقع الأرض نظامًا يحقق منهج الله. بينما يسعى دعاة تحرير الإنسان المعاصرين إلى انفلاته من القيود الإنسانية، فيصبح بتحرره هذا أشبه بانطلاق الحيوان وراء رغباته البهيمية.

٧٨٨ – **مفهوم ٤: تكوين الإنسان الصالح:**

عملية تكوين الإنسان الصالح هي التزكية التي وردت ضمن ما امتن الله به على المؤمنين ببعثه الرسول ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]. قال ابن عاشور: التزكية: التطهير؛ أي يطهِّر النفوس بهدي الإسلام.

فحين تسعى التربية الإسلامية إلى ذلك فهي لا تجرده من إنسانيته، بل تنشئه شخصًا إنساني النزعة؛ يفيض قلبه بالعطف على بني الإنسان بكل ما فيهم من الضعف البشري؛ فهو حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد في سبيل الله –وتلك سمة لازمة من سماته– يصنع ذلك لأنه يحب للناس الهدى والخير، ويقوم بذلك حبًّا لله وتعبدًا، لا لأنه يريد أن يتسلط عليهم ويسوقهم أمامه ليطيعوه.

وهو إنسان متوازن لا يندفع مع نزوة طارئة؛ لأن عقله يرده عن الاندفاع؛ إنه في الجملة إنسان يعيش بأقصى طاقته في عالم الواقع، ويحاول في الوقت ذاته أن يحقق المثال، ولا انفصال في ذاته ولا في عالمه بين الواقع والمثال.

* * *

ثانيًا: مفاهيم حول خصائص منهج التربية الإسلامية:

٧٨٩ – **مفهوم ١: من أهم خصائص منهج التربية الإسلامية:**

من أهم خصائص هذا المنهج أنه منهج رباني فريد ومتميز عن كل مناهج الأرض؛ فهو فريد في شموله لكل دقيقة من دقائق النفس البشرية، وكل فكرة، وكل شعور، وكل توازن.

وهو فريد في أثره في واقع الحياة؛ فقد أثمر أمة عجيبة في التاريخ، أمة أنشأها النبي ﷺ بإذن ربه في ثلاث وعشرين سنة فقط، لتنطلق بعدها فتفتح الأرض وتعمرها وتقيم مثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، فتنشر الهدى والنور في بقاع المعمورة، وتنشئ الحياة بإذن ربها من جديد.

* * *

٧٩٠ - **مفهوم ٢: القاعدة الأساس للتربية في المنهج الإسلامي:**

هذه القاعدة هي: المحبة لله والرسول، والتلقي عنهما؛ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١]، ونبذ التلقي من أي مصدر يخالف في أوامره وتصوراته ما يأمر به الله ورسوله. فكلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ هما مصدر التوجيه والتربية والتعليم.

* * *

٧٩١ - **مفهوم ٣: التربية على العقيدة علماً وعملاً:**

- التربية العلمية على العقيدة تكون بمُدارستها ومعرفة ما يضادها من الشرك وغيره.
- والتربية العملية تكون بالتذكير الدائم بما درسه المرء من ثوابت العقيدة، والتذكير بالعمل بها واللجوء إليها عند وقوع الأحداث والنكبات؛ سواء على مستوى الأمة أو على مستوى الأفراد.

* * *

ثالثًا: مفاهيم حول موضوعات التربية الإسلامية:

موضوعات التربية الإسلامية عديدة ومتنوعة؛ ومن أهمها:

٧٩٢ - **مفهوم ١: التوازن:**

التوازن سمة من سمات الإنسان الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:١٤٣]؛ أي: متوازنون ووسط بين الإفراط والتفريط في كل شيء، وكل ما تقومون به من نشاط؛ كالتوازن بين طاقة الجسم، وطاقة العقل، وطاقة الروح، والتوازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته، والتوازن بين ضروراته وأشواقه، والتوازن بين العلم بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي لا تدركه الحواس، والتوازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، والتوازن في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ وهو توازن وفق هدي الله وشرعه.

* * *

٧٩٣ – مفهوم ٢: المساواة والتفاضل وحقيقة كل منهما:

المساواة المطلقة مستحيلة شرعًا وعقلًا، أما المساواة فيما يمكن فيه ذلك فحق وعدل. والذي يبين ما تجب فيه المساواة وما لا تجوز هو الشرع؛ فالمساواة في الحرية والعدالة وسائر الحقوق العامة والواجبات العامة محفوظة ومصونة بالشرع، وما سوى ذلك مما يجري فيه التفاضل فمعياره يكون حسب نوعه:

- فمعيار **التفاضل عند الله** تعالى هو التقوى؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال ﷺ: **(ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم...)** [أخرجه البيهقي في الشعب (٥١٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٧٠٠)].
- وأما **التفاضل في الوظائف** والمناصب فينبغي أن يكون معياراه: الكفاءة، والأمانة؛ ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[القصص:٢٦].
- وأما التفاضل في الأرزاق، والغنى والفقر، والفهم والإدراك، وسائر الأمور القدرية فيجري وفق إرادة الله القدرية وحكمته: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾[الزخرف:٣٢]، وقال الله تعالى حكاية عن أحد أنبيائه في وصف طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[البقرة:٢٤٧].

وبهذه المساواة الإسلامية أُبطِل التفاخر بالأنساب، وعُدَّ من أمور الجاهلية، وأصبحت القومية دعوى جاهلية، بينما لا يزال الناس في العالم يعانون من وطأة التفرقة العنصرية.

❊ ❊ ❊

٧٩٤ – مفهوم ٣: القوة:

قال ﷺ: (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير...**) [أخرجه مسلم (٢٦٦٤)]. وهذا لفظ عام يشمل كل قوة خيِّرة؛ فيتناول القوة العسكرية، والقوة البدنية، والقوة في العلم والفهم والإيمان؛ قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:١٢]. ويتوسع هذا المفهوم ليشمل مجالاً قد لا يخطر على بال المرء: قوة التحكم في النفس والسيطرة عليها عند الغضب؛ قال ﷺ: (**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**) [أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)].

❊ ❊ ❊

٧٩٥ – مفهوم ٤: النظرة للضعفاء في الإسلام:

يُقدِّر الله على بعض الناس الضعف في مجال ما لحكمة يعلمها سبحانه؛ فتجد أحدهم كفيفًا مثلاً، وتجد آخر معاقًا ذهنيًا، وثالثًا فاقدًا لأحد أو بعض أعضائه، أو فقيرًا مُعدمًا، أو مريضًا زمِنًا...إلخ. ولهؤلاء في الإسلام قيمة معنوية عظيمة كما قال ﷺ: (**إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**) [أخرجه الترمذي (١٧٠٢)، وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢١٧٣١)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٧٧٩)]، بينما نرى هتلر يتخلص من الجرحى الألمان لأنهم يكلفون بعلاجهم دون أي جدوى مادية، وعلى شاكلته آخرون يرون كذلك أن الضعفاء يستوجبون الموت، ويسمون ذلك القتل الرحيم.

ثم إن مَنْ ظاهره الضعف أو الإعاقة في حاسة ما قد تكون لديه مزايا أخرى لا يحصلها كثير ممن ظاهره السلامة؛ فكم من عالم فقيه، أو قارئ من مشاهير القراء كان كفيفًا!

❊ ❊ ❊

٧٩٦ – مفهوم ٥: الموت المعنوي والجزئي:

معلوم أن الموت هو فقد الحياة، ولكن الإسلام يوظف هذا المعنى ويفيد منه في حقائق عدة:

– فيجعل الضلال وترك الهدى والحق موتًا، والهداية حياة ونورًا؛ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا

فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[الأنعام:١٢٢].

- وذِكرُ الله حياةٌ والغفلة عنه موت؛ قال ﷺ: (**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**) [أخرجه البخاري (٦٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٧٧٩) بلفظ مقارب].

- والنوم يسمى الموتة الصغرى، ويستدل به على البعث بعد الموت؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزمر:٤٢].

* * *

٧٩٧ - مفهوم ٦: الغريزة الجنسية:

ينظر الإسلام إلى الغريزة الجنسية نظرته إلى سائر الغرائز التي خلقها الله في النفس البشرية؛ فقد خُلِقَتْ هذه الغريزة لتعمل لا لتُكبت أو تُعطَّل؛ فذلك مستنكر كما قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[الحديد:٢٧]، وقال ﷺ: (**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**) [رواه البخاري (٥٠٦٣)]؛ فالإسلام لا يحرم هذه الغريزة ولا يكبتها، وإنما هو فقط:

- يُهذِّبها ويوظفها فيما جعلت له؛ وهو الزواج والتناسل.

- ويجعلها مشاعر مودة ورحمة لا مجرد نزوة بهيمية كنزوة الحيوان الهائج؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم:٢١].

- هو لا يستقذر الجنس، ولكنه لا يطلقه من عنانه ليستعبد الإنسان بالشهوة، بل يضبطه بتشريعات توجهه وجهته الصحيحة؛ فيحرم الزنا، ويأمر بغض البصر سدًّا للذريعة وحفظًا للفرج منه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور:٣٠-٣١].

- ويرشد من لا يقدر على تكاليف الزواج إلى الصيام لتهذيب نفسه وضبطها إلى حين يقدر

على تصريفها في الوجهة الحلال؛ قال ﷺ: **(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاء)** [أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠)].

* * *

٧٩٨ – مفهوم ٧: الجاهلية:

ليست الجاهلية مرحلة زمنية كان عليها العرب قبل الإسلام، أو أنها ضد العلم والثقافة؛ بل هي حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدي الله، وحالة مؤسسية أو مجتمعية ترفض الحكم بما أنزل الله؛ فهي مرض عضال يقع في أي زمان، ولها مسائل معلومة من تشبَّه فيها بعرب الجاهلية أو غيرهم من أهل الجاهلية المعاصرة أصابه الداء، ومن ذلك أيضًا: التنابز بالألقاب والعصبية والعنصرية المقيتة؛ فكل ذلك من الجاهلية؛ فلما نزغ الشيطان بين أحد المهاجرين وأحد الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، غضب رسول الله ﷺ وقال: **(ما بال دعوى جاهلية؟!)**، وقال: **(دعوها فإنها منتنة)** [أخرجه البخاري (٤٩٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٤)]، هذا والطائفتان أفضل الناس بعد الأنبياء، فما بالك بمن دونهم! ويدخل في ذلك التعصب لجنسية، أو لقبيلة، أو قومية، أو فريق رياضي ...إلخ، حتى ترى أحدهم ينصر مواطنه –ولو كان كافرًا– على أخيه المسلم من غير وطنه.

* * *

٧٩٩ – مفهوم ٨: التشبُّه:

ومن الجاهلية: التشبه بالكفار، وأعظمه اتباع آرائهم ونظرياتهم المضادة لشرع الله، والله تعالى يقول: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]. وهذا لا يعني عدم الاستفادة من علومهم في أمور الدنيا بما لا يضاد الشرع.

ومن التشبُّه بالكفار: اتباع عوائدهم ورسومهم وعاداتهم الاجتماعية، والاحتفال بأعيادهم. وقد نهى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن رطانة الأعاجم –أي التحدث بلغتهم– وقال الإمام أحمد: «الكلام بغير العربية لغير حاجة نفاق»، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في

الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»؛ فمن ذلك: التشبُّه بالغربيين في حلق اللحية، وفي قصات الشعر، وفي الموضات التي تلهي الناس في الحياة الدنيا وتصرفهم عن الاهتمام بمعالي الأمور وما يمكنهم من ريادة العالم.

* * *

رابعًا: مفاهيم حول طبيعة المتربي:

٨٠٠ - مفهوم ١: حقيقة الإنسان:

الإنسان -كما خُلِقَ أبوه آدم عليه السلام- قبضة من طين ونفخة من روح الله:

- فإذا أخلد إلى الأرض ولصق بالطين استعبدته الشهوات وعجز عن تحقيق كيانه الكامل، لذا فإن الإسلام -كما أسلفنا- لا يترك الإنسان لشهواته، ولكن في الوقت نفسه لا يكبتها ويبدد طاقاتها، وإنما يضبطها وينظفها ويهذبها.
- أما إذا أهمل المرء طبيعته الطينية والتفت إلى الروح فقط وقع في الرهبانية المحظورة: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[الحديد:٢٧]، وانفصل عن واقع الحياة، وقصَّر في أداء الدور المنوط به لعمارة الأرض.

ولهذا فإن الإسلام يعالج النفس البشرية على أنها: جسم وعقل وروح ممتزجة ومترابطة في كيان واحد، لا ينفصل عمل أحدها عن الأخريين، وبهذا المزج تتحدد سمات الإنسان الصالح، وبه يُضمن شيئان معًا في آنٍ واحد:

أ - استغلال طاقات الإنسان كلها في عمارة الأرض وعدم إهمال أيٍّ منها.

ب - حدوث التوازن داخل النفس وفي واقع الحياة سواء بسواء.

* * *

٨٠١ - مفهوم ٢: الواقعية المثلى:

الواقعية المُثلى التي يربي الإسلام بها الإنسان هي التي تنظر إلى طبيعته السابق بيانها، ثم تهتف به دائمًا نحو الصعود إلى المعالي، وتكلفه محاولة بلوغ الكمال الذي يقدر عليه.

والطريق الواقعي لتربيته ومعالجته هو رسم الصورة المتكاملة أمامه، وتدريبه دائمًا على الصعود إليها والدنو منها بكل طريق ممكن وكل جهد مستطاع.

٨٠٢ - مفهوم ٣: للإنسان طاقتان: حسية ومعنوية:

- فالطاقة الحسية هي طاقة الجسد المتصلة بالحواس والأعصاب ووظائف الأعضاء.
- والطاقة المعنوية لا يدري أحد على وجه التحديد مكانها ولا ماهيتها، ولكنها تُعرف بأنها: التفكير التصوري الذي يدرك الكليات، والمعنويات، والقيم العليا مثل: العدل، والحق، والفضيلة، والجمال، ...إلخ.

ويتشارك الإنسان مع الحيوان في الطاقة الحسية، بينما تميزه عنه الطاقة المعنوية التي لا يمتلكها الحيوان؛ فهي تُعدُّ إذًا طاقة إنسانية بصفة خاصة.

والعالم المعاصر -الذي يقوده الغرب مع الأسف- لا يستغل هذه الطاقة المعنوية إلا في مجال واحد: مجال (**العلم الدنيوي**) بنظرياته وتطبيقاته المتعددة. وهذا بلا شك مجال ضخم يفتح آفاقًا متجددة هائلة نحو التقدم المادي والرفاهية، ولكن مجال هذه الطاقة المعنوية أوسع بكثير من ميدان العلم الدنيوي؛ فهو يشمل كذلك أرفع جوانب الإنسان: العقيدة، والفضائل، والأخلاق، والقيم الأخرى العديدة؛ ولا بد من طَرْقِ كل هذه الجوانب وإعمال هذه الطاقة فيها بصورة صحيحة ومنضبطة حتى ينضبط التطور العلمي الدنيوي، وحتى ينضبط السلوك الإنساني في الحياة الدنيا بوجه عام.

* * *

٨٠٣ - مفهوم ٤: بين الفردية والجماعية:

تقوم **الرأسمالية** الغربية على أساس فردية الإنسان؛ فتُوسِّع له حدود فرديته وتترك له حرية التصرف في كثير من الأمور، حتى يصل إلى حد إيذاء الآخرين وإيذاء نفسه، وتُطلق له عنان الشهوات والأهواء فيحطم القيم والأخلاق، ولا يعترف بحقٍّ لأحد في توجيهه وضبط تصرفاته.

وتقوم **الشيوعية** في الشرق على أساس جماعية الإنسان؛ فتُوسِّع في دائرة الجماعة والدولة، وتحجر على النشاط الفردي؛ فتمنع أي حرية فردية سواء في التملك أو الوظيفة أو العقيدة، ...إلخ.

أما الإسلام -دين الفطرة- فإنه يُقِرُّ للإنسان بكلٍّ من فرديته وجماعيته، ولا يعُدُّهما

نزعتين متناقضتين، بل فطرة الإنسان أنه فرد داخل في المجموع؛ أصيل الفردية، أصيل في الميل للمجموع. والإسلام يعالج تلك النزعتين باعتبارهما أصيلتين، ويجعلهما متساندتين تُكمِّل إحداهما الأخرى ولا تنازعها.

❋ ❋ ❋

٨٠٤ - مفهوم ٥: إدراك الطفل:

نحسب أن الطفل كائن صغير لا يدرك ولا يعي، ولكنه في الحقيقة ذو قدرة فائقة على الإدراك والالتقاط -الواعي وغير الواعي- وهي قدرة أكبر مما نظن بكثير؛ فحتى لو لم يدرك الطفل ما يراه بصورة متكاملة إلا أنه يتأثر بكل ما يراه ويحسه من حوله؛ فلديه جهازان شديدا الحساسية: جهاز الالتقاط، وجهاز المحاكاة، وبمجموعهما يلتقط بغير وعي، أو بوعي غير كامل، ثم يقلد ما يلتقطه أيضًا بغير وعي أو بوعي غير كامل.

فالطفل وإن كان لا يدرك ما ندركه نحن الكبار من معاني القيم والمبادئ إلا أنه يُنشئ في نفسه -بطريقة ما- قاعدة تنبني عليها تلك المبادئ في المستقبل؛ فإذا كانت القدوة حسنة فستكون القاعدة سليمة، وهناك أمل راجح بإذن الله في صلاح الطفل، وإن كانت القدوة سيئة فستكون القاعدة التي ينشئها الطفل مضطربة ومعوجة، وهناك احتمال أرجح لفساده.

❋ ❋ ❋

خامسًا: مفاهيم حول المربي وخصائصه:

٨٠٥ - مفهوم ١: القيادة موهبة:

لا يكفي المربي أن تكون لديه قدرة على المتابعة والاهتمام بالمتربي، بل لا بد له مع ذلك من ملكة قيادية مطمئنة للمتلقي من دون تسلط.

وعليه، فوجود القيادات التربوية فرض كفاية على الأمة، وربما تعيَّن -كسائر الفروض الكفائية- على من كان لديه أصل موهبة القيادة، وحينئذ لا بد له من تعاهد نفسه وصقلها بمهارات الإدارة والقيادة، ومن ثَمَّ توظيف ذلك في تربية الأمة أفرادًا وجموعًا.

❋ ❋ ❋

٨٠٦ – **مفهوم ٢: التربية بالقدوة:**

من آكد وأهم خصائص القائد المربي: القدوة الحسنة؛ فهي أنجع الوسائل جميعًا في العملية التربوية، وأكبرها أثرًا في النجاح.

وإذا كانت شخصية الرسول ﷺ هي القدوة العظمى فهي قدوة يستطيع المسلم أن يحققها في الواقع بقدر ما يستطيع أن يقبس منها، وبقدر ما يصبر على الصعود إلى المعالي؛ فقدوته ﷺ ليست مجرد خيال تهيم في حبه الأرواح دون اقتداء عملي.

* * *

٨٠٧ – **مفهوم ٣: الخصال الضرورية للمربي:**

إذ تبيَّن مما سبق أن القيادة والقدوة الحسنة هما من الخصال الضرورية للمربي فإننا نستطيع أن نضيف إلى ذلك ما يأتي:

أ – أن تكون شخصية المربي في العلم والحكمة وسداد الرأي أكبر من شخصية المتلقي؛ ولا يشترط أن يكون أكبر منه في العمر، وإن كان لكبر السن غالبًا أثر أيضًا في قبول المتلقي، ولكن باعتباره عنصرًا داعمًا ومساعدًا على القبول وليس شرطًا فيه.

ب – أن يكون عند المربي ما يعطيه للمتربي.

ج – أن يحسن المربي في طريقة عطاء ما لديه.

د – أن تكون لديه القدرة على الاهتمام بمن يربيهم، ومتابعتهم وتوجيههم بصفة مستمرة.

هذه الخصال يحتاج المربي إلى أن يحققها مع من يربيه؛ سواء كان هذا المتربي طفلاً صغيرًا أو أمة متكاملة، ولكن شتان ما بين هذا وتلك في الحاجة لهذه الخصال في مربيه؛ فكلما زادت رقعة التربية وزاد عدد المتربين كانت الدرجة المطلوبة من هذه الخصال أكبر وأعمق.

* * *

٨٠٨ – **مفهوم ٤: المدرس المسلم:**

المدرس المسلم هو في الحقيقة مُربٍّ للتلاميذ إلى جانب كونه معلمًا لهم في تخصصه العلمي الذي يدرسهم إياه؛ لذا يجب عليه أن يتحلَّى بما ذكرناه من خصائص المربي، ويمارس الإسلام حقيقة، ويتخلَّق بخلق القرآن في سلوكه وتعامله، ومظهره وسمته، وسائر شأنه، ويلزمه لتحقيق ذلك أن يكون عليمًا بمبادئ الإسلام وقيمه ومفاهيمه.

٨٠٩ - **مفهوم ٥: المدرسة الإسلامية:**

المدرسة الإسلامية باحتوائها على المدرسين المسلمين ينبغي أن تكون بمثابة (**معمل تفريخ**) ينشئ الأجيال المسلمة التي تعرف دينها وتحبه وتعمل به؛ تعرف سعته وشموله وتكامله، وتعيشه وتمارسه في عالم الواقع. وواقع مدارس اليوم بخلاف ذلك؛ حيث تربط الطلاب والأجيال بالرغبة في تحصيل الشهادات والوظائف للمنفعة الدنيوية فقط.

* * *

٨١٠ - **مفهوم ٦: المرأة المربية:**

من وظائف المرأة الأساسية في الإسلام: تربية الأطفال. لذا فهي مكلفة برعاية القيم والمبادئ الإسلامية ونشرها في المجتمع.

كما أنها تمنح الطفل حاجته الفطرية إلى الحب والحنان والرعاية التي يحتاجها كيما ينشأ نشأة سوية تتوازن فيها نفسه. ولا يستطيع أحد غير الأم أن يمنح ذلك للطفل.

وهذا كله يفرض عليها أن تكون ذات معرفة بالدين، وذات خبرة بأحوال المجتمع، ومدربة على التعامل معه؛ فتدرس ما يعينها على ذلك ويحقق لها هذه المعرفة والخبرة؛ فالمرأة أم متخصصة إلا في حالة الضرورة القاهرة التي يندر حدوثها في المجتمع المسلم.

* * *

سادسًا: مفاهيم حول طرق ووسائل وخصائص التربية:

٨١١ - **مفهوم ١: التربية مستمرة ولا تنتهي:**

من طبيعة النفس البشرية التقلب بين الطاعة والمعصية، والهداية والغواية؛ لذا فهي تحتاج إلى متابعة دائمة، ولا يكفي وضعها في قالب الهداية والطاعة مرة واحدة ظنًا أنها ستنضبط بعدها إلى الأبد، بل هي دائمة التخطي لحدود القالب المضبوط مرة تلو أخرى، فلا بد في كل مرة من توجيه لإعادة ضبطها. وبهذا تتبين مشقة عملية التربية وخطورتها وضرورتها المستديمة؛ فإما هذا الجهد الدائب وإما الضياع!

* * *

٨١٢ - **مفهوم ٢: هفوات المتربي بين التغاضي والغفلة:**

يصدر أحيانًا من المتربي بعض الهفوات التي يكرهها المربي، لكنه قد يتغاضى عنها إدراكًا منه أن استمرار التنبيه عند كل هفوة قد يحدث رد فعل مضاد من نفور المتلقي وشروده. ولا بأس بهذا التغاضي شريطة أن يكون عن الهفوات وليس السيئات البينات، وأن يكون بنية الموازنة بين الأوليات والتأجيل لحين نضج المتربي واستيعابه لمكمن الخلل في الهفوة.

كما ينبغي ألا يؤدي هذا التغاضي بحال إلى الإهمال والغفلة؛ فإهمال التنبيه ضار كالإلحاح فيه، وحكمة المربي هي التي تدله متى يَحْسُن التغاضي ومتى يَحْسُن التوجيه.

❋ ❋ ❋

٨١٣ - **مفهوم ٣: استعمال كل من اللين والحسم في التربية:**

اللين في موضعه ضروري، والحسم في موضعه كذلك ضروري بنفس القدر والمستوى، إنما المنهي عنه الفظاظة وغلظة القلب التي لا تأتي بخير؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩].

والحسم لا يعني الغلظة بحال، وإنما هو ثبات من المربي على القرار الصائب، وإصرار على تنفيذه، مع مراعاة حسن الطريقة واحتوائها على الرفق والحب. وما يحتاجه المربي هو البصيرة بمواطن اللين ومواطن الحسم على قاعدة دائمة من الحب.

❋ ❋ ❋

٨١٤ - **مفهوم ٤: التربية على ضبط الرغبات:**

ضبط الرغبات مَقْدِرَةٌ يتدرب الإنسان عليها، وعادة يعتادها، وكلما تدرب عليها وهو صغير كان أقدر عليها وأكثر تمكنًا منها، ويجدها حاضرة عند الحاجة إليها.

فلا يمكن للمسلم الدعوة إلى الله تعالى أو الجهاد في سبيله بغير ضبط شهواته ورغباته، حتى ولو كانت في دائرة المباح الذي لا إثم فيه في ذاته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤]؛

فكل ما ذُكِر في الآية هو في أصله مباح، ولكنه يصبح مُحَرَّمًا وإثمًا إذا تسبب في القعود عن واجب الدعوة والجهاد في سبيل الله.

وضبط الرغبات لا يعني الحرمان منها إن كانت مباحة، وإنما يعني تدريب النفس على الاستغناء عنها عند الحاجة إلى ذلك. وعلى هذا فيمكن للمربي أن يتعاهد المتربين بدورات يمنع عنهم فيها بعض رغبات النفس المباحة لفترة محدودة لتعويدهم على الاستغناء عنها عند الحاجة.

* * *

٨١٥ - مفهوم ٥: التربية بالعقوبة:

ليست العقوبة أمرًا مستنكرًا في ذاته ولا محرمًا، ولا ضارًا بكيان الفرد أو الطفل كما تزعم بعض مذاهب التربية في الجاهلية المعاصرة؛ فالنبي ﷺ أمر بتأديب الطفل على ترك الصلاة، فقال: (**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر**)[أخرجه أحمد (٦٧٥٦)، والبيهقي في سننه (٣٢٣٤)، وحسَّنه الأرناؤوط (تخريج المسند ١١/ ٣٦٩)، وصحَّحه أحمد شاكر (٦/ ٢٩٥)]، ولكن ما نحتاج إلى تقريره والتأكيد عليه ما يأتي:

أ- لا ينبغي أن تكون العقوبة -بشقيها: الحسي والمعنوي- أول ما يلجأ إليه المربي، إنما ينبغي أن يبدأ بالثواب، فإن لم يُجدِ ذلك نفعًا انتقل إلى العقاب، ويبدأ بالمعنوية قبل الحسية.

ب - تراعى الفوارق الفردية بين طفل وآخر، وتُقرَّر نوعية العقاب والجرعة اللازمة منه بحكمة؛ فهناك طفل يرى في الإعراض عنه عقوبة رادعة يتأثر لها وجدانه، فلِمَ تُتجاوز تلك العقوبة ويُذهب إلى غيرها؟! بل لم تُطيل عليه فترة الإعراض إن كان القليل منه كافيًا؟! وطفل آخر لا يرعوي إلا بالعقوبة الحسية، فهذا يستعمل معه ما هو ناجع له.

جـ- ينبغي أن يراعي المربي أن تكون العقوبة مناسبة للجرم أيضًا من حيث الكم؛ فلا تكون لديه جرعة ثابتة من العقوبة يستخدمها لكل حالة على السواء؛ فإن ذلك يُغري الطفل بارتكاب المخالفة الكبيرة ما دامت عقوبتها تماثل عقوبة الصغيرة.

د - كذلك الأولى التهديد بالعقوبة أكثر من إيقاعها بالفعل؛ لأن ذلك يحفظ رهبتها الدائمة في نفس الطفل، بخلاف كثرة إيقاعها الذي قد يورث اعتياد الطفل عليها وعدم خشيته منها.

٨١٦ – مفهوم ٦: التربية بالتوجيه والتلقين:

أ – **ضرورة التوجيه والتلقين**: لا تكفي القدوة وحدها في عملية التربية، ولا تفي بكل المطلوب فيها؛ فالرسول ﷺ وهو القدوة العظمى للبشرية لم يكتف بسلوكه في تربية أصحابه، بل كان دائم التوجيه والتلقين لهم حتى تكونت ثروة هائلة من الأحاديث التي أضحت أحد المصدرين الرئيسين للتشريع، كما أن القرآن الكريم كله توجيه وتلقين. فلا بد في التربية من الجمع بين القدوة والتلقين.

ب – **مصدر التوجيه والتلقين**: تبين من النقطة السابقة أن مصدر التوجيه والتلقين ينبغي أن يكون: الكتاب والسنة، وعليه فلا نأخذ توجيهاتنا لأطفالنا في القيم أو التصورات أو الأخلاق وأنماط السلوك من الجاهلية المحيطة بنا في كل الأرض.

وليس معنى ذلك أن نغلق عقولنا عن تجارب البشرية المفيدة؛ فـ(**الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها**)[أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)]، ولكن المقصود أن نحذر أن تفتننا الجاهلية عن ما أُنزل إلينا أو عن بعضه؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩]. فمؤدى ذلك ألا نستقي الأصول إلا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما التطبيقات -أي طريقة التنفيذ والأداء- فلا بأس باقتباس أي طريقة أو أسلوب نافع ما دام لا يتعارض مع الأصول المستمدة من الكتاب والسنة، مع يقيننا الجازم أن الجاهلية لا تملك من ناحية الأصول إلا أمرين: إما قيمًا ومبادئ مشابهة لما في الإسلام فلنأخذها إذًا من مصدرها الرباني الأصيل، وإما قيمًا مخالفة للإسلام فلا يمكن بحال أن يتحقق منها الخير وإن بدت للوهلة الأولى لامعة براقة.

❋ ❋ ❋

٨١٧ – مفهوم ٧: توجيه الطاقات والعواطف:

يوجه الإسلام طاقات الإنسان وانفعالاته وعواطفه المتعددة وجهتها الصحيحة، ويفرغها في مجالها المطلوب لتؤتي ثمارها؛ فإذا تجمعت مثلاً طاقة الكره لدى الإنسان -وهي طاقة فطرية- فإن الإسلام يوجهها إلى كره الشيطان وأعوانه، وإلى كل شر ينشئونه،

وكذلك يفرغ الإسلام طاقة الحب في حب الله، وحب المؤمنين والخير والحلال.

وقل مثل ذلك في سائر الطاقات؛ كالجهاد، والزرع، والإنتاج والتعمير؛ حيث يفرغ الإسلام ذلك كله في فعل الخير، وهدم الباطل، فيحفظ النفس بذلك من أن تحرفها طاقاتها وتصيبها بالاضطراب والشرور.

* * *

٨١٨ – مفهوم ٨: ربط التعليم بالتربية:

العلم المجرد من التربية وتزكية النفس يصبح حجة على صاحبه أكثر من أن يكون نافعًا، بل ربما جرَّ صاحبه إلى الإفساد في الأرض بدلاً من إصلاحها. فلذلك ينبغي أن يربط الطلاب في مراحل التعليم بالأهداف العالية النبيلة، ويُجَنَّبوا الغايات الهابطة وتوافه الأمور.

فينبغي أن تُعدَّ مناهج التعليم وفق هذه الرؤية، خاصة في مجال ما يُسمَّى بالعلوم النظرية؛ كعلوم: التاريخ، واللغة، والأدب، والتربية؛ ففي التاريخ مثلاً يُدرَّس الطلاب سير أبطال أمة الإسلام وتُبرز مواطن القدوة في سيرتهم، ويُذكر أهل الشر مع بيان مكامن شرورهم وانحرافاتهم وآثارها السيئة على الأمة من باب التبصير بسبيل المجرمين.

* * *

٨١٩ – مفهوم ٩: التربية الجماعية:

رغم أن التربية الفردية لها أهميتها ودورها في إعداد الأفراد المتميزين، إلا أنها لا تكفي أبدًا وحدها، بل لا بد من التربية الجماعية، أو تربية الفرد داخل مجموع؛ لأن النفس البشرية -كما بيَّنا في طبيعة المتربي- لها نزعتان أصيلتان: نزعة فردية، وأخرى جماعية؛ فهو فرد في مجموع، وعلى هذا فلن ينشأ الفرد نشأة سوية إلا إذا راعينا ما فيه من الجوانب التي لا تنضج ولا تعمل إلا داخل جماعة فيها أفراد آخرون؛ فالمدرسة وما فيها من أنشطة طلابية نوع من التربية الجماعية، وكذلك حلقات التحفيظ في المساجد، وما يصاحب ذلك من رحلات ومعسكرات تربوية نوع من التربية الجماعية يتدرب فيها المتلقي على التعايش الصحيح مع الآخرين، وكيفية التعامل الإيجابي معهم، وتكوين الأهداف المشتركة، وتحقيق العمل الجماعي الذي يثمر كثيرًا في مجالات لا يمكن تحقيقها من خلال العمل الفردي.

٨٢٠ - مفهوم ١٠: البيئة المؤثرة في التربية:

يتأثر الطفل أو المتربي عمومًا بالبيئة من حوله؛ فيؤثر فيه كل من البيت والشارع والمدرسة والمجتمع، فإذا أردنا أن تكون العملية التربوية ناجحة ومثمرة فلا بد من أن يكون لدينا البيت المسلم، والشارع المسلم، والمدرسة المسلمة، والمجتمع المسلم؛ والإعلام الإسلامي.

* * *

سابعًا: عوائق ومحاذير في التربية:

٨٢١ - مفهوم ١: تناقض البيئات المؤثرة في التربية:

إذا كان عامل واحد من عوامل البيئة المؤثرة -كالبيت مثلاً- إسلاميًّا، وسائر العوامل جاهلية -كالشارع أو المدرسة أو الإعلام أو المجتمع- فستصعب العملية التربوية، وستحتاج من المربي جهدًا مضاعفًا لإزالة آثار هذه الجاهلية. وتلك معضلة بلا شك؛ فإن حجزت الطفل عن المجتمع فستشيع الكساح في كيانه النفسي، وإن أطلقته فسيأتي إليك كل يوم موحلاً بالأقذار! فما العمل؟

قد تفلح في الإقلال من الاختلاط بهذا المجتمع نوعًا ما، ولكن لا خيار عن العيش فيه والتعامل معه، ولا حلول سحرية؛ لا بد من الاختلاط الضروري مع الغسيل اليومي الشاق والمرهق للمربي والطفل في آن واحد، وقد يفلح هذا الغسيل تمامًا وقد لا يفلح، ولكنه على كل حال سيخفف أدران هذه الجاهلية ويمحو شيئًا من آثارها في نفس الطفل.

وقد يجد الطفل نفسه حائرًا بين قيمك ومفاهيمك الإسلامية التي تنشئه عليها، والسلوك الجاهلي المنحرف السائد في المجتمع، وليس على المربي حينئذ إلا بذل الجهد المضاعف لإزالة هذه الآثار السلبية قدر المستطاع: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، ثم الدعاء المكثف أن يحفظ الله النشء من الضلال والفتن، ويهديهم الصراط المستقيم.

* * *

٨٢٢ – مفهوم ٢: الفراغ:

يشكو كثير من الناس مما يسمونه وقت الفراغ، ويجعلونه شماعة يعلقون عليها ما يقعون فيه من ضلال ولهو باطل وفساد، ويقولون: ما لنا حيلة من ذلك لنقتل وقت الفراغ، وهم في الواقع يقتلون أنفسهم لا الوقت؛ فليس هناك في الحقيقة وقت فراغ، ولكنه فراغ النفس والقلب والروح، فراغ القيم والمبادئ العليا، فراغ الأهداف الجادة التي تشغل الإنسان حين يكون على هيئته الربانية التي أرادها الله منه: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤]، وصدق من قال: والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

ففي الإسلام، ومع التربية الجادة، لا توجد هذه المشكلة لأنه لا يمكن أن يوجد فراغ في قلب عامر بذكر الله، ولا في روح متعبدة لله، ولا في نفس مستقيمة على هدى الله.

* * *

٨٢٣ – مفهوم ٣: انشغال الداعية بالدعوة العامة عن تربية أهل بيته وأولاده:

إنك لتعجب حين ترى داعية نشيطًا وفاعلاً في العديد من مجالات الدعوة العامة، ثم تجده منشغلا بذلك عن أهل بيته ومن استرعاه الله عليهم؛ فلا يرونه إلا قليلاً، ولا يعرفون مما يدعو الناس إليه إلا النزر اليسير، مع أنه لا يجهل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم:٦]. وأولاده وأهل بيته هم أول من سيُسأل عنهم؛ قال ﷺ: **(كلكم راع ومسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته....)**[رواه البخاري (٢٥٥٨)، ومسلم (١٨٢٩)].

كما أنك تجد في الطرف المقابل من يهمل أمر الدعوة وطلب العلم والجهاد بحجة القيام بحقوق الزوجة والأولاد؛ فلا يدور إلا في فلكهم وطلباتهم.

والأمر وسط بين هذا وذاك، والموفق من وفقه الله ﷻ للموازنة بين واجبات الدعوة العامة وحقوق الأهل والأولاد خاصة؛ فالوسطية سمة من سمات هذا الدين العظيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾[البقرة:١٤٣].

* * *

٨٢٤ - مفهوم ٤: من مساوئ التربية الحديثة:

يوجد العديد من مساوئ النظم التربوية الحديثة، نذكر بعضها وأضرارها:

أ - جعل الطالب الذكي الموهوب مع الطالب الغبي البليد، بينما كانت التربية الإسلامية قديمًا تتيح للمواهب الفردية أن تنطلق وتتقدم إلى الحلقات الأعلى حسب مستوى تحصيلها بغض النظر عن عمرها. وقد حاول الغرب تجاوز هذه السلبية فأحدثوا نظام ترقية الطالب الموهوب إلى مرحلة أعلى.

ب - تسعى التربية الحديثة إلى إلغاء الحفظ وتذكر عيوبه، وتزعم أنه يقيد ملكة الإبداع والتفكير. وقد نوافق على بعض العيوب الناجمة عن الاقتصار على الحفظ وإهمال جانب التفكير، ولكن هذا لا يعني بحال إلغاء جانب الحفظ، وإنما نلغي فقط العيوب التي قد تصاحب التركيز عليه وإهمال الجانب الآخر.

جـ - تعتمد التربية الحديثة مبدأ التعليم بدءًا من الكل وانتهاء إلى الجزء. واعتمادهم في ذلك على أن المرء يبصر أولاً الصورة بإجمالها ثم يبدأ في التعرف على تفاصيلها؛ ولذا فهم يبدأون في تعليم اللغة بالجملة ثم ينتقلون منها إلى الكلمة ثم إلى الحرف. ونسوا أن هناك فرقًا كبيرًا بين الصورة واللغة؛ فالصورة أمر مرئي يدرك بحاسة البصر التي تدرك الكليات قبل الجزئيات، بينما اللغة تعتمد على السمع الذي يدرك الصوت الذي أصله الجزء لا الشيء المركب، ولهذا لو سمع أحد كلامًا بلغة لا يعرف عنها شيئًا فلن يفهم المسموع ولن يدركه، فإذا ما بدأ يتعلم حروف اللغة وركب بعضها إلى بعض أمكنه التعرف على ما يسمعه شيئًا فشيئًا، حتى يدرك المعاني بعدها ويفهم اللغة ومدلولاتها.

وتعليم اللغة في الحضارة الإسلامية يعتمد الحرف ثم الكلمة ثم الجملة، بل إنه يُعلِّم الطفل الحرف بحركاته المختلفة أولاً، فيبرع الطفل في فهم لغته بتفاصيل حروفها مع حركاتها، وانظر إلى من يدرسون (القاعدة البغدادية) أو (القاعدة النورانية) كيف يتفوقون على الآخرين ويتعلمون اللغة بسرعة فائقة.

❊ ❊ ❊

ثامنًا: مفاهيم حول الزواج والأسرة:

٨٢٥- مفهوم ١: الزواج في الإسلام وأغراضه:

في الإسلام ليس الزواج مجرد علاقة بهيمية غريزية بين الرجل والمرأة كالعلاقة بين إناث وذكور جل الحيوانات، أو حب وعشق دون ضوابط ونظم محكمة كما يشيع اليوم في بلاد الكفر، بل هو رباط مقدس بين الزوجين، وله أهداف نبيلة وأغراض سامية، وأهم ذلك:

١- إحصان كلٍّ من الزوجين وإعفافهما بطريق منظم حلالٍ شرعًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤]، وفي آية أخرى: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٍ﴾ [المائدة:٥]، والخدن هو الزنا مع العشيقات. وسُمِّيَ الزواج إحصانًا -أي وقاية وصيانة- لما يترتب عليه من إعفاف كل من الزوجين بعضهما لبعض. وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ [النور:٣٢]، وقول النبي ﷺ: (**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**) [رواه البخاري (١٩٥٠)، ومسلم (١٤٠٠) واللفظ له]؛ كل ذلك يقرر في نفوس المؤمنين أن العزوبية وعدم الزواج حال مؤقتة، على المرء أن يسعى لإنهائها وإزالة كل ما يعيقه عنه، ويصبح الزواج بذلك في عرف المؤمنين طاعة وقربة إلى الله تعالى.

٢- إنشاء الأسرة المسلمة التي تراعى فيها حقوق كلٍّ من الزوجين؛ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [النساء: ١]؛ فالزوجات مخلوقات من الرجال -لكون زوج آدم عليه السلام خلقت من ضلعه- فبينهم وبينهن أقرب نسب، وأشد اتصال، وأقدس علاقة؛ كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]؛ فهي صلة ملابسة نفس لنفس؛ ولذا فالأسرة المسلمة والبيت المسلم هو سكن تشيع فيه المودة والرحمة كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وهذا أروع تصوير وأدقه للعلاقة الزوجية وتكوين البيت المسلم. ولا يكتفي الإسلام بهذه الإيماءات والإشعاعات الروحية، بل يتبعها بالتنظيمات والتشريعات

الضامنة لحقوق كل منها.

٣ – تكثير نسل المسلمين، قال النبي ﷺ: **(تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم)** [رواه أبوداود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، وابن حبان (٤٠٥٦)، وأحمد من رواية أنس (١٣٥٩٤)، وصحَّحه أحمد شاكر (عمدة التفسير ١/ ٣٥٩)، والألباني (إرواء الغليل ٤ ١٧٨)].

❋ ❋ ❋

٨٢٦ – مفهوم ٢: القوامة:

أثبت الله تعالى للرجل في بيته القوامة على المرأة؛ فقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء:٣٤]، وليس في هذه القوامة إلغاء لشخصية المرأة في البيت ولا في المجتمع الإنساني كما يعتقد البعض جهلاً منه بما يريده الشرع منا، وإنما هي:

– أمر له أسبابه من التكوين والاستعداد الفطري؛ فالله ﷻ جعل من وظائف المرأة: الحمل والولادة والإرضاع وتربية الطفل، وتلك أمور ضخمة تحتاج رقة وعطفًا، وسرعة انفعال واستجابة عاجلة لمطالب الطفولة، وكل هذا هو من خصائص المرأة التي تتميز بها عن الرجل، فليس من العدل أن تكلف المرأة بجانب هذه الأعباء الضخمة بمسؤولية العمل والنفقة على منزل الزوجية وتدبير أمره، وهي أمور تحتاج خصائص ليست لديها، وإنما هي من خصائص الرجال؛ كالروية في التفكير ودراسة الأمور من جميع جوانبها، والقوة والحزم في القرارات؛ لذا كلفهم الله بكل ذلك وجعل لهم الريادة والقوامة في ذلك ليتمكنوا من أداء وظيفتهم المكلفين بها، فإذا اختل هذا الميزان وتبدَّلت الوظائف والمهام، أو استأثر بجميعها طرف دون الآخر دبَّ الخلاف بين الزوجين ولا بد، واضطرب البيت وكثرت مشاكله، وصدق الله تعالى القائل: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

– وهي أمر لا بد منه لأن البيت شأنه شأن أي مؤسسة لا بد فيها من قيِّم واحد تكون عليه مسؤولية إدارتها بعد التشاور والتفاهم مع شركائه فيها، وقوامته لا تلغي وجود الشركاء والعاملين في وظائفها ولا شخصيتهم.

- وهي حق للرجل يقابله واجب التكليف بالإنفاق على البيت وحمايته وتدبير أمره.

هي باختصار: قوامة يلازمها عطف ورعاية وصيانة، وآداب في السلوك مع الزوجة والأولاد، وهي علاقة تكاملية بين كل من الرجل والمرأة، فمن الضلال تحويل هذه العلاقة إلى علاقة تضاد ومناكفة.

* * *

٨٢٧- مفهوم ٣: تعدد الزوجات والعدل بينهن:

أباح الله للرجال تعدد الزوجات إلى أربع، وشرط لذلك العدل بينهن؛ قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء:٣]، والعدل المطلوب هو العدل في المعاملة والنفقة والعشرة، أما العدل في مشاعر القلوب والأحاسيس فلا يطالب به أحد؛ لأنه خارج عن مقدور الإنسان، وهو الذي قال الله عنه في الآية الأخرى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء :١٢٩]، فلا يحاولن أحد أن يتخذ من هذه الآية دليلاً على تحريم التعدد؛ فإن ذلك ضرب لآيات الكتاب بعضها ببعض، وتنزيل لها على غير ما أنزلت إليه، والنبي ﷺ هو خير مثال لتطبيق العدل بين زوجاته في النفقة والعشرة، ومع هذا فجميع زوجاته رضي الله عنهن يعرفن مدى حبه لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا وإيثارها بعاطفة قلبية خاصة ولا يلُمْنَهُ في ذلك.

* * *

٨٢٨ - مفهوم ٤: أهمية البيت والأسرة للطفل المسلم:

ينمو الطفل في البيت والأسرة المسلمة بتدرج، ويتلقى خلال ذلك رصيدًا كافيًا من الحب والتعاون والتكافل والبناء؛ يعايش حنان الأم وعطفها، وقوامة الأب ورعايته، ويلحظ ما بينهما من مودة ورحمة، فينشأ متوازنًا مستقيمًا سوي الفطرة والمشاعر.

أما الطفل الذي يحرم من هذا المحضن الطبيعي تكون نشأته شاذة غير طبيعية في كثير من جوانب حياته -مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية في غير محيط الأسرة- فأول ما يفقده: شعور الحب والحنان؛ لأن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه

فترة العامين الأولين من حياته التي يعتمد فيها أساسًا عليها، ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد. وأطفال الملاجئ ودور الأيتام يتشاركون في الحاضنة والمربية التي تقوم برعايتهم، بل تتعدد عليهم المربيات وتتناوب حسب وقت العمل المخصص لكل واحدة منهن، فينشأ عن ذلك اضطراب وخلل في فطرة الطفل، وربما حقد الأطفال بعضهم على بعض، كما يؤدي افتقاده للسلطة الواحدة التي تشرف عليه إلى اضطراب شخصيته وعدم ثباتها. وتجارب المحاضن العامة تكشف كل يوم عن الحكمة الأصيلة في جعل الأسرة هي اللبنة الأولى لبناء المجتمع السليم الذي يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس سليم يتسق مع فطرة الإنسان.

* * *

٨٢٩ - مفهوم ٥: الأسرة ورعاية حقوق الوالدين وسائر الأقارب:

في الأسرة المسلمة ينبغي أن يربى الأبناء على رعاية حقوق الوالدين وتعظيم قدرهما؛ حيث قرنت في الحث عليها والأمر بها بالأمر بعبادة الله وتوحيده: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء:٣٦]، بل لا يقتصر الإحسان عليهما فحسب -وإن كان مقدَّمًا على سائر أنواع الإحسان- وإنما يتعدَّى ذلك إلى سائر الأقارب والجيران، واليتامى والمساكين،...إلخ؛ فتتمة الآية: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]، ويشير آخر الآية إلى أن إهمال ذلك والتقصير فيه هو نوع من الفخر والكبر والاختيال.

ورعاية حقوق الوالدين لا تقتصر على حال العيش معهما في أسرة واحدة وبيت واحد، بل عندما يكبر الابن أو الابنة ويتزوج كل واحد منهما، وينفصلا عن الوالدين مكونين أسرة مستقلة، ويكبر الوالدان ويتقدما في العمر، عند تلك الحال يتأكد برهما ورعايتهما وعدم اهمالهما؛ قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٣ - ٢٤]، فلا ينشغل الابن عنهما بأسرته ومسؤوليته الجديدة.

٨٣٠ - مفهوم ٦: وظيفة المرأة المسلمة الرئيسة:

جعل الشرع وظيفة المرأة الرئيسة هي رعاية بيت زوجها؛ كما قال ﷺ: **(والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها)** [رواه البخاري (٢٧٥١)، ومسلم (١٨٢٩)]؛ فحقيقة البيت والسكن لا توجد إلا إذا أنشأته المرأة بنشر الحنان والعطف وحسن التربية فيه، بخلاف المرأة التي تعمل خارج البيت؛ حيث لا تنشر فيه إلا الإرهاق والكلال والملال.

وخروج المرأة للعمل خارج منزلها قد تبيحها الضرورة، ولكنها تتسبب في كوارث عدم السكن والاستقرار؛ وهو ما تعاني منه المرأة العاملة في الغرب الكافر، وفي مجتمعاتنا المعاصرة، فينبغي ألا تعمل المرأة خارج بيتها الا في حدود الضرورة والحاجة الملحة.

❊ ❊ ❊

٨٣١ - مفهوم ٧: أمن البيت والأسرة:

يتجه الإسلام إلى إشاعة السلام في البيت في ذات الوقت الذي يتجه فيه إلى الضمير الفردي، وإلى المجتمع الإنساني، فكلها حلقات متضامنة وبينها ترابط واتصال، ولإشاعة هذا السلام كفل الإسلام عدة أمور وحث على توافرها في البيت المسلم؛ فمن ذلك:

١ - لا بد أولاً لارتباط الزوجين أن يكون قائمًا على التراضي بينهما، وعدم إكراه أحدها عليه، خاصه المرأة، وقد قال ﷺ: **(لا تُنكح البكر حتى تُستأذن، ولا الثيب حتى تُستأمر)**، قيل: يا رسول الله، كيف إذنها؟ قال: **(إذا سكتت)** [رواه البخاري (٦٩٦٨)].

وحتى يكون الرضا حقيقيًّا لا بد من حصول رؤية كل منها للآخر قبل الزواج؛ قال ﷺ للمغيرة بن شعبة حين أراد الزواج: **(انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)** [رواه الترمذي (١٠٨٧)، والنسائي (٣٢٣٥)، وأحمد (١٨١٣٧)، وصحَّحه الألباني (الصحيحة ٩٦)].

٢ - لا بد أيضًا في الزواج من العلانية والإشهاد؛ فلا يتم في السر وكأنه جريمة، وكما يقع في زواج المتعة، ولا بد فيه من إيجاب وقبول صريحين يشهد عليهما الشهود حتى ينتفي أي شك في حقيقة هذا الارتباط.

٣ - كذلك لا بد في الزواج من نية التأبيد لا التأقيت، كي لا يكون زواج متعة ليس الغرض منه إنشاء أسرة مسلمة وبيت مسلم.

٤ - أكد الإسلام على مفهوم السكن والمودة والرحمة بين الزوجين [راجع المفهوم:٨٣٤].

٥ - خصَّ الرجل بحق القوامة ليتمكن من إدارة هذه الشراكة [راجع المفهوم:٨٣٥].

٦ - جعل وظيفة المرأة الرئيسة هي رعاية بيت زوجها [راجع المفهوم:٨٣٩].

٧ - حرم الإسلام التبرج والاختلاط كي لا تقع أي فتنة بين أحد من النساء والرجال، ومن هؤلاء النساء المتزوجات أو الرجال المتزوجين إذا تلاقوا مع من يسمون زملاء العمل من الجنس المغاير لكل منهما؛ فيجد الرجل من تسمى زميلة عمله متأنقة متبرجة متزينة، ولا يراها على حقيقتها وسجيتها في بيتها كما يرى زوجته، وقد قال تعالى للنساء: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وأمرهن بالحجاب، وأمر كُلاًّ من الرجال والنساء بغض البصر لمنع الفتنة بينهما.

وفي المقابل ينبغي على المرأة أن تتزين في بيتها لزوجها ولا تهمل نفسها؛ لتحصِّن زوجها ولكيلا ينفر منها وينظر إلى غيرها خارج نطاق الأسرة المشروع له.

٨ - جعل الشرع للبيوت حرمة، وأوجب الاستئذان قبل دخولها؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧].

٩ - نهى عن التجسس على البيوت والاطلاع على ما بداخلها من عورات؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢]، وقال ﷺ: **(من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه)** [رواه أبو داود (٥١٧١)، وصحَّحه الألباني (صحيح أبي داود ٤٢٨)].

١٠ - أمر بحفظ العورات حتى بين أفراد الأسرة الواحدة -ولو كانوا أطفالاً- ولم يستثن من ذلك إلا الزوجين بين بعضهما البعض؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:٥٨ - ٥٩].

١١ - أمر بالعدل بين الزوجات حتى تعيش الزوجة في أمان من الظلم [راجع المفهوم:٨٣٦]، والعدل بين الأولاد كذلك في العطية وغيرها؛ قال ﷺ: **(فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)** [رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣)].

١٢ - حتى الطلاق الذي ظاهره اضطراب السلام في الأسرة هو في حقيقته أمن وسلام عند استحالة العشرة بين الزوجين وتأثر الأولاد سلبًا بهذه العشرة المتأزمة، ولكن يشترط في هذا الطلاق حتى يكون أمنًا وسلامًا أن يُلتزم في إجرائه بالأحكام الشرعية؛ بأن يكون آخر دواء بعد محاولات الإصلاح بين الطرفين وإرسال حكمًا من كل طرف لمحاولة التوفيق بينهما، فإن لم يُجْدِ ذلك أخيرًا فلا بد حينها من الطلاق مع مراعاة المعروف بين الطرفين وأهليهما.

١٣ - وأهم من كل سبق لتحقيق أمن وسلامة البيت المسلم: الحفاظ على أمن العقيدة وحسن الأخلاق لأفراد الأسرة، وأمرهم بطاعة الله والوقاية من أسباب العقوبة في الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

* * *

٨٣٢ - مفهوم ٨: من منكرات البيوت:

مخالفة بنود المفهوم السابق - وبالأخص البند الأخير- كل ذلك يعد من منكرات البيوت، ويضاف إلى ذلك أمور انتشرت حاليًا في البيت المسلم، منها:

١- التساهل في صور ذوات الأرواح مما يوجد في المجلات المصورة-خاصة النسائية منها- وذلك مما يمنع دخول الملائكة للبيت ويمنع مباركته؛ قال ﷺ: **(لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا تصاوير)** [رواه البخاري (٥٩٤٩)، ومسلم (٢١٠٦)].

٢- إدخال التلفاز غير المشفر إلى البيوت، مع ما فيه من شر مستطير وإثم كبير يغضب الله ﷻ، وكم فتن أفراد من الأسر -ذكورًا وإناثًا- بسبب هذا الشر العظيم وضاعوا وانحرفوا، فليتق الله رب الأسرة، وليعلم أنه مسؤول عن ذلك يوم القيامة، قال ﷺ: **(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ...الحديث)** [سبق تخريجه في المفهوم (٨٣٩)].

٣- إدخال الخدم الأجانب -ذكورًا وإناثًا- للبيوت دون مراعاة لقواعد الحجاب ومنع الاختلاط بين الجنسين، وهو أمر قد شاع واستفاض في الأسر المسلمة -حتى أسر الدعاة والملتزمين- ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٤- التساهل في حشمة النساء داخل بيوت العائلة الكبيرة التي تتكون من عدة أسر؛ حيث يشيع الاختلاط بين الأخوة وزوجاتهم جميعًا دون الالتزام بالحجاب الشرعي؛ وقد قال ﷺ: **(إياكم والدخول على النساء)**، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: **(الحمو الموت)** [رواه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢)]، وكفى بذلك زجرًا عن اختلاط الأقارب والأصهار في مكان واحد.

* * *

٨٣٣ - مفهوم ٩: قضايا مستحدثة تهدد الأسرة المسلمة:

ومن القضايا الخطيرة التي تهدد الأسرة المسلمة والبيت المسلم:

١ - قضية تحرير المرأة: وهي قضية تبناها الملاحدة والعلمانيون والمنافقون وأمثالهم؛ زاعمين أنهم يريدون حرية المرأة وتخليصها مما يقع عليها من ظلم واستعباد، وحقيقة دعواهم: دعوتها لترك الحجاب والاختلاط بالرجال، وسمَّوا ذلك (تحرير المرأة)، وينسون أن الله ﷻ هو الذي كفل للمرأة حقوقها وكرَّمها؛ كما هو مستفيض في القرآن والسنة، وأن ما يدعون إليه هو في حقيقته تدمير للأسرة.

٢ - وأشد مما سبق ما يعرف حاليًا بـ(المرأة المستقلة)؛ وهي دعوى تتبناها منظمات نسوية تعرف باسم (الحركة النسوية)، وهي تزيد على ما في تحرير المرأة بنشر مفهوم عدم حاجة المرأة للرجل، واستقلالها بالعيش منفردة في بيت خاص، ولا مانع لديهم أن تجلب فيه من تشاء من العشاق والأخدان؛ فهي التي تنفق على نفسها، وهي التي لها كامل الحق والحرية -بزعمهم- في العيش كيف شاءت.

وقد نشأت حاليًا في أمريكا حركة نسوية مضادة لذلك تدعو المرأة إلى العودة لوظيفتها الرئيسة في البيت وتربية الأطفال، ولها تأثير في السياسة اليوم في أمريكا خاصة.

٣ - وأخطر مما سبق كله ما يشيع حاليًا من دعم للشواذ -من الرجال والنساء- حيث

يبيحون اكتفاء المرأة بامرأة مثلها، والرجل برجل مثله وهو فعل قوم لوط -وكفى بذلك جرمًا وفحشًا- وينادون بعيشهم معًا في بيت واحد، ويزعمون أن ذلك بمثابة الأسرة، ويسمون هذه الفئة-خداعًا وتزيينًا لفعلهم- (المثليين)، وقد شرَّعوا في الغرب القوانين والنظم التي تبيح زواج الرجل من الرجل، والمرأة من المرأة، بل تعدَّى الأمر حاليًا إلى تجريم من يعترض على ذلك، ولوَّحوا بفرض عقوبات عليه، ولعمر الله إن هذا لهو عين الاستحلال والتشريع من دون الله، فليتمسَّك المسلمون بشريعتهم، وليرفضوا ذلك بقوة، ولينتظروا غضب الله ولعنته وتدميره لكل من يبيح ذلك، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

❊ ❊ ❊

مفاهيم

في الدعوة

مفاهيم في الدعوة

أولاً: مفاهيم حول خصائص الدين:

٨٣٤ - مفهوم ١: الشمول والكمال:

الدين يشمل: الجانب الاعتقادي، والجانب التعبدي، والجانب السلوكي؛ لا ينفك بعضها عن بعض، لأنه من عند الله ﷻ العليم الخبير، العالم بما كان وما سيكون، وبما يصلح لعباده في دنياهم وأخراهم فيشرعه لهم، وبما يضرهم فينهاهم عنه -وذلك في كل زمان ومكان- فجاء شاملاً لكل ما يحتاجونه مراعيًا في ذلك طبيعتهم البشرية وطاقتهم؛ قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، والإسلام نظام متكامل؛ تعمل نصوصه وتوجيهاته وشرائعه كلها متحدة، ولا يؤخذ أجزاء وتفاريق، وهو يضع نظمه لتعمل كلها في وقت واحد فتتكامل وتتناسق.

* * *

٨٣٥ - مفهوم ٢: العالمية الإنسانية:

ولكونه شاملاً من عند الله ﷻ جاء لكل الناس وليس لطائفة دون طائفة؛ لذا كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء ولا نبي بعده؛ لأنه أُرسل للناس كافة، وبشريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨]، فكان هذا الدين مهيمنًا وظاهرًا على جميع الأديان؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

* * *

٨٣٦ - مفهوم ٣: الإسلام منهج حياة:

الإسلام منهج حياة لأنه منهج شامل؛ فهو لم يأت لتنظيم شأن واحد من شؤونها ويترك بقية الشؤون، بل جاء بمنهج ينظم الحياة كلها، ولا يخرج عنه شأن واحد من شؤونها، ففيه كل ما يحتاجه البشر في نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفي حالات السلم والحرب، وغيرها من شؤون الحياة.

والإسلام منهج حياة لأنه منهج واقعي يراعي في كل تنظيماته آنفة الذكر واقع بشرية الناس وطبائع نفوسهم؛ فلا يكلفهم بما يخالف نفوسهم وبشريتهم.

وهو كذلك منهج حياة لأنه الدين الوحيد الذي يعطي الإنسان التصور الصحيح لهذا الوجود والحياة، ومكانة الإنسان فيه، وغايته، ومصيره، ويعطيه النظام الذي يدير به شؤون حياته فيه بسعادة وعدل وتوازن.

* * *

٨٣٧ - مفهوم ٤: العدل والتوازن في هذا الدين:

وهذه من أعظم وأرقى خصائص هذا الدين؛ إذ لا يُغلِّب جانبًا على آخر، بل هو متوازن عدل خيار من أخذ به استقامت حياته على الميزان العدل؛ فلا إفراط ولا تفريط، بل هو وسط في كل شعائره وشرائعه؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧]، وبهذا وخصائصه الأخرى يعلو ويرقى إلى القمة في التصور والأخلاق، بينما تهبط وتسفل المناهج الجاهلية البشرية إلى القاع، ويظهر عوارها وتناقضها وفسادها؛ لأنها مقطوعة عن المصدر المبرَّأ من الجهل والظلم والهوى، العليم الحكيم: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

* * *

٨٣٨ - مفهوم٥: التوحيد:

وهذه أم الخصائص فلكونه قائمًا على توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة والتلقي لا شريك له جاءت مفاهيمه كلها نظيفة؛ يجد فيها المسلم الراحة والطمأنينة، وينعكس كل هذا على نظافة التصور، ونظافة السلوك، وصحة الموازين والأحكام، وجميع ما يحتاجه في شؤون حياته، ويسلم مما يتخبط فيه المشركون والكفار من عبادة غير الله تعالى من أصنام وأشخاص، أو نظم يتخذونها أربابًا من دون الله تعالى.

* * *

٨٣٩ - مفهوم ٦: طبيعة هذا الدين:

هو دين يقوم على قاعدة الألوهية الواحدة في كل شعائره وتشريعاته وتنظيماته؛ فهو المنهج الذي يحكم الحياة كلها بجميع نواحيها منطلقًا من قاعدة الوحدانية والعبودية لله وحده، وفي ظل هذا المنهج يمكن أن يُخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام ونظامه القائم على أساس العبودية لله وحده، ولو لم تعتنق هذه الجماعات عقيدة الإسلام.

* * *

٨٤٠ - مفهوم ٧: المنهج التغييري لهذا الدين وليس الترقيعي:

الإسلام منهج فريد للحياة غير الذي عرفه العالم في فترة الفصام النكد؛ إنه منهج شامل متكامل أصيل؛ لم يأت لمجرد تعديل وترقيع لبعض المخالفات، إنه تصور وعقيدة ينبثق عنها منهج حياة ونظام شامل لجميع شؤونها، ومن ثم فهو الكفء بمهمة إعادة نشأة الحياة البشرية على قاعدة العبودية لله وحده لا شريك له.

* * *

٨٤١ - مفهوم ٨: المنهج والنظام:

الناس في كل نظام غير النظام الإسلامي الرباني يعبد بعضهم بعضًا في صورة من الصور، وفي المنهج الإسلامي وحده يتحرر الناس من عبادة بعضهم لبعض إلى عبادة الله وحده، والتلقي منه وحده، والخضوع له وحده؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[الأنعام:١٦٢ - ١٦٣]**.

٨٤٢ – مفهوم ٩: شريعة الله تعالى:

إنها تعني كل ما شرعه الله ﷻ لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الأخلاق والسلوك، وأصول الحكم، وأصول الاقتصاد، وأصول المعرفة؛ قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية:١٨]، وبهذا يتبين أن تعريف الشريعة بأنها: الأحكام والحدود تعريف ناقص، وأن الشريعة هي الحاكمة، الناسخة لما قبلها، المفضلة عليها.

* * *

٨٤٣ – مفهوم ١٠: الفساد:

رأس الفساد: عبادة غير الله ﷻ، والحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها؛ هذا مفرق الطريق الذي ينتهي إلى الفساد حتمًا؛ فما يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض ومن عليها ومنهج الله بعيدٌ عن تصريفها، وشريعة الله مقصاة عن حياتها؛ إذ ذلك هو الفساد الشامل للنفوس والأحوال، وللحياة والمعاش، وللأرض كلها وما عليها من أناس وأشياء: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٧١].

* * *

٨٤٤ – مفهوم ١١: مفرق الطريق بين هذا الدين وسائر المناهج:

إن مفرق الطريق يكمن في أن الناس في نظام الحياة الإسلامي يعبدون إلهًا واحدًا يفردونه بالربوبية، والألوهية، والقوامة بكل مفهومها؛ فيتلقون منه وحده التصورات، والقيم، والموازين، والشرائع، والنظم، والتوجيهات، والأخلاق والآداب، بينما هم في سائر النظم الأخرى يعبدون آلهة وأربابًا متفرقين؛ يجعلون لهم القوامة عليهم من دون الله، ويتلقون منهم التصورات والمفاهيم والأنظمة والقوانين والآداب والأخلاق، فيمنحونهم بهذا التلقي حق الألوهية والربوبية، في حين أنهم مثلهم: عبيد كما أنهم عبيد.

* * *

٨٤٥ - مفهوم ١٢: متى يكون الناس في دين الله ﷻ:

إذا كان المنهج الذي يصرف حياة الناس كلها يُتلقى من عند الله ﷻ ومنبثقًا من تصور اعتقادي رباني فإنهم بذلك في دين الله، وإن كان المنهج الذي يُصرِّف حياتهم من صنع الملك، أو الرئيس، أو الأمير، أو شيخ القبيلة، أو الشعب، ومنبثقًا من مذهب وتصور بشري فهم ليسوا في دين الله وإنما في دين الملك، أو دين الأمير، أو دين القبيلة، أو دين الشعب؛ قال تعالى عن النظام الذي كان في عهد الملك الذي كان يوسف ﷺ عزيزًا عنده: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦]، أي في نظامه وشريعته.

* * *

٨٤٦ - مفهوم ١٣: وحدة الشخصية الإنسانية ووحدة منهجها:

إن الشخصية الإنسانية وحدة واحدة في طبيعتها وكينونتها؛ فينبغي أن تؤدي كل وظائفها على هذا الأساس، ولا تستقيم الشخصية في حركتها، ولا تتناسق خطواتها إلا حين يحكمها منهج واحد منبثق في أصله من تصور واحد.

أما حين يحكمها في ضميرها ووجدانها شريعة، ثم يحكم واقعها ونشاطها شريعة أخرى؛ فما في الواقع من تصور البشر، وما في الوجدان من وحي الله، فإن هذه الشخصية تصاب بما يشبه داء الفصام، وتعيش حالة صراع نفسي، وحالة تمزق بين واقعها الشعوري القلبي وواقعها العملي في الحياة، وهذا ما نشاهده اليوم في أرقى بلدان أوربا وامريكا من الشقاء والقلق والانتحارات، وهذا حال كل من يعيش مثل هذا الفصام النكد.

* * *

٨٤٧ - مفهوم ١٤: هيمنة الدين وسيادته:

إن دين الله لا يصلح خادمًا يقف بحضرة أسياده يوجهونه حيث يريدون؛ يطردونه من حضرتهم فينصرف ويقف وراء الباب في ستارة الخدم رهن الإشارة لاستدعائه للخدمة إذا أرادوا، فيلبي النداء كما يفعله من باع دينه من المتنسبين للعلم، كلا؛ إن دين الله لا يرضى إلا أن يكون سيدًا مهيمنًا، قويًّا عزيزًا، متصرِّفًا حاكمًا لا محكومًا، قائدًا لا مقودًا؛ يربأ بنفسه أن يكون مطية يركبه الطواغيت ويوظفونه لتبرير ظلمهم وطغيانهم، ويومئذ فقط يؤدي دوره كاملاً كما أراد الله ﷻ؛ دور السيد المدبر، لا دور الخادم الملبي.

٨٤٨ - مفهوم ١٥: علاقة الدين بالعلم والعقل والحضارة:

إن الدين الحق ليس عدُوًّا للعلم والحضارة والعقل، إنما هو إطار لكل ذلك؛ إطارها ومحورها الذي يحكم كل شؤون الحياة، وقد كان دين الإسلام هو الإعلان الشامل لحرية العقل البشري تجاه الكون المادي وقوانينه التي سخرها الله ﷻ لهذا الإنسان.

أما الدين الباطل -كدين الكنيسة وخرافاتها في القرون الوسطى التي كانت فعلاً عدوة للعلم والعقل- فهو الذي يتسبَّب في تعميم أمثال العلمانيين والشيوعيين الملاحدة لفكرة أن أي دين هو معاد للعلم والعقل والحضارة.

فالمفهوم الصحيح لعلاقة الدين الإسلامي بالعلم والعقل يبطل شُبَه المنافقين والعلمانيين الداحضة، التي يدَّعون فيها نسبة أي تخلف للأمة إلى التمسك بالدين والثبات على ما كان عليه سلف الأمة المتمسك بالشرع عقيدة وأخلاقًا؛ وقد قال الله ﷻ في أمثال هؤلاء: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]، والحاصل في الأمة هو عكس ما يفترون به؛ إذ إنها لما كانت متمسكة بدينها، مُحكِّمة لشرع ربها، مجاهدة في سبيله، كانت أرقى الأمم وأعظمها حضارة وتقدمًا في جميع ميادين الحياة، ولما تخلَّت عن دينها، وأعرضت عن شرع ربها والجهاد في سبيله أصبحت متخلفة وذَنَبًا لغيرها؛ فسبب تخلف الأمة إذًا هو ترك الدين لا التمسك به.

* * *

ثانيًا: مفاهيم حول الدعوة لدين الله: طبيعتها وخصائصها:

٨٤٩ - مفهوم ١: الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة إلى الله ﷻ تعني أمرين:

١ - الدعوة إلى توحيد الله وعبادته لا شريك له، وإقامة الحياة وفق شريعته سبحانه.

٢ - إخلاص الدعوة لله تعالى وإرادة وجهه بها؛ فالداعية يدعو إلى الله لا إلى نفسه أو طائفته.

* * *

٨٥٠ - مفهوم ٢: البقاء للحق والباطل ذاهب (المستقبل للإسلام):

لقد صمد الإسلام في حياته المديدة لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية التي توجه إليه اليوم في كل مكان، وكافح ونافح وهو مجرد من كل قوة غير قوته الذاتية المستمدة من قوة الله ﷻ وتأييده، وانتصر وأبقى على هوية الجماعات والأوطان التي حماها.

لقد كافح الإسلام وبقي وهو مجرد من السلاح؛ وذلك لأن عنصر القوة كامن في طبيعته، ووضوحه، وشموله، وعدله، وملاءمته للفطرة البشرية وتلبيته لحاجاتها الحقيقية، كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية لله وحده رب العباد، وفي رفض التلقي إلا منه وحده سبحانه، ورفض الخضوع إلا له من دون العالمين، ومن ثَمَّ لا تقع الهزيمة الروحية طالما عَمَر الإسلام القلب والضمير، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحايين؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

* * *

٨٥١ - مفهوم ٣: حرب الأعداء لهذا الدين حرب عقدية وسنة إلهية:

يحارب الأعداء دين الإسلام من أجل ما يملك من خصائص سامقة نظيفة؛ لأنها من عند الله تعالى ومنطلقها توحيد رب العالمين، من أجل ذلك يحاربه أعداؤه هذه الحرب المنكرة لأنه يقف لهم في الطريق فيعوقهم عن أهدافهم الاستغلالية، كما يعوقهم عن الطغيان والتأله في الأرض واستعباد الناس كما يريدون، ولذلك يشنُّون على أهله حملات القمع والإبادة، كما يطلقون عليه حملات التشويه والتلبيس والتضليل.

٨٥٢ - مفهوم ٤: الإسلام ظاهر لا محالة:

الإسلام عزيز وظاهر على الدين كله، فإن فرَّط فيه قوم ألبسه الله قومًا آخرين ينصرونه؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨]، ولن يستطيع أحد الإضرار بدين الإسلام ولو أضر وآذى المسلمين.

* * *

٨٥٣ - مفهوم ٥: عموم رسالة النبي ﷺ للناس كافة:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، ومحمد ﷺ خاتم النبيين فلا نبي بعده؛ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

* * *

٨٥٤ - مفهوم ٦: لا نبي بعد محمد ﷺ ولكن يبقى المجددون:

المجددون هم العلماء الربانيُّون الذين يجددون ما يندرس من الدين، ويعيدون الناس إلى ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه كما جاء في الحديث: (**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة من يُجدد لها دينها**) [رواه أبو داود (٤٢٩١)، وحسَّنه ابن حجر (هداية الرواة ١/ ١٦٣)، وصحَّح إسناده الألباني (الصحيحة ٥٩٩)، والأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود].

* * *

٨٥٥ - مفهوم ٧: تجديد الخطاب الديني:

هي دعوة ماكرة يراد منها تبديل الدين ومضامينه، وإنشاء دين جديد يزعمون أنه من ضرورات المتغيرات الزمانية، ودين الله ﷻ لا يحتاج إلى من يزيد فيه وينقص؛ فقد أكمله الله ﷻ بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولكن الحاجة هي إلى رد الناس إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وإحياء ما اندرس منها، وهذه مهمة المجددين في هذه الأمة.

٨٥٦ - مفهوم ٨: معارضة الحق ومحاربته تقوِّيه وتُعرِّف الناس به:

إن الحق إذا جُحِدَ أو عُورض بالشبهات، أو قام من يريد إطفاءه، قيَّض الله تعالى له ما يُحِقُّ به الحق ويظهره للناس، ويبطل به الباطل بالآيات البينات وبما يظهره من أدلة الحق وبراهينه، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة والشبه الباطلة. وهذا أمر مشاهد؛ حيث إن الناس يعرفون جوانب من الحق عندما يصارعه الباطل ما كانوا ليعرفوها قبل هذا الصراع، بل إن المنتمين للحق قبل الصراع يقوى انتماؤهم ومقاومتهم وتمسكهم بالحق حينما تدور رحى المعركة بين الحق والباطل.

* * *

٨٥٧ - مفهوم ٩: الإسلام دين عالمي وإنساني:

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف:١٠٤]، فدعوة الإسلام لا تعرف حدود الوطن، ولا العنصرية، ولا القومية أو القبلية، ولا تعترف بالحواجز المصطنعة التي يقيمها الناس لأنفسهم في الأرض، أو تقام لهم ويتصارعون من أجلها، إنها دعوة لا تُقسِّم الناس إلا على أساس التقوى، ولا تقسمهم ألوانًا ولا عناصر، وإنما تنفذ إلى قلوبهم مباشرة من حيث الإنسان بصفته إنسانًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، وحين نقول (إنساني) فنعني أنه موجه لبني الإنسان لتخليصهم من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد.

أما مفهوم **(الإنسانية)** عند الفكر الجاهلي فهو مفهوم حديث ماكر مرفوض، يراد به هدم عقيدة الولاء والبراء وشعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى؛ فالإنسان في زعمهم أخو الإنسان، لا ينبغي وضع معايير له للحب والبغض والإخاء على أساس الدين والإيمان والكفر؛ لأن هذه بزعمهم تفرق وتقضي على السلام بين بني الإنسان.

* * *

٨٥٨ - مفهوم ١٠: الواقعية المثالية في الإسلام:

الإسلام يأخذ الكائن البشري بواقعه الذي عليه، والله ﷻ أعلم بمن خلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]؛ يعرف حدود طاقته، ويعرف مطالبه وضروراته، ويعرف ما ينفعه وما يضره، ويعرف ضعفه إزاء المغريات؛ فدين الإسلام إذن دين واقعي، وهو في الوقت نفسه مثاليٌّ نقيٌّ متوازنٌ، ما ترى فيه من خلل ولا تفاوت ولا تناقض، ولا تغليب جانب على جانب؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، فلأنه من عند الله جاءت أحكامه وعقائده مثالية واقعية.

* * *

٨٥٩ - مفهوم ١١: الواقعية في عرف الجاهلية:

هي الانصراف عن المثاليات ومعالي العقائد والأخلاق بدعوى أنها غير واقعية وغير قابلة للتطبيق، فيُترك الإنسان وغرائزه وهواه بدعوى أن هذا هو الواقع بالنسبة له.

كما تعني الواقعية في الفكر الجاهلي البحث عن المنفعة من أي سبيل تجيء، وإقصاء الأخلاق من كل تعامل؛ سواء كان في عالم السياسة، أو الاقتصاد، أو العلاقات الاجتماعية والأسرية، وتعني الواقعية عندهم أيضًا الانكباب على الحياة الدنيا بدعوى عمارتها، والإعراض عن الآخرة والكفر بها، أو نبذها بوصفها غيبًا لا ينبغي للعقل المتقدم أن يؤمن بها أو يعطل زهرة الدنيا ولذاتها وشهواتها من أجلها.

* * *

٨٦٠ - مفهوم ١٢: الحركة الواقعية لهذا الدين والجد فيه:

بما أن دين الإسلام دين واقعي مثالي لكونه من عند الله ﷻ، لذا فهو دين جد وفصل ليس بالهزل؛ فهو يواجه واقعًا بشريًا بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي، وإن حركة هذا الدين واجهت وتواجه جاهلية اعتقادية تصورية تقوم عليها أنظمة واقعية تسندها سلطات ذات قوة مادية، ومن ثم فإن الواقعية الجدية لهذا الدين تواجه هذه الجاهليات بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والمفاهيم والتصورات، وتعد العدة لمواجهته بالقوة

والجهاد لإزالة تلك الحواجز التي تحول بين الناس وفهم هذا الدين، ومن ثم اعتناقه بعد وصوله لهم واضحًا من غير إكراه لهم على ذلك، فحركة هذا الدين الجادة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي، كما أنها لا تستخدم القهر والإكراه لقلوب الناس.

وجدية هذا الدين تقضي أن تكون حركته ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائلها المكافئة لحاجتها الواقعية، فكل مرحلة تسلم للأخرى؛ من مرحلة (كفوا أيديكم) إلى الإذن بالجهاد، إلى فرضه، ثم ختمه بآية السيف [ينظر ما كتبه الإمام ابن القيم -رحمه الله- في زاد المعاد عن مراحل الجهاد]، ويقول شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله تعالى-: «إن قوام الدين بالكتاب الهادي والحديد الناصر كما ذكر الله تعالى، فعلى كل أحد الاجتهاد في اتفاق القرآن والحديد لله، ويطلب ما عنده مستعينًا بالله في ذلك» [السياسة الشرعية ص:٢٤٨].

❃ ❃ ❃

٨٦١ - مفهوم ١٣: الوسطية في هذا الدين:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، فالوسطية سمة بارزة من سمات هذا الدين في جميع أبوابه؛ لأنه من عند الله تعالى العليم الخبير، والوسطية الشرعية تعني العدل والخيار والتوازن بين طرفي الإفراط والتفريط.

وأهل الإسلام وسط في التوحيد والرسل بين غلو النصارى وجفاء اليهود.

وأهل السنة وسط بين الغالي والجافي من أهل البدع، فهم وسط في أبواب الإيمان والكفر بين الخوارج والمرجئة، ووسط في أبواب الصفات بين النفاة والمشبهة، وهكذا في بقية أبواب الاعتقاد، وفي الأخلاق، والعبادات.

وبالجملة فمفهوم الواسطية في الإسلام يعني الاستقامة على أمر الله.

❃ ❃ ❃

٨٦٢ - مفهوم ١٤: المفهوم الخاطئ للوسطية:

تطرح الوسطية والاعتدال اليوم في مقابل التمسك بهذا الدين ومحكماته، فينظر إلى التمييع والتنازل عن مسلمات هذا الدين على أنها الوسطية، والتمسك به وبمحكماته تطرف ومخالفة للوسطية، وهذا فهم خاطئ مجافٍ لمقصود الشرع للوسطية كما بيَّناه.

٨٦٣ - مفهوم ١٥: لا بد في الدعوة إلى الله تعالى من بذل الجهد والتضحيات:

هكذا أراد الله ﷻ العليم الحكيم، ولو شاء سبحانه لانتشر هذا الدين بدون دعوة ولا تضحيات، ولكن الله تعالى لم يرد ذلك لحكم عظيمة؛ قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، وجدية هذا الدين وغايته وعظمته تستحق كل التضحيات والجهود المضنية من أجله.

❋ ❋ ❋

٨٦٤ - مفهوم ١٦: لماذا الدعوة إلى الله ﷻ:

تلزم المسلمين الدعوة إلى الله تعالى لأنها تحقق عدة أمور، من أهمها:

١- تحقيق الداعي نوعًا من العبودية لله تعالى؛ لأن الدعوة إليه كغيرها من العبادات التي يحبها الله ﷻ، فالدعوة يتعبد لله ﷻ بها، ولا تقبل عند الله سبحانه إلا بتوفر شرطي العبادة: الإخلاص لله، والمتابعة فيها لرسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

٢- ابتغاءً للأجر والثواب من الله ﷻ؛ فالدعوة إلى الله من أهم الصالحات وأحسن الأعمال والأقوال كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وقد وعد الله المؤمنين -ذكورًا وإناثًا- إذا عملوا الصالحات أن يحيوا حياة طيبة، ويدخلوا الجنة يرزقون فيها بغير حساب؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

٣- إخراج من شاء الله ﷻ من عبادة العباد إلى عبادته وحده لا شريك له، وإنقاذهم بإذنه سبحانه من الشقاء في الدنيا ومن عذاب الآخرة، ومن ذلك أيضًا رد المبتدع إلى السنة والفاسق العاصي إلى طاعة الله سبحانه.

❋ ❋ ❋

٨٦٥ - مفهوم١٧: هيمنة الإسلام على ما سواه:

إن دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي يقبله الله ﷻ من الناس ولا يقبل دينًا سواه بعد رسالة محمد رسول الله ﷺ، وهو عقيدة وشريعة يجب أن تقوم حياة الناس عليها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، ولا تصلح البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على منهج هذا الدين وحده دون سواه.

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين بكل ما سبق هو الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الله الذي ارتضاه للناس في وجه العقبات الشاقة، والمقاومة العنيدة، والمكر والكبر من أعدائه.

* * *

٨٦٦ - مفهوم ١٨: الدعوة إلى دين الله ﷻ دعوة إلى سعادة البشرية:

هذا الدين دين الله ﷻ العالم بما يصلح لعباده، لذا فهو دين نظيف سامٍ في تصوراته وشرائعه وأخلاقه؛ جاء لصلاح الدنيا والآخرة، لا كما يقول الأفاكون والمنافقون من العلمانيين والليبراليين بأن سبب التخلف هو الدين ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، ولا يعرف صحة هذا الدين ولا نقاءه وأنه يهدي للتي هي أقوم إلا من فهمه كما جاء من عند الله ﷻ، ثم نظر في الثقافات البشرية الجاهلية، والتصورات الهابطة، والسلوك المنحط الذي تعيشه؛ «والضد يعرف حسنه بالضد».

* * *

٨٦٧ - مفهوم ١٩: الأمة القائدة:

لقد اختار الله ﷻ أمة الإسلام لقيادة البشرية بعد أن نكلت أمة أهل الكتاب وخانت عهودها وبدَّلت كتاب ربها؛ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فهذه الأمة بمنهجها الرباني المنفرد تقود الأمم إلى التصور الصحيح، والخلق الصحيح، والنظام والشريعة الصحيحة، وفي كل هذه الأوضاع الصحيحة تنمو

العقول، وتتطور الحياة، وتنفتح القلوب وتتعرف على هذا الكون وعلى أسراره، وتسخر قواه وطاقاته ومدخراته في إصلاح الحياة ونشر الخير فيها.

وهذه القيادة تقتضي أن يحذر أهلها من اتباع غير هذا المنهج الرباني لا سيما اتباع أهل الكتاب من المغضوب عليهم والضالين؛ لأن في اتباعهم الكفر وشقاء الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠٠ - ١٠١].

❊ ❊ ❊

٨٦٨ - مفهوم ٢٠: القيادة المبصرة وقيادة العميان:

إن حياة الإنسان في الأرض لا تصلح إلا أن يتولى أمرها قيادات مبصرة تسير على هدى الله وحده وتصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه وشرعه. والويل كل الويل للبشرية إذا تولى قيادتها قيادات ضالة عمياء لا تعلم أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق وحده؛ إنه إما أن يقود البشر قيادات مبصرة على الحق، أو هو العمى والضلال حينما يقودها العميان وأهل الكفر والضلال، إنهما لا يستويان في ميزان الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

❊ ❊ ❊

٨٦٩ - مفهوم ٢١: الأعمى والبصير في ميزان القرآن:

إن الأعمى في ميزان الله تعالى هو الكافر الذي لا يعلم أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ هو الحق؛ لأن الأعمى على الحقيقة هو أعمى القلب، والبصير هو المهتدي إلى الحق؛ قال تعال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤]، فالناس حسب هذا الميزان صنفان: مبصرون فهم يعلمون، وعمي فهم لا يعلمون الحق، أو يعلمونه ولا ينقادون إليه؛ هذه شهادة الله ﷻ في حقهم.

❊ ❊ ❊

٨٧٠ - مفهوم ٢٢: شقاء البشرية حينما يتولى قيادتها العميان:

لقد شقيت البشرية في تاريخها الطويل وهي تتخبط بين شتى المناهج والأوضاع والشرائع بقيادة العميان الكافرين بالله ورسله، ولم تهنأ هذه البشرية وتسعد إلا حينما تولى أمورها القيادات المؤمنة المبصرة التي حكمتها بشرع الله ﷻ ومنهجه القويم النظيف المتوازن الشامل الكامل.

* * *

٨٧١ - مفهوم ٢٣: عمن يكون التلقي؟

إذ تبيَّنت حقيقة العمى والبصيرة، وتبيَّن من هم المبصرون ومن هم العميان على الحقيقة، فإنه لا يجوز لمسلم يزعم أنه يؤمن بالله ﷻ ورسوله ﷺ، ويؤمن بأن هذا القرآن وحي من عند الله، لا يجوز له أن يتلقى في شأن من شؤون الحياة عن أعمى، ولا سيما إذا كان هذا الشأن متعلقًا بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان، أو بالقيم والموازين التي تقوم عليها حياته. والعجب كل العجب أن من الناس اليوم من يزعمون أنهم مسلمون ثم يأخذون منهج حياتهم عن فلان وفلان ممن وصفهم الله ﷻ بأنهم عُميٌ.

* * *

٨٧٢ - مفهوم ٢٤: العلاقة بين شقاء البشرية والتلقي عن عمي:

هناك علاقة وتبعية بين الفساد والشقاء الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض والعمى عن الحق الذي جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق والخير والصلاح؛ فالذين لا يستجيبون للحق الذي جاء من عند الله ﷻ هم الذين يُفسدون في الأرض، كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يُصلحون في الأرض وتزكو بهم الحياة.

* * *

٨٧٣ - مفهوم ٢٥: حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل القيادات المبصرة:

نعم لا تصلح ولا تزكو حياة الناس في الأرض إلا بأن يتولى أمرها القيادات المبصرة التي تسير على هدى الله وحده، وتصوغ الحياة كلها وفق منهجه وشرعه، وإنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق وحده،

والتي تتبع من ثم مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه لعباده الصالحين؛ إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية، كما أنها لا تصلح بالشيوعية أو الاشتراكية، ولا بالعلمانية أو اللبرالية، ولا بالديمقراطية ولا بأنظمة الغرب والشرق الكافرة؛ فكلها سواء في كونها من مناهج العُمي الذين يُنَصِّبون أنفسهم أربابًا من دون الله، ويشرعون ما لم يأذن به الله.

* * *

٨٧٤ - مفهوم ٢٦: معرفة المعرضين عن الحق لظاهر الحياة الدنيا لا تنفي عنهم عماهم:

إن كل من لم يعلم الحق ولم يستجب له فهو أعمى بنص كلام الله ﷻ، ولو كان في غاية الذكاء، ولو بلغ في علوم الدنيا ومخترعاتها ما بلغ. ومثل هذا لا تقبله عقول الماديين الذين يدَّعون العقلانية، ويقولون: كيف يكون الطبيب الحاذق والمهندس الدقيق والمخترع البارع عميانًا؟! هذا هو مبلغ علمهم، ولا يخفى ما في فهمهم هذا من مصادمة صريحة لخبر الله ﷻ وشهادته.

* * *

ثالثًا: مفاهيم حول صفات الداعية:

الداعية بصدق لا بد أن يتصف بصفات تؤهله للدعوة المقبولة عند الله ﷻ، فلذلك يلزم معرفة هذه الصفات والعمل بها؛ فمن ذلك:

٨٧٥ - مفهوم ١: صفة الإخلاص لله ﷻ:

الإخلاص يراد به معنيان:

الأول: إخلاص التوحيد لله ﷻ لا شريك له، وهو بهذا المعنى يضاده ويقابله الشرك؛ قال تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

الثاني: إخلاص القول والعمل له سبحانه، وإرادة وجهه ﷻ والدار الآخرة، والزهد في الدنيا وزخرفها، ويقابله بهذا المعنى: الرياء والسمعة.

والإخلاص بالمعنى الأول إن لم يحققه العبد فإن جميع أعماله محبطة ومردودة، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم؛ لأنه مشرك؛ قال تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

والإخلاص بالمعنى الثاني إن لم يحققه العبد فعمله الذي راءى فيه أو سمَّع مردود، والأعمال التي أخلص فيها لله مقبولة، فلا يحبط هذا النوع مما يضاد الإخلاص جميع الأعمال، وإنما يحبط ما انتفى عنه الإخلاص فقط.

ويجب على الداعية أن يراجع نيته دومًا حتى لا تتحول دعوته للحق والانتصار له إلى دعوة للنفس وحمية لها، فمن انتصر لله ينصره الله ولو بعد حين، ومن ينتصر لنفسه أو حزبه خذله الله وأذله ولو بعد حين.

* * *

٨٧٦ - مفهوم ٢: الصدق:

هو شامل للقلب واللسان والأعمال؛ فالصدق في القلب هو الإخلاص، والصدق في اللسان هو ضد الكذب، وفي الأعمال: إتقانها وأخذها بقوة وعزيمة صادقة، وأن توافق سريرته علانيته، وإذا دعا إلى شيء يكون هو أول من يعمل به، وأن يكون صادقًا فيما يدعو إليه فلا يقبل التنازل عن شيء منه، أو الالتقاء مع الأعداء في منتصف الطريق.

* * *

٨٧٧ - مفهوم ٣: اتباع الرسول ﷺ والعلم والبصيرة:

وهو التزام الكتاب والسنة بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويضاده التقصير والتفريط في الاتباع، كما يضاده الغلو والإفراط؛ فالاتباع وسط بين الغالي المفرط والجافي المقصِّر؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود:١١٢].

وصفة الاتباع ضرورية أيضًا في دعوة الناس؛ وذلك بأن تكون الدعوة على بصيرة وعلم؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، ومن البصيرة: فقه الداعية للواقع الذي يعيشه ووعيه بسبيل المجرمين وكيدهم ووسائلهم.

* * *

٨٧٨ - مفهوم ٤: الاهتداء:

فالداعية الصادق يسعى في أسباب الهداية ومعرفة الحق بدليله، ومجاهدة النفس على قبوله والانقياد له بعد معرفته، والهداية نوعان:

١- هداية إرشاد وبيان؛ وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، وحصول هذا النوع من الهداية يكون بالعلم بالكتاب والسنة والبصيرة في الدين بفهم السلف الصالح.

٢- هداية توفيق وانقياد؛ وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، وهذه تحصل بتوفيق الله لعبده المستحق لها، والعبد الصادق في إرادة هذه الهداية يلجأ إلى الله عز وجل في طلبها.

كما أن من مفهوم الاهتداء ألا يكون مهتديًا فحسب، بل يكون إمامًا في هذه الهداية؛ دالاً عليها وهاديًا إليها؛ كما وصف الله تعالى عباد الرحمن بقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

* * *

٨٧٩ - مفهوم ٥: التؤدة وعدم العجلة والتثبت والرفق في الأمور:

الداعية الصادق تراه متأنّيـًا رحيمًا، لا يستخف ولا يعجل في الحكم على الأمور إلا بعد التثبت منها ومن ملابساتها، ولا يتحدث إلا بعلم وعدل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام:١٥٢]، ومن لوازم ذلك: الرفق والحكمة، وعدم الفظاظة والغلظة؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

* * *

٨٨٠ - مفهوم ٦: سلامة القلب:

الداعية الصادق سليم القلب مع ربه ومع الخلق؛ فقلبه سليم من كل شبهه تعارض خبر الله أو خبر رسوله ﷺ، ومن كل شهوة تعارض أمر الله عز وجل أو أمر رسوله ﷺ، ومن كل إرادة تعارض الإخلاص، وسليم من كل اعتراض على القدر؛ فلا تراه إلا مطمئنًا راضيًا، لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، يحب لهم الخير ويكره لهم الشر.

٨٨١ - مفهوم ٧: الصبر:

الصبر الممدوح الذي ينتفع منه صاحبه هو ما قام على الأركان الآتية:

١- أن يكون الصبر لله ﷻ وابتغاء وجهه، وليس ليقال ما أصبره وما أجلده؛ قال سبحانه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر:٧].

٢- أن يكون بالله ﷻ؛ أي مستعينًا به سبحانه، متبرأً من الحول والقوة؛ قال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧].

٣- أن يكون مع الله، أي دائرًا مع أوامره ونواهيه حيث دارت؛ أي أن يكون صبره في أمر يحبه الله ويرضاه.

والصبر كغيره من الأخلاق: يكتنفه طرفان مذمومان، والممدوح وسط بينهما؛ فهو وسط بين طرف التفريط فيه بحيث يؤدي إلى الضعف والذلة والمهانة والتنازلات عن الحق، وطرف الإفراط المؤدي إلى القسوة والتهور والعجلة في الأمور قبل أوانها وهو يظن أنه من أقوى الناس صبرًا.

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة؛ لأن طريق الدعوة شاق وطويل تكتنفه الابتلاءات والأذى، والشهوات والشبهات.

* * *

٨٨٢ - مفهوم ٨: المصابرة:

وهي مفاعلة من الصبر، فتكون بين طرفين: الأول الداعية -وهو المقصود هنا- والثاني يشمل: أعداء الدعوة من: الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والأعداء الذين يتربصون بالمؤمنين ويحاولون جاهدين أن يضعفوا صبرهم؛ فينبغي ألا ينفد صبر المؤمنين، بل يظلون مجاهدين أصبر من أعدائهم وأقوى؛ فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم؛ يُدعَون فيه إلى مقابلة صبر الأعداء بصبر أقوى منه، ومقابلة الدفع بالدفع، والإصرار بالإصرار، والعاقبة للمتقين؛ قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤].

٨٨٣ - مفهوم ٩: وضوح الهدف في نفس الداعية:

من صفات الداعية إلى الحق أن تكون غايته من الدعوة واضحة حاسمة، وذلك فيما يلي:

١- الغاية الكبرى تكون تعبُّده لله تعالى بالدعوة إليه؛ فالدعوة عبادة يحبها الله ويحث عليها؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

٢- السعي بهذه العبادة للفوز برضا الله ﷻ وجنته.

٣- النصح للخلق والشفقة عليهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، وإنقاذهم بإذن الله تعالى من الظلمات إلى النور، ودعوتهم إلى الحياة الطيبة بكل معاني الحياة.

إنها دعوة للخلق إلى عقيدة تُحيي القلوب والعقول، وتحررها من أوهام الجهل والخرافة، ومن الخضوع للذل وعبادة غير الله تعالى المذلة للعبد، أو للشهوات، كما تدعوهم إلى شريعة تُحرِّر الإنسان وتكرمه؛ مصدرها منه سبحانه، ويقف البشر جميعهم أمامها متساوين، لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

كما تدعو المسلمين إلى العزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم، والثقة بدينهم وربهم وإلى الاستخلاف في الأرض لتحرير الإنسان وإخراجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله ﷻ لتقرير ألوهية الله سبحانه في الأرض وفي حياة الناس، وتحطيم ألوهية العبيد الـمُدَّعاة، حتى يكون الدين كله لله، والحكم والشريعة كلها له سبحانه، حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كانت الشهادة لهم حياة.

هذا هو ما يدعو إليه الرسول ﷺ وأتباعه؛ فهي دعوة إلى الحياة الحقيقية بكل معانيها.

❊ ❊ ❊

٨٨٤ - مفهوم ١٠: التميز عند الداعية:

إن من أهم صفات الداعية التميز، والتمسك بهذا الدين عقيدة، وعبادة، وأحكامًا، وسلوكًا باطنًا وظاهرًا، والعض على ذلك، ولا سيما في أوقات الغربة حيث المتمسك بدينه كالقابض على الجمر، ولا يتقلَّب مع المتقلبين تحت ضغط الواقع، ومسايرة المجتمع، ووطأة الفساد، نعم إن المسلم الصادق يُعرف بالآتي:

- بتميزه وثباته على دينه، وصحة معتقده وفهمه عند فساد المعتقدات والفهوم.
- وبالتزامه بالسنة عند فشو المبتدعات وزهد الناس في السنة.
- وبصدق إيمانه في قلبه ولسانه وجوارحه إذا فشا الكذب والنفاق.
- وبعبادته لربه إذا الناس يلهون ويلعبون.
- وبأخلاقه إذا فسدت أخلاق الناس.
- ويصدقه في المعاملات إذا فشا الغش والخيانة والغدر.
- وبصَمْتِه إذا كثر الخوض في الباطل والقيل والقال.
- وبمحاسبته لنفسه إذا انشغل الناس بعضهم ببعض.
- وبدعوته وزهده وجهاده إذا أقبلت الدنيا على أهلها فمالوا إليها وغرقوا في ملذاتها.

وبالجملة فالدعاة المتميزون هم من قال فيهم النبي ﷺ: (**طوبى للغرباء**)، فقيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: (**أناس صالحون في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**) [رواه أحمد (٦٦٥٠)، وصححه الألباني (الصحيحة ١٦١٩)، وأحمد شاكر (١٠/١٣٦)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره (المسند ٦٦٥٠)].

إن الداعي بتميزه هذا يشهد لهذا الدين بالخيرية للبشرية، ويشهد له بالأحقية في هذا الوجود والأفضلية على سائر ما في الأرض من نظم وأوضاع وتشكيلات.

* * *

٨٨٥ - مفهوم ١١: البيعة مع الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]، ثم ذكر صفات أهل هذه البيعة من الدعاة والمجاهدين فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢]، وأركان البيعة هنا أربعة:

١- البائع وهو المجاهد.

٢- والمشتري وهو الله سبحانه وتعالى.

٣- والثمن وهو النفس والمال.

٤- والمُثمن وهو الجنة.

* * *

٨٨٦ - مفهوم ١٢: أدب الداعية في أدائه لرسالة الله ﷻ:

الداعية متأدب مع ربه، مستسلم لأمره، لا يتكلف السؤال عما ليس من شأنه، بل يسير متوكلاً على ربه، محسنًا الطن به، يؤدي رسالة ربه غير متعجل لنصره، يسير وفق ما يحبه الله ﷻ ويريده منه، مطيع يضع قدميه حيثما يرضا منه ربه سبحانه، ويَكِلُ الغيب إلى ربه، لا يتطلع إلى معرفة ما حجب عنه لأن قلبه مطمئن لربه، ولأن أدبه مع ربه ينهاه عن التطلع لغير ما فتح له؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨ * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٧ - ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:٥٠].

* * *

٨٨٧ - مفهوم ١٣: ضعف التأصيل وتأصيل الضعف عند الداعية:

من صفات الداعية وضوح التأصيل الشرعي لديه؛ وهو أن ينطلق في دعوته ومنهجها من الأصول الشرعية وما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه الكرام، وبدون هذا يكون الضعف في التأصيل الذي يؤدي إلى الاضطراب والاكتفاء بآراء الرجال أو أذواقهم أو سياساتهم الجائرة.

ومن صفات الداعية اللازمة أن يحذر أن يؤصل لضعفه أو أخطائه ويبرر لها بشبهات بزعم أنها شرعية ليغطي بها ضعفه ومواقفه.

* * *

٨٨٨ – مفهوم ١٤: انشراح صدر الداعية لدعوته وتبليغها بلسان مبين:

لما أمر الله تعالى موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الحق كان طلب موسى عليه السلام ما قصّه الله عز وجل علينا في كتابه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٥ – ٣٢] ومما يستنبط من هذه الآيات: لزوم دعاء الله عز وجل والاستعانة به في شرح الصدر وتثبيته، وتيسير أمره وتوفيقه.

* * *

٨٨٩ – مفهوم ١٥: مكانة العلماء في الدعوة:

يقف العلماء في مقدمة الدعاة إلى لله عز وجل؛ فهم المبلغون للحق المبين، وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعليهم مقاومة الموالاة لأعداء الله، وهم القدوة لباقي الدعاة، فالواجب عليهم أعظم من غيرهم؛ فعليهم واجب بيان حقيقة التوحيد وما يضاده من ألوان الشرك المختلفة: شرك التعظيم، وشرك التسوية، وشرك الطاعة، وشرك التشريع، وشرك الولاء، وشرك الشفاعة....إلخ، وعليهم أن يصدعوا بالحق في وجه من كان ظالمًا من حكام وولاة، فإن لم يستجيبوا لهم فلا أقل من أن يعتزلوهم ويرفضوا مناصبهم وأعطياتهم، وينفَضُّوا عن مجالسهم، وأن تكون لهم المهن الحرة التي يرتزقون بها بعيدًا عن مرتبات السلاطين.

* * *

رابعًا: مفاهيم حول فضل الدعوة ووجوبها وثمارها:

٨٩٠ – مفهوم ١: الدعوة إلى الله عز وجل من أفضل الأعمال والأقوال:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وهذا استفهام تقريري؛ أي: إنه لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله؛ وذلك لأن الدعوة إلى الله ينتظم فيها الكثير من أبواب الخير المتعدي للآخرين؛ كتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين وتبين باطلهم وتلبيسهم للناس؛ الأمر الذي يكون سببًا في نجاتهم في الدنيا والأخرة.

٨٩١ - مفهوم ٢: التعبد لله تعالى بالدعوة إليه ووجوبها:

الدعوة إلى تعالى كغيرها من العبادات التي يتقرب إلى الله ﷻ بها، ويتعبد بها له سبحانه، ومنها الواجب والمستحب، ولا تقبل إلا بشرطي العبادة وهما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة فيها لرسوله ﷺ. ويختلف وجوبها من شخص لآخر، ومن حال إلى حال؛ فوجوبها على العالم ليس كوجوبها على الجاهل، ووجوبها في حالات الجهل وانتشار الشرك والبدع ليس كوجوبها في المجتمعات المحافظة الموحِّدة، وهكذا...، وعلى كل عبد تبليغ ما يستطيع من دين الله ﷻ -كل بحسبه- قال ﷺ: **(بلغوا عني ولو آية)** [رواه البخاري (٣٤٦١)].

وعلى العالم الداعي للخير أن يدعو في جميع الأحوال، ولا تمنعه الشدائد عن قول الحق، بل قد يتعين عليه ذلك؛ فهذا يوسف عليه السلام لم يمنعه السجن من دعوة الرجلين اللذين سجنا معه إلى الله تعالى، والأمثلة من فعل السلف كثيرة.

* * *

٨٩٢ - مفهوم ٣: المقصودون بالدعوة:

اعتاد كثير من الدعاة أن يقصدوا بدعوتهم الآخرين من: عامة، أو طلاب، أو غيرهم، مع أن المتعين على الداعي أن يكون لنفسه حظٌ من دعوته؛ يدعوها إلى الله ﷻ، ويلزمها أحكامه، ويتفقد الآفات التي عنده باطنًا أو ظاهرًا، وكذلك يدعو أهله وأولاده؛ إذ هم أولى من غيرهم؛ قال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

* * *

٨٩٣ - مفهوم ٤: أجر الداعي يستمر بعد موته:

إن من أكبر وأجلِّ فضائل الدعوة وثمارها للداعي نفسه أن أجرها له يستمر بعد مماته، حيث يترك أثرًا طيبًا؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس:١٢]، فقوله تعالى: ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ أي: آثار الخير أو الشر التي هم السبب في إيجادها حال حياتهم، وهذا يبيِّن علو مرتبة الداعي إلى

الخير، وسفول درجة الداعي إلى الشر وشدة جرمه الذي يلاحقه بعد موته.

قال ﷺ: (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**) [رواه مسلم (١٦٣١)]، وقال ﷺ: (**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**) [رواه مسلم (١٠١٧)].

* * *

خامسًا: مفاهيم حول طرق ووسائل الدعوة:

٨٩٤ - مفهوم ١: وسائل الدعوة:

وسائل الدعوة تشمل كل وسيلة شرعية تؤدي إلى تحقيق أهداف الدعوة من: تحقيق التوحيد، والتحذير من الشرك ووسائله، وبيان العبادات وكيفية أدائها، وبيان مكارم الأخلاق والحث عليها، وبيان سفاسف الأخلاق والزجر عنها. والأصل في الوسائل الحل ما لم يأت دليل بالنهي عنها.

* * *

٨٩٥ - مفهوم ٢: الدعوة بالوعظ:

الوعظ هو إنشاء واعظ الله ﷻ في قلب العبد؛ وذلك بمعرفة الله ﷻ وأسمائه الحسنى وآثارها، ومعرفة أمره ونهيه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى -حسب أحوال الناس- مما ينشأ عنه: الخوف من الله ﷻ، ورجاؤه ومحبته، فيثمر ذلك فعل المأمور وترك المحظور تقربًا إلى الله ﷻ وطمعًا في مرضاته وجنته.

والوعظ بهذا المفهوم لا يقتصر على موضوع واحد كالموت والجنة والنار فحسب، بل ينبغي أن يكون حاضرًا وشاملاً جميع العلوم الشرعية ومنطلقًا لها؛ سواء كان ذلك في دراسة العقيدة، أو المعاملات، أو العبادات، وأن يكون حاضرًا في كل خطبة ودرس وموعظة وحوار، والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد أن الوعظ هو مادة القرآن، ولذا وصف الله ﷻ القرآن بأنه موعظة؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي

ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، ويشاهد المتدبر لكثير من الأوامر والنواهي - سواء في العقيدة أو الأحكام والمعاملات- أنها تختم أو تبدأ بالموعظة والتذكير بعظمة الله تعالى وأسمائه الحسنى، والتخويف من الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

والمفهوم الصحيح للوعظ أيضًا هو ما اشتمل على الترغيب والترهيب، ولم يطغ جانب على جانب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:٤٣]، **ولا تكاد تذكر الجنة في القرآن إلا وتذكر معها النار.**

* * *

٨٩٦ - مفهوم ٣: الموعظة النافعة:

الموعظة النافعة هي التي تشتمل -كما ذكر سابقًا- على أسلوب الترغيب والترهيب، والجمع بين **الخوف والرجاء**، والمواعظ النافعة هي التي تلتزم بهديه ﷺ في الوعظ **وتتجنب** الوسائل المحدثة والمبتدعة، ومن أهم سمات الهدي النبوي في الوعظ:

١- إخلاص الواعظ في موعظته لله تعالى، وألا يريد من وعظه الشهرة والمدح أو أي شيء من متاع الدنيا.

٢- ألا يتكلم إلا بعلم ودليل، ويحذر القول على الله ﷻ بلا علم؛ كحال من يستدل بالأحاديث الموضوعة والواهية، والإسرائيليات، والغرائب، والقصص الكاذبة.

٣- أن يتخول الناس بالموعظة ولا يُمِلَّهم.

٤- أن يبتعد عن رفع الصوت والخشوع المتكلف.

٥- أن يكون الواعظ قدوة في سمته وسلوكه وعبادته واعتقاده.

٦- أن يكون قد أعد عناصر موعظته قبل أن يلقيها حتى يتم النفع بها دون التشتت وإطالة للوقت.

٧- أن يكون هدف كل موعظة أمرين أساسين:

أ- تعريف الناس بربهم وأسمائه الحسنى وصفاته العليا وما يثمره ذلك من: التعظيم، والمحبة، والخوف والرجاء، وغيرها من أعمال القلوب.

ب- تعليم الناس فروض العين مما في المأمورات والمنهيات، وما يترتب عليها من

الثواب والعقاب.

٨- أن يتجنب التكلف في اللباس والتزين للناس قبل الموعظة.

٩- ألا يأخذ على وعظه أجرًا من الناس؛ ومن ذلك التكلف والإسراف في نفقات السفر من مركب أو مأكل أو سكن؛ يدفعها الداعون للداعية الواعظ.

* * *

٨٩٧ - مفهوم ٤: الإعلام:

الإعلام من أعظم وسائل الدعوة إلى الله ﷻ، وقد استخدمه الأعداء وأنفقوا فيه الأموال الطائلة ليصدوا عن سبيل الله ﷻ، فيجب على الدعاة إلى الله ﷻ أن تكون لهم العناية الكبرى به في بيان الحق للناس وفي فضح الباطل وأهله.

والإعلام يشمل الكلمة المقروءة، والمسموعة، والمرئية، ولا سيما ما ظهر في زماننا بعد ثورة الإنترنت من صور كثيرة ومتنوعة في التأثير على الناس؛ كوسائل التواصل الاجتماعي، والمقاطع الصغيرة الهادفة -المرئي منها والمسموع- والأفلام الوثائقية، والتغريدات، والتحليلات، ونقل الدروس والمحاضرات، وغيرها من صور الإعلام الجديد.

ومن أهم الوسائل الإعلامية التي ينفرد ويتميز بها المسلمون: خطبة الجمعة، ولذا يجب أن تستثمر هذه الخطب في بيان الحق للناس، ووعظهم وتحذيرهم من الباطل وأهله، وبيان الحلال والحرام لهم؛ لا سيما وأن الخطبة في الإسلام قد أوجب الله ﷻ سماعها والإنصات لها، وألا ننشغل عنها بأي شاغل من كلام أو مس حصى ونحوه.

* * *

٨٩٨ - مفهوم ٥: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومفهوم هذه الشعيرة أمْرُ الناس بالمعروف من واجبات الدين ومستحباته وأخلاقه الكريمة، ونهيهم عن المحرمات والأخلاق الرذيلة، وترغيبهم في فعل الخير، وترهيبهم من فعل الشر. وقد اعتني الإسلام بهذه الشعيرة وجعلها صمام الأمان للمجتمع المسلم، وهي واجبة على كل قادر على التغيير؛ قال ﷺ: **(من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)** [رواه مسلم (٤٩)].

٨٩٩ - مفهوم ٦: العدل والوسطية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لقد ضبطت الشريعة الأمر والنهي بضوابط تجعل منه وسيلة لنشر الخير وما يحبه الله ويرضاه، ومنع الشر مما يكرهه الله ﷻ أو تخفيفه، والأخذ على أيدي المفسدين ومنعهم من نشر فسادهم.

وبناء على ما سبق فينبغي أن يكون الأمر بالمعروف بالمعروف، وألا يكون النهي عن المنكر منكرًا؛ بمعنى أن يحقق الأمر والنهي غرضهما؛ فلو أن إنكار المنكر يترتب عليه منكر ومفسدة أكبر منه فلا يجوز إنكاره، ولو كان الأمر بالمعروف يترتب عليه منكر ومفسدة أكبر منه فيترك هذا الأمر، وفي المقابل لا يترك الأمر والنهي لخوف موهوم من فتنة ومفسدة تترتب عليه.

فمفهوم العدل في الأمر والنهي إذًا هو الوسطية بين من يهمل الأمر والنهي خشية الفتنة وما يترتب على ذلك من المفاسد الموهومة -كما تأخذ به المرجئة وأهل الفجور والفساد- ومن لا يراعى المصالح والمفاسد ومآلات الأمر والنهي؛ كما هو شأن الخوارج ومن تأثر بهم.

* * *

٩٠٠ - مفهوم ٧: الرفق والحكمة في الأمر والنهي:

هدف الأمر والنهي هو كما قال سبحانه: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤]، ولما كانت هداية الناس وردهم إلى الحق من أهداف الأمر والنهي لزم أن تُتخذ الوسائل التي تعينهم على قبول الحق من الرفق والشفقة لهم، ورحمتهم، ومداراتهم، وألا يكون الأمر والنهي انتصارًا للنفس، أو لإظهار الغلبة والخصومة.

* * *

٩٠١ - مفهوم ٨: التدرج في الأمر والنهي:

مما تقتضيه الحكمة والرفق بالمأمور التدرج معه في الإصلاح والتغيير؛ فمن أمضى جُلَّ حياته في الكفر أو الفسق لا يطالب بالتغيير الكامل لكل مخالفاته مرة احدة؛ فقد يعجز عن ذلك، وإنما يُبدأ معه بالأهم ثم المهم، كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه عندما بعثه الرسول ﷺ إلى أهل الكتاب في اليمن فقال له: (... **فادعهم إلى شهادة أن لا إله**

إلا الله وأني وسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صوات في اليوم والليلة ... الحديث) [رواه مسلم (١٩)].

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: «كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم المسترشد؛ لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم؛ فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبًا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبًا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان ... ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل» [الفتاوى (٢٠/ ٦٠)].

* * *

٩٠٢ - مفهوم ٩: القدوة الحسنة في الدعوة:

إن من أهم ما يؤثِّر في المدعوين أن يكون الداعية قدوة حسنة لهم؛ وذلك في فهمه النقي للدين ومحكماته، وقدوته لهم في سلوكه وأخلاقه وعباداته، وحينما يكون الداعية كذلك فإنه يؤثر في الناس ويلقي الله ﷻ له القبول بينهم.

* * *

٩٠٣ - مفهوم ١٠: الجولات الوعظية والتعليمية:

وهي التي يتوجه فيها بعض الدعاة لبعض القرى والهِجَر والأماكن النائية بغرض تعليم الناس في تلك الأماكن أصول دينهم وعباداتهم وأخلاقهم، ويعيشون معهم أيامًا عدة لتعليمهم والإجابة على استفتاءاتهم، وتحذيرهم من مساوئ البدع والأخلاق.

* * *

٩٠٤ - مفهوم ١١: الدعوة بين الأقارب والنشاط الأسري:

ونعني بها الدعوة بين أفراد الأسرة الصغيرة أو العشيرة؛ وتوعيتهم في أمور دينهم، وتحذيرهم من الشرور والفساد -لا سيما الموجه منه للمرأة المسلمة ومحاولة سلخها عن دينها وتغريبها- فياتي النشاط الدعوي داخل الأسر تحصينًا لها بكافة الوسائل من:

كلمات توجيهيه، أو مسابقات، أو توزيع كتيبات موجهة، أو توزيع فتاوى العلماء في قضايا تمس مفاهيم العقيدة، الصحيحة وأحكام الحلال والحرام.

* * *

٩٠٥ – مفهوم ١٢: الدعوة بإيجاد البيئات الصالحة:

وهذه الوسيلة من أنجح الوسائل وأنفعها وأسرعها في الدعوة وتصحيح المفاهيم وترسيخها؛ لأن العيش في البيئات الصالحة يؤثر فيمن يعيش فيها بما يراه من القدوات والجو الإسلامي الملتزم، وما يتخلل ذلك من فوائد علمية شرعية، ومن التعاون على أداء العبادات ونوافلها؛ حيث إن الإنسان ينشط في البيئات الجماعية أكثر من العيش وحدة.

ومن أمثلة البيئات الصالحة: رحلات الحج والعمرة، والرحلات الطويلة، وحلق تحفيظ القرآن وتدبره، وغير ذلك من الأنشطة الجماعية.

* * *

٩٠٦ – مفهوم ١٣: الجهاد في سبيل الله ﷻ:

يأتي الجهاد في سبيل الله تعالى على ذروة وسائل الدعوة، ولا سيما إذا وقف الصادون عن سبيل الله تعالى فمنعوا وصول الحق للناس، فيأتي الجهاد ليزيل هؤلاء الذين يحولون بين الناس ودين الحق ويحطمهم لكي يعرف الناس هذا الدين على حقيقته لينعموا بالدخول فيه.

* * *

٩٠٧ – مفهوم ١٤: الدعوة بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر:

قال سبحانه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر:١- ٣]، وصيغة الجمع: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ يفهم منها أن الدعوة إلى الحق تحتاج إلى تعاون المصلحين واجتماعهم وتشاورهم وترتيبهم فيما بينهم، ولا يكتفى بالدعوة الفردية، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقال ﷺ: **(لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)** [رواه مسلم (١٩٢٠)].

إذن فقيام جماعة تتواصى بينها بالحق وتدعو إليه من أهم وسائل وطرق الدعوة إلى الله؛ فالأعداء يحاربون دين الإسلام وأهله بتعاون وتخطيط فيما بينهم، ويضعون لذلك الخطط الخبيثة، فلا يصح أن يواجَهوا بجهود فردية، بل لا بد من مواجهة جماعية.

❊ ❊ ❊

٩٠٨ - مفهوم ١٥: البلاغ المبين:

البلاغ المبين يقوم على بيانين أساسيين:

١- بيان سبيل المؤمنين ببيان عقيدتهم وأحكام دينهم في عباداتهم ومعاملاتهم.

٢- بيان سبيل المجرمين ومكرهم ووسائلهم وخططهم في الصد عن سبيل الله، سواء منهم الكفار أو المنافقين.

وبدون العلم بهذين السبيلين وبيانهما للناس فلا بلاغ ولا دعوة مجدية.

❊ ❊ ❊

٩٠٩ - مفهوم ١٦: الإمامة الصالحة:

بوجود الإمامة الصالحة والخلافة الراشدة يكمل البلاغ وبيان الحق للناس، سواء كان ذلك باللسان أو السنان، فبدون الإمامة الصالحة والخلافة الراشدة سيبقى البلاغ محدودًا، كما جاء في الأثر: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

❊ ❊ ❊

٩١٠ - مفهوم ١٧: الدعوة عن طريق الحوار:

الحوار من الطرق النافعة في إيصال الحق، وهو في العادة يكون بين طرفين، والحوار هو المراجعة؛ أي أن أحد الطرفين أو كل منهما يحاول إرجاع الآخر إلى ما يراه هو الحق، وهو نوعان:

١- **حوار بين عالم ومتعلم**؛ يهدف العالم فيه إلى بيان الحق بدليله للجاهل به، وفي العادة يسلم المتعلم لما يقوله العالم.

٢- **حوار بين طرفين مختلفين في أمر ما**؛ ويبين كلٌّ منهما بما لديه من الأدلة صحة موقفه؛ وهدف هذا الحوار دعوة كل طرف للآخر إلى رأيه بالأدلة، ويُعدُّ ناجحًا إذا اتفق

الطرفان على رأي واحد، أو أنهما لم يتفقا وإنما تبين لكل طرف أن ما اختلفا عليه يسعه الخلاف ولا يؤدي إلى الفرقة والخصومة؛ كما في مسائل الاجتهاد، والاختلاف في تقدير المصالح والمفاسد.

* * *

٩١١ – مفهوم ١٨: آداب الحوار وضوابطه:

في كتاب الله ﷻ آية اشتملت على ثلاثة آداب رئيسية وعظنا الله ﷻ بها، وينبغي أن ينطلق منها الحوار حتى تكون ثمرته مجدية ونافعة؛ قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦].

الأدب الأول: في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ والقيام لله يعني التجرد والإخلاص في طلب الحق، والانقياد له، والتخلص من الانتصار للنفس، والتعصب للهوى.

الأدب الثاني: في قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ وذلك بأن يكون الحوار والتفكير بين الإنسان ونفسه ﴿وَفُرَادَىٰ﴾، أو بين طرف وآخر ﴿مَثْنَىٰ﴾، وأن لا يكون الحوار في جمع من الناس؛ لأن الحق يضيع في الأجواء العامة، ويعز على النفس أن تذعن للحق أمام الناس، أما بين فردين فهو أجدى للتسليم للحق.

الأدب الثالث: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي يُعمل كل طرف عقله بعد التجرد، ويفكر فيما عنده وما عند الطرف الآخر من الأدلة، وأيها أولى بالصواب، وهذا يقتضي ألا يتكلم في تأييد ما هو عليه إلا بعلم، وأن لا يُخطِّئ صاحبه إلا بعلم.

* * *

٩١٢ – مفهوم ١٩: الحوار بين الأديان والتقارب بينها:

يطرح في العقدين الأخيرين هذا المفهوم، ويقصد طارحوه مغزى خطير يهدف إلى تصحيح دين النصارى واليهود، والتقاء الإسلام مع هذه الأديان بالإيمان بإله واحد، والاتفاق على الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام. وهذا مفهوم خطير استخدموا فيه مصطلح التقارب بين الأديان، ومصطلح الديانة الإبراهيمية التي تجمع في زعمهم بين الإسلام واليهودية والنصرانية.

إن من يؤمن بهذه المصطلحات ينقض إيمانه بالإسلام؛ حيث يُصحِّح هذه الأديان الوثنية ويعترف بها، بينما في كتاب الله ﷻ أن لا دين إلا الإسلام الذي هو دين التوحيد: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

❋ ❋ ❋

٩١٣ - مفهوم ٢٠: المفهوم الصحيح للحوار مع الأديان المحرَّفة:

هو حوار بين مسلم وكافر: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩]، وتوضِّح آية آل عمران التي نزلت في نصارى نجران الحوار الذي جرى بينهم وبين الرسول ﷺ، ودعوتهم إلى التوحيد، وبيان تهافت معتقداتهم وشركها؛ قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]، هذا هو المفهوم الصحيح للحوار مع أهل الأديان الكفرية من يهودية أو نصرانية أو غيرها؛ وذلك بدعوتها إلى التوحيد، وليس إلى الاعتراف بها وبكتبها.

❋ ❋ ❋

سادسًا: مفاهيم حول صراع الحق مع الباطل:

٩١٤ - مفهوم ١: الحق والباطل والعلم بهما:

الحق هو ما كان مصدره الكتاب والسنة بفهم الصحابة رضي الله عنهم، وما خالف ذلك فهو الباطل، والعلم بالحق والباطل يعني معرفة سبيل المؤمنين عقيدة وأحكامًا وسلوكًا، ومعرفة سبيل المجرمين، وتصوراتهم الباطلة، وطرق كيدهم للإسلام، وكل هذا قد تضمنه القرآن والسنة الصحيحة؛ قال تعالى عن سبيل المؤمنين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وقال عن سبيل المجرمين: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥]، ومن جعل القرآن والسنة بفهم الصحابة مصدره في الفهم والاتباع لا يلتبس عليه الحق بالباطل إذا التبس على الناس.

❋ ❋ ❋

٩١٥ - مفهوم ٢: الحكمة من صراع الحق مع الباطل:

لله ﷻ الحكمة البالغة في تقديره الصراع بين الحق والباطل، ومن ذلك:

١ - ظهور جوانب من عبودية أهل الحق لربهم لا تظهر إلا في الصراع؛ كعبودية الصبر والثبات على الحق، والتضرع إلى الله ﷻ بطلب النصر، والتوبة من الذنوب، ...إلخ، فلله ﷻ على عباده عبوديات في السراء والضراء، والرخاء والشدة.

٢ - تمييز الخبيث من الطيب؛ فالناس في الرخاء متساوون، لكنهم يتباينون في الشدائد؛ قال ﷻ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

٣ - في أوقات الصراع مع الباطل يظهر للناس جوانب من الحق ما كانوا ليعرفوها لولا هذا الصراع، فيكثر المتبعون للحق والمناصرون له.

٤ - وكذلك في أحوال الصراع تُستَنْهض الهمم، وتقوى روح المقاومة عند أهل الحق، ويقوى انتماؤهم وتمسكهم به.

❋ ❋ ❋

٩١٦ - مفهوم ٣: إدالة الباطل على الحق:

الأصل البقاء للحق، ولكن الله ﷻ -بحكمته وعزته- يديل الباطل أحيانًا عليه لما سبق ذكره من الحكم، وبسبب ذنوب العباد، ولكن هذه الإدالة مؤقتة، ومن ظن أن الله ﷻ يديل الباطل على الحق إدالة دائمة فقد أساء الظن بالله تعالى وبوعده؛ لأن الله ﷻ حكم على الباطل بالزهوق والذهاب وعلى الحق بالبقاء والثبات والتجذر؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧]، وقال عن الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٣،٢٤] وقال عن الباطل: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٥].

❋ ❋ ❋

٩١٧ - مفهوم ٤: مكر الله بأهل الباطل:

يظن بعض الناس عندما يشتد مكر أهل الباطل وفسادهم أنهم في عافية وقوة لا تقاوم، وينسى قول الله ﷻ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر:٤٣]، ففي هذه الآيات بين الله ﷻ لنا أن الذين يمكرون السيئات في قبضة الله تعالى، وأن الله يمكر بهم؛ حيث يملي لهم وهم يمكرون حتى يتمادوا في المكر ويزدادوا مكرًا وإفسادًا مغترين بهذا الإملاء والاستدراج، والله ﷻ يسوقهم بهذا المكر والإملاء منه سبحانه إلى نهايتهم القاصمة القاضية؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران:١٧٨].

* * *

٩١٨ - مفهوم ٥: حقيقة انتصار الحق على الباطل:

يفهم بعض الناس أن انتصار الحق على الباطل مقصور على انتصاره الحسي بهزيمة الباطل في ساحات القتال، ولكن حقيقة الانتصار هي الثبات على الحق في أوقات الابتلاءات وتسلط الباطل، والتضحية في سبيل الله ﷻ بالمال والنفس دون أي تنازل عن الحق أو مداهنة للباطل، وأوضح مثال لهذا النوع من الانتصار: الفوز الكبير الذي حصل عليه أصحاب الأخدود بثباتهم على الحق حتى أحرِقوا، وفي ظاهر الأمر أن الباطل انتصر عليهم بإحراقه لأولياء الله ﷻ، والحقيقة أن ثباتهم هذا في ميزان الله ﷻ هو غاية الفوز وقمة الانتصار؛ قال سبحانه عن المؤمنين الذين أحرقوا في الأخدود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج:١١]، وقال عن الباطل وأهله الذين عذبوا أولياءه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾[البروج:١٠].

* * *

٩١٩ - مفهوم ٦: حقيقة الصراع بين الحق والباطل:

إن المعركة بين الحق والباطل سنة إلهية لا تتبدل، وتبدأ بالصراع في المفاهيم والأخلاق والقيم، وساحة المعركة في هذا الصراع تكون بجهاد الكلمة والبيان؛ وذلك بتقرير المفاهيم والقيم التي يدعو إليها الحق وأهله، ورد المفاهيم الجاهلية وبيان انحرافها وتناقضاتها وهبوطها.

وتبلغ ذروة الصراع بين الحق والباطل -عند القدرة- في ميادين الجهاد بالسنان والسلاح، والإثخان في رموز الكفر بالقتل عندما يصدون عن سبيل الله ويحولون بين الناس ووصول الحق إليهم؛ قال الله ﷻ عن هذه السنة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:١١٢]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[البقرة:٢٥١]، وقال ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة:١٩٣].

❊ ❊ ❊

٩٢٠ - مفهوم ٧: الاستعلاء على الباطل:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون:٨] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩]؛ فمصدر الاستعلاء على الباطل هو الإيمان بالله ﷻ والتسليم لأمره، ولأن الباطل نقيض ما يريده الله، فالحق يعلو ولا يعلى عليه، والحق باق والباطل ذاهب بوعد الله تعالى القائل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[الرعد:١٧]، ولا يكدر على ذلك إذن الله ﷻ بحكمته للباطل أن ينتفش في حقبة من الزمن للابتلاء والتمييز، لكن مآله إلى ذهاب وسفال.

والاستعلاء بالإيمان لا يعني مجرد عزمة مفردة، ولا نخوة دافقة، ولا حماسة فائرة متهورة، إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود الذي قامت عليه السموات والأرض، الحق الباقي وراء منطق القوة وتعارف الناس؛ لأنه موصول بالله الحي الذي لا يموت.

٩٢١ - مفهوم ٨: استقلال الحق عن الباطل وأنهما لا يلتقيان ولا يمتزجان:

الحق من عند الله ﷻ، والباطل من وحي شياطين الإنس والجن، و بناء على ذلك فإن الحق الذي أنزله الله ﷻ لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الكفرة المبطلون، فلا سبيل إلى التعاون بين حقنا وباطلهم، أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل؛ فهما فهمان مختلفان، وطريقان لا يلتقيان: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الدهر:٢٤]، فحين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم لحكمة يراها الله سبحانه، فالصبر حتى يأتي الله بحكمه، واستجداء العون منه سبحانه هو الزاد المضمون لهذا الطريق، وليس الحل التنازل عن الحق ومبادئه؛ قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، إنه لا التقاء بين كلمة الحق الطيبة وكلمة الباطل الخبيثة؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠].

❋ ❋ ❋

٩٢٢ - مفهوم ٩: بواعث الصراع بين الحق والباطل:

المعركة بين المؤمنين أهل الحق وخصومهم من الكافرين المبطلين هي معركة عقيدة بين الإيمان والكفر، وليست شيئًا آخر على الإطلاق؛ مهما رفع أهل الباطل من رايات وبواعث للقتال ليصرفوا المؤمنين عن حقيقة الصراع وبواعثه؛ كقولهم: إن بواعث الصراع مع المسلمين اقتصادية، أو سياسية، أو عنصرية... إلخ.

لقد حسم الله ﷻ بواعث الصراع في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، وفي قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٥٩].

❋ ❋ ❋

٩٢٣ - مفهوم ١٠: الواقعية في صراع الحق مع الباطل:

ليست الواقعية أن يتنازل الحق للباطل عن مبادئه حينما يكون ضعيفًا، وإنما هي أن يثبت أهل الحق عليه ويصبروا - كما سبق بيانه- ويستعينوا بالله ﷻ على ذلك، ويكفوا أيديهم عند عدم القدرة -كما كان ذلك في العهد المكي في سيرته ﷺ- ويتوجهوا إلى الدعوة بالبيان والحكمة والموعظة الحسنة، وتحقيق كلمة التوحيد، وطاعة الرسول ﷺ، وترسيخ الأخلاق والقيم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين؛ قال سبحانه في مثل هذه الأحوال: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

إن إدراك حقيقة الصراع مع الباطل وواقعيته سيجعل أهل الحق يخاطبون الناس وهم يقدمون لهم الإسلام في ثقة وقوة، وفي عطف ورحمة وشفقة بالمدعو؛ ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق، وأن ما عليه الخصم هو الباطل. وحينئذ لن يتدسَّس أهل الحق بالإسلام تدسُّسًا، ولن يداهنوا تصورات الناس وشهواتهم المنحرفة، بل سيقولون لهم: إنكم على جاهلية نجسة، والله يريد أن يطهركم، هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبثٌ، والله يريد أن يطيبكم، هذه الحياة التي تحيونها دونٌ وهبوط والله يريد أن يرفعكم ويحييكم، وإذا كنتم - لشقوتكم- لم تروا صورة واقعية للحياة الإسلامية، لأن أعداء الدين يتكالبون للحيلولة دون قيام هذه الحياة فنحن قد رأيناها والحمد لله ممثلة في قلوبنا وشريعتنا المستمدة من كتاب ربنا سبحانه.

وهناك من أبناء المسلمين من يتحدثون عن الإسلام -مع الأسف- من منطلق الواقعية المنحرفة، فيقدمونه للناس وكأنه متهم يحاولون دفع التهمة عنه؛ وساء ذلك دفاعًا؛ فهذا دين الله ﷻ الذي يجب أن نرفع به رؤوسنا، ونحمد الله تعالى على أن هدانا إليه، ونطرحه للناس باستعلاء وفخر، وبشفقة على من حُرِمه من الشقاء في الدنيا والآخرة؛ قال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

إن مفاهيم الجاهلية والتصورات والعادات السائدة تشكل ضغطًا عنيفًا، ولكن ذلك لا يعني أن نجاري الجاهلية في بعض مجالاتها، كما لا يعني أن نقاطعها ولا نستفيد بالنافع منها، كلا.. إنما هي المخالطة مع التميز والاستعلاء، والدعوة إلى الحق وإظهار الدين والصدع به.

٩٢٤ - مفهوم ١١: الفرق بين المداهنة والمداراة في صراع الحق مع الباطل:

المداهنة هي التنازل عن شيء من أصول الدين للحصول على مكاسب دنيوية أو حفاظًا عليها؛ كمن يؤيد الباطل للحصول على منصب، أو مال، أو خشية فقده لذلك، وكمن يسكت عن قول الحق للحصول على دنيا؛ ولذا فالمداهنة محرمة ومذمومة شرعًا، وقد قال تعالى في ذمها: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٨، ٩].

والمداراة هي التنازل عن شيء من الدنيا أو الحظوظ الشخصية حفاظًا على الدين وأصوله، ودرءًا للمفاسد، أو تحصيلًا للمصالح التي تخص المحافظة على الدين وأهله؛ ومثال ذلك: كف اليد عن القتال في العهد المكي، وبنود الصلح التي عقدت مع المشركين في صلح الحديبية؛ ولذا فالمداراة جائزة، بل ربما كانت مطلوبة شرعًا، وقد بوب البخاري -رحمه الله- في كتابه الصحيح: **(باب المداراة مع الناس)** وساق عن أبي الدرداء ﵁ قوله: «إنَّا لنكشر -أي نظهر التبسم لهم- في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم»، وقوله ﷺ: **(إن شر الناس منزلة عند الله من تركه -أو ودعه- الناس اتقاء فحشه)** [رواه البخاري (٦١٣١)]، وعلق ابن حجر على هذين الأثرين فقال: «قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمن؛ وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم... وقال القرطبي: والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا، وهي مباحة، وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا» [فتح الباري باختصار (١٠/ ٤٦٩)].

وقال ابن القيم -رحمه الله-: «والمداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف ليقره على الباطل ويتركه على هواه؛ فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق» [الروح ص٢٣١].

وبهذا الفرق الواضح لا يصح لأحد أن يداهن في دين الله ويوالي أعداء الله بحجة المداراة والتسامح، كما أنه لا يصح لأحد أن يترك المداراة المطلوبة للذب عن الدين وأهله خشية أن تكون مداهنة.

٩٢٥ - مفهوم ١٢: فتنة مسايرة الواقع:

هي الفتنة التي يقع فيها كثير من الناس بسبب ضغط الواقع، فيُقدِّمون رضا الناس وعاداتهم على رضا الله وأحكامه وشرعه، ويجعلون ذلك هو منطلق تصوراتهم ومفاهيمهم وسلوكهم وأخلاقهم، وكفى بذلك فتنة، والمطلوب من المؤمن أن يسير ويغير الواقع إلى ما يرضي الله تعالى، لا أن يسايره ويكون إمعة؛ فذلك يسخط الله عليه ويؤول أمره آخر المطاف إلى سخط الناس عليه؛ قال ﷺ: (**ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**) [رواه ابن حبان في صحيحه (٢٧٧)، والترمذي بنحوه (٢٤١٤)، وقال الألباني: صحيح لغيره (صحيح الترغيب ٢٢٥٠)، وحسَّنه الأرناؤوط (تخريج صحيح ابن حبان (٢٧٦)]. وهذه الفتنة قد تشتد حتى توقع صاحبها في الشرك الأكبر مسايرة لآبائه وأجداده والناس من حوله، وقد تكون سببًا في الوقوع في الفسوق والعصيان.

وأصل مسايرة الواقع هو الهوى، حتى يُطبع على القلب فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرِب من هواه.

* * *

٩٢٦ - مفهوم ١٣: فتنة مسايرة الواقع على أهل العلم:

إن أهل العلم والدعوة هم أشد الناس تعرضًا لهذه الفتنة؛ وذلك لما يتعرضون إليه من ترغيب وترهيب من قبل شياطين الإنس والجن، مما يؤول بالداعية أو العالم إلى أن يساير واقعه ويتنازل عن بعض مبادئه إرضاءً لسلطان، أو إرضاءً للناس واتقاء لسخطهم وسقوط منزلته عندهم، فيداهن في دين الله ﷻ عياذًا به سبحانه.

* * *

٩٢٧ - مفهوم ١٤: فتنة مسايرة الواقع على المرأة والأسرة:

ومن أكثر الناس وقوعًا في هذه الفتنة أيضًا: المرأة المسكينة، والتي تتأثر كثيرًا بواقعها والنساء من حولها، وتتأثر بزينة الحياة الدنيا من مأكل ومشارب، وملابس وأزياء وموضات غريبة تصادم شرع الله ﷻ مصادمة صريحة.

أضف إلى ذلك ما تأثرت به كثير من بيوتات المسلمين من فتن ومظاهر فساد ومفاخرة

في متاع الدنيا الفانية، ويكاد الواقع ومسايرته يسحق المرأة وأسرتها وهم يرون غيرهم في: مساكنهم، وخدمهم، وأسفارهم، وملابسهم، فيقعون في المسايرة والتقليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم، وينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وتتراكم الديون على أهلها، ومع ذلك لا يجد هؤلاء المسايرون الإمعات لأنفسهم مفرًّا منها مسايرة للناس واتقاء نقدهم وسخطهم.

* * *

٩٢٨ – مفهوم ١٥: فتنة مسايرة الواقع على العصرانيين:

خرج علينا العصرانيون -ممن مسهم دخان العلمانية الليبرالية- بفقه غريب يريد تبرير الواقع المعاصر وتغريبه لإدخال كثير من القيم الغربية في دائرة الإسلام، وأنها هي الأصلح لعصرنا، فاعتدوا على تطبيق الحدود، وأباحوا الربا بزعمهم أنه ضرورة اقتصادية، وسعوا لتغريب المرأة ونقد حجابها، وزعموا أن الحجاب خاص بنساء النبي ﷺ، وزينوا للمرأة خروجها من بيتها واختلاطها بالأجانب، إلى غير ذلك من تبريراتهم ومسايرتهم الوضيعة.

* * *

٩٢٩ – مفهوم ١٦: مسايرة الواقع وقواعد التيسير:

لقد وصلت فتنة مسايرة الواقع إلى بعض المنتسبين للعلم في بعض ديار المسلمين، ممن لم يتحملوا ضغط الواقع، فراحوا يتعللون في مسايرتهم للواقع وأهواء الناس ببعض القواعد الشرعية التي هي صحيحة في أصلها، لكنهم استخدموها في تبرير الوقوع في بعض المخالفات الشرعية، لاسيما الاجتماعية والاقتصادية منها، بحجة التيسير على الناس ورفع المشقة عنهم، دون مراعاة لضوابطها الشرعية وشروطها المعتبرة شرعًا، وقد بلغ الأمر ببعضهم إلى أن يستدل على مداهنة الكفار والمنافقين وموالاتهم ببعض الاستدلالات التي يلوون فيها نصوص الشريعة؛ ليبرروا بها هذه المواقف المخزية، كحجة التسامح والعدل مع المخالف، ونبذ الكراهية والطائفية.

* * *

٩٣٠ - مفهوم ١٧: الآثار الخطيرة لفتنة مسايرة الواقع:

يتحدد الخطر من فتنة مسايرة الواقع في عدة أمور فمن ذلك:

أ - الآثار الدنيوية:

وذلك بما يظهر على المساير الإمعة من فقدان للهوية وذوبان الشخصية الإسلامية؛ مما ينجم عنه معاناة في جسده ونفسه وعقله وعرضه؛ حيث يصبح هذا الفقدان وذلك الذوبان مصدر عنت وشقاء وتعاسة، بخلاف المستسلم لشرع الله ﷻ، والذي لا يقدم عليه شبهة ولا شهوة ولا رضا الناس ولا سخطهم؛ حيث لا تجده إلا سعيدًا مطمئنًا محفوظًا من ربه في دينه ونفسه وعقله وماله وعرضه.

ب - الآثار الدينية:

وهذه أخطر من سابقتها؛ ذلك أن المساير لواقع الناس المخالف لشرع الله ﷻ قد تتراكم عليه المعاصي والآثام حتى ترين على قلبه، وأخطر من ذلك أن استمرار الوقوع في المخالفات دون إنكار ولا تمعر قد تتحول إلى شيء مألوف يطبع عليه القلب ويتشرب حبها واستحلالها والعياذ بالله؛ لأن الانحراف قد يبدأ طفيفًا في أول الطريق، ثم لا يلبث أن ينتهي إلى انحراف كامل في نهايته، والذي يقبل التسليم في جزء من الانحراف لا يملك أن يقف عند انحرافه أول مرة؛ لأن استعداده للتسليم للانحراف يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء.

جـ - الآثار الدعوية:

إن ظهور مظاهر المسايرة على العبد -لاسيما الداعية- يفقده المصداقية عند نفسه وعند الناس -خاصة المدعوين منهم- وقد يؤدي به ذلك إلى ترك الدعوة وأهلها؛ إذ كيف يساير الواقع من هو مطالب بتسيير الواقع وتغييره.

د - الآثار الأخروية:

وهذه الآثار لا تخفي على أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؛ حيث إن المساير للواقع بما يسخط الله ﷻ قد عرض نفسه لسخط الله وعذابه، نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

٩٣١ - مفهوم ١٨: الاستضعاف:

هو الحالة التي يكون فيها الفرد المسلم، أو الجماعة المسلمة، أو الدولة المسلمة في ضعف بحيث يكونون عاجزين عن إظهار الإسلام وشعائره جزئيًا أو كليًا بسبب عدو قوي خارجي أو سلطان جائر، وفي هذه الأحوال ينشأ فقه الاستضعاف.

* * *

٩٣٢ - مفهوم ١٩: فقه الاستضعاف:

هو الفقه الذي يبحث في أحوال المسلمين حال الاستضعاف، وما تقتضيه من أحكام شرعية تفارق فيها حال التمكين؛ بحيث يجوز في أزمنة الاستضعاف، أو أمكنته، أو أحواله ما لا يجوز حال التمكين.

* * *

٩٣٣ - مفهوم ٢٠: الموقف الشرعي في حال الاستضعاف:

يتلخص الموقف الشرعي في حال الاستضعاف في عدة نقاط، هي:

أ - الشعور بالعزة والاستعلاء بالإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، والحذر من الهوان والذلة والاستكانة، ومن التنازل عن المبادئ وثوابت هذا الدين.

ب - مراجعة النفس ومحاسبتها، والبحث عن أسباب الاستضعاف، والتي من أهمها الذنوب والمعاصي، والمبادرة إلى التوبة منها.

جـ- الرجوع إلى الراسخين في العلم، في ما يجوز الأخذ به من الرخص والقواعد الشرعية وما لا يجوز، ومن هذه القواعد التي يحتاج إليها في أحوال الاستضعاف: أحكام الإكراه، أحكام الضرورة وضوابطها، ضوابط المشقة والتيسير، وضوابط تغيير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان والأمكنة، وقواعد سد الذريعة، وغيرها.

د - السعي إلى رفع الاستضعاف بإعداد القدرة على مدافعة الباطل وأهله.

هـ- السعي لإزالة أسباب الفرقة بين الدعاة والمجاهدين وتوحيد الصف والكلمة.

و- العناية بفقه الموازنات والأولويات، وتحديد أنواع الخصوم والمخالفين، والبدء

بالأخطر وتأجيل ما دونه.

ز- إن لم يكن هناك قدرة على التغيير والمدافعة، فتشرع الهجرة للقادر عليها إذا وجد مكانًا يستطيع المسلم فيه إظهار دينه.

ح- في أحوال الاستضعاف يمكن التحالف مع المخالف -مادام أنه من أهل القبلة- في مدافعة الكفار والمنافقين الذين يريدون تبديل الدين وطمس الهوية.

ط- الصبر والاستعانة بالله تعالى ودعاؤه حتى يحكم وهو خير الحاكمين؛ قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

* * *

٩٣٤ - مفهوم ٢١: ضوابط الأخذ برخص الاستضعاف:

للأخذ برخص الاستضعاف ضوابط؛ من أهمها:

١- تفاوت قدرات المستضعفين ودرجة تحملهم، وذلك حسب ضعف إيمانهم وقوته.

٢- التحقق من وقوع الضرر الشديد الذي يُترخص به في ارتكاب المحظور.

٣- التفريق بين استضعاف العالم المتبوع واستضعاف من دونه؛ فقد يسع التابع ما لا يسع المتبوع.

٤- الضرورة تقدر قدرها.

٥- عدم الركون إلى حال الاستضعاف وأحكامها وكأنها دائمة لا تزول، بل ينظر إلى أنها طارئة مؤقتة يسعى إلى رفعها قدر الإمكان، وإعداد القوة لذلك.

٦- ألا توقع أحوال الاستضعاف في مخالفة أصل من أصول الشريعة أو لبس الحق بالباطل.

* * *

٩٣٥ - مفهوم ٢٢: الثبات على الحق:

وهو الثبات على ما جاء في الكتاب والسنة بفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولاسيما فيما يتعلق بأصول الإيمان، وأصول العبادات، وأصول الأخلاق، وأصول المعاملات، والتسليم لما شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك كله.

وكلمة الثبات توحي بأن صاحب الحق يتعرض لما يهز ثباته على الحق من ابتلاءات ومغريات فيثبت أمامها، ولا يتنازل ولا يتزعزع، وهنا يتمايز الصادقون الثابتون على الحق عن الضعفاء الذين يتهاوون عند أدنى ابتلاء، ولا يظهر الثبات من أهله إلا عند الشدائد، وإلا فالناس متساوون عند الرخاء؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

* * *

٩٣٦ - مفهوم ٢٣: الانتصار على الباطل:

ثبات أهل الحق على حقهم في معركة الصراع مع الباطل، وما يتعرضون له من الابتلاءات هو الانتصار الحقيقي الدال على صدقهم وقوة ثباتهم كما هو واضح في قصة أصحاب الأخدود الذين وصف الله ثباتهم بالفوز: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج:١١].

* * *

٩٣٧ - مفهوم ٢٤: حتمية ابتلاء أهل الحق لاختبار ثباتهم:

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، لذا يجب على الدعاة والمجاهدين أن يعوا حقيقة هذه السنة الربانية، ولا يتفاجؤوا بها؛ فطريق الدعوة والجهاد مملوء بالابتلاءات والمغريات والمساومات، فمن كان يرجو سلامة نفسه ويقدمها على سلامة دينه فلن يصل؛ فالبحث عن سلامة النفس وجعلها الأصل مبدأ خاطئ، والصواب أن يبحث عن سلامة المبدأ ويعض عليه، فإن سلمت النفس بعدها فتلك نعمة، وإن ذهبت في سبيل الله فهي النعمة الكبرى، لذا يجب الحذر من الخلط بين سلامة المنهج ومنهج السلامة.

* * *

٩٣٨ - مفهوم ٢٥: علامة السير على الحق:

من علامة صاحب المبدأ الحق: الثبات والطمأنينة، ومن علامة صاحب مصلحة النفس والساعي في حظوظها: التذبذب والشتات؛ قال تعالى عن المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]، وقال عنهم أيضًا: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩١].

ومن علامة عدم الثبات على الحق أيضًا: مراعاة رضا الناس والجمهور أو أرباب السلطة دون مراعاة إظهار الحق؛ لأن الثابت على الحق يسعى لإحقاقه لا لرضا الخلق، فيكون همُّ دعاة الحق إقامةَ دين الله والجهاد حسب الإمكان، لا قصد زعيم، أو شيخ، أو رمز دعوي، إن ثبت ثبتوا وإن تغير تغيروا.

* * *

٩٣٩ - مفهوم ٢٦: وسائل الثبات على الحق:

١- من أعظم الوسائل: اللجوء إلى الله ﷻ والتقرب إليه بالطاعة، واجتناب المعاصي، وسؤاله الثبات؛ لأن الله هو وحده الذي يثبت ويعصم من الفتن؛ قال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤].

٢- ومن الوسائل كذلك: الاجتماع وعدم الفرقة.

٣- ومن ذلك أيضًا: بث روح التفاؤل بين أهل الحق، وعدم ترديد ما من شأنه الوهن والضعف والإحباط؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

٤- ومن الوسائل: الاطمئنان إلى صحة المنهج وسلامته.

* * *

٩٤٠ - مفهوم ٢٧: مهمة الداعية إلى الحق:

إن مهمة أهل الحق: البلاغ المبين لهذا الدين عقيدة وشريعة، وإرشاد الناس إليه، ولا يصدهم عن ذلك اعتراض المعترضين وتعنتهم في مطالب واقتراحات لأدلة بعينها يختارونها، إنما يكفيهم في البلاغ بيان الحق بدليله، ولا يضرهم أو يهزهم اعتراض المعترضين؛ قال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود:١٢].

❋ ❋ ❋

٩٤١ - مفهوم ٢٨: التراجع عن الحق:

يخلط بعض الناس بين المراجعة والتراجع؛ فالمراجعة والمحاسبة للنفس ومدى سيرها على الحق مطلوبة، أما التراجع عن الحق بحجة المراجعة فهو تنازل عنه وعدم ثبات عليه، والغالب أن هذه التراجعات تكون عند أصحابها بعد ابتلاءات وإغراءات؛ حيث يؤدى بهم ذلك إلى تغيير المسار وتقديم سلامة النفس على سلامة الحق، ثم يسموا مسارهم الجديد: تصحيحًا ومراجعة وتجديدًا.

❋ ❋ ❋

٩٤٢ - مفهوم ٢٩: الحذر من أعداء الحق:

أخذ الحذر من الأعداء أمر مطلوب في جهاد البيان وجهاد السنان، ولكن هذا لا يعني ترك الدعوة والجهاد بحجة الحذر؛ فهذا من تزيين الشيطان وتخويف المؤمنين بأوليائه؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وجمع سبحانه بين أخذ الحذر والنفرة في سبيل الله تعالى، بحيث لا يلزم من أحدهما إلغاء الآخر، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾[النساء:٧١]، فلا يعني أخذ الحذر ترك النفير في سبيل الله، ولا يعني النفير في سبيل الله التفريط في أخذ الحذر من الأعداء، فما أعظمه من دين يقوم على العدل والتوازن والوسطية.

❋ ❋ ❋

٩٤٣ - مفهوم ٣٠: أثر الرغبة والرهبة من المخلوق على الثبات:

حينما يتكلم صاحب الحق أو يكتب وفي نفسه مرهوب أو مرغوب غير الله عَزَّ وَجَلَّ فسوف يكون ما يكتبه أو يقوله من الحق مشوَّهًا؛ لأن الرغبة والرهبة لأحد المخلوقين يتجاذبان الحق فيخرجانه مشوهًا؛ لذا فعلى الداعية إلى الحق إذا حضره شيء من الرغبة أو الرهبة أن يمسك عن البيان حتى يزولا، ثم يبين الحق بعد ذلك للناس؛ ليكون بيانه هذا سالمًا من التشويه والتلبيس.

* * *

٩٤٤ - مفهوم ٣١: أثر التعلق بالنتائج على الثبات:

إذا علَّق الداعية المصلح نفسه بأثر دعوته وإصلاحه، والترقُّب الدائم لثمارها، ثم تأخرت النتائج، فإن هذا يضعف الهمة ويورث الفتور والإحباط؛ ولذا فعلى المصلح أن يبذل ما في وسعه من العمل ابتغاء مرضاة الله وجنته، ولا يفرط في الأسباب، ثم هو بعد ذلك غير مطالب بالنتائج، وحسبه أنه أرضى الله عَزَّ وَجَلَّ ودعا إلى سبيله، ولا ينتظر أخذ أجره في هذه الدنيا، بل ما عند الله خير وأبقى؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ومما يوهن النفس ويولد الإحباط: كثرة التفكير في الباطل وانتشاره وانتفاشه، والتألم من ذلك، لذا على الداعية أن لا يكثر من هذا التفكير، ويجعل همته في نشر الحق ومجاهدة الباطل؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر:٨]، وقال سبحانه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤١-٤٣].

* * *

٩٤٥ - مفهوم ٣٢: عدم التنازل عن الحق ولو بشيء صغير:

إن أعداء الحق وأئمة الكفر يغرون أصحاب الدعوات لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضون بالحلول الوسط التي يغرونهم بها، ويوهمونهم بها أنهم سيحققون مغانم تكسبها الدعوة، وتحت هذه الإغراءات يفتن بعض الدعاة عن دعوته؛ لأنه يرى الأمر هينًا؛ فأصحاب السلطان لا يطلبون منه أن يترك دعوته، إنما هم يطالبون ببعض التعديلات الطفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة ببعض التأويلات الفاسدة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان، ولو بتنازلات طفيفة، ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى انحراف كامل في نهايته؛ لأن أعداء الحق يستدرجون أصحاب الدعوات، فإذا سلَّموا في الجزء الصغير فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسلم الصفقة كلها! والاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الحق هي هزيمة روحية، والله وحده هو الذي يُعتمد عليه، ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصرًا؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٣-٧٤].

* * *

٩٤٦ - مفهوم ٣٣: التحالف مع الأنظمة الطاغوتية وخطر ذلك على الثبات:

يرى بعض الدعاة أو بعض الجماعات الإسلامية -بسبب الضغوط والابتلاءات التي يتعرض لها شباب الصحوة ورموزها وتأخر النتائج- أن تمد الجسور مع الأنظمة التي نقضت الحكم بشرع الله ﷻ، وأن تقام تحالفات مع الأحزاب الوطنية أو العلمانية لعمل مشترك في مصلحة الأمة والوطن ومحاربة العدو المشترك، وبناء على ذلك يكون الداعية المسلم جنبًا إلى جنب مع العلماني أو القومي أو الرافضي في مجالس واحدة تسمى بالمجالس البرلمانية أو الشعبية أو الوطنية، وفي هذه المجالس تبدأ التنازلات عن الحق وثوابته، والتي أولها الإقرار والرضا بالدخول في هذه المجالس التي تشرع من دون الله، ويُقْسِم الداخل فيها على احترامها، وهنا يتحول هدف الدعاة من السعي لهدم هذه

المجالس الكفرية إلى أن يكونوا من أركانها، وكفى بذلك ضلالاً وإذلالاً للناس، وأخطر ما في هذه الممارسات: هدم عقيدة الولاء والبراء، والتمييع في طرح ثوابت هذا الدين.

وإن إيقاع الدعاة في هذه الزلات يفرح بها رؤوس الطواغيت ورموز الجاهلية حين يملون من أساليب القمع والبطش والسجن التي غالبًا ما ترسخ التمسك بالدعوة، فيعرضون على الدعاة ما هو أخطر من ذلك، وهو محاولة الاحتواء بالترغيب والوعود الكاذبة، وتعلن الجاهلية للإسلاميين: تفضلوا اعملوا للإسلام من خلال مؤسسات الدولة ومجالسها، وهنا تصيد الشباك من تصيد من المتميعين الذين يحاولون تغطية هذه التنازلات ببعض الشبهات الشرعية؛ كقولهم بالحفاظ على مفاهيم الشرعية، وتارة باحتجاجهم بتغير الفتوى مع تغير الأحوال، وتارة بالضرورة ورفع المشقة، وتارة بقولهم نريد سحب البساط من تحت أقدام الجاهلية، وتبريرهم ذلك كله بالحكمة ومراعاة الواقع والظروف المحيطة.

وقد قال ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[يونس:١٠٩]. وقال ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾[الدهر:٢٤]. وقال ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم:٦٠].

ولما مال دعاة الديمقراطية والدخول مع أعداء الدين في تحالفات، راحوا يبحثون في الشريعة عن شبهة أدلة يحتجون بها على صنيعهم هذا؛ مثل استدلالهم بتحالف النبي ﷺ مع خزاعة وهم مشركون، وكتحالفه في الكتاب الذي كتبه أول مقدمه إلى المدينة مع اليهود في الدفاع المشترك، كما استدلوا بتولي يوسف عليه السلام خزائن المال في حكومة ملك مصر، وهي حكومة كافرة، بل أصبح عزيزًا فيها.

وكل هذه الأدلة شبهات لا تصلح للاستدلال؛ لأن المناط مختلف تمامًا، ففيما استدلوا به كان الرسول ﷺ هو الرئيس المطاع، ومن تحالف معه من اليهود أو المشركين كان تحت إمرته وهو الطرف القوي، ومن تحالف معهم ضعفاء، وكذلك الحال مع يوسف عليه السلام؛ حيث كان هو الآمر الناهي المتنفذ، بينما فيما استدلوا عليه من الأحوال المعاصرة فإن الطرف القوي هم الطواغيت والأنظمة الكافرة، بينما الإسلاميون هم الطرف الضعيف الذي لا يملك أمرًا ولا نهيًا، فالقياس هنا فاسد وفاقد لأركانه.

٩٤٧ – مفهوم ٣٤: الهجرة حينما تتعذر مدافعة الباطل:

الهجرة لغة: الترك. وشرعًا: ترك بلد الشرك إلى بلد الإسلام، ويتبع ذلك: ترك بلد البدعة إلى بلد السنة، وبلد الفسوق والعصيان إلى بلد الالتزام بالشرع، وبلد الربا والمعاملات المحرمة إلى بلد المعاملات الحلال.

وتشرع لمن لم يقدر على التغيير ويخشى على نفسه الوقوع في الشرك أو المعاصي –ما لم تكن هناك مصلحة شرعية في بقائه– أما من كان في مقدوره الإنكار ومدافعة الفساد والمفسدين فلا يسوغ له ذلك.

والهجرة في سبيل الله تعالى هي تجرد من كل ما تهفو إليه النفس من متاع الدنيا من أهل ومال ووطن، وتقديم محبة الله ﷻ ومحبة دينه على جميع المحاب؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧].

* * *

٩٤٨ – مفهوم ٣٥: العزلة:

هي هجرة ما عليه الناس من المعاصي، واعتزالهم وعدم مخالطتهم إلا في خير أو دعوة، وهي مشروعة لمن لم يتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن في مقدوره الهجرة، أو أنه لا يوجد مكان يهاجر إليه يستطيع فيه إظهار دينه.

فهنا يجب اعتزال الناس وعدم مخالطتهم في الباطل، والإقبال على تزكية النفس بالعبادة والعمل الصالح والانشغال بها وبخاصة الأهل والأولاد، ومخالطة الناس في الخير أو فيما لا بد من أمور الدنيا؛ قال الله ﷻ عن اعتزال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم:٤٨].

* * *

٩٤٩ – مفهوم ٣٦: الإرهاب:

الإرهاب يعني التخويف والإرعاب والترويع، وهو قسمان:

١- إرهاب محمود ويحث عليه الشرع؛ وهو إرهاب الكفار وتخويفهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، مما يكف شرهم ويذلهم ويجعلهم يستسلمون للمجاهدين، حتى يكون الدين كله لله؛ قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٢- إرهاب مذموم محرم: وهو الاعتداء على الأنفس والأموال المعصومة بغير حق، وتخويف وترويع من لم يأذن الشرع بتخويفه وترويعه.

ومصطلح الإرهاب من المصطلحات التي شوهت اليوم وتلاعب بها أعداء الإسلام من كفار ومنافقين، فأطلقوا على المجاهدين في سبيل الله تعالى والمقاومين لغزو الكفار وصف الإرهاب، وغضوا الطرف عما يقوم به الإرهاب الصليبي، واليهودي، والبوذي، والهندوسي، وإرهاب حكام المسلمين من قتل وتشريد وسجن وتخويف للمسلمين، وسموا إرهابهم هذا دفاعًا عن الحرية ومواجهة للإرهاب والإرهابيين، ويقصدون بذلك المجاهدين الذين انبروا للدفاع عن دينهم وأعراضهم وأموالهم وعن نبيهم ﷺ.

ومما يدخل في الإرهاب المذموم: ما يمارسه الكفار والمنافقون على بعض الدعاة من الإرهاب الفكري؛ وذلك بتقييد حريته فيما يراه حقًا، ويحاصرونه في دائرة لا يريدونه الخروج عنها، وإن صدع بالحق وصموه بالإرهاب.

والحرية في مفهومهم: الانعتاق عن الدين الذي يقيد الحريات – زعموا – في الوقت الذي يمارسون هم فيه تقييد الحريات والوقوف في وجه كل من رفض كفرهم ونفاقهم وتغريبهم، واستخدام كل ما يملكون من وسائل في منعه من ممارسة حريته في عبادته وسلوكه وأحكام دينه، ويتشدق الغرب اليوم بالحرية إلا مع الدعاة والمجاهدين؛ حيث ينقض الحرية ويمارس أشد أنواع الضيق ومصادرة الحريات.

* * *

٩٥٠ - مفهوم ٣٧: مجاهدة المنافقين:

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩]، والمقصود بالمنافقين هنا: الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام خداعًا للمؤمنين، وخطرهم أشد من الكافرين؛ لأن الكافر يُعرف ويُتقى خطره، أما المنافق فيأمنه المؤمنون بما يظهر من الإسلام، ويطلع على عوراتهم ويوالي أعداءهم، ولذا كان عذابه يوم القيامة أشد من عذاب الكفار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء:١٤٥].

والمقصود بمجاهدتهم: أن يكون المسلمون على حذر دائم منهم، وأن يفضحوهم ويغلظوا عليهم، كما وصف جهادهم الفقيه المفسر ابن العربي بأنه واجب باللسان وأنه فريضة دائمة [ينظر: أحكام القرآن (٢/٩٦٦)]، ومن هذا الوصف الدقيق في مجاهدة المنافقين نخرج ببعض الفروق بين فريضتي جهاد الكفار وجهاد المنافقين، منها:

أ - أن جهاد الكفار يجيء ويذهب باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة، أما المنافقون فجهادهم قائم دائم في السلم والحرب، وفي كل مكان وزمان.

ب - أن عداوة المنافقين متسترة خفية، ومعاداة الكفار ظاهرة جلية، والمستتر أخطر من المعلن، ولذلك قال سبحانه عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

جـ - أن خطر المنافقين يأتي في الغالب من داخل الصف المسلم، بينما خطر الكفار يأتي في الغالب من الخارج، وخطر الخارج لا يتمكن دائما إلا بمساندة من الداخل، والواقع يشهد بذلك، كما في أفغانستان والعراق.

د - أن جهاد الكفار قد يكون عينيًا وقد يكون كفائيًا، وقد يسقط بالأعذار، أما جهاد المنافقين فهو غير قابل للسقوط، وهو واجب عيني على كل مكلف بحسبه.

ويتلخص الفهم الصحيح والموقف السليم في مجاهدة المنافقين في الآتي:

١- بغضهم والبراءة منهم ومن صفاتهم وأفعالهم، وهجرهم وهجر مجالسهم، وهذا من الجهاد القلبي لهم.

٢- فضحهم وتعريتهم وكشف أستارهم، ورصد أخبارهم وخططهم ووسائل إعلامهم،

وتسميتهم بما سماهم الله به: «**المنافقون**».

٣- جهادهم باللسان وما يقوم مقامه من الكتابة وغيرها، ورد كيدهم وشبهاتهم، وتحذير الناس منهم ومن كذبهم وخداعهم ومكرهم، وإقامة الحجة عليهم، وإحباط مؤامراتهم.

٤- إبعادهم عن مراكز التأثير في الأمة، وتفقد الصف الداخلي مهم، ولا سيما صفوف الدعاة والمجاهدين، والحذر من الثناء عليهم أو المجادلة عنهم.

٥- ترك الصلاة خلفهم وعليهم، وعدم الاستغفار لهم إن ظهر كفرهم وماتوا على ذلك.

٦- وعظهم وزجرهم ومناصحتهم، ودعوتهم للتوبة.

٧- الحكم عليهم بالردة إذا ظهر منهم أحد نواقض الإسلام، وإقامة حد الردة عليهم.

٨- جهادهم باليد والإغلاظ عليهم إذا أمنت الفتنة أو المفسدة، والسعي لشل حركتهم وفاعليتهم؛ قال سبحانه عن جهادهم باليد: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة:٥٢]؛ قال أهل التفسير: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي بالقتل؛ إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلناكم.

* * *

٩٥١ – مفهوم ٣٨: مسجد الضرار:

قال سبحانه في وصفه وأهدافه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧]، فمسجد الضرار إذًا مرتبط بالمنافقين الذين يرفعون لافتات إسلامية، ويتخذون لها أمكنة أو مؤسسات ظاهرها الدعوة إلى الإسلام، وباطنها الحرب والكيد للدين وأهله وتفريقًا بين المؤمنين؛ كل ذلك إضراراً بالمسلمين، ولذلك سُمِّي ﴿ضِرَارًا﴾، وقد بناه المنافقون في عهد الرسول ﷺ، وأخبره الله ﷻ بهدف المنافقين من بنائه، فهدمه الرسول ﷺ وأحرقه.

ومثل هذا المسجد يتكرر في كل مكان وزمان يتواجد فيه المنافقون، ويأخذ صورًا وأشكالاً متعددة، يجمعها أنه من داخله يُكاد فيه للدين وأهله، وتعقد فيه المؤامرات

لحرب المسلمين وموالاة الكافرين، وإظهار عورات المسلمين لهم، ومن هذه الصور: تلك المؤتمرات التي تقيمها الأنظمة الطاغوتية باسم الإسلام، والاحتفال بمناسباته، ومنها بعض المؤسسات ومراكز البحوث التي ترفع لافتات إسلامية ودوافع إغاثية خيرية، ومثل هذه المراكز يجب فضحها وتحذير الناس من الاغترار بها، وإذا كان للمسلمين تمكين وقوة وجب هدمها وإزالتها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ، وهذا ضرب من ضروب جهاد المنافقين ومجاهدتهم.

* * *

٩٥٢ – مفهوم ٣٩: استبانة سبيل المجرمين وتعرية باطلهم:

قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنفال:٥٥]، ولم يقل الله ﷻ: (ولتستبين المجرمين) وإنما قال: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فالمطلوب معرفة سبيل المجرمين وطرق كيدهم وخططهم ضد هذا الدين، وليس مجرد معرفة أشخاصهم، ولا يمكن تعرية المجرمين ومعرفتهم إلا بعد معرفة سبيلهم وطرق مكرهم.

واستبانة سبيل المجرمين وتعريتهم أمر لا بد منه في الدعوة إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله، وبدونه تحصل المواقف الخاطئة، ويحصل الاضطراب وتضليل الناس، بل قد يقوم المجرمون باستخفاف المؤمنين وخداعهم وتوظيفهم فيما يريدون؛ يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله– عن الآية السابقة: «فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل لمقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم» [الفوائد:١٠٩].

إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، فلا بد من استبانة الدعاة لسبيل المجرمين ورؤوسهم، وبيان هذا للناس وتعرية الباطل وأهله لهم.

إن استبانة المجرمين وتعرية كيدهم وحقدهم على الدين وأهله يقوي عقيدة الولاء والبراء؛ الولاء للدين وأهله، والبراءة والعداوة للكفر وأهله، ويقوي الانتماء للحق وبذل الجهد والنصيحة في بيانه للناس، كما يتضح المكر الكبار والحقد الدفين في قلوب الكفار والمنافقين، فيزداد المسلم حذرًا منهم، ولا ينخدع بتلبيسهم، ويقوى شعور المقاومة لهم.

٩٥٣ - مفهوم ٤٠: التفاؤل:

التفاؤل شعورٌ قلبيٌّ دافعه حسن الظن بالله ﷻ، النابع من معرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ فأسماؤه سبحانه: الرحمن، والرحيم، واللطيف، والبر، والقوي، والعزيز، وغيرها من أسماء الجلال والجمال تثمر رجاءه سبحانه وحسن الظن به، وإدراك أن فرجه قريب وأن مع العسر يسرًا.

والمؤمن العارف بربه وأسمائه الحسنى لا يتطرق إلى قلبه التشاؤم أو اليأس والإحباط مهما اشتد البلاء وانتفش الباطل في وقت من الأوقات، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة؛ فها هو يقول لخباب بن الأرت ﷺ عندما اشتكى إليه تعذيب المشركين له وطلب النصر في العهد المكي: (**والله لَيتِّمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون**) [رواه البخاري (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣)].

وها هو الرسول ﷺ في غزوة الخندق حين تحزب فيها الكفار وهجموا على المدينة من كل جهاتها، وزُلزِلَ المسلمون زلزالاً شديدًا، كان يبث الأمل والتفاؤل بظهور هذا الدين على فارس والروم، وكان يقول وهو يضرب بالمعول: (**الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام... الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس**) [أخرجه النسائي في الكبرى (٨٨٥٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢١)، وصحَّح إسناده عبد الحق الإشبيلي في مقدمة الأحكام الشرعية الصغرى].

وشدة البلاء مقدمة النصر كما فهم ذلك أصحاب محمد ﷺ حين قال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]، ومن علامات التفاؤل التي تبشر بقرب النصر في زماننا:

١- القصص من الآيات والأحاديث التي فيها وعد الله ﷻ بظهور هذا الدين في جميع الأرض على الدين كله، وفتح قسطنطينية وروميا: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٦].

٢- العودة العالمية والمحلية لهذا الدين، ودخول فئام من الكفار فيه، وتوبة كثير من أبناء الأمة واهتداؤهم.

٣- حاجة البشرية اليوم -وهي تعيش هذا الشقاء- إلى منقذ، ولا منقذ لها إلا دين الإسلام؛ دين الفطرة والعقل والعلم.

٤- انتهاء مركزية الغرب وتقهقره، وتسليط الكفار بعضهم على بعض لينهك بعضهم بعضًا، مع ما تشهده دولهم من انهيار اقتصادي وأخلاقي وكوارث وعقوبات ربانية.

٥- سلامة دين الإسلام من التدخلات البشرية التي عبثت بالنحل المحرفة وشوهتها؛ فهو دين الله المرشح للبقاء والتمكين.

٦- اليقظة التي يشهدها المسلمون، وقوة الشعور بالمقاومة وهم يرون الصراع بين الحق والباطل؛ حيث تكشفت جوانب كثيرة من الحق لم يكونوا على علم بها، وجوانب كثيرة من الباطل كانوا يجهلونها ويجهلون ما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ به من عداوة الكفار وحقدهم على الإسلام وأهله، كما أن المنتمين للحق من دعاة ومجاهدين قوي انتماؤهم له وحماسهم لنصرته والتضحية في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

٧- بلوغ الظلم والكبر والإفساد من أعداء الدين ذروته من كفار ومنافقين، ولم يبق إلا أن يحق عليهم وعد الله سبحانه بالقصم والمحق، والتمكين للمؤمنين: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١].

* * *

٩٥٤ - مفهوم ٤١: الغلبة:

جاء ذكر الغلبة ومشتقاتها في القرآن الكريم على عدة معاني تعود إلى: الظهور، والقهر؛ ومن ذلك:

١ - جاء بمعنى (**النصر**)؛ كما في قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

٢ - وبمعنى (**القهر**)؛ كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف:١١٩].

٣ - وبمعنى (**أصحاب النفوذ**)؛ كما في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ [الكهف:٢١].

٤ - وبمعنى استيلاء الشقاوة على الكفار؛ كما في قوله: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦].

٥ - وبمعنى عدم القدرة على دفع العدو؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠].

والذي يهمنا في مفاهيم الصراع بين الحق والباطل المعنى الأول، والمعنى الثاني؛ وهو أن النصر من عند الله تعالى العزيز الحكيم، فالنصر يأتي بقضاء الله وقدره وقوته إذا أخذ المسلمون بأسبابه، وليس عن كثرة العدد والعدة.

وكما مر بنا في مفهوم سابق عن حقيقة الانتصار، وأنه يتحقق ولو في أحوال تمكُّن الباطل واستضعاف المؤمنين؛ وذلك حين يثبت المؤمنون على دينهم، ويستعلون بإيمانهم على كل الابتلاءات والمساومات، ولا يصدهم ذلك عن دينهم؛ فهذه هي حقيقة الانتصار كما في قصة أصحاب الأخدود وتضحيتهم بأرواحهم في سبيل الله، وثباتهم على الحق.

* * *

سابعًا: مفاهيم حول النصر وعوامله وعوائقه:

٩٥٥ - مفهوم ١: مصطلح النصر:

جاء مصطلح (النصر) في القرآن لمعان متعددة هي من قبل اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد؛ ومن هذه المعاني:

١- الفرج أو المخرج: قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة:٢١٤].

٢- الظفر والغلبة: قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ [يس:١٧١، ١٧٢].

٣- إعانة الرسول ﷺ واتباعه ضد أعدائه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

٤- النجاة من عذاب الله؛ قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ [هود:٣٠].

٥- نصرة المظلوم؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ [الإسراء:٣٣].

٦- الإنجاء من الكفار؛ قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء:٧٧].

٧- إعزاز الله لعباده ولجهادهم في سبيله؛ قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠].

٨- التخلص من عذاب الله يوم القيامة: قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٥].

٩ - القوة والمنعة؛ قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات:٤٥].

* * *

٩٥٦ - مفهوم ٢: النصر والهزيمة:

سبق أن حقيقة النصر هي انتصار العقيدة في قلوب أهلها، والاستعلاء بالإيمان مهما كانت الابتلاءات والمحن، وفي المقابل فإن الهزيمة: هزيمة الإيمان في قلوب أهله واهتزاز العقيدة أمام الابتلاءات، وإن الانتصار في المعارك هو نتيجة الانتصار على الهوى وحب الدنيا في القلوب، والنصر في أرفع صوره هو: انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، والإيمان على الفتنة. ومع هذا الفهم الصحيح لحقيقة النصر والهزيمة فإن لهما مفاهيم في الحس الواقع يتصدرها الفهم الصائب السابق بيانه؛ ومن ذلك:

١ - إن قتل المؤمنين وعدم ظهور نتائج دعوتهم لا يعني الهزيمة، بل قد يموت الأنبياء والدعاة أو يقتلوا ويكون هذا سببًا لظهور الحق والتمكين له، وكم من شهيد نصر عقيدته باستشهاده.

٢ - النصر الحسي في المعارك وثبات الأقدام فيها والتضحية بالمال والنفس في سبيل الله تعالى.

٣ - النصر ليس بالعدد والعدة، وإنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله ﷻ التي لا تقف لها قوة الخلق أجمعين؛ قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩].

٤ - الحق لا يُهزم أبدًا، وإنما يُهزم أتباعه إن فرَّطوا في الأخذ بأسباب النصر؛ قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

٥ - إن كل دعوة لله على بصيرة ويخلص فيها الجند لله فهي غالبة منصورة مهما وُضِعت في سبيلها العوائق؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ

ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ [الصافات:١٧٢، ١٧٣]، وهذا وعد الله الذي لا يتخلف، ولكنها مرهونة بقدر الله وحكمته وعلمه، يحققها حين يشاء، وقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها لا تتخلف: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم:٦]، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر؛ لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولكن الله ﷻ يريد صورة أخرى من النصر هي أكمل وأبقى، فيكون ما يريده الله لا ما يريده البشر.

٦ - النصر والتمكين ثمرة الاستقامة على منهج الله ﷻ ابتغاء وجهه؛ فما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسعادة في نهاية المطاف بعد إعدادها لحمل الأمانة والمحافظة عليها؛ قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور:٥٥] هذا هو طريق النصر.

٧ - كثيرًا ما يقول بعض الدعاة: إن الذي ينقص المسلمين حتى ينتصروا هو قائد كصلاح الدين وغيره من القادة الفاتحين، وهذا خطأ؛ فلو خرج مثل صلاح الدين اليوم لبطش به طواغيت العصر واتهموه بالإرهاب والتطرف، إذن فالقائد المرشح للنصر لا يخرج إلا من أمة مجاهدة ناهضة، فالأمة شرط لوجود القائد وليس العكس.

* * *

٩٥٧ - مفهوم ٣: أساب النصر وأصول التمكين:

للنصر والتمكين أسباب وأصول وفق المنهج النبوي للتغيير تتلخص في الآتي:

١- **صحة الفهم والبصيرة في الدين:** قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨]، فكل من أراد نصرة هذا الدين والسعي للتمكين له في الأرض فلا بد أن يكون على بصيرة صحيحة للدين؛ وذلك باتباع الرسول ﷺ، وترسُّم هديه ومنهجه، وأهم ذلك: البدء بالدعوة إلى توحيد الله ﷻ لا شريك له وتصحيح الاعتقاد، هذا هو ما بدأ به الرسول ﷺ والأنبياء من قبله؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ

ﵟٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖﵞ [النحل:٣٦]، وقال سبحانه: ﵟوَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِﵞ [الأنبياء:٢٥].

٢- **الإخلاص لله تعالى في القيام بالدعوة وحسن القصد**: وهذا يؤخذ من الآية السابقة في سورة يوسف؛ وذلك في قوله: ﵟأَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚﵞ [يوسف:١٠٨]، أي أدعو إلى الله وحده مخلصًا له الدين، وليس إلى نفسي أو أي غرض آخر.

٣- **اجتماع الكلمة ووحدة الصف**: وهذا الأصل هو ثمرة الإخلاص وحسن القصد؛ لأن من أكبر أسباب الفرقة ضعف الإخلاص واتباع الهوى وحظوظ النفس، لا سيما إذا كان المختلفون على فهم صحيح ومنهج سليم، فإذا اختلفوا وهم على منهج واحد فلا بد أن الهوى وضعف الإخلاص كان هو السبب، وقد بيَّن الله سبحانه لنا في كتابه سنة لا تتبدل؛ وهي أن الفشل وتأخر النصر ثمرة الاختلاف والتفرق؛ قال سبحانه: ﵟوَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖﵞ [الأنفال:٤٦].

٤- **لا بد من التمحيص والتمييز**: قال الله ﷻ: ﵟوَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَﵞ[آل عمران:١٤١]، وقال سبحانه: ﵟمَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗﵞ [آل عمران:١٧٩]، فالله ﷻ يعلمنا في هاتين الآيتين أنه لا تمكين قبل التمحيص وقبل أن يميز الخبيث من الطيب، إذن لا بد قبل التمكين والنصر من الابتلاء الذي يمهد له، وهذا يقتضي أن تأخذ الدعوة حظها من البلاغ المبين لهذا الدين حتى تقوم الحجة على الناس، ويحيا من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

٥- **الأخذ بالأسباب المادية المتاحة المباحة**: لئن كان سبق من الأصول هو من باب الأخذ بالأسباب الشرعية للنصر والتمكين، فإن المقصود بهذا الأصل الخامس هو الأخذ بأسباب القوى المادية والإعداد لذلك حسب الاستطاعة والوسع، وفي واقعنا اليوم يتعين على القائمين لنصرة الدين الإعداد المادي، والإعداد الإعلامي، والإعداد العسكري، إلى غير ذلك من الأسباب المأمور بها والتي ينبغي عدم التفريط فيها.

٦- **التوكل على الله ﷻ والاستعانة به وحده**: وهذا أصل مهم من أصول النصر

والتمكين، وهو وإن كان داخلاً في الأصلين الأول والثاني، فإن إفراده هنا بفقرة مستقلة له أهميته حتى لا يتعلق أنصار الله بالأسباب وتضعف استعانتهم بالله ﷻ؛ فالله سبحانه هو الناصر والمؤيد؛ قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، وحقيقة التوكل على الله هي غاية الاعتماد على الله سبحانه مع غاية الثقة وحسن الظن به سبحانه، والتبرؤ من الحول والقوة، وتحقيق قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]، كما أنه يقتضي كثرة ذكر الله وتسبيحه واستغفاره، وكثرة الصلاة؛ قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:٣٩،٤٠]، وتقوية اللجوء إلى الله ﷻ، ودعاءه والتضرع بين يديه في استجلاب النصر ودفع شر الأعداء، واليقين بنصره سبحانه، وبتسخيره جنود السموات والأرض لنصرة أوليائه إذا حققوا أسباب النصر، وهذا ما فعله الرسول ﷺ في غزواته؛ ففي غزوة بدر رتَّب الجيش وأخذ بالأسباب الممكنة، ثم توجه إلى العريش يدعو ويناشد ربه النصر، وكذلك في غزوة الخندق وغيرها من الغزوات، وهذا هو المنهج الوسط العدل في استجلاب نصر الله تعالى الواقع بين طرفين مذمومين:

الطرف الأول: الذين يعتقدون بأن الله ناصرهم لمجرد أنهم مسلمون، ولو فرَّطوا في أسباب النصر كلها أو بعضها، ويقولون: إنهم متوكلون على الله دون الأخذ بالأسباب الشرعية والمادية.

الطرف الثاني: الذين بالغوا في الأمور المادية وتعلقوا بها، ورأوا أنه لا يكون النصر إلا إذا كانت قوة المسلمين كقوة الكفار أو أعظم، وضعف توكلهم على الله وثقتهم بنصره وقهره للأعداء بسلاح الرعب، وسلاح الملائكة، وغيرها من الآيات والخوارق، ونسوا قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:٢٤٩]، ونجم عن هذا التصور ضعف اللجوء إلى الله واستجلاب النصر من عنده، ويأسوا من نصرة الدين لتفوق الأعداء بعددهم وعتادهم.

* * *

٩٥٨ - مفهوم ٤: الجماعة والفرقة:

المراد بالجماعة: من كان على مثل ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في المعتقد والسلوك، وهذا التعريف للجماعة مأخوذ من قوله ﷺ: (... **لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار**)، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: (**الجماعة**) [رواه ابن ماجه (٣٩٩٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٤١)، وقال الأرناؤوط في تخريج سنن ابن ماجه (٣٩٩٢) صحيح لغيره]. وفي حديث آخر: (**ما أنا عليه وأصحابي**) [رواه الترمذي (٢٦٤١) وحسَّنه الألباني، وأشار أحمد شاكر لصحته (عمدة التفسير (١/٣٥٣)]، وقد ذكر الشاطبي -رحمه الله- عدة معاني للجماعة تنتهي إلى معنيين هما:

١- جماعة العقيدة والمنهج: وهي الملتزمة بما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم من أمور الاعتقاد وأصول الأخلاق.

٢- الجماعة بالمعنى الخاص؛ وهو الالتزام بجماعة المسلمين التي لها إمام موافق للشرع، وعدم مفارقتها أو الخروج عليها.

* * *

٩٥٩ - مفهوم ٥: الافتراق المذموم المنهي عنه:

هو أن تفترق الجماعة الواحدة صحيحة المعتقد فيما بينها؛ لأن الافتراق بين أصحاب المنهج الواحد لا يكون إلا وسببه الهوى وحظوظ النفس، وهذا النوع من الافتراق هو الذي جاءت نصوص الكتاب والسنة بالنهي عنه والتحذير من عواقبه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٠-٣١]، وقوله ﷺ: (**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**) [رواه أحمد (١٨٤٧٢)، وحسَّنه الألباني (الصحيحة٦٦٧)]، وهو الذي جاءت الآثار عن السلف في التحذير منه؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه: «الخلاف شر»، وقوله: «إن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة».

* * *

٩٦٠ - مفهوم ٦: الافتراق المحمود:

وهو الافتراق عن المذاهب والطوائف المبتدعة المخالفة لما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فهذا افتراق محمود مُتعيَّن.

* * *

٩٦١ - مفهوم ٧: الوسطية في الاجتماع والافتراق:

الوسطية تعني العدل والوسط؛ بمعنى أن هناك طرفان مذمومان ووسط ممدوح:

طرف الإفراط في فهم الجماعة بحيث يضيق مفهومها حتى ينتهي به الأمر إلى إخراج طوائف وأفراد عن دائرة أهل السنة والجماعة بمجرد وقوعهم في أخطاء يسعها الخلاف، أو مخالفة في باب من أبواب العقيدة بسبب اجتهاد في الفهم وليس التزامًا لأصل من أصول أهل البدع، وقد أدى هذا الفهم من هذا الطرف إلى إخراج أئمة كبار من فقهاء الأمة ومحدثيها ومجاهديها.

طرف التفريط: وهم الذين فرَّطوا وتوسعوا في معنى الجماعة، حرصًا منهم -بزعمهم- على وحدة الكلمة للمسلمين، وتقوية الصف، فوسعوا مفهوم الجماعة حتى أدخلوا فيها من ليس منها من أهل الفرق أو البدع والضلالات ممن خالفوا أصلاً أو أكثر من أصول الاعتقاد.

الوسط: وهم الذين لم يتوسعوا ولم يتميَّعوا في مفهوم الجماعة، ولا أدخلوا فيها من ليس منها، كما أنهم لم يضيقوا دائرة أهل السنة فيخرجوا منها كل من له أدنى زلة، ومع ذلك فإن هذا الوسط يرى أن المنتسبين إلى أهل السنة والجماعة والداخلين في دائرتهم يتفاوتون في تكميل صفات أهل السنة، فبعضهم أكمل من بعض في المعتقد والسلوك، وبعضهم أكمل في الدعوة والجهاد، وفي البذل والعطاء، لكنهم يبقون كلهم في دائرة أهل السنة والجماعة، وكلما قرب المنتسب إليهم للكمال كان أفضل. والخلاف في الاجتهادات والنوازل وأحكامها وارد بين أهل السنة، لكنه لا يؤدي إلى فرقة وشحناء، فإن أدى إلى هذا فإنه البغي والهوى كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «لكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة، إلا مع البغي لا لمجرد الاجتهاد» [الاستقامة ١/ ٣١].

٩٦٢ - مفهوم ٨: الحزب والتحزب:

التحزب هو اجتماع طائفة على هدف محدد وعمل معين يكون بين أفرادها تجانس وتعاون وعمل منظم، وينقسم إلى تحزب محمود، وتحزب مذموم.

فالتحزب المحمود: هو الاجتماع على عمل يحبه الله ﷻ من: عبادة، أو دعوة، أو جهاد أو إغاثة، ويكون ملتزمًا بالكتاب والسنة بفهم الصحابة، ويكون المقصود منه ابتغاء وجه الله ﷻ وجنته، بعيدًا عن التعصب للحزب وأفراده.

والتحزب المذموم: هو الاجتماع على عمل معين يخالف ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أو أن يكون موافقًا له لكن يراد منه الدنيا وحظوظها، والحزب الذي هذه حاله يغلب على أفراده التعصب المذموم للحزب وأهله، وعقد الولاء والبراء عليه.

وعن هذين النوعين من الأحزاب يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب – أي تصير حزبًا – فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادة أو نقصان، فهم مؤمنون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك أو نقصوا؛ مثل التعصب لمن دخل معهم في حزبهم بالحق والباطل والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو الباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن الله ورسوله ﷺ أمرا بالجماعة والائتلاف ونهيا عن الفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان». [مجموع الفتاوى (١١/ ٩٢)].

❊ ❊ ❊

٩٦٣ - مفهوم ٩: المراجعات:

المراجعات صفة حميدة؛ لأنها تقوم على مراجعة النفس ومحاسبتها لمعرفة ما لها وما عليها، بحيث يكون العبد في تقويم مستمر لنفسه، وأطْرٍ لها على الحق، وترك لما فيه مخالفة للكتاب والسنة، هذا على مستوى الفرد.

كما أن المراجعة المحمودة تكون على مستوى الجماعات والطوائف الإسلامية، بالنظر في أحوالها ومسيرتها، ومدى قربها أو بعدها عن الكتاب والسنة علمًا وعملاً وحالاً،

ومن المراجعات: الرجوع إلى الحق إذا بان بدليله، والإقلاع عن الباطل إذا بان بطلانه، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه في وصيته لأبي موسى الأشعري وهو يوليه القضاء: «ولا يمنعك قضاء قضيت به اليوم، فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك، أن تراجع فيه الحق؛ فإن الحق قديم، ولا يبطل الحق شيء، وإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل» [إعلام الموقعين (١/ ١١٠)].

❋ ❋ ❋

٩٦٤ - مفهوم ١٠: التراجعات:

هي تعني التراجع عن الحق، وهي صفة مذمومة، وهي مقابلة للمراجعات، وقد يختلط مفهوم المراجعات بالتراجعات، وبينهما خيط رفيع؛ فالفرق بينهما أن المراجعات -كما سبق ذكرها- الانقياد للحق والرجوع إليه إذا تبين، وعدم التعصب للنفس وأخطائها، والمحاسبة المستمرة للأقوال والأفعال والمواقف، ومدى موافقتها للشرع.

أما التراجعات فهي في الغالب رجوع عن الحق، وانتكاسات في المفاهيم والسلوك، وهي تصف حالة عدم استقرار نفسي تنجم في حالات الاستضعاف والابتلاءات، أو في حالات الاندفاعات غير المحسوبة، أو أنها تكون ردود أفعال لممارسات خاطئة تدفع إلى صورة خاطئة مقابلة؛ كمن يرفض أي عمل جهادي لما يراه من بعض الممارسات الخاطئة لبعض المجاهدين.

❋ ❋ ❋

٩٦٥ - مفهوم ١١: عوائق النصر:

هي التي تؤخِّر نصر الله عز وجل بسبب ذنوب العباد؛ وذلك بتخلف واحدة أو أكثر من الأسباب السابق ذكرها من أسباب وشروط النصر؛ إما لخلل في المنهج والاتباع، أو ضعف في الإخلاص وإرادة غير وجه الله عز وجل، وإما لوجود الفرقة والتنازع داخل الصف المؤمن، أو التفريط في الأخذ بالأسباب المأمور بها من إعداد القوة المادية؛ هذه أهم العوائق التي ينتج عنها تأخر نصر الله عز وجل على وجه الإجمال، أما على وجه التفصيل فيمكن تقسيم هذه العوائق إلى: عوائق داخلية، وعوائق خارجية.

٩٦٦ - مفهوم ١٢: العوائق الداخلية:

وهي التي تتعلق بالعوائق الذاتية في نفوس الدعاة؛ كالخلل في الفهم والقصد، أو فيما بينهم، وهي إما عوائق ظاهرة؛ كوجود بعض المعاصي الظاهرة المستقرة عند بعض الدعاة، أو عوائق باطنية؛ كضعف الإخلاص أو الخوف أو الرجاء، أو وجود بعض الأمراض القلبية؛ كالحسد والعجب وغيرهما، كما تشمل العوائق الداخلية وجود الإحن والأحقاد والفرقة والتنازع من بعض الدعاة، كل هذا من العوائق التي تؤخر نصر الله ﷻ.

ومن العوائق تقديم ما يسمى (مصلحة الدعوة) ليبرر بها كثير من المخالفات الشرعية باسم المصلحة، وهذا مزلة ومدخل للشيطان يدخل منه إلى الدعوة وأهلها ليلوثها، وقد تتحول مصلحة الدعوة إلى صنم يتعبد به بعض الدعاة وهم لا يشعرون، وأصحاب الدعوة الصادقون يكون همهم الاستقامة على المنهج الصحيح دون التفات إلى ما يعقبه من نتائج قد يلوح لهم أن فيها خطرًا على الدعوة وأصحابها، فيؤول بهم ذلك إلى تنازلات خطيرة باسم مصلحة الدعوة، والله تعالى أعلم منهم بالمصلحة، وإنما الدعاة مكلفون بالاستقامة على المنهج الصحيح، وأن لا يحيدوا عن الطريق، والله ﷻ يتكفل بالنتائج ويأتي بنصره سبحانه حسب علمه وحكمته.

* * *

٩٦٧ - مفهوم ١٣: العوائق الخارجية:

وهي تلك العوائق والتحديات الواردة من خارج الصف الإسلامي؛ ومن ذلك:

١- الكفار الصرحاء المسفرون عن عدائهم وحقدهم على الإسلام وأهله وحربهم لهم.

٢- المنافقون المظهرون للإسلام المبطنون للكفر ممن هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا؛ كالعلمانيين والباطنيين الذين يكيدون لهذا الدين ويتولون الذين كفروا من يهود ونصارى وغيرهم، ويظاهرونهم على المسلمين.

٣- الأنظمة المحادة لله ورسوله، التي تحكم بغير ما أنزل الله وتضطهد الدعاة والمصلحين بحجة أنهم أهل التطرف والإرهاب، ويتبع هؤلاء كل من والاهم واصطف في خندقهم واستخدمه الطواغيت في محاربة الدعاة والمصلحين؛ مثل

علماء السوء، وقضاة السوء، والأجهزة الإعلامية والأمنية والعسكرية.

والعوائق الداخلية أخطر من الخارجية؛ إذ لو سلم المسلمون من العوائق الداخلية داخل النفوس لم تضرهم العوائق الخارجية؛ قال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

* * *

٩٦٨ - مفهوم١٤: الاختلاف:

الاختلاف من طبيعة البشر؛ وذلك لاختلاف العقول والأفهام، ودخول الهوى وحظوظ النفس والتعصب للآراء والمواقف، ومع ذلك فالحق واحد لا يتعدد، ولكنه قد يتنوع وأصله واحد. ووجود الاختلاف لا يعني العداوة أو المفارقة والقطيعة، سيما إذا كان داخل دائرة أهل السنة؛ فما زال السلف يكون بينهم الاختلاف حول بعض مسائل الأحكام، ومع ذلك يبقى الحب والموالاة بينهم. والاختلاف على قسمين:

١- قسم يحمد فيه أحد الطرفين ويذم فيه الطرف الآخر؛ كالاختلاف الواقع بين المؤمنين والكفار، أو بين أهل السنة وأرباب البدع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩]، وكل ما يتصل بمسائل العقيدة وأصولها التي لم يختلف عليها سلف الأمة؛ فإن مفارقة المخالفين لها متعينة وداخلة تحت هذا القسم.

٢- قسم يذم فيه الطرفان المختلفان إذا تسبب هذا في الفرقة والعداوة، ويحمد منه الطرف الذي لم يجعل هذا الاختلاف سببًا في المفاصلة والفرقة، وقد وسع هذا النوع من الاختلاف سلف الأمة، ولم يحصل بسببه فرقة وعداوة.

* * *

٩٦٩ - مفهوم ١٥: ما يسعه الخلاف:

كل مسألة وسع السلف الاختلاف فيها فيسعنا ما وسعهم، وله صور متعددة؛ منها:

١- الاختلاف في تحرير محل النزاع؛ وذلك بأن يذهب أحد المختلفين إلى موضع من النزاع غير ما ذهب إليه الآخر، أو أن أحد الطرفين سماه بمصطلح معين والآخر سماه

بمصطلح آخر، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد، فيظهر أن هناك اختلافًا ولكن عند تحرير موضع النزاع يتبيَّن أن هناك اتفاقًا وليس خلافًا؛ كالاختلاف في تفسير **(الصراط المستقيم)**؛ حيث فُسِّر بالإسلام وفُسِّر بالسنة، وفُسِّر بالقرآن، وهذه التفسيرات من باب اختلاف التنوع؛ حيث إنها أسماء مشتركة لمعنى واحد هو: الإسلام.

٢- الاختلاف في مسألة لها عدة صور كلها صحيحة وليست متضادة، وهذه تظهر في صفات بعض العبادات؛ كالاختلاف في صفة إقامة الصلاة من قائل بشفعها، ومن قائل بإفرادها؛ حيث ورد دليل صحيح لكل صيغة، وكالاختلاف في القراءات.

٣- الخلاف حول مسألة معينة ورد الدليل عليها، ثم يأتي المخالف بدليل مخالف لها، وبعد التحري عن الأدلة ظهر أن أحد الدليلين أقوى وأرجح من الآخر، فهنا يتعين الرجوع إلى القول الراجح، وقد يصر كل طرف أن دليله هو الأصح، فهذا مما يسعه الخلاف ولا يجوز أن يكون سببًا في الفرقة، ولكن هذا لا يعني الأخذ بالأقوال الشاذة، أو بعض سقطات العلماء المخالفة للدليل، بل يجب مناصحة المخالف وإرجاعه للدليل.

❋ ❋ ❋

٩٧٠ - مفهوم ١٦: خطأ مقولة لا إنكار في مسائل الخلاف:

إطلاق هذه الجملة غير صحيح، والصحيح أن يقال: **لا الإنكار في مسائل الاجتهاد؛** لأن الاختلاف في مسألة ورد دليل صحيح عليها يجب الإنكار على من أخذ بخلافه ولكن دون مفارقة أو عداوة، أما مسائل الاجتهاد التي لم يرد الدليل عليها فلا إنكار فيها.

❋ ❋ ❋

٩٧١ - مفهوم ١٧: ظلم الدعاة بعضهم لبعض الناشئ عن الفرقة والاختلاف:

إن أشد ما يغيظ الشيطان أن يرى الألفة والمحبة والاجتماع بين الدعاة المصلحين في هذه الأمة، وإن أشد ما يفرحه أن يوقع بينهم الفرقة والعداوة؛ لعلمه أن الاجتماع سبب للنصر والفلاح في الدنيا والآخرة، وفي الفرقة الفشل وذهاب الريح، كما أن في أجواء الفرقة والاختلاف ينتشر البغي، ومن صور هذا الظلم الواقع اليوم بين المسلمين ما يلي:

١- الغيبة والنميمة الناجمة عن الحسد والحقد، وإساءة الظن بالدعاة، وتتبع عوراتهم.

٢- قد يتجاوز الأمر الغيبة والحسد إلى محاولة إلحاق الأذى والضرر ببعض المصلحين

والوشايات الكاذبة التي يترتب عليها الإضرار بالبدن أو العرض أو المال.

٣- بخس أهل العلم حقهم، ونسيان بلائهم وجهدهم وجهادهم بمجرد عثرة أو عثرات وجدت عليهم، وهذا من الظلم وعدم العدل والإنصاف.

٤- الفرح بوقوع أهل العلم والإصلاح في الأخطاء والمخالفات، والحزن والانقباض عند إصابتهم للحق، والشماتة بهم إذا أصابهم المكروه والأذى.

٥- عدم الوضوح وعدم الصدق بين أهل العلم، والتعامل بأساليب غامضة ملتوية قد يستخدم فيها الكذب أو الغدر والخيانة، وهذا كله من الظلم ومحق البركة.

٦- السكوت على ما يقع على بعض الدعاة من ظلم وعدوان، والقعود عن نصرتهم عند الاستطاعة، والجلوس عند من يتكلم فيهم ويفتري عليهم ويلصق بهم المثالب دون إنكار عليهم أو مفارقتهم عند عدم القدرة على الإنكار.

٧- ومن الظلم الحاصل بين بعض الدعاة: الجور والعدوان في ردود بعضهم على بعض، سواء كانت في حوار، أو مناظرات، أو مكتوبة. والردود غالبًا ما يحكمها الهوى، لاسيما إذا كانت بحضرة فئام من الناس. ومن صور هذا البغي:

أ- اتهام النوايا والمقاصد. ب - رد الحق الذي يظهر على لسان المخالف.

ج - إلزام المخالف بلازم قوله مما لا يلتزم به.

د - إطلاق بعض التهم على المخالف مما لا دليل عليها.

هـ - التعصب لبعض الآراء ولو كانت باطلة.

❋ ❋ ❋

مفاهيم

في الجهاد

مفاهيم في الجهاد

٩٧٢ - مفهوم ١: معنى الجهاد:

الجهد لغة: الطاقة والمشقة، والجهاد: بذل الوسع والطاقة وتكبد المشقة لتحقيق غاية ما.

والجهاد شرعًا: مصطلح خاص بالإسلام، إذا أطلق ينصرف أساسًا إلى القتال في سبيل الله، ويقصد به: بذل الوسع والطاقة في قتال أعداء الدين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؛ قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]. ولم يشرع قتال أعداء الدين إلا بعد إهلاك فرعون وقومه؛ حيث أنزلت التوراة على موسى عليه السلام بعد هلاك فرعون كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص:٤٣]، وشرع فيها قتال الأعداء، ويشهد لذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة:١١١]، فلم يذكر الوعد بالجنة على القتال في سبيله إلا في التوراة والإنجيل والقرآن؛ مما يفيد أن قتال الكفار لم يشرع قبلها. [ينظر تفسير ابن تيمية (٥/ ٨٠)، وتفسير السعدي للآيات ٤٥-٤٩ من سورة المؤمنون].

* * *

٩٧٣ - مفهوم ٢: معانٍ أخرى للجهاد:

هناك معنيان آخران للجهاد غير هذا المعنى الرئيس، وإن كانا يمهدان له، وهما بمثابة المقدمة للقتال:

١ - جهاد النفس والشيطان؛ فهو ضرب من ضروب الجهاد يمهد لجهاد الكفار، وهو لا يسقط عن أي مسلم.

٢ - الجهاد القلبي: وهو البراءة من الكفر وأهله وبغضهم والتربص بهم، وحديث النفس بغزوهم كما قال ﷺ: **(من مات ولم يغز، ولم يحدِّث به نفسه مات على شعبة من نفاق)** [رواه مسلم (١٩١٠)].

وعلى هذا فجنس الجهاد فرض عين: إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فعلّق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطَّل من الجهاد، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه، ومن نُصِرَتْ عليه نُصِرَ عليه عدوه.

* * *

٩٧٤ – مفهوم ٣: معنى لا إكراه في الدين:

قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والمقصود: أنه إذا فُتِحَ بلد كافر فإن أهله يخيرون بين الإسلام أو البقاء على الكفر مع دفع الجزية مقابل العيش بأمان في ظل الدولة المسلمة، ومقابل دفع الزكاة المفروضة على المسلمين؛ فلا تعارض بين الآية ومشروعية جهاد الطلب الذي كان سببًا رئيسًا في انتشار الإسلام.

* * *

٩٧٥ – مفهوم ٤: تشريع الجهاد يحقق سنة المدافعة بين الحق والباطل:

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمد:٤] في هذه الآية بيان سنة المدافعة التي يبتلي الله بها عباده، ويصطفي من يشاء منهم لنصر دينه، وإلا فإن حقيقة معركة الكفار هي مع الله الجبار.

* * *

٩٧٦ – مفهوم ٥: الكتاب والسنة يزخران بالحديث عن الجهاد:

لما كان الجهاد ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة فقد استغرق ذكره آيات عديدة من كتاب الله، وأحاديث من سنة رسوله ﷺ.

٩٧٧ - مفهوم ٦: تشريع الجهاد يحقق العدل والقسط:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد:٢٥]، قال ابن تيمية -رحمه الله-: «قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر» [السياسة الشرعية، ص٧]، فالجهاد سُنَّ للحق، وقوله: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يشير إلى أن الجهاد يكون بالعدل والقسط بعيدًا عن الظلم والجور.

* * *

٩٧٨ - مفهوم ٧: غايات الجهاد:

شرع الجهاد بوجه عام لتحقيق سنة المدافعة، ولتحقيق العدل والقسط كما ذكرنا، ويمكن تفصيل ذلك أكثر على النحو الآتي:

١-شرع ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، وأشد فتنة هي الكفر والشرك كما ذكر المفسرون.

٢- ولتقرير حرية دعوة البشرية كلها بدون عوائق وتشويه، فتكثر بذلك هداية الناس.

٣- وليقيم الإسلام نظامه الخاص في الأرض، ويقرره ويحميه، ويلغي عبودية البشر للبشر.

هذه هي أهم غايات الجهاد؛

* * *

٩٧٩ - مفهوم ٨: الشهادة في سبيل الله:

الشهيد لغة هو: الحاضر الشاهد.

وشرعًا: هو من قتل في سبيل الله في قتال الكفار، والله يصطفي من يشاء من عباده للشهادة في سبيله، وقد ذكر أن سبب تسمية الشهيد بذلك الآتي:

١- لأن موته في سبيل الله شهادة على أن هذا الدين حق ويستحق أن يضحى له.

٢- لأن روحه شهدت الجنة قبل دخول جسده يوم القيامة.

٣- قتله في سبيل الله شهادة على صدقه في محبة الله ودينه.

٤- دمه بمثابة التوقيع الذي يمليه الشاهد على يقينه أن هذا الدين أغلى عنده من نفسه.

٥- يبعث يوم القيامة وله شاهد بقتله -وهو دمه- فيبعث وجرحه يثعب دمًا؛ اللون لون الدم، والريح ريح المسك.

٦- الشهيد حاضر حي عند ربه، ليس بميت، يشهد ما أعد الله له من الكرامة بالقتل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]، وحياته لا نعلم كنهها: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

٧- الشهيد حاضر برسالته الباقية حية في الأرض.

وكل هذه المعاني صحيحة وتنطبق على الشهيد، فيا له من فضل وكرامة!

* * *

٩٨٠ - مفهوم ٩: فضل الشهادة:

نستخلص من معاني الشهيد السابقة فضل الشهادة، ونلخصها فيما يلي:

١ - اصطفاء الله لهم واختياره؛ فالشهادة لا تعطى لكل من أرادها وسعى إليها، بل كما قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

٢ - أن الشهداء أحياء لم يموتوا، ولا يصح أن نقول عنهم ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]؛ فنحن لا نشعر ولكن الله يعلم ونحن نصدق قوله سبحانه.

٣ - الشهيد بجوار ربه وقربه، وفي كنفه وحفظه؛ كما قال تعالى: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

٤ - قد نالوا رضا ربهم وفضله عليهم؛ فهم: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٧٠]؛ فقد أفاض الله عليهم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، وأمَّنهم من الخوف: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، ومنحهم الفرح والسرور: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأبعد عنهم الحزن: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٥ - لم ينقطع اطلاعهم على أحبابهم وأهليهم في الدنيا: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠]؛ فانتقال الشهيد للآخرة لم يحجزه عنهم.

٩٨١ - مفهوم ١٠: انحسار الجهاد وأسبابه:

انحسر اليوم الجهاد كثيرًا عمَّا كان عليه وقت عزة المسلمين وغلبتهم، وقد تسبب في ذلك عدة عوامل؛ من أهمها:

١- انتشار الفكر الصوفي الذي يجعل الانعزال هو الجهاد الأكبر.

٢- ضغط وعدوانية النصارى واليهود والمنافقين وبقية الكفار، الذين عمدوا إلى تشويه مفهوم الجهاد وإلصاق تهمة الإرهاب به، ومنع أي محاولة للقيام به إلا إن كانت لمصلحتهم؛ كما سمحوا به في أفغانستان في بداية الأمر للقضاء على الاتحاد السوفيتي، ثم لمّا تمَّ لهم مرادهم قطفوا هم الثمار ونكّلوا بالمجاهدين.

٣- تسلط الحكام الطواغيت على بلدن المسلمين، وموالاتهم للكفار، وتعطيلهم للجهاد ومحاربته، والتنكيل بالمجاهدين بدلاً من دعمهم.

* * *

٩٨٢ - مفهوم ١١: فضل الجهاد:

للجهاد في سبيل الله فضل عظيم وأجر كبير؛ قد ورد بذلك العديد من آيات الكتاب العزيز وأحاديث الرسول الكريم ﷺ، ويكفينا في ذلك:

- قول الله ﷻ: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

- وجعل الله ﷻ الجهاد في سبيله أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج؛ قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:١٩-٢١].

- جعل الله كل حركة، وكل نصب، وكل مخمصة في سبيل الله مما يكتب من العمل الصالح للمجاهد، وكفى بذلك فضلاً؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ

وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١]. ولهذا قال ابن تيمية -رحمه الله-: «الجهاد مشتمل على جميع العبادات الظاهرة والباطنة...» [مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٥٣)].

- ومن الأحاديث: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد. قال: (**لا أجده**)، ثم قال: (**هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟!**) قال: ومن يستطيع ذلك؟ [رواه البخاري (٢٧٨٥)]، فقوله ﷺ: (**لا أجده**) يدل على أفضلية الجهاد على ما سواه من الأعمال.

* * *

٩٨٣ - مفهوم ١٢: المرابطة:

هي الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء، وبما أن الأعداء يتربصون بالمسلمين الدوائر في جميع الأزمنة والأمكنة فإن المرابطة مستمرة وشاملة.

* * *

٩٨٤ - مفهوم ١٣: حتمية الجهاد ومواجهة الأعداء:

الجهاد قائم ومستمر لأن مواجهة الباطل ومنعه حتمية ولا بد منها؛ قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء:١٨]، فينبغي ألا يظن أهل الحق أنه يمكن مسالمة أهل الكفر والباطل دائمًا وأبدًا عملاً -حسب ظنهم- بقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]؛ إذ ليس المقصود بالآية إقرار الكفر والباطل، بل هو تهديد ووعيد على جزاء الكفر وعاقبته؛ وهي كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس:٤١]، كما أنها تأكيد على عدم التنازل عن أي شيء من الحق وثوابت الدين إرضاء لأهل الكفر، فتكون كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم:٨-٩].

ومما يؤكد حتمية هذه المواجهة أن أهل الكفر والباطل سيستمرون -حتى لو أراد

أهل الحق تجنبهم- في السعي لرد أهل الحق عن دينهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، وعليه، فلا يكون في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ إذن بعدم قتال أهل الكفر؛ فلا يصح ذلك إلا على سبيل التأقيت حال الاستضعاف وعدم القدرة على المواجهة، وذلك لحين إعداد العدة والقوة الممكنة لمواجهة أهل الباطل، ولهذا قال بعض المفسرين: إن الآية منسوخة بآية السيف [ينظر تفسير القرطبي عند الآية]، والأولى أن يقال: إن المواجهة والجهاد حال الاستضعاف منسوء -أي مؤجل- لحين القدرة على مواجهة أهل الباطل، والآية ليست منسوخة.

❋ ❋ ❋

٩٨٥ – مفهوم ١٤: قتال أئمة الكفر ومن هو قريب من ديار الإسلام:

أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين ويهاجمونه ليسوا مثل عموم الكافرين؛ فأولئك هم الأولى بالقتال، وينبغي إفنائهم والتصدي لهم بكل سبيل ممكن؛ قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:١٢].

كما أن الكفار المتاخمين لحدود ديار الإسلام هم أيضًا من أول من يبدأ بجهادهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣].

وقتال أئمة الكفر ومن هم قريبون من ديار الإسلام يندرج تحت **(جهاد الطلب)** المبين في المفهوم (١٦) من هذا الباب، فهو يتطلب تحقيق شروطه وينضبط بضوابطه من: قيام دولة الإسلام أولًا، والقدرة عليه، والتحقق من رجحان المصلحة على المفسدة في القيام به؛ ولذا فلا يصلح قيام بعض الشباب الغر بهذا الجهاد استقلالاً معتمدين على النصوص العامة والمجملة المتعلقة به، وإنما الذي يقرر رجحان المصلحة على المفسدة في القيام بالجهاد ويفتي بجوازه أو وجوبه في زمان أو مكان ما هم: أهل العلم الراسخون من فقهاء المجاهدين بعد التشاور مع المجاهدين أهل الخبرة العسكرية.

❋ ❋ ❋

٩٨٦ - مفهوم ١٥: دار الحرب ودار الإسلام:

كل دار تحارب المسلم في عقيدته، وتصده عن دينه، وتعطل شريعة الله فهي دار حرب، ولو كان معظم أهلها مسلمين، ولكن هذا لا يعني أنهم يكفرون بوجودهم فيها، وإنما يتوجه الكلام إلى السلطة التي تحكمهم بغير شرع الله وتصدهم عن دينهم وهم غير راضين بهذا الحكم.

وكل دار يحكم فيها بالإسلام، وتنتشر فيها الدعوة إلى الله، ويمَكَّن فيها المسلم من عقيدته وعبادته لله، وتظهر فيها شعائر الله فهي دار إسلام، ولو كثر فيها الكفار الذين هم تحت حكم المسلمين وسيطرتهم ويؤدون الجزية.

* * *

٩٨٧ - مفهوم ١٦: جهاد الدفع وجهاد الطلب:

ينقسم جهاد الكفار إلى قسمين: جهاد دفع، وجهاد طلب:

١ - **جهاد الدفع**: هو جهاد الصائل والمعتدي -كافرًا كان أو مسلمًا- وهو جهاد الظالم بلا تأويل ولا ولاية، وهذا فرض عين على كل مسلم ذكر مكلف قادر على النحو الآتي:

- إن كان قصد الصائل المال جاز دفعه بما يمكن، ولو يعطي شيئًا من المال.
- وإن كان قصده العرض والزنا فيجب على المعتدى عليه أن يدفع عن نفسه بما يمكن، ولا يجوز التمكين منه بحال.
- وإن كان قصده القتل وجب دفعه أو جاز، والوجوب على قولين في مذهب أحمد وغيره.
- وإن كان القتال قتال فتنة ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره: جواز أن يدفع عن نفسه أو أن يستسلم.

فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبًا؛ فهو متعين بدون إذن، وهذا كجهاد المسلمين يوم أحد والخندق، ويشهد له قول النبي ﷺ: (**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**) [رواه الترمذي (١٤٢١) من حديث سعيد بن زيد، وحسَّنه، وطرفه الأول عند البخاري (٢٤٨٠) ومسلم (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو]؛ فدفع الصائل على الدين جهاد وقربة،

ودفع الصائل على المال والنفس مباح، فإن قتل فيه فهو شهيد.

ولا يشترط في جهاد الدفع أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون؛ فهو جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار، وجهاد الدفع يقصده كل أحد ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعًا وعقلاً.

٢ - **جهاد الطلب**: وهو طلب العدو الكافر والظفر به وبأرضه حتى يخضع العباد والبلاد للإسلام ويقضي على الشرك؛ قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩] ، وحكمه أنه فرض كفائي إلا إذا استنفر الإمام المسلمين فيصبح فرض عين على من استنفرهم.

وبذلك يعلم سقوط كل بنود هيئة الأمم المتحدة الكافرة، وما يسمى بإعلان حقوق الإنسان التي تدعو إلى احترام حدود الغير، والسلام الدائم، والتعايش، وحرية الاعتقاد، ...إلخ.

وجهاد الطلب يسبقه قيام دولة وكيان للمسلمين وقدرة، ولذا يجب الإعداد له بإقامة هذا الكيان أولاً.

والإسلام ليس مجرد عقيدة فحسب حتى يكتفي بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان، إنما هو منهاج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس، وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية -متمثلة في الحاكمية- وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية، فالجهاد لأجل هذا المنهج هو جهاد لتقريره وإقامة نظامه، وأما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الإقناع في ظل النظام العام بعد رفع جميع المؤثرات.

وعلينا ألا نخلط بين النصوص القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة ودلالتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الطويلة؛ ولنفهم أن الآيات التي فيها كف الأيدي هي مسألة خطة لا مسألة مبدأ، ومسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة. هذا هو المفهوم الذي ينبغي أن يواجه به المهزومون، أو أولئك المتأثرون بالأطروحات الغربية والشرقية.

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان، في الأرض من العبودية للعباد، ومن

العبودية للهوى أيضًا؛ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته سبحانه للعالمين؛ فلو كان أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد أمنا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانا يقعدان عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟!

***

٩٨٨ – مفهوم ١٧: كف اليد:

الحديث عن الجهاد وغاياته لا يتعارض مع كف اليد في مراحل الاستضعاف أو الاقتصار على جهاد الدفع؛ فهذا من باب السياسات الشرعية وترجيح المصالح على المفاسد، لكن ينبغي أن تكون هذه الاعتبارات مجرد أسباب مؤقتة يجب السعي إلى تجاوزها والأخذ بالأسباب التي تؤول بالمسلمين إلى غايات الجهاد التي منها أن يكون الدين كله لله، وأن يخضع الناس لسلطان الإسلام، ويتحدد مواقف الناس تحته: إما مسلم مؤمن بدينه حقًا، وإما مسالم آمن يدفع الجزية، وإما محارب خائف.

***

٩٨٩ – مفهوم ١٨: جهاد البيان:

الأصل في جهاد البيان قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]؛ أي جاهدهم بالقرآن الكريم والحجة والبيان، وهذه الآية مكية قبل أن يفرض جهاد السيف.

وجهاد البيان يعني: بيان الحق للناس، ودعوتهم إليه، وبيان الباطل وتحذيرهم منه، وهو لا يقل أهمية عن جهاد السيف إن لم يفضله، كما أنه لا يقل خطرًا وابتلاءً عن جهاد السيف. وجهاد البيان مستمر، وجهاد السيف في أوقات محددة.

***

٩٩٠ – مفهوم ١٩: التربية الجهادية والإعداد بمفهومه الشامل:

ينبغي أن يركز في الحديث عن الجهاد على الجانب العملي، وهو التربية والإعداد، فحال المسلمين اليوم هو كما في الحديث: (**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**)، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (**بل أنتم يومئذ كثير،**

ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: **(حب الدنيا، وكراهية الموت)** [رواه أبوداود (٤٢٩٧) واللفظ له، وأحمد (٢٢٣٩٧) وحسَّنه الأرناؤوط].

إن سنة المدافعة بين الحق والباطل قائمة ودائمة، ويصطفي الله من عباده من يقوم بنصرة الحق والدفاع عنه؛ قال النبي ﷺ: **(لايزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)** [رواه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧)]، وهذه الطائفة منتشرة اليوم في الأرض ومتنوعة المهام: فمنهم العلماء الربانيون، ومنهم المربون والدعاة، ومنهم المحتسبون، ومنهم المرابطون على الثغور، ولكن الفساد والباطل، والغزو العسكري والفكري أكبر من جهد وإمكانات هذه الفئات، وقد تخلو بعض ديار المسلمين من هذه الفئات تمامًا، أو يكونون قلة قليلة غرباء في هممهم واهتمامهم، يلومهم قومهم على جهادهم في سبيل الله، ولكنهم يصبرون، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

وما يدور من سنوات -ولا سيما بعد أحداث ١١ سبتمبر- من حملة صليبية صريحة على الإسلام والمسلمين لهو أكبر شاهد ومصدق لقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧]، فلهذا يجب على المسلمين -ولا سيما المتصدرين للدعوة والتربية والتعليم- أن يفكروا في جدية الموقف، وأن تُبذل المساعي والمشاورات المستمرة في كيفية إحياء الأمة من سباتها وجعل المسلمين يدركون خطر الكفار المحدق بهم، وإلا فإنه لن ينفع الندم حين يفاجأ المسلمون بغزو الكفار لهم، واستيلاء المنافقين على ديارهم، وإذلالهم، ولقد قرر أهل العلم أن العدو إذا هاجم المسلمين في عقر دارهم فإن دفعه يصبح واجبًا على جميع المسلمين، فهل أعددنا العدة الشاملة لذلك؟! فإن ما يتم الواجب إلا به فهو واجب.

* * *

٩٩١ - مفهوم ٢٠: الإعداد الإيماني أو المعنوي للجهاد:

قال ﷺ: (**من لم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق**) [رواه مسلم (١٩١٠)]، فلا بد أن تكون الاهتمامات وما يشغل القلب هو نصرة الدين ومجاهدة الكافرين والمنافقين، ويعارض هذا معيشة الترف وحب الدعة والراحة، والركون إلى الدنيا، وضعف الصلة بالله، وكل هذا لا يتفق مع حقيقة تحديث النفس بالغزو وإعدادها للجهاد، فمن كانت هذه حالة فهو من أول الفارِّين عن الجهاد عندما يُنادي إليه، بل ربما يكون هو من المنفرين عنه.

ولا بد أيضًا من الإعداد الإيماني علمًا وعملاً، ومن أكثر ما يعين على ذلك: قيام الليل؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:١-٦].

ومن أهم ما يتسلح به المؤمن للإعداد للغزو: **تقوى الله**؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في مسيره إلى غزو الفرس: «فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو... فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم».

وذكر البخاري في كتاب الجهاد في صحيحه قال: باب: (**عمل صالح قبل القتال**)، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنما تقاتلون بأعمالكم»، وذكر باب: (**من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب**)، وذكر حديث: (**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**) [البخاري (٢٨٩٦)].

ومما يعين أيضًا على الجهاد والنصر على الأعداء: الاستغفار ودعاء الله بالتثبيت؛ قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧]، فبيَّن أنهم لم يشغلهم بريق السيوف عن هموم ذنوبهم، بل قدَّموا الاستغفار والدعاء ليتحقق لهم النصر على الأعداء.

والخلاصة أنه لا بد من الجمع بين الإعداد المادي والإعداد الإيماني للجهاد؛ فإن النصر لا يتحقق إلا باستجماعهما، مع اليقين أن النصر ليس لكثرة عَدَد ولا عُدَد، وإنما هو من عند الله، والآيات والأحاديث في ذلك مستفيضة ظاهرة؛ وفي غزوة حنين دليل بيِّن على ذلك؛ فحينما قال أحد الصحابة: «لن نغلب اليوم من قلة» حدثت الهزيمة في البداية، فقام النبي ﷺ يدعو خاشعًا متضرعًا: (**اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك**

أحول، وبك أصول، وبك أقاتل) [رواه أبو داود (٢٦٣٣) واللفظ له، وأحمد (١٢٩٠٩)، وصحَّحه الألباني (صحيح الجامع ٤٧٥٧) والأرناؤوط (تخريج سنن أبي داود)]، فأنزل الله السكينة عليه، وأنزل جنودًا من عنده فتحقق النصر؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥-٢٧].

ومن الإعداد المعنوي للجهاد: التزكية والتربية على الإخلاص لله تعالى، وأن يقصد المجاهد بجهاده تحقيق قول الرسول ﷺ: (**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**) [رواه البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)]، أمَّا الغنائم والرواتب فلا تكون هي الأساس، وإنما تأتي بالتبع؛ قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:١٣].

* * *

٩٩٢ - مفهوم ٢١: الإعداد المادي (الإعداد على أرض الواقع):

الأصل في الإعداد المادي قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، ومن أهم جوانب هذا الإعداد الآتي:

١ - الإعداد المالي:

فهو عصب الدعوة والجهاد، ودائمًا يذكر مع الجهاد بالنفس بل يقدم عليها، فيجب السعي إلى توفير مصادر مالية ثابتة، وبث روح البذل والإنفاق بين المسلمين، وقد اتفق المفسرون على أن معنى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] هو أن تركَكم للنفقة في سبيل الله يهلككم.

٢ - الإعداد الإعلامي:

ويكون بعدة أمور؛ من أهمها:

- استبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، وهذا ضروري قبل المقاتلة.
- الحرب النفسية ضد الكفار، ورفع معنويات المجاهدين والمسلمين عامة.
- ضبط موضوع الشائعات كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ

وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ [النساء:٨٣].

٣ - الإعداد الجسدي:

قال ﷺ: (**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**) [رواه مسلم (٢٦٦٤)]، والقوة هنا تشمل: القوة الإيمانية والعلمية، كما تشمل القوة النفسية والجسدية، وقد تعوذ رسول الله ﷺ من العجز والكسل، ومن الإعداد الجسدي: تجنب فضول الطعام والنوم، وتقوية الجسم بالرياضة، وتعويد النفس على الصوم والصبر.

٤ - الإعداد بالتدريب على الرماية والقتال:

قال رسول ﷺ: (**ألا إن القوة الرمي**)، قالها ثلاثًا [رواه مسلم (١٩١٧)]، فالتدريب على الرماية مهم ولا بد منه في الجهاد؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، و لم يكن الناس في عهد رسول الله ﷺ محتاجين إلى تدريب على القتال لأنهم أهل قتال وخبرة بهذا الفن لطبيعة العرب في ذلك الوقت، ولذا لم يكن هناك حاجة للأمر بذلك والحث عليه في الفترة المكية، أما اليوم فحاجة المسلمين لذلك ماسة.

٥- الإعداد على الصبر وتجنب الترف والترفه:

الجهاد والصبر معنيان متلازمان، ويكفي لبيان أهمية الصبر في الجهاد معية الله للصابرين كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال النبي ﷺ: (**والصبر ضياء**) [رواه مسلم (٢٢٣)]، والضياء أقوى نورًا لكنه فيه حرارة ومشقة، ولذا يحتاج إلى إعداد وتربية، (**ومن يتصبر يصبره الله**) [رواه البخاري (١٤٦٩)]، وآفة الصبر: الترف والترفيه؛ قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود:١١٦]، فلم يبغ الذين ظلموا بالترف بدلاً، ﴿وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾، أي ظالمين فلذلك حق عليهم العقاب.

والفضول -أي الزيادة عن الحاجة- ضار في كل شيء، وينافي الإعداد المادي للجهاد، وقد ذكر ابن القيم أن الشيطان ينال غرضه من ابن آدم من ستة أبواب إذا تجاوزت حاجتها، وهي: الطعام، والظلام، والمنام، والمخالطة، والنظر، والاستماع.

وقد كانت الدولة الأموية تعتمد على الجنس العربي في الجهاد، فلما أخلدوا إلى الدنيا

والترف زالت دولتهم، وقامت الدولة العباسية على الفرس، فلما أخلدوا إلى الدنيا والترف اعتمدوا على الترك فقامت دولة المماليك ثم الدولة العثمانية، فلما أخلدت إلى الدنيا والترف، وظهر فيها التغريب والنعرة القومية، واستقدمت المدربين الكفرة لجيشها، انكمشت وانهزمت، ثم جاء أتاتورك فقضى على البقية الباقية من الدين، وحظر اللغة العربية، غير أن أهل الدين قاوموه، ومنذ ذلك الحين انقسم الأتراك إلى إسلامي وعلماني.

فالترف هو الداء الدفين في كل عصر، واليوم يسمونه: (التنمية) أو (الرفاهية)، وفي المقابل يسمون الجهاد (إرهابًا)، وكيف تكون تنمية ورفاهية وهَمُّ الناس في عملهم هو الراتب والرفاهية دون الإخلاص والإحسان فيه؟!

وإذا اقترن الترف بالفسق تحقق الهلاك، وتسلط على القوم الطواغيت، وتسببوا في إهلاكهم؛ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤]، وفي آخر الزمان سيكون هؤلاء من أتباع الدجال الذي يغريهم بذلك، وقد عميت بصائرهم فلا يقرأون كلمة (كافر) بين عينيه.

* * *

٩٩٣ – مفهوم ٢٢: كيفية التعامل مع أخطاء المجاهدين:

ينبغي أن نتعامل مع أخطاء المجاهدين وفق المنهج القرآني النبوي، القائم على التوازن والعدل في كل شيء، فنراعي في هذا الأمر ما يأتي:

١- المجاهدون بشر غير معصومين عن الخطأ.

٢- العدل في الكلام عن أخطائهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام:١٥٢].

٣- الشفقة والرحمة عملاً بقول الله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، والنصح الأخوي المبني على الشفقة والرحمة، بلا تشهير ولا تعيير.

٤- الموازنة بين المصالح والمفاسد، وإيجابيات المجاهدين وسلبياتهم.

٥- تحجيم دائرة النصح والإصلاح بحيث لا تكون إلا على الخطأ ذاته وأصحابه فقط.

٦- الإعذار ما كان لذلك من سبيل.

٧- عدم السماح للكفار والمنافقين بتوظيف الأخطاء واستغلالها للتشويه والتنكيل.

٨- اختيار الأمثل من العلماء والدعاة لبيان الأخطاء بالوسائل المناسبة.

٩- التفريق بين الولاء والبراء واستعداء الأعداء؛ فالأولى عقيدة، والثانية سياسة.

١٠- عدم ذم الجهاد لأجل أخطاء المجاهدين؛ فإن ذلك كذم الصلاة لأخطاء المصلين، فأخطاء المجاهدين تُقوَّم، والجهاد الذي هو شريعة الله يُعظَّم.

١١- التفريق بين الخطأ المتعمد والخطأ غير المتعمد، وبين الخطأ المعتبر وغير المعتبر.

١٢- الوقاية خير من العلاج، وهذا يتطلب حضور العلماء والحكماء لساحات الجهاد مع المجاهدين، وإلا فاللوم يشملهم جميعًا.

١٣- ذكر الحلول والعلاج.

١٤- بيان أخطاء الأعداء بالحق والعدل؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

١٥- بيان المعايير المزدوجة التي يستخدمها الأعداء مع المجاهدين؛ فتراهم ينقدون الاجتهاد الخاطئ لبعض المجاهدين، ولا يرون كفرهم، وتدميرهم لبلدان المسلمين، وقتلهم للرجال والنساء والولدان، ونهب ثرواتهم.

❊ ❊ ❊

مفاهيم في

السنن الإلهية

مفاهيم في السنن الإلهية

أولاً: مفاهيم عامة حول السنن الإلهية:

٩٩٤ – مفهوم ١: معني السنة الإلهية:

السنة في اللغة: الطريقة والعادة المطَّردة؛ حسنة كانت أو سيئة.

وسنة الله هي: الطريقة والقانون المطَّرِد الذي تخضع له جميع الكائنات، فهي النظام والقانون الذي يدبر به الله ﷻ خلقه وأمره بعلمه وقدرته وحكمته.

* * *

٩٩٥ – مفهوم ٢: سنن الله وربط المُسبَّبات بأسبابها:

تقوم سنن الله تعالي على ربط المسبَّبات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها على نحو في غاية الدقة والانتظام والاطراد، والله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبَّباتها، والمقدمات ونتائجها.

ووفق ذلك فقد يصح أن يقال: إن سنة الله الكبرى هي سنته في الأسباب، وما عدا ذلك من السنن فكأنها من مفردات سنة الله في الأسباب وليست سنة مستقلة، وإنما تُفرَد بالذكر بأسمائها الخاصة لإبرازها ولفت النظر اليها لمعنى خاص بها.

* * *

٩٩٦ – مفهوم ٣: السنن الإلهية قسمان:

تنقسم السنن الإلهية الي قسمين كبيرين:

١ – **السنن الكونية المشاهدة في الآفاق والأنفس** وما تخضع له من نظام دقيق ثابت ومطَّرد من حيث الأصل، وقد عدَّها الله تعالي من آياته المرئية والمحسوسة، ولفت النظر إليها للاعتبار بها في الإيمان بالله الخالق وصفاته العليا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وهذه السنن متاحة للجميع يدركها كل من المسلم والكافر، وأكثرهما جدية ونشاطًا

وبحثًا عنها هو أكثرهما وقوفًا عليها وإحاطة بجوانبها وجزئياتها؛ فهذا العلم مشاع للجميع ولا يختص المسلمون بشيء منه، بل ربما كان الكفار أكثر إدراكًا له؛ كما يشير الي ذلك قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]؛ حيث يعود الضمير في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ الي الكفار المذكورين في الآية قبلها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٥٢]، وإن كان المسلمون هم الأولى بإدراك هذه السنن والريادة في مجال العلوم الخاصة بها من: فلك، وطب، وهندسة، ...إلخ؛ وذلك من أجل ريادة العالم بموجب استخلاف الله لهم في الارض وتحميلهم أمانة التكليف والتوجه بالبشرية إلى عبادة الله وحده وفق مفهوم العبادة الشامل.

٢ - **السنن الاجتماعية**: وهي التي جعلها الله تحكم حياة البشر ويُدَبِّر الله أمورهم وأحوالهم بها؛ كسنن السعادة والشقاء، والسراء والضراء، والهدى والضلال، والنصر والهزيمة، ...إلخ.

* * *

٩٩٧ - مفهوم ٤: معرفة أسباب الظواهر الكونية لا تنفي الغاية من إجرائها:

لا يُستنكَر من حيث الأصل البحث عن أسباب الظواهر الطبيعية من: كسوف وخسوف، وزلازل وبراكين، وطوفان، وعواصف... إلخ، ولكن المستنكر والمحظور هو الاقتصار على التفسير المادي لهذه الظواهر -بزعم ربط المسبَّبات بأسبابها- ونسيان أن الله تعالى هو مُدبِّر الأمر وخالق الأسباب ومسبَّباتها، وإنكار تخويف الله عباده بآياته الكونية، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩]، ويقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣]، وقال ﷺ: (**إن الشمس والقمر لا يُكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما من آيات الله؛ يخوف الله بهما عباده، فإذا رأيتم كسوفًا فاذكروا الله حتى ينجليا**) [أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١)].

ويقال لمن يفسرون حدوث كسوف الشمس بوقوع القمر بينها وبين الأرض فيحجب ضوءها عن الأرض ويحدث الكسوف، وكذا تفسير خسوف القمر بوقوعه في

ظل الأرض فلا تنعكس عليه أشعة الشمس ولا يُري؛ يقال لهؤلاء: كلامكم صحيح، وفيه بيان لسبب حصول الكسوف والخسوف، ولكن من الذي أوجد هذا السبب؟! ولماذا لا يحدث باستمرار وانتظام، وإنما يندر حدوثه، ويكون على فترات متباعدة؟! فجواب ذلك أنهما آيتان من آيات الله؛ يخلق أسبابهما، ويجريهما بعلمه وحكمته وقتما يشاء تخويفًا لعباده وعبرة وموعظة.

والله ﷻ حين أهلك عادًا بالريح الباردة أوجد سببها وقت الشتاء لتكون شديدة البرودة ومهلكة، وأعلم نبيه هود لينذر قومه بوقوع العذاب عليهم.

فالقول الفصل في هذا الأمر أن الظواهر الطبيعية تجري بأسباب خلقها الله تعالي وأوجدها وفق حكمته وتدبيره، وجعل فيها آيات وعبرًا وعظات لقوم يؤمنون.

* * *

٩٩٨ - مفهوم ٥: ثبات السنن واطِّرادها:

تشترك كل من السنن الكونية والسنن الاجتماعية في الثبات والاطِّراد من حيث الأصل والإجمال، إلا أنهما يفترقان في الآتي:

١ - السنن الاجتماعية مطردة على الدوام؛ لا تتبدل ولا تتخلف إذا تحققت شروطها وانتفت موانعها، وهي التي قال الله عنها: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:٧٧]، أما السنن الكونية فقد تخرق بإذن الله تعالى؛ سواء على سبيل المعجزة والآية كما أبطل الله سنة الإحراق للنار من أجل نبيه إبراهيم عليه السلام؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، أو على سبيل الكرامة لأولياء الله كما أوجد الله الرزق لمريم عليها السلام في المحراب؛ قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]، أو حتى على سبيل الفتنة والاختبار كما سيحدث على يد الدجال آخر الزمان.

٢ - السنن الكونية جلية واضحة مضبوطة يسهل التعرف عليها؛ كمعرفة أن النار تحرق، والجاذبية تجذب الأشياء من أعلى الي الأسفل... وهكذا، بينما السنن

الاجتماعية لا يسهل قياسها، وهي خفية على كثير من الناس؛ خاصة من لا يؤمنون بالقرآن، ومن لا يؤمنون بتدبير الله ﷻ للأمور وفق علمه وإرادته وحكمته؛ فهي لا تدرك إلا بالتدبر والتأمل في آيات الله المتلوة وقياس أحوال الناس عليها لإدراك كيف حقَّت سننه سبحانه في أوليائه وفي أعدائه.

* * *

٩٩٩ – مفهوم ٦: متى تكون الآية القرآنية دالة على سنة إلهية؟

هناك طرق وأدوات تعرف بها دلالة بعض آيات القرآن على أن الأمر المذكور فيها سنة من سنن الله؛ فمن ذلك:

١ – أن ينص في الآية نفسها أو عقبها على أن الأمر المذكور سنة من سنن الله؛ كقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الفتح:٢٣].

٢ – أن تُصدَّر السنةُ المذكورة بلفظة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا﴾ [الأنعام:١٢٣]، أو تَرِدْ في الآية عبارة: (**كلمات الله**) أو (**كلمتنا**)؛ كقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

٣ – أن تساق الآية مساق الوصف العام والقانون المطلق؛ كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١].

* * *

١٠٠٠ – مفهوم ٧: فوائد معرفة سنن الله:

إن معرفة السنن الإلهية هي من معرفة الدين، وهي ضرورة شرعية تزيد في معرفة العبد لربه، وحكمته، وعلمه، وتدبيره، وموازينه، كما أنها تسهم في طمأنينة القلب وسكينته وثباته؛ لعلمه بمجريات الأمور وفق سنن الله وحكمته. هذان الأمران هما أهم فوائد معرفة السنن الإلهية، ويضاف إلى ذلك:

١ – أن العلم بثبات السنن الكونية وارتباطها بأسبابها يُيَسِّر على المرء التعامل مع الواقع

من حوله، وتسخيره لصالحه ورفاهه في الدنيا، ونعيمه في الآخرة.

٢ - العلم بثبات السنن الاجتماعية واطِّرادها وعدم تخلفها يفيد في: إدراك الواقع المعاش، واستشراف المستقبل، وإدراك النتائج في ضوء مقدماتها، كما يفيد الدعاة والمصلحين في معرفة المنهج الصحيح للتغيير.

وبما أن التغيير في الظواهر الاجتماعية غالبًا ما يكون بطيئًا ومرحليًّا، وعمر الإنسان قصير إذا ما قورن بعمر الحضارات -حيث قد يعيش المرء مقدِّمات التغيير ولا يدرك حصوله، أو يعيش النتائج دون معاصرة المقدمات قبلها- فإن العلم بالسنن هو بمثابة تجسير وربط بين الماضي والحاضر والمستقبل.

٣ - معرفة السنن الاجتماعية تفيد في فهم التاريخ على حقيقته، وتفسير أحداثه تفسيرًا صحيحًا وفق هذه السنن، مما يفيد في الحكم على هذه الوقائع التاريخية حكمًا صحيحًا لأخذ العبرة منها ومعرفة عوامل بناء الأمم وأمنها، وعوامل الانهيار والهدم؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧].

* * *

١٠٠١ - مفهوم ٨: ضرورة الاهتمام بمعرفة نوعي السنن الإلهية:

بما أن كلًّا من **السنن الكونية** و**السنن الاجتماعية** هو من السنن الإلهية فينبغي على المرء أن يُعمِل فكرَه وتأمُّلَه في كل منهما ليكون على صلة دائمة بالله، ولكن الحاصل -مع الأسف- خلاف ذلك؛ فالمجتمع المسلم أهمل النظر في السنن الكونية، وربما تمسَّك بعضه بدراسة السنن الاجتماعية، ولكن جُلَّه أيضًا أهمل النظر فيها هي الأخرى، فتأخر المجتمع المسلم بذلك كثيرًا، ووقع تحت سيطرة المجتمع الغربي الكافر، وتغير حتى في سلوكه الاجتماعي؛ فانهار وفقد ريادته للعالم، وضاعت منه مثله وقيمه بناء على ذلك.

والمجتمع الغربي تقدَّم في دراسة السنن الكونية تقدُّمًا مُذهلًا، فحصل له بذلك تقدمٌ ماديٌّ كبير، وازدهرت حضارته المادية جدًّا، ولكنه أهمل السنن الاجتماعية ودراستها والعمل بمقتضاها في كثير من الأمور، فانهار أخلاقيًّا، وأصيب بالاضطرابات والقلق والحيرة، وكثرت فيه الأمراض النفسية والعصبية؛ مما ينذر بانهيار حضارتهم أيضًا.

ثانيًا: مفاهيم حول سنن اجتماعية مشتركة بين المؤمنين والكافرين:

١٠٠٢ - مفهوم ١: تداخل كثير من السنن الاجتماعية بعضها مع بعض:

حتى لا تحار العقول عند التأمل في آيات سنن الله في المجتمعات وتنزيلها على الواقع، ينبغي أن يعلم أن كثيرًا من هذه السنن يتداخل بعضها مع بعض، وأنها تجري وفق مشيئة الله تعالي وحكمته في تدبير الأمور؛ فسنة المدافعة بين الحق والباطل مثلًا تستتبع سنة المداولة بينهما، ويرافقهما سنن: تمييز الحق من الباطل، والمؤمنين من الكافرين، وسنن: ابتلاء المؤمنين، والتمحيص، والإملاء للكافرين واستدراجهم، وسنة العاقبة للمؤمنين المتقين.

ومن أوضح الأدلة على ذلك الآيات (١٣٧) الي (١٤١) من سورة آل عمران؛ حيث بدأت الآيات بالحث على التأمل في سنن الله في المجتمعات وعواقبها: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧]، ثم بيَّنت الآية (١٣٩) اشتراط تحقيق الإيمان لحصول العلو للمسلمين: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وذكرت الآية (١٤٠) كُلًّا من سنن الابتلاء، والمداولة بين الحق والباطل، وتمييز المؤمنين: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كما ذكرت الآية (١٤١) سنتي: تمحيص المؤمنين، وإهلاك الكافرين: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وقد وردت كل هذه السنن في الآيات السابقة معطوف بعضها على بعض بواو العطف التي تقتضي مطلق الجمع بين المعطوفات؛ لذا ينبغي النظر إلى السنن الإلهية مرتبط بعضها ببعض، متزامنًا بعضها مع بعض، ولا يُنظر إليها مستقلة عن بعضها البعض.

* * *

١٠٠٣ - مفهوم ٢: لتحقق السنن الاجتماعية شروط وموانع:

للسنن الاجتماعية شروط وموانع؛ فإذا تحقَّقت الشروط وانتفت الموانع وقعت السنة بإذن الله؛ فسنة النصر والتمكين يشترط لها تحقق الإيمان: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]،

ويمنع تحققها التنازع بين المؤمنين؛ قال الله تعالى في معرض جهاد الكافرين: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦]؛ كما أن سنة العذاب يمنعها الاستغفار؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال:٤٦].

* * *

١٠٠٤ – مفهوم ٣: سنة الهداية والإضلال:

لا شك أن الهداية أو الإضلال هما بمشيئة الله تعالى وقدره النافذ؛ قال الله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، فلا يقوى أحد كائنًا من كان على هداية من كتب الله عليه الضلال، ولا إضلال من كتب الله له الهداية؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٦-٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

ولكن هذه المشيئة والإرادة من الله تعالى مرتبطة بصفاته العليا من: العلم والحكمة، والرحمة، والفضل أو العدل؛ فالله ﷻ لا يضع الهداية إلا في قلب من يستحقها ممن يعلم سبحانه حبه للهداية وخضوعه وإنابته للحق إذا تبيَّن له؛ فيعينه ويوفقه لذلك، كما أنه يضع الضلال في قلب من يستحقه ممن يعلم إعراضه عن الهداية التي أرسل من أجلها الرسل، فيخذله ويكله إلى نفسه، ومن تخلى الله عنه ضل وهلك بلا شك.

فالهداية كما أنها وفق مشيئة الله وقدرته فهي مقتضى فضل الله ورحمته، وعلمه وحكمته، ولهذا فقد قال الله عمن استحق الهداية: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد:١٧]، وقال ﷻ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة:١٦].

والإضلال كما أنه وفق مشيئة الله وقدرته فهو مقتضى عدله وعلمه وحكمته؛ ولهذا قال

الله ﷻ عمن استحق الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر:٣].

فالمشيئة الإلهية المطلقة لا تتعارض مع علم الله وحكمته، ولا مع عدله وفضله ورحمته، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، والعقل البشري المحدود بحدود الزمان والمكان ليس له أن يحكم في العلاقات والارتباطات بين المشيئة الإلهية والنشاط والتوجه الإنساني، وإنما هذا كله متروك للإرادة المدبرة المحيطة، والعلم المطلق الكامل، وهذا هو سر الله ﷻ في قدره وحكمه النافذ، فلا يشغل المرء نفسه بذلك عن الغاية التي خلق من أجلها، وليوقن أن الله ما كان ليكلفه بأمر لا طاقة له به؛ قال الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾[البقرة:٢٨٦].

* * *

١٠٠٥ – مفهوم ٤: الابتلاء سنة ماضية:

الابتلاء سنة ماضية؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك:٢]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[العنكبوت:٢-٣].

* * *

١٠٠٦ – مفهوم ٥: الابتلاء بالشر والخير:

كما يكون الابتلاء بالشر يكون أيضًا بالخير؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٥]، وقال ﷺ:(**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**) [رواه مسلم (٢٢٩٥، ٢٩٩٩)].

والابتلاء اختبار للمرء لينظر كيف يفعل تجاهه، والمطلوب هو كما بيَّن الحديث: الصبر عند الابتلاء بالضراء، والشكر عند الابتلاء بالسراء، والشكر كما يكون بالمقال يكون أيضًا بالحال؛ بأن يستعمل النعمة في طاعة الله فيحافظ عليها بذلك ولا يجحدها.

ويتنوع الابتلاء بالضراء ما بين مرض وضعف، وفقر وحرمان، وتعذيب وإيذاء، ...إلخ، وكل ذلك اختبارًا لمدى احتمال المبتلى وصبره على البلاء، ومدى ثقته في ربه ورجائه في رحمته. ومع شدة هذا النوع من الابتلاء إلا أن الكثيرين يصمدون له؛ لوضوحه لديهم، ولأنه يستثير فيهم كوامن التحدي والمقاومة.

أما الابتلاء بالسراء من: صحة وقوة، وثراء ومتاع، ومناصب، ودعة ومرح؛ فيوقع الكثيرين في الاسترخاء، ويفقدهم القدرة على اليقظة ومقاومة الإغراء، فيسقطون في الاختبار، وينسون واجب شكر هذه النعم. وصدق بعض السلف إذ قال: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر».

* * *

١٠٠٧ – مفهوم ٦: الابتلاء بالشر أو الخير ليس دليلًا على الإهانة أو الإكرام:

الابتلاء بالشر ليس معيارًا أو دليلًا على الإهانة، كما أن الابتلاء بالخير ليس دليلًا على الإكرام؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا...﴾ [الفجر:١٥-١٧]؛ فالإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق أو تقديره وتقتيره، والتوسعة على الكافر لا تكون لكرامته؛ قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦]، والتقتير على المؤمن لا يكون لإهانته، وإنما كل ذلك ابتلاء من الله لعباده وفق حكمته وعلمه.

وإنما يكون الإكرام للمرء بهدايته لمعرفة ربه ومحبته وطاعته، وتكون الإهانة له بإضلاله وإعراضه عن ربه ومعصيته.

* * *

١٠٠٨ – مفهوم ٧: أسباب الابتلاء وأغراضه:

بادئ ذي بدء ليعلم أنه ما يصيب المرء من مصيبة وبلاء إلا بسبب منه وبما كسبت يده من فعل ما هو خلاف الأولى، أو الوقوع في ذنب ومعصية، أو ظلم وكفر...إلخ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾

[آل عمران:١٦٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومع هذا فقد يحار بعض من ينظر في النصوص التي توضح الغرض من الابتلاء، ويلتبس عليه الأمر: هل هو عقوبة وعذاب للمبتلى؛ أم تكفير للذنوب والخطايا؟ أم رفعة للدرجات؟ أم اختبار للتمييز والتمحيص؟

وللتوضيح فإن غرض الابتلاء قد يكون أيًّا مما ذكر، أو خليطًا من أكثر من غرض، وإن ذلك يتنوع بحسب المبتلى نفسه:

- فهو للكافر عقوبة وعذاب وإنذار لعله يرجع عن كفره وغيِّه؛ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]، والعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا، والعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة.
- وهو لعصاة المؤمنين تكفير للخطايا والذنوب، وأيضًا لعلهم يرجعون كما قال النبي ﷺ: (**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**) [رواه الترمذي (٢٣٩٩)، وقال: حسن صحيح]، وقال ﷺ: (**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه**) [رواه البخاري (٥٦٤١)].
- وهو للأنبياء والمتقين رفعة للدرجات؛ قال ﷺ: (**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب** [وفي رواية: قَدْر] **دينه؛ فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه...**) [أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وأحمد (١٤٩٤)، وجوَّد إسناده الألباني في الصحيحة (١٤٣)].
- وهو بوجه عام للتمييز والتمحيص؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝﴾ [العنكبوت:٢-٣]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

❊ ❊ ❊

١٠٠٩ - مفهوم ٨: سنة تمييز الخبيث من الطيب:

سنة تمييز الخبيث من الطيب تابعة لسنة الابتلاء، أو ناجمة عنها؛ فقول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩] معناه: «لا بد أن يعقد سببًا من المحنة يظهر فيه وليه، وينفضح فيه عدوه؛ يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر» [تفسير بن كثير].

وكما تكون سنة تمييز الخبيث من الطيب على مستوى الجماعة ويعرف بها المؤمن من المنافق، وقوي الإيمان مِنْ ضعيفه، تكون أيضًا على مستوى الفرد؛ فتُبيِّن للمؤمن حقيقة إيمانه ومدى صدقه فيه، وتكشف له حجب الغرور بنفسه وحقيقة ما هي عليه من ضعف في الاعتقاد أو الأخلاق، فيعمل عندها على تخليص نفسه مما فيها من خبث وضعف.

❊ ❊ ❊

١٠١٠ - مفهوم ٩: سنة التمحيص:

كما بيَّنا في المفهوم الأول من مفاهيم السنن الاجتماعية أنها تتداخل مع بعضها البعض، فإن سنن الابتلاء، والتمييز، والتمحيص، والتمكين، وإهلاك الكافرين؛ كلها سنن يمسك بعضها برقاب بعض، وتستتبع الأولى الثانية، والثانية الثالثة، وهلم جرا...

وعلى هذا، فسنة التمييز يعقبها أو يرافقها سنة التمحيص، والتمحيص: التطهير والتخليص والتنقية؛ تقول: محصت الذهب بالنار أي: أزلت عنه ما يشوبه من خبث.

فقول الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١] أي يخلص المؤمنين من المنافقين، ويخلصهم أنفسهم ويطهرهم من ذنوبهم ويكفرها عنهم، وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] هو تطهير قلوب المؤمنين خاصة وتخليصها من أي شك أو ريب بسبب ما يلقيه المنافقون من شُبَه وتخذيل. فتمحيص المؤمنين: تخليصهم من المنافقين والكافرين، وتطهيرهم مما يخالطهم من خطايا وآثام.

❊ ❊ ❊

١٠١١ - مفهوم ١٠: التمحيص يعين المؤمن على تطهير نفسه وتزكيتها:

كثيرًا ما يجهل الإنسان نفسه وحقيقة ضعفها وقوتها، وحقيقة ما استكن فيها من رواسب جاهلية لا تظهر إلا بمثير لها، فيأتي البلاء بالأحداث والمواقف العملية ليمحص للمؤمن نفسه؛ يبصره بحقيقتها ويعينه على تطهيرها وتزكيتها.

١٠١٢ – مفهوم ١١: من حِكَم الابتلاء:

لئن كان الابتلاء سنة ماضية، وقدرًا محتومًا على الناس كافة، فإنه يشتمل على حِكَمٍ جليلة، وفوائد عديدة، من أهمها:

١ – استخراج عبودية المبتلى لله ﷻ في الضراء بظهور انكساره وافتقاره إلي ربه ﷻ، وإلحاحه في الدعاء ليكشف عنه ما به من غمة، واستخراج عبوديته في السراء بظهور امتنانه لربه سبحانه على ما أنعم به عليه من النعم وشكره عليها.

٢ – تمحيص المؤمنين بتطهير قلوبهم مما يعلق بها من أمراض.

٣ – تهيئة المؤمنين المبتلين لمقامات رفيعة في الدنيا والآخرة؛ فكم من عالم وداعية كان في ثباته في بلائه رفعة له بين الناس جعلته قدوة وإمامًا لهم، فضلًا عما يُضاعف له من ثواب وحسنات بسبب الاقتداء به، فيكون ذلك سببًا لرفعة مكانته ودرجته في الجنة.

٤ – في الابتلاء فرصة ليعيد الداعية المبتلى نظره في المناهج والتصورات التي ينتهجها، ويخلصها مما قد يشوبها من خلل وخطأ.

٥ – إن انكسار النفس الذي يحدثه الابتلاء، وسكونها إلى ربها يؤدي إلى علاج داء الأشر والعجب والتعالي الذي قد يصيبها.

٦ – ابتلاء المؤمن بأصناف العذاب التي يوقعها عليه عدوه من: سجن، وتعذيب جسدي ونفسي، وسخرية واستهزاء؛ كل ذلك يؤدي إلي كسر حاجز الخوف لدى المؤمن من هذه الصنوف قبل معاينتها، ويعينه على الثبات على دعوته؛ دعوة الحق والفلاح.

وغني عن القول أنَّ هذه الحكم والفوائد إنما تحصل بتثبيت الله ﷻ لمن يعلم استحقاقه لها بما لديه من استعداد لقبول الحق والهداية كما أوضحنا في سنة الهداية والإضلال.

* * *

١٠١٣ – مفهوم ١٢: سنة: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»:

سنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١] هي سنة مطَّردة؛ سواء أكان التغيير من الخير إلى الشر، أو كان بالعكس تغييرًا من الشر إلى الخير.

فعن التغيير من الخير إلى الشر قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا

عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

وعن التغيير من الشر إلى الخير قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن:١٦].

فبهذه السنة الربانية يتحمل البشر مسؤوليتهم فيما يقع لهم من خير أو شر؛ فمنهم يبدأ التغيير سواء إلى الشر أو إلى الخير.

وعلى الدعاة أن يجعلوا هذه السنة هي الأساس المهم والمنهج الأسمى في الدعوة والتغيير؛ فهي أم السنن الربانية في البناء والتغيير.

* * *

١٠١٤ – مفهوم ١٣: متى يدرك أغلب الناس سنة الله في التغيير؟

رغم أن آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ واضحة في معناها وقطعية في دلالتها على سنة التغيير إلا أن الإيمان بها غالبًا ما يكون نظريًّا حتى تتحقَّق في الوجود وتصبح ظاهرة للعيان؛ فعندها يصدقها الناس ويكون الإيمان بها حينئذ أبلغ وأقوى منه قبل وقوعها.

* * *

١٠١٥ – مفهوم ١٤: زوال نعم الدنيا وتدارك الحال:

زوال النعم الدنيوية بسبب الفساد بقدر ما هو مؤلم إلا أن فيه رحمة للعباد وإيقاظًا لهم لتدارك حالهم قبل الانحدار إلى الهاوية؛ قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وزوال نعم الدنيا يصغر ويهون إزاء فقد الدين وزواله.

* * *

١٠١٦ – مفهوم ١٥: من المستفيد من سنة الله في التغيير؟

لا يستفيد من سنة الله في التغيير إلا المؤمن ومن في قلبه خير وصلاح، أما المنافقون والعلمانيون وأهل الإلحاد فلا يلتفتون لهذه السنة، بل يسخرون ممن يؤمن بها ويدعو إلى العمل بموجبها، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

* * *

١٠١٧ – مفهوم ١٦: إدراك سنة الله في التغيير هو بداية النصر والتمكين:

يتوافق تغير حال أمتنا اليوم من العزة والاستعلاء والتمكين إلى الذلة والسفول والهوان مع مباينة حالنا لحال السلف الصالح من التقى والهدى والفلاح؛ وذلك دليل على حصول سنة الله في التغيير وأننا غيَّرنا ما بأنفسنا فغيَّر الله حالنا.

وعلى هذا، فلن يغير الله واقعنا الحالي إلا إذا غيَّرنا ما بأنفسنا من: بدع، وشرك جلي وخفي، وتبعية للغرب، وفسوق، إلى: الالتزام بالسنة، وتحقيق التوحيد، والولاء للمؤمنين، والبراءة من المشركين، وتقوى الله تعالى.

فإدراك سنة الله في التغيير والعمل بموجبها هو مفتاح النصر والتمكين، والمدخل لتغيير واقعنا المرير.

* * *

١٠١٨ – مفهوم ١٧: سنة المدافعة والصراع بين الحق والباطل:

الصراع بين الحق والباطل حقيقة قائمة وسنة ماضية؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام:١٢٣]؛ فالحق يمثله على مر الزمان كل نبي وأتباعه، ويقابله ويصارعه شياطين الإنس والجن في كل زمان، وهم أكابر المجرمين في كل قوم، وقد قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي» [أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)].

فالباطل قبيح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يُدْفَع بمثل القوة التي يصول بها

ويجول، ولا يكفي الحق كونه حقًّا ليوقف عدوان الباطل، بل لا بد من قوة تحميه وتدفع عنه، وهذه سنة ثابتة، وقاعدة كليه لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان.

* * *

١٠١٩ – مفهوم ١٨: من فوائد صراع أهل الحق مع الباطل:

قدَّر الله أن يكون دفاعه عن الذين آمنوا عن طريقهم هم أنفسهم، ولم يجعله هِبَةً تهبط عليهم من السماء بلا عناء؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، ومن فوائد ذلك: ابتلاء أهل الحق وأهل الباطل كما وضَّحت الآية، وكما جاء في الحديث القدسي: (**وإنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك**) [رواه مسلم (٢٨٦٥)]، كما أن في الصراع مع الباطل نُضجًا واتضاحًا للحق وأهله؛ فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها إلا حينما تواجه الخطر، والحق يستنير وينجلي كلما صارعه الباطل؛ حيث تتبين أدلته وشواهده، فيظهر صدق الحق وحقيقته.

* * *

١٠٢٠ – مفهوم ١٩: صراع أهل الحق مع الباطل يُسمى دفعًا ومدافعة:

هذا الصراع بين الحق والباطل اصطلح على تسميته في علم السنن بالدفع والمدافعة أخذًا من قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

والدفع: الإزالة بقوة، والمدافعة: المزاحمة؛ فالتدافع بين الحق والباطل: تنحية أحدهما للآخر، أو إزالته ومحوه بالقوة عند الاقتضاء؛ فمقتضى هذه السنة أن كل فريق من الحق والباطل لا يكفيه بقاؤه على ما هو عليه فحسب، وإنما يسعى إلى محق الطرف الآخر وإزالته بكل طريق وسبيل ممكن.

غير أن أهل الباطل يتبعون سبلًا غير مشروعة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]. بينما أهل الحق لا يصارعون الباطل وأهله إلا بما هو مشروع من الله.

❊ ❊ ❊

١٠٢١ – مفهوم ٢٠: حتمية التدافع بين الحق والباطل:

إنما كان التدافع بين الحق والباطل حتميًّا لأنهما ضدان، فلا يجتمعان، ووجود أحدهما يستلزم طرد الآخر ودفعه وإزالته، أو على الأقل: إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة.

فلا يتصور إذًا أن يعيش الحق مع الباطل في سلم دون مغالبة ومدافعة، إلا إذا ضعف أصحاب كل فريق، أو جهل معاني الحق والباطل، ومقتضيات ولوازم هذه المعاني. وهذا كما يزعمه العلمانيون والليبراليون ويروجون له من أن الحرب الدينية قد انتهت، وينبغي أن يجتمع العالم تحت راية واحدة ولا تفرقهم المعتقدات. وهم بهذا إنما يريدون في الحقيقة أن يتخلى أهل الحق عن معتقداتهم ويعيشوا تحت ظل معتقدات الباطل.

❊ ❊ ❊

١٠٢٢ – مفهوم ٢١: لا يمكن الإصلاح بدون مدافعة الباطل:

من يطمع في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة دون سنة المدافعة يتنكب منهج الأنبياء وسنة الله في أرضه؛ فتوقف الحق عن مدافعة الباطل توقيعٌ على معاهدة الاستسلام للفساد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١]؛ فترك المدافعة يؤدي إلى ظهور الفساد في الأرض، وفسادها يكون بشيوع الشرك والظلم والفسوق، بينما اتباع هذه السنة هو من فضل الله على العالمين؛ لأن بها يرسخ الحق ويزول الباطل.

❊ ❊ ❊

١٠٢٣ – مفهوم ٢٢: إيثار السلامة خشية مواجهة الباطل يوقع في عناء أشد:

من يؤثر السلامة والخوف من عناء مدافعة الفساد وأهله سيقع حتمًا في مشقة أعظم وعناء أكبر؛ يجده في ضياع دينه ونفسه وعرضه وماله. وهذه هي ضريبة السكوت وإيثار الحياة الدنيا وفساد التصور.

والذي يظن أنه سينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أولاده في ظل حكم الطواغيت إنما يعيش وهمًا أو يفقد الإحساس بالواقع؛ إذ لا يشترط أن يكون الفقد والضياع بالموت أو السلب الحسيين، وإنما العيش تحت ظل الفساد وأهوائه وعلى غير هدي الشرع القويم هو في الحقيقة موت وضياع أيُّما ضياع.

* * *

١٠٢٤ – مفهوم ٢٣: إدراك أهل الحق لسنن الله في الباطل يبصرهم بحجم المعركة:

معرفة أهل الحق بتعاضد أهل الباطل وتجمُّعهم على خطط الإفساد التي يقررها لهم الشياطين يبصرهم بحجم المعركة والخصوم فيها، فيوجب ذلك لأهل الحق حسن الاستعداد والتأهب لهذه المعركة، كما أن العلم بأن خطط أهل الباطل لا تخرج عن مشيئة الله وقدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢]، هذا العلم جدير بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين بموعود الله تعالى في نصرة الحق وأهله.

* * *

١٠٢٥ – مفهوم ٢٤: الدفاع عن الحق واجب على كل مؤمن بحسب قدرته:

على كل منتسب للحق أن يدافع عنه ويدفع الباطل بما يستطيع؛ فإن وُجِدتْ راية الجهاد بالسنان وكان من أهلها شارك فيها، وإن عُدِمت الراية لظروف يفرضها الواقع المعاش فليجاهد بما يستطيع من دعوة وبيان، أو مساهمة بمال، أو دعاء أن ينصر الله الحق وأهله...إلخ. ويخشى على من يُقصِّر في أداء ما يستطيع من ذلك أن يدخل تحت جناح من تولَّى يوم الزحف وقدَّم الدنيا الفانية على محبة الله ورسوله؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن

كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

* * *

١٠٢٦ - مفهوم ٢٥: سبب كون جُلِّ أهل الباطل من الملأ والأكابر:

جرت العادة أن يكون أهل الباطل من الأكابر في الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾[الأنعام:١٢٣]، فيعادون الدين ويعاديهم الدين؛ وما ذاك إلا لأن الدين يبدأ من تجريد هؤلاء الأكابر من سلطانهم الذي يستطيلون به على الناس، ومن ادِّعائهم الربوبية التي يُعبِّدون بها الناس، ومن مزاولتهم للحاكمية من دون الله ويستذلون بها الرقاب؛ فينزع الدين منهم كل هذا ليرده إلى الله وحده: ﴿رَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

* * *

١٠٢٧ - مفهوم ٢٦: من أدوات الباطل في الصراع:

من أدوات الباطل في الصراع: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: وسائل الخداع والغواية، وهم كما يخادعون البشرية من حولهم يخدعون أيضًا أنفسهم ويضلونها؛ فهم يتعاونون فيما بينهم لإضلال الآخرين، ويعين بعضهم بعضًا على ضلال أنفسهم؛ كما قال تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

وزخرفة القول تؤدي إلى (**إصغاء**) قلب من لا يؤمن بالآخرة: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣]؛ أي: تميل إليه قلوبهم وتهواه، فيؤدي ذلك إلى (**الرضا**) بالمُصغى إليه: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، ويتبع الرضا العمل بما أصغوا إليه ورضوه: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾. وهنا يجدر التنبيه على خطورة الإصغاء إلى شبهات الباطل وزخارفه؛ لأن ذلك قد يعقبه الرضا به والعمل على نشره.

* * *

١٠٢٨ – مفهوم ٢٧: مدافعة أهل الحق لأهل الباطل لا تقتصر على القتال:

لا يشترط أن تكون المدافعة بين الحق والباطل من خلال الجهاد والقتال فحسب، بل القتال هو المرحلة المتأخرة من مراحل هذا الصراع؛ فإقامة الحجة على الباطل وأهله مدافعة، وإزالة الشبه عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، والصبر على ابتلاء الأعداء والثبات على الدين مدافعة، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ في مكة المكرمة وقبل فرض الجهاد والقتال، أمره بمجاهدة الكفار بالقرآن؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]، وقال ﷺ: **(جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)** [أخرجه أبوداود (٢٥٠٤) وصحَّحه الألباني].

❊ ❊ ❊

١٠٢٩ – مفهوم ٢٨: سنة مداولة الأيام بين المؤمنين والكافرين:

من حكمة الله وسنته في المؤمنين أن يدالوا مرة؛ أي تكون الغلبة لهم على أعدائهم، ويدال عليهم مرة أخرى؛ أي تكون الغلبة لأعدائهم الكفار عليهم أحيانًا، ولكن العاقبة تكون لأهل الحق المتقين؛ قال الله تعالى في هذه السنة: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

وحين سأل هرقل أبا سفيان عن وضع القتال بين قريش والرسول ﷺ، وأجابه أبو سفيان بأن الحرب بينهم سجال؛ يصيب كل طرف من الآخر، قال هرقل عندها: «وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة» [رواه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)].

فهذه السنة كانت معلومة حتى لدى النصارى.

❊ ❊ ❊

١٠٣٠ – مفهوم ٢٩: من فوائد وحِكَم سنة المداولة:

لسنة المداولة فوائد؛ من أهمها:

– لو انتصر المؤمنون على الكافرين دائمًا لدخل مع المؤمنين غيرهم من المنافقين وما حصل التمييز بينهما؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران:١٤٠]؛ أي: ليظهر في الوجود ما يعلمه الله بسابق علمه من المؤمنين، ويتميزون عمن يدَّعون ذلك من المنافقين؛ فالله سبحانه يعلم الأمور قبل وقوعها، والأحداث هي التي تظهر هذا العلم في الوجود، فالمداولة تكشف المخبوء وتجعله واقعًا في حياة الناس، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر، ومن ثَمَّ يتعلَّق به الحساب والجزاء؛ فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم، ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم.

- ولو انتصر الكفار على المؤمنين دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة.

فاقتضت حكمة الله تعالى أن يديل المؤمنين على الكافرين تارة، ويديل الكافرين عليهم أخرى ليحقِّقَ الأمرين: تميُّز المؤمنين عن المنافقين، وحصول المقصود من البعثة والرسالة.

* * *

١٠٣١ – مفهوم ٣٠: متى تكون إدالة الكافرين على المؤمنين؟

إدالة الكافرين على المؤمنين تحدث عند وقوع المؤمنين في المعصية ومخالفة أمر الله وأمر رسوله ﷺ:

- فهزيمة المسلمين في أحد بعد انتصارهم في بادئ الأمر كانت بسبب مخالفة رماة الأسهم لأمر الرسول ﷺ، وتركهم مواقعهم.
- ولما انتشرت البدع وظهرت الفلسفة في المسلمين وانحرفوا عن منهج الله تعالى سلَّط الله عليهم الصليبيين ثم التتار.
- ولما انحرف الأتراك العثمانيون -بعد زمن طويل من التمكين- ومالوا إلى التغريب والعلمنة والاقتداء بأوروبا، وغلبت الغفلة على صالحيهم، زالت الخلافة وابتلى الله المسلمين بالاحتلال الأوروبي الذي مزَّق البلاد الإسلامية وبدد قوتها.

وهذه الإدالة للكافرين على المؤمنين تتداخل مع سنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١]، وتُنبِّه المسلمين إلى أن العصيان والبعد عن منهج الله هو الذي أدال الكافرين عليهم وغيَّر حالهم، وأن التغيير مرة أخرى من الذل والهوان إلى العزة والتمكين لن يحدث إلا عندما يعود المسلمون إلى دينهم ويتركوا مخالفاتهم وعصيانهم لله تعالى.

١٠٣٢ – مفهوم ٣١: سنة الاستبدال:

حين يديل الكفار على المؤمنين، ولا يغيِّر المؤمنون ما بأنفسهم من مخالفات وانحرافات لا تدوم إدالة الكافرين على المؤمنين، وإنما تأتي **سنة الاستبدال** ؛ أي يبدِّل الله بالمؤمنين المخالفين المتخاذلين قومًا آخرين مؤمنين وليسوا مثل الأولين؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة:٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

* * *

ثالثًا: سنن خاصة بالكافرين المكذبين والعصاة الفاسقين:

١٠٣٣ – مفهوم ١: سنة الإملاء والاستدراج:

الإملاء للكافرين واستدراجهم سنة ربانية، وهي من كيد الله ومكره بهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، والآيات غير ذلك كثيرة.

* * *

١٠٣٤ – مفهوم ٢: الإملاء والاستدراج أقسى من الابتلاء بالمحن:

الإملاء والاستدراج أقسى من الابتلاء بالمحن؛ فهو علامة عدم حب الله للمستدرَجين، وأن هذا الاستدراج إنما يكون ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ ويضيفوا غيًّا إلى غيِّهم وظلمًا إلى ظلمهم؛ حتى إذا جاء أجلُ محقهم أتاهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]؛ قال قتادة: «ما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغِرَّتهم ونعيمهم، فلا تغتروا بالله؛ إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون».

* * *

١٠٣٥ - مفهوم ٣: سنة الإملاء للكافرين تتزامن مع سنة ابتلاء المؤمنين:

غالبًا ما تتزامن سنة إملاء الكافرين واستدراجهم مع سنة ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم، ولا يتحقق محق الكافرين إلا بعد تمحيص المؤمنين وإعدادهم لتولِّي الأمر بعد هلاك الكافرين؛ وإلا فلو محق الكافرون قبل إعداد المؤمنين فمن يخلفهم حينئذ؟

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، فذكر سبحانه التمحيص قبل المحق. ولعل في ورود السنتين في آيتين متتاليتين في سورة آل عمران ما يشير إلى تزامنهما وتلازمهما، وأن إحداهما تهيِّئ للأخرى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٨-١٧٩].

* * *

١٠٣٦ - مفهوم ٤: للعصاة والفاسقين نصيب من سنة الإملاء والاستدراج:

سنة الإملاء والاستدراج وإن كانت من السنن لصيقة الصلة بالكافرين المكذبين إلا أن للعصاة والفُسَّاق نصيبًا منها؛ قال ﷺ: **(إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج)** ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤] و[الحديث أخرجه أحمد (١٧٣١١)، وابن حبان (٧٣٥٥)، وقوَّى الألباني إسناده (الصحيحة ٤١٣)، وصحَّحه شعيب الأرناؤوط (تخريج صحيح ابن حبان ٧٣٥٥)].

ومن أشد ما يوقع العصاة والفساق في الاستدراج: الظلم؛ قال ﷺ: **(إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)** ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢] الحديث: [أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)].

وهذا الاستدراج للعصاة والفساق دليل على بغض الله الشديد لهم، وأنهم قد بلغوا حدًّا قاربوا به وصف الكفار والمنافقين، فليحذروا من عاقبة فسقهم وظلمهم وعُتُوِّهم.

* * *

١٠٣٧ - مفهوم ٥: العذاب والهلاك الجزئي بدلًا من عذاب الاستئصال:

رفع عذاب الاستئصال بعد هلاك فرعون وقومه لا ينفي وقوع ألوان أخرى من العذاب والإهلاك الجزئي؛ كالوقوع في الحروب المدمرة لاقتصاد بعض الدول والمسببة لانهيارها؛ كما حدث لما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي الذي ما كان أحد يتوقع أبدًا انهياره وتفككه وهو القوة الثانية في العالم.

ومن ألوان العذاب والإهلاك الجزئي أيضًا: ما يحدث من: زلازل، وتسونامي، وبراكين، بل وأمراض فتاكة لا يُحسب حسابُها؛ كما هو الحال في فيروس (كورونا)؛ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

* * *

١٠٣٨ - مفهوم ٦: استفحال الذنوب وفُشوُّها يوقع في العذاب:

استفحال الذنوب وفُشوُّها في أي أمة مؤذن بعذابها أو هلاكها؛ قال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:٦]؛ فقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقرر حقيقة أن الذنوب سبب في هلاك أصحابها، وأن الله هو مهلكهم؛ فهذه سنة ماضية ولو لم يرها الفرد أو الجيل في عمره القصير المحدود؛ فليس شرطًا أن يأتي الهلاك بقارعة من الله عاجلة كما كان يحدث في الأمم السابقة، بل ربما يأتي عبر الانحلال البطيء الذي يسري في جسد الأمة وهي توغل في متاهة الذنوب.

* * *

١٠٣٩ - مفهوم ٧: العذاب الجزئي إنذار قبل عذاب الاستئصال:

من حكمة الله تعالى ورحمته بالمسرفين إيقاع العذاب الجزئي عليهم تحذيرًا لهم قبل مجيء عذاب الاستئصال أو الإهلاك لعلهم يتضرعون، فإن لم يُجْدِ ذلك معهم نفعًا أُوقعوا في سنة الاستدراج، حتى إذا فرحوا بما أوتوا، وبلغوا الذروة في الجبروت والفساد، وظنوا أنهم قادرون على الأرض وما فيها جاءهم العذاب بغتة فإذا هم مبلسون؛

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

ولقد نوَّع الله ألوانًا من العذاب الجزئي على فرعون وقومه قبل إهلاكهم؛ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣]، فلما نكثوا العهد وأصروا على غفلتهم جاءهم الهلاك المبين؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٥-١٣٦].

* * *

١٠٤٠ - مفهوم ٨: لا رادَّ لعذاب الله:

إذا أذن الله بالعذاب والعقوبة فلا رادَّ لقضائه، ولا يدرك المجرمون المسرفون من أين يأتيهم العذاب، ولا علم لهم بجنود الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، فلا تعلم بها المخابرات، ولا ترصدها أجهزة التنصت؛ فقد يكون الجند ريحًا عاصفًا، أو زلزالًا مدمرًا، أو تسونامي مغرقًا، أو وباء وطاعونًا مهلكًا، -وما أمر فيروس كورونا علينا بخاف- أو غير ذلك مما لا يعمله إلا الله.

* * *

رابعًا: مفاهيم حول سنن خاصة بالمؤمنين:

١٠٤١ - مفهوم ١: سنة إرادة الخير بالمؤمنين:

من سنن الله تعالى الثابتة أنه لا يريد بعباده المؤمنين إلا الخير؛ وذلك في كل واقعة وأمر يحدث لهم؛ فحتى حادثة الإفك التي ظاهرها الأذى الشديد للمؤمنين ولرسولهم الكريم ﷺ وأهل بيته الطيبين قال الله تعالى عنها: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور:١١]. وإن اليقين بهذه السنة هو صميم حسن الظن بالله تعالى، ويُرسِّخ الثقة بحكمة الله تعالى ورحمته.

* * *

١٠٤٢ - مفهوم ٢: ثمرة اليقين بسنة إرادة الخير بالمؤمنين:

اليقين بسنة إرادة الخير للمؤمنين يورث طمأنينة القلب والثقة بأن عاقبة المؤمن هي دائمًا الخير والفلاح. ومما يرسخ اليقين بهذه السنة عند كل أمر استحضارُ قول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* * *

١٠٤٣ - مفهوم ٣: الخير حاصل للمؤمن في الدنيا أو الآخرة:

ليعلم المؤمن أنه إن لم يدرك الخير ويحصِّله في الحياة الدنيا مما يصيبه من أقدار الله المؤلمة له، فإن ذلك الخير يُدَّخر ويؤجل له ليحصِّله في الآخرة، وذلك أجدى وأنفع له؛ فقتل المؤمن في سبيل الله يثمر له الشهادة التي تحقق له عظيم الأجر ورفيع المكانة في الجنة، والأقدار والمصائب في الدنيا تُكفِّر السيئات وتُكْسِب الحسنات التي توجب الفوز بالجنة ورفع الدرجات فيها، وهلم جرا.

* * *

١٠٤٤ – مفهوم ٤: عواقب حادثة الإفك مثال على سنة إرادة الخير بالمؤمنين:

من الأمثلة التطبيقية لبيان هذه السنة: ذكر جوانب الخير الناجمة عن حادثة الإفك؛ فمن ذلك:

١ – تحصيل الرسول ﷺ، وزوجه العفيفة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأبيها الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تحصيلهم الأجر العظيم جزاء صبرهم على ما حصل لهم من الأذى بهذا الإفك والافتراء.

٢ – ظهور الاتهام الباطل إلى العلن منع بقاء التهمة كامنة في صدور البعض، وما ينجم عن ذلك من التشكيك في الدين من خلال الهمس بالطعن في حَمَلَته.

٣ – نزول الآيات المعقبة على قصة الإفك بتبرئة السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شرف كبير لها ولآل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لاختصاصهم بآيات تمدحهم وتتلى إلى يوم القيامة.

٤ – ومن الشرف أيضًا أن نزول هذه الآيات أضحى من العلامات الفارقة في باب الكفر والإيمان؛ فكل من يقدح في السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالإفك يصبح كافرًا لتكذيبه لآيات من القرآن الكريم.

٥ – تأخر الوحي في الرد على قصة الإفك مدة شهر كامل فيه دليل على عدم علم النبي ﷺ للغيب؛ إذ لو كان يعلمه لأخبر ببراءة زوجه من أول الأمر دون أن يحصل ما حصل له من الأذى والمعاناة بالطعن عليها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وبهذا يمتنع على المسلمين الغلو في الرسول ﷺ وادعاء علمه للغيب.

* * *

١٠٤٥ – مفهوم ٥: سنة نصر الله لعباده المؤمنين:

نصر الله لعباده المؤمنين سنة ربانية لا تتبدل ولا تتخلف إذا تحققت شروطها وانتفت موانعها؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، والآيات غير ذلك كثيرة.

* * *

١٠٤٦ - مفهوم ٦: تأخر النصر لا يعني عدم مجيئه:

حتى لو تأخر نصر المؤمنين، أو دال الكفار عليهم فترة ما فإن نصر الله للمؤمنين المتقين يكون هو عاقبة الأمر وآخره؛ قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[الأعراف:١٢٨].

❊ ❊ ❊

١٠٤٧ - مفهوم ٧: إن تنصروا الله ينصركم:

شَرَط الله على عباده أن ينصروه حتى ينصرهم؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧]، ونصرة المؤمنين لربهم في أنفسهم تكون بإخلاص توحيده من كل شرك، وطاعته في كل أمر، والانتهاء عما ينهى عنه، ونصرتهم له في واقع الحياة تكون بنصرة شريعته ومنهاجه، كما يشترط لتحقق النصر الاجتماع وعدم التنازع.

ونصرة الله في واقع الحياة مرتبطة بنصرته في عالم النفس والضمير ومنبنية عليها؛ فلن يتحقَّق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم النفس، ولن يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.

❊ ❊ ❊

١٠٤٨ - مفهوم ٨: الإيمان هو سبب النصر وعلته:

النص على أن نصر الله يكون للمؤمنين يفيد أن الإيمان هو علة نصر الله وسببه، فإن انتفى نصر الله أو تأخر فإنما يكون ذلك لقصور في العلة؛ فقد يكون الإيمان مجرد دعوة ومظهر خالٍ من حقيقته ومخبره، وعندها تغلبه حقيقة الكفر؛ لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر أي شيء ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان. أمَّا حين ينشأ الإيمان الحق فإنه يهزم الباطل بكل زيفه وخداعه: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء:١٨].

❊ ❊ ❊

١٠٤٩ - مفهوم ٩: أمثلة للقصور في الإيمان المانع لتحقيق النصر:

- حين ترك المؤمنون طاعة رسول الله ﷺ في غزوة أحد وطمعوا في الغنيمة كان ذلك قصورًا في الإيمان منع تحقيق نصر الله لهم.

- وحين دخل العجب قلوب المؤمنين يوم حنين، واغتروا بكثرتهم كان ذلك قدحًا في التوكل على الله فتأخر النصر حتى ثبت المؤمنون وأخلصوا الأمر لله، فأنزل سكينته عليهم ونصرهم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

* * *

١٠٥٠ - مفهوم ١٠: واقع المسلمين الحالي وتشويش الأذهان تجاه نصر المؤمنين:

أدَّى واقع المسلمين الحالي، وما هم عليه من انكسار وهوان، وما بلغه الكفار من تسلط وجبروت؛ أدَّى ذلك إلى تشويش أذهان البعض واليأس من انتصار المؤمنين في الحياة الدنيا. وهذا خلل في الفهم شديد، وقصور عن إدراك سنن الله أكيد، وجهل بحقيقة أسماء الله تعالى: الحكيم، العليم، الخبير، القدير، الرحيم، اللطيف.

وقولُ الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١] يَرُدُّ هذا الفهمَ، ولا يصح ادِّعاء أن الآية مقصود بها (في الآخرة) ولا زعم أن الكافرين لهم الدنيا والمؤمنين لهم الآخرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]؛ فحكم تعالى بنصرهم في الدنيا والآخرة.

ولكن ينبغي أن يدرك تحقق النصر للمؤمنين وفق ما تقرر في المفاهيم السابقة، وفي ضوء ذلك أيضًا يفهم قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؛ فالله سبحانه ما جعل لهم السبيل على المؤمنين، ولكن المسلمين هم الذين تسببوا في ذلك بمخالفتهم لشروط النصر والتمكين. ومما يجب الجزم به أن هذا التسلط من الكافرين جزئي وآني لن يستقر ولن يدوم، وعلى المؤمنين فقط أن يثقوا بربهم، ويراجعوا أنفسهم ويتهموها بالقصور في الإيمان، ثم يسعون جادين في تحقيق الإيمان الحق كما سبق، وعندها تتحقق سنة الله الأكيدة، ويتم النصر، ويزول الانكسار والهوان.

مفاهيم
في الفتن

مفاهيم في الفتن

أولاً: مفاهيم حول معنى الفتنة ومن تصيبهم:

١٠٥١- مفهوم١: معنى الفتنة:

فَتَنْ المعدن فتنًا وفتونًا: صهره في النار ليختبره، وفتن فلانا: عذَّبه ليحوله عن دينه، وفتنه: رماه في شدة ليختبره.

وجماع تعريف الفتنة كما قاله الأزهري في تهذيب اللغة هو: الابتلاء والامتحان.

وجاءت الفتنة في القرآن لمعانٍ كثيرة من أهمها:

١- **الفتنة** بمعنى الامتحان والاختبار؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١]، ومن ذلك فتن: النساء والمناصب والمصائب.

٢- **الفتنة** بمعنى الشرك والكفر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة:١٩١].

٣- **الفتنة** بمعنى العذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣].

٤- **الفتنة** بمعنى الاقتتال والاختلاف بين الناس، وجاء ذلك في تحذيرات الرسول ﷺ؛ فمن ذلك: قوله ﷺ: (**إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**) [رواه البخاري (١٨٧٨)، ومسلم (٢٨٨٥)]، وقوله ﷺ: (**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم**... الحديث) [رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦)].

٥- **الفتنة** بمعنى الإثم والضلال؛ ومنه قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦٢ - ١٦٣].

ولو تأملنا التعريفات السابقة وأنواعها لرأيناها إما أن تكون سببًا في وقوع الإثم، أو هي الإثم نفسه، أو هي ما يترتب على الوقوع في الإثم -وهو العذاب في الدنيا والآخرة- والموقف منها: المقت والحذر منها.

ويقول الراغب: «الفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد؛ كالبلية

والمصيبة والقتل والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كانت من الله تعالى فهي على وجه الحكمة، ويحمد الله تعالى عليها، ومتى كانت من الإنسان بغير أمر الله تعالى فهي مذمومة» [المفردات مادة (فتن) بتصرف يسير].

* * *

١٠٥٢ – مفهوم٢: الفتن من حيث المصاب بها ثلاثة أقسام:

١ – **الفتن الخاصة**: وهي فتن الرجل في أهله وماله وولده وجاره، ومصائبه الفردية التي تصيبه.

٢ – **الفتن العامة**: وهي التي تعم الناس جميعًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، وهي التي وصفت بأنها تموج كموج البحر، وكقطع الليل المظلم، وهذا النوع من الفتن له صور كثيرة:

- من أهمها وأخطرها: فتنة الافتراق والاختلاف والاقتتال.
- ومنها فتن انتشار المعاصي والبدع.
- ومنها فتن تسلط الكفار على المسلمين واستضعافهم.
- ومنها فتنة التغريب والانبهار بالمدنية الغربية.
- ومنها فتنة تسلط الطواغيت على المسلمين وحكمهم بغير شريعة الله ﷻ.
- ومنها فتن الشبهات والشهوات ولبس الحق بالباطل التي بلغت أوجها وذروتها في واقعنا المعاصر بعد خروج النت والجوالات الذكية.
- ومنها فتن الأموال بأكل الربا والبيوع والعقود المحرمة.
- ومنها فتنة النساء وتبرجهن واختلاطهن بالرجال، وغير ذلك من الفتن العامة.

٣ – فتن تصيب فئات من الناس:

فهي فتن بين الفتن الخاصة والفتن العامة؛ حيث لا تختص بفرد واحد، ولا تعم جميع الناس، بل يتلبس بها فئات معينة من الناس، وأظهر هذه الفئات ثلاث:

الأولى: فئة الخوارج:

الذين وقعوا في فتنة تكفير المسلمين واستباحة دمائهم؛ زاعمين أنهم يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى لا تكون فتنة بزعمهم.

الثانية: فئة المرجئة وأهل الفجور:

الذين أهملوا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفساد خوف الفتنة بزعمهم، ومن هؤلاء اليوم: الذين ينكرون على الدعاة والعلماء الربانيين صدعهم بالحق، ونهيهم عن المنكر، وأمرهم بالمعروف؛ متهمين لهم بالخروج على ولاة الأمر وإحداث الفتن وزعزعة الأمن، وما علموا أن الفتنة هي ترك الأمر والنهي بضوابطه الشرعية.

الثالثة: الفئة التي تريد السلامة في الدعوة:

وهي فئة تريد السلامة في الدعوة والجهاد في سبيل الله، ولا تريد أن يصيبها مكروه وأذى في هذا السبيل؛ زاعمين أنهم يتجنبون الوقوع في الفتنة، وما علموا أن الابتلاء في سبيل الله تعالى سنة ثابتة من سنن الله ﷻ، وأن ترك الدعوة والجهاد بحجة تفادي الابتلاء هو من الفتنة التي أرادوا الفرار منها فسقطوا فيها؛ قال تعالى عن أمثال هؤلاء: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة:٤٩]، وحذَّر سبحانه ممن هذه صفته بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

* * *

ثانيًا: مفاهيم حول تنوع الفتن وصورها:

١٠٥٣- مفهوم ١: فتنة الشرك والكفر المخرج من الملة:

وقد سماها الله ﷻ: فتنة؛ وذلك في قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وهذه المصيبة فتنة على صاحبها بأن يكون مخلدًا في النار يوم القيامة لو مات على ذلك، وفتنة على الناس بإضلالهم ونشر الكفر بينهم من قبل أئمة الكفر، وينبغي أن يحذر المؤمن الشرك ولا يأمنه على نفسه، بل يفتش عن أنواعه وصوره، وأشدها اليوم: الشرك بالله ﷻ في عبادته، أو حكمه وطاعته، أو ولائه ومحبته، ومن يأمن الشرك بعد إبراهيم ؛ قال تعالى عن خليله ودعائه لربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٥ - ٣٦].

ودون الشرك الأكبر فتنة أقل منه -ولكنها تظل فتنة خطيرة- وهي فتنة الشرك الأصغر؛ كالريا، والعجب، والتلفظ بالألفاظ الشركية دون قصد؛ كالحلف بغير الله.

١٠٥٤- مفهوم ٢: فتنة النفاق الاعتقادي:

وهو فتنة على صاحبه في الدنيا بارتكاب هذا الخُلُق الدنيء الذميم، القائم على الخداع والغدر والخيانة، وفتنة عليه يوم القيامة حيث مقره في الدرك الأسفل من النار.

كما أن النفاق فتنة على المسلمين بما يُحدِثُه فيهم من الخداع وموالاة الكفار عليهم، وكشف عورات المسلمين للكفار، وبما يحدثونه من الفرقة بين المسلمين والغش لهم وخذلانهم، والكره لحكم الشريعة وأهلها.

* * *

١٠٥٥- مفهوم ٣: فتنة البدع وأهلها:

وهي فتنة على أصحابها بما يرتكبونه من ضلال لأنفسهم وإضلال لغيرهم؛ وذلك بمجانبتهم لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وبما يعرضون أنفسهم له من العذاب يوم القيامة، ويحسبون أنهم في ذلك محسنون صنعًا.

ومن أشد البدع: فتنة الخوارج الذين يكفِّرون المسلمين ويستبيحون دماءهم، وفتنة المرجئة الذين ينشرون الفساد والفجور بعقيدتهم الفاسدة؛ فإن الإيمان عندهم هو التصديق، ولو فعل المرء ما فعل.

والبدع قسمان: قسم يخرج من الملة؛ كبدعة الشيعة الرافضة الذين اجتمع فيهم الشرك الأكبر، وغلوهم في أئمتهم واعتقادهم بعصمتهم وأنهم يعلمون الغيب، وهم شر أعداء أهل السنة.

وبدعة لا تخرج من الملة ممن لم توقعه بدعته في الشرك والكفر المخرج من الملة.

* * *

١٠٥٦- مفهوم ٤: فتنة الشبهات ولبس الحق بالباطل:

وهذه أثر من آثار فتنة أهل الكفر والبدع والنفاق، الذين لا يفتأون يثيرون الشبهات، ويلبسون الحق بالباطل، ويشوهون المفاهيم الصحيحة، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولونه ابتغاء الفتنة وخداع الناس في إظهار الحق باطلاً والباطل حقًا؛ كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾

[آل عمران:٧]، وهذه الفتنة من أشد أنواع الفتن اليوم، لا سيما أن أعداء الملة والسنة قد سخَّروا لها آلة إعلامية هائلة -المسموع منها والمرئي والمقروء- في إضلال الناس والتلبيس عليهم في دينهم، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم واعتصم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ وفهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

* * *

١٠٥٧ - مفهوم٥: فتنة الشهوات:

وتتعلق بهدم الأخلاق، وفشو المعاصي، وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ظهرت في واقعنا المعاصر اليوم أشد ما تكون، وجنَّد شياطين الإنس والجن جميع قوتهم وآلاتهم الإعلامية في هدم أخلاق الناس وإغراقهم في الشهوات والمجون، واستخدام المرأة أداةً للإغواء بالشهوات؛ وذلك بتبرجها واختلاطها بالرجل وخلوته بها؛ مما ينجم عنه فساد على الضروريات الخمس: الدين، والعقل، والنفس، والعرض، والمال، ولا سيما إذا لم تنكر هذه المعاصي وسُكِت عنها.

* * *

١٠٥٨ - مفهوم ٦: فتنة الغربة:

وذلك حينما يجد المسلم نفسه وقلة من إخوانه في مجتمع قد أعرض عن شرع الله عَزَّوَجَلَّ وكثرت فيه المعاصي، وانتشرت فيه المفاهيم المنحرفة في العقيدة والسلوك، فيشعر المتمسك بدينه بالغربة، ويخشى على نفسه الزيغ وعدم الثبات على الدين؛ لأن المتمسك بدينه أيام الفتن كالقابض على الجمر كما جاء ذلك في الحديث الصحيح، وقد جاء مدح الغرباء والثناء عليهم في قوله ﷺ: **(طوبى للغرباء)**، قيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: **(أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)** [رواه أحمد (٦٦٥٠)، وصححه أحمد شاكر (تخريج المسند له ١٢/ ٢٩)، وحسَّنه الأرناؤوط في تخريجه للمسند]، وفي حديث آخر: **(الذين يُصلحون إذا فسد الناس)** [رواه الترمذي (٢٦٢٩) مختصرًا، وابن ماجة (٣٩٨٨) بنحوه، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٧٣)].

* * *

١٠٥٩- مفهوم٧: فتنة الأهل والأولاد:

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن: ١٤]، وكون هذه من الفتن هو لما للأولاد والزوجات من ضغط على ولي أمرهم ودفعه للوقوع في المعاصي وترك الجهاد في سبيل الله بسببهم، أو إيقاعه في كسب الحرام وإنفاقه في الحرام بسببهم.

❊ ❊ ❊

١٠٦٠- مفهوم ٨: فتنة الدنيا وزينتها:

وتحت هذه الفتنة صور كثيرة منها:

- فتنة الجاه وحب الشهرة والرئاسة.
- فتنة النساء.
- فتنة الأهل والأولاد.
- فتنة الأموال وما يتعلق بها من أكل الربا والبيوع والعقود المحرمة.
- فتنة العلم والعلماء وما يتعلق بها من القول على الله بلا علم، وإرادة الدنيا من العلم، وعدم العمل بالعلم، والتحاسد بين العلماء، وحب العالِـم للظهور والشهرة.

❊ ❊ ❊

١٠٦١- مفهوم ٩: فتنة الاختلاف والفرقة والاقتتال بين المسلمين:

وهذه فتنة عمياء رأينا مفاسدها في قديم التاريخ الإسلامي وحديثه، وكيف أنها تؤول بأهلها إلى الفشل وانتصار الأعداء عليهم، وما يترتب على ذلك من الفساد الكبير على الدين وأهله.

١٠٦٢- مفهوم ١٠: فتنة السلاطين:

وقد خاف هذه الفتنة كثير من علماء السلف وحذَّروا منها، وهي أشد ما تكون على العلماء والدعاة، ومآلها فساد الدين وكتم الحق أو لبسه بالباطل من أجل لعاعة فانية من الدنيا؛ قالﷺ: **(من أتى أبواب السلاطين افتتن)** [رواه أبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦) وحسَّنه، وأحمد (٣٣٦٢)، وصححه الألباني (صحيح أبي دواد)].

❊ ❊ ❊

١٠٦٣- مفهوم ١١: فتنة المصائب والمكروهات:

وهي التي تصيب المسلم فيما يكرهه في نفسه، أو أهله، أو ماله أو أحبابه؛ فيثبت الله ﷻ أولياءه بالصبر واليقين والرضا عنه سبحانه، وإحسان الظن به، واليقين بأن اختيار الله ﷻ لعبده أفضل من اختياره لنفسه وإن كره ذلك. وفي هذه الفتنة اختبار لإيمان المؤمن واحتسابه؛ فالناس يتساوون في الرخاء ولكنهم يتباينون في الشدائد.

* * *

١٠٦٤- مفهوم ١٢: فتنة تقليب الأمور وتسمية الأشياء بغير مسمياتها:

وهذه فتنة عمياء يعرض فيها المبطلون الحق في صورة باطل والباطل في صورة حق؛ فيحسِّنوا القبيح ويقبِّحوا الحسن بأساليب ماكرة يزخرفون فيها القول، ويتلاعبون بالمصطلحات، فهذه الفتنة هي مصداق قوله ﷺ: **(تأتي على الناس سنوات خدَّاعات؛ يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيهم الرويبضة)**، قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟ قال: **(الرجل التافه يتكلم في أمر العامة)** [رواه الحاكم في المستدرك (٨٦٦٠)، وابن ماجة بنحوه (٤٠٦٣)، وأحمد (٨٤٥٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٥٠)].

ومن الصور المعاصرة لتقليب الأمور وتسمية الأمور بغير اسمها ما يأتي:

- تسمية الخمر بالشراب الروحي.
- تسمية الربا بالفائدة.
- تسمية مسابقات اللهو بالبطولة.
- تسمية الكافر بالآخر.
- تسمية تغيير خلق الله بالتجميل.
- تسمية الرشوة بالهدية.
- تسمية المسلمين الوافدين بالأجانب.
- تسمية مؤسسات الإفساد بالترفيه السياحي.
- تسمية الأحكام الشرعية بالعادات والتقاليد.
- تسمية الرويبضات بالمعالي والسعادة والسمو.
- تسمية المكوس والمظالم المالية بالضرائب والجمارك.
- تسمية المجاهدين المقاومين للمحتلين بالإرهابيين.
- تسمية المشهورين من الساقطين والساقطات بالنجوم.

- تسمية التبديل في أصول الدين بتجديد الخطاب الديني.
- تسمية عداوة الكفار وكراهيتهم بالإقصاء ونشر الكراهية.
-تسمية النفاق والمداهنة بالحكمة والعقل المعيشي ومحبة السلام.
- تسمية قرارات مجلس الأمن والمحكمة الدولية بالشرعية الدولية.
- تسمية التنصير بالتبشير، والنصارى بالمسيحيين، واليهود بالإسرائيليين.
- تسمية المفسدين أنفسهم بالمصلحين وتسميتهم للمصلحين بالمفسدين.
- تسمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتدخل في شؤون الغير والفتنة.
- تبرير التحلل من الأحكام الشرعية ومحكمات الدين بالتيسير والضرورة.
- تصحيح ديانة اليهود والنصارى وتحت مسمى ديانة جديدة سمَّوها الإبراهيمية.
- تسمية الدعاة الصادقين المناصرين لعقيدة الولاء والبراء في الله بالمتطرفين الغلاة.
- قصر التحرش بالمرأة والزنا بها على حالة عدم رضاها واغتصابها، أما إذا كان برضاها فلا يكون تحرشًا ولا زنا.

* * *

١٠٦٥- مفهوم ١٣: فتنة المسيح الدجال:

وهو من علامات الساعة الكبرى، وقد حذَّرنا الرسولﷺ منه ومن فتنته، وأمر بالاستعاذة دبر كل صلاة من شره؛ ذلك أن فتنته من أشد الفتن؛ حيث ينخدع به أكثر الناس عند ما يرونه يحي الميت بإذن الله، وتُخرج الخربة كنوزها، ويقول للسماء أمطري فتمطر بإذن الله، وغير ذلك من الخوارق؛ فيؤمن به من افتتن به.

* * *

١٠٦٦- مفهوم ١٤: فتنة الممات:

وقد جاء أيضًا الأمر بالاستعاذة من فتنة المحيا والممات دبر كل صلاة، وفتنة المحيا هي ما ذكر آنفًا من فتن الدنيا وزهرتها، وفتنة الأموال والأولاد والمصائب وغير ذلك مما يتعرَّض له المسلم في حياته.

وأما فتنة الممات فهي ما يتعرض له العبد عند احتضاره من تسلُّط الشيطان لإغوائه قبل خروج روحه، وما يتعرض له العبد في قبره من فتنة القبر وسؤال الملكين له عن ربه ودينه ونبيه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت.

ثالثًا: مفاهيم حول أسباب الفتن ووسائل النجاة منها:

١٠٦٧- مفهوم ١: الأسباب التي توقع في الفتن:

قد كفانا الإمام بن القيم -رحمه الله تعالى- ذكر أسباب الفتن والوقوع فيها؛ حيث أحالها إلى سببين كبيرين وتحتهما فروع كثيرة، فالسببان هما: الشبهات، والشهوات.

يقول رحمه الله تعالى: «والفتنة نوعان: فتنة الشبهات -وهي أعظم الفتنتين- وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوى؛ فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت فى ضلال سيِّئ القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣] ... وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهى فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم؛ فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال.

ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريدُ اتباع الرسول، وتحكيمه في دِقِّ الدين وجُلِّه، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه... وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع؛ فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة» [انتهى من إغاثة اللهفان مختصرًا (١/ ١٦٥)].

النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات:

وهي الفتنة التي يكون سببها الهوى وليس الجهل بالحق أو الاشتباه فيه، بل صاحب هذه الفتنة على علم بالحق ولكنه أعرض عنه وآثر غيره مما يهواه قلبه وتشتهيه نفسه.

وأصل كل فتنة إنما هو تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل، فالأول أصل فتنة الشبهات، والثاني أصل فتنة الشهوات.

وقد جاء في حديث مرسل ضعَّفه بعض أهل العلم ولكن معناه صحيح: (إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات)، إذن فأصل الفتن كلها إما شبهة أو شهوة، فإذا وافقت الفتن قلة علم وجهل بالحق، أو شبهة بتأويل فاسد وقع صاحبها في الفتن بسبب الشبهة، وإذا وافق علم بالحق عند العبد لكن صبره عن الشهوات ضعيف وقع في الفتنة بسبب الشهوة وليس الشبهة.

النوع الثالث من أسباب الفتن:

وهو مزيج بين الشبهة والشهوة؛ أي إن من وقع في الفتنة لا يعترف بأنه ضعيف الصبر قد غلبه هواه، وإنما يحاول متكلفًا الاستدلال على هواه بشبهة شرعية يبرر بها وقوعه فيما وقع فيه؛ أي إنه لا يعترف بخطئه وهواه، وإنما يدَّعي أنه على الحق بشبهته من تأويل فاسد أو دليل ضعيف.

وللوقوع في الفتن أسباب أخرى فرعية؛ منها: العجلة والتسرع، وترك الاستخارة والاستشارة، ومجالسة أهل الدنيا والفجور والبدع، والقراءة في كتبهم ومقالاتهم، والانهماك في الدنيا والركون إليها وإيثارها على الآخرة.

❊ ❊ ❊

١٠٦٨- مفهوم ٢: أسباب النجاة من الفتن:

بمعرفة أسباب الوقوع في الفتن آنفة الذكر تتضح لنا أسباب الوقاية منها، وأهمها:

١- سؤال الله ﷻ الثبات على الحق والاستعاذة به من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ كما في الدعاء المأثور: (**اللهم إني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن**)؛ فلا منجى من الفتن إلا بإعانة الله وتوفيقه وإعاذته لعبده منها. ومما يحقق إجابة الله ﷻ لمن يدعوه ويستعيذ به: علم الله تعالى بصدق عبده في طلبه ودعائه، ومن علامات صدق الدعاء والطلب أن يأخذ بالأسباب الأخرى الواقية من الفتن.

٢- **إزالة فتنة الشبهات** بالعلم الشرعي والفهم الصحيح عن الله تعالى وعن أحكامه النابعين من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما

أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما...وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد... يمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: **أحدهما**: فهم الواقع والفقه فيه، **والنوع الثاني**: فهم الواجب في الواقع؛ وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسولهﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر.

٣- **علاج فتنة الشهوات** بالخوف من الله تعالى، وإيثار ما عنده في الآخرة؛ فذلك خير وأبقى، وتوطين النفس على الصبر والتقوى؛ ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]؛ لأن هذه الفتنة قد تطرأ على من كان عنده علم بالله تعالى وأحكامه، ولكنها أتته من باب الهوى وضعف التقوى، ولم تكن عن عدم معرفته بالحق، وإنما من عدم التقوى والصبر، وإيثار الدنيا على الحق.

٤-ولما كان من أسباب الوقوع في الفتن: العجلة والتسرع، كان دواء ذلك التؤدة والرفق والحلم والأناة.

٥-استخارة الله ﷻ، واستشارة من يوثق في علمه ودينه ووعيه بالواقع.

٦-الحرص على جمع الكلمة ونبذ الفرقة والاختلاف، إلا من يتعين مفارقتهم من أهل الكفر والنفاق والبدع المغلظة.

٧- لزوم التقوى ومجالسة الصالحين، والإكثار من عبادات النوافل والقربات، وكثرة ذكر الله تعالى.

٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكثيف الدعوة إلى الله ﷻ، وجهاد الكفار والمنافقين باللسان والمال والسنان، والعزلة عندما يكون الاقتتال بين المسلمين أنفسهم.

٩- الزهد في الدنيا، والحذر من فتنتها؛ فهي فتنة لكل مفتون.

١٠- اعتزال الفتن وأهلها، وعدم المشاركة فيها بلسان أو قلم أو سنان، والعزلة ليست ممدوحة ولا مذمومة بإطلاق، ولكنها تختلف من شخص إلى آخر، ومن مكان

وحال إلى آخر، وينظر إلى المفاسد والمصالح التي تترتب عليها ويوازن بينهما، والأصل أن المخالطة إذا كان فيها تعاون على البر والتقوى فهي مأمور بها، وإن كان فيها تعاون على الإثم والعدوان فهي منهي عنها، وتتعين العزلة حينئذ.

* * *

مفاهيم

في السياسة

مفاهيم في السياسة

أولا: مفاهيم حول السياسة الشرعية:

١٠٦٩ - مفهوم ١: السياسة الشرعية:

السياسة في اللغة هي: الرياسة والقيام على المرؤوسين بما يصلحهم. [ينظر لسان العرب: (٣/ ٢١٤٩)]؛ فهي إذًا علاقة بين حاكم ومحكومين يرعى فيها الحاكم مصالح المحكومين.

وقد عُرِّفتْ السياسة في الاصطلاح المعاصر بتعريفات عدة، لعل من أشملها: «رعاية كافة شؤون الدولة الداخلية والخارجية»؛ وذلك لتشمل السياسة الداخلية والخارجية.

والسياسة في شريعة الإسلام تُسمَّى: «**السياسة الشرعية**»، وهي علاقة بين الراعي، وهو إمام المسلمين وولي أمرهم أو من ينوب عنه، والرعية وهم عامة الأمة الذين يجب عليهم طاعة راعيهم المسلم في المعروف دون المعصية مقابل أن يحكمهم بشريعة الإسلام.

ويمكن تعريفها بأنها: «رعاية شؤون الأمة ومصالحها الدينية والدنيوية بالداخل والخارج وفق الشريعة الإسلامية».

* * *

١٠٧٠ - مفهوم ٢: العلاقة بين السياسة الشرعية ورسالة الإسلام:

رسالة الإسلام عامة من وجهين: **أحدهما**: عموم المرسل إليهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨].

الوجه الثاني: شمول منهجها لكافة أمور الحياة الدنيا وحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

والسياسة الشرعية فيها العمومان نفساهما: فهي لرعاية شؤون الأمة ومصالحها الدنيوية والدينية على حدٍّ سواء، وهي تتناول إدارة شؤون الأمة سواء فيما بينها أو في علاقتها بكافة المجتمعات من حولها، والتي منها: دعوتهم للإسلام، والسعي لتعبيدهم لرب العالمين.

فكان لزامًا على هذا أن ترتبط السياسة الشرعية برسالة الإسلام بحيث تكون الرسالة هي مصدرها ومنبع استمدادها.

١٠٧١ - مفهوم ٣: مصادر كل من السياسة الشرعية والسياسة الوضعية:

حتى تكون السياسة شرعية لا بد أن تكون مصادرها واستمدادها هي فقط مصادر التشريع الإسلامي نفسها؛ فأول ذلك نصوص الوحي من الكتاب والسنة، ثم إجماع علماء الأمة، ثم الاجتهاد الذي يشمل: القياس، والمصالح المرسلة.

أما السياسة الوضعية المعاصرة فمصدرها الرئيس هو الفكر البشري الذي لا ينفك عن الجهل والظلم والهوى، وتقوم أساسًا على فصل الدين عن الدولة وحياة الناس.

فالسياسة الشرعية واجب ديني، بينما السياسة المعاصرة إلزام وضعي.

❋ ❋ ❋

١٠٧٢ - مفهوم ٤: سمات كل من السياسة الشرعية والسياسة الوضعية:

تتسم السياسة الشرعية بسمات رئيسة أهمها: ربانية المصدر، الكمال والشمول، العدل، والتوازن تحقيق مصالح العباد الدنيوية والأخروية، ودرء المفاسد عنهم، وتحقيق العبودية في الأرض لله ﷻ.

بينما تتسم السياسة الوضعية المعاصرة بالانفصال عن الوحي -لفصلها الدين عن الدولة- وقيامها على الظلم وأهواء البشر، وغلبة القوي للضعيف وتحكمه فيه -كما هو الحال في حق النقض (الفيتو) للدول الخمس الكبرى في الأمم المتحدة- وتتسم أيضًا بالكيل بعدة مكاييل، والمكر والخداع بإخراج هذه المظالم في قالب السياسة والحزم وتحقيق الأمن.

❋ ❋ ❋

١٠٧٣ - مفهوم ٥: دعاوى فصل الدين عن السياسة والحكم قديمًا وحديثًا:

دعوى فصل الدين عن السياسة والحكم قديمة وليست حديثة، ولكنها كانت لدى الحكام الجائرين في أمة الإسلام بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة جزئية وليست كلية؛ فكانوا يطبقون الشرع في الحكم على وجه الإجمال، فإذا ما تعارض ذلك مع مصلحة بقائهم في الحكم وهدَّد عروشهم نحَّوا الشريعة جانبًا وفعلوا ما يحفظ ملكهم وقالوا: «هذا من باب السياسة، ولا تستقيم أمور الرعية إلا بذلك، ولو وكلناهم إلى الشريعة لفسدت أمورهم» [ينظر: الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٢)].

أما اليوم فإن العلمانيين والليبراليين يفصلون الدين عن السياسة والحكم فصلًا تامًّا، ويجعلون الدين مجرد علاقة بين المرء وربه لا تخرج عن المسجد أو الكنيسة، ولا علاقة

للدين عندهم بحياة الناس خارج دور العبادة؛ هكذا يزعمون. وقد تأسس ذلك وترسَّخ بعد الثورة الفرنسية؛ حيث ثار الناس على الكنيسة وتحكُّمها في حياتهم بغير حق، فخرجوا بهذا المفهوم الباطل.

واليوم يطبق منافقو أمة الإسلام من العلمانيين والليبراليين ومن نحا نحوهم هذا الضلال في بلاد المسلمين، ولهم في ذلك عبارات مشهورة منها: «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين»، و«الدين لله والوطن للجميع»، ...إلخ.

❊ ❊ ❊

١٠٧٤ - مفهوم ٦: من لهم حق ممارسة السياسة الشرعية وصفتهم:

الذين لهم حق ممارسة السياسة الشرعية هم ولاة الأمر الذين تجب على الرعية طاعتهم في المعروف دون المعصية؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء:٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء:٨٣].

والمقصود بولاة الأمر في الآيتين: العلماء والحكام ومن ينوبون عنهم من القضاة وولاة المناطق، أو مجالس الشورى، أو الهيئات الشرعية، وكل من له سلطة شرعية على الناس [ينظر تفسير السعدي للآيتين السابقتين]، وبناء عليه فإن من التلبيس أن يُنزَّل معنى ولي الأمر على الطواغيت المعاصرين ممن يحكمون بغير شرع الله ويوالون أعداء الله.

وكما أن للولاة الشرعيين حق طاعة الرعية لهم في المعروف فإن عليهم واجب طاعة الله ورسوله فيما يأمرون به، وأن يحكموا الناس بشريعة الإسلام؛ قال ابن تيمية: «والأمراء والعلماء لهم مواضع تجب طاعتهم فيها، وعليهم هم أيضًا أن يطيعوا الله والرسول فيما يأمرون؛ فعلى كل من الرعاة والرعية والرؤوس والمرؤوسين أن يطيع كل منهم الله ورسوله في حاله، ويلتزم شريعة الله التي شرعها له» [مجموع الفتاوى (١٩/ ٣١٠)].

❊ ❊ ❊

١٠٧٥ - مفهوم ٧: إنما الطاعة في المعروف دون المعصية:

في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] كرَّر الأمر بالطاعة مع ذكر الرسول ﷺ للإشارة إلى أن طاعة الرسول ﷺ هي من طاعة الله تعالى، ولم يكرر الفعل (أطيعوا) مع أولي الأمر للإشارة إلى أن طاعتهم مشروطة بأن تكون فيما هو طاعة لله ولرسوله، أما ما كان فيه معصية لله ورسوله فلا طاعة فيه حينئذ؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والواجب حال الأمر بالمعصية رفضه، وعند التنازع في أمر ما فالواجب هو الرد إلى الله والرسول كما صرَّحت الآية، والمقصود: الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقد جعلت الآية ذلك شرطًا للإيمان: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، فدل ذلك على أنَّ من لم يرُدّ مسائل النزاع إلى الله ورسوله فليس بمؤمن حقًا، بل هو مؤمن بالطاغوت كما ذكرت الآية التي تليها: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ [النساء:٦٠]، وقد أكَّدتْ الآية الأولى أيضًا على صحة نهج الرد إلى الله والرسول وخيريته فقالت: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

* * *

١٠٧٦ - مفهوم ٨: العلاقة بين السياسة والإدارة:

شغلت الإدارة في عالمنا المعاصر حيزًا كبيرًا من فكر الناس، حتى أضحت علمًا مستقلًا يتحدثون فيه عن عمليات أربع تشملها أي إدارة؛ هي: التخطيط والتنظيم، والتنفيذ، والمتابعة، والتقويم. والمدير هو المسؤول الرئيس عن تطبيق هذه العمليات الأربع؛ سواء طبق ذلك بنفسه في بعضها، أو بما يسنده إلى فريق العمل الذي يشكله.

وتتنوع مجالات الإدارة فتشمل: إدارة المجتمعات، وإدارة الشركات والمؤسسات، وإدارة المشاريع، وإدارة الذات...إلخ.

ومن تعريف السياسة الشرعية السابق يتبين أنها عبارة عن إدارة الأمة، أو كما يقال بالتعبير المعاصر: إدارة المجتمعات، فلا بد أن يتحقق فيها أيضًا العمليات الأربع التي

تشملها أي إدارة، وأن يكون الحاكم أو الراعي هو المسؤول الأول عن ذلك هو وفريقه المساند، ولكن نؤكد هنا على ضرورة أن يكون كل ذلك وفق منهج الله وشريعته، والتزامًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعدم مخالفتهما في أي من هذه العمليات.

❋ ❋ ❋

١٠٧٧ – مفهوم ٩: الوسطية في الإدارة والسياسة:

ينبغي ألا يجرفنا الاهتمام بالإدارة والسياسة إلى جانب الغلو والإفراط في الشق النظري من ذلك، فيغرق القائمون على الأمر في التخطيط والتنظير حتى تمر الأيام والشهور، بل حتى السنون، وهم ما زالوا في تنظيرهم ودراستهم؛ يُقدِّمون رجلًا ويؤخرون أخرى، ويقعدهم ذلك عن العمل ويُفوِّت عليهم الفرص التي تواتيهم دون أن يستثمروها. وإن قُدِّرَ لأمثال هؤلاء أن ينتقلوا من جانب التخطيط والتنظير إلى حيز التنفيذ تراهم أيضًا يُغرقون في تنظيم العمل ووضع الترتيبات الدقيقة له التي قد تكون في كثير منها شكلية لا تؤدي إلا إلى عرقلة العمل وكبح العاملين عن استخدام عقولهم وطاقاتهم في العمل والتنفيذ.

كما ينبغي ألا يأخذنا التحذير السابق إلى التهوين من شأن الإدارة والتنظيم، واتهام أي عمل منظم مدروس بأنه عمل حزبي بدعي، مما يؤدي إلى إهمال التخطيط والدراسة والإقدام على العمل دون شيء من ذلك؛ فتقع الفوضى، ويحدث التخبط، ويترتب على ذلك ضياع الأوقات والأموال دون طائل، بل يؤدي إلى التقهقر ورجوع الأمة إلى التخلف، فلا بد إذًا من الوسطية في النظر إلى التخطيط والتنظيم، والحزم في التنفيذ والمتابعة والتقويم.

❋ ❋ ❋

١٠٧٨ – مفهوم ١٠: تقنين الشريعة الإسلامية:

تقنين الشريعة هو صياغة أحكام المعاملات في هيئة مواد قانونية مرقمة على غرار القوانين الوضعية. وقد بدأ ذلك في أواخر الخلافة العثمانية لما رأت السلطنة ضعف القضاة العلمي، وازدياد القضايا والحوادث المستجدة -غير المنصوص عليها في كتب الفقه- نتيجة اختلاط رعايا الدولة بالأعاجم من الدول المجاورة لدولة الخلافة، فكلَّفت لجنة من العلماء بوضع قانون مدني مستمد من الفقه الحنفي، تصاغ فيه الأحكام

في مواد مرقمة على نمط القوانين الأجنبية، ويرتب على الكتب والأبواب الفقهية، ونشرت ذلك العمل تباعًا في مجلة اسمها: «مجلة الأحكام العدلية». وكان بدء عمل اللجنة عام ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م، وآخر عدد صدر للمجلة كان عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م؛ أي إن العمل استغرق سبع سنين، وبلغ مجموع مواد المجلة ١٨٥١ مادة. ورغم سلامة المقصد وحسن النية في هذا العمل إلا أنه ينطوي على مفاسد وأضرار، وبعضها شديد لا يمكن إغفاله.

❋ ❋ ❋

١٠٧٩ ـ مفهوم ١١: مفاسد تقنين الشريعة:

من أهم مفاسد تقنين الشريعة:

أ ـ ازدياد ضعف القضاة والفقهاء، ومنع الاجتهاد في معرفة مراد الله ورسوله في المسائل بسبب الاعتماد الكامل على مواد القوانين والإلزام بها.

ب – فتح الباب لمن ليسوا بعلماء للدخول في مجال الحكم والقضاء اعتمادًا على تطبيق القانون المدون دون الحاجة –بزعمهم– لدراسة الشريعة؛ حتى رأينا القضاة المدنيين والعسكريين ممن لم يدرسوا الفقه الإسلامي وليست لهم أهلية الاجتهاد في الحكم.

ج – حمل الناس على قول واحد في المسألة –المدون في القانون– مع أنه قد يكون مرجوحًا عند المحققين من العلماء المجتهدين.

د – قد تكون بابًا لإدخال القوانين الوضعية محل الأحكام الشرعية.

❋ ❋ ❋

١٠٨٠ – مفهوم ١٢: البيعة:

البيعة عقد بين الرعية –أو من ينوب عنهم– والراعي الذي تُسْنِد إليه الرعية بموجب هذا العقد رياسته لهم وسياستهم لقضاء مصالحهم الدينية والدنيوية، ويلتزمون في مقابل ذلك بالسمع والطاعة له في المعروف دون المعصية؛ فهي –كأي عقد– لها ثلاثة أركان: متعاقدان ومعقود عليه، ففقد كامل المعقود عليه يهدم العقد وينقضه، وعليه فلا ولاية لمن يضيع الدين ويحاربه ويُنحِّي شرع الله عن الحكم.

ولا تجوز البيعة بغير الاختيار الذي يرجع إلى الأمة، وينوب عنهم فيه أهل الحل والعقد –وهم أصحاب الرأي والمشورة فيهم– فيختارون الراعي الذي تصح بيعته

شرعًا، ويكون من أهل التقوى والصلاح مع القدرة والشوكة.

ولا يجوز تولية الكافر أو الفاسق ابتداءً، ولكن إن وُلِّيَ من كان فاسقًا، أو طرأ عليه الفسق بعد توليته فولايته قائمة والصلاة خلفه صحيحة ما لم يأمر بنقض الدين وشرع الله. أما الكافر ومن طرأ عليه الكفر فلا تصح له ولاية ولا إمامة؛ قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

❋ ❋ ❋

١٠٨١ - مفهوم ١٣: الشورى:

الشورى هي أخذ الرأي من الغير، وهي سمة رئيسة من سمات أمة الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨]، ويندب إليها على كل المستويات القيادية؛ حيث يستشير القائد من هم دونه فيما يحتاج فيه إلى مشورتهم، وأعلاها وأهمها: الشورى بين الراعي والرعية؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

❋ ❋ ❋

١٠٨٢ - مفهوم ١٤: كيف تتم الشورى في الدولة؟

ليس للشكل الذي تتم به الشورى قالب محدد، بل هو متروك لكل بيئة وزمان وما يناسبهما من أشكال وتنظيمات؛ كمجالس الشورى، والهيئات الاستشارية المختلفة؛ شريطة ألا تكون الشورى بما يخالف شرع الله. فالشورى إذًا مبدأ راسخ في عقيدة المؤمنين؛ لا تنشئه أشكال تنظيمية، وإنما هذه الأشكال هي مجرد وسائل لتطبيق هذا المبدأ الجليل.

ولا بد أولًا من وجود المسلمين المؤمنين بعقيدتهم إيمانًا راسخًا، الملتزمين بأصول الشرع وأحكامه، ليتحقَّق بهم من خلال وسيلة الشورى المناسبة النظام الإسلامي المنشود.

❋ ❋ ❋

١٠٨٣ - مفهوم ١٥: الشورى لا تعني التردد والتسويف في اتخاذ القرار:

الشورى لا تعني التردد والتسويف في اتخاذ القرار، وإنما لا بد أن يتبعها عزمٌ وتوكلٌ على الله في تنفيذ نتيجتها؛ قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

١٠٨٤ - مفهوم ١٦: في الشورى تربية لكلٍّ من الراعي والرعية:

في الشورى بين الراعي والرعية تربية لكلٍّ منهما؛ فالراعي يوطن نفسه على مشاورة رعيته وعدم الاستبداد بالأمر، والرعية تُربَّى على المشاركة في القرار وتحمل التبعة والمسؤولية عن نتيجتها.

* * *

١٠٨٥ - مفهوم ١٧: تحايل المستبد على الشورى:

احتجاج الحاكم بالشورى ممن يعلم أنهم يوافقونه ليس بشورى؛ فالحاكم المستبد يُشاور إذا علم أنهم يوافقونه، ويستبد بقراره إذا غلب على ظنه عدم الموافقة عليه.

* * *

١٠٨٦ - مفهوم ١٨: بين السياسة والعبادة:

عبادة الله مسؤولية فردية لا تحتاج إلى إذن من حاكم أو نظام، أما تدخل الحاكم في عبادة الناس لربهم وشرط الحصول على إذن وترخيص منه قبلها فهي سياسة فرعونية كما قال فرعون للسحرة حين آمنوا برب موسى عليه السلام: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:٤٩].

* * *

ثانيًا: مفاهيم في حقوق الفرد والجماعة:

١٠٨٧ - مفهوم ١: العلاقة بين الفرد والجماعة:

عيش الإنسان ضمن مجموعة من الناس أمر مغروس في الفطر؛ فهو يعيش مع أسرته، ويتواصل هو وأسرته مع الأقارب والجيران والناس من حوله من أهل المنطقة والبلدة الواحدة، ثم هكذا تتواصل المجموعات بعضها مع بعض ويتسع التواصل ليشمل شعوب العالم ودوله كلها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

والإسلام يحكم العلاقة بين الفرد والجماعة في توازن وتكامل تامين؛ فينبه على الضمير الفردي والتبعة الفردية: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، كما يؤكد على مسؤولية كل من الفرد والجماعة تجاه بعضهم البعض؛ فكل

آداب الإسلام ونظمه وقواعده مصوغة على هذا الأساس: أن الإنسان فرد يعيش في جماعة، وهو والجماعة يتجهون إلى الله ويطبقون منهجه في الحياة.

* * *

١٠٨٨ - مفهوم ٢: الحقوق الفردية الأساسية:

كل فرد في المجتمع المسلم له حقوق أساسية كفلها له نظام الإسلام؛ فله: حق الحياة، وسائر الحقوق الضرورية من مأكل ومشرب، وملبس، ومسكن، فضلا عن حقه الأساس قبل ذلك كله في عبادة الله كما أمر سبحانه وأراد.

وعلى الجماعة المسلمة -والدولة النائبة عن الجماعة- أن تكفل للفرد حصوله على هذه الحقوق الأساسية؛ أولًا عن طريق إتاحة فرصة العمل له -ما دام قادرًا عليه- بل تعينه على ذلك ما استطاعت إليه سبيلًا ولا تقتصر على مجرد إتاحة الفرص. فإن عجز الفرد عن العمل جزئيًّا أو كُليًّا، وقتيًّا أو دائمًا، أو كان كسبه لا يكفيه ليعول نفسه وأسرته، فله الحق في استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه: **أولًا**: من النفقة التي تفرض له شرعًا على القادرين من أسرته وعصبته، **وثانيًا**: من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له في الزكاة.

ويُعبَّر عن كل ما سبق في لغة العصر بـ(الضمان الاجتماعي)، وهو واجب أساس على الدولة المسلمة، وهي مسؤولة عن إنشاء نظامه الأساس، وهيكلته، وصحة تطبيقه.

* * *

١٠٨٩ - مفهوم ٣: موارد الضمان الاجتماعي وثمرته:

تتنوع موارد الضمان الاجتماعي المذكور في المفهوم السابق ما بين: الزكاة المفروضة، وصدقة التطوع، والأوقاف الإسلامية. ولعل ذلك كله يشمله قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤، ٢٥]، وتأمل نص الله ﷻ في الآية على أنه (حق)؛ فلا مِنَّةٌ لأحد على المحرومين، وإنما هي حقوقهم من مال الله الذي جعل الأغنياء مستخلفين فيه كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

وتطبيق هذا الضمان الاجتماعي يشيع روح الألفة والتكافل بين أفراد المجتمع، ويقوي آصرة الترابط بينهم، ويمنع الغل والحقد والحسد من أحد على أحد. أمَّا ما يوجد من مؤسسات الضمان الاجتماعي في الدول المعاصرة فيشوبها كثير من المآخذ والمخالفات لما هو مفروض في الضمان والتكافل الإسلامي.

ثالثًا: مفاهيم حول مذاهب ومصطلحات سياسية معاصرة:

١٠٩٠ - مفهوم ١: الحرية:

الحرية ضد العبودية؛ وهي تفيد تحقيق الإرادة. والحق أنه لا توجد حرية مطلقة من كل قيد، وقد اشتهرت مقولة: «إن حرية المرء مقيدة بحرية الآخرين»؛ يعنون بذلك أن حريتك إذا كانت تنتهك حقوق الآخرين أو حريتهم فهي ممنوعة. والصواب أن يقال: «**إن حرية المرء مقيدة بحدود الشرع**»؛ فالشرع يكفل حقوق الآخرين، وهو كذلك يكفل حقوقك الشخصية ويحميها حتى من نفسك، وهو فوق ذلك كله وقبله يحقق العبودية لله ﷻ؛ فالحرية الحقيقية في تمام العبودية لله ﷻ، ومن كان عبدًا لله حقًّا فهو حر من كل ما سواه من بشر، أو شهوة، أو هوى؛ فلا يستعبده شيء من ذلك [وسبق ذلك في باب العبادة، مفهوم ٥٤١].

* * *

١٠٩١ - مفهوم ٢: الليبرالية:

الليبرالية مأخوذة من كلمة Liberty، وهي كلمة إنجليزية تعني الحرية؛ فالليبرالية (Libralism) تعني التحرر والانعتاق، ويُقصد بها: التحرر من أي قيد يقيد الإنسان في تفكيره، أو قوله، أو فعله، ومن ذلك قيود الشرع المطهر وحدود الله ﷻ، بل هذا هو سبب نشأة الفكر الليبرالي؛ حيث ظهر مضادًّا للدين لديهم الذي ناله التحريف وتوجَّه لسيطرة رجال الدين على الناس، فبدلًا من أن يبحث القوم عن الدين الحق جنحوا إلى التحرر من كل الأديان حتى الدين الحق، فوقعوا في عبوديات: الهوى، والشيطان، والشهوات.

ولا تزال الفلسفة الليبرالية تحارب الدين والاتجاه الأصولي بوجه عام حتى يومنا هذا، وعليها تقوم اليوم أحزاب كثرة في الغرب؛ كالحزب الديموقراطي في أمريكا، بينما يقوم الحزب الجمهوري على الأصولية في مفهومهم [ينظر تعريف الأصولية في المفهوم: ١١٤٢].

ولَمَّا كان لا بد للحرية من قيود تحدها حتى لا تضر الآخرين اضطر الليبراليون إلى وضع القوانين التي ينظمون بها -كما يزعمون- الحقوق بين البشر، فكانت المحصلة النهائية: التحرر الكامل من قيود الدين فقط، وحرية مقيدة بنظم أرضية لتنظيم العلاقة بين البشر بزعمهم. ولكن الليبرالية سمحت بالتدين فقط من باب الحرية الشخصية لا الإلزام، فسمحوا بالتدين الشخصي الذي لا يلزم الآخرين بشيء.

١٠٩٢ - مفهوم ٣: الليبراليون في بلاد المسلمين ومشروعهم:

الليبراليون في بلاد المسلمين أذناب لليبرالية الغربية، وليس لهم في واقع الأمر مشروع حضاري حقيقي للنهوض بدولهم، بل كل همهم محاربة مشاريع الإسلاميين؛ سئل د. فؤاد زكريا -وهو من أعلام الليبراليين والعلمانيين في مصر- عن مشروع الليبراليين فقال: «ليس لهم مشروع فكري، مشروعهم هدم مشروع الإسلاميين».، وهذا واقع مشاهد محسوس؛ إذ ليس لهم أدنى اهتمام حتى بالقضايا الوطنية والمصيرية للمسلمين والعرب؛ كقضية فلسطين، واستغلال الغرب لثروات بلاد المسلمين...إلخ.

* * *

١٠٩٣ - مفهوم ٤: تحرير المرأة:

من القضايا التي يكثر الليبراليون الحديث عنها قضية «تحرير المرأة» -كما يزعمون- ويقصدون بذلك في الحقيقة أن تتفلت المرأة من كل فضيلة وعفة وحياء بدعوى (الحرية) لتصبح في واقع الأمر مستعبدة لشهوات شياطين الإنس، وبيوت الأزياء، وصيحات الموضة، وتُغرَى بالمال الرخيص لتكون سلعة دعائية للمنتجات كافة. ومن الشواهد على ذلك: أن «ميدان التحرير» بالقاهرة إنما سُمِّيَ بذلك لتسيير مظاهرة نسائية فيه في عهد الملكية المصرية زعمت في بدايتها أنها ثورة على الاحتلال الإنجليزي، ثم نزع النساء فجأة النقاب عن وجوههن في حركة مسرحية معلنين تحررهن منه، ولا ندري ما علاقة الاحتلال الإنجليزي بالنقاب؟! هل فرضه عليهم الإنجليز؟! أم أن وراء الأكمة ما وراءها!

* * *

١٠٩٤ - مفهوم ٥: الغرب وحرية الفكر والرأي:

حرية الفكر والرأي الحقيقية توجد في منهج الإسلام الصحيح؛ ومما يدل على ذلك: حث القرآن على التدبر والتفكر في غير ما آية من آياته، وكون التفسير بالمأثور -أي بالسنة وأقوال الصحابة- قليل ومحدود، مما يفتح المجال للاجتهاد في التفسير وفق ضوابط هذا العلم وشروط المفسر المجتهد.

أما حرية الفكر التي يزعمها الليبراليون والغرب عمومًا فإنهم يخلطون فيها بين حرية الفكر وحرية الكفر، ويطالبون بحرية الافتراء باسم حرية الصحافة، أما إذا

كانت الحرية تخالف توجهاته فهي حينئذ ممنوعة ومحاربة؛ فالحرية عندهم هي حرية أن تقول ما نريد لك أن تقوله؛ فحين انتقد روجيه جارودي مبالغة اليهود في أعداد الذين قتلوا في المحرقة «الهولوكوست» قاضوه وحكموا عليه بالسجن بتهمة معاداة السامية، ولم يقبل الغرب تسريب صاحب موقع «ويكيليكس» وثائق سرية، وظلوا يلاحقونه سبع سنوات وهو لاجئ في سفارة الإكوادور بلندن، حتى قبض عليه أخيرًا بذريعة تهم أخرى تتعلق بالتحرش أو اغتصاب قديم. فإذا ما قال الغرب: حرية الفكر عندنا في حدود القانون، قلنا نحن: حرية الفكر عندنا في حدود الشرع.

❁ ❁ ❁

١٠٩٥ – مفهوم ٦: المعتزلة وحرية الفكر والرأي:

يزعم كثير من المعاصرين أن فرقة المعتزلة -التي ظهرت ضمن أوائل الفرق في الإسلام- هم دعاة الحرية الفكرية في الإسلام، وأنهم أصحاب المدرسة العقلية المستنيرة! والحق أن الأمر على العكس من ذلك؛ فهم أكثر الفرق منعًا لحرية الرأي والفكر، وحين تكون لهم السلطة يُرغمون الناس على معتقدهم وقولهم؛ فقد فعلوا ذلك في قولهم بخلق القرآن، وامتحنوا الناس على ذلك، ومن لم يجبهم إلى رأيهم ويوافقهم عليه فصلوه من عمله أو عذبوه إن كان من العلماء البارزين؛ كما فعلوا بالإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- وغيره من علماء أهل السنة الذين ثبتوا على الحق في هذه المحنة وبينوا للناس ضلالهم.

❁ ❁ ❁

١٠٩٦ – مفهوم ٧: الديموقراطية:

الديموقراطية كلمة لاتينية الأصل Democracy، وهي مكونة من مقطعين: ديمو Demo وتعني: الشعب، وقراطية cracy وتعني: الحكم. فالديموقراطية إذًا معناها: حكم الشعب لنفسه؛ حيث تكون السلطة العليا له، ويمارسها من خلال الانتخاب لرئيسه ولنوابه في مجلس الحكم (البرلمان)، ويُنصَّب فيهما من يحصل على العدد الأكبر من أصوات الشعب؛ لذلك يقال عنها أيضًا: حكم الأكثرية. كما يكون للشعب أيضًا في النظام الديموقراطي الحق في الاستفتاء على بعض القضايا الكبرى مثل دستور البلاد.

وقد نشأت الديموقراطية في مقابلة الثيوقراطية التي تعني حكم الكهنة أو الحكم

الديني، الذي يقصد به تسلط رجال الدين على الحكم واستبدادهم به بدعوى الحق الإلهي باعتبارهم مفوضون من الإله. كما تصف الديموقراطية نفسها بأنها ضد نظام الحكم الديكتاتوري الذي يعني حكم الفرد أو الاستبداد بالحكم من جهة معينة.

ورغم أن الديموقراطية تبدو في ظاهرها أمرًا حسنًا؛ لمنعها الاستبداد والتسلط، إلا أنها تنطوي على شركيات ومساوئ عديدة -كما سيتضح في مفهوم مستقل- وقد انتقدها كثير من الساسة والمفكرين الغربيين أنفسهم، وتأثر بها كثيرون في الشرق، واشتهرت كلمة ونستون تشرشل البريطاني عنها: «ليست الديموقراطية هي أفضل نظام وضعه البشر، ولكنها أقل الأنظمة سوءًا».

* * *

١٠٩٧ - مفهوم ٨: ترويج الغرب للديموقراطية في ديار الإسلام:

استطاع الغرب أن يروج للديموقراطية في بلاد المسلمين بدعوى: التحرر، ومقاومة الطغيان، وحقوق الإنسان؛ فخلف ستار من كل هذه الدعاوى انتشرت الديموقراطية في بلاد المسلمين، وقلدوا الغرب في جعل السيادة للشعب كما هو مبدأ الديموقراطية الذي يُعدُّ كفرًا بواحًا، بدلًا من جعل السيادة للشرع كما هو الأمر والحال في الإسلام.

* * *

١٠٩٨ - مفهوم ٩: الفرق بين الديموقراطية والليبرالية:

بين الليبرالية والديموقراطية فرق قد لا يعرفه كل أحد؛ فالديموقراطية تقوم على رأي الأكثرية، بينما تقوم الفلسفة الليبرالية على الحرية الفردية ولو خالفت الأكثرية.

* * *

١٠٩٩ - مفهوم ١٠: العقد الاجتماعي:

هو نظرية «روسو» التي يقصد بها: اتفاق أعضاء المجتمع على أن تسوسهم حكومة ما، أو يربطهم رابط معين. وقد حوَّره «روسو» عن البيعة في الإسلام.

* * *

١١٠٠ - مفهوم ١١: الجمهورية:

هي الدولة التي يحكمها الجمهور كما يدَّعون، ويقابلها: **(الملكية)**، وهي الدولة التي يحكمها فرد من أسرة معينة هي الأسرة الحاكمة أو المالكة للدولة والتي تتوارث الحكم بين أفرادها.

والجمهورية تكون في النظم الديموقراطية، بينما تكون الملكية غالبًا في النظم الديكتاتورية، ولكن لدى الغرب بعض الدول الملكية ذات نظام ديموقراطي؛ حيث يكون المَلِك مجرد رمزٍ للحكم وله سلطات محدودة، أما السلطة الفعلية فتكون لرئيس الوزراء وحكومته التابعين للحزب الفائز بالانتخابات البرلمانية وفق النظام الديموقراطي، ومن أمثلة الدول الملكية الديموقراطية: إنجلترا وبلجيكا، وكل ذلك مصادم لنظام الحكم في الإسلام.

❋ ❋ ❋

١١٠١ - مفهوم ١٢: نظرية السيادة:

نظرية السيادة هي التأصيل الفلسفي النظري لمبدأ حكم الشعب لنفسه، بينما الديموقراطية هي الممارسة السياسية العملية له.

وقد نشأت فكرة السيادة في فرنسا نهاية العصور الوسطى حين واجه بها البابوات والإمبراطور ملوك الولايات زاعمين أن السيادة لهم باعتبار أنها حق وتفويض إلهي، فرد الملوك عليهم بالسلاح نفسه جاعلين السيادة للسلطة الزمنية، أي التي تحكم في زمن معين، وهم الملوك. ومن ثَمَّ تلقَّف القانونيون الفرنسيون هذا المفهوم ونزعوه عن الكل، وصاغوا منه نظرية السيادة.

❋ ❋ ❋

١١٠٢ - مفهوم ١٣: فلسفة نظرية السيادة:

عرف القانونيون السيادة في بداية الأمر على أنها خاصية من خصائص السلطة مفادها عدم وجود سلطة أخرى أعلى من السلطة القائمة أو مساوية لها. فكان مفهوم السيادة بهذا المعنى سلبيًّا؛ أي أنه لا يجعل للسيادة مضامين وأوصافًا محددة، وإنما يقوم على سلب هذه الصفة عن أي شيء آخر غير السلطة الحاكمة.

ثم لم يلبث القانونيون بعد ذلك أن جعلوا السيادة هي ذاتها السلطة العليا الآمرة

للدولة وليست خاصية من خصائص السلطة فحسب. فوضعوا لها مضامين وأوصافًا محددة، ونسبوها للأمة أو الشعب -على خلاف تفصيلي في ذلك- فانتزعوا بذلك السيادة من الملك أو الحاكم، وجعلوه مجرد موظف منفذ لإرادة الأمة أو الشعب.

* * *

١١٠٣ - مفهوم ١٤: مضامين السيادة وصفاتها وفق هذه النظرية:

المضمون الأول لهذه السيادة، والذي يعد جامعًا لكل خصائصها ومضامينها هو: أنها إرادة عليا لها خصائص لا توجد في غيرها من الإرادات، وهي التي تحدد نفسها بنفسها، ولا تلتزم بإرادة غيرها، ولا تلتزم بتصرف معين إلا إذا أرادت هي ذلك.

وينبثق عن هذا المضمون الرئيس الأوصاف الآتية:

١ - أنها مطلقة؛ أي غير مقيدة بشيء ولا قانون، بل القانون هو التعبير عن إرادتها.

٢ - السمو: فلا شيء -بزعمهم- يعلو عليها أو يساويها.

٣ - الوحدانية والتفرد: فلا يوجد إلا سيادة واحدة للإقليم الواحد؛ هي سيادة شعبه.

٤ - الأصالة: فهي -بزعمهم- أولية لم تتفرع عن شيء يسبقها أو يعلو عليها.

٥ - عدم القابلية للتملك: فلو اغتصبها من ليس أهلا لها في عرفهم، وفرض على الناس سلطانه مدة من الزمن، لا يمنحه ذلك شرعية مهما طال أمد الاغتصاب؛ فغصب السيادة يظل غصبًا لا يثبت بالحيازة ولا يبرره التقادم.

وبناء على هذه الأوصاف والمضامين عرّفوا السيادة بأنها: «السلطة العليا المطلقة التي تفرَّدتْ بالحق في إنشاء الخطاب الملزم المتعلق بالحكم على الأشياء والأفعال». وذلك لا يكون إلا للشرع الحنيف، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. والإيمان بهذه الأوصاف لسيادة الأمة أو الشعب شرك بالله تعالى في الربوبية ومخالفة صريحة لقول الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠]، وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

* * *

١١٠٤ - مفهوم ١٥: مساوئ الديموقراطية:

بما أن الديموقراطية هي الممارسة السياسية لمضمون نظرية السيادة فشرها الأساس إذًا هو أنها تُكرِّس للشرك بالله في الحكم الذي بيَّنا أنه من لوازم القول بنظرية السيادة والإيمان بها؛ حيث يفر الديموقراطيون من عبادة الحكام والباباوات إلى عبادة الشعوب والبرلمانات، ومن طغيان يمارس باسم الحق الإلهي للكنيسة والحكام إلى طغيان آخر يمارس باسم الحق الإلهي للشعوب والبرلمانات، وأصبحنا نسمع عبارات مثل: «سيادة القانون» بدلًا من «سيادة الشرع»، و«لا جريمة ولا عقوبة إلا بقانون» بدلًا من «الحرام ما حرَّمه الشرع، والحلال ما أحله الشرع»، وكفى بذلك المنكر الأكبر لكفر الديموقراطية.

وإضافة إلى هذا المنكر الرئيس في النظام الديموقراطي عدَّدَ المفكرون الديموقراطيون أنفسهم عيوبًا أخرى للديموقراطية؛ منها:

١ - أنها ليست حكم الأكثرية على وجه الحقيقة؛ لأن أكثر الشعوب تعزف عن الانتخابات ولا تشارك فيها كما تدل على ذلك نسب التصويت في الانتخابات.

٢ - أن أصحاب رؤوس الأموال هم المتحكمون الحقيقيون في النظام الديموقراطي؛ لأنهم يسيطرون على الإعلام الذي يحتاج إلى أموالهم، والإعلام هو الذي يصنع الرأي العام ولو بالأخبار والتحليلات والدعايات الزائفة الكاذبة، وبذلك لا يكون الرأي والحكم للأكثرية حقيقة بل لأصحاب الأموال ولأجل تحقيق مصالحهم وتقوية نفوذهم السياسي.

٣ - النظام الديموقراطي يقوم على الأحزاب السياسية، وهي أحزاب مختلفة في الفكر والمنهج اختلافًا يؤدي إلى التشاحن والصراع فيما بينها بدلًا من التعاون والتضافر لتحقيق مصالح البلاد والعباد.

٤ - مبدأ المساواة في الأصوات الانتخابية والاستفتاءات لا يفرق بين صوت صاحب الخبرة والرأي السديد والمؤهل العلمي وصوت العامي محدود الفكر والرأي؛ مما يحرم الأمة من الإفادة الفاعلة من رأي هؤلاء الخبراء المؤهلين للتأثير في الأحداث، بينما يحقق نظام الشورى في الإسلام أعلى إفادة من خبرات هؤلاء الذين يُسَمَّون فيه: أهل الحل والعقد.

٥ – أثبتت الدراسات أن متوسط عمر حكومات النظم الديموقراطية خلال نصف قرن لم يتجاوز ثمانية أشهر، وتلك فترة وجيزة لا تمكن أي حكومة من تنفيذ خططها وبرامجها الإصلاحية والتنموية.

* * *

رابعًا: مفاهيم حول العلمانية:

١١٠٥ – مفهوم ١: المكيافيلية:

سميت كذلك نسبة إلى مكيافيلي مؤلف كتاب «الأمير» عام ١٥١٣م. وهي تُعدُّ البذرة الأولى الممهدة للعلمانية؛ حيث تبنى مكيافيلي في كتابه المذكور الدعوة صراحة إلى استبعاد الدين عن جانب الحكم والسياسة، وحدَّد ثلاثة أسس متلازمة مستمدة من تصور لا ديني بحت، وهي:

١ – أن الإنسان شرير بطبعه، ورغبته في الخير مصطنعة لتحقيق منفعته فحسب، ولذا فلا حرج في نظره من هذه الطبيعة المتأصلة، ولا لوم من الانسياق وراءها.

٢ – الفصل التام بين السياسة، والدين والأخلاق، وتأكيد عدم وجود أي رابط بينهما. وهو لم ينكر الدين والأخلاق في ذاتهما، ولكنه جعل الحكم في حِلٍّ من التمسك بضوابطهما؛ فالدين والأخلاق عنده مقصوران على أفراد الشعب.

٣ – أن الغاية تُبرِّر الوسيلة؛ وهذه هي القاعدة العملية عنده البديلة عن الدين والأخلاق، وبها عُرِّفتْ المكيافيلية واشتهرت، والحقيقة أنها مجرد أحد أسسها الثلاثة وليست كل المكيافيلية. [ذكر مكيافيلي هذه الأسس الثلاثة في كتابه (الأمير)].

* * *

١١٠٦ – مفهوم ٢: المكيافيلية مصدر إلهام جُلِّ القيادات الفاشية والشيوعية والرأسمالية:

– فقد اختار «موسوليني» كتاب «الأمير» موضوعًا لأطروحته للدكتوراه.

– وكان «هتلر» يضع الكتاب على مقربة من سريره ويقرأ منه كل ليلة قبل نومه.

– وتتلمذ عليه أيضًا «لينين» و«ستالين». [ينظر مقدمة كتاب (الأمير)، ص ١٨، ١٩].

– وتتجلى روح المكيافيلية بوضوح في قول «إنجلز»: «إن الأخلاق التي نؤمن بها هي كل عمل يؤدي إلى انتصار مبادئنا؛ مهما كان هذا العمل منافيًا للأخلاق المعمول بها».

- وقال لينين: «يجب على المناضل الشيوعي الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل؛ فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية».
- ويقرر «مايلز كوبلاند» صاحب كتاب «لعبة الأمم» أن المكيافيلية هي منهج السياسة الرأسمالية الأمريكية.

* * *

١١٠٧ - مفهوم ٣: المقصود بالعلمانية:

هي ترجمة خاطئة لكلمة Secularism الإنجليزية أو Secularite الفرنسية؛ وهي تعني -كما عرَّفتها دائرة المعارف البريطانية- حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها.

ويحدِّد معجم (أكسفورد) لكلمة Secular مفهومين:

١ - دنيوي، أو مادي؛ ليس دينيًّا ولا روحيًّا؛ مثل: التربية اللا دينية، ...، السلطة اللا دينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

٢ - أنه الرأي الذي يقول: لا ينبغي أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية.

فيتضح من تعريف دائرة المعارف البريطانية ومعجم أكسفورد أن Secularism تعني اللا دينية، أو الدنيوية؛ أي: ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد؛ فهي حركة ومفهوم يهدف إلى فصل الدين عن واقع الحياة كلها، لا عن السياسة فحسب.

وقد بدأ ظهور ذلك في آواخر العصور الوسطى مقاومة للرغبة الشديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر اللذين كانا سائدين في هذه العصور، فظهرت اللادينية منادية بالتعلق بالنزعة الإنسانية والإنجازات البشرية في الحياة الدنيا، ومحاربة للدين ومضادة له، وظلت تتطور حتى وصلت إلى الدعوة الصريحة إلى فصل الدين عن واقع الحياة كلها.

أما العلم في الإنجليزية فهو: Science، والنسبة إليه: علمي Scientific، والمذهب العلمي: Scientism. فلعل ترجمة كلمة Secularism وما تعنيه من مضمون إلى كلمة: «العلمانية» بدلًا من «اللادينية» كان عن قصد حتى لا يصطدم المذهب اصطدامًا مباشرًا بإيمان المسلمين في الشرق العربي ومفهومهم عن الآخرة، وحتى يتمكن المذهب من ترويج

مضامينه بلطف وهدوء على حين غفلة من المسلمين وإدراكهم. ولا شك أن هذا المفهوم غير موجود في الإسلام بحال، بل هو ردة وانسلاخ عن الدين، فلا علمانية في الإسلام، بل مثل هذا المفهوم يندرج تحت مسمًّى: الجاهلية. وقد ذكر القرآن للجاهلية أربعة أركان، فهي نفسها أركان للعلمانية: **ظن الجاهلية، وحكم الجاهلية، وتبرج الجاهلية، وحمية الجاهلية،** وورد في السنة ركن خامس هو: **ربا الجاهلية**. وأركان الجاهلية هذه تطبق اليوم في بلدان المسلمين بخبث ودهاء؛ فتجهيل الناس بربهم هو **ظن الجاهلية**، وتنحية شرع الله ورفض حكمه هو **حكم الجاهلية**، وتغريب المرأة وتبرجها هو **تبرج الجاهلية**، وعقد الولاء والبراء على وطن أو قوم أو راية غير راية التوحيد هو **حمية الجاهلية**، وعبادة المال والرأسمالية القائمة على الربا والميسر هو **ربا الجاهلية**.

* * *

١١٠٨ - مفهوم ٤: الكمالية:

هي العلمانية التركية كما دعا إليها مصطفى كمال الملقب بـ«أتاتورك»؛ حيث شنَّ حربًا شعواء على الإسلام وشعائره فمنع الأذان بالعربية، ومنع ارتداء الحجاب في العمل والأماكن العامة، إلى غير ذلك من محاربة لكل ما له علاقة بالإسلام ومظاهره.

* * *

١١٠٩ - مفهوم ٥: بين الدين والسياسة والفساد:

نشأ فصل الدين عن السياسة في الغرب لأن دينهم فاسد وسيفسد السياسة، ونشأ هذا الفصل في الشرق لأن السياسي فاسد والدين يمنع فساده.

* * *

١١١٠ - مفهوم ٦: العلمانية والعبادة:

لا تلقي العلمانية بالًا للدين والعبادة إذا كانت علاقة خاصة بين العبد وربه ولم تخرج عن المسجد إلى واقع الحياة، أما إذا حاول أحد إرساء قواعد الدين في الحكم والسياسة فتواجهه العلمانية وتحاربه بشدة؛ وهذا يفسر تركيز حربها على الإسلام دون غيره من الديانات؛ فحال العلمانيين هو كحال أهل مدين مع نبيهم شعيب عليه السلام حين نهاهم عن التطفيف في الكيل والميزان فقالوا له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن

نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود:٨٧]، وهو نفسه حال كفار قريش مع الرسول ﷺ؛ فلم يكونوا يتعرضون له أولًا حين تعبَّد الله وحده في غار حراء، فلما دعا إلى الالتزام بدين الله، إقامة نظام المجتمع على أساسه، ونبذ الكفر حاربوه أشد المحاربة.

* * *

١١١١ – مفهوم ٧: العلمانية مكابرة للحقيقة:

العقل يدل على أن الصانع أعلم بما صنع، فمن يقول بعزل دين الله عن السياسة إما أنه لا يؤمن بأن الله هو خالق الكون ومدبره وهو أعلم بما خلق، أو أنه صاحب هوى يكابر الحق.

* * *

١١١٢ – مفهوم ٨: العلمانية حكم بغير ما أنزل الله:

بما أن العلمانية هي قيام الحياة على غير الدين فهي تعني بداهة الحكم بغير ما أنزل الله، وعليه فهي نظام جاهلي لا مكان له في دائرة الإسلام؛ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، وهو نظام كفر صريح بنص القرآن: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

* * *

١١١٣ – مفهوم ٩: الرد على من لا يقول بكفر العلمانية:

أكثر الآيات الواردة في تكفير من لم يحكم بما أنزل الله ونفي الإيمان عنه جاءت في الكلام عن الذين يدَّعون الإيمان من أهل الكتاب أو المنافقين المتظاهرين بالإسلام، وما ذلك –والله أعلم– إلا لأن من لم يدَّعِ الإيمان بشيء من كتب الله هو كافر بالضرورة ولا شبهة في كفره، بخلاف من يزعم الإيمان ومع ذلك يحكم بغير ما أنزل الله، فيحتاج أمره إلى تأكيد أنه من الكافرين ولا يغني عنه ادعاؤه الإيمان شيئًا؛ فقول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] نزل في اليهود، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ

أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] نزلا في المنافقين.

فهؤلاء المنافقون كانوا يصلون ويصومون ويزعمون الإيمان، ويلتزمون كثيرًا من شعائر الإسلام الظاهرة، ولم يمنع ذلك من وصمهم بالكفر وعدم الإيمان بسبب تركهم الحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه، فلا يحتجن أحد على عدم كفر العلمانية بأنها لا تنكر وجود الله، ولا تمنع إقامة شعائر التعبد، وتحترم في الظاهر المؤسسات الدينية ورجال الدين؛ فالدين كلٌّ لا يتجزأ؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[البقرة:٢٠٨]، و﴿السِّلْمِ﴾ هو الإسلام كما قال المفسرون. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١].

* * *

١١١٤ – مفهوم ١٠: الدستور:

الدستور هو القانون الأساسي أو النظام الأساسي لأي بلد، وإليه ترجع القوانين جميعها، ولذا يقال عنه: «أبو القوانين». وقد يُعدَّل أو يلغى في النظم الديموقراطية فيحتاج إلى استفتاء، وقد يعلقه الحاكم في الأنظمة الوضعية إذا حكم بموجب ما يسمونه: «قانون الطوارئ».

ودستور المسلمين هو الكتاب والسنة؛ فهما المهيمنان على الحكم في النظام الإسلامي، وإليهما يرجع أي قانون فرعي. وإذا ما وضع المسلمون في أي بلد لهم دستورًا مُرقمًا على هيئة مواد رئيسة فينبغي أن تكون مادته الأولى الأساسية، والتي لا يمكن إلغاؤها ولا تعديلها، ولا يُستفتى عليها هي: **أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع الذي يبطل أي تشريع يخالفه**، وأن تكون هذه المادة مفعلة على أرض الواقع ولا تقال ذرًّا للرماد في العيون، وبصيغ ماكرة ملتوية؛ كما يحذف بعضهم (ال) التعريف منها ليجعلها مصدرًا ضمن مصادر متعددة، وليست المصدر الوحيد. وبهذا الضابط المذكور يكون أي دستور لأي بلد إسلامي فرعًا عن الكتاب والسنة ومحكومًا بهما، ولا يمكنه مخالفتها.

* * *

١١١٥ - مفهوم ١١: القانون المدني:

هو مجموعة القواعد الجزائية أو الجنائية التي تحكم أي بلد بناء على الدستور، وإليه يتحاكم الوضعيون المتحاكمون إلى الطاغوت تاركين الشريعة الإسلامية وراء ظهورهم. وأول من بدأ التشريع المكتوب في العصر الحديث هو «نابليون» عام ١٨٠٤م، وعنه أخذ الشرقيون ذلك.

والفقه الإسلامي -خاصة في قسم المعاملات- هو مرجع قضاة المسلمين في الأحكام الجزائية أو الجنائية عوضًا عن هذا القانون المدني المزعوم.

❋ ❋ ❋

١١١٦- مفهوم ١٢: المجتمع المدني:

مصطلح غامض ومتعدِّد المعاني يُوظِّفه مطلقوه في عدة أغراض؛ فهو يجمع أي شيء بكل شيء، وقد نشأ عبر تطور طويل، ويحمل في طيَّاته فروقًا وتناقضات هي سبب غموضه.

وفي هذا المصطلح تختفي مفاهيم: الفرد المؤمن وغير المؤمن، والرجل والمرأة، والقبلي والبدوي، ...إلخ، ويستبدل بها جميعًا مفهوم الفرد المواطن؛ فمن أهم مقومات المجتمع المدني: مبدأ الحرية الفردية والمواطنة التي تقضي على أي انتماء آخر من: دين، أو عرق، ...إلخ، وتؤسس لفصل الدين عن الدولة.

وقد يطلق مصطلح: «منظمات المجتمع المدني» اليوم على المنظمات غير الربحية التي تهدف إلى خدمة المجتمع الذي تنشأ فيه، فلا بأس بذلك حينئذ شريطة ألا تقوم أي منظمة من تلك المنظمات على مفاهيم مخالفة الإسلام، وألا تكون مرتبطة بجهات خارجية -غالبًا ما تكون مخابراتية- تُسخِّرها في حقيقة الأمر لتحقيق مصالحها، وهذا هو واقع كثير من هذه المنظمات كما تكشفه الأحداث بعد فترة من الزمن تتحقق فيها أغراض هذه الجهات المشبوهة، أو تكشفها الجهات الأمنية للبلد التي تعمل فيها.

❋ ❋ ❋

خامسًا: مفاهيم حول مذاهب ومصطلحات سياسية أخرى:

١١١٧- مفهوم ١: الاشتراكية:

مذهب سياسي يقوم على نظرية اقتصادية نشأت في القرن الثامن عشر الميلادي مضادة للرأسمالية التي كانت تعني سيطرة أصحاب رؤوس الأموال على أدوات ووسائل الإنتاج وتحكُّمهم في الطبقة العاملة.

فنادت الاشتراكية بملكية الشعب لموارد الإنتاج الرئيسة ووسائلها -كالأراضي والمصانع والشركات الكبرى- وأن تدير الدولة هذه الموارد نيابة عن الشعب ولمصلحته.

* * *

١١١٨ - مفهوم ٢: الشيوعية:

مذهب لاحق للاشتراكية يشترك معها في فكرة ملكية الشعب لموارد الإنتاج وهو مضاد للرأسمالية كذلك، ولكنه أكثر تطرفًا وأشد غلوًّا من الاشتراكية كما سنبين لاحقًا في مفهوم عن الفروق بينهما.

وأبرز منظري الشيوعية هو (كارل ماركس) [١٨١٨م-١٨٨٣م]، وجاء من بعده (لينين) ثم (ستالين)، وكل واحد منهما جاء بتطرف في التطبيق أشد من سابقه. ولئن كان (ماركس) هو أبرز المنظرين للشيوعية فإن (لينين) و(ستالين) هما أبرز المطبقين لها. وتسعى الشيوعية إلى السيطرة على المجتمع وموارده ومقدراته لصالح جميع أفراده بالتساوي بينهم دون تمييز لأحد على أحد كما تزعم.

* * *

١١١٩ - مفهوم ٣: حقيقة الخلاف بين الرأسمالية وكلٍّ من الاشتراكية والشيوعية:

يكمن الخلاف بين الاتجاهين في نظرة كل منهما إلى الفرد وحقوق تملكه في المجتمع؛ فبينما تُمجِّد الرأسمالية الفرد على حساب الجماعة، وتمنحه الحرية المطلقة في التملك إلى أقصى حد، وبكافة السبل والوسائل مهما كان فيها من استغلال للآخرين أو سيطرة وتحكم، وفي المقابل نجد الاشتراكية تَحُدُّ من حق الفرد في التملك والشيوعية تُلغيه كُلِّيًّا، وتمنح ذلك الحق للجماعة باعتبارها وحدة واحدة؛ فالرأسمالية تمجد الفرد على

حساب الجماعة، والاشتراكية والشيوعية تمجدان الجماعة على حساب الفرد.

أما الإسلام فينظر نظرة متوازنة إلى كل من الفرد والجماعة وحقوقهما؛ ليس في التملك فحسب بل في الحياة كلها كما بيَّنَّا في مفاهيم سابقة عن حقوق كل من الفرد والجماعة؛ فهو ينظر إلى الفرد على أساس أنه يعيش في جماعة، وهو والجماعة يتجهون معًا إلى الله ويطبقون منهجه في الحياة؛ ذلك المنهج الذي يراعي فطرة الإنسان وغريزته في حب التملك وتنمية ممتلكاته، ولكنه في الوقت ذاته يحدد له مسؤولياته وواجباته تجاه جماعته التي يعيش فيها، ويراعي حقها عليه.

❊ ❊ ❊

١١٢٠ - مفهوم ٤: أهم الفروق بين الاشتراكية والشيوعية:

١ - تهدف الاشتراكية إلى إعادة توزيع الثروة لتقليل الفروق بين الأغنياء والفقراء بزعمها، بينما تسعى الشيوعية إلى إلغاء هذه الفروق تمامًا؛ فتنزع الثروة كلية من الأفراد وتُلغي الملكية الفردية لتحقق بذلك إزالة الطبقات من المجتمع وتجعله طبقة واحدة متساوية.

٢ - تنادي الاشتراكية بزيادة دور الدولة في التخطيط وإدارة الموارد من خلال ما تسميه «الجهاز المركزي للتخطيط والمحاسبة»، ولكنها تسمح أيضًا بدور محدود للأفراد في التخطيط والتنمية، بينما تمنع الشيوعية ذلك وتجعل الدولة فقط هي التي تخطط وتدير.

٣ - الاشتراكية مجرد مذهب سياسي اقتصادي لا يخرج عن هذا الإطار، بينما للشيوعية بُعدٌ عقدي ونظرة فلسفية للوجود والتاريخ ترتكز أساسًا على الإلحاد والاقتصاد كما سنبين في مفهوم مستقل.

❊ ❊ ❊

١١٢١ - مفهوم ٥: البعد العقدي للشيوعية:

ليست الشيوعية مجرد نظام اجتماعي يسعى لتحقيق الرفاه في المجتمع بزعمها، بل هي في حقيقة أمرها مذهب له تصور اعتقادي يرتكز على أساس مادية الكون منذ نشأته، ويرفض وجود الإله الخالق المدبر لهذا الكون؛ فهو مذهب إلحادي كافر بالإله الرب المعبود.

وقد اقتبس هذا المذهب من نظرية داروين في الخلق فكرة التطور والنشوء والارتقاء،

والبقاء للأصلح، وطبقها في مجال الاقتصاد والمادة -فيما يُعرف بالتفسير الاقتصادي للتاريخ- فافترض وجود المتناقضات في مادية الكون، وتصارع هذه المتناقضات بعضها مع بعض -فيما يُعرف بنظرية المادية الجدلية- حتى ينتهي الصراع إلى إرساء المجتمع الشيوعي الذي تغيب فيه الملكيات الخاصة والطبقات بين الناس. والله سبحانه يقرر في كتابه حتمية وجود هذه الطبقات والفوارق بين الناس فيقول سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

وقد وصل بهم الأمر إلى القول بتلاشي الدولة ونظامها آخر المطاف، وعيش الناس في نظام اجتماعي كله تعاون وإخاء؛ يبذل فيه كل إنسان أقصى ما في وسعه لصالح الجماعة، ولا يأخذ إلا قدر ما يكفيه؛ هكذا دون رقابة ولا حكومة ولا عقيدة سماوية تحكم تصرفات المرء وتضبطه في إطار من الترغيب والترهيب الدنيوي والأخروي على حدٍّ سواء.

والمذهب الشيوعي بهذا التصور هو أشبه ما يكون بفكرة «المدينة الفاضلة» الخيالية التي افترضها أفلاطون من قبلهم. ويشهد واقع النظم الشيوعية بعمق الفجوة بين التصور النظري الخيالي والواقع المشاهد المحسوس، وتضاده مع الفطرة والعقل والدين.

* * *

١١٢٢ - مفهوم ٦: أربعة أهداف تفصيلية للمذهب الاشتراكي الشيوعي لتحقيق نظريته:

يرتكز كل من المذهب الاشتراكي والمذهب الشيوعي على أربعة أهداف رئيسة ليحقق من خلالها على أرض الواقع نظريته، وهي:

١ - التخطيط المركزي: سواء كان جزئيًّا كما في الاشتراكية، أو كليًّا كما في الشيوعية.

٢ - مراعاة حقوق العمال (طبقة البروليتاريا) -بزعمهم- مثل: تحديد ساعات العمل، وتحديد الحد الأدنى للأجور.

٣ - إعادة توزيع الثروة: سعيًا للوصول إلى تقليل الفروق بين الأغنياء والفقراء أو إلغائها.

٤ - تحقيق دولة الرفاه من خلال بعض الالتزامات من الدولة لأفراد المجتمع؛ مثل: التأمين الصحي المجاني، مجانية التعليم، دعم المحتاجين ماديًّا بعمل بطاقات للتموين مثلًا وإنشاء مراكز بيع للسلع المخفضة. والناظر في المجتمعات الاشتراكية يجد أن هذا كله تنظير لا رصيد له في واقع الحياة، وإنما هو الظلم، والفقر، والشقاق.

١١٢٣ - مفهوم ٧: السلبيات الناجمة عن تطبيق الأهداف السابقة:

تصطدم محاولة تطبيق الأهداف السابقة بسلبيات عدة، منها:

١ - يستلزم التخطيط المركزي لإدارة الموارد تأسيس مشاريع ضخمة لتغطية حاجات المجتمع، وكلفة ذلك تكون مرتفعة جدًا وتستنزف موارد البلاد، كما أن مردودها بطيء لا يظهر أثره إلا بعد وقت طويل لا تقوى الشعوب على انتظاره.

٢ - تجبر السلبية السابقة النظام الاشتراكي الشيوعي على ثلاثة أمور كلها سيئة العواقب:

أ - اللجوء إلى تأميم الشركات والمصانع والمزارع القائمة من قبل النظام، والتي يمتلكها أفراد بذلوا الغالي والنفيس من أجل إنشائها، وذلك ظلم لا يقره الشرع.

ب - فرض ضرائب على المبيعات، ورسوم على المعاملات لمحاولة تغطية عجز موازنة الدولة.

ج - الاستدانة من الخارج لتغطية كلفة المشاريع المراد تحقيقها ولتغطية عجز الموازنة أيضًا حين لا تحقق الضرائب ذلك، وهذه الاستدانة تكون ربوية تمحق البركة، وغالبًا ما تعجز الدولة عن سدادها.

فكل ذلك يمنع تحقيق الرفاه المزعوم، ويوقع الناس بدلًا من ذلك في مزيد من الفقر والظلم والضنك؛ كما هو واقع المجتمعات الشيوعية.

٣ - الإدارة المركزية الحكومية تتسم بعدة سلبيات؛ منها:

- بطء اتخاذ القرارات اللازمة لأي عمل؛ مما يضيع فرص الاستثمار والنجاح.
- الكسل والتراخي في العمل؛ لعلم الموظف أنه سيتقاضى راتبه آخر الشهر؛ سواء أدَّى عمله بنجاح أو قصَّر في ذلك؛ لعدم وجود حوافز مرضية تتناسب مع جودة العمل والإنتاج.
- تقديم المسؤولين عن العمل لمن يثقون في ولائهم على حساب أصحاب الكفاءات.

كل ذلك ينتج عنه فشل مؤسسات القطاع العام الذي تمتلكه الدولة، فتضطر إلى بيع هذه المؤسسات آخر المطاف إلى القطاع الخاص، مما يعني اعترافًا بفشل هذا النظام وإعادة الملكية الخاصة مرة أخرى بعد تفويت فرص الاستثمار المجزي طوال فترة العمل بهذا النظام.

وغني عن الذكر بيان أن كل هذه العيوب والسلبيات هي من منظور المصالح

والمكاسب الدنيوية، فضلًا عما في هذه الأمور من مخالفات شرعية ومصادمة صريحة للنظام والنهج الذي يرتضيه الله لعباده لتحقيق مصالحهم الدينية والدنيوية على حدٍّ سواء في توازن تام واتساق.

* * *

١١٢٤ - مفهوم ٨: ديكتاتورية الشيوعية:

تزعم الشيوعية أنها جاءت لتخلص الشعوب من تسلط الرأسماليين والإقطاعيين، ولذا فهي تؤمن بمبدأ سيادة الطبقة العاملة (طبقة البروليتاريا) لإنهاء سيطرة الرأسماليين (الطبقة البرجوازية)، ولكن بالنظر إلى الواقع نجد أن الأحزاب الشيوعية التي تعد نفسها حامية حمى الطبقة العاملة هي في الحقيقة المتحكمة في كل شيء في الدولة بما تمنحه لنفسها من صلاحيات وسلطات كاملة شاملة لوضع السياسات الداخلية والخارجية، ولذا فهي تمنع قيام أي معارضة في وجهها، والعالم كله يعرف الآن أن الدول الشيوعية هي أكثر الدول ديكتاتورية وأبشعها، وأبعدها عن الحريات العامة وما يسمى بحقوق الإنسان.

* * *

١١٢٥ - مفهوم ٩: الرأسمالية:

على العكس من الشيوعية تُعظِّم الرأسمالية حق الفرد في التملك، ولو على حساب الجماعة. وهي لا تنكر وجود الإله الخالق ولكنها لا تتقيد بقيود الشرع على طرق الكسب والتملك، ولذا فهي تبيح الربا والميسر بكل أشكالهما، ومن عبارات الرأسمالية المشهورة: «اكسب كيف شئت، وأنفق كيف شئت».

* * *

١١٢٦ - مفهوم ١٠: نشأة الرأسمالية:

كان المذهب الاقتصادي قبيل الرأسمالية يُعرف بالمذهب الطبيعي؛ حيث ينسب القيمة الاقتصادية الكبرى للأرض وما تنتجه من ثروات طبيعية نباتية وحيوانية لازمة للبشرية، فنادى «آدم سميث» -المؤسس الأول للرأسمالية- بنزع هذه القيمة من الأرض وإعطائها للعمل، وكان من دوافع ذلك أواخر القرن الثامن عشر الميلادي:

الثورة الصناعية الكبرى التي تسببت في الانتقال من العصر الزراعي إلى العصر الصناعي، وصاحب ذلك رغبة أصحاب المصانع والأعمال في فرض نفوذهم المالي على المجتمع والاستئثار بالعمال الذين كانت غالبيتهم تعمل في الزراعة.

* * *

١١٢٧ - مفهوم ١١: مؤسسو الرأسمالية وأفكارهم:

كانت نشأة المذهب الرأسمالي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر على يد ثلاثة مفكرين متعاقبين هم: «آدم سميث»، و«مالتس»، و«دافيد ريكاردو» اليهودي:

- فأما «آدم سميث» فهو المؤسس الأول؛ وذلك من خلال نظريته التي أودعها في كتابه المثير للجدل «ثروة الأمم» حيث قرر فيها أن العامل في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية لا غير، ولذا فهي غير ممقوتة لديه ولو كانت على حساب الآخرين، كما أنه هو الذي نادى بأن تكون القيمة الاقتصادية الكبرى للعمل بدلًا من الأرض.
- وأما «مالتس» فهو بمثابة المحامي المدافع عن الرأسمالية؛ فعلى الرغم من أنه كان في الأصل قِسِّيسًا إلا أنه حرَّم الإحسان وتقديم الإعانات للأسر التي تعجز عن تدبير وسائل عيشها؛ وما ذاك إلا لأنه يرى أن أزمة الإنسانية هي في ازدياد عدد السكان الذي يحدث وفق متوالية هندسية، بينما تسير زيادة الموارد الغذائية وفق متوالية عددية، وعليه فمن لا يستطيع تدبير عيشه فهو لا يستحق في نظره الحياة، وهو يتماشى في ذلك مع فكرة «البقاء للأصلح» التي رسَّختها نظرية داروين.
- وأما «دافيد ريكاردو» اليهودي فهو مبتكر فكرة التفرقة بين (الريع) و(الربح)؛ حيث قال: إن (الريع) هو المكسب الذي يحصل عليه مالك الأرض، أما (الربح) فهو مكسب الصناعي الرأسمالي، وهو يعتمد في ذلك على نظرية «آدم سميث» في إعطاء القيمة للعمل، ثم ألقى باللائمة على (الريع) وجعله هو السبب الرئيس في تهديد الصناعة وفي الطبقية والتفاوت الاجتماعي؛ حيث يتقاضى ملاك الأراضي -في نظره- أثمانًا باهظة لمنتجاتهم اللازمة للعيش، فيتسبب ذلك في نقص أرباح رجال الأعمال لاضطرارهم لرفع أجور العمال لتغطية حاجاتهم المعيشية، مما يهدد نهوض الصناعة

الآخذة في الصعود في تلك الفترة، وقد أقنع بذلك الحكومات بفرض ضرائب على ملاك الأراضي أو تأميم كثير من أراضيهم ليسهم بذلك في محاربة الإقطاع.

* * *

١١٢٨ - مفهوم ١٢: جريمة الرأسمالية:

أجرمت الرأسمالية حين نزعت القيمة الاقتصادية من الأرض وحصرتها في العمل، ولا ينكر أحد قيمة العمل؛ فالأرض لا تخرج إنتاجها النباتي والحيواني إلا من خلال العمل، ولكن إعطاء القيمة للعمل لا يعني بحال نزعها من الأرض وإنتاجها، ولا يفعل ذلك إلا صاحب النظرة الأحادية الذي لا يستوعب الجمع بين الأمور؛ فالصواب أن تعطى القيمة الاقتصادية لكلٍّ منهما وألا ينساق المرء إلى الصراع المفتعل بينهما.

ومكمن الخطورة في هذه النظرة الخاطئة هي أن العمل لا تنحصر ثمرته في منتجات مادية فحسب -سواء كانت زراعية أو صناعية- بل تشمل أمورًا أخرى مثل: الإنتاج الفكري، والترفيه، وكل ما يندرج تحت باب الخدمات -سواء كان ذلك كله مباحًا أو محرمًا- فحصر القيمة الاقتصادية في العمل فيه تمجيد للخدمات والترفيه على حساب الإنتاج المادي، وفتح لباب الحرام من: الربا، والميسر، والفواحش بدعوى أنها أعمال وخدمات؛ وفضلًا عن أن هذا يغضب الله سبحانه ويمحق البركة، فهو أيضًا يُرسِّخ في الناس التكاسل والخمول، والسعي خلف المكسب السهل السريع، وينشر بينهم الحقد والخصومة، ويبيح استغلال الآخرين والسيطرة على مقدراتهم، وهذا جزاء من يُعْرِض عن شريعة الرحمن ويضع لنفسه قانونًا يحمل أوصاف واضعه من الجهل والهوى والظلم.

* * *

١١٢٩ - مفهوم ١٣: علاقة الرأسمالية باليهود والربا:

حين بدأ العهد الصناعي كان المال محصورًا في يد طائفتين: الإقطاعيين، والمرابين اليهود. ولما كانت الصناعة تحتاج إلى المال لتنهض وتقوم قائمتها، لم يكن لروادها بد من الاستقراض من الطائفتين أو إحداهما؛ فأما الإقطاعيون فقد أحجموا عن إقراضهم لاستشعارهم أن الصناعة خطر على مركزهم المالي والاجتماعي، وأما اليهود فقد رحبوا بتمويل الصناعة ووجدوا في ذلك فرصة لتحقيق ثروة هائلة من خلال الإقراض بالربا

لتأكدهم من نمو الصناعة وازدهارها خلال فترة وجيزة، وتصدرها للنفوذ الاجتماعي والمالي؛ فيحققون وقتها إضافة إلى المكسب المالي التحكم في الطبقة الجديدة الناشئة في المجتمع والسيطرة عليها من خلال الربا وما يستتبعه من رهون ثقيلة تضمن لهم هذا الربح الفاحش والسيطرة الكاملة، كما أنهم وجدوا في ذلك أيضًا فرصة لتحطيم الإقطاعيين الذين كانوا من قبل يحتقرونهم ويذلونهم.

ويزيد من سيطرة اليهود على الصناعة أن بعض أصحاب المصانع كانوا يهودًا مثل «ريكاردو» ثالث أقطاب الرأسمالية الذي كان نصيرًا أساسيًّا لسيطرة الصناعة على المجتمعات بدلًا من الإقطاع.

لهذا كله نشأت الرأسمالية وهي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا باليهود والربا الذي يُعدُّ عمادها ولب نظامها.

* * *

١١٣٠ - مفهوم ١٤: الرأسمالية مثال للتطرف الأوروبي:

تُعدُّ الرأسمالية برؤيتها المتطرفة مثالًا لميل الفكر الأوروبي دائمًا إلى اعتناق الأفكار الشاذة والنظريات المتطرفة اللاأخلاقية على الرغم من وفرة الأفكار والنظريات الأقرب إلى الاعتدال والموضوعية. ويعود هذا التطرف أساسًا إلى المرض المتأصل في نفوسهم التي تتكبر على الحق وتتيه في مفاوز الضلال والغواية.

ولا شك أن النظام الاقتصادي الإسلامي هو الذي يقوم على التوسط والتوازن في كل شيء؛ فهو يوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، كما يوازن بين قيمة الأرض وقيمة العمل، ويفتح المجال الرحب لكل مكسب حلال، ويمنع كل ما يؤدي إلى التسلط والاحتكار واستغلال الناس في جشع وظلم مدمرين للبشرية ولو على مدى طويل غير ملحوظ في بدايته.

* * *

١١٣١ – مفهوم ١٥: البرجماتية:

المذهب البرجماتي هو المذهب النفعي الأمريكي الذي دعا إليه وأسسه ثلاثة فلاسفة متعاقبون هم: «تشارلز بيرس» و«وليم جيمس» و«جون ديوي»، وكانت بدايته عام ١٨٧٠م، وهو مذهب يقيس الأمور كلها بمنافعها العاجلة؛ فلا حقيقة ثابتة لدى البراجماتيين، بل هي عندهم ما يحقق فائدة، ولا يُقرُّ إلا بالتجربة العملية.

وقد اختلف البراجماتيون أنفسهم في نظرتهم للدين -وإن كانت تجمعهم نظرة إلحادية في حقيقتها- فبعضهم يرفضه تمامًا؛ لأن الله عنده لا يخضع للتجربة العملية ولا يشاهد ولا يحس، وهو لا يؤمن إلا بالمشاهد المحسوس. والبعض الآخر لا يرى مانعًا من الدين؛ لكن على أساس أنه اعتقاد ينشئه الإنسان دون برهان عليه -بزعمهم- ليريح نفسه به، ولا بأس عندهم بذلك ما دام يُحقِّق نفعًا للنفس ويريحها، فهذا هو المسوِّغ العملي للدين في نظرهم، وهو عندهم متعدد حسب ما يعتقده كل شخص وليس حقيقة واحدة ثابتة تكمن في وحدانية الله تعالى منشئ الكون ومدبره، وهادي البشر إلى سواء السبيل، ويدل عليه الوحي والعقل والفطرة، ولا بد فيه من إسلام الوجه لله تعالى لنيل رضاه سبحانه والفوز في الدنيا والآخرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

* * *

١١٣٢ – مفهوم ١٦: الأصولية:

هي أساسًا حركة غربية نصرانية تريد العودة إلى الأصل، وهو الأناجيل والرسائل، دون أقوال الأحبار والرهبان، وهذا هو سبب تسميتها.

أما إطلاقها على المسلمين فلا يصح، وإنما هو تضليل تولَّى كبره الإعلام العربي العلماني لينفر المسلمين من ثوابت الدين ويفتح المجال واسعًا إلى تحريفه باسم الاجتهاد المتحرر من كل قيد. ويصف الإعلام كل متمسك بدينه وثوابته بالأصولي ليرهب الناس وينفرهم منه ويرميه بالجمود والتخلف والتطرف والإرهاب.

* * *

١١٣٣ – مفهوم ١٧ : الرجعية:

مصطلح أطلقه الشيوعيون والبعثيون القوميون –ومن بعدهم العلمانيون– على المتمسكين بالشريعة الإسلامية؛ يقصدون به رميهم بالرجوع إلى الوراء بمئات السنين حيث نزل القرآن وعاش الرسول ﷺ وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فمن كان على نهج النبي ﷺ وأصحابه الكرام فهو الرجعي عندهم؛ يلمزونه بذلك ملمحين أنه يريد الرجوع بالناس إلى العصور السابقة ويرفض التقدم والحياة الحديثة.

فأما السير على نهج النبي ﷺ وأصحابه الكرام فأكرم بها من صفة؛ فذلك شرف عظيم لكل متصف بذلك، وأما تهمة رفض التقدم والحياة الحديثة فتلك فرية يرمي بها هؤلاء الأفَّاكون كل متمسك بدينه ليلبسوا على الناس وينفرونهم من كل من يدعوهم إلى التقيد بحدود الشرع، ويحاولون إقناع الناس أن التقدم يخالف هذه الرجعية المزعومة ويَلزَمُه التحرر من القيود الشرعية –التي يسمونها قديمة ورجعية– والانطلاق للعيش في العصر الحديث من غير احتراز من أي موبقات أو مخالفات لشرع الله، وإذا رأينا حال من يطلق هذا المصطلح على المتمسكين بالدين وجدناه هو الواقع في الرجعية بوجهها المظلم؛ حيث رجع إلى الجاهلية والكفر الذي جاءت الرسل لمحوه ودعوة الناس لتوحيد رب العالمين.

* * *

١١٣٤ – مفهوم ١٨ : التطرف:

التطرف مأخوذ من الذهاب إلى طرف الأمر والبعد عن وسطه. وكل من دعا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وجاهد في سبيله هو عند الغرب والعلمانيين متطرف، والصحيح أن ذلك إنما يعرف بالكتاب والسنة، والكلمة الشرعية التي ذكرها القرآن والسنة عن البعد عن الوسطية هي: «الغلو» الذي هو مجاوزة الحد. والفِرَقُ الغالية هي ما جعلها أهل السنة من الغلاة بسبب بعدها عن اتباع منهج النبي ﷺ وأصحابه، وليس للهوى دخل في وصف الناس بالغلو والتطرف، بل العبرة بالاتباع لا الابتداع، فالمتبع هو صاحب الحق والوسطية، والمبتدع هو المتطرف الغالي.

* * *

١١٣٥ - مفهوم ١٩: الإرهاب:

كثر في العصر الحديث تداول لفظ «الإرهاب Terrorism»، و«مكافحة الإرهاب Anti-terrorism» في الأوساط السياسية ولكن دون إجماع دولي على تعريف الإرهاب؛ مما يجعل المصطلح قابلًا لأن يُطوَّع لخدمة أغراض سياسية متنوعة للعديد من الدول والهيئات، ولكن هناك بعض التعريفات، أوالأوصاف التي قد تكون مشتركة بين بعض الساسة في تعريف الإرهاب مثل:

- استخدام العنف أو التهديد لخدمة أهداف سياسية، أو دينية، أو فكرية، أو اجتماعية.
- وأنها أفعال ترتكب من قبل أفراد أو جماعات؛ سواء عملت ذلك لأغراضها الخاصة، أو خدمة لبعض الحكومات.
- وأنها أفعال تتعدَّى الضحايا المستهدفين مباشرة إلى آخرين في المجتمع.

كما أنهم استبعدوا بعض الأعمال من إدراجها تحت مسمى الإرهاب مثل: مقاومة المحتل، الأعمال المسموح بها وقت الحرب [ينظر تعريف الإرهاب في موسوعة ويكيبديا].

❋ ❋ ❋

١١٣٦ - مفهوم ٢٠: الرهبة والإرهاب في ميزان الإسلام:

بينما عجزت الدول والهيئات العالمية عن الاتفاق على تعريف محدَّد لمصطلح الإرهاب وسبل مكافحته نجد أن للرهبة والإرهاب معان محدَّدة في الإسلام؛ فمادة (رهب) في اللغة ترجع إلى الخوف والفزع والإزعاج، أو المخافة مع التحرز والاضطراب [ينظر مادة (رهب) في «لسان العرب» و«المفردات» للأصفهاني].

وقد وردت مادة (رهب) في القرآن في ثلاثة استعمالات رئيسة هي:

١- الرهبة من الله كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]، وهذا هو غالب استعمال القرآن الكريم لهذه المادة، وقد ورد في اثني عشر موضعًا، كما يندرج تحت هذا المعنى أيضًا كلمتا: (الرهبان)، و(الرهبانية)عند النصارى؛ وهي تعني استعمال الرهبة في عبادة الله تعالى، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]، و(الرهبان) من رجال الدين عند النصارى؛ قال

تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

٢- الرهبة بمعنى الخوف الطبعي الجبلي مما يخاف منه عامة البشر؛ كما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص:٣٢] فأمره سبحانه أن يضم يده إلى صدره ليذهب عنه ما ناله من الخوف عندما رأى العصا تتحول حية.

٣- الرهبة والاسترهاب من شخص لآخر أو من فئة لأخرى؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف:١١٦]، وكما في رهبة المنافقين من المؤمنين: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الحشر:١٣].

والإرهاب بهذا المعنى الأخير منه ما هو محمود في ميزان الشرع وما هو مذموم؛ فالمحمود كما في قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال:٦٠]؛ فإعداد القوة بكافة أشكالها -والقوة العسكرية خاصة- واجب على المسلمين وفق طاقتهم ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ لأجل إخافة أعداء الله ومنعهم من كل ما يضر دعوة الإسلام وأهله؛ فهذه القوة وهذا الإرهاب يؤديان إلى:

أ – منع الكافرين من الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة.

ب – تأمين الذين يريدون الدخول في الإسلام من أن يعتدي عليهم الكافرون أو المنافقون.

ج – أن يبلغ الرعب والإرهاب بالأعداء ألا يقفوا أمام المد الإسلامي وهوينطلق لتعبيد الناس لرب العالمين وتحريرهم من ربقة الطغاة الظالمين.

د – أن تكسر هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية وتحكم الناس بشرائعها الوضعية ولا تعترف بإفراد الله تعالى بالألوهية والحاكمية؛ وبذلك تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله كما أراد سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ قال البقاعي فيه: «يحمل على المنافقين»؛ أي أن المنافقين حين يرون قوة الإسلام وأهله وبطشه بأعداء الله يستترون ويكفُّون عن الطعن في الإسلام والمسلمين.

أما الإرهاب الذي يذمه الإسلام فهو الإرهاب والأذى الموجه للمسلمين بغيًا عليهم

في دينهم أو دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، وكذلك الإرهاب الذي يؤذي الذميين أو المعاهدين أو غير المحاربين من الكفار كالأطفال والنساء؛ فإرهاب هؤلاء جميعًا وتخويفهم هو أذى يحرمه الإسلام، وهو ضرب من ضروب الظلم والعدوان اللذين يرتب الإسلام عليهما العقوبة في الدنيا والآخرة.

هذا، وقد عرَّف بعض المجامع الفقهية الإرهاب المذموم بقوله: «الإرهاب هو العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيًا على الإنسان (دينه، دمه، ماله، عقله، عرضه)، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق وما يتصل بصور الحرابة وإخافة السبيل وقطع الطريق...».

وأدلة منع هذا الإرهاب المذموم كثيرة ومعروفة، ومنها:

- قوله ﷺ: **(إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا)** [رواه مسلم (٢٦١٣)].
- وورد في حق غير المقاتلين من الكفار خاصة قوله ﷺ: **(قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا)** [رواه مسلم (١٧٣١)]، وقول أبي بكر رضي الله عنه: «ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ...ولا تقتلن امرأة ولا صبيًا ولا كبيرًا هرمًا» [رواه البيهقي في السنن الصغير (٣/ ٣٨٧)].

وبهذه النظرة من الإسلام للإرهاب -الممدوح منه والمذموم- يتبين أن المسلمين يلتزمون بالطهر وحفظ الحقوق حال الجهاد، وأنهم أبعد ما يكونون عن الإرهاب المذموم الذي يرتكس فيه طغاة الأرض من كفار ومنافقين.

* * *

١١٣٧ - مفهوم ٢١: الموازين الجاهلية للإرهاب:

لأهل الباطل المعاصرين موقفان متناقضان من الإرهاب:

الأول: ممارستهم له بأبشع صورة، وعلى أعلى المستويات، مع تبرير أفعالهم بأنها دفاع عن النفس، أو نصرة للمظلوم، أو لنشر السلام والحرية -بزعمهم- ومن أمثلة ذلك: ما يقوم به اليهود والأمريكان في بلاد المسلمين؛ كما في فلسطين، وأفغانستان، والعراق، مع ادعاء الأمريكان أنهم جاؤوا لنشر الحرية والديموقراطية وإبعاد شبح التطرف والدكتاتورية عن هذه البلاد. وبهذه المزاعم قُتِلَ مئات الآلاف، بل الملايين، من

المسلمين معصومي الدم.

ومن أمثلته أيضًا: إيذاء الطغاة في بلاد المسلمين وغيرها للدعاة والمصلحين الصادقين، وتعذيبهم والزج بهم في السجون والمعتقلات، والحكم بإعدام بعضهم؛ وكل ذلك بحجة مكافحة الإرهاب بينما هو في حقيقته عين الإرهاب والإجرام.

الموقف الثاني: ذم المتمسكين بأصول الإسلام وشعائره، ورميهم بالإرهاب، ووصف الجهاد في سبيل الله -سواء كان للدفع أو الطلب- بأنه إرهاب يجب محاربته والقضاء على أهله. والغرض من ذلك واضح مفضوح؛ فهم يريدون منع المسلمين من حقهم في محاربة الأعداء لاستنقاذ إخوانهم المستضعفين ورد حقوقهم المغتصبة، ومنعهم كذلك من العمل على نشر الدعوة الإسلامية وحمايتها وتعبيد الناس لرب العالمين.

* * *

١١٣٨ - مفهوم ٢٢: كثرة صور الإرهاب لدى الغرب وأعداء الإسلام:

- **الغرب** المظلم هو منبت الإرهاب ومنبعه، وهو أكبر داعم للتطرف والإرهاب؛ ففيه نشأت منظمات إرهابية مثل: الألوية الحمراء، والكوكس كلان، وحليقو الرؤوس، والقبعات السود، والنازيون الجدد، وعصابات المافيا، واليمين المتطرف. وجميعها منظمات شديدة التطرف، والعديد منها يمثل ميليشيات مسلحة، ثم بعد ذلك كله ينسبون الدعوة السلفية زورًا إلى الإرهاب، ويسمونها: «وهابية»، و«أصولية»، و«راديكالية»...إلخ؛ مع أنهم أكثر الناس التزامًا بتعاليم دينهم الذي يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الإرهاب المذموم والعدوان.
- **وإسرائيل** هي أكبر إرهابي في المنطقة، وتمارس العدوان المنظم على مستوى الدولة والأفراد؛ فتقوم بنفسها باضطهاد أهل فلسطين الأصليين وتهدم منازلهم وتهجرهم قسرًا من أراضيهم ومزارعهم، كما تسمح لعصابات المستوطنين الإرهابيين بقتل المسلمين.
- **والإرهاب الرافضي** المعادي للمسلمين السنة هو من أشد صور الإرهاب وأبشعه؛ سواء على مستوى الدول مثل دولة إيران الرافضية، ودولة النصيريين في سوريا، أو على مستوى الجماعات المتطرفة مثل الحزب الرافضي في لبنان المتسمى زورًا «حزب

الله»، والحزب الرافضي في العراق المسمى زورًا أيضًا: «حزب الدعوة الإسلامية»، و«فيلق بدر». وقد أصبحت مخططات الروافض وأعمالهم الإرهابية واضحة جلية للعيان، مثلما فعلوا من قبل في الحج من تفجيرات ونشر غازات سامة، وما يقومون به من قتل وإرهاب للمجاهدين وعامة المسلمين السنة في سوريا والعراق.

- **وإرهاب أعداء المسلمين في الشرق**: مثل إرهاب الروس للمسلمين في الشيشان، وداغستان، والقرم، وتتارستان، وإرهاب الصين للمسلمين الإيغور، وإرهاب البوذيين للروهينجا المسلمين في ميانمار، وإرهاب المسلمين في الهند وكشمير؛ حيث يضطهدهم كل من السيخ والهندوس، ومع ذلك يُزعم أن الهند هي أعظم مثال على الديموقراطية في العالم مع تعدد الديانات والأعراق فيها، وهي دعاية باطلة.

❋ ❋ ❋

١١٣٩ - مفهوم ٢٣: بعض جماعات الإرهاب في العالم الإسلامي وأثرها السلبي:

لا ننكر بحال وجود بعض جماعات الإرهاب في العالم الإسلامي على مر التاريخ والعصور إلى عصرنا الحالي، ولكنها كانت دائمًا جماعات خارجة عن منهج أهل السنة والجماعة، ولا تنتسب إليه ولو شكلاً وادِّعاءً؛ فقد ظهر من قبل: الخوارج، والروافض الباطنيون كطائفة الحشاشين من الإسماعيلية، والقرامطة. وكل هؤلاء وأمثالهم كان علماء أهل السنة يحذرون منهم ويبينون خطلهم وضلالهم.

❋ ❋ ❋

١١٤٠ - مفهوم ٢٤: الدكتاتورية:

هي الاستبداد وحكم الفرد الواحد بتسلطه وفرض رأيه على الجميع، ولو بالقوة، ومنعه للشورى بمفهومها الشرعي، أو للديموقراطية المعاصرة التي سبق الحديث عنها.

❋ ❋ ❋

١١٤١ - مفهوم ٢٥: النازية:

حركة قومية ألمانية نشأت عقب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) وأزمة الكساد الاقتصادي فيها، وتأسس لهذه الحركة حزب سياسي عام ١٩١٩م اسمه: «حزب العمل الألماني»، واتهم الحزبُ الديموقراطيين الاشتراكيين بالسبب في هزيمة الألمان في الحرب، وسعى إلى تشكيل الفكر القومي الاشتراكي الألماني.

وانضم «أدولف هتلر» إلى الحزب في عام تأسيسه نفسه، وأقنع زعيم الحزب عام ١٩٢٠م بتغيير اسمه إلى: «حزب العمل القومي الاشتراكي الألماني»، ثم سرعان ما تولى «هتلر» قيادة الحزب عام ١٩٢١م لمهاراته التنظيمية والخطابية، واستطاع توسيع قاعدة الحزب الجماهيرية عام ١٩٢٤م حتى سيطر على البرلمان الألماني عام ١٩٢٩م.

وكان هتلر يحلم بإقامة ألمانيا عظمى على أساس سيادة العرق الآري وتفوقه، وأكمل سيطرته التامة على البلاد عام ١٩٣٣م وأنشأ ما عُرِف بدولة الزعيم أو المملكة الثالثة، ثم لم يلبث أن أوقع البلاد في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ -١٩٤٥م) حيث انتهت بهزيمة الألمان أيضًا، وانتحر هتلر، وانتحر من بعده قادة الحزب كلهم، وأُعلن في ألمانيا والنمسا تجريم النازية والمعاقبة القانونية على نشر أفكارها.

❋ ❋ ❋

١١٤٢ - مفهوم ٢٦: أهم أفكار النازيين:

يُصنف النازيون على أنهم حزب يميني متطرف ذو صبغة قومية وطابع اشتراكي، وهو معاد لكلٍ من الشيوعية، والديموقراطية، والسامية، والشوفينية، وأهم ما يؤمنون به وكانوا يسعون لتحقيقه:

١ - العنصرية وتفوق العرق الآري على سائر الأعراق البشرية.

٢ - علو أجناس بشرية على أجناس أخرى، وضرورة إبادة الأعراق الدنيا في نهاية المطاف والحفاظ على طهر الأعراق العليا بزعمهم. وأدنى الأعراق البشرية في نظر النازيين هم اليهود، ثم الغجر.

٣ - يرى النازيون أيضًا أن المعاقين عبء على المجتمع ولا جدوى منهم؛ لذا ينبغي -في نظرهم- التخلص منهم أيضًا في نهاية المطاف.

٤ - عمل النازيون على الإفادة من المعاقين والأجناس الدنيا قبل إبادتهم؛ وذلك بإجراء التجارب الطبية عليهم؛ فهم في نظرهم بديل أنفع للبشرية عن «فئران التجارب». كما اضطهد النازيون هؤلاء المعاقين والأجناس الدنيا وعذَّبوهم وهجَّروهم قسريًّا لمصلحة العرق الآري، وأخيرًا أبادوهم أو أبادوا معظمهم في ألمانيا إبادة جماعية فيما يُعرف بـ«الهولوكوست»؛ أي: المحرقة، وقد أُهلك فيها كثير من اليهود.

* * *

١١٤٣ - مفهوم ٢٧: استغلال اليهود لمحرقة «الهولوكوست»:

بعد هزيمة الألمان في الحرب العالمية الثانية ضخَّم اليهود جريمة «الهولوكوست» في حقهم فقط حتى أضحى الناس يظنون أنها لم تتم إلا عليهم فقط. وقد بالغ اليهود جدًّا في ذكر أعداد من أُحرِق منهم فيها حتى أوصلوهم إلى ستة ملايين نسمة؛ وذلك ليستدِرُّوا عطف الناس عليهم ويبتزوا الألمان بهذه الجريمة لتحقيق مصالحهم في العالم، واستصدروا قانونًا بتجريم معاداة «السامية»، ويقصدون بمعاداة السامية معاداتهم فقط، مع أن العرق السامي يشمل كل من ينتسب إلى «سام» ابن نبي الله نوح عليه السلام ومنهم العرب.

* * *

١١٤٤ - مفهوم ٢٨: النازيون الجدد:

تجدَّد في العصر الحالي ظهور جماعات من الألمان ينادون بالتعصب للعرق الآري وضرورة سيطرته على العالم، وهي جماعات محظورة في أوروبا، وتعرف باسم: «النازيون الجدد».

* * *

١١٤٥ - مفهوم ٢٩: الفاشية:

كلمة «فاشية» هي في الأصل لاتينية معناها: العصبة والاتحاد، ولكن الحركة الفاشية هي حركة قومية إيطالية عنصرية ظهرت -مثل النازية في ألمانيا- عقب الحرب العالمية الأولى وما سببته من كساد اقتصادي عجزت الحكومات المتعاقبة عن معالجته، وزالت هيبة الدولة فاستغل «موسوليني» ذلك وأسس الحزب الفاشي الذي وصل إلى الحكم عام ١٩٢٢م، وقد بنى «موسوليني» الحزب ورؤيته على أساس أن القوة هي وسيلة الحكم وليست إرادة الشعوب كما يزعم النظام الديموقراطي. وهذه القوة التي تملكها الطبقة الممتازة في المجتمع

-وفق رؤية موسوليني- هي التي تتحمل مسؤولية إدارة البلاد من خلال سلطة تنفيذية يمثلها رئيس الوزراء، ولهذه السلطة أفضلية وصلاحية فوق كل السلطات الأخرى؛ ولذا لا تؤمن الفاشية بتعدد الأحزاب والنظام الديموقراطي الذي سبق بيانه.

* * *

١١٤٦ - مفهوم ٣٠: مبادئ الفاشية وخصائصها:

الفاشية نظام عنصري تعسفي يتفشى فيه كل أنواع القمع، وأهم مبادئه وخصائصه:

١ - القومية الإيطالية أعلى من أي قومية أخرى؛ ولذا يجوز لها -بزعمهم- اضطهاد القوميات الأخرى، واحتلالها، واستغلال ثرواتها لمصلحة القومية الإيطالية.

٢ - تبجيل الدولة وهيبتها من خلال قائد قوي يدين له الشعب بالولاء والمحبة الشديدة.

٣ - الحكومة فوق الجميع، ويحق لها أن تتدخل في حياة الفرد الخاصة وتلغي حريته أو تقيدها؛ مثل حرية الاجتماع، وحرية وسائل الإعلام؛ ولذا فهي تسيطر على وسائل الإعلام وتستخدمها في التأثير على الرأي العام.

٤ - وظيفة الفرد هي خدمة المجتمع.

٥ - يزعم الحزب الفاشي أنه يسعى لإيجاد نوع من التعاون بين طبقات المجتمع يؤدي إلى السلام الاجتماعي؛ لذا فهو لا يستهدف الرأسمالية للقضاء عليها، وإنما يُكَوِّن نقابات تجمع بين العمال وأرباب العمل.

٦ - لا تتدخل الدولة في الاقتصاد إلا عند عدم كفاية المشروعات الفردية للنهوض باقتصاد الدولة، ويأخذ التدخل حينها شكل الرقابة، أو تحسين النوعية، أو الإدارة المباشرة للمشاريع فقط عند عجز الأفراد عن إدارتها.

والساسة يطلقون الفاشية على أي نظام في أي دولة يحمل أفكار ومبادئ الفاشية الإيطالية التي تعد النموذج الذي تقاس به الفاشيات الأخرى.

* * *

١١٤٧ - مفهوم ٣١: المحافظون الجدد:

هم النصارى الأمريكان المتعصبون، وخلافًا لكثير من عوام الأمريكان يرون ضرورة مقاتلة المسلمين، وأن الإرهاب إنما هو من أعمال المسلمين، ويطلقونه على مقاومة المسلمين للاحتلال، ويسمون حربهم للمسلمين بالحرب الصليبية، ومنهم الرئيس الأمريكي السابق «جورج بوش» الابن الذي كان مدمن خمر ثم دخل في دينهم هو وكثير من وزرائه وأتباعه.

وهم نصارى ولكنهم صهاينة يدعمون الصهيونية الإسرائيلية بشدة، وينتمون للحزب الجمهوري الأمريكي، وهم غير متدينين في ذاتهم.

* * *

١١٤٨ - مفهوم ٣٢: العنصرية:

هي ادعاء عنصر ما من البشرية أنه متفوق على بقية العناصر، وقد عرفها المسلمون قديمًا باسم «الشعوبية»، وقد ظهرت العنصرية في أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي، ثم لم تلبث أن قضت عليها نهائيًا الحرب العالمية الثانية فانتقلت الأفكار العنصرية من أوروبا والغرب إلى الشرق، وأوضح مثال لها: النظام العنصري الذي كان في جنوب إفريقيا، واليهود في فلسطين المحتلة، وتعصب الأمريكان البيض ضد السود.

* * *

١١٤٩ - مفهوم ٣٣: الاستعمار:

يطلق الساسة على احتلال أي بلد واستنزاف خيراته لفظ «الاستعمار»، وهذا لفظ موهم يجانب حقيقة أفعال الاحتلال؛ لأن الاستعمار في اللغة هو طلب العمران الذي يعني إحياء البلاد بالزراعة والصناعة والتشييد والبناء؛ قال تعالى: ﴿هُوَأَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]؛ أي: جعلكم عُمَّارًا لها.

وعكس «العمران»: «الخراب»؛ وهو ما يقوم به أي احتلال؛ فهو يخرب البلد على أهلها ويستنزف خيراتها وثرواتها لمصلحته هو بدلًا من مصلحة أهل البلد. ولا يشفع لأي احتلال ما يقوم به في البلد المحتل من صناعة وتشييد فيقال إنه «استعمار» بهذا الاعتبار، لا يشفع له ذلك لأنه إنما يقوم به لمصلحته هو لا لمصلحة البلد المحتل، بل ينهب ثرواته ويفيد منها أضعاف أضعاف ما ينشئه فيه؛ فهو في حقيقته «خراب» لا «عمران».

سادسًا: مفاهيم في السياسة الدولية:

١١٥٠ - مفهوم ١: الأمم المتحدة:

منظمة عالمية جرى التحضير لإنشائها خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) بجهود وآراء رئيسة من دول: بريطانيا، وأمريكا، والاتحاد السوفيتي، والصين؛ وبالأخص: بريطانيا وأمريكا اللتان وضعتا الخطوط العريضة لهذه المنظمة الدولية عام ١٩٤١م فيما عرف بـ«تصريح الأطلسي»، وكان الهدف المعلن للمنظمة هو: تدعيم السلام وحماية العالم من دمار حرب أممية أخرى.

ولكون المنظمة منشأة بالأساس من قِبَل الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية فمن البدهي أن تُصاغ بنودُها وأهدافها وفق مصالح هذه الدول.

وقد عُقدت اجتماعات ومؤتمرات عديدة غير «تصريح الأطلسي» لمناقشة فكرة هذه المنظمة وكيفية تأسيسها على أرض الواقع -تصل إلى سبعة مؤتمرات- وذلك بمشاركة دول مختلفة إضافة إلى الدول الأربع سابقة الذكر، وكان من أهم هذه المؤتمرات:

١ - **إعلان الأمم المتحدة في يناير ١٩٤٢م**: حيث اجتمع في واشنطن مندوبو ست وعشرين دولة من الحلفاء الذين كانوا يحاربون دول المحور (ألمانيا، وإيطاليا، واليابان) ليتعهدوا بدعم «تصريح الأطلسي»، وبذل ما في وسعهم لهزيمة دول المحور، وعُرف هذا الاجتماع باسم: «إعلان الأمم المتحدة»، وهو أول استخدام رسمي لهذا الاسم الذي اقترحه الرئيس الأمريكي «روزفلت».

٢ - **مؤتمر يالطا في ٤ فبراير ١٩٤٥م**: وكان للاتفاق على ما لم يُتفق عليه فيما سبقه من مؤتمرات، وأهم ذلك: طرق التصويت في الأمم المتحدة، النظام الجديد للمستعمرات [نظام الوصاية والأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي]، دعوة الدول الست والعشرين -عدا بولونيا- التي شاركت في «إعلان الأمم المتحدة» إلى الاجتماع في مؤتمر «سان فرانسيسكو» التأسيسي للأمم المتحدة إضافة إلى من يرغب من دول أخرى.

٣ - **مؤتمر «سان فرانسيسكو» في ٢٥ إبريل ١٩٤٥م**: حيث اجتمعت خمسون دولة لمناقشة ما سُمِّيَ بـ«ميثاق الأمم المتحدة»، وإعداده وفقًا لما اتفق عليه في المؤتمرات

السابقة، واستمر المؤتمر شهرين كاملين، وكان من نتاجه: «ميثاق الأمم المتحدة» المكون من ١١١ مادة، والنظام الأساسي لما يُسمى: «محكمة العدل الدولية» الذي يتكون من سبعين مادة، واعتُمِد ذلك بالإجماع، ووُقِّع عليه في ٢٥ يونيو ١٩٤٥م، وانهزمت ألمانيا خلال انعقاد هذا المؤتمر في ٨ مايو ١٩٤٥م.

ثم برز هذا الكيان للوجود رسميًّا في ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥م، وجُعِل مقرُّه الرئيس في نيويورك بأمريكا، وانضمت إليه فيما بعد -سواء عن علم بتفاصيل قوانينه وأهدافه أو منخدعة بما يرفعه من شعارات برَّاقة عن حقوق الإنسان- كل دول العالم، وعددها ١٩٣ دولة، عدا فلسطين والفاتيكان؛ لأنهما ليستا ذاتا سيادة تامة بحسب الأمم المتحدة نفسها، وإنما تشاركان في المنظمة بصفة مراقب ليس له حق التصويت. وعلى كل حال، فمنظمة الأمم المتحدة تخضع خضوعًا بيِّنًا للنفوذ اليهودي الصليبي الحاقد على الإسلام والمسلمين، ومن يراجع أقسامها وإداراتها وأسماء القائمين عليها يعرف هذا معرفة اليقين [انظر للتعرف على ذلك كتاب: «أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية» للدكتور: علي العلياني].

* * *

١١٥١ - مفهوم ٢: أهم مؤسسات الأمم المتحدة:

أهم مؤسسات هذه المنظمة هي: «مجلس الأمن الدولي»، «الجمعية العامة للأمم المتحدة»، «المجلس الاقتصادي الاجتماعي»، «مجلس الوصاية»، و«محكمة العدل الدولية».

وتفصيل الكلام على هذه المؤسسات يطول، لكن يكفي لبيان إجحاف هذه المنظمة معرفة أن مؤسسة «مجلس الأمن» لها حق إصدار قرار التدخل بالقوة ضد أي دولة تخرق «ميثاق الأمم المتحدة» وتهدد السلم والأمن الدوليين المزعومين؛ وذلك تحت ما يعرف بـ«الفصل السابع» من «ميثاق الأمم المتحدة».

ويتكون «مجلس الأمن» من خمس عشرة دولة، خمس منها فقط دائمة العضوية فيه، وهي وحدها التي لها حق النقض والاعتراض على أي قرار مقترح (الفيتو)؛ هذه الدول هي: أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وروسيا (التي حلت محل الاتحاد السوفيتي بعد تفككه)، والصين. ويلاحظ كيف استُبعِدتْ منها ألمانيا، وإيطاليا، واليابان؛ وهي الدول المنهزمة في الحرب العالمية الثانية.

وسائر الدول العشرة يختارها الدول الخمس دائمة العضوية بمجلس الأمن من الدول أعضاء الأمم المتحدة، وتصوت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة. وتكون مدة بقاء كل دولة من هذه الدول العشرة بالمجلس عامين فقط، ويجري استبدال خمس منها في سنة، والخمس الأخرى في السنة التي تليها.

* * *

١١٥٢ - مفهوم ٣: ميثاق الأمم المتحدة:

ليس ميثاق الأمم المتحدة مجرد وثيقة تأسيسية للمنظمة، بل هو تشريع وضعي يُعدُّ في نظر من يُسمون بخبراء القانون الدولي أعلى مراتب المعاهدات الدولية، وأعظم قواعد القانون الدولي مكانة، ولا يجوز عندهم مخالفته بحال؛ كما نصَّتْ المادة (١٠٣) من الميثاق على أنه: «إذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقًا لأحكام هذا الميثاق مع أي التزام دولي يرتبطون به فالعبرة بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق»؛ فلو كان التزام أي دولة مع دولة أخرى وفق أحكام الشرع، وكان يخالف ميثاق الأمم المتحدة المزعوم فلا عبرة به في نظرهم، والمعمول به هو ما في الميثاق، وهذا مضادة لحكم الشرع ومحادة له.

ومعلوم أن من شرط الانضمام إلى الأمم المتحدة إعلان الالتزام بميثاقها والخضوع له، كما أن فصل أي دولة من الأمم المتحدة يكون إذا أمعنت في انتهاك مبادئ هذا الميثاق، وما دام هذا الميثاق يخالف الشرع الحنيف في عديد من الأمور -كما سنبين لاحقًا- فالاحتكام إليه والإذعان له هو بلا شك تحاكم إلى الطاغوت الذين نهينا عنه كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

* * *

١١٥٣ – مفهوم ٤: نماذج من مضادة ميثاق الأمم المتحدة لشرع الله:

١ – جاء في ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: «إن غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة...»، وهذه العبارة لا يصح القول بها بإطلاق لأنها تقرر بذلك حرية الإلحاد، وتمنع مجاهدة المرتدين وإفزاع الكافرين المحادِّين لدعوة الله تعالى.

٢ – وجاء في المادة الثانية: «إن لكل إنسان التمتع بكافة الحقوق والحريات دون تمييز؛ كالتمييز بسبب الدين...»، والله سبحانه ميَّز بين المؤمنين والكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، ولم يجعل سبحانه الكافر كالمؤمن في كل شيء، بل فرَّق بينهما في أمور عدة؛ فلا يصح مثلًا تولية الكافر على المسلم كما يفيده عموم قول الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، ولا توارث بين المؤمنين والكافرين كما قال ﷺ: (**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**) [رواه البخاري (٦٧٦٤)، ومسلم (١٦١٤)]، ومن يراجع أحكام أهل الذمة في الفقه الإسلامي يعرف الفرق بين حقوق المسلم وحقوق الكافر.

٣ – وجاء في المادة الثامنة عشرة: «لكل فرد أن يغير عقيدته»، ولا يجوز أن يرتد المسلم عن دينه؛ كما قال ﷺ: (من بدَّل دينه فاقتلوه) [رواه البخاري (٣٠١٧)]، وقتال المرتدين معروف في التاريخ الإسلامي كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقاتل مانعي الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ، وفي الفقه الإسلامي باب كامل بعنوان: «أحكام المرتدين».

٤ – جاء في المادة الحادية والعشرين: «إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة»، وفي الإسلام تستمد الحكومة سلطتها من شرع الله وليس من إرادة الشعب –كما فصَّلنا القول في مفهوم: نظرية السيادة– ولهذا يختار الحكومة أهل الحل والعقد من العلماء والأمراء المتمسكين بالكتاب والسنة لا غيرهم، والحكومة مقيدة في كل أعمالها بشرع الله لا إرادة أحد من المخلوقين.

٥ – جاء في المادة السابعة والعشرين: «لا يصح بحال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة»، ونحن نقول: بل يجب مناقضة أغراض الأمم المتحدة بعد أن تبين حيفها ومضادتها لشرع الله؛ فإن مخالفة أصحاب الجحيم هي اقتضاء الصراط المستقيم.

وخلاصة القول: إن الخضوع لميثاق الأمم المتحدة هو مثل الخضوع للياسق الذي كان يتحاكم إليه التتار، وكلاهما طاغوت يشرع من دون الله تعالى ويجب الكفر به كما نصت الآيات السابقة.

* * *

١١٥٤ - مفهوم ٥: ميثاق الأمم المتحدة يمنع الجهاد المشروع:

للجهاد في الإسلام أحكام وأنواع مذكورة بالتفصيل في «أبواب الجهاد» في الفقه الإسلامي، وعجز المسلمين اليوم عن جهاد الطلب لضعفهم وهوانهم لا ينفي صحة هذا الجهاد ووجوبه عند القدرة عليه، ولكن ميثاق الأمم المتحدة يمنعه ولا يُجَوِّز إلا القتال من أجل الدفاع فحسب، وبيان ذلك كالآتي:

١ - في المادة الثانية: أوجبوا على الدول تسوية النزاع بينها سلميًّا مع مراعاة أحكام القانون الدولي، وهذا إيجاب ما لم يوجبه الله، بل الدولة المسلمة -عند القدرة والمنعة- تُخيِّر دولة الكفر بين خصال ثلاث: الإسلام، أو الجزية مع الصغار، أو القتال. وفي حالة ضعف دولة الإسلام يجوز لها أن تهادن دول الكفر هدنة مؤقتة كما في صلح الحديبية.

٢ - في المادة الخامسة: أوجبوا على الدول عدم الاعتراف بأي زيادة إقليمية تؤخذ عن طريق الحرب، بينما في الإسلام ما فتحه المسلمون عن طريق الجهاد هو ملك من أملاكهم.

٣ - في المادة التاسعة: أوجبوا على الدول الخضوع لكل المعاهدات الدولية، وكل ما كان من القانون الدولي العام، ولا يحل للمسلم الخضوع إلا لأحكام الكتاب والسنة. والمعاهدات لها أحكام في الشرع تخالف ما في القانون الدولي، فلا يحل للمسلمين أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

* * *

١١٥٥ - مفهوم ٦: الشرعية الدولية:

تعاظم دور الأمم المتحدة في العالم، وأصبح لقراراتها هيمنة ونفوذ على جُلِّ الدول -عدا الدول الكبرى والكيان الإسرائيلي- ووُصِفَتْ القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة بناء على ميثاقها الطاغوتي بأن لها «شرعية دولية»، وطرح هذا المصطلح بكثافة

في الإعلام، وأُضفِيَتْ عليه هالة ضخمة بحيث تعجز الدول والجماعات عن مخالفة هذه الشرعية المزعومة والخروج عليها، فأصبحنا نسمع من ينادي بـ«احترام الشرعية الدولية» و«تحريم الخروج على الشرعية» و«الالتزام بقرارات الشرعية الدولية»، حتى أضحى هذا المصطلح طاغوتًا يُحتكَم إليه من دون الله تعالى، ومع الأسف وقع في ذلك الشَرَك أيضًا كثير من عامة المسلمين، وبعض دعاتهم، وقادة بعض الحركات الإسلامية، ونسي الجميع أن تلك الشرعية المزعومة مستمدة من الميثاق الوضعي الذي بيَّنَّا طاغوتيته ومضادته لشرع الله، وأنه ليس إلا تشريع وضعي يحكم علاقات الدول بعضها ببعض وفق مصالح الدول الكبرى ومعاييرها وأعرافها. ويكفينا لبيان فساد هذه الشرعية المزعومة التذكير بأنها هي التي كرَّستْ الاحتلال اليهودي لفلسطين وجعلت من الكيان الإسرائيلي دولة عضوًا في الأمم المتحدة.

* * *

١١٥٦ - مفهوم ٧: النظام العالمي الجديد:

أي تغيير في النظام الذي يحكم العالم في فترة ما يجعله نظامًا عالميًّا جديدًا مختلفًا عن سابقه، وينطبق ذلك أيضًا على أي تغيير في نمط العيش والتعايش بين الدول؛ ولذا فليس للنظام العالمي الجديد تعريف واضح، وقد كان أول ظهور حديث لهذا المسمى أثناء حرب الخليج لصد غزو العراق للكويت (١٩٩٠-١٩٩١) حيث أطلقه «جورج بوش»، وقُصِدَ به الترويج لفكرة الانفتاح و«العولمة»؛ بمعنى: اعتبار العالم كالقرية الواحدة، ويسود فيه من حيث الظاهر: التعاون فيما بين سكانه في النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وتختفي فيه الهويات الخاصة، والقيم، والمرجعيات، ولكن حقيقة ذلك هي سيطرة الغرب النصراني، ومن خلفه الماسونية العالمية بما لديهم من تفوق تقني هائل على دول العالم الثالث، وفرض ثقافة الغرب ونمط حياته الاستهلاكي المُعَظِّم للذة الحسية والشهوات.

فكأن الغرب لم يكفه السيطرة على العالم من خلال منظمة الأمم المتحدة، والشرعية الدولية المزعومة، فابتكر هذه الفكرة الماكرة ليضيف سيطرة أقوى معتمدًا على القوة الناعمة عوضًا عن القوة العسكرية المكلفة والتي أصبحت لا تجدي نفعًا الآن، وتلك

القوة الناعمة ترتكز على ثورة المعلومات الحديثة، والإعلام الرقمي الجديد، والفضائيات لنشر مفاهيم الغرب وإيهام دول العالم الثالث أنها شريك في الاستثمار الاقتصادي العالمي، ووعدها بتحقيق أحلام الرخاء الاقتصادي، والرفاه الاجتماعي، والعيش مثل الغرب حياة الرفاهية المزعومة.

* * *

١١٥٧ - مفهوم ٨: الإسلام والعلاقات الدولية:

للإسلام قاعدته الرئيسة في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم؛ حيث يجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحال العداء والعدوان، أمَّا حين ينتفي ذلك فيكون البر لمن يستحقه والعدل والقسط في المعاملة هو الأمر القائم؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة:٨-٩].

والإسلام نظام يستهدف أن يُظلِّل العالم كله بظله، ويقيم فيه منهجه، ويجمع الناس تحت لوائه إخوة متعارفين متحابين؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]، [الصف:٩]، وشريعة الإسلام الدولية لا تمنع السلم مع الآخرين ما داموا لا يواجهون دعوته، بل تجعل السلم هو الأصل في ذلك، ولا تردُّه إلا في إحدى الحالات الآتية:

- وقوع الاعتداء الحربي وضرورة ردِّه.
- خشية خيانة المعاهد ونقضه لعهده؛ فحينئذ يُرَدُّ عليه عهده ويُعلَم بذلك، وينتقل إلى العداوة والحرب.
- وقوف أحد بالقوة في وجه حرية الدعوة إلى الإسلام الذي هو دين الله الحق الذي ينبغي أن يسود في الأرض حتى يكون الدين كله لله؛ فمن يمنع ذلك فهو معتد على منهج الله ويجب رد اعتدائه ومحاربته.

فالقضية بين المسلمين ومخالفيهم إذًا هي قضية العقيدة دون غيرها، وليست هناك خصومة على مصلحة دنيوية، ولا جهاد على عصبية من جنس، أو أرض، أو عشيرة، إنما

يشرع الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا وشريعة الإسلام هي المنهج المطبق في الحياة.

ولا يُكره الإسلام أحدًا على اعتناقه بعد أن يبين له الحق؛ كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فحرية الاعتقاد إذًا مكفولة للجميع وحسابهم على الله تعالى، ولكن ذلك مشروط بأن يدفع المخالف لدين الإسلام الجزية وألا يُظهر عقيدته الشركية في العلن ويدعو إليها؛ لأن ذلك محادة لدعوة التوحيد، وخروج عن منهج الله لا يرتضيه الإسلام ولا يسمح به؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة:٣٦]، ولا شك أن ذلك مشروط بقوة المسلمين ومنعتهم، أما حال استضعافهم فالذي يشرع هو الصبر والتربية والإعداد للتمكين.

* * *

١١٥٨ - مفهوم ٩: المقاطعة:

هي نوع من الحرب الاقتصادية تستخدمها الشعوب والدول ضد من يعاديهم، وذلك معروف من قديم الزمان، ومثاله مقاطعة قريش لبني هاشم وحصارهم في شعب أبي طالب؛ لا يتبايعون معهم (مقاطعة اقتصادية)، ولا يناكحونهم (مقاطعة اجتماعية)، ويمنعون مساعدتهم محاولين بذلك ثني الرسول ﷺ عن دعوته، وكتبوا وثيقة تعاهدوا فيها على ذلك وعلقوها في الكعبة، واستمر الحصار ثلاث سنوات حتى أَذِن الله بانتهاء الابتلاء وأكلت الأرضة [النمل الأبيض] هذه الصحيفة، فلما رأت قريش ذلك فكَّت الحصار.

ومن أمثلتها من جهة المسلمين ضد الكفار: ما قام به ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة -بعد إسلامه- من منع التموين الذي كان يصل من بني حنيفة إلى قريش حتى يكفوا عن إيذاء المسلمين أو يأذن الرسول ﷺ بشيء في ذلك.

وفي العصر الحديث يستخدم الغرب سلاح المقاطعة بالقوة في صورة عقوبات على الدولة التي لا تنصاع لرغباته، ويقوم المسلمون بذلك بوازع من إيمانهم نصرة لدينهم ونبيهم دون أن يدعمهم حكام بلادهم، ومع ذلك تؤتي المقاطعة أُكلها بفضل الله تعالى؛ كما حدث قبل سنوات من مقاطعة المنتجات الدانمركية حتى اشتكت الشركات لحكومتهم ورجع مؤلف الفيلم الساخر من الرسول ﷺ عن سخريته، بل دخل في الإسلام بعدما اطلع عليه، وكما تجري حاليًا مقاطعة المنتجات الفرنسية بسبب نشر

جريدة فاجرة رسومًا مسيئة للرسول الكريم ﷺ وعدم منع الحكومة الفرنسية ذلك. وهي مقاطعة قوية تؤثر في اقتصاد الدولة المفروض عليها ذلك، ويكفينا غير التأثير الواقعي على الأعداء أن في ذلك إظهارًا لولاء المسلمين لدينهم ونبيهم وبراءتهم من أهل الكفر والشرك بما يستطيعون من سلاح.

❊ ❊ ❊

١١٥٩ - مفهوم ١٠: من عوامل بقاء الأمة وهيبتها:

هناك أمور لا تقوى شوكة أمة الإسلام إلا بها؛ أهمها: توحيد ربها، واتباع نبيها ﷺ، ومعرفة عدوها الخارجي، وترابط أبنائها داخليًّا؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

❊ ❊ ❊

١١٦٠ - مفهوم ١١: من صور هوان الأمة:

أعظم صور هوان الأمة أن تكون مظلومة مقهورة ويقنعها عدوها أنها هي سبب نزول الظلم عليها؛ فترى عدوها معلمًا مربيًا لا ظالمًا متربصًا.

❊ ❊ ❊

١١٦١ - مفهوم ١٢: التيارات السائدة في الغرب:

يسود الغرب وأمريكا ثلاثة تيارات رئيسة:

١ - الإلحاد: تيار لا يؤمن بوجود إله ولا بالآخرة، ويعيش حياته بناء على هذا التصور.

٢ - التيار الأصولي اليميني: وهو تيار يتعصب لقيم كتابهم المقدس -خصوصًا النصرانية- وإن كان أصحابه في أنفسهم غير متمسكين بالنصرانية، وهم يدعمون الصهيونية وشديدو العداوة للإسلام والمسلمين، ويمثلهم في أمريكا الحزب الجمهوري.

٣ - التيار الليبرالي: وهو تيار يساري غير شيوعي يقول عن نفسه إنه اشتراكي، ويؤمن بالوحدة الإنسانية، وحرية الاعتقاد لكل البشرية، وهو سائد في أوروبا وزعماؤه يحكمون دولها، ويمثله في أمريكا الحزب الديموقراطي.

❊ ❊ ❊

١١٦٢ - مفهوم ١٣: التسامح عند الأمريكان:

يتبنى مفهوم التسامح في أمريكا التيار الليبرالي ممثلًا في الحزب الديموقراطي؛ ويطالب بأن يكون العالم متسامحًا متعددًا إنسانيًا، يمنع الإقصاء، ومبتغاهم الرئيس نفي كراهية اليهود والنصارى وأهل البدع، وإسقاط: عقيدة الولاء والبراء، وشعيرة الجهاد، وعداوة الكفار. ويدعون إلى أن يُقرَّ كل أحد على مذهبه وملته باسم القومية أو الوطنية أو اللحمة الاجتماعية، ولكنهم يخالفون مبادئهم في تعاملهم مع المسلمين الداعين إلى نشر الإسلام، فيعادونهم ويسعون لإقصائهم.

بينما التسامح في الإسلام يعني العدل والبر مع الكافر غير المحارب، وليس التخلي عن عقيدة الولاء والبراء وترك الجهاد في سبيل الله.

❊ ❊ ❊

١١٦٣ - مفهوم ١٤: لماذا غزا الأمريكان أفغانستان؟

غزا الأمريكان أفغانستان بذريعة القضاء على الإرهاب والانتقام ممن فجروا برجي مركز التجارة العالمي عام ٢٠٠١م، ولتمكين المرأة في أفغانستان من التحرر ومنحها فرصة التعليم، ولو كانوا يريدون حقًّا تعليم المرأة لأعطوا حكومة طالبان نفقات ذلك، وهذا أهون عليهم من كلفة الغزو الباهظة وخسارة كثير من جنودهم هناك.

ولقد صرَّح «ويسلي كلايك» قائد جيوش «الناتو» بالسبب الحقيقي وراء الغزو فقال: «من يظن أننا ذهبنا إلى أفغانستان انتقامًا لأحداث ١١/ ٩ فليصحِّح خطأه، وإنما ذهبنا لدرء خطر أكبر هو الإسلام، ولا نريد أن يبقى الإسلام مشروعًا حرًّا يقرر فيه المسلمون ما هو الإسلام، بل نحن نقرر لهم ما هو الإسلام».

ومما يؤسف له أنهم استطاعوا إلى حد كبير أن ينشروا في العالم أجمع مفاهيمهم عن الإسلام؛ حيث قسَّموه إلى إسلام سياسي، وإسلام معتدل وإسلام متطرف...إلخ.

❊ ❊ ❊

١١٦٤ – مفهوم ١٥: بدعة الفوضى الخلَّاقة:

ابتدع الأمريكان مصطلح «الفوضى الخلاقة» ليستروا به سعيهم إلى تفتيت أمم العالم الثالث واستقطابها، أو لستر إخفاقاتهم المتتالية فيه. والحق أن الفوضى تخريب ودمار، وتظل دائمًا وأبدًا فوضى ولا يمكن أن تكون خلَّاقة، وإنما ينشر الأعداء مبادئهم بعدما يدمرون هذه الدول فلا يبقى فيها –حسب ظنهم– ما يقاوم ذلك.

❊ ❊ ❊

١١٦٥ – مفهوم ١٦: قوى الغرب التي تتآمر على الإسلام لإزالته من واقع المسلمين:

تآمرت على الإسلام والمسلمين في العصر الحديث قوى عديدة للغرب تميَّزتْ عن أعداء المسلمين السابقين بالمكر والدهاء، واستخدام أساليب جديدة لا تقتصر على الحرب والمواجهة المباشرة، بل تتعدَّى ذلك إلى استعمال ما يُعرف حاليًا بالقوة الناعمة من: ثقافة، وإعلام، وغزو فكري. ويمكن تلخيص القوى الغربية المتآمرة على المسلمين في العصر الحديث في: الاحتلال المباشر، والاستشراق، والتبشير، ونصارى العرب.

❊ ❊ ❊

١١٦٦ – مفهوم ١٧: دور الاحتلال المباشر في السعي لإزالة الإسلام من واقع المسلمين:

كان أهم سلاح استخدمه الغرب الكافر في مواجهته لجيوش الدولة العثمانية هو إذكاء روح القومية العربية في نفوس العرب، وزرع عملاء بينهم، ووعدهم بدول مستقلة إذا ساعدوهم في هذه المواجهة، فاستطاعوا أن يؤججوا حروبًا ضد الخلافة العثمانية بجيوش ينضوي تحتها مغفلون ينتسبون إلى الإسلام، حتى تمكن «اللنبي» من احتلال القدس بجيش يحوي أمثال هؤلاء إلى جانب قواته الغربية، وسقطت دول العالم الإسلامي في قبضة الاحتلال الغربي المقيت مُمثلًا في بريطانيا في بعضها وفرنسا في البعض الآخر من خلال ما عُرِف باتفاقية «سايكس بيكو»، ثم لم يلبث هذا الاحتلال أن نفَّذ مخططاته الخبيثة لإزالة الإسلام من واقع المسلمين، وقد تمثلت في:

١ – القضاء على الحركات الإسلامية المقاومة لهذا الغزو؛ خاصة الحركات الجهادية مثل حركات: عبد القادر الجزائري في الجزائر، وعمر المختار في ليبيا، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، وإسماعيل الشهيد في الهند، وحركة المهدي في السودان –رغم

انحراف هذه الأخيرة في بعض مفاهيمها عن الإسلام- ولما عجزوا عن احتواء دعوة حسن البنا في مصر اغتالوه ووجَّهوا عدة ضربات بواسطة عملائهم لحركته.

٢ – إلغاء المحاكم الشرعية وإحلال القوانين الوضعية محلها؛ فبدأوا ذلك بالهند، ثم الجزائر عام ١٨٣٠م، فمصر عام ١٨٨٣م حيث اقتصر حكم الشرع فيها على الأحوال الشخصية، ثم تونس عام ١٩٠٦م، والمغرب عام ١٩١٣م. وتأخر ذلك قليلًا في العراق وبلاد الشام لاعتمادهم على «مجلة الأحكام العدلية» العثمانية، فلم تُلغ الشريعة فيها إلا بعد سقوط الخلافة العثمانية وثبوت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيها.

٣ – القضاء على التعليم الإسلامي والأوقاف الإسلامية؛ حيث وُضعتْ المخططات الماكرة لتقليص التعليم الديني تدريجيًا وإحلال التعليم اللا ديني محله، وأشهر ذلك: مخطط «كرومر» و«دنلوب» في مصر الذي انتهج سياسة بعيدة المدى قلَّص فيها دور الأزهر ومعاهده، وألغى كتاتيب القرآن. وفُعِل مثلُ ذلك في العراق والمغرب، وحُوِّل العلماء إلى موظفين في مديرية الأوقاف، ونُشِر التعليم اللاديني ودُعِم على نطاق واسع، وازدهرت الجامعات القائمة على أساس لا ديني صرف.

٤ – دعم الطوائف غير الإسلامية وإحياء ما اندثر منها، وتولية أفرادها المناصب المهمة في الدولة؛ فتولى إدارة الجامعة السورية مثلًا «قسطنطين رزق» النصراني، وتمكَّنت فرقة «النصيرية» الباطنية من السيطرة على المناصب الهامة في سوريا بعد أن سمَّاهم الفرنسيون «العلويون»، وسيطروا أيضًا على قيادة الجيش فتحكموا في الأكثرية المسلمة في سوريا.

ومُكِّن أقباط مصر أيضًا من المناصب المهمة في الدولة، وبنوا العديد من الكنائس والمدارس النصرانية.

وفي معظم دول إفريقيا خرج الاحتلال من هناك بعد أن خلَّف وراءه حكومات نصرانية تحكم شعوبًا تصل نسبة المسلمين في بعضها ٩٩٪، وحدث مثل ذلك في الهند التي تحول المسلمون فيها إلى أقلية ضعيفة ينهشها الإنجليز والهندوس والسيخ.

وإضافة إلى ذلك أحدث الاحتلال طوائف جديدة مثل: «البابية»، و«البهائية»، و«القاديانية» التي اتضح للمسلمين عمالتها بمرور الأيام والأعوام.

٥ – اصطناع العملاء من أبناء المسلمين؛ حيث اختار الاحتلال أفرادًا حشوا أذهانهم

بالأفكار العلمانية، ثم صنعوا لهم بطولات زائفة وضخَّموها حتى خُيِّل للشعوب أن خلاصها هو على أيدي هؤلاء الأبطال، ومن أشهر هؤلاء: العلماني عدو الإسلام اللدود «مصطفى كمال أتاتورك».

٦ - تنفيذ توصيات المستشرقين والمبشرين، والإشراف على إنجاح مهامهم وتذليل العقبات التي قد تعترضهم.

❋ ❋ ❋

١١٦٧ - مفهوم ١٨: الاستشراق ودوره في السعي لإزالة الإسلام من واقع المسلمين:

يقصد بالاستشراق من حيث الأصل دراسة ثقافات الشرق وتراثه، وكان ذلك هو البوابة التي دخل منها الغربيون لفهم حياة المسلمين وأفكارهم، ومن ثَمَّ تغيير ذلك بالطعن في حقائق الإسلام، وتشويه ثوابته، وتحريفها تحت ستار الدراسة العلمية لآلاف المخطوطات والنقد المتجرد -بزعمهم- وتلخَّصت أفعالهم في هذا المجال فيما يأتي:

١ - الطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة:

- فقالوا عن الإسلام: إنه تطوير محرف لليهودية والنصرانية، أو هو تركيب لمجموعة أديان شرقية تولَّد من احتكاك الوثنية العربية بأديان فارس والهند.

- وزعموا أن القرآن من وضع محمد ﷺ، أو أن راهبًا نصرانيًّا أملاه عليه؛ وتلك فرية قديمة زعمها كفار قريش من قبل وأكذبهم القرآن كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ [الفرقان:٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

- كما أنهم ردَّدوا مزاعم الروافض بأن القرآن الحالي يعدل ثلث القرآن الحقيقي فقط، وباقيه منع نشره الصحابة -بزعمهم- لمصالحهم الشخصية، وأنه مخفي عند الروافض فيما يعرف زورًا بمصحف فاطمة، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

- وزعموا أيضًا أن الوحي المنزل على النبي ﷺ إنما هو نوبات من الصرع والهيستريا، أو نوع من العبقرية الشعرية على أقصى تقدير. وكل عالم بلغة العرب يعرف مدى

بطلان هذه الفرية وتهافتها، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

- وطعنوا في السنة النبوية استنادًا إلى وجود أحاديث ضعيفة وموضوعة فيها، فأرادوا تعميم ذلك على السنة كلها أو تقرير أنها غير موثوق فيها بناء على ذلك، ونسوا أن الذين ذكروا أن في السنة غير الأحاديث الصحيحة ما هو ضعيف وما هو موضوع هم علماء المسلمين أنفسهم، وأنهم بينوا ذلك من خلال تأصيل علمي دقيق ميزوا فيه بين الصحيح والضعيف والموضوع فيما يُعرف بعلوم الحديث والجرح والتعديل. كما طعنوا في كبار رواة السنة وحفاظها من الصحابة كأبي هريرة ﷺ، ومن التابعين كالزهري رحمه الله.

٢ - ادعاء أن الإسلام استنفذ أغراضه؛ وهي دعوة متلونة في صور شتى:

- فمرة يقولون إنه دعوة أخلاقية جاءت لإخراج المجتمع العربي من عاداته السيئة.
- وتارة يزعمون أنه حركة اجتماعية تهدف إلى تحويل المجتمع القبلي إلى مجتمع مدني.
- وأخرى يزعمون أنه ثورة غير ناضجة ضد طبقة الأسياد الأغنياء في مكة.

ومؤدى كل ذلك اعتبار الإسلام ظاهرة عابرة لفترة زمنية محدودة ولا علاقة له بالواقع المعاصر.

٣ - قصر الإسلام على الشعائر التعبدية كما هو في المفهوم الغربي الضيق للنصرانية، وادعاء أنه ليس للإسلام دخل بأمور الحكم والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي؛ ويتغافلون عن أن القرآن الكريم زاخر بالآيات التي تنص على الحكم بشرع الله، وتؤصِّل للأخلاق والمعاملات، وتقنن الاقتصاد والتجارة، والله سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨]؛ أي اتبعوا تعاليم الإسلام كلها.

٤ - ادعاء أن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني؛ ويهدفون من وراء ذلك إلى أمرين: **الأول**: إبطال ارتباط الفقه بشرع الله تعالى، **والثاني**: التهوين من الأخذ من القوانين الوضعية المعاصرة؛ فما دام الفقه القديم مستقى -بزعمهم- من أصول رومانية فما المانع اليوم من الاقتباس من القانون الفرنسي أو السويسري...إلخ.

٥ – ادعاء أن الشريعة لا تتلاءم مع الحضارة المعاصرة؛ حيث وسموا الإسلام بأنه دين قبلي صحراوي لا تنسجم تشريعاته مع الحياة العصرية المتمدنة، وأنها هي سبب تخلف المسلمين الحالي. والحق أن سبب هذا التخلف هو ترك المسلمين لتعاليم دينهم مما أتاح للغرب احتلال بلادهم وتنفيذ مؤامرات تجهيلهم ونهب ثرواتهم، ولما كان المسلمون متمسكين بدينهم فتحوا الدنيا وأصبحوا سادتها بالحق والعدل والعلم.

٦ – الدعوة إلى الكتابة باللهجات العامية ونبذ اللغة العربية بحجة أنها صعبة ولا تتلاءم مع الحياة المعاصرة، وافتعال التضاد بين قواعد اللغة والنحو وأساليب القرآن الكريم.

٧ – ادعاء أن الإسلام يحتقر المرأة ولا يمكنها من الحياة الكريمة؛ ليساندوا بذلك دعوة الغرب المشبوهة لـ«تحرير المرأة». والحق أنه لم ينصف المرأة دين ولا ثقافة مثل الإسلام.

٨ – تشويه التاريخ الإسلامي وحصره في الناحية السياسية وكأنه سلسلة من المشاحنات والمؤامرات، كما صوروا الحكام على أنهم غارقون في المجون واللهو بالجواري والشعر والغناء، واعتمدوا في ذلك على افتراءات الروافض وكتابتهم المزورة للتاريخ.

٩ – تعظيم الحركات الهدَّامة والطوائف الضالة، وتضخيم أدوارها؛ كالباطنية مثل العبيديين الذين تسموا زورًا بالفاطميين، والمعتزلة، والدروز، والمتصوفة، والحرص على إبراز الشخصيات الضالة وإطرائها كالحلاج، وابن سبأ، وعبد الله بن ميمون القداح، والحاكم العبيدي.

١٠ – تهوين شأن الحضارة الإسلامية وادعاء أنها مقتبسة من حضارة الرومان.

١١ – نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها؛ مثل الفرعونية، والفينيقية، والآشورية؛ ليبدو الإسلام في أحسن حالاته مجرد عامل من بين عوامل عدة لحضارات الشرق.

١٢ – ترسيخ منهج لا ديني للبحث العلمي مدَّعين الحيادية فيه والتجرد، مع أن الحقيقة خلاف ذلك؛ حيث يصرون على النقل من كتب غير موثوقة ولا علاقة لها بما يحكمون عليه من موضوع؛ فيأخذون من كتب الأدب ما ينقدون به تاريخ الحديث النبوي وعلومه، ومن التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه. ومن أمثلة الكتب المعظمة لديهم: «الأغاني» للأصفهاني الماجن، و«الحيوان» للجاحظ المعتزلي.

وأخيرًا، فإن المستشرقين يسيرون في سعيهم لتدمير الإسلام وفق خطة مدروسة، ولذا

فهي تتغير تبعًا لمقتضيات الحال بعد تقييم نتائج كل مرحلة، وهم حاليًا حريصون على تغييب الأساليب الاستفزازية والطعن المكشوف، وينفذون عوضًا عن ذلك مخطط احتواء الفكر الإسلامي.

* * *

١١٦٨ - مفهوم ١٩: الرد على مقولة: «المنصفون من المستشرقين»:

يصف بعض المسلمين بعض المستشرقين بأنه من المنصفين العقلاء المعتدلين، وفي هذا خطأ وتدليس وتضليل؛ حيث لا يوجد مستشرق منصف أو عاقل؛ إذ لو كان عاقلاً منصفًا لدخل في الإسلام بعدما درسه وعرفه، ولترك ما هو عليه من الكفر ومعاداة الإسلام.

* * *

١١٦٩ - مفهوم ١٩: التبشير ودوره في السعي لإزالة الإسلام من واقع المسلمين:

هو في حقيقته تنصير لا تبشير؛ لأن هدفه إدخال الناس في النصرانية، فإن عجز عن ذلك جعل همَّه إخراج المسلمين من دينهم ولو لم يدخلوا في دين النصارى، ويشترك التبشير مع الاستشراق في أهدافهما الحقيقية، وتتداخل وسائلهما لتحقيقها، إلا أن ميدان الاستشراق الأساس هو الثقافة والفكر، بينما يركز المبشرون جهودهم في النواحي الاجتماعية والتربوية.

ويتبادر إلى الذهن أن التبشير هو إدخال الناس في الدين النصراني وتبشيرهم بالخلاص من الذنوب والدخول في ملكوت الله [الجنة] إن هم استجابوا لذلك. ولكن الأهم لدى المبشرين في العالم الإسلامي هو إخراج المسلمين من دينهم؛ كما أوضح ذلك القس «زويمر» في «مؤتمر القدس التبشيري» حيث قال: «ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية -فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا- وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من إسلامه ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله...إنكم أعددتم نشئًا في بلاد المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب

الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات».

* * *

١١٧٠ - مفهوم ٢٠: وسائل المبشرين لتحقيق أغراضهم:

من أهم هذه الوسائل:

١ - إدخال من استطاعوا من المسلمين في الديانة المسيحية؛ فهذا وإن لم يكن الغاية الأساسية -كما قال «زويمر»- إلا أنه يؤدي إلى زعزعة إيمان الآخرين وتثبيط هممهم.

٢ - فتح المحاضن والمدارس والكليات التي ترعاها الجهات التبشيرية في أنحاء العالم الإسلامي، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد في إفريقيا؛ حيث بلغت المعاهد التعليمية قرابة ١٦٦٧٠ معهدًا، والكليات والجامعات ٥٠٠، وتجاوزت رياض الأطفال ١١١٣ روضة، كما بلغت المدارس اللاهوتية المتخصصة في تخريج القسس والرهبان والمبشرين ٤٨٩ مدرسة. ويبلغ عدد أبناء المسلمين الذين يدرسون في المحاضن التي ترعاها الجهات التبشيرية أكثر من خمسة ملايين.

٣ - إخفاء دوافع التبشير تحت ستار المساعدات الإنسانية والمعونات الطبية والغذائية؛ وذلك حتى لا يصطدم التبشير بعقيدة الولاء والبراء المتميزة لدى المسلمين، وليُضعِفوا هذه العقيدة في نفوس المسلمين من خلال هذه المساعدات. وقد ركزوا جهودهم في السنوات الأخيرة في أندونيسيا وبنجلاديش.

٤ - التركيز على إفساد الريف الإسلامي المعروف بمحافظته على التقاليد الإسلامية؛ وذلك من خلال إنشاء المراكز الاجتماعية والمهنية والصحية، وتنظيم برامج توطين البدو ومحو الأمية للنفوذ إلى عقول معظم قطاعات الشعوب الإسلامية.

٥ - التركيز على إفساد المرأة المسلمة من خلال النوادي والجمعيات النسوية وأنشطتها الهدامة من: عروض أزياء، وحفلات ترويحية، وبرامج تطوير المهارات...إلخ.

٦ - تشجيع تحديد النسل بين المسلمين لتقليل عددهم ما أمكن، وفي الوقت ذاته يشجعون النصارى والطوائف غير الإسلامية على الإكثار من النسل.

٧ - استهلاك جهود علماء المسلمين في مقاومة أفكار التبشير ليفوتوا عليهم فرص العمل للنهوض بالمسلمين ويعطلوا جهودهم المثمرة في ذلك.

٨ – مراقبة العالم الإسلامي والتجسس عليه، وجس نبض الأمة المسلمة، ورصد الحركات الإسلامية. وقد ثبتت صلة الإرساليات التبشيرية بدوائر الاستخبارات الدولية.

* * *

١١٧١ – مفهوم ٢١: دور نصارى العرب في السعي لإزالة الإسلام من واقع المسلمين:

أغلب نصارى الشرق «أرثوذوكس»، وهم متعصبون يحملون الكره والحقد على المسلمين. ولعلمهم أن «العلمانية» كانت السبب الرئيس في القضاء على التمسك بالديانة النصرانية في الغرب كانوا أكثر المنادين بتطبيقها بشدة في بلاد المسلمين طمعًا في أن تقضي على الدين الإسلامي في بلادهم كما قضت على النصرانية في الغرب.

وقد بذلوا جهودًا كثيرة في هذا المضمار، وهي تنقسم إلى قسمين رئيسين:

١ – **الأعمال السياسية**: حيث كانوا على صلة بالجمعيات الهدامة في الغرب وشبكات الجاسوسية العالمية، وأنشأوا الجمعيات السرية التي تناهض الخلافة الإسلامية وتدعو إلى حكومات وطنية أو قومية لا دينية، ومن تلك الجمعيات والأحزاب: جمعية بيروت بقيادة «فارس نمر»، والحزب القومي السوري بقيادة «أنطوان سعادة»، وحزب البعث بقيادة «ميشيل عفلق»، ...إلخ.

٢ – **الأعمال الفكرية**: حيث نشر نصارى العرب ثقافة الغرب وفكره مستخدمين الوسائل الحديثة -لا سيما الصحافة- فأصدروا صحفًا كثيرة منها: الجنان، والمقتطف، والهلال. وكان محرروها أمثال: نصيف اليازجي، وجورجي زيدان، ويعقوب صروف يمثلون طلائع اللادينية في الشرق الإسلامي.

– واتجه بعضهم إلى مثل أعمال المستشرقين فألفوا المعاجم والقواميس اللغوية، ونشطوا في الترجمة وتأليف الموسوعات. ومن هؤلاء: «بطرس البستاني» و«لويس شيخو».

– واهتم بعضهم بالفلسفة العربية ونشر مؤلفاتها، وتمجيد زعمائها، ودعوة العرب إلى اعتناقها وإقامة الحياة على أساسها. ومن هؤلاء: شبلي شميل، وسلامة موسى.

– واتجه آخرون إلى الشعر ليمجدوا القومية العربية على حساب الإسلام؛ مثل: إبراهيم اليازجي، وبشارة الخوري.

ومن مقولات بعض نصارى العرب المشهورة في مجال علمنة العالم الإسلامي قول

«فرح أنطوان»: «إن العالم قد تغير؛ فالدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين، بل على أمرين: الوحدة الوطنية، وتقنيات العلم الحديث»، وصدرت مثل هذه الدعوى عن معظم الكتاب والصحفيين النصارى، ويمكن تلمس ذلك بجلاء في أي من كتابات «سلامة موسى» مثلاً.

❋ ❋ ❋

١١٧٢ – مفهوم ٢٢: تآمر قوى الروافض على المسلمين أهل السنة في الوقت المعاصر:

مخالفة الظاهر للباطن سمة رئيسة من سمات طوائف الباطنية عمومًا وأهل الرفض [الشيعة الاثنا عشرية] على وجه الخصوص، بل ذلك عندهم تدين وقربة إلى الله، ويسمونه مبدأ «التَقِيَّة»، ويعنون به إخفاء عقائدهم الباطنية وإظهار خلافها خداعًا لعامة المسلمين السنة الذين يسمونهم زورًا وبهتانًا: «النواصب».

وتآمر الروافض أفرادًا ومؤسساتٍ ودولًا على المسلمين قديم ومعروف لدى كل ذي بصيرة، ورغم محاولة أهل الرفض في عصرنا الحالي إخفاء هذه الحقيقة والتظاهر بحب السلام والتعايش السلمي إلا أن الله سبحانه يأبى إلا أن يفضحهم ويكشف خططهم؛ فيُظهر خطاباتهم لمنتسبيهم المليئة بالحقد والتآمر على المسلمين السنة، ويُقَدِّر من الأحداث في بلاد الشام ما فيه ابتلاءات موجعة لأهل السنة، لكنه يكشف في الوقت ذاته مدى تحالف قوى الرفض جميعًا لنصرة إخوانهم «النصيريين» حكام سوريا ضد أهل السنة هناك الذين ثاروا عليهم وجاهدوهم بما يملكونه من إمكانات متواضعة، بينما تكالب عليهم روافض إيران مع إخوانهم من العراق وإخوانهم في لبنان المنتسبين لحزب الشيطان، ودخلوا في مواجهة عسكرية مباشرة بكل ما يملكونه من أسلحة متطورة ضد المسلمين أهل السنة المدافعين عن أنفسهم. كما ناصر روافض إيران إخوانهم الحوثيين لأجل السيطرة على بلاد اليمن حتى يُحْكِموا بذلك الطوق من الشمال والجنوب على أهل السنة في جزيرة العرب.

ونحمد الله أن كشف هذا وبيَّنه لأهل السنة حتى لا ينخدعوا بمؤامرات الروافض وتَقِيَّتهم؛ ففساد السرائر لدى الدول والمؤسسات أخطر بكثير منه على مستوى الأفراد.

❋ ❋ ❋

١١٧٣ - مفهوم ٢٣: أزمة العالم الغربي:

تمر الحضارة الغربية اليوم بأزمة اقتصادية حادة، وأزمة أخلاقية قذرة؛ وذلك من أقوى عوامل انهيارها، ويوشك الاتحاد الأوروبي على التفكك بعدما انكشفت عيوب الديموقراطية، وعُرفت مساوئ الثورة الفرنسية وزيف شعاراتها، واتضح خضوع هيئة الأمم المتحدة للسياسة الأمريكية. وتسمى القارة الأوروبية حاليًا: القارة العجوز.

ولا تختلف أمريكا كثيرًا عن ذلك؛ فيوجد تراجع ملحوظ في سياستها عن الاهتمام بما يسمى الشرق الأوسط، وتُركِّز عوضًا عن ذلك على منطقة بحر الصين، كما أنها تعيش تذبذبًا في تحالفاتها القديمة، وعلاقاتها مع دول الخليج وإيران يشوبها الاضطراب والتخبط، وتخشى من كوريا الشمالية والصين، وتتحالف مع الميليشيات الكردية في سوريا ضد حليفها القديم (تركيا)، وتغيب عنها استراتيجية مستقرة للتعامل مع قضايا ما يسمى بالشرق الأوسط، وتتفاقم خلافاتها مع الاتحاد الأوروبي الذي كان أقرب الحلفاء إليها. فاللهم أهلك الظالمين بالظالمين ولا تحقق مخططاتهم في بلاد المسلمين.

* * *

١١٧٤ - مفهوم ٢٤: بعض أسباب سقوط الأمم والحضارات وواقع العالم اليوم:

درس المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» [توفي ١٩٧٥م] إحدى وعشرين حضارة دراسة متعمقة، وذكر فيها ما يراه أسبابًا لسقوطها، ونحن نذكر بعضًا منها مع التعديل والإضافة عليها؛ فمن ذلك:

١ - أنه لا توجد حضارة بلا دين، والمعبد هو مركز الحضارة المهم، وتسقط الأمم والحضارات إذا فقدت عقيدتها أو فلسفتها ومفاهيمها، وقد زعم الغرب المعاصر قيام حضارته على الحرية وحقوق الإنسان، واليوم يكثر فيهم مخالفة ذلك، وينتشر التطرف والعنصرية في بلدانهم، وذلك عامل من عوامل زوال حضارتهم.

٢ - انتشار الظلم وانتفاء العدل عامل حاسم في سقوط الحضارات، وتلك سنة إلهية ثابتة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩]. واشتهر عن ابن تيمية قوله: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»، فليبشر كل ظالم مستبد

بسقوط دولته وزوال ملكه؛ في الغرب كان ذلك أو في الشرق.

٣ – الانحطاط الأخلاقي وانتشار المعاصي والفواحش عامل مشترك لسقوط الحضارات؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء:١٦]، وقد عُرِف عن الرومان معاشرتهم للبهائم وزال ملكهم، ويكثر اليوم في الغرب الشذوذ الجنسي؛ سواء بفعل قوم لوط بين الرجال، أو باكتفاء النساء بعضهن ببعض عن الرجال فيما يعرف بـ«السحاق»؛ وذلك مؤشر للتعجيل بسقوط حضارتهم وهيمنتهم.

٤ – ويتضح من المفهومين السابقين أن الحضارات غالبًا ما تسقط من داخلها لا بسبب العدو الخارجي.

٥ – الترف والرفاهية لا يدلان على قوة الحضارة وبقائها، بل الصحيح أن الترف هو مقدمة انهيار أي حضارة، وقد قرَّر العلامة ابن خلدون ذلك من قبل في مقدمته الشهيرة، وزوال حضارة أهل الأندلس المسلمين بسبب الترف وترك الجهاد في سبيل الله خير مثال على ذلك، والله سبحانه يقول: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام:٦]، وتبين الآية أن الرفاهية والترف يتسببان في كثرة الذنوب التي تؤدي إلى انهيار الحضارة.

٦ – التطور العلمي والتقني الذي يصيب الإنسان بالغرور ويجعله يظن أنه سيطر على الكون بعلمه إنما هو استدراج يأتي بعده الزوال؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

* * *

١١٧٥ – مفهوم ٢٥: من مظاهر سقوط حضارة الغرب:

كل من ينظر إلى الغرب الآن يلحظ بوضوح انتشار مظاهر تؤشر إلى سقوط هذه الحضارة في القريب العاجل؛ فقد اجتمع فيها ما تفرَّق في الأمم السابقة الهالكة من:

الكفر، والظلم، وانتكاسة الفطرة، وانهيار الأخلاق الفاضلة؛ ومن أهم هذه المظاهر:

١ – انتشار الدياثة؛ حيث لا يغار الرجل الغربي من رؤية الرجال الأجانب لامرأته وهي شبه عارية، وكذلك انتشار الشذوذ الجنسي في المجتمع الغربي كما أسلفنا.

٢ – ظهور اليمين المتطرف الداعي إلى التعصب والعنصرية، واستمرار عنصرية الأمريكان البيض ضد السود؛ كما نشاهد من تعامل الشرطة الأمريكية معهم.

٣ – التفكك الأسري والعزوف عن الإنجاب المؤدي إلى شيخوخة الغرب واضمحلال العناصر الفتية فيه.

٤ – كثرة الانتحار وانتشاره حتى أنه ظهرت له نشرات إرشادية، وكتب، وعيادات، وجمعيات، وهو أمر ينتشر بين ذوي الحس المرهف فيهم والمفكرين؛ لما يرونه من تخبط في حياة مجتمعاتهم وبعدها عن القيم والثوابت، ولكثرة الأزمات في شتى المجالات.

٥ – انتشار الأزمة الاقتصادية وتضخمها؛ فأمريكا فيها أكبر مديونية في التاريخ العالمي، مع أنها أكبر قوة اقتصادية في العالم، وفيها ملايين الفقراء والمشردين؛ وذلك أحد نتائج الربا المقيت كما قال تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فقد أحيط بثروات أمريكا كما أحيط بثمر صاحب الجنتين الذي ظن أنهما لن تبيدا أبدًا، وستباد هذه الثروات حتمًا كما بادت الجنتان. وقد أجرت الأمم المتحدة إحصاء عن أكثر الأمم ارتفاعًا في الدخل وأكثرها شقاء، فكانت النتيجة العجيبة أن أكثر الأمم ثراء هي أكثرها شقاء.

هذا، وقد ظهرت في الغرب كتب كثيرة تنذر بسقوط حضارته مثل كتب: «موت الغرب» لمؤلفه «باتريك بوكانين»، و«أمة من شعبين: السود والبيض» لمؤلفه «أندرو هيكر»، و«ليس للبيع بأي ثمن» لمؤلفه «سروس بيرو»، وقد ذكر فيه الانهيار الاقتصادي المتوقع لأمريكا، و«انتحار الغرب» لمؤلفيه: «ريتشارد كوك» و«كريس سميث».

* * *

١١٧٦ - مفهوم ٢٦: نهضة المسلمين المتوقعة:

الإسلام هو دين الله القائم إلى قيام الساعة رغم حقد الحاقدين وكره الكافرين؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣، والصف:٩].

وأمة الإسلام قد تمرض وتضعف، ولكنها لا تموت ولا تفنى؛ فهي تمرض بقدر ما تبتعد عن هدي ربها وتنشغل بالدنيا عن الآخرة وعن الجهاد في سبيل الله تعالى، ولكن لا تزال طائفة منها على الحق منصورة إلى قيام الساعة كما قال ﷺ: (**لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة**) [رواه الترمذي (٢١٩٢)، وابن ماجه (٦) واللفظ له، وأحمد (١٥٥٩٦)، وصحَّحه الألباني]، وبينما يوشك الغرب أن يسقط تنهض أمة الإسلام رويدًا رويدًا نحو العلا، وإن بدا عكس ذلك للعيان، ومما يدل عليه:

١ - انتشار الصحوة الإسلامية ورعب الأعداء من المسلمين رغم قلة حيلتهم، حتى يهاب اليهود حجارة أطفال فلسطين، والإسلام أكثر الأديان انتشارًا اليوم في العالم؛ فهو دين الناس في المستقبل.

٢ - نفوس البشر مفطورة على التوحيد ونبذ الشرك؛ مما يسهِّل على الدعاة إلى الله دعوة الناس إلى التوحيد والإسلام ونبذ الشرك والتثليث والخرافات.

٣ - ثورة المعلومات الحالية، وشبكات التواصل الاجتماعي؛ كل ذلك يسهم في نشر الإسلام والتعريف به في العالم أجمع.

٤ - التاريخ يثبت أن كل شعوب العالم إما دخلت في الإسلام -ولو جزئيًّا- أو دفعت الجزية وانضوت تحت حكمه وعاينت سماحته وعدله، فهو ليس بجديد عليهم.

٥ - استعلاء الإيمان في نفوس معتنقيه يُحصِّنهم من معتقدات الكافرين؛ فهم لا يتخلون عن دينهم ولو كانوا منهزمين أو خدمًا عند الكافرين، ويعلمون أن دينهم هو الحق وأنه لا يستوي بحال مع معتقدات الكافرين.

٦ - حرية الفكر لدى المواطن الغربي تتيح له المجال للتعرف على الإسلام.

٧ - الحرب على الإسلام تقوِّيه ولا تُرديه، بل تستنهض همم الشعوب لحفظ الدين.

٨ - وأخيرًا، فسنة الله ماضية في إهلاك الظالمين وإحلال المسلمين محلهم ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم:٦].

مفاهيم في

الثقافة الإسلامية

مفاهيم في الثقافة الإسلامية

١١٧٧ - مفهوم١: الثقافة الإسلامية:

هي معرفة علمية وعملية مكتسبة تنطوي على جانب معياري في التصور والسلوك، مستمد من شريعة الإسلام ومؤسس على عقيدته، وتشتمل هذه المعرفة على العلم بسبيل المؤمنين وسبيل المحرمين.

❃ ❃ ❃

١١٧٨ - مفهوم٢: الفكر:

في اللغة: فَكَّرَ في الأمر فكْرًا: أي أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى علم ما لا يعلم.

والفكرة: إعمال النظر في الشيء، والتفكُّر: التأمل؛ والتفكير: إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلها.

وفي الاصطلاح الشرعي: جاء (الفكر) بمعانٍ كثيرة كلها متقاربة؛ فمنها:

١ - **العلم**: كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠] ؛ أي لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا.

٢ - **الاعتبار**: كما في قوله تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ أي: يعتبرون بصفة صانع ذلك، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا خالق كل شيء ومالكه ومدبره، ومن هو على كل شيء قدير، ومِنْ الاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه.

٣ - **التدبر**: كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [الأعراف:١٨٤]؛ أي: أفلا يتدبر هؤلاء المكذبون بعقولهم أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جِنَّة به ولا خبل، وإنما هو نذير مبين.

٤ - **التذكر**: كما في قوله تعالي: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]؛ أي: ليتذكروا بما أنزلنا إليك.

١١٧٩ - مفهوم ٣: الفكر الإسلامي:

هذا المصطلح من الجمل الحَمَّالة التي لا بد فيها من التفصيل:

- فإن كان المقصود أن يعمل الإنسان فكره وعقله في تدبر آيات الله ﷻ المنظورة والمتلوة، ويستنبط منها الدروس والعبر، ويهتدي بها إلى توحيد خالقه وعبادته وحده، فهذا المعنى صحيح ومطلوب.

- وإن كان المقصود أن يستقل العقل والفكر بتفسير الأشياء والحكم عليها -وكأنه مصدر من مصادر التشريع- فهذا المعنى مرفوض؛ لأنه يؤدي إلى تقديس العقل وتقديمه على نصوص الوحيين إذا ظهر شيء من التعارض؛ مع أنه لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح؛ لأن مُنْزِل النقل هو خالق العقل، والإسلام ليس نتاج فكر إنساني، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد ولذلك يحسن تجنب استخدام مصطلح **الفكر الإسلامي** لإنه حمَّال.

* * *

١١٨٠ - مفهوم ٤: الغزو الفكري:

وهو تعبير دقيق يصور نوعًا من أنواع الغزو الذي يشنه الكفار على بلاد المسلمين، ولكن سلاحهم في ذلك ليس السلاح الحربي العسكري، وإنما هو غزوٌ للأفكار بأفكار منحرفة وشبهات قصدها حرف المسلمين عن دينهم وتشويه تصوراتهم ومفاهيمهم، وهو غزو ناعم قد لا يشعر كثير من المسلمين بخطره، ويختلف عن الغزو العسكري بأنه مستمر في جميع الأوقات لا يفتر كما يفتر الغزو العسكري.

وهذا النوع من الغزو لم يسلم منه بلد من بلدان المسلمين، ويستخدم فيه العدو كل إمكاناته الإعلامية والمعرفية والاقتصادية وغيرها فيما من شأنه أن يثير الشبهات ويزعزع عقيدة المسلمين وأخلاقهم بهدف إذابة الشعوب الإسلامية وسلخها عن دينها وهويتها لتصبح مسخًا مشوهًا تابعًا ذليلاً، يعطي قياده للكفرة وأوليائهم.

* * *

١١٨١ - مفهوم ٥: مظاهر الغزو الفكري:

للغزو الفكري الذي يشنه الكفار بشبهاتهم وشهواتهم مظاهر وصور كثيرة؛ من أهمها:

١- توجيه معاولهم لهدم عقيدة الولاء البراء التي يقوم عليها توحيد الله ﷻ وعبادته، والتهوين من شأنها، وإثارة الشبهات حولها، لأن أعداء الدين يعلمون أن الموالاة والمعاداة على أساس عقيدة التوحيد هي الحاجز الذي يحول بينهم وبين اختراق مجتمعات المسلمين والتأثير عليها، فما فتِئوا يسلطون عليها معاول الهدم والتلبيس والتضليل، ومن وسائل حربهم لهذه العقيدة ما يلي:

أ - الإنكار على من يبدي روح الكراهية والبغضاء للكفار، وزعم أن ذلك تناقض مع روح التسامح الديني والتعايش السلمي، بل ذهب بعض المتأثرين بهذه الدعوة إلى أن يحذف مصطلح الكافر ويستبدل به مصطلح (غير المسلم) أو (الآخر).

ب- استخدام معول الوطنية والقومية وجعلها هي الروابط التي تعقد عليها الموالاة والمعاداة، وليس على أساس التوحيد وعبادة الله وحده.

ج - الدعوة إلى الإنسانية؛ وذلك بأن يسود الإخاء والمحبة بين بني الإنسان دون التفريق بينهم على أساس الدين والعقيدة؛ لأن الدين شأن شخصي وعلاقة بين الإنسان وربه -زعموا- فلا دخل له في كونه يعقد عليه الولاء والبراء؛ لأن هذا يفرق بين بني الإنسان، وبناء على هذا يهون من شأن الكفار وكفرهم، فلا يتعرض لبغضهم أو ذكرهم وآلهتهم بالسوء والانحراف، ويترتب على هذه الدعوة الخبيثة إعادة النظر في مناهج التعليم في بلدان المسلمين؛ فتحذف كل فقرة تشير إلى معاداة الكفار أو جهادهم. كما يترتب على ذلك أيضًا فتح الكنائس والمعابد الوثنية في بلدان المسلمين بحجة الإنسانية، وكذلك السماح لكل نحلة بالتبشير لها والدعوة إليها، والمطالبة بحرية التدين وتغييره لمن أراد، ولو كان بالإلحاد وسب الدين، ويترتب أيضًا على هذه النحلة الكفرية تعطيل الجهاد لأنه يذكي الكراهية والإقصاء.

٢- محاربة التوجه السلفي -العلمي منه والجهادي- لأنه هو الذي يرفع راية التوحيد

ويحارب ما يضادها من الشرك والكفر والنفاق، ويدعو إلى معاداة الكفار والبراءة منهم. وفي المقابل يقوم الكفرة بإحياء ما يضاد عقيدة السلف من عقائد أهل البدع؛ كالصوفية، وأهل الغلو، ومن يسمونهم بدعاة الاعتدال؛ وذلك لتكون بديلاً للمنهج السلفي.

٣- إثارة الشبهات التي تدعو إلى الشرك الأكبر والسحر والتنجيم في كثير من الكتب والمجلات والقنوات والمواقع.

٤- إغراق أسواق المسلمين بأنواع من الأثاث والملابس والأدوات التي تحمل شعارات الكفر؛ كالصليب، وشعار عبدة الشيطان، وصور الساقطين والساقطات من فنانين ورياضيين.

٥- إثارة الشبهات على شعيرة الجهاد وتشويه صورته وصورة أهله؛ لأن أشد ما يخشاه الكفار من الإسلام وأهله هو روح الجهاد الكامنة فيه، والتاريخ شاهد على ذلك.

٦- تشويههم للتاريخ الإسلامي ورموزه: وقد استلم مهمة ذلك بعض المستشرقين والمنافقين من الباطنيين والعلمانيين؛ لأن الكفرة والمنافقين يعلمون أن التاريخ بالنسبة لأي أمة هو مجال فخرها واعتزازها، وموطن القدوة بعظماء التاريخ الإسلامي. ومن وسائلهم في التشويه:

أ- اختلاق الأخبار وإبراز المثالب.

ب- استخدام المنهج العلماني (اللا ديني) في البحث والنقد القائم على إنكار الوحي والنبوات واليوم الآخر، ولا وزن عندهم للمنهج الرباني.

جـ- الفهم الخاطئ المنحرف للنصوص ولي أعناقها.

د- الاعتماد على مجرد الهوى في النقد والتحليل لحوادث التاريخ، والاعتماد على مصادر موضوعة وكاذبة.

هـ- عرض جانب غير مكتمل من الحقيقة، ووضع الخبر في غير سياقه الصحيح.

و- جعل واقع المسلمين المخالف في بعض جوانبه في العصور المتأخرة هو الصورة الحقيقية للإسلام.

ز- إبراز الفرق الضالة ممن بدعهم كفرية أو أقل، وتضخيمهم دورهم والإشادة بهم.

٧- إثارة الشبهات حول الشريعة الإسلامية، ومحاولة إقصائها عن الحكم والتحاكم، وزعم أنها لا تصلح للأزمنة المعاصرة، وإرساء الأنظمة والقوانين الكفرية بدلاً منها، وهي المخالفة في أكثرها للشرع والعقل والفطرة.

٨- إثارة الشبهات حول المرأة وأحكامها وإفساد الأسرة المسلمة وغزوها بشتى الوسائل التي تبث الشبهات والشهوات.

٩- تسهيل الابتعاث لأبناء المسلمين وبناتهم إلى ديار الغرب الكافر؛ حيث يتم هناك غسل أدمغتهم، وشحنها بأفكار ومعتقدات منحرفة.

١٠- تسهيل السفر والسياحة للأسر المسلمة إلى بلاد الكفر والمجون؛ بحيث يتم ترويضهم مع الوقت لقبول الفساد وكسر هيبة المنكر.

١١- محاولة الهيمنة على مناهج التعليم في بلدان المسلمين وغزوها وشحنها بما يثير الشبهات والشكوك، وحذف ما فيها من العقيدة الصحيحة والجهاد وبناء الأخلاق.

١٢- الهجوم على الاقتصاد الإسلامي بشبهات يحلون بها الربا والمكاسب المحرمة التي تقوم عليها الرأسمالية المتوحشة.

١٣- نشر التعليم الأجنبي والمدارس العالمية في بلدان المسلمين، والتي يبث فيها الكفار مناهجهم وعقائدهم الكفرية وأخلاقهم الهابطة.

١٤ - إقامة مؤتمرات حوار يهدم من داخلها أصول الإسلام؛ كمؤتمرات الحوار بين الأديان والتقارب بينها، ومؤتمرات حقوق الإنسان وحقوق المرأة.

* * *

١١٨٢ - مفهوم ٦: الإسلام الوسطي المعتدل:

بعد أن فشل أعداء الدين من كفار ومنافقين في إقناع المسلمين بترك دينهم، وأنه دين باطل، اتجهوا إلى غزوٍ آخر؛ وذلك بإقرارهم بدين الإسلام وأنه دين حق ونبيه حق، ولكن ليس بالفهم الذي يفهمه اليوم بعض المتطرفين زعموا.

فبدأت طروحات تدعو إلى إسلام معتدل وسط، ويعنون بذلك إسلام متميِّع

هلامي مفرغ من مضامينه وثوابته حسب ما يراه الغرب الكافر ويدعو إليه، وأنشأت من أجل ذلك مراكز أبحاث للدعوة إليه؛ كمؤسسة راند الأمريكية، وقد تبنىَّ هذا الطرح فئة من منافقي الأمة من علمانيين وحكام طغاة وبعض المتميعين من الإسلاميين؛ إما جهلاً بحقيقة هذه الدعوة الخبيثة، أو هوى وشهوةً.

❋ ❋ ❋

١١٨٣ - مفهوم ٧: الخلل في التفكير:

يطلق الخلل ويراد به النقص أو الانحراف حسب ما يتعلق به؛ فيقال: عنده خلل في الصحة أو خلل في الكلام، ومن ذلك: الخلل في التفكير؛ حيث ينحرف عن التفكير السوي الصحيح النابع من الشرع، فيعتريه نوع من الخلل يميل به عن المسار الصحيح، ومنشأ ذلك في الغالب قصور جزئي أو كلي في التصور والاعتقاد، والتأثر ببعض الشبهات أو الشهوات. ويتبين ذلك بذكر بعض أنواع الخلل التي تصيب الفكر والتفكير؛ وذلك في المفاهيم التالية:

❋ ❋ ❋

١١٨٤ - مفهوم ٨: السلبية في التفكير:

ويسمى التفكير التشاؤمي؛ حيث يميل بصاحبه إلى التشاؤم والسوداوية في نظرته للأمور؛ فيغلِّب الشر، ويسيء الظن، ويغلب المساوئ على المحاسن.

وخطورة هذا النوع من الخلل في التفكير أنه يقود صاحبه إلى اليأس والإحباط والشكوك، وهذا يعارض ما جاء في الكتاب والسنة من الأمر بالتفاؤل، وتوقع الخير، وإحسان الظن؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال عن نبيه يعقوب ﷺ: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد جاء أثر في رفعه ضعف ولكنه صحيح بوقفه على عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إن للشيطان لمة من ابن آدم، وللملك لمة؛ فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الأخرى

فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ...﴾ الآية [البقرة: ٢٦٨]» [رواه الترمذي، وضعَّف الألباني رفعه، وجاء موقوفًا بسند صحيح في تفسير الطبري (٣/ ٨٨)].

* * *

١١٨٥ - مفهوم ٩: التفكير المضطرب أو المشوش:

هو التفكير غير المستقر؛ فتارة يقرر شيئًا وأخري يقرر ما يناقضه، فهو مشوش التفكير عاجز عن فهم وإدراك الموضوع الذي يفكر فيه، وبالتالي تجده عاجزًا عن التعبير عما يدور في ذهنه من أفكار بصورة واضحة.

ومن أسباب وجود هذا النوع من التفكير: السطحية وضحالة المعلومات عن الموضوع الذي يفكر فيه؛ حيث يكتفي بظواهر الأشياء ولا ينفذ إلى حقيقتها، ومثل هذا النوع من التفكير تجده يحكم على الناس بمظاهرهم، ومراكبهم، وأموالهم، وأقوالهم، دون معرفة سلوكهم ومعاملاتهم.

وقد يظهر التفكير المشوش المضطرب مؤقتًا في بعض الأزمات؛ كالحزن والهم الشديدين، أو شدة المرض، أو شدة الجوع، أو شدة الغضب، ويزول هذا الاضطراب بزوال هذه المزعجات؛ ولذلك نُهي القاضي أن يقضي وهو غضبان، ونهي عن الصلاة في حالة الجوع الشديد أو الحاجة الشديدة لبيت الخلاء.

* * *

١١٨٦ - مفهوم ١٠: التفكير التشككي والوسواسي:

وصاحبه هو المصاب في تفكيره بالوسوسة والشك؛ سواء كان في العبادات أو المعاملات، وهو ما يسمى في الطب النفسي بالوسواس القهري، وقد يشتد هذ النوع من التفكير حتى يصل إلى أصول الإيمان. وهذا النوع من التفكير يتعب صاحبه وكل من يتعامل معه؛ فهو دائمًا شاك في نفسه وعبادته، شاك في الناس، ومسيء الظن بهم. وعلاج ذلك: اللجوء إلى الله تعالى وسؤاله العافية من ذلك، والإكثار من الرقية بالفاتحة والمعوذات، وقد ينفعه الله ﷻ بالعلاج النفسي عند أطباء النفس.

* * *

١١٨٧ - مفهوم ١١: التفكير المولع بالتهويل والمبالغة في التصوير:

التهويل والمبالغة في التفكير غالبًا ما يكون في وصف الأشياء بمدح أو ذم، أو حب أو بغض. وهذا نوع من الخلل في التفكير وتصوير الأمور؛ حيث يلقي في روع السامع أو القارئ ضخامة وهول الأمر الذي يتحدث عنه في الوقت الذي يكون في حقيقته معتادًا، وهذا النوع من التفكير ناشئ من ضعف التوازن في أشكال العلاقة أو انعدامه؛ حيث إننا إذا أحببنا شيئًا وفتنا به حاولنا تأمين شرعية هذا الافتتان عن طريق كيل المدائح وإبراز المحاسن، وإذا أبغضنا شيئًا حاولنا أيضًا تسويغ هذا البغض عن طريق تضخيم المساوئ والعيوب.

وهذا النوع من التفكير متعارض مع العدل والتوازن، وهذا ما نبه إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال: «أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وابُغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما» [ينظر الترمذي (١٩٩٧) وصحَّحه الألباني].

❊ ❊ ❊

١١٨٨ - مفهوم ١٢: التفكير المتسرع:

العجلة من طبيعة الإنسان، ولكن المسلم يرشدها ويهذبها بتوجهات الكتاب والسنة؛ حيث جاءت النصوص بالتحذير من العجلة، والحث على التؤدة والحلم والأناة، والتثبت من الأمور -ولا سيما في الحكم على الناس- ومع ذلك فهناك من يُعرف عنه السرعة والعجلة في الحكم على الآخرين، واتخاذ القرارات غير المدروسة.

ومن سمات هذا النوع من العجلة في التفكير:

أ- سرعة تصديق الأفكار وقبولها ونشرها قبل دراستها.

ب- صاحب الفكر المتعجل تغلب عليه العاطفة ويفتقد العقلانية.

جـ- ويغلب عليه القبول السريع لما يوافق هواه، وليس همه البحث عن الحقيقة.

د- ويغلب عليه العجلة في العمل والحركة دون أن يعطي أهمية للتخطيط، وكذلك يكثر ندمه، وقد يبدأ في عمل ما ثم يتركه.

هـ- صاحب الفكر المتعجل قليل الاستشارة.

و- صاحب الفكر المتعجل مولع بالشائعات دون تمحيصها.

١١٨٩ - مفهوم ١٣: التفكير الأحادي (الأعور):

هذا النوع من التفكير، يقع فيه أكثر الناس إلا من رحمه الله تعالى ووفقه للعدل والشمولية في النظر والتفكير، ومن سمات صاحب هذه النظرة:

أ- أنه حينما يطرح معه أمر يفكر فيه من حيث القبول والرفض فإما تجده لا ينظر إلى الأمر من جميع جوانبه، بل إلى جانب واحد منه يوجه إليه تفكيره ويسيطر عليه، ويبني عليه قبوله أو رفضه؛ فنجده مثلاً ينظر إلى حسنات وإيجابيات هذا الأمر فحسب دون النظر إلى المفاسد والأضرار، فينشأ من ذلك القبول، أو أنه ينظر إلى المفاسد والسلبيات ويتجاهل الإيجابيات والحسنات، فيرد ذلك الأمر ويرفضه، مع أن النظرة الشاملة العادلة تقتضي الموازنة بين المصالح والمفاسد لينظر أيها يغلب ويتحقق.

ب- عندما يبحث صاحب هذا الفكر الأحادي في موضوع ليقرأه أو يكتبه فإنه يختار الأدلة التي يهواها وتميل معها عاطفته التي قررها مسبقًا ويركز عليها فينتقيها، ويحاول بترها عن الأدلة التي تعارض فكرته أو تشوش عليها؛ أي أن الانتقائية هي التي تغلب عليه بما يوافق هواه. وقد وقع في هذه النظرة كثير من أهل البدع الذين انتقوا الأدلة التي يرون فيها تأييدًا لهم، بخلاف أهل السنة الذين يجمعون الأدلة كلها ولا يضربون بعضها ببعض.

ج- صاحب النظرة الأحادية حين يُقوِّم الناس ينظر إلى جانب واحد من حياتهم -إما الحسنات أو السيئات، فيختار منها ما يوافق حبه أو بغضه للجهة التي يريد تقويمها، ويغض الطرف عما لا يوافق هواه.

د- صاحب النظرة الأحادية ينظر إلى المشاكل أو الاختلافات المعروضة على فكره بأن ليس لها إلا تفسير واحد ومسار واحد، وأنه ليس هناك إلا قول واحد، وما عداه مرفوض، مهما عرض عليه من البدائل؛ ولذلك يستخدم صاحب هذا الفكر ألفاظًا تدل على أحادية النظرة؛ فتراه يقول: العامل الوحيد، السبب الوحيد، التفسير الوحيد، القول الوحيد، العيب الوحيد، ...إلخ.

هـ- صاحب التفكير الأحادي يقع في التناقض والمعايير المزدوجة؛ حيث يرى عيوبًا يقع

فيها بعض الناس، ويغض طرفه عن العيوب نفسها حينما يقع هو فيها، أو يقع فيها من يحب؛ كما قيل: يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه، وكما قال الشاعر:

عين الرضى عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدي المساوئا

وهذه النظرة العوراء تبدو واضحة في سياسات الدول الكافرة والظالمة؛ حيث الكيل بمكيالين ومعياريين؛ مكيال لأنفسهم، ومكيال لأعدائهم؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢ - ٣]، ومن ذلك: استخدامهم لمصطلح **(الإرهاب)**؛ فيرمون به مخالفيهم -خاصة المجاهدين المسلمين حينما يقاتلون الكفرة الغزاة- أما ما يقومون به من قتل وتشريد وتعذيب وسجن للمسلمين فليس إرهابًا، بل نشر للحرية والديمقراطية، ومواجهة للإرهاب: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

و- ومن ذلك: النظر إلى الكفار والعصاة بعين واحدة؛ إما بعين البغض والإنكار، وإما بعين الرحمة والشفقة، والصحيح النظر إليهم بكلتا العينين: عين الشرع وحملهم عليه، وعين القدر والشفقة عليهم، ورحمتهم وإنقاذهم من النار.

* * *

١١٩٠ - مفهوم ١٤: التفكير التعميمي:

وهذا النوع من التفكير هو نتاج التفكير المتسرع العجل؛ حيث يغلب على تفكير بعض الناس تعميم المواقف التي يرتكبها بعض الأفراد على عموم الجنس الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد الآحاد؛ كمن يرمي أبناء كل القبيلة أو أبناء كل الوطن بمواقف بعض أفرادها بمجرد وقوع بعض الأفراد من هذه القبيلة أو الوطن في هذه المواقف؛ وهذا نوع من الظلم والعدوان.

* * *

١١٩١ - مفهوم ١٥: التفكير المغرور:

وهذا نوع شائع عند كثير من المتفلسفة وأهل الكلام، أو بعض من عنده نتف من العلم والثقافة؛ حيث يبلغ به الاعتداد بعقله وتفكيره، والثقة المطلقة بنفسه، أن يرى أنه هو صاحب الفكر النيِّر والعقل الناضج، وقد بلغ بأهل الأهواء والبدع من أهل الكلام

أو المنطق أن يُقدِّموا ما اهتدت إليه عقولهم وتفكيرهم على النقل ونصوص الوحيين، فوقعوا في محاذير عظيمة في اعتقاداتهم، فضلوا وأضلوا.

وقد لا يكون المغرور بعقله من المبتدعة، بل من أهل السنة، ولكن ثقته المفرطة بتفكيره تجعله يتعصب لرأيه وفهمه للنصوص، ويستهين بالراسخين في العلم ويستخف بهم.

* * *

١١٩٢ - مفهوم ١٦: التفكير المقلد الجامد:

وهذا في الغالب ينتشر بين العوام الجهلة، أو من بعض المنتسبين للجماعات الدعوية، أو متعصبة المذاهب ممن حصروا أنفسهم في أقوال المذهب، ولو كان بعضها مصادمًا لأدلة صريحة صحيحة، أما من اتبع الحق وقلَّد فيه غيره بدليله فهذا ممدوح مأجور.

وخطورة التفكير الجامد أنه يجعل صاحبه إمعة وتابعًا معطلاً لعقله الذي أنعم الله عَزَّوَجَلَّ به عليه ليصل عن طريقه إلى الحق ومرضاة الله تعالى، وقد نعى الله عَزَّوَجَلَّ على المشركين تعصبهم لما كان عليه آباؤهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، كما يلحق بهذا النوع من التفكير صاحب التفكير الخامل الذي يعتمد على تفكير غيره وإبداعاته، قانعًا بما هو فيه من الخمول والجمود.

* * *

١١٩٣ - مفهوم ١٧: التفكير التسويغي التأويلي:

وهذا النوع من التفكير يوجد عند بعض الناس؛ فدأبه دائمًا تسويغ أخطاء نفسه وتبريرها، أو أخطاء من يحب، والتبرير هو حيلة كل مخطئ؛ فحتى أعتى المجرمين وأشدهم أذية يجد دائمًا ما يقوله من التبريرات لجرائمه التي يضلل بها الناس، أو يدافع بها عن نفسه أمام القضاء.

وباب التأويل باب خطير، وجناياته في التاريخ الإسلامي كبيرة وشنيعة؛ فما من جريمة قتل أو إفساد إلا تجد من فاعلها تأويلًا لها وتبريرًا بشبهات عقلية وشرعية، وهل قتل عثمان وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إلا بتأويل وتسويغ؟! وهل وقعت الحروب بين المسلمين إلا

بتأويل وتسويغ؟! وهل قتل وسجن علماء الإسلام وابتلوا في ذات الله تعالى إلا بالتأويل الفاسد والتسويغ الفاجر؟!

وهدف التفكير التأويلي التسويغي هو الهروب من مسؤولية ترك الواجب أو فعل المحرم والتهرب من المسؤولية، وهو وسيلة لإسقاط الأخطاء على الغير؛ كمن يبرِّر تخلف المسلمين اليوم وضعفهم بقوة عدوهم وهيمنته، وغزوه لبلاد المسلمين عسكريًا وفكريًا فحسب، ولا يرجع ذلك في المقام الأول إلى الخلل الداخلي في نفوس المسلمين وصفوفهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

* * *

١١٩٤ - مفهوم ١٨: التفكير الهابط الدنيء:

وهو ذلك التفكير الذي يحصر صاحبه في الأمور الدونية وسفاسف الأمور البعيدة عن معاليها؛ كإدمان التفكير في زهرة الحياة الدنيا من مال وجاه ونساء، بل قد يتجاوز ذلك عند أصحاب هذا التفكير إلى الشهوات المحرمة وكيفية الوصول إليها، وشتان بين من فكره في معالي الأمور؛ كأمور الآخرة والاستعداد لها بالعمل الصالح، وكأمور الدين والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والجهاد ونصرة الدين وأهله، وبين من فكرة يحوم حول الشهوات والأماني الباطلة والخواطر الرديئة، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهذا معنى قول بعض السلف: القلوب جوالة؛ فقلب يطوف حول الحُشِّ، وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش، فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدنسها في أعمال الدون، واشتغالها الدائم بملاذها وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له» [مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٥)].

* * *

١١٩٥ - مفهوم ١٩: التفكير الناقد:

وليس المقصود هنا الفكر الناقد بعدل، الذي يبحث عن الحق؛ فإن المطلوب من المسلم تقليب أي فكرة أو مشروع ليعرف ما له وما عليه وحتى يكون على بصيرة من أمره، فمن كان دافعه النصح لنفسه ولغيره فهو على خير، وإنما المقصود هنا بكونه خللاً في التفكير هو الفكر الناقد لذات النقد أو للتشفي، بعيدًا عن أصول النقد الشرعي الصحيح؛ حيث نرى مثل صاحب هذا التفكير قد شغل فكره في أكثر أحيانه بنقد الداعية الفلاني، والعالم الفلاني، والمشروع الدعوي أو الخيري؛ محاولاً تصيُّد العيوب والثغرات ونشرها، والتنفير من أصحابها أو التفكُّه بها في المجالس، وهذا في الغالب ناشئ عن آفات قلبية؛ كالحقد والحسد والتشفي، ومثل هذه الآفات هي التي توقع في الولع بالنقد وتصيد العثرات، والتي لا بد أن توقع صاحبها في الغيبة والنميمة والسخرية المجمع في الشرع على حرمتها.

ومن آفات وعقوبات هذا النوع من التفكير أن ينسي الله ﷻ صاحبه نفسه وإصلاح عيوبها، لأن من علامات توفيق الله ﷻ للعبد انشغاله بعيوب نفسه عن عيوب الناس، ومن علامة الخذلان انشغاله بعيوب الناس عن عيوب نفسه.

* * *

١١٩٦ - مفهوم ٢٠: التفكير العاطفي الانفعالي:

ويغلب على صاحب هذا الفكر الدوافع العاطفية، وفي مثل هذه الأحوال يضعف سلطان العقل والعلم، ويظهر هذا مثلاً عند شدة الحب أو البغض، أو شدة الغضب، أو شدة الحزن والهم؛ فتغطي مثل هذه الضغوط على العقل، وتدفع صاحبها إلى مواقف وقرارات خاطئة مغفلاً فيها المآلات والعواقب التي تترتب على هذا النمط من التفكير.

ويساهم الإعلام المضلل في تأجيج مثل هذه العواطف بما يعرضه على الرأي العام من أخبار وأفلام محبوكة تجعل كثيرًا من الناس يتأثر عاطفيًا، وتجعله يقف مع أحداث جزئية صغيرة مغفلاً أحداثًا كبيرة تستحق الوقوف عندها، ومن أمثلة هذا التفكير العاطفي اهتمام صاحبه بالاستثنائي أو الشاذ، وإهمال أو إلغاء القواعد الثابتة، وبخاصة

إذا كان هذا الاستثنائي يلبي طموحات بعض الناس ويوافق رغباتهم؛ كما هو شأن أهل البدع الذين يهدمون الجزئي كليًّا ويولعون بالمتشابه ويتركون المحكم، وكمن يحكم على شخص بالخيرية لمجرد قيامه بمشروع خيري -كمسجد أو مدرسة- وينسيه هذا فسق هذا الشخص أو أعماله الإجرامية للصد عن سبيل الله، وعكس ذلك من يحكم على شخص بالانحراف لوقوعه في زلة أو زلتين متناسيًا أعماله الصالحة وبلاءه الحسن.

* * *

١١٩٧ - مفهوم ٢١: الخلل في ترتيب الأولويات:

يتميز عصرنا بكثرة مشاكله وتعقيداته، وكثرة الواردات على الفكر؛ حتى لا يدري المرء بأيها يبدأ، وأيها يقدم عند التزاحم، وهنا يقع الكثير منا في الخلل في ترتيب هذه الأولويات، فيقدم الـمُلِح على المهم، والمهم على الأهم، وبقدم ما مصلحته أقل على ما مصلحته أكثر، وما مفسدته أكبر على ما مفسدته أقل.

وقد قعَّدَ أهل العلم قواعد عظيمة في فقه الموازنات وفقه الأوليات والمآلات؛ يتم بها الترتيب الصحيح بين الأمور، وذلك عند تعارض المصالح مع بعضها البعض؛ فيقدم المصلحة المتحققة على المصلحة الموهومة، وعند التساوي في تحقق وقوعهما يقدم المصلحة الكبرى على الصغرى، وكذلك الحال عند تعارض المفاسد مع بعضها البعض يقدم ترك المفسدة المتحققة على الموهومة، وعند تساويهما في التحقق يقدم ارتكاب المفسدة الصغرى لتلافي المفسدة الكبرى، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين؛ فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخبرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعًا، ودفع شر الشريين إذا لم يندفعا جميعًا» [مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٣)].

وقد يقول قائل: ما علاقة فقه الموازنات والأولويات بالخلل في التفكير، وهي مسائل عملية تطبيقية وليست فكرية؟

والجواب أن يقال: إن مبدأ كل عمل وإرادة هو التفكير والنظر، فإذا كانت

الأولويات مرتبة في الفكر بحيث يبدأ بالأهم على المهم، والمتحقق وقوعه على الموهوم فإن ذلك ينعكس على عمل مرتب في الواقع سلبًا وإيجابًا.

ولإكمال الفائدة نورد بعض الأمثلة على الخلل في ترتيب الأولويات:

١- تقديم الجهاد الكفائي على طاعة الوالدين، فكيف بمن يقدم خدمة أصحابه على خدمة والديه.

٢- تقديم المحافظة على ورد من ذكر أو نافلة على إغاثة ملهوف، أو زيارة مريض، أو إكرام ضيف، أو حق زوجة.

٣- تقديم طاعة لا يفوت وقتها على طاعة يفوت وقتها؛ كمن يقدم أداء الأذكار الواردة بعد صلاة الفريضة على صلاة الجنازة، وكمن يلقي درسًا أو يُعلِّم علمًا في عشية عرفة ويقدمه على الدعاء والتضرع في هذه العشية، أو يقدم الدرس العلمي على متابعة المؤذن، والأمثلة على ذلك كثيرة.

٤- الانشغال في وقت الجهاد العيني ببعض النوافل، وتقديمها على الجهاد.

٥- الانشغال ببعض الطوائف الإسلامية المرتكبة لبعض المخالفات الشرعية والتصدي لها وإظهار العداوة لها، وتقديم ذلك على مقارعة الكفار والمنافقين الذين يريدون سلخ الناس عن دينهم وطمس هويتهم الإسلامية، وترك مجاهدتهم؛ سواء بالبيان أو السنان.

٦- الانشغال بدعوة الناس وإهمال دعوة الأهل والأولاد، أو تقديم بعض الأباعد على الأقارب، فكيف بمن ينشغل عنهم من أجل الدنيا.

٧- الاهتمام بأعمال الجوارح وإهمال أعمال القلوب الواجب منها والمحرم.

٨- الانشغال بعيوب الناس وإهمال عيوب النفس.

٩- تقديم مصالح الأولاد الدنيوية من طعام وشراب وصحة ودراسة على مصالحهم الدينية، وعدم العناية بها.

١٠- تقديم الدنيا وزينتها على أمور الدين والآخرة.

١١٩٨ - مفهوم ٢٢: تقارب الأديان والتسامح الديني:

وهي الدعوة الخبيثة التي تهدف إلى تمييع الإسلام القائم على توحيد العبادة لله وحده وتجريد المتابعة للرسول ﷺ؛ وذلك لنقبل ونجتمع مع الملل الكافرة القائمة على الشرك والكفر بالله ﷻ ونسكت عن كفرها بحجة أن هذه الأديان تؤمن بخالق واحد للكون، ولكونها أديان سماوية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]؛ إذ إن دين الله واحد وليس عدة أديان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، فلا لقاء ولا تقارب بين من يقول: «لا إله إلا الله» ومن يقول: «إن الله ثالث ثلاثة»، أو «إن الله هو المسيح ابن مريم» أو «عزير ابن الله». لقد كفَّر الله ﷻ كل من يقول هذا الكلام فهل يعقل من مسلم يعرف ذلك أن يقبل هذه الدعوة الخبيثة؟! بل الواجب البراءة منها وفضحها، وبيان أنها تهدم عقيدة الولاء والبراء في الإسلام.

* * *

١١٩٩ - مفهوم ٢٣: الإبراهيمية:

وهي دعوة خبيثة أيضًا يريد دعاتها أن يندمج الإسلام القائم على التوحيد مع اليهودية والنصرانية القائمين على الكفر والشرك بالله تعالى؛ بحجة أن جميع هذه الأديان تؤمن بإبراهيم عليه السلام، وأن جميع هذه الأديان تنتهي إليه، زعموا.

وهذا ما يطرح اليوم بما يسمى (**الإبراهيمية**)، ويكفي ويشفى في هلهلة هذه الدعوة الخبيثة ونقضها من أساسها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧ – ٦٨].

* * *

١٢٠٠ - مفهوم ٢٤: الحوار المقبول مع الكفار:

الحوار الجائز -بل الواجب- مع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم هو ما وجَّهنا إليه ربنا ﷻ في سورة آل عمران بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا

فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

* * *

١٢٠١ - مفهوم ٢٥: أهداف الدعوة إلى وحدة الأديان وتقاربها:

تهدف الدعوة إلى وحدة الأديان أو تقاربها إلى عدة أهداف، أهمها:

١- الصد عن دين الإسلام، ولا سيما بعد أن رأى أئمة الكفر أن الناس يدخلون في الإسلام زرافات ووحدانًا، فأرادوا التلبيس على أهل ملتهم بادِّعاء أن الفروق بين الأديان شكليه، وكلها تؤمن برب واحد، فلا داعي لتغيير الدين.

٢- هدم أصول الدين الإسلامي، وبخاصة عقيدة الولاء والبراء التي تستلزم بغض الكافر وتكفيره والبراءة منه ومن كفره، وهذا غاية ما يسعون إليه ليتسنى لهم بهدم هذا الحاجز العظيم أن يغزوا بلاد المسلمين عسكريًا وفكريًا، ولا سيما في هذه الأزمنة التي أدرك المسلمون فيها عداوة الكفار وحقدهم على الإسلام والمسلمين، وما قاموا به من تدمير لبلدان المسلمين وقتل وتشريد، فأرادوا بهذه الدعوة تدجين المسلمين ومنعهم من الجهاد والمقاومة، وقبول ما عند الكفار من عقائد باطلة.

٣- تنصير أبناء المسلمين؛ فقد طرح مجلس الكنائس العالمي أن الحوار وسيلة مفيدة للتنصير.

٤- إسقاط جوهر الإسلام واستعلائه على جميع الأديان؛ وذلك بجعله -عن طريق الحوار والتقارب- في مرتبة مساوية للملل المحرفة والشركية.

٥- الاعتراف بأديانهم وتصحيحها، واحترام عقائدهم، وتجنب البحث في المسائل العقدية الفاصلة للحفاظ على استمرار الحوار.

٦- الدعوة إلى نسيان الماضي التاريخي والتخلص من آثاره؛ كالذي حصل من الصليبيين في حروبهم على المسلمين، وما قاموا به من قتل وتشريد، والدعوة إلى فتح صفحة جديد يسودها المحبة والعدل والتسامح -زعموا- ولكن هذا لا ينطلي على المسلم الواعي لدينه وواقعه؛ فإنه يرى الكفار ما يزالون يغزون بلدان المسلمين، ويخربون ديارهم، ويقتلون أبناءهم، ويسرقون أموالهم؛ فكيف ينسى هذه المظالم والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

١٢٠٢ - مفهوم ٢٦: مقاومة هذه الفتنة:

إنه لا يقاوم هذه الفتنة إلا الاعتصام بكتاب الله ﷻ وتدبُّره؛ ففيه بيان بطلانها بكل وضوح وجلاء، وفيه بيان سبيل المؤمنين، وبيان سبيل المجرمين؛ فمن كان كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مصدره في الهداية والتلقي لا تنطلي عليه مثل هذه الدعوات الخبيثة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال ﷺ: **(تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله)** [موطأ مالك والحاكم بسند جيد].

والمتعين على علماء الأمة ودعاتها بيان حقيقة هذه الدعوة الخبيثة للناس؛ فهذا ما أخذه الله على أهل العلم بأن يبينوا الحق والباطل للناس ولا يكتمونه؛ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

❊ ❊ ❊

١٢٠٣ - مفهوم ٢٧: التسامح الديني:

التسامح الديني في مفهوم الإسلام هو العدل والعفو عند المقدرة لمن يستحق، والوفاء بالعهود، أمَّا في مفهوم الجاهلية الكافرة فيعني إبطال عقيدة الولاء والبراء ومداهنة الكفار، والتنازل لهم عن الأوطان، وقبول أفكارهم، والاستسلام لهم وترك مقاومتهم وجهادهم؛ هذا ما يطالب به الكفار باسم التسامح والسلام، أما من جهتهم فلا ضير عندهم أن يغزوا بلاد المسلمين، ويقتلوا أبناءهم، ويستولوا على خيراتهم، ويُبدِّلوا دينهم.

ومن التسامح الذي يطالب به الكفار وأذنابهم من المنافقين: نبذ سياسة الإقصاء والكراهية للكفار، وعدم تسمية الكافر بمسمى الكافر الذي سمَّاه الله به، بل تسميته بالآخر أو غير المسلم، وكل هذا تبديل وتحريف لما أراده الله ﷻ من المسلمين من العداوة لأعداء الله من الكافرين وعدم موالاتهم، والبراءة منهم ومن كفرهم.

❊ ❊ ❊

١٢٠٤ - مفهوم ٢٨: الإنسانية:

الإنسانية بمفهوم أعداء الإسلام تعني إذابة الدين وعقيدة التوحيد القائم على الولاء والبراء، وألا يكون عليها معقد الموالاة والمعاداة؛ لأن الناس أخوة جميعًا في الإنسانية، فلا ينبغي أن يفرق الدين بينهم، بل يترك الدين جانبًا فهو أمر شخصي وعلاقة بين العبد وربه محلها القلب، ولا ينبغي أن يشكل الدين مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين المخالفين لك في العقيدة، ولا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر وبين الإخوة في الإنسانية.

هذه حقيقة هذه الدعوة الخبيثة، ومع ذلك تجد من ينخدع بها ويؤمن بها غافلين عن حقيقتها وأنها تدعو إلى التحلل من الدين، وهي دعوة يبثها شياطين الإنس والجن لأمر يراد، ألا وهو تعطيل التوحيد وعقيدة الولاء والبراء، وإلغاء شعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى، وهنا نخاطب دعاة الإنسانية من الكفرة القتلة وأذنابهم من المنافقين الخونة لنقول لهم: أين إنسانيتكم وما تفعلونه، وفعله سلفكم في ديار المسلمين في بقاع الأرض من: قتل، وتدمير، وغزو، وظلم؟! أين الإنسانية والسماحة التي تنادون بها؟!

❋ ❋ ❋

١٢٠٥ - مفهوم ٢٩: أهداف ووسائل تفصيلية لدعوة «الإنسانية»:

للدعوة إلى الإنسانية ونبذ الولاء والبراء على أساس الدين عدة أهداف؛ أهمها:

١- هدم أوثق عرى الإيمان: الولاء والبراء، ومداهنة الكفار وترك عداوتهم وجهادهم.

٢- إعادة النظر في مناهج التعليم والإعلام في بلدان المسلمين، وحذف كل ما يشير إلى عداوة الكافر وكرهه وجهاده، وقد حصل هذا والله المستعان.

٣- المطالبة بفتح الكنائس والمعابد الوثنية في بلاد المسلمين، ولا سيما في جزيرة العرب.

٤- فتح المجال للتنصير في بلدان المسلمين.

٥- حرية التدين وتغيير الدين، وحرية الرأي والتفكير ولو كان بالإلحاد وسب الدين.

٦- محاصرة التوجه السلفي المستعصي على هذه الدعوات المضللة، ومحاربته بالترغيب والترهيب، وتشجيع الحركات الصوفية والبدعية ودعمها.

❋ ❋ ❋

١٢٠٦ - مفهوم ٣٠: الماسونية (البناؤون الأحرار):

منظمة عالمية شديدة الغموض والسرية، ظهرت في اسكتلندا عام ١٥٩٨م، ثم في إنجلترا في بدايات القرن السابع عشر الميلادي؛ حيث بدأت على أنها نقابة للبناة المهرة، ووصفت نفسها بأنها رابطة فلسفية خيرية شعارها: «حرية، إخاء، مساواة»، وتقبل انضمام جميع الناس إليها بغض النظر عن دياناتهم، وتسعى وتحرص على ضم المتنفذين في العالم تحت لوائها. ويتشارك أفرادها عقائد وأفكارًا واحدة فيما يخص: الأخلاق، وتفسير الكون والحياة وخالقهما، وما يُسمَّى (الما ورائيات) [ينظر موسوعة ويكيبيديا].

وغير خاف ما قامت به هذه المنظمة من مؤامرات في العالم أجمع -وخاصة بلاد المسلمين- وما تنشره من أفكار خبيثة هدَّامة ما زالت مستمرة حتى الآن، والغرض الرئيس منها: الصد عن سبيل دين الإسلام ومنهجه القويم، وهدم عقيدة الولاء والبراء بزعم توحيد العالم تحت لواء الإخاء والإنسانية، كما تهدف إلى السيطرة على العالم أجمع وكل مقدراته، وهي بذلك تخدم اليهود الذين يقومون على الإفساد في الأرض ويرغبون في تلك السيطرة على العالم.

❊ ❊ ❊

١٢٠٧ - مفهوم ٣١: الوجود الكوني والإنساني:

لقد تاه فلاسفة الغرب والشرق وظلوا عقودًا بل قرونًا يبحثون في حقيقة الكون والإنسان؛ مصدره وعاقبته ومصيره، فلم يزدادوا إلا ضلالاً وتيهًا، بينما هدى الله المؤمنين إلى بيان هذه الحقائق الكبرى في بضع آيات من كتابه الله؛ لأن خالق الكون والإنسان ومنزل القرآن هو الله وحده لا شريك له: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، فأخبرنا في كتابه العزيز أن الكون كله من خلق الله تعالى، وأنه المالك والمدبر له، أراد الله ﷻ أن يكون فكان، وأودعه سبحانه نواميسه وقوانينه التي يتحرك بها، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، فلا تصطدم ولا تتعارض، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة إلى أن يشاء الله تعالى.

وأخبر أن هذا الكون -علويه وسفليه- إنما خلقه الله ﷻ بالحق وأجل مسمى، وأنه

مستسلم لربه ولمشيئته التي تدبره والقدر الذي يحركه، وأن ذلك كله بعلم الله تعالى وكتابته لذلك، وإرادته له، وخلقه له وأن ذلك كله لحكمة عظيمة وغاية جسيمة، وأنه سبحانه لم يخلق هذا الكون عبثًا ولا لهوًا؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥].

وأما الوجود الإنساني فقد بيَّن لنا خالق الكون أنه خلق الإنس والجن لغاية عظيمة هي عبادته وحده لا شريك له؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبيَّن لنا في كتابه الكريم أنه خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من ماء مهين، وأنه يصير إلى الله ﷻ، ويُبعث بعد موته في اليوم الآخر ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]. فالحمد لله على نعمة الإسلام ونور القرآن.

* * *

١٢٠٨ - مفهوم ٣٢: الحياة الدنيا والآخرة:

الحياة في ميزان الشرع ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة التي تمثل عمر جيل، وليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية؛ إن الحياة في ميزان الشرع تمتد طويلاً في الزمان، وتمتد نوعًا في الحقيقة عن تلك الفترة التي يراها من يُغفِلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها، ويتلذذون بحياتهم الدنيا فقط؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إذن فالحياة في ميزان الشرع تشمل هذه الفترة المحددة المشهودة في الدنيا وفترة الحياة الأخرى التي لا نهاية لها، ويضيف إلى هذه الأرض الفانية جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ونارًا تسع الكثرة من الأجيال التي عمرت وجه الأرض آلاف السنين.

هذه حقيقة الحياة في حس المؤمن بالله واليوم الآخر، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فيتضاءل تصورهم للوجود وتصورهم لحياة الإنسان، وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الضئيل من هذه الحياة الدنيا.

ومن هذا الاختلاف في التصور والفهم يبدأ الاختلاف في الأهداف والقيم والنظم، فالحمد لله الذي هدانا لهذا الدين الذي هو منهج حياة متكامل متناسق، وتتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه تصورًا واعتقادًا وخُلُقًا وسلوكًا وشريعة ونظامًا.

* * *

١٢٠٩ - مفهوم ٣٣: الجزاء في الدنيا والآخرة:

ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا؛ إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة، فإذا تنكب المرء هذا الطريق فسدت دنياه وآخرته. هذا الطريق الوحيد هو: الإيمان والتقوى، والإيمان باليوم الآخر، وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا.

والدنيا مزرعة الآخرة، ولا تعارض بين عمارة الحياة الدنيا في ضوء منهج الله ﷻ وبين اليوم الآخر؛ فالدنيا عمل والآخرة جزاء وحساب، وعندما تتضح هذه الحقيقة فإن المؤمن سيَسْلم من الفصام النكِد بين الدنيا والآخرة المشاهد عند كثير من الناس، والذي ما نشأ إلا من فساد التصور لمفهوم العبادة الشامل في الإسلام؛ حيث صرنا نرى من يعتزل الدنيا ويترك عمارتها بالإصلاح، ويترك الفساد يدب فيها بحجة الزهد والإقبال على الآخرة وتهذيب النفس وتزكيتها، وقابل ذلك انحراف آخر ألا وهو الانشغال والانهماك في الدنيا وزخرفها، وكأن الحياة فيها خالدة، حتى آل ذلك إلى نسيان الآخرة والغفلة عنها وعن الاستعداد لها.

* * *

١٢١٠ - مفهوم ٣٤: الافتراق بين من يؤمن باليوم الآخر ومن لا يؤمن به أو يغفل عنه:

يقول الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ومن ثم فلا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها؛ لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة؛ ولا يتَّفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون؛ فلكلٍّ منهما ميزان، ولكلٍّ منهما زاوية للنظر، ولكلٍّ منهما

ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال؛ هذا يرى ظاهرًا من الحياة الدنيا، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء.

* * *

١٢١١ - مفهوم ٣٥: العمل:

هو كل جهد مشروع يبذله الإنسان للحصول على منفعة مادية أو معنوية، دنيوية أو أخروية، سواء كان هذا الجهد جسديًّا؛ كالعمل في الزراعة والصناعة والتجارة وأعمال البناء، أو كان فكريًّا ومعنويًّا؛ كالتعليم، وإعداد البحوث، وممارسة القضاء.

والإنسان بطبيعته عامل حارث وهمَّام، ويُعدُّ العمل في نظر الإسلام عبادة يثاب عليها العامل إذا أراد بعمله وجه الله ﷻ، وكان العمل مشروعًا؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وبهذا الفهم فإن الإنسان بطبيعته شخصية إيجابية عاملة كادحة، ولكن من الناس من يكون عمله وكدحه في مرضاة الله ﷻ، ومنهم من يكون عمله في سخط الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال ﷺ: **(كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)** [رواه مسلم (٢٢٣)]، فلا يجوز للمسلم ترك العمل باسم الزهد والتفرغ للعبادة، أو التوكل على الله.

وللعمل في الإسلام منزلة عالية ينال فيها العامل الأجر والثواب إذا نوى فيه التقرب إلى الله تعالى، فالمطلوب من المسلم أن ينزل إلى ميادين الحياة عاملاً مثابرًا؛ سواء كان ذلك في طلب الرزق للتعفف عن الناس، أو في محاربة الفساد وأهله بالبيان والسنان، وعليه الالتزام في ذلك كله بحدود الله وشرعه، وابتغاء وجهه. وقد نظَّم الإسلام آداب المعاملات بين الناس، ووضع لها حدودًا وتشريعات، وحث الناس على

العمل وترك العجز والكسل، وأمرهم بإتقان العمل والإحسان إلى الخلق.

والأعمال قسمان: صالح وسيئ، وعلى رأس الأعمال الصالحة الإيمان، وهو قول وعمل، ثم يأتي بعد الإيمان فعل الفرائض والواجبات وترك المحرمات، ومن أَجَلِّ أعمال الإيمان: موالاة المؤمنين والبراءة من المشركين ومعاداتهم، وعلى رأس الأعمال السيئة: الكفر والنفاق وما ينجم عنهما من الأعمال والأحوال السيئة. ويتحقق الكفر بالتكذيب والجحود، وبالإباء ورد الشريعة والاستكبار، وباستحلال شيء مما حرم الله تعالى أو تحريم ما أحله الله عَزَّوَجَلَّ، وبكفر الإعراض، وبالشك.

* * *

١٢١٢ - مفهوم ٣٦: الاختلاف بين المؤمن والكافر من حيث عمل كلٍّ منهما وحرثه:

يشترك كل من المؤمن والكافر في إرادتهما للعمل، ولكنهما يختلفان في عدة أمور؛ منها:

١-اختلاف غاية كل منهما ومراده ومحبوبه.

٢- اختلاف الوسائل والأسباب التي يتعلق بها القلب لتحقيق غايته ومراده.

٣- الاختلاف في الإقرار بحقيقة الافتقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ في كل حال.

* * *

١٢١٣ - مفهوم ٣٧: فردية التبعة والجزاء:

قال سبحانه: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٨ - ٤١]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لا يحاسب الناس بالجملة والعموم، إنما يحاسبهم فردًا فردًا، كلًّا على عمله وفي حدود واجبه: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ولا يضر المرء ضلال من ضل إذا اهتدى هو وأدّى ما عليه من البلاغ، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، كما أنه لا ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح.

* * *

١٢١٤ - مفهوم ٣٨: الحضارة والبيئة:

الحضارة ضد البداوة، وتطلق في اللغة ويراد بها التقدم، وقد غلب على كثير من الناس التقدم في الجانب المادي، ولكن الحضارة والتقدم يختلفان في حقيقتهما في ميزان الإسلام وشريعته عنهما في موازين الكفر والجاهلية من غرب وشرق.

❋ ❋ ❋

١٢١٥ - مفهوم ٣٩: الحضارة في مفهوم الكفر المادي:

بينما تقوم الحضارة في الميزان الرباني على قاعدتي: الإيمان بالله واليوم الآخر والعلم؛ فإن الغرب -والكفار بعامة- على العكس من ذلك؛ حيث لم يستطيعوا الجمع بين العلم والإيمان، فأقاموا حضارتهم على الكفر والإلحاد، فجاءت دمارًا على البشرية.

والحضارة في الإسلام لها هدف وغاية قائمة على التوحيد والعدل، بينما حضارة الكفار لا هدف لها إلا البغي والتسلط والتمتع بمتاع الدنيا الزائل المنطلق من كل قيد؛ فلا حياة أخرى، ولا حساب، ولا عذاب. ويكفي أن نستعرض ما قاله الغرب عن عظمائه الذين قامت عليهم حضارتهم، ونقف على صفاتهم لنعرف حقيقة الغرب الكافر ورموزهم التي يفتخرون بهم في حضارتهم:

فإذا كان «هيجيل» عنصريًا متعصبًا إلى حد أنه لما كتب ما سماه «العالم الشرقي» لم يذكر الإسلام من قريب ولا بعيد، وإذا كان «فولتير» ملحدًا، وإذا كان «جوليان هكسلي» داروينيًّا، وإذا كان «برتراند رسل» يفضل النازية على الرأسمالية، وإذا كان مؤلفا كتاب «انتحار الغرب» أحدهما قسيس متعصب، وإذا كان «فرانز كافكا» يهوديًا حائرًا، وإذا كان «كارل ماركس» مدرسيًا، ملحدًا و«توماس مور» خياليًا، وكان «توما» كذَّابًا، وإذا كان «روسو» مخفقًا في التربية، وإذا كان «جميس جويس» مجدفًا، وإذا كان «ديفيد هيوم» شكَّاكًا، وإذا كان «كانت» حالمًا، وإذا كان «أينشتاين» كلاسيكيًا، «وسبينوزا» مؤمنًا بوحدة الوجود، وإذا كان «فرويد» يهوديًا حاقدًا، فما حضارتكم الغبية أيها الغربيون؟! وهل كبراؤكم إلا هؤلاء؟!

❋ ❋ ❋

١٢١٦ - مفهوم ٤٠: المفهوم الإسلامي للحضارة:

هو مفهوم العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني؛ كما حددها الله ﷻ بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي أن الحضارة أو التحضر هو منهج هداية يضبط علاقة الإنسان بمحيطه الاجتماعي والبيئي، وغياب هذا المنهج الرباني يعني الاستباحة والتحلل الأخلاقي، والتفسخ الاجتماعي، والتخلف بمعناه الشامل الذي ينتهي بأهله إلى الدمار والشقاء والهمجية الحيوانية.

فالعبادة بمفهومها الشامل هي الغاية، وهي المعيار الذي تقاس به الحضارة والتقدم صعودًا أو هبوطًا، استقامة أو انحرافًا، فالحضارة الحقيقية ربانية المصدر؛ ولذا جاءت وتحققت أحقابًا من الزمن متصفة بصفات: الشمول، والثبات، والعدل، والتوازن، والإيجابية، والواقعية؛ لا تناقض فيها، محققة للخير والسعادة والصلاح للبشرية: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]؛ أي أنها حضارة قامت بعمارة الأرض بعهد الله وميثاقه؛ ألا وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، والحكم بشريعته، فصلحت بذلك البلاد والعباد، وتقدَّمت صناعيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وزراعيًا، من غير إفساد: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وعندما تسود هذه المفاهيم والقيم في المجتمع فإنه يكون حينئذ متحضرًا ومتقدمًا، وعلى العكس من ذلك حينما تسود في المجتمع القيم والنزعات الحيوانية النفعية لا يمكن أن يكون هذا المجتمع متحضرًا مهما بلغ من التقدم التقني الصناعي والاقتصادي، بل يصبح متخلفًا همجيًّا.

❊ ❊ ❊

١٢١٧ - مفهوم ٤١: البيئة:

البيئة هي المكان والمناخ الذي يعيش فيه مجموعة من البشر، وهو يشمل تضاريس المكان من جبال، وسهول وأودية، وأمطار ومياه، ورياح، ...إلخ ظروف المناخ المتعددة؛ كالحرارة والبرودة وما ينجم عن ذلك من حرف ومهن في هذا المكان؛ كزراعة أو صناعة أو تجارة وغيرها.

وقد تطلق البيئة على معانٍ غير حسية؛ كأن يقال: الناس يعيشون في بيئة خوف وقمع، أو في بيئة ترف ونِعَم، ويقال: بيئة المنزل، وبيئة المدرسة، وبيئة العمل، وهكذا.

* * *

١٢١٨ – مفهوم ٤٢: البيئة النظيفة:

هي البيئة التي خلقها الله ﷻ وأودع فيها مقومات الحياة الطيبة من: ماء، وزروع تؤكل، وهواء نقي خال من الأوبئة؛ يستمتع الناس بها وينتفعون من غير ضرر أو تلوث، بتوازن عجيب.

وطِيب البيئة مرهون بصلاح الناس وعبادتهم لربهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

* * *

١٢١٩ – مفهوم ٤٣: البيئة الملوثة:

وهي البيئة التي تلوَّثت فيها مقومات الحياة، فحصل فساد وتلوث في الأطعمة والأشربة والهواء، وانتشار للأوبئة، وغير ذلك. وهذا التلوث يحصل بأمرين:

١ – ذنوب العباد وما اقترفوه من الكفر والفسوق والعصيان؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

٢ – تدخل الإنسان وتصرفه في البيئة بطمعه وجشعه؛ فهدم الجبال، وردم الأودية وأقام المصانع الملوِّثة للهواء، وتدخل في طعام الناس وشرابهم وزراعاتهم بالمواد الكيماوية والمبيدات الملوِّثة، وقضى على الثروة الحيوانية بحجة أن زيادتها أضر بالاقتصاد، وهكذا. وهذا الأمر الثاني هو ثمرة للأمر الأول. ومشكلة التلوث من المشاكل البيئية المستعصية اليوم، والعالم كله يعرف أن مصدره العالم الصناعي –لا سيما أمريكا والغرب– وللتلوث مشاكل صحية خطيرة في حياة الناس والحيوانات والزروع.

* * *

١٢٢٠ - مفهوم ٤٤: التوازن في خلق الله ﷻ للبيئات:

الله تعالى جعل البيئة متوازنة، وجعل الكون قائمًا على هذا التوازن، والإنسان هو الذي يفسدها؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، إلى أن يقول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وهو سبحانه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ورتَّب المخلوقات ترتيبًا عجيبًا؛ ففي أعلى الهرم الغذائي مثلاً تقع آكلات اللحوم، ثم آكلات الأعشاب، وفي أسفله تجد آكلات الديدان والحشرات.

فلو أن الإنسان بجهله وظلمه قضى على شيء من ذلك لاختلت أجزاء أخرى وتضخمت؛ فلما قضى الصينيون على الطيور الآكلة للحبوب كي تسلم المحصولات في رأيهم، كثرت الديدان وقضت على المحصول، ولما قضى الأمريكيون على الذئاب، كثرت الغزلان والتهمت كل ما استطاعت من الأوراق الخضراء في الغابات، فاضطروا إلى استيراد الذئاب من كندا.

وأي محاولة بشرية لتغيير ذلك النظام البيئي مثل القضاء على إحدى طبقات الهرم الغذائي لا بد أن تؤدي إلى خلل وفساد كما سبق.

* * *

١٢٢١ - مفهوم ٤٥: بعض النماذج الإسلامية التي تؤدي إلى حماية البيئة ونظافتها:

١- إن البيئة النظيفة إنما تكون حيث يماط الأذى عن الطريق، وهو أدنى شُعب الإيمان كما ثبت في السنة، والأذى أعم مما قد يُظن؛ فإن النبي ﷺ أخبر عن رجل دخل الجنة في غصن شوك نحَّاه عن الطريق.

٢- يحافظ الإسلام على الزرع والخضرة، فلا يجوز قطع الشجر في الحرم، وهذا ما لا نظير له اليوم عند أي أمة، كما أنه يجوز في الإسلام الحمى بدلاً مما يسمى اليوم: «حماية الحياة الفطرية»، ويحث الإسلام على الزراعة ويبيِّن أن فيها الأجر لصاحبها حينما يأكل منها الإنسان أو الحيوان، وأبلغ شيء في الحث على الزرع قوله ﷺ: (**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**) [رواه أحمد (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩)].

٣ - يقولون اليوم إن البيئة النظيفة هي التي تستخدم الطاقة الشمسية، وبلاد المسلمين هي التي تطلع فيها الشمس كل يوم، وكثير منها صحاري لا تكاد تغيب عنها الشمس، أما في الغرب فهم يموتون لو بلغت الحرارة ٤٠.

٤ - كما يحث الإسلام على البيئة النظيفة، فهو كذلك يحث على النظافة في البدن والمظهر؛ فيأمر بالوضوء، والاغتسال، والسواك، والختان، وأمثال ذلك.

٥ - ومن عظمة هذا الدين أنه شرع لنا النظافة؛ فلما رأى النبي ﷺ رجلاً ثائر الرأس قال: **(أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره)**، ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة، فقال: **(أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه)** [رواه أبو داود (٤٠٦٢)، وصحَّحه الألباني والأرناؤوط، ورواه الحاكم (٧٣٨٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي]، وشرع لنا السواك وله فوائد أو ميزات ليست في غيره، منها: سهولة حمله، ويستعمله المسلم مرات عديدة في اليوم والليلة.

٦- وقد سبق المسلمون الغربيين في حماية البيئة ولايزالون؛ فقد جعل الله تعالى حرمًا آمنًا لا يعضد شوكه، ولا يختلي خلاه، ولا ينفر صيده وهذا أعظم حماية للبيئة والحياة الفطرية وللاخضرار.

* * *

١٢٢٢ - مفهوم ٤٦: الميزان الإلهي وموازين البشر:

الميزان الإلهي صادر عن الله ﷻ الذي أنزله على عباده ليقوم الناس بالقسط وبالعدل في وزنهم للأمور؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهو الميزان العدل المبرأ من الجهل والظلم والهوى؛ لأنه صادر عن الله تعالى الذي له الأسماء الحسنه وله الكمال والجلال والجمال، والعالِم بخلقه وبما يصلح لهم في حاضر الزمان ومستقبله، وفي غيبه وشهادته، وعلى العكس من ذلك موازين البشر المتصفة بصفاتهم من النقص والجهل، والظلم، ومحدودية العلم والزمان والمكان؛ فلذا جاءت موازينهم متصفة بصفاتهم: جاهلة، ظالمة، ناقصة؛ ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

* * *

١٢٢٣ - مفهوم ٤٧: خصائص الميزان الإلهي:

بما أن الميزان الإلهي مصدره رباني فلا جرم جاء بصفات ثابتة عادلة، كاملة شاملة؛ متوازنة؛ لأنها من عند الله عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ومن أهم هذه الخصائص:

١ - التوحيد:

هو صلب الميزان الإلهي؛ وهو من لوازم ربوبية الله ﷻ الذي له الأسماء الحسنى، والذي لا يستحق العبادة بحق إلا هو وحده لا شريك له، فبمقدار صحة توحيد العبد وتحقيق عبوديته لله تعالى تصح معاييره ووزنه للأمور، أما إذا اختل التوحيد وصرف شيء من العبادة لغير الله تعالى فإن الموازين تختل وتضطرب وتنحرف.

إن التوحيد ينشئ في القلب والعقل حالة من الانضباط والثبات لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها القيم، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك، ويكفي أن نقارن ونوازن بين المسلم الموحد وغيره من أصحاب التصورات الشركية لنرى الفرق بينهما في الموازين والأحكام والمواقف.

٢- الثبات:

ولأن مصدر الميزان **رباني** لذا جاء يحمل صفة الثبات؛ فيستوي ذلك الميزان في الماضي والحاضر والمستقبل، ولا يتغير بتغير الزمان ولا المكان، ولا يضطرب ولا يتناقض، ويبقى دور العقل البشري للتلقي والاستجابة والتطبيق، ويظل تطور الحياة مرتبطًا بهذا المحور الثابت، دائرًا حوله في إطار ثابت؛ فهما حالتان اثنتان للحياة البشرية، ثابتتان في ميزان الله، لا تتغيران مهما تغير الزمان والمكان: حالة الهدى، وحالة الضلال؛ مهما تنوعت ألوان الضلال ووسائله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

٣- الشمول والتوازن:

ولأنه **رباني** فقد جاء شاملاً كاملاً متوازنًا عدلاً؛ شاملاً لكل نواحي الكينونة البشرية، ولكل نواحي الحياة، وهو شمول متوازن عدل لا يطغى فيه جانب على جانب، وسط بين الإفراط والتفريط؛ لأنه من لدن عليم خبير حكيم لطيف قوي عزيز،

ويكفي أن ننظر إلى موازين البشر الجائرة الجاهلية واضطرابها وتناقضها ومعاييرها المزدوجة لنرى البون الشاسع بينهما، والحسَنَ يُظْهِر حُسْنَه الضِدُ.

٤- الإيمان باليوم الآخر:

وهذا من أبرز سمات الميزان الإلهي؛ لما لهذه العقيدة من أثر في: وزن الناس، ووزن القيم، وانضباط الأحكام والمواقف.

والغفلة عن اليوم الآخر تجعل كل مقاييس الغافلين تختل، وتتأرجح عندهم القيم والتصورات؛ فيغيب عنهم التصور الصحيح للحياة وأحداثها ومستقبلها وقيمها، ومن ثم لا يلتقي إنسان مؤمن بالله واليوم الآخر ويحسب حسابه مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا يؤمن بما وراءها؛ إنهما لا يلتقيان في تقدير ولا ميزان واحد من أمور الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون؛ فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاويته للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال.

❊ ❊ ❊

١٢٢٤ - مفهوم ٤٨: التكريم والإهانة وميزانهما:

يختلف الميزان الإلهي للتكريم والإهانة ومفهومهما عن الموازين الجاهلية؛ فبينما هو في الميزان الإلهي قائم على الإيمان والتقوى، فمن كان أتقى لله فهو أكرم عند الله ﷻ، تجده في موازين البشر الجاهلية قائم على الجنس، والتراب، والمال، والمناصب، والأنساب؛ فالمكرم عندهم هو الأكثر مالاً وأولادًا، والأحسن أنسابًا ومناصب؛ قال تعالى عن ميزانه العدل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال سبحانه عن موازين الجاهلية: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال عن بني إسرائيل الذين طلبوا ملكًا يقاتلون معه ضد أعدائهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال

سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

* * *

١٢٢٥ - مفهوم ٤٩: الوطنية والقومية وما ينتج عنهما من موازين جاهلية:

من الموازين الجاهلية: جعل الوطن والقوم معيار التكريم وتقديمهما على ميزان العقيدة والإيمان؛ فابن الوطن والقوم في موازين الجاهلية هو المكرَّم المقدَّم على من سواه من خارج القوم أو الوطن، ولو كان تقيًّا مؤمنًا.

* * *

١٢٢٦ - مفهوم ٥٠: ميزان العزة والذلة:

وهو متفرع عن الميزان الذي قبله، فالعزيز في الميزان الإلهي هو المؤمن الموحد المتحرر من ربقة العبودية لغير الله، والذليل ضد ذلك، وهو الذي دسَّ نفسه واستعبدته الدنيا وأصنامها؛ فهذا هو الذليل في ميزان الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال سبحانه: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]، وقال تسلية للمؤمنين بعد هزيمة أحد: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وفي دعاء القنوت: **(وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت)** [رواه أحمد (١٧٨)، وأبو داود (١٤٢٥) واللفظ له، وغيرهما، وصحَّحه الألباني (صحيح أبي داود (١٤٢٥))].

وللعبد من العزة والتكريم حسب ما معه من الإيمان، وعزة المؤمن تجعله كما قال سبحانه في وصف أوليائه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

* * *

١٢٢٧ - مفهوم ٥١: النور والتنوير:

النور الحقيقي هو ما كان هبة من الله ﷻ - خالق النور - للأتقياء من عباده: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، وبنوره سبحانه الذي يقذفه في قلب عبده

المؤمن يخرج العبد من مسالك الباطل المظلمة إلى درب الحق المنير المستقيم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وشتان بين من رزقه الله ﷻ نورًا يمشي به في الناس ومن كان غارقًا في لجج من ظلمات الجهل والكفر؛ يتخبط في حياته بغير هدى من الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فمن لم يرزقه الله إيمانًا وهدى ومعرفة بكتابه فهو محروم من النور الحقيقي، مهما كان حاملاً لأعلى الشهادات والمناصب الأرضية، ومهما كان قارئًا لمئات الكتب والمدونات؛ فهو يعيش في ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].

وبفهمنا للنور بميزان القرآن يسهل علينا فهم **التنوير** بميزان الكتاب والسنة، لا بميزان الجاهلية ممن يسمون أنفسهم اليوم بـ«**التنويريين والعصرانيين**».

إن أحق الناس بوصف **التنوير** هو من كان مُعظِّمًا لنصوص الكتاب والسنة، فاهمًا لها بفهم سلف الأمة، راجعًا في موازينه وأحكامه ومواقفه إلى نور الله المتمثل في الكتاب والسنة، ساعيًا لكل تنوير يفتح للعقل في حدود طاقته آفاقًا رحبة ومساحات واسعة لا تحيد عن هدايات الوحي المعصوم الذي يحميه من الضلالات والانفلاتات والفهوم المنكوسة، حاملاً لواء التنوير؛ هذا هو التنوير الحقيقي، لا تنوير أهل البدع والشطحات الذين يصفون انفلاتهم عن نصوص الوحيين وتغييرها بالتنوير والتجديد لأصول الدين وثوابته؛ زاعمين أنهم يراعون متغيرات العصر وأهله.

❊ ❊ ❊

١٢٢٨ - مفهوم ٥٢: التجديد والتغيير:

يتعرض مصطلح التجديد والتغيير للتلاعب به والتلبيس به على الناس؛ حيث يستخدمه الملبسون لتمرير بعض المفاهيم المنحرفة في قوالب مزخرفة.

ولبيان الحق وإزالة اللبس حول هذا المفهوم نعرض مفهوم التجديد والتغيير في ميزان الشرع، وما يضاده ويقابله في موازين البشر الجاهلية:

أولاً: مفهوم التجديد والتغيير في ميزان الشرع:

ينطلق هذا المفهوم من أن دين الله ﷻ الذي هو الإسلام إنما هو من عند الله تعالى العالم بما كان، وبما سيكون، المبرأ من الجهل والنقص والظلم والهوى، الحكيم الكامل

في حكمته، البر الرحيم الكامل في بره ورحمته، وبناء على هذه المعرفة فإنه الدين الكامل الصالح لكل زمان ومكان مهما تغيرت الظروف والأحوال والأشخاص، الغني عن أي زيادة أو تغيير؛ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو ليس في حاجه إلى من يأتي لتجديد أصوله وثوابته وعقيدته وأخلاقه. وإذا كان الأمر بهذا الوضوح والحسم فما هو مفهوم التجديد والتغيير الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وفي قوله ﷺ: **(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)**؟ [رواه أبو داود (٤٢٧٠). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٠٦)]

والجواب أن يقال: إن المفهوم الصحيح للتغيير في الآية السابقة هو التغيير الذي يقوم به الإنسان ليغير حالته من الحال التي يسخطها الله من كفر، أو نفاق، أو فسوق، أو عصيان، إلى الحال التي يحبها الله في التزام طاعته، واجتناب معاصيه؛ وهذا النوع من التغيير هو الذي يغير الله به أحوال الناس من حال الشقاء والشرور والمصائب إلى حال الخير والرخاء والسعادة.

وأما مفهوم **التجديد** الوارد في الحديث السابق، فهو كما شرحه أهل الرواية والدراية بأحاديث الرسول ﷺ؛ فقد جاء في عون المعبود عن العلقمي قوله: «معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما» [عون المعبود (١١/ ٣٨٦)]، وفي عون المعبود أيضًا قوله: «وقال في مجالس الأبرار: والمراد بتجديد الدين للأمة إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة... ولا يُعلَم ذلك المجدد إلا بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه؛ إذ المجدد للدين لا بد أن يكون عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصرًا للسنة، قامعًا للبدعة، وأن يعم علمه أهل زمانه، وإنما كان التجديد على رأس كل مئة سنة لانخرام [أي: ذهابهم وفناؤهم] العلماء فيه غالبًا، واندراس السُّنة، وظهور البدع، فيُحتاج حينئذ إلى تجديد الدين» [عون المعبود (١١/ ٣٩١)].

ثانيًا: مفهوم التجديد والتغيير في ميزان الجاهلية:

يستخدم الجاهلون من كفار ومنافقين ومن تأثر بهم من جهلة المسلمين وأهل الأهواء مصطلح التجديد والتغيير ويريدون به تجديد أصول الدين وثوابته وتغييرها بما يوافق العصر ومتغيراته، ويوهمون الناس أن هذا خاضع لسنة التغيير التي لا يقف أمامها شيء بما في ذلك أصول الدين وقِيَمُه وأخلاقه. ويمكن تصنيف الناس إزاء قضية التغيير والتجديد إلى المواقف الآتية:

١- **موقف المنافقين** من علمانيين ولبراليين ودعاة التغريب والانسلاخ من الدين؛ وهؤلاء يرون في الإنسان بوضعه وتركيبه المادي أنه المرجعية النهائية، ومن ثَمَّ من حقه وحده-زعموا- أن يرسم صورة التغيير الذي يريده وفق عقد اجتماعي معين بعيدًا عن الدين والوحي.

٢- **الموقف العصراني**: وهؤلاء منهم بعض أبناء المسلمين الذين يؤمنون بالإسلام، لكن بطريقة عصرانية تأتي تحت مسميات مختلفة: تارة باسم العقلانية الإسلامية، وتارة باسم المسلم المعاصر، وتارة باسم الوسطية العصرانية والإسلام المعتدل، إلى أخر مثل هذه المسميات، وهؤلاء أيضًا على درجات: فبعضهم يعيش على الأفكار العلمانية فهو متأثر بها بحكم عدوى المجاورة، وبعضهم يبتعد موطنه العصراني عن حدود العلمانية قليلاً أو كثيرًا، ومن سماتهم: ما يسمى بالسيولة العامة والتساهل في تناول الأحكام، مقابل ما يسمونه بالصلابة والتشدد، ويقصدون بذلك أهل الاستقامة والتقى، فيتذمرون منهم ويوجهون إليهم سهام النقد، ولهم شغف بالتغيير ولو على حساب الدين وأحكامه، ولهم شبه بمن قبلهم باستهدافهم جميعًا للمنهج، غير أن الصنف السابق يستهدف «المنهج العام»؛ أي الإسلام بعمومه وشموله وكماله، وهؤلاء يستهدفون «المنهج الخاص»؛ منهج أهل السنة والجماعة وأتباع السلف على جه الخصوص، وليس في مثل هؤلاء من يُوثق بعلمه الشرعي، ولا حميته الإيمانية، ولا الفهم الجيد، ولا الإدراك المتكامل، بل فيهم من أهل الأهواء والأمراض الفكرية الكثير.

❊ ❊ ❊

١٢٢٩ - مفهوم ٥٣: تجديد الخطاب الديني:

وهذا المفهوم كثيرًا ما يطرحه أصحاب الموازين الجاهلية للتجديد، وهو مصطلح غامض محتمل للحق والباطل، وهو عند المنافقين الليبراليين ودعاة العصرية يراد به المعنى الباطل الذي هو تفريغ الخطاب الديني من مضامينه وأصوله، ويستبدلون بها تمييع الأصول والأحكام وتحريفها، ويظهر عليهم موافقة الكفار ومداهنتهم في ترك ما يزعجهم من أصول هذا الدين وأحكامه التي تتبرأ من الكفار ومناهجهم، أو التي تدعو إلى جهادهم ومواجهتهم بالسنان أو البيان.

وقد يستخدم هذا المفهوم بعض الدعاة ويريدون به المعنى الصحيح؛ ألا وهو: تجديد الوسائل في تبليغ الخطاب الديني للناس بما يناسبهم من الوسائل المتاحة في المخاطبة، مع البقاء على أصول الدين وأحكامه والثبات عليها. ومع أن هذا الاستخدام لهذا المفهوم صحيح إلا أن الأولى عدم استخدام مثل هذه المصطلحات الحمالة المشتبهة، والاستعاضة عنها بمصطلحات لا تحمل إلا معنى واحدًا صحيحًا؛ قال سبحانه: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

* * *

١٢٣٠ - مفهوم ٥٤: الفرح والسرور:

الفرح والابتهاج من حيث هو طبع بشري لا يتعلق به مدح ولا ذم، ولم تأت الشريعة لتلغيه، وإنما لترشده وتهذبه. ومدحه أو ذمه يكون بحسب بواعثه وأسبابه، وطريقة التعبير عنه ونتائجه؛ فإن كان الفرح بطاعة الله وهدايته ونصرة دينه أو بمباح يعين على طاعة الله ﷻ فهو ممدوح ومحبوب لله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧ - ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤ - ٥]، وأما إن كان الفرح بالمعصية أو بمباح يلهي عن الآخرة ويؤدي إلى البطر والفخر فهو مذموم؛ قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]،

وقال سبحانه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال سبحانه عن قارون: ﴿قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

* * *

١٢٣١ - مفهوم ٥٥: الفرق بين الفرح والاستبشار:

إن الفرح المحبوب يكون بعد حصوله، والاستبشار يكون قبل حصوله إذا كان يترقبه وكان على ثقة من حصوله؛ قال سبحانه عن الشهداء في سبيله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وبهذه الموازين العادلة النقية نستطيع معرفة الموازين الجاهلية للفرح التي تجعلنا نحمد الله ﷻ على هذا الدين وموازينه العادلة، والحسن يُعرف حُسنُه بالضد.

* * *

١٢٣٢ - مفهوم ٥٦: الفرح في موازين الجاهلية:

يحمل الفرح في موازين الجاهلية السمات التالية:

١- بواعث الفرح والتعبير عنه عندهم إما إغراق في المباحات حتى تُنسى الآخرة، أو فرح بمعصية الله، أو التعبير عنه بالبطر والأشر.

٢- فرح هؤلاء المغرورين بما عندهم من العلوم والفلسفات الباطلة والثقافات المهلهلة؛ حيث زيَّنها حسَّنها الشيطان في عقولهم وجادلوا بها الحق؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

٣- فرحهم بالرياء والمفاخرة؛ قال تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

٤- فرحهم بما يصيب المسلمين من مصائب؛ قال ﷻ: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

٥- الفرح بالتحزب على الباطل؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

٦- فرحهم باستهزائهم وإيذائهم للمؤمنين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

١٢٣٣ - مفهوم ٥٧: ميزان السعادة والشقاوة:

بمعرفتنا السابقة للمفهوم الصحيح والمفهوم الباطل للفرح والسرور يتضح لنا المفهوم الصحيح والمفهوم الخاطئ للسعادة:

فأما **المفهوم الحق للسعادة** فيبينه قوله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]، وتكفي هذه الآيات الثلاث لبيان المفهوم الشرعي الحق للسعادة والشقاوة، ويبقى أن نعلم أن تمام السعادة وكمالها لا تكون إلا لأهل الجنة حينما يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

وأما المفهوم الجاهلي المنحرف للسعادة فهو الذي يبرز دور المال والجاه وكثرة الأولاد وأعراض الدنيا، ويجعلها مصادر السعادة والأنس والطمأنينة، بينما يجعلها القرآن في حق عُدِمَ الإيمان مصدرًا للشقاء والعذاب؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: «إن للكفر من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم ويلهي قلوبهم من تناول المسكر، أو رؤية مُله، أو سماع مطرب» [اقتضاء الصراط المستقيم، ص٢١].

وقد اعترف كثير ممن طلب السعادة عن طريق الدنيا بفشلهم في ذلك، والموفق منهم من أدّاه هذا الفشل إلى معرفة الطريق الحقيقي للسعادة فأخذ به؛ ألا وهو: الإيمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح، وذكر الله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وصدق من قال:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكـــن التقي هـــو السعـــيد

❊ ❊ ❊

١٢٣٤ - مفهوم ٥٨: ميزان الجمال والحسن:

الجمال ضد القبح، وإذا أطلق الجمال فإنه يشمل جمال الظاهر والباطن؛ جمال الأجسام، وجمال القلوب والأعمال والأخلاق.

والميزان الشرعي للجمال يجعل ما في القلوب والبواطن والأخلاق هو معيار الجمال والحسن، بينما تنطلق موازين الجاهلية في وزنها لها من جمال الظاهر والأجسام، ولا اعتبار عندهم لجمال الباطن؛ قال الله ﷻ عن أصحاب محمد ﷺ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمراد بسيماء الوجوه -كما ذكره أكثر المفسرين- نور الطاعة وبهاؤها، فلما استنارت بالصلاة بواطنهم استنارت بالجلال ظواهرهم، وقال ﷺ: (**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**) [رواه مسلم (٢٥٦٤)].

ولا يفهم من عناية الشرع المطهر بجمال الباطن عدم عنايته بالجمال الظاهر، بل إنه قد اعتنى بذلك، وأمثلة ذلك كثيرة: مثل أمره بسنن الفطرة، والوضوء، والسواك، والغسل من الجنابة، وجمال اللباس، والرائحة الطيبة، وغير ذلك من صور الجمال الظاهر؛ قال ﷺ: (**إن الله جميل يحب الجمال**) [رواه مسلم (٩١)]، فالجمال هنا يشمل جمال الظاهر والباطن، وهنا تبدو عظمة هذا الميزان الشامل للجمال والذي يقابله المعايير المنحطة المنحرفة للجمال؛ حيث يحصرونه في جمال الظاهر فقط، وجمال الظاهر لا قيمة له عند الله تعالى إذا خلا قلب صاحبه من الإيمان وكان فاسد العقيدة والأعمال والأخلاق؛ يقول شيخ الإسلام: «وأما أهل الفجور فتعلو وجوههم ظلمة المعصية حتى يُكسف الجمال المخلوق؛ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إِن للحسنة نورًا فِي القلب، وضياء فِي الْوَجْه، وسعة فِي الرزق، وقُوَّة فِي البدن، ومحبة فِي قُلُوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب وغبرة في الوجه، وضعفًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق)، وهذا يوم القيامة؛ يكمل حتى يظهر لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]» [الاستقامة: ١/ ٣٥٣].

* * *

١٢٣٥ - مفهوم ٥٩: الجمال في الموازين الجاهلية:

يمكن إجمال ذلك في السمات التالية:

١- الوقوف مع جمال المظهر في هذه الدنيا فقط؛ سواء كان جمال الجسد، أو المال، أو الحسب، أو المسكن، أو المركب، وجعْلُ ذلك هو المعيار الأهم للجمال والحسن دون اعتبار لجمال الباطن والأخلاق. ولنأخذ المرأة مثالاً على ذلك: فجمالها عندهم هو جمال الجسد وظهور مفاتنه، بل وصل بهم الحال إلى أن يروا الجمال في تعرِّيها عياذًا بالله، وهذا واضح في مجتمعات الكفار الحيوانية، وهو ما ينادى به منافقو هذه الأمة، وعلى العكس من ذلك جاءت أحكام الشريعة المطهرة بالحرص على المرأة وحشمتها وحيائها، وعدم تبرجها وجعلها سلعة رخيصة بيد الذين يتبعون الشهوات يلعبون بها.

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوءات المرأة الجسدية، وتحرص على سترها ومواراتها، والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس وتعرية النفس من التقوى والحياء هم الذين يريدون سلب الإنسان خصائص فطرته وإنسانيته التي صار بها إنسانًا. إن التعري فطرة حيوانية، ولا يميل إليها إنسان إلا وهو يرتكس إلى مرتبة الحيوانية، بل أضل، وإن رؤية العري جمالاً هو انتكاس في الذوق البشري قطعًا.

والإسلام حينما يفتح الأماكن التي ينتشر فيها العري ويدخل بحضارته إليها يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء المرأة، وأما الجاهلية الحديثة فيرتكس أصحابها إلى الحضيض، فيأتي الإسلام لينتشل المتخلفين منه وينقلهم إلى مستوى حضارته.

٢- هناك تلازم وثيق بين موازين الجاهلية للجمال وموازينهم للتكريم أو الإهانة الذي سبق الحديث عنه، وكذلك هناك ارتباط بموازينهم للتقدم والتحضر الذي سبق بيانه.

٣- إن فهم أصحاب الميزان الجاهلي للجمال ينعكس على طرائقهم في التربية لأنفسهم وأهليهم؛ فبينما نجدها عند أصحاب الموازين الشرعية تنصب على تحقيق الجمال الذي يحبه الله ﷻ في أنفسهم وأهليهم؛ وهو جمال الدين والأخلاق والقلوب مع عنايتهم بالجمال الظاهر، نجده عند أصحاب الموازين الجاهلية مُنْصَبًّا على جمال المظهر وصحة الجسم ومتعته دون العناية بجمال التقوى والأخلاق.

١٢٣٦ – مفهوم ٦٠: الربح والخسارة في الميزان الشرعي:

الربح محبوب للنفوس، والخسران مكروه لها، ولكن شتان بين ميزان الله تعالى للربح والخسران وموازين البشر الجاهلية، شتان بين ميزان من يؤمن بالله واليوم الآخر وما فيه من النعيم السرمدي أو العذاب السرمدي، وميزان من لا يؤمن بذلك أو هو في غفلة عنه بمتاع الدنيا الزائل. جاء ذلك جليًا في كتاب الله ﷻ في أكثر من آية؛ قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، وقال ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى عن الربح الحقيقي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، ذكر بعض المفسرين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في صهيب الرومي رضي الله عنه عندما هاجر من مكة إلى المدينة ومنعه المشركون أن يأخذ ماله معه، فأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، وتلقَّاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: «ربح البيع»، فقال: «وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم»، وروي ابن مردويه أن الذي قال له: «ربح البيع» هو الرسول ﷺ؛ قالها مرتين؛ ولما طعن حرام بن ملحان رضي الله عنه يوم بئر معونة نضح الدم على وجهه وقال: «فزت ورب الكعبة» [رواه البخاري (٤٠٩٢) ومسلم (٦٧٧)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف:١٠-١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]، أي يغبن أهل النار الخاسرون أهل الجنة الرابحين.

هذا هو الفهم الصحيح النقي للربح والخسارة، ولا يخفى ما تثمره هذه الموازين النقية من تنافس في الأعمال الصالحة، وبُعْدٍ عن مظالم العباد، والحياة المطمئنة في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة، وحب الخير للناس، ومن إعانة المحتاج، وإغاثة الملهوف، والرحمة بالمساكين.

١٢٣٧ - مفهوم ٦١: الربح والخسارة في ميزان الجاهلية:

موازين البشر الجاهلية للربح والخسارة هي التي لا تعير للموازين السابقة أهمية، وإنما تحصر ربحها وخسارتها في أرباح الدنيا الزائلة وخسارتها؛ قال تعالى عن أمثالهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال عن الذين تمنوا أموال قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]، ولا يخفى ما لهذه الموازين المعوجة للربح والخسارة من ثمار نكدة على أصحابها في الدنيا والآخرة من: الشقاء والعناء والعذاب بها في الدنيا، والعذاب الأكبر في الآخرة؛ فمثل هذه الموازين تقود أصحابها إلى نسيان الآخرة، وإلى التنافس في الدنيا وحطامها، وجمعها من حلال وحرام، فوق ما تنطبع به النفوس من المهانة والدناءة والظلم، وما تعانيه من الجزع والتسخط عند المصائب وعند فقد مُتع الدنيا من مال وولد، وما تحياه من الشح والأنانية، وحب الذات على حساب الآخرين.

* * *

١٢٣٨ - مفهوم ٦٢: الغني والفقر في ميزان الشرع:

يكفينا في المفهوم الصحيح المستقيم للغنى والفقر قوله ﷺ: (**ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس**) [رواه البخاري: (٦٤٤٦)]؛ فهذا هو الميزان الشرعي لهما، ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (**يا أبا ذر أترى كثرة المال هي الغنى؟**) قلت: نعم، قال: (**وترى قلة المال هي الفقر؟**) قلت: نعم يا رسول الله، قال: (**إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب**) [رواه ابن حبان في صحيحه (٦٨٥) وصححه الأرناؤوط]، وقال الشاعر: ومن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر

والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال؛ **فالغنى السافل** هو الغنى بالعواري المستردة من: النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث؛ وهو أضعف الغنى؛ فإنه غنى بظل زائل، ولا همة أضعف من همة من رضي به؛ وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون.

والغنى العالي هو الغنى بالله وما يقرب إليه سبحانه؛ فالغنى بالله عَزَّ وَجَلَّ هو الغنى في الحقيقة، ولا غنى بغيره البتة.

- والغنى بالله، الذي هو غنى القلب، يحمي العبد من التطاول على المحرمات أو التفريط في الواجبات.
- والغنى بالله يحرر النفس من عبودية غير الله والذل له، ويجرد عبوديتها لله تعالى.
- والغني بالله يشح بوقته أن يمضي في غير ما ينفعه في الآخرة ويزهده في الدنيا، ويبعده عن المتنافسين فيها.
- والغنى بالله يجعل العبد مؤثرًا للحق على الباطل ولو انتفش الباطل وأعجب به الناس: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال ﷺ: (إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة) [رواه البخاري (٦٢٤٣)].
- والغنى بالله يشعر العبد بافتقاره الشديد إلى الله ﷻ، ويشعره بالإفلاس والضياع والضعف إن لم يعنه الله ﷻ، فيحقق معنى الذكر العظيم: «لا حول ولا قوة إلا بالله».
- ومن علامات الغنى بالله: الاستغناء بالعلم بالله ﷻ وبشرعه وأحكامه إذا الناس استغنوا بأعراض الدنيا الزائلة.

* * *

١٢٣٩ - مفهوم ٦٣: الغنى والفقر في موازين البشر الجاهلية:

الشيء يعرف بضده، فموازين أهل الدنيا وفهمهم للغنى والفقر هوما سبق بيانه بأن الغنى عندهم هو: كثرة الأموال والأولاد، وزينة الدنيا، وشهواتها، والفقير عندهم من حرمها، وقد مر في مفهوم الربح والخسارة بعض آيات في كتاب الله ﷻ تذكر موازين المعرضين عن ربهم للفقر والغنى؛ ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ: ٣٥]، وقول صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، وقول بني إسرائيل لنبيهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وأصحاب هذه الموازين يعيشون بأنفس دنيئة ذليلة، متعلقة بالدنيا وأهلها، راكنة إلى الأسباب، ضعيف توكلهم على الله تعالى، بعيدون عن العلم وأهله، متعلقون بعلوم الدنيا فحسب ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ

عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧]، ومن عقوبات الله لأهل هذه الموازين: محق بركة أموالهم، وتعذيبهم بها في الدنيا، والخسران في الآخرة؛ قال ﷺ: **(الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قلة)** [رواه ابن ماجه (٢٢٧١)، وصحَّحه الألباني].

❋ ❋ ❋

١٢٤٠ – مفهوم ٦٤: الأمن:

الأمن ضد الخوف، وآمنته ضد أخفته، وأقسم تعالى بمكة فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٣]؛ أي الآمن، وقال ﷻ عن أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١]؛ أي قد أَمِنوا فيه مِنْ كل مكروه، والمأمن: موضع الأمن؛ قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، والمتدبر لآيات القرآن الكريم يرى أنها تتحدث عن مستويين من الأمن: الأمن على مستوى الأفراد (الأمن النفسي)، والأمن على المستوى الجماعي (الأمة):

ففي **الأمن النفسي** نرى أن القرآن يربط بين رسوخ عقيدة التوحيد في النفس البشرية والأمن والاطمئنان، وعلى العكس من ذلك الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم؛ فهم محرومون من الطمأنينة والأمن النفسي، فهم على خوف ووجل، لا يعرفون لوجودهم غاية في هذا الكون؛ قال تعالى: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١- ٨٢].

وأما **الأمن الجماعي**: ففي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

❋ ❋ ❋

١٢٤١ – مفهوم ٦٥: الأمن الشامل:

عندما يذكر الأمن ومتعلقاته عند كثير من الناس اليوم فإنما يفهمون منه الأمن على الأنفس والأموال والأعراض فحسب، مع أن مفهوم الأمن الشامل عندما يطلق فإنه لا يقتصر على هذه الأمور فقط، بل أهم من هذه الضرورِيات كلها: الأمن في الأديان وحمايتها من الانحراف والمفاهيم المغلوطة. والأمن على الدين يحتل المرتبة الأولى.

كما أن من يتحدث عن الأمن يقصر حديثه على الأمن في الحياة الدنيا، ولا يذهب فهمه وحديثه إلى الأمن في القبور من الفتنة فيه والعذاب، ولا إلى الأمن التام السرمدي؛ وهو الأمن يوم القيامة من أهواله، ودخول جنات النعيم التي قال الله ﷻ عنها: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

* * *

١٢٤٢ - مفهوم ٦٦: الأمن في الحياة الدنيا:

لا يتحقق الأمن في هذه الدنيا إلا إذا أمن الناس فيها على ضرورياتهم الخمس: الدين والشريعة، والأنفس، والعقول، والأعراض، والأموال.

وبالجملة فإن كل هذه الضرورات لا يمكن أن يأمن الناس فيها إلا بتوحيده وطاعته واتقاء مساخطه، وإن لم يكن هذا فإن سنة الله ﷻ نافذة في كل من كفر وعصى بأن يُحَرَمَ الأمنَ في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل:٣٣]، وقال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وإن أكبر مثال على ثبات هذه السنة: ما نراه اليوم مما تعيشه البشرية -سواء على مستوى الفرد أو المجتمع أو الدولة أو البشرية بأسرها- من القلق والحروب والخوف والجوع والظلم والعدوان على كل الضرورات الخمس؛ وكل ذلك بسبب غياب شرع الله ﷻ الذي كفل بعقيدته وأحكامه الأمن والسلام للناس؛ قال سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ومما سبق تتبيَّن الجناية العظيمة والجرم الشديد الذي يقوم به المفسدون في الأرض بصدهم الناس عن الحق، ونشرهم للسفاهات والأفكار المنحرفة، أو بما ينشرونه من الشهوات التي تفسد على الناس أخلاقهم وأعراضهم؛ فإن هؤلاء وأمثالهم هم أعداء البشرية، وأعداء الأمن الحقيقيون، وهم دعاة الفتنة والفساد والإرهاب الذين يجب فضحهم وتعريتهم وبيان كذبهم في ادِّعائهم الحرص على أمن الناس ومكافحة الإرهاب.

١٢٤٣ - مفهوم ٦٧: الأمن النفسي للفرد:

وهو شعور الإنسان بالأمن الداخلي في نفسه وقلبه وتفكيره، وشعوره بالطمأنينة والسكينة والأمان في دينه ونفسه وعقله وماله وعرضه، وبعده عن أسباب الخوف والقلق على هذه الضرورات. ولا يمكن أن يتحقق هذا النوع من الأمن إلا في ظل التوحيد، وفي ظل شريعة الرحمن، التي أكملها سبحانه لعباده المؤمنين، وأودعها كل ما يحفظ عليهم أمنهم في الدنيا والآخرة.

وعن أثر التوحيد في الأمن النفسي يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «فقر العبد إلى أن يعبد الله سبحانه وحده لا يشرك به شيئًا ليس له نظير فيقاس به، ولكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنَفَس، فيقاس بها، ولكن بينهما فروق كثيرة؛ فإن حقيقة العبد: قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذى لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه...ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك... وأما إلهه الحق فلا بد له منه في كل وقت، وفي كل حال، وأينما كان، فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه» [إغاثة اللهفان (١/ ٤١) باختصار].

ويصف شيخ الإسلام هذه الحياة الآمنة المطمئنة -وذلك أثناء محنته- فيقول: «فإني والله العظيم الذي لا إله إلا هو في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله، وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته، وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال...فإن اللذة والفرحة والسرور، وطيب الوقت، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به... وكلما قوي التوحيد في قلب العبد قوي إيمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه» [مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠-٣٥) باختصار].

وأما عن أثر أحكام الشريعة الرحيمة في الأمن النفسي فتتمثل في تلك الأحكام التي شرعها الله ﷻ ليأمن فيها العبد على دينه، ونفسه، وعقله، وماله، وعرضه، ويكفي أن

نستعرض بعض أحكام هذه الشريعة من واجبات ومحرمات لنرى أنها إنما شرعت لحفظ هذه الضرورات الخمس وحمايتها وتكميلها وأمنها.

* * *

١٢٤٤ - مفهوم ٦٨: الأمن الجماعي (أمن المجتمع):

أمن المجتمع واستقراره مرهون بطاعة الله تعالى وتوحيده، والتزام أحكامه الشرعية، وبدون ذلك فلا يطمع مجتمع على وجه الأرض في أمن، ولا رخاء، ولا طمأنينة، وواقع الأمم والمجتمعات في القديم وفي عصرنا الحاضر يشهد بذلك، ويرى الناس هذه السنة الإلهية ماثلة للعيان، والآيات في كتاب الله تعالى الدالة على ذلك كثيرة، منها آية النحل رقم (١١٢) السابق ذكرها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٥-٦٦].

وقد شرع الله ﷻ في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه ﷺ، أحكامًا شرعية، وحدودًا رادعة، وآدابًا راقية تحفظ للمجتمع أمنه، وتجعل أهله آمنين في: دينهم، وأنفسهم، وعقولهم، وأموالهم، وأعراضهم، فيسود بينهم الأمن والمحبة والمودة، ويُكفل لهم اجتماعهم، ويُقضى على كل ما من شأنه تفرقهم وعداوة بعضهم لبعض، وإثارة الشحناء بينهم، ومن ذلك الآيات الكثيرة والأحاديث المستفيضة التي تنهى عن الشرك والنفاق، والمعاملات المحرمة، وشرب الخمر، والزنا، والربا، والرشوة، وأكل المال بالباطل؛ وشرع لذلك الحدود الرادعة، وينهى عن الأخلاق الذميمة؛ كالغيبة، والنميمة، والسب، والفحش، والسخرية، والمظالم، والعدوان، والقذف، كما حثت نصوص الشرع على التكافل والصدقة، وإعانة المحتاج، وإفشاء السلام، وصلة الأرحام، والرحمة بالأنام، وتحريم الكبر والخيلاء والتهاجر بين المسلمين، وشُرِعَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...إلى آخر هذه الأحكام النقية الرحيمة.

ونظرة سريعة إلى ما تعيشه مجتمعات الكفار التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ترينا

الحيرة والقلق، والأنانية، وقطيعة الأرحام، وانتشار العداوة، وتسلط القوي على الضعيف؛ مع ما هم فيه من تقدم مادي ورخاء دنيوي، وهذا ما يزيدنا حمدًا لله تعالى، وشكرًا له على ما أنعم علينا من هذا الدين القويم؛ دين التوحيد والسلام والرحمة والوداد.

***

١٢٤٥ - مفهوم ٦٩: أمن البشرية جميعًا:

يكفي في بيان هذا المفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، وما سبق بيانه في أمن الأفراد والمجتمعات إن هو إلا جزء من أمن البشرية والعالم أجمع إن هي أخذت به واستسلمت لأحكامه.

ولقد اختصر هذا المعنى ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما سأله قائد الفرس عن سبب غزوهم وجهادهم فقال: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]، يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى: «وما أدقَّ هذا التعبير وأصدقَه؛ إنَّه «السَّلام»؛ هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلِّها؛ سلام الفرد، وسلام الجماعة، وسلام العالم.. سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح.. سلام البيت والأسرة، والمجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية.. السلام مع الحياة، والسلام مع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة.. السلام الذي لا تجده البشرية -ولم تجده يومًا- إلا في هذا الدين، وإلا في منهجه وشريعته.. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب في الجاهليات القديمة والحديثة، ومن ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية، وحرب القلق الناشئ من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها في أوضاع الحياة».

وهذا يؤكد لنا تلك السنة الإلهية والحقيقة الشرعية التي مفادها ألا أمن، ولا سلام، ولا سعادة في الدنيا إلا في ظل الإسلام القائم على توحيد الله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له،

وتحكيم شرعه، فإن لم يكن هذا فلن تذوق البشرية طعم الأمن ولا طعم السلام والرخاء والطمأنينة، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ومن واجب شكر الله ﷻ على نعمة الإسلام أن نحافظ عليها، وأن نتجنب أسباب زوالها، كما أن من واجب شكرها السعي لإيصال هذه النعمة إلى من حرمها من البشرية بقدر المستطاع؛ بجهاد البلاغ والبيان، أو بجهاد السيف والسنان الذي يزيح من طريقه الطواغيت الذين يصدون من وراءهم عن الحق، وحينئذ تظهر لنا غاية الجهاد في سبيل الله تعالى، وأنه إنما جاء رحمة للعالمين وإخراجًا لهم من الظلمات إلى النور، وجاء لأمن البشرية وخيرها كما قال ذلك ربعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في النقل السابق.

* * *

١٢٤٦ - مفهوم ٧٠: الفلسفة:

الفلسفة في الأصل هي: البحث في كنه الأشياء وحقائق الموجودات، لكنها تشعبت حتى أدخلوا فيها أنواعًا أخرى، ومنها الفلسفات التي تنكر وجود الأشياء نفسها، وتنكر البدهيات والضروريات، وتؤمن بالمتناقضات.

وهي عند العقلاء قريبة من الجنون لا يفصلها عنه إلا خيط دقيق، وهي عند بعضهم وهْمٌ، وعند بعضهم بحث عن شيء ضائع لا يدرون ما هو.

وهي قديمة، ومن أشهر الفلاسفة: فلاسفة اليونان الذين من أشهرهم: «أرسطو»، والفيلسوف التائه «ديوجنسي». وغاية ما وصل إليه فلاسفتهم وهم يبحثون في ماهية الكون: أن لهذا الكون خالقًا، وتاهوا بعد ذلك عن صفات الخالق ﷻ، ولزم من هذا الضياع أن تاهوا في أصل الإنسان وغايته ومصيره، فلم يهتدوا إلى ذلك سبيلا، فقس هذه الدرجة التي وصل إليها فلاسفة الغرب والشرق باليقين الذي كان عند سلف الأمة، لا سيما الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لتعلم أن هؤلاء الحيارى ما وصلوا إلي هذه الدرجة الدنيا من الحق إلا بسبب عقولهم القاصرة، بينما جاء الوحي المنزل بالإجابة على هذه الأسئلة الكبرى في آيات معدودة من القرآن، فهدى الله المؤمنين ووفقهم بفضله ورحمته، وحرم منه من شاء من خلقه، فخذله بعدله وحكمته وعلمه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. والفلسفة هي تحكيم العقل القاصر، وهي إيمانيًا من تزيين الشيطان وزخرف القول غرورًا، والفلاسفة مغرمون بالأساليب الغامضة والخفية والبعيدة الملتوية.

١٢٤٧ - مفهوم ٧١: الفلسفة الغربية:

يتسم الموقف الفلسفي الغربي بالتذبذب؛ فهو يرى الإلحاد ثم ينتقل إلى نقيضه دون توسط، وعلى سبيل المثال انتقال الفلسفة الغربية من الرهبانية إلى الإباحية الشهوانية.

ومن ملامح هذه الفلسفات الضالة نشأت فلسفات أخرى واستوردت فلسفات أهمها: فلسفة وحدة الوجود، فلسفة التعطيل والحلول التي انتقلت إلى أهل البدع والكلام عند المسلمين، فلسفة الشك في كل شيء؛ ومن ذلك: البدهيات والقطعيات.

والكلام في الفلسفة والقضايا الفلسفية طويل، لكننا نختصره بأنه ليس أمامنا إلا طريقين لا ثالث لهما: إما شريعة الله ﷻ، وإما أهواء الخراصين الذين لا يعلمون؛ إما الحق وإما الضلال؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، وقال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

❋ ❋ ❋

١٢٤٨ - مفهوم ٧٢: الحداثة:

أصلها من التحديث؛ أي التجديد والتطوير، وهي في ظاهرها خروج النصوص الأدبية -شعر ونثر- عن المعقول إلى اللامعقول، وفي حقيقتها: إخراج كل نص -ومن ذلك الكتاب والسنة- عن المعقول وحدود المألوف، أو المنطق والقياس العقلي إلى اللامعقول.

❋ ❋ ❋

١٢٤٩ - مفهوم ٧٣: التنوير:

يطلق في الغرب على إنكار الدين والهروب من الكنيسة، وهو عندهم: الاعتماد على العقل والمادة، وقد كفر بالكنيسة أكثر الغرب بعد القرن التاسع عشر، وتلقفها المنافقون من بني جلدتنا ليعطلوا بها شريعة الإسلام التي هي تنزيل من حكيم حميد.

❋ ❋ ❋

١٢٥٠ - مفهوم ٧٤: العقلانية:

وهي مرادفة للتنوير، وأصحابها هم الذين يقدمون العقل على النقل، ولا يؤمنون إلا بالمحسوس أو ما يدركه العقل.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات؛ فها قد منَّ الله علينا بإتمام هذا المشروع الذي نحسب أنه قد جاء في وقته، بل تأخر عنه؛ حيث تمر أمتنا فيه بحرب شرسة يشنها عليها أعداؤها من الكفرة والمنافقين؛ لحرفها عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ من خلال تشويه مفاهيم الإسلام النقية وخلطها بمفاهيم كفرية هابطة منحطة، وقد سخَّروا في هذه الحرب كل ما يملكونه من إعلام مقروء أو مسموع أو مشاهد؛ يمكرون من خلاله مكر الليل والنهار.

فجاءت هذه الخلاصة بفضل من الله تعالى لتواجه هذه الحرب الفكرية، وتبيِّنَ للناس الحقَ ومفاهيمه النقية، وتفضح الباطل ومفاهيمه السافلة. ونود في هذه الخاتمة أن ننبه في عجالة على أمور مهمة؛ وذلك فيما يأتي:

الأمر الأول: إن الهداية، والفهم الصحيح، والمواقف السديدة هي قبل كل شيء مِنةٌ من الله وتوفيق منه سبحانه لمن يستحق ذلك، وما عدا هذا التوفيق إنما هي أسباب أمرنا الله بالأخذ بها، و﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٧]، فبناء على ذلك يتعيَّن على العبد اللجوء إلى ربه ﷻ وسؤاله الهداية للحق والثبات عليه، والاستعاذة به من الضلال والباطل كما كان الرسول ﷺ يدعو بذلك ويقول: (**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**) [رواه مسلم (٧٧٠)].

الأمر الثاني: لا شك أن صحة المفاهيم ونقاءها نعمة عظيمة، ولكن هذه النعمة لا تكتمل إلا حين تتحول إلى واقع عمليٍّ يسير فيه العبد على ضوء منها ووفق مقتضياتها، وإلا فما قيمة مفاهيم لا تطبق! أو يكون الواقع العملي بخلافها ويضادها!

الأمر الثالث: بما أن الناس يتفاوتون في مداركهم وعقولهم فينبغي أن يراعى ذلك في تقديم هذه المفاهيم؛ فالقالب أو اللغة التي تقدم بها المفاهيم للعامة تختلف عن القالب الذي تقدم فيه للمثقفين والنخب؛ لذا ينبغي أن تطرق جميع الوسائل الإعلامية التي

تقدم للناس هذه المفاهيم، وأن تتنوع ما بين تغريدة، ومقال قصير، ومقطع مسموع أو مرئي؛ وهكذا يستفاد من الإعلام الجديد في إيصال هذه المفاهيم إلى الناس، ونزاحم الأعداء في استخدامهم له في نشر باطلهم ومفاهيمهم المضللة.

كما نوصي بأن تكون هذه المفاهيم الصحيحة النقية مادة مدارسة في البيوت، والمدارس، والمحاضن التربوية، والخطب والمواعظ وغيرها.

وختامًا: نكرر ما ذكرناه في المقدمة من أن هذا العمل إنما هو كغيره من الأعمال: جهد بشري لا بد أن يعتريه النقص أو الخلل، ولا ندَّعي أننا استوعبنا جميع المفاهيم، ولكنه جهد المقل، ونرجو أن يكون فاتحة خير لمن أراد أن يكمل النقص ويسد الخلل.

نسأل الله ﷻ أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، صائبًا موافقًا للحق القويم، وأن ينفع به الأمة جمعاء، ومن أعده، ومن ساهم في نشره، وكل من قرأه، والحمد لله رب العالمين.

* * *

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣

١ – مفاهيم في العقيدة [١–٢٩٥] ٩–٢١٠

أولا: مفاهيم حول مقدمات في العقيدة: [١–١٢] ١١
ثانيًا: مفاهيم عامة حول الإيمان بالله تعالى: [١٣–٢٧] ٢٠
ثالثًا: مفاهيم عامة حول الشرك بالله سبحانه: [٢٨–٣٧] ٢٨
رابعًا: مفاهيم حول توحيد الربوبية: [٣٨– ٤٥] ٣٩
خامسًا: مفاهيم حول توحيد الألوهية: [٤٦–٤٩] ٤٤
سادسًا: مفاهيم حول الحكم وعلاقته بالتوحيد: [٥٠–٦٠] ٤٨
سابعًا: مفاهيم حول توحيد الأسماء والصفات: [٦١–١١٠] ٥٨
ثامنًا: مفاهيم حول الإيمان بالملائكة: [١١١–١١٦] ١٠٠
تاسعًا: مفاهيم حول الجن والشياطين: [١١٧–١٢٦] ١٠٤
عاشرًا: مفاهيم حول الإيمان بالكتب: [١٢٧–١٥٢] ١١٢
حادي عشر: مفاهيم حول الإيمان بالرسل: [١٥٣–١٦٨] ١٢٩
ثاني عشر: مفاهيم حول الإيمان باليوم الآخر: [١٦٩–١٨٧] ١٣٩
ثالث عشر: مفاهيم حول الإيمان بالقدر: [١٨٨–٢٠٤] ١٥١
رابع عشر: مفاهيم حول الإيمان والإسلام: [٢٠٥–٢١٢] ١٦٢
خامس عشر: مفاهيم حول الكفر والنفاق: [٢١٣–٢٣٠] ١٦٨
سادس عشر: مفاهيم حول الولاء والبراء: [٢٣١–٢٤٧] ١٧٩
سابع عشر: مفاهيم حول الفِرَق والطوائف والملل: [٢٤٨–٢٩٥] ١٩٢

٢ – مفاهيم في العبادة [٢٩٦–٣٣٥] ٢١١–٢٣٢

أولا: مفاهيم حول العبادة ومعناها: [٢٩٦–٣١٦] ٢١٣
ثانيًا: مفاهيم حول الصلاة: [٣١٧–٣٢٢] ٢٢٤
ثالثًا: مفاهيم حول الزكاة والإنفاق في سبيل الله: [٣٢٣–٣٢٩] ٢٢٦

رابعًا: مفاهيم حول الصيام والاعتكاف: [٣٣٠ – ٣٣٢] ٢٣٠
خامسًا: مفاهيم حول الذكر: [٣٣٣ – ٣٣٥] ٢٣٢

٣ – مفاهيم في العلم والفقه [٣٣٦–٥٣٨] ٢٣٣–٣٠٢

أولا: مفاهيم حول مصادر التلقي والاستدلال: [٣٣٦ – ٣٦٧] ٢٣٥
١) تعظيم نصوص الكتاب والسنة: ٢٣٥
٢) مفاهيم في السمع [النقل] والعقل: ٢٣٧
٣) الإجماع: ٢٤٢
٤) أفعال الرسول ﷺ: ٢٤٢
٥) القياس: ٢٤٢
٦) الإلهامات والكشوف والرؤى لا تُبنى عليها أحكام: ٢٤٣
٧) مفاهيم في الأكثرية: ٢٤٣
٨) الظاهرية: ٢٤٤
ثانيًا: مفاهيم حول العلم الشرعي وعلوم الدنيا: [٣٦٨–٣٧٧] ٢٤٤
ثالثًا: مفاهيم حول تدبر القرآن وبعض قواعده: [٣٧٨–٣٨٨] ٢٤٨
رابعًا: الأمانة العلمية والتثبت من الأخبار: [٣٨٩–٣٩٠] ٢٥٣
خامسًا: مفاهيم حول الفتوى: [٣٩١–٣٩٦] ٢٥٣
سادسًا: مفاهيم حول تحقيق المصلحة والمقاصد الشرعية: [٣٩٧–٤٠٧] ٢٥٥
سابعًا: مفاهيم حول بعض القواعد الفقهية: [٤٠٨–٤٢٧] ٢٥٨
ثامنًا: مفاهيم حول لوازم الفقه في الدين: [٤٢٨–٤٤٠] ٢٦٥
١) مفاهيم في فقه الموازنات والأولويات: ٢٦٥
٢) مفاهيم في فقه المآلات: ٢٦٦
٣) مفاهيم في فقه الواقع: ٢٦٧
تاسعًا: مفاهيم إضافية حول لوازم الفقه في الدين: [٤٤١–٤٥٢] ٢٦٩
عاشرًا: مفاهيم حول المصطلحات في العلم والفقه: [٤٥٣–٤٨٦] ٢٧٣

حادي عشر: مفاهيم حول محاذير في طلب العلم: [٤٨٧-٥١٨] ٢٨٤
ثاني عشر: مفاهيم حول المناظرة: [٥١٩-٥٢٦] ٢٩٦
ثالث عشر: مفاهيم حول العلوم الدنيوية: [٥٢٧-٥٣٣] ٢٩٨
رابع عشر: مفاهيم حول محاربة أهل الباطل للعلم والعلماء: [٥٣٤-٥٣٨] ٣٠١

٤- مفاهيم في أعمال القلوب وأمراضها [٥٣٩ - ٦١٨] ٣٠٣-٣٤٩

أولا: مفاهيم عامة في أعمال القلوب: [٥٣٩-٥٤٤] ٣٠٥
ثانيًا: مفاهيم حول القلب السليم: [٥٤٥-٥٥٢] ٣٠٩
ثالثًا: مفاهيم حول بعض الأعمال القلبية: [٥٥٣-٥٩٢] ٣١٣
رابعًا: مفاهيم حول أمراض القلوب: [٥٩٣-٦١٨] ٣٣٥

٥- مفاهيم في الزهد والورع والسلوك إلى الله [٦١٩-٦٩٤] ٣٥١-٣٨٦

أولا: مفاهيم حول الزهد والورع: [٦١٩-٦٣٠] ٣٥٣
ثانيًا: مفاهيم حول السلوك إلى الله تعالى: [٦٣١-٦٩٤] ٣٥٦
١) حقيقة الدنيا والآخرة والعلاقة بينهما: ٣٥٦
٢) مفاهيم في المقصود بالسلوك إلى الله: ٣٦٠
٣) مفاهيم في الصوارف عن الطريق إلى الله والمحصنات الرادة إليه: ٣٦٤
٤) مفاهيم في وسائل السلوك إلى الله: ٣٧٠

٦- مفاهيم في الأخلاق والآداب [٦٩٥-٧٨٤] ٣٨٧-٤٢٨

أولا: مفاهيم حول مكارم الأخلاق: [٦٩٥-٧٣٩] ٣٨٩
ثانيًا: مفاهيم حول مساوئ الأخلاق: [٧٤٠-٧٨٤] ٤٠٨

٧- مفاهيم في التربية والأسرة [٧٨٥-٨٣٣] ٤٢٩-٤٥٨

أولاً: مفاهيم حول الغاية من التربية: [٧٨٥-٧٨٨] ٤٣١
ثانيًا: مفاهيم حول خصائص منهج التربية الإسلامية: [٧٨٩-٧٩١] ٤٣٢
ثالثًا: مفاهيم حول موضوعات التربية الإسلامية: [٧٩٢-٧٩٩] ٤٣٣

رابعًا: مفاهيم حول طبيعة المتربي: [٨٠٠-٨٠٤] ٤٣٨
خامسًا: مفاهيم حول المربي وخصائصه: [٨٠٥-٨١٠] ٤٤٠
سادسًا: مفاهيم حول طرق ووسائل وخصائص التربية: [٨١٠-٨٢٠] ٤٤٢
سابعًا: عوائق ومحاذير في التربية: [٨٢١-٨٢٤] ٤٤٧
ثامنًا: مفاهيم حول الزواج والأسرة: [٨٢٥-٨٣٣] ٤٥٠

٨ - مفاهيم في الدعوة [٨٣٤-٩٧١] ٤٥٩-٥٣٠

أولاً: مفاهيم حول خصائص الدين: [٨٣٤-٨٤٨] ٤٦١
ثانيًا: مفاهيم حول الدعوة لدين الله: طبيعتها وخصائصها: [٨٤٩-٨٧٤] ٤٦٧
ثالثًا: مفاهيم حول صفات الداعية: [٨٧٥-٨٨٩] ٤٧٦
رابعًا: مفاهيم حول فضل الدعوة ووجوبها وثمارها: [٨٩٠-٨٩٣] ٤٨٣
خامسًا: مفاهيم حول طرق ووسائل الدعوة: [٨٩٤-٩١٣] ٤٨٥
سادسًا: مفاهيم حول صراع الحق مع الباطل: [٩١٤-٩٥٤] ٤٩٣
سابعًا: مفاهيم حول النصر وعوامله وعوائقه: [٩٥٥-٩٧١] ٥١٨

٩ - مفاهيم في الجهاد [٩٧٢-٩٩٣] ٥٣١-٥٤٨

معنى الجهاد ٥٣٣
لا إكراه في الدين ٥٣٤
الجهاد يحقق سنة المدافعة بين الحق والباطل ٥٣٤
غايات الجهاد ٥٣٥
معنى الشهيد وسبب تسميته بذلك ٥٣٥
فضل الشهادة في سبيل الله ٥٣٦
انحسار الجهاد وأسبابه ٥٣٧
فضل الجهاد والمرابطة في سبيل الله ٥٣٧
حتمية الجهاد ومواجهة الأعداء ٥٣٨
قتال أئمة الكفر ومن هو قريب من دار الإسلام ٥٣٩

دار الحرب ودار الإسلام ٥٤٠
جهاد الدفع وجهاد الطلب ٥٤٠
كف اليد ٥٤٢
جهاد البيان ٥٤٢
التربية الجهادية والإعداد بمفهومه الشامل ٥٤٢
الإعداد الإيماني أو المعنوي للجهاد ٥٤٤
الإعداد المادي للجهاد (الإعداد على أرض الواقع) ٥٤٥
كيفية التعامل مع أخطاء المجاهدين ٥٤٧

١٠ - مفاهيم في السنن الإلهية [٩٩٤-١٠٥٠] ٥٤٩-٥٧٨

أولاً: مفاهيم عامة حول السنن الإلهية: [٩٩٤-١٠٠١] ٥٥١
ثانيًا: مفاهيم حول سنن اجتماعية مشتركة بين المؤمنين والكافرين: [١٠٠٢-١٠٣٢] . ٥٥٦
ثالثًا: سنن خاصة بالكافرين المكذبين والعصاة الفاسقين: [١٠٣٣-١٠٤٠] ٥٧١
رابعًا: مفاهيم حول سنن خاصة بالمؤمنين: [١٠٤١-١٠٥٠] ٥٧٥

١١ - مفاهيم في الفتن [١٠٥١-١٠٦٨] ٥٧٩-٥٩٢

أولاً: مفاهيم حول معنى الفتنة ومن تصيبهم: [١٠٥١-١٠٥٢] ٥٨١
ثانيًا: مفاهيم حول تنوع الفتن وصورها: [١٠٥٣-١٠٦٦] ٥٨٣
ثالثًا: مفاهيم حول أسباب الفتن ووسائل النجاة منها: [١٠٦٧-١٠٦٨] ٥٨٩

١٢ - مفاهيم في السياسة [١٠٦٩-١١٧٦] ٥٩٣-٦٥٨

أولا: مفاهيم حول السياسة الشرعية: [١٠٦٩-١٠٨٦] ٥٩٥
ثانيًا: مفاهيم حول حقوق الفرد والجماعة: [١٠٨٧-١٠٨٩] ٦٠٢
ثالثًا: مفاهيم حول مذاهب ومصطلحات سياسية معاصرة: [١٠٩٠-١١٠٤] ٦٠٤
رابعًا: مفاهيم حول العلمانية: [١١٠٥-١١١٦] ٦١١
خامسًا: مفاهيم حول مذاهب ومصطلحات سياسية أخرى: [١١١٧-١١٤٩] ٦١٧
سادسًا: مفاهيم حول السياسة الدولية: [١١٥٠ - ١١٧٦] ٦٣٦

١٣ - مفاهيم في الثقافة الإسلامية [١١٧٧-١٢٥٠] ٦٥٩-٧١٠
المقصود بالقافة الإسلامية ٦٦١
الفكر ومعانيه ٦٦١
الغزو الفكري ومظاهره ٦٦٢
الخلل في التفكير وأنواعه ٦٦٦
الخلل في ترتيب الأولويات ٦٧٤
دعوة تقارب الأديان والتسامح الديني وأهدافها ٦٧٦
الدعوة إلى الإنسانية ووسائلها وأهدافها ٦٧٩
الجزاء في الدنيا لآخرة ٦٨٢
العمل واختلاف مفهومه لدى المؤمنين عن الكفار ٦٨٣
فردية التبعة والجزاء ٦٨٤
الحضارة ومفهومها لدى كل من الكفار والمسلمين ٦٨٥
البيئة بنوعيها: النظيفة والملوثة ٦٨٦
خصائص الميزان الإلهي ٦٩٠
التكريم والإهانة وميزانهما ٦٩١
ميزان الوطنية والقومية ٦٩٢
ميزان العزة والذلة ٦٩٢
النور والتنوير الحق وتنوير أهل الباطل ٦٩٢
التجديد والتغيير ٦٩٣
الفرح والاستبشار الحق وعند أهل الجاهلية ٦٩٦
السعادة والشقاوة ٦٩٨
الجمال والحسن بين أهل الحق وأهل الجاهلية ٦٩٩
الربح والخسارة في الميزان الشرعي وميزان الجاهلية ٧٠١
الغنى والفقر في ميزان الشرع وموازين الجاهلية ٧٠٢
الأمن وأنواعه ٧٠٤

الفلسفة ٧٠٩
الحداثة ٧١٠
التنوير ٧١٠
العقلانية ٧١٠
الخاتمة ٧١١
فهرس الموضوعات ٧١٣

* * *